الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر - القاهرة

ورئيس جامعة الأزهر سابقًا

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم

دراسة بلاغية
نظرية - تطبيقية



مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة

ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

علاقة المطالع بالمقاصد
في القرآن الكريم
دراسة بلاغية
نظرية - تطبيقية
دكتور إبراهيم صلاح الهدهد
الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة
الأولى لمكتبة وهبة ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٦٩٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٨/٢١٨٧٣
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-488-0

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأى المؤلف وهو المسئول عنها وحده



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الهدهد ، إبراهيم صلاح .
علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم : دراسة بلاغية - نظرية - تطبيقية/إبراهيم صلاح الهدهد . - ط١ ، القاهرة :
مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٨
٦٩٦ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٠ ٤٨٨ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

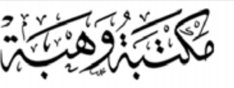
١ - القرآن - بلاغة .

أ- العنوان

٢٢٥







١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين الذي جعلنا من خَدَمَةِ كتابه العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وأسأل الله أن يجعلنا ممن اصطفاهم لورثة كتابه ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ (فاطر:٣٢) وإنا لنرجوه جل وعز أن يجعلنا من السابقين بالخيرات ، فعلى بابه وقفنا ، راجين فضله ورضوانه ، وأصلي وأسلم على سيدنا رسول الله ﷺ صلاة تُرفع بها درجاتنا وتُمحى بها خطيئاتنا ، ورضي اللهم عن أزواجه الأطهار، وصحابته الأخيار المهاجرين والأنصار .

وبعد

فإن خدمة الكتاب العزيز من أعظم القربات التي تدني من مقام الرضا، والقرآن إنما أعجز ببلاغته ، وقهر القوى والقدر ، وكانت العرب ـ لو استطاعت ـ لجاءت بمثل سورة من سوره ، فأسقطت المعجزة القاهرة ، لكنهم ـ وهم أرباب اللسان وسدنته ـ عجزوا عن ذلك فاختاروا إراقة الدماء على الإتيان بسورة من مثله ، وإن من أدق البلاغة وأعلاها البحث عن أنساب المعاني والوشائج والعلاقات والروابط بين الكلام بعضه بعضا .

وهذا الكتاب يشتغل في استكشاف الروابط بين مطالع السور ومقاصدها ، وينتهي إلى منهج هاد في دراسة هذا الباب ، وقد عرض كثيرا

من سور الذكر الحكيم بما يدل يقينا أنه ليس كلام بشر ، إذ من المحال أن يكون في مقدور بشر ـ أيا كان ـ مراعاة تلك الدقائق وهاتيك النفائس في البناء ، ولقد ابتلينا في زماننا ـ وهي شنشنة قديمة ـ بمن يقول بتاريخية النص القرآني ـ أي الوقوف به عند وقت تنزيله ، وكُتِبَت في ذلك بحوث من مثل : إهدار السياق الزمني في تأويلات الخطاب الديني ، وهو بحث لنصر حامد أبو زيد نشرته مجلة القاهرة ، وهي مما يُنْفَقُ عليها من مال المسلمين ، وهو كلام كله أوهام لأن أصله ليس في بني جلدتنا ، بل هو وافد شر وافد من الدرس الغربي الذي أهدر كل مقدس ، وبلغ الأمر في الغرب أن كُتِبَت دراسات كثيرة ، تنتهي إلى القول بأن التوراة والإنجيل من صنع البشر ، فأرادوا نقل هذه الخسية إلى بلادنا ، وإشاعة هذه الفاحشة بين شباب الأمة ، نهجهم في إرساء ثقافة القطيعة بين شباب الأمة وبين دينها وبين تراثها شأن الغرب ، وكل ذلك تحت لواء خادع هو الحداثة والتجديد ، وهو في حقيقة الأمر هدم وتبديد ، وإهدار لكل مقدس لينتهوا بالجيل المظلوم إلى أنه لاقداسة لشيء إلا للعقل ، وآخرون يقرأون القرآن قراءة حداثية المقصود منها أنسنة القرآن الكريم ، أي : اعتباره نصا إنسانيا ، ومن ثَمَّ فلا قداسة ، وهو إجرام يُرتكب في حق الأمة وشبابها ، وهو محو للطيب ، وغرس للخبيث ، وتعجب كل العجب حينما تقرأ كتابا لمهندس سماه : الكتاب والقرآن ، يفرق فيه بين الكتاب والقرآن وأن أحدهما مُحْكَم والآخر متشابه ، وتعجب كل العجب حينما تراه يحدد مناطق العورة من جسد المرأة بكل مايصدق عليه الجيب في اللغة بعد بيان أن الجيب ما كان مكونا من شقين ، لينتهي ذلكم الذي يطلق عليه الغرب

مفكرا إسلاميا إلى أن عورة المرأة ماتحت ثدييها ، وما بين إليتيها وما بين فخذيها وماعدا ذلك فليس بعورة ، ولولا خطورة الأمر ماذكرنا ما ذكرنا فإنه كلام يستحي العاقل من ذكره ، كما أنه إفراز خبيث لاينبغي سرده ، ولكني أذكر ما أذكر حَفْزًا لأهل العلم من شبابنا وأبنائنا أن يتيقظوا لحراسة دينهم ، وأن يجتهدوا ويجدوا في بيان جلال القرآن وجماله وإعجاز بلاغته .

وهذا الكتاب يجتهد في الكشف عن سبل التماسك في الكتاب العزيز ، وبيان أن السورة القرآنية هي تسوير لمقصد واحد شاطئاه المطلع والخاتمة، وينتقل بينهما المقصد الذي تتظاهر السورة بتراكيبها على بيانه ، ومن ثَمَّ صنفت مباحث الكتاب على أنماط مفتتحات السور ، وأكدت على أن مقصد السورة القرآنية يلقى به في صدر السورة ، ثم تتابع المعاني المحققة مقصد السورة في تناسب بديع النظم عجيب التأليف ، حتى تبلغ بالمعنى منتهاه ، وفي الباب سور كثيرة لم تمس ، ربما يهيئ الله في قادم الأزمان وقتا لمعالجة باقي سور الذكر الحكيم .

والله أسأله قبول عملي ، وأستغفر الله من خطأ لم أقصد إليه ، سائلا إياه أن يغفر زلاتي ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المقطم في : ٢٦ من صفر ١٤٤٠هـ

الموافق ٤ من نوفمبر ٢٠١٨م

الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

عفا الله عنه



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

أحمد الله ـ سبحانه ـ وأسأله ـ عز اسمه ـ المعونة ، وأبرأ إليه من الحول والقوة ، وأرغب إليه في أن يجعل كل ما نتصرف فيه منصرفا إلى ما يتصل برضاه ، ومصروفا عما يؤدي إلى سخطه ـ ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ (البقرة:٢٨٦) ﴿ **وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** ﴾ (الكهف:١٠) واستر زلاتنا ، واغفر خطيئاتنا ، وارزقنا الإخلاص في القول والعمل . وأصلي وأسلم على النبي الأمي ، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن كلام رب الناس حقيق بأن يخدم سعيا على الرأس كما قال ابن عاشور(١) ـ رحمه الله ـ ذلك الذي لا يزال قاطعا للأطماع وقاهرا للقوى والقدر حتى يرفع ، وهو صفة الله القديمة ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (النور:٣٥) ولا يزال مهتديا من التمس من هذا النور على قدر ما اقتبس منه ، قد انتهى البقاعي

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣٦/٣٠ .

ـ وهو من أعيان علماء الأمة ـ بعد تدبر أنساق السور والآي في الكتاب العزيز ، ومحاولة استكشاف علائق الأنساب بين السور والآي ـ انتهى ـ رحمه الله ـ إلى أن الله «جعله متعانق المقاطع والمطالع وأنزله رياضا محكمة المذاهب والمراجع»[1] وأن السورة كالشجرة النضيرة العالية ، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالبة ، المزينة بأنواع الزينة ، المنظومة بعد أنيق الورق ، بأفنان الدرر ، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر ، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها ، وشعبة ملتحمة بما بعدها ، وآخر السورة قد واصل أولها ، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها ، وعانق ابتداؤها ما قبلها ، فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغر البديعة النظم ، العجيبة الضم ، بلين تعاطف أفنانها وحسن تواصل ثمارها ، وأغصانها ، ولأجل اختلاف مقاصد السور ، تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك القصد[2] وذلك مما لا تناله يد المتناول ، ويقصر عن عليائها كل متطاول ـ كما قال رحمه الله .

ومن قبل نبه الشاطبي ـ رحمه الله ـ إلى أن (المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان ، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره ، بحسب القضية وما اقتضاه الحال منها ، لا ينظر في أولها دون آخرها ، ولا في آخرها دون أولها ، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد ، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره ، وإذ ذاك ،

---

(١) نظم الدرر ٢١/٢٤٨ .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١/١٥١، ١٥٢ .

يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرّق في النظر في أجزائه ، فلا يتوصل به إلى مراده)[1] .

وذلك التوجيه من أعيان علماء الأمة يجعلنا نبصر القرآن سياقا للسورة ، والسورة سياقا للآية ، والقرآن سياقا للقضية الواحدة ، وإن تفرقت في سور شتى ، وتأتي التراكيب جارية على مقتضى هذه السياقات ، ولكل سورة سياق اقتضى أسلوبا يستحيل التباسه بأسلوب جاء في سياق آخر ، نعم قد يتقاربان تقاربا شديدا إلى حد ما أطلق عليه العلماء مشتبه النظم ، إلا أن لكل آيه مزية فيما اشتبه نظمه جاءت هذه المزية متلائمة مع السياق الذي جرت فيه ، والكلمة في ذلك شأنها شأن الإنسان في التقارب إلى حد الإلباس . . . والاختصاص بسمات دقيقة تحدد كل فرد من أفراد الإنسان فلكلٍّ رحم أخرج منه ، ذلك إعجاز في الخلق ، والذي في الكتاب العزيز إعجاز في الكلمة والذي في الكتاب العزيز أقوى وأقهر لأنه نور الله جل في علاه .

هذا وقد أغرى هذه الدراسة ما مضى من أقوال الأئمة ، فاستشرفت إلى استبانة وجوه تعانق الأساليب في سور القرآن الكريم ، ومحاولة الكشف عن تواصل آي السورة بمطلعها ، وكيف نادى آخرها على أولـها ، مضت ـ يعلم الله ـ في مثابرة تطلب بيان حقيقة هذا الأمر في القرآن الكريم ، وتراث علماء الأمة ، وأعيان الأئمة بين عينيها ضارعة إلى مولاها أن يلهمها السداد ، وأن يجنبها الزلل بفضل منه تعالى ثم بما تهتدي به من مقالات الأسلاف .

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ٣/٣١٣ .

وكان من توفيق الله لي أن هداني إلى معالجة الكشف عن علاقة مطالع السور بآيها تحت عنوان : **علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية (نظرية ـ تطبيقية)** لنيل درجة العالمية «الدكتوراه» في البلاغة والنقد .

ومن فضل الله عليَّ أن وفقني إلى محاولة سابقة في القرآن الكريم عالجت فيها «**أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم**» نالت ـ بفضل منه تعالى ـ درجة التخصص في البلاغة والنقد ، وكنت قد هديت في دراستي بعض التشبيهات المتناظرة في المشبه إلى أن سر اختلاف المشبه به يكمن في مطالع السور ، وأن عناصر الإبانة عن المشبه الواحد تختلف باختلاف مطالع السور ، كتشبيهات انتشار الناس يوم القيامة في سور (المعارج والقمر والقارعة) وأن فروق التراكيب في التشبيهات التي اتحد طرفاها واختلفت صياغتها تأتي متلائمة مع المطلع ناظرة إليه ، كتشبيهي سرعة وقوع الساعة في سورتي (النحل والقمر) وتتجلى أهمية الموضوع بالبحث فيما يلي :

أولا : خلو مكتبة الدراسات القرآنية من كتاب يجمع كلام أهل العلم حول هذا الموضوع .

ثانيا : أن فقه العلاقة بين مطالع السور ومقاصدها يفضي إلى الفهم الصحيح لمقصود الشارع .

ثالثا : أن البحث في الكتاب العزيز خدمة لفهمه ، وذلك إلزام إسلامي عقدي .

وكان وراء اختيار هذا الموضوع بواعث عدة :

أولها : ولوع نفسي بالقرآن الكريم ودراسته إذ شرفني الله ـ عز وجل ـ بحفظ كتابه صبيا .

ثانيها : إغراء السلف بالبحث في هذا الموضوع كما مضى نقله .

ثالثها : اختصاص مطالع السور بحروف التهجي في تسع وعشرين سورة منه إشارة إلى أهمية المطالع البالغة في غير ما افتتح بحروف التهجي أيضا .

رابعها : محاولة تعليل اقتران المعاني في السورة الواحدة والكشف عن العلائق البيانية بينها .

خامسها : الرد على الطعن في سور القرآن ورميها بالتفكك .

سادسها : محاولة الوقوف على ما ذكره أهل العلم من أن لكل سورة وحدة تركيبية وروحا بلاغية .

سابعها : محاولة تعليل مقنع لمشتبه النظم وكشف فروق تراكيبه بآي السورة ومطلعها .

ثامنها : محاولة الكشف عن السر البلاغي في توزع قصص النبيين ، وقصة النبي الواحد في سور القرآن الكريم ، وكشف علاقة ذلك بآي السورة ومطلعها .

وقد سلكت هذه الدراسة في معالجة هذا الموضوع نهجا هو في مجمله كلي ينتفع بالتحليل حينا وبالموازنة أحيانا أخرى ، ويمكن إجمال خطواته فيما يلي :

أولا : قراءة السورة قراءة بحث عن العلاقة بين مطلعها وما جرى فيها من معان ، وقد تتكرر هذه القراءة مرات عديدة حسب توفيق الله جل في علاه .

ثانيا : الوقوف على الموضوعات المختصة بالسورة ، والنظر المستأني في تراكيبها وتلمس علاقتها بالمطلع ، وكذلك الشأن في الحلقات المختصة بالسورة من قصص النبيين .

ثالثا : في الموضوع الذي اشتركت فيه السورة مع غيرها من السور ، يوازن بين تراكيب السورة وأسلوبها في عرض الموضوع وأسلوب نظيرتها ، وتلمس علاقة ذلك بالمطلع وكذلك الشأن في الحلقات المتكررة من قصص النبيين .

رابعا : محاولة تحديد لمقصد السورة الأصلي ، واختباره بنسق الأساليب الماضية فيه واستكشاف سبل البيان عنه وعلاقاتها به ، وعلاقة كل ذلك بالمطلع .

خامسا : بعد الاجتهاد في النظر الذاتي في السورة ، وممارسة الخطوات السابقة يجتهد في النظر عن تفسير للظواهر الماضية في تراث الأسلاف ، والنظر في تراثهم ـ يرحمهم الله ـ قبل ممارسة الخطوات السابقة ـ يفضي إلى مضيعة في فقه تراثهم ، فهم قالوا كثيرا من ذلك إلا أن إدراكه يحتاج إلى حسن تأت ، وأبادر فأقول : ذلك ما انتفعت به حين سؤالي شيخنا العلامة محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ عن المراجع التي أنتفع بها في البحث في هذا الموضوع . فقال : كل تراث المسلمين مراجع ، والعبرة بحسن النظر ـ أحسن الله عاقبته ـ كما أحسن في نصح طلاب العلم .

سادسا : العودة بعد فقه التراث مرة أخرى في تفسير ظواهر السورة إلى معاناة الموازنة والتحليل ، ولا بد من توفر صدق النية في كل

ذلك ، وكل يعطى على قدر صدقه إذ هو يبدأ بفقه دلالات المفردات المختصة بالسورة التي تُعد معجمها ثم فقه التراكيب المختصة بالسورة أيضا ، ثم في أنساق الجمل والآي ـ والعنصر الذي يجمع الآي ، ثم أنساق العناصر التي تكونت منها السورة كل ذلك والسورة أمام عينيه والقرآن الكريم كله مثل صفحة معروضة في عقله .

وقد اقتضى نسق المصحف الشريف ، وأقوال علماء علوم القرآن ، وتقسيم البلاغيين للجملة العربية ، والمنهج السابق أن يخرج البحث على وجه يلائم هذه الجهات فجاء في **(مقدمة ـ وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة)** .

المقدمة : وهي لأهمية الموضوع بالبحث والدافع إليه وطريقة معالجته وتخطيطه .

التمهيد : ويكون لأمرين :

الأمر الأول : استقراء مقولات البلاغيين في براعة الاستهلال .

الأمر الثاني : عرض لبعض البحوث التي دارت حول استكشاف علاقة المطالع بالمقاصد في الشعر .

الباب الأول : وهو للأطر العامة للكشف عن العلاقات في تراث العلماء وتحته فصلان :

الفصل الأول : من معارف علوم القرآن وصلتها بموضوع الدراسة .

الفصل الثاني : فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم .

الباب الثاني : (علاقة المطالع بالمقاصد في السور المفتتحة بحروف التهجي) ومع أننا لم نهتم في البحث بتحقيق القول في الحروف المقطعة إلا لماما ، إلا أنَّا أفردنا بابا لمختارات من هذه السور ، لتفرد القرآن بهذه الافتتاحات ، وقامت الدراسة في هذا الباب على الاقتصار على كلام السلف ومحاولة توليده والانتفاع به ، والكشف عن جهات نظرهم ، وذلك يرجع إلى اختيار السور موضوع الدراسة من الطوال والمئين ، وتناولنا تحت هذا الباب إحدى عشرة سورة جعلناها فصولا (البقرة ـ آل عمران ـ الأعراف ـ يونس ـ هود ـ يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم ـ الحجر ـ مريم ـ طه) .

الباب الثالث : (السور المفتتحة بالجملة الخبرية وعلاقاتها بمقاصدها) وقد روعي فيه تقسيم علماء علوم القرآن لأنواع الافتتاح ، كما روعي في الاختيار الطوال والمئين والقصار وتحته فصول خمسة : –

الفصل الأول : (الافتتاح بالجملة الخبرية لفظا ومعنى) وتحته سور (الأنفال ـ التوبة ـ النحل ـ الأنبياء ـ المؤمنون ـ النور) .

الفصل الثاني : (الافتتاح بالثناء) وتحته سور (الأنعام ـ الإسراء ـ الكهف ـ الفرقان) .

الفصل الثالث : (الافتتاح بالدعاء في سورة المطففين) ، وقد وسَّعنا القول فيها بما يلائم المنهج الذي نعني بيانه ، وكذلك كل السور القصار التي وقع عليها الاختيار .

الفصل الرابع : (الافتتاح بالتعليل في سورة قريش) .

الفصل الخامس : (الافتتاح بالشرط في سورة الزلزلة) .

الباب الرابع : (السور المفتتحه بالجملة الإنشائية وعلاقاتها بمقاصدها). وتحته أربعة فصول .

الفصل الأول : (الافتتاح بالنداء في سورة النساء ـ المائدة ـ الحج) .

الفصل الثاني : (الافتتاح بالأمر في سور الإخلاص ـ الفلق ـ الناس) .

الفصل الثالث : (الافتتاح بالاستفهام في سورة الماعون) .

الفصل الرابع : (الافتتاح بالقسم في سورة والعاديات) .

الباب الخامس : (علاقة المطالع بالمقاصد دراسة نظرية) .

وهو محاولة لاستخلاص ضوابط في البحث ، انتهى البحث إليها ؛ لذا جاء وضعه في نهاية البحث ؛ لأنه ـ فيما أرى ـ أجلّ ما انتهت إليه هذه الدراسة ، وتحته فصلان .

الفصل الأول : المطلع : حددت فيه ضابطه ، ومقداره ، وتراكيبه وإشارتها إلى المقاصد .

الفصل الثاني : المقصد : حددت فيه ضابطه ، وبينت وسائل تحديده ، وحددت سبل البيان عن المقاصد ، ودور كل سبيل وصلته بالمطلع .

الخاتمة : أوجزت فيها نتائج البحث .

ثم فهرست للمصادر والمراجع ثم فهرست للموضوعات وبعد :

فأرجو أن أكون قد وفيت ببعض مِمَّا نويت ، وسؤلي عند الله ـ عز وجل ـ أن يتلقى هذا العمل بالقبول ، وأن ينير به بعد الممات قبري ، وأن

يستر زلاتي ، وألا يؤاخذني بما أنا أهله ، وأن يرزقني العلم مع العمل ، وأن يثيبنـي بفضله لا بعدله .

ويطيب لي من باعث عقدي أن أتقدم بخالص الشكر والعرفان بالجميل ، لأستاذي العلامة الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى رئيس قسم البلاغة والنقد في الكلية ، وكان من فضل الله عليَّ أن هيأ سيادته للإشراف على الموضوع ، فحظيت بشرف الصحبة ، ونفع التوجيه ، ولما كان طول الصحبة يعدي كما قالوا ، كان مما تعلمناه من فضيلته أن مدحه ـ لا سيما من طلابه ـ أكره شيء إلى نفسه ، وقد حباني برعايته مذ أن كنت طالبا بسنوات الدراسة بالكلية وكان يقسو أحيانا ويرحم حينا كما قال الأول :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَـنْ يَـكُ حَازِمًـا   فَلْيَقْسُ أَحْيَانًـا عَلَـى مَـنْ يَـرْحَمُ

ومن تمام نعمة الله عليَّ أن هيأ للإشراف على بحثي من بعد سفر فضيلته الأستاذ الدكتور محمد جلال الشيخ الذهبي ، وهو من خير الناس علما وورعا فيما أحسب ، وكانت لجنة المناقشة من عالمين جليلين ، الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد ، والأستاذ الدكتور إبراهيم طه أحمد الجعلي ـ رحمه الله ـ .

وأقدم خالص شكري وتقديري لعلماء البلاغة والنقد في الكلية وللأخوة الزملاء وكل من أسدى إليَّ نصحا والحمد لله أولا وآخرا .

القاهرة في : ٢٢ من شوال ١٤١٤هـ

الموافق ٤ من إبريل ١٩٩٤م

الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

عفا الله عنه

التمهيد

١- براعة الاسْتِهلال عندَ البلاغيين

٢- من تراث الباحثين عن علاقة المطالع بالمقاصد في الشعر

مدخل :

قال تعالى : في وصف كتابه العزيز ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٥) .

وقد اقتضى قول الله هذا على أهل العلم وجوب استكشاف خصائص هذا اللسان ، وإبراز مزاياه ، للرجوع ـ بعد فقه بيانه في الشعر ، وكلام أهل الطبع ـ إلى فقهه في كلام الله ـ تعالى ـ محاولة للوقوف على مظاهر الإعجاز ووجوه التحدي ، وشرع الله حلاله وحرامه .

عن هذه الغاية صدرت علوم العربية ، وكان علم البلاغة ـ لوجوب تفهمه علوم العربية وغيرها ـ هو الذي تعلق بهذه المهمة الشاقة ، فجاءت مسائله تتغيا الكشف عن أسرار الإعجاز ، وكان سبيلهم إلى هذه الغاية الكشف عن أسرار بلاغة اللسان في الشعر ، وكلام أهل الطبع ، ودونك الشيخ عبد القاهر يسمي كتابه (دلائل الإعجاز) ولا تجد فيه إلا بضع آيات ، وكان شغله في كتابيه ببيان جلال اللسان العربي في الشعر أوفر حظا ، إشارة منه ـ رحمه الله ـ إلى وجوب تمرُّس العقل على استكشاف أسرار بلاغة اللسان فيما يجوز فيه الخطأ والإصابة من القول ، ليعود إلى النظر في الكتاب العزيز ، وقد استحصد عوده .

والطريق إلى هذه الغاية الجليلة شديد الوعورة ، كثير المزالق ، وذلك لسعة هذا اللسان كما قال الشافعي : ـ رحمه الله ـ « ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي »[(١)].

وقد جاء الكتاب على هذا الوجه من السعة كما قال ـ رحمه الله .

ومن طرائق العرب في لسانها أنها « تبتدئ الشىء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره ، وتبتدئ الشىء يبين آخر لفظها منه عن أوله »[(٢)] .

واستكشاف وجوه الإبانة ، إنما يكون بتحديد علائق الأنساب بين أول كل قول وآخره ، وآخره وأوله ، وما جرى بينهما من معانٍ ، وهو ما سمى البلاغيون بعضه براعة الاستهلال ، وحسن الخاتمة ، وقد تناثر كلام العلماء عن هذا الباب في مصادر شتى .

وهذه المحاولة تجتهد في ضم مقاييس هذا الفن ـ براعة الاستهلال ـ في مؤلفات البلاغيين ، ومعالجات الباحثين عنه في نصوص الجاهليين ، ومعالجة المفسرين ، إيمانا بوجوب تعانق مجالي التقعيد والتحليل لإخصاب الدرس البلاغي .

أولا : براعة الاستهلال عند البلاغيين :

« الناس ـ كما قال شبيب بن شبة ـ موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه »[(٣)] ، وقد استتبع حديثهم في براعة الاستهلال الحديث عن

---

(١) الرسالة للشافعي ص٢٧ تحقيق : محمد كيلاني ، ط. ثانية ، مصطفى الحلبي ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) الرسالة للشافعي ص ٣٢ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ٦٢/١ .

حسن التخلص والخاتمة ـ ومجيد هذه الفنون من أهل البيان ذو حذق محكم قال القاضي الجرجاني (ت : ٣٦٦هـ) : «والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة ، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور ، وتستميلهم إلى الإصغاء»[١] .

ويعد ابن المعتز (ت : ٢٩٦ هـ) حسن الابتداءات من محاسن البديع[٢] ولم يذكرا لنا مقاييس هذا الحسن ، مع أن الجرجاني ـ من فحوى كلامه ـ يبين لنا أنه قلما يجيدها أهل البيان يقول : «ولم تكن الأوائل تخصها بفضل مراعاة ، وقد احتذى البحتري على مثالهم ، إلا في الاستهلال فإنه عني به فاتفقت له فيه محاسن»[٣] ، وهذا أمر يقتضينا نفض كلام الأوائل ومعايشته معايشة منشئه وبانيه . المهم أنه بين قلة اتفاق المحاسن في هذا الفن .

واتكأ كثير من البلاغيين على ما قرره الجرجاني في أمر الاستهلالات يدلنا على ذلك تتبع كلامهم ، ينقل أبو هلال وصية بعض الكُتَّاب فيقول : «أحسنوا معاشر الكُتَّاب الابتداءات ، فإنهن دلائل البيان»[٤] .

ثم كلام ابن طباطبا في وجوه محاسن المبادي ثم يقول : «وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء فقال : من يتفقد الابتداء والمقطع»[٥].

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص٤٨ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٢) البديع لابن المعتز ، ص ٧٥ .

(٣) الوساطة ص٤٨ ، وقد علل الدسوقي لقلة عنايتهم بقوله : «أي للسهولة وعدم التكلف لا لقصورهم وعدم معرفتهم بذلك» الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ٤/٥٤٥ .

(٤) الصناعتين ص ٤٨٩، والبديع لأسامة بن منقذ ص ٢٨٥ .

(٥) الصناعتين ص ٤٩٣ .

ولما كان شأن الاستهلال ـ كما قرروا وقضوا لمن اتفق له الحسن فيه بالحذق والأستاذية اتسع حديثهم عنه ، فابن طباطبا العلوي يشترط للشاعر أن « يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير به ، أو يستجفي من الكلام والمخاطبات . . . كذكر البكاء . . . لا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني ، وتستعمل هذه المعاني في المراثي . . . »[1] وهو تقرير منه لوجود العلاقة بين ما ابتدئ به الكلام ، وما قصد إليه ، بل قرر حقيقة أخرى ترجع إلى اشتباه النظم في القصيدة الواحدة ، فأحسن الشعر عنده ، ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره . . . بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة . . . فإذا كان الشعر على هذا المثيل سبق السامع إلى قوافيه ، قبل أن ينتهي إليها راويه »[2] .

وهذا أمر يقتضينا دراسة ما صحت روايته من شعر الجاهليين وخطبهم لوضع اليد على مواطن اشتباه النظم ، ووحدة القصيدة في صنعتها البيانية ، واستخراج علاقة ابتداء الكلام بغرضه ، ومراعاة هذا الفن لا تتأتى إلا لأحذق الشعراء ، كما بينا بكلام العلماء ، كذلك لا يهتدي إلى كشفها إلا الحُذّاق .

ويطلق ابن رشيق مسمى آخر على افتتاح القصيدة ، فيسميه المطلع ، ويذكر اختلاف الناس في هذا الاصطلاح ، فهم يقولون : « المطالع : أوائل الوصول ، وهذا القول هو الظاهر من فحوى الكلام ، وقال غيرهم . . . المطالع أوائل الأبيات . . . ومن الناس من يزعم أن المطلع والمقطع أول

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ص١٢٢، ١٢٣ .

(٢) المرجع نفسه ص١٢٤-١٢٧ .

القصيدة وآخرها ، وليس ذلك بشيء ... لأن القصيدة إنما لها أول واحد ، وآخر واحد ولا يكون لها أوائل وأواخر»[1] ورجح كلامه بما ذكره جهابذة النقاد .

وذلك المصطلح هو الذي ارتضيناه عنوانا لدراستنا ، لدلالته على العلاقة بين مطلع القصيدة وموضوعها ، دون المفتتح ، فهو من «طلعت الشمس والقمر والفجر والنجوم تطلع طلوعا ومطلَعا ومطلِعا» بالكسر وبالفتح «وقرئ قوله تعالى : ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ بالكسر وبالفتح ، قال الفراء : وأكثر القراء على مطلع (بالفتح) قال : وهو أقوى في قياس العربية ، لأن المطلَع بالفتح هو الطلوع ، والمطلِع (بالكسر) هو الموضع الذي تطلع منه ، إلا أن العرب تقول : طلعت الشمس مطلِعا فيكسرون ، وهم يريدون المصدر فجعلوا الكسر علامة للاسم ، والفتح علامة للمصدر . . . والمطَع والمطلِع أيضا : موضع طلوعها»[2] كأن مطالع القصائد والسور ، هي النور الكاشف عن بيان القصيدة وبيان السورة ، كما أن نور الشمس والقمر والنجوم يعم ويكشف ما يطلع عليه من الكون ، والعلاقة في هذا المعنى الحسي واضحة ، وفي سور الذكر الحكيم واضحة للراسخين فكذا الأمر في بيان أهل الطبع . . . ومن خلال معالجتنا سور القرآن الكريم ، تبين لنا أن مطلع السورة هو نورها الكاشف عن طرائق نظمها ، ولما كان

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢١٥/١، ٢١٦، ويراجع معاهد التنصيص للعباسي فإنه يسمي هذا الباب حسن الابتداء وبراعة المطلع وبراعة الاستهلال ٢٢٤/٤، ٢٢٥، والسيوطي يذكر أن براعة الاستهلال نوع لطيف أخص منه ، شرح عقود الجمان ص١٧٢ وما بعدها والإتقان ١٣٦/٢ ويطلق عليه الشيخ الدمنهوري المطلع والإلماع وبراعة الاستهلال حلية اللب المصون ص١٧٤ .

(٢) اللسان مادة (طلع) ٢٦٨٩/٣ .

تجويد المطلع صنعة أهل الحذق بالشعر وطرائقه . ذكروا أنه قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتُهر ، فقال : لأني أقللت الحز ، وطبقت المفصل ، وأصبت مقاتل الكلام ، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج إلى المدح والهجاء[1] .

وقد استجادوا من الابتداءات ما كان دالا على المعنى المقصود قال ابن سنان : « وأما إذا ابتدئ بالمديح أو بغيره من الأغراض ، فالأحسن أن يكون الابتداء دالا على المعنى المقصود »[2] وقد اشترط ابن الأثير لكل كتاب بلاغي ذي شأن ، أن يستوفي أركانا خمسة **أولها** : « أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة ، فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع . . . **ثانيها** : أن يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقا من المعنى الذي بني عليه الكتاب وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر ، أو الرسائل دالا على المعنى المقصود . . . وفائدته أن يُعَرِّفَ من مبدأ الكلام بالمراد به . . .

وإنما خصت الابتداءات بالاختيار ، لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام فإذا كان الابتدء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم كالتحميدات... »[3].

ويدخل ابن أبي الأصبع ـ الذي وقف كتابه لبديع القرآن ـ ابتداءات السور في حسن الابتداءات ، كابتداءات القصائد[4]، ثم قال في موضع آخر:

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢١٧/١، ٢١٨ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص٢٧٠ .

(٣) المثل السائر لابن الأثير ٩٦/١ وما بعدها .

(٤) بديع القرآن لابن أبي الأصبع ص٦٤ .



«وقد فرع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال ، وخصوا بها ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله»[1] ، وقد خصوا براعة الاستهلال بما تضمن معنى سيق الكلام لأجله[2] وجعلوه نوعا أخص من حسن الابتداء .

وينقلنا حازم القرطاجني نقلة هائلة في أمر مطالع القصائد تضاف إلى ما قرره ابن طباطبا بقوله : «وتحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة ، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة ، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها ، إن كان بنسبة من ذلك ، وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعده ، إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها . . . ومِلاَك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم من جميع جهاته ، فإذا كان مقصده الفخر ، كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ، ما يكون فيه بهاء وتفخيم ، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك ، وكذلك سائر المقاصد ، فإن طريقة البلاغة فيها ، أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث ذكر»[3] ، والقُرْطَاجَنِّي يبسط ما قرره العلوي من اشتباه النظم في القصيدة الواحدة ، ويكشف لنا اتساع دائرة المناسبات بين

---

(١) تحرير التحبير ، ص١٦٨ .

(٢) المصباح لبدر الدين بن مالك ، ص١٢٤، والتبيان للطيبي ص٢٦٨، وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب دكتوراه تحت رقم ٢٢٤٩ بكلية اللغة العربية بالقاهرة ٣٣١/١، والإشارات والتنبيهات ص٣٢١، ٣٢٢، والإيضاح للقزويني ص٢٤٢، وأنوار الربيع ص٢١٥، وحسن الصنيع ص٢١٥، وبغية الإيضاح ١٥١/٤ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ص ٣٠٩، ٣١٠ .

المطالع والمقاصد في الألفاظ والنظم والمعاني والأساليب وضرب لنا مثالين عَامَّين ، إلا أن الباحثين في هذا الباب في نصوص الجاهليين ، لم يتأثروا خطاه ، وهذا أمر يرجع إلى خطر هذا الدرس في بيان الناس ، ناهيك بكلام الله .

فهذا الفن كما قال صاحب الطراز : «ركن من أركان البلاغة ، وحقيقة آئلة إلى أنه ينبغي لكل من تصدى لمقصد من المقاصد ، وأراد شرحه بكلام ، أن يكون مفتتح كلامه ملائما لذلك المقصد دالا عليه ، فما هذا حاله يجب مراعاته في النظم والنثر جميعا . . . فحيث يكون المطلع جاريا على ما ذكرناه فهو من الافتتاح الحسن ، وحيث يكون جاريا على عكسه فهو معدود من القبيح»[1] ثم ضرب مثالا بسورة الفتح .

وفي الفوائد المنسوب لابن القيم باب (حسن المطالع والمبادئ ، ويقال فيه حسن الافتتاح ، أن المطالع في القرآن الكريم على وجهين : جلي كقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . . . وأكثر مطالع سور القرآن على هذا النمط ، وخفي كقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾ . . . .»[2] وإضافته في تقسيم مطالع الذكر الحكيم إضافة جيدة ، وقد عقد فصلا آخر لبراعة الاستهلال[3] ، منبها إلى أن القرآن ، الكريم يشتمل على كثير منه .

والظاهر أنهم يستجيدون مطالع الذكر الحكيم لاشتمالها على فنون من القول من أدعية ووصايا وغير ذلك ، لذا عدوا غيرها من الخفي ، تلك دائرة شراح التلخيص تضيق مفهوم براعة الاستهلال ، بعدما وسع دائرة بحثه ، وبين خطره ابن طباطبا ، وابن رشيق والقرطاجني .

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٢/٢٦٦ وما بعدها .
(٢) الفوائد لابن النقيب يسمى مقدمة في التفسير ص١٣٧ .
(٣) الفوائد لابن النقيب ص١٣٩ .

تلك كلمة الخطيب في هذا الفن «وأحسنه ما ناسب المقصود»[(١)] علق عليها سعد الدين «بأن يكون فيه إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله ، ليكون المبتدأ مشعرا بالمقصود والانتهاء ناظرا في الابتداء»[(٢)] ثم يخص فواتح سور القرآن وخواتمها بالحديث فيقول : «فإذا نظرت إلى فواتح السور ... رأيت من البلاغة والتفنن وأنواع الإشارة ما يقصر على كنه وصفه العبارة ، وإذا نظرت إلى خواتمها وجدتها في غاية الحسن ونهاية الكمال ، لكونها بين أدعية ووصايا ، ولما كان في هذا النوع خفاء بالنسبة إلى بعض الأذهان ـ حيث افتتحت بعض السور بذكر الأهوال والأفزاع . . . وكذا خواتم بعض السور . . . أشار (أي الخطيب) إلى أن هذا إنما يظهر عند التأمل والتذكر للأحكام المذكورة في علمي المعاني والبيان . . . وتفاصيل ذلك مما لا تفي به الدفاتر ، بل لا يمكن الاطلاع على كنهها إلا لعلام الغيوب»[(٣)].

وإحالة الخطيب ـ في تفسير ما خفي ـ على علوم البلاغة الثلاثة ، إحالة غامضة فهل التقديم والتأخير والتشبيه وغير ذلك يرجع إلى هيئة تراكيب المطالع لعله قصد هذا لما قرره من صعوبة تفاصيل هذا الباب ، ولئن كان المراد كذلك ، فتلك غايتنا التي نبحث عنها في سور الذكر الحكيم .

وكان وجود هذا الفن في خاتمة الحديث عن علوم البلاغة ، وفي ذيل مؤلفاتها مثارا للطعن عليه ، تأمل تعليل ابن يعقوب لجعلهم هذا الفن في

---

(١) الإيضاح ١٥١/٤ والعبارة وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود .

(٢) المطول ص ٤٧٨ .

(٣) المطول ص٤٨١ وهو يقصد البديع أيضا لقوله بعد ذلك «وهذا معنى قوله (يظهر ذلك . . .) من الأصول المذكورة في الفنون الثلاثة يراجع الطبعة للمختصر ضمن الشروح ٥٤٦/٤ .

الخاتمة يقول : «وإنما جعلناه من الخاتمة ، لأنه إنما اشتمل على ما هو من الحسن غير الذاتي كما في الخاتمة» ، ومن عجب ـ بعدما ذكره ـ أن يقرر «أن المناسبة تحصل باشتمال الابتداء على ما يشعر في الجملة بما سيق الكلام من أجله» فكيف يكون مشعرا بالمقصود ، ثم يكون الحسن فيه غير ذاتي ، وقد بين بعد ذلك أنواعا من فواتح السور وذكر أنها «مما وقع موقعه ، وأصاب محزه . . . بحيث لم يحد عما يناسبه بوجه» وضرب مثلا ببراءة فاتحة «سورة براءة لما نزلت للمنابذة إلى الكفار ومقاطعتهم ، بدئت بما يناسب ذلك من الأمر بقتالهم . . . فهذه ألفاظ هي النهاية في الحسن ، ومعان هي القصوى في المطابقة»[1] . . . على أية حال فالجهود آنئذ كانت مستهلكة في تحرير قواعد البلاغة ، واختصارها وشرحها وتقريرها ، وهو أمر جيد في ضبط مسائل العلوم ، وتحديد المفاهيم .

ثم جاء بعد ذلك أصحاب البديعيات فجعلوا براعة الاستهلال أول فنون البديع ، واستهلوا بديعياتهم بها ، كابن حجة الحموي والسيوطي ، وعائشة الباعونية وعبد الرحمن الحميدي ، وشمس الدين الحموي وغيرهم[2] ، وكان البلاغيون قد جنوا على هذا الفن إذ جعلوه ذيلا لمؤلفاتهم ، على غير الوضع الطبعي للنص ، وعلى غير ما ذكر العلماء من أهمية المطلع ، ونخلص إلى أن البلاغيين قد اشترطوا في المطلع أمورا مجملها ما يلي :

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤/٥٣٣، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧ .

(٢) يراجع في ذلك كتاب الأستاذ الدكتور أحمد موسى ، الصبغ البديعي في اللغة العربية ، دار الكتاب العربي ١٣٨٨هـ .



(١) أن يجتهد فيه عما يتطير منه إذا كان الكلام مدحا ، وذلك وارد في بيان الناس غير موصول بموضوعنا .

(٢) أن يكون مناسبا لمضمون القصيدة ، وذلك هو الحذق عندهم ، ورأس التجويد .

(٣) أن يكون حَسَنَ السبك صحيح المعنى (وهو شرط في كل الكلام).

(٤) أن يتشابه أول القصيدة وآخرها نسجا ونظما وفصاحة وهو شديد الصلة بموضوعنا،وهو كما قال أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى:

«أن يكون الانتهاء ناظرا في الابتداء ، وهي علاقة واضحة وصريحة تعني أن تكون السورة ذات ماء واحد ونسيج واحد ، يتشابه كل جزء مع ما يليه»[1] .

ثانيا : من تراث الباحثين في بيان العلاقات في الشعر :

كانت طبيعة البناء الفني لقصائد الجاهليين مثاراً لطعن بعض المعاصرين في نصوصهم ، لأنهم كانوا يستهلون قصائدهم ببكاء الأطلال وبالغزل ، وما إلى ذلك ، ثم يخلصون بعد هذا التقديم لأغراضهم ، فرميت قصائدهم بالتفكك ، وانقطاع التناسب بين ما ابتدئ به الكلام وما أخذ فيه .

وكان افتتاح القصائد بموضوعات تخالف ـ ظاهرا ـ موضوعها الأصلي داعية لأن يضرب الباحثون في نصوص الجاهليين ، يذبون عنها ، ويبعدونها مما رميت به ، بكشفهم عن المناسبات بين المقدمات والموضوعات ، ومن ذلك ما كتبه الدكتور يوسف بكار في بيان هيكل

---

(١) من تعليقات الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى في مراجعته للبحث .

القصيدة حيث تناول المطلع ، والمطلع عنده هو الفكرة الأولى أو المقطع الأول ، وليس البيت الأول ، يذكر معايير القدماء في المطلع مما لا يخرج عما ذكرناه ، مطبقا ذلك على بعض القدماء بكلام مجمل ، وعلى بعض المحدثين[1] .

ومن ذلك أيضا ما كتبه الدكتور محمد النويهي وما قرره من ضرورة «انسجام الأجزاء التي ركب منها الشاعر بناءه العام للقصيدة ، ونمو هذه الأجزاء ، وتطور بعضها من بعض ، بحيث تكون جميعا بنية موحدة متكاملة»[2] . والمعين على تحقيق ذلك عنده أمران (وحدة الباعث ، ووحدة الغاية) . . . وهو حديث في العلاقات بين موضوعات القصيدة ، وقد كثر الباحثون عن الوحدة في قصائد الشعر الجاهلي ، وقد خص بعض الباحثين مقدمات القصائد ببحوث حاولوا فيها إبراز علاقاتها بموضوعات القصائد .

من ذلك ما كتبه الدكتور حسين عطوان في بحث بعنوان (مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي) ، وهو يصنف مقدمات قصائد الجاهليين إلى مقدمات طللية ، وغزلية ، الشباب والشيب ، ووصف الطيف ، وتلك مقدمات مشتهرة في أشعار الجاهليين ، ومن غير المشتهر مقدمات وصف الظعن والفروسية ووصف الليل[3]ـ وينكر ما فسر به المستشرق

---

(١) يراجع كتاب بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث) ص٢٠٣ وما بعدها الدكتور يوسف بكار دار الأندلس .

(٢) ينظر : كتاب الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ٤٣٧/٢ ، الدار القومية للطباعة والنشر .

(٣) ينظر : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ص ١١٤ .

الألماني (فالتربراونه) وما نسخه عنه الدكتور عز الدين إسماعيل ـ مقدمات القصائد وما ذكراه من «أن قطع النسيب التي تطالعنا في صدور القصائد الجاهلية ، ليست وسيلة إلى غاية أبعد منها ، وإنما هي غاية في نفسها» ومقدمة النسيب في القصائد الجاهلية بصفة خاصة «كانت تعبيرا عن أزمة الإنسان في ذلك العصر عن موقفه من الكون» لأن الشاعر هو لسان نفسه وقبيلته .

ولم يرتض الدكتور عطوان هذا التوزع ، كما لم يرتض أن تكون القصيدة مبعثرة العواطف والذي ارتضاه أن يوفر الشاعر «الانسجام التام بين المقدمة والموضوع من حيث الجو النفسي»[١]، فالعلاقة علاقة نفسية .

وممن تحدث في العلاقات الأستاذ أحمد الشايب فالخطابة ذات عناصر معنوية ثلاثة عنده (المقدمة ـ الغرض ـ الختام) «ولابد أن تكون (أى المقدمة) موجزة جذابة متصلة بالموضوع كهذه المقدمة من خطبة علي ابن أبى طالب لما بلغه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار ، وقتلوا عاملا له : أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه»[٢].

وقد أقام الدكتور عبد الحليم حفنى كتابا لغرض بيان العلاقات بين المطالع والمقاصد في الشعر (**مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية**) وقد اتخذ المنهج النفسي وسيلة ، واطرد له ذلك في بعض قصائد الجاهليين ، وهو يحدد مفهوم مصطلح المطلع ، ويرد جميع الآراء ، ثم يقرر أن المطلع «هو العنصر الأول : من القصيدة ، وليس البيت الأول ، لأنه جزء من العنصر ، والحكم على أي جزء دون مراعاة للكل المكمل له

---

(١) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ص٢١٠، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٢.

(٢) الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب ص١١٦ .

حكم مبتور ناقص» وهو يتناول المطلع باعتباره «إثارة لنفسية الشاعر إزاء موضوع القصيدة أو مناسبتها»[1] .

ثم يقرر أن «الاتجاه السائد لدى النقاد والباحثين قدماء ومحدثين ، هو أن المطلع ـ مع أهميته الكبيرة في القصيدة ـ إلا أنه لا يخرج عن نطاق غرض القصيدة ، ومضمونها ، ليس من ناحية الموضوع وإنما من ناحية الدلالة النفسية ، فالشاعر الذي يمدح يكون هدفه الواضح كسب رضا الممدوح ، وما يترتب على هذا الرضا فالمطلع داخل في هذا الإطار ، بمعنى أن الشاعر إنما يهدف به إلى فتح شهية الممدوح لسماع القصيدة والانفعال بها»[2] .

وهذا قول متخالف مع ما قرره البلاغيون ، فإنهم يعنون ـ مع الوحدة النفسية ـ الوحدة التركيبية كما قرر ذلك ابن طباطبا وحازم القرطاجني[3] المهم أن كل ما مضى معالجات تصطنع المنهج النفسي ، وهو مع ـ استقامته ـ في نصوص البشر ، إلا أن اصطناعه في كلام الله فيه كثير من الخطر ، إلا إذا لحظنا في اصطناعه المخاطب وأحواله .

وباحث آخر يلمح علاقة بين المطالع والمقاصد يقول : «ولنا أن نعد من براعة الاستهلال هذا الغزل الذي يقع في مفتتح القصائد إذا كان الجو المخيم عليه هو الجو نفسه المخيم على القصيدة الأصلية ، والواقع أن الشاعر الذي يسيطر عليه غرض خاص يخيم عليه جو يناسب هذا الغرض ، وحينئذ يكون الغزل الذي في مفتتح القصيدة مسيطرا على هذا الجو ،

---

(١) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ص١٥، ٤٩ .

(٢) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ص٥٠ .

(٣) ينظر : براعة الاستهلال عند البلاغيين من هذا البحث ص ١٨ .

فيكون الغزل فرحا ، إن كانت القصيدة فرحة ، وحزينا إن كانت حزينة ، ومفتخرا إن كانت فخرا... »[1] وهي علاقة نفسية أيضا .

وباحث آخر وقف بحثه لـ (براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور) يقول في شأن المقدمات : « ما المقدمة سوى هذه الابتسامة على فمك ، تهيئة لموضوع ما ، تتلون بتلونه ، لتحمل في طياتها معاني ما شرع يتحدث فيه ، وتكشف عن موضوعه طبيعته ، إنها براعة الاستهلال ، ومن ثَمَّ تجدها مدحا وهجاء ورثاء إنها الابتسامة التي تتسع لكل فنون التعبير وخلجات النفس »[2] ، ثم فسر بعد ذلك أسماء المحبوبات التي تفتتح بها القصائد بأنها رموز تشير إلى المقصود ، مبينا المعنى اللغوي لفاطمة وسعاد وليلى وغيرهن ، وارتباط معاني هذه الأسماء بموضوع القصيدة ، متخذا من تعدد أسماء المحبوبات للشاعر الواحد دليلا لتفسير هذه الظاهرة مطبقا ذلك على بعض القصائد محاولا ترسيخ هذا المعنى في شعر الجاهليين ، تمهيدا لتطبيقه على ما افتتحت به سور الذكر الحكيم من الحروف المقطعة ، وهو في كل ذلك يصطنع المذهب الرمزي .

وقد حاول الدكتور عبده زايد بيان العلاقة بين مقدمة قصيدة وموضوعها في بحث بعنوان (معلقة زهير في ضوء نظرية النظم) . . . وقد استغرقت مقدمة القصيدة عنده خمسة عشر بيتا قال بعدها : « وإن هذه المقدمة وثيقة الصلة بما بعدها من حيث الصلح والسلم ومدح هرم والحارث المقدمة هنا تغرف من نفس المنبع الذي تغرف منه بقية أجزاء القصيدة »[3] .

---

(١) أسس النقد الأدبي ص٣١٠ دكتور أحمد بدوي .

(٢) براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور ص٢٤ محمد بدرى عبد الجليل .

(٣) معلقة زهير في ضوء نظرية النظم ص٣٩، ٤٠ دكتور أحمد محمد علي ، دار الحديث .

وهو يرجع بعض الروايات لارتباطها بموضوع القصيدة كما في البيت :

أَلاَ أَبْلِــغ الأَحْــلاَفَ عَنِّــي رِسَــالَةً وذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَــمْتُمُ كُــلّ مُقْسَــمِ

ويروى :

فَمَــــنْ مُبْلِــــغُ الأَحْــــلاَفَ ....

وعلق بقوله : « والذي يلاحظ هنا أنه لم يتوجه بالخطاب مباشرة إلى الأحلاف وذبيان ، إما لأنهم غائبون عن المجلس أصلا ، وإما لأنه لا يريد أن يتوجه لهم بالخطاب مباشرة لسبب من الأسباب . وفي الرواية الأولى نلمح خيطا يصل بين مقدمة القصيدة ، وبين موضوعها إذا سلم لنا أن خليله هو الذي طلب منه هناك ، وطلب منه هنا »(١) .

وذلك في إطار ما قرره من أن غرض القصيدة العام هو « الترغيب في السلم والتنفير من الحرب ، والتحذير من عواقبها ، وفي داخل هذا الإطار الكلي توزعت أجزاء القصيدة توزعا ينحو نحو التوحد المنسجم ولا ينحو نحو الاستقلال المتنافر » « وقد لحظ في ضوء ما قرره علة افتتاح القصيدة (بأم أوفى) تلك المرأة التي لم يرد لها ذكر في شعر زهير إلا مرتين هذه إحداهما ، وهي التي لم تحفظ له الود ، فهناك صلة بين الافتتاح بها ، وبين الحرب الضروس التي نشبت بين عبس وذبيان « ولم يكن هناك أصلح منها لهذا الافتتاح من الأسماء النسائية التي ترددت في شعره . . . زهير إذن لم يكن يكتب مقدمة تقليدية للقصيدة ، وإنما كان يكتب مقدمة ، هي جزء حيوي من القصيدة ، مقدمة تنهل من نفس المعين الذي تنهل منه باقي

(١) معلقة زهير في ضوء نظرية النظم ص٦٤ .

أجزاء القصيدة مقدمة تقوم بدور في القصيدة لا يقل عن دور أى جزء آخر من أجزائها »[1] .

والباحث ينحت في صخر كما ترى ، وذلك لوعورة البحث في هذا الباب الذي لم تُطرَّقْ طرقُه ، ومما مضى قد تبين لنا أن مجمل البحوث التي تحاول استخراج العلاقات بين مطالع القول ومقاصده ، تعتمد المنهج النفسي حينا ، والمنهج الرمزي حينا آخر ، وجاء كلام الباحثين في هذا الباب غائما أما المسألة في كلام الله فعلى وجه آخر .

وقد اتخذ هذا الباب على يد أستاذنا الدكتور أبي موسى أطوارا بدأت بإغرائه أهل العلم بنقل معارف علوم القرآن إلى حقل الشعر ، وكان مما أغرى بنقله : علم المناسبات ، وجاء ذلك في تعليقه على قول أبي القاسم المشدالي المغربي في وضعه القاعدة الكلية لعلم المناسبات[2] بقوله : « وهذا النص الذي شرحته فيه إشارة جيدة هي دراسة العلاقة بين مداخل المقاصد والمقاصد نفسها ، يعني مقدمات القصائد وموضوعات القصائد ، وهذا باب من غوامض الشعر »[3] ، وهو يقصد علاقة الأسلوب ونسيج المعنى بين المطالع والمقاصد ، وقد عرض بإيجاز لقصيدة الأعشى التي مطلعها :

وَدِّعْ هريــــرةَ إِنَّ الرَّكْـــبَ مُرْتَحِـــلُ وَهَلْ تُطِيـــقُ وَدَاعًـــا أَيُّهَـــا الرَّجُــلُ

غَرَّاءُ فَرْعَـــاءُ مَصْـــقُولٌ عَوَارِضُـــهَا تَمْشِي الهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ

(١) معلقة زهير في ضوء نظرية النظم ص١٣٣ وما بعدها .

(٢) يراجع نص أبي القاسم في نظم الدرر ص١٨٨ ، والبلاغة القرآنية ص ١٥ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ص١٥، ١٦ ط . ثانية ، مكتبة وهبة .

وكانت صورة هذه المشية عنده تشكل مخالفة ونتوءا بين جاراتها فنبهه الشاعر بهذه الصورة إلى استكشاف مناسبة بينها وبين صورة وقعت بعد ثلاثة وأربعين بيتا ، وقد ذكر أن الأعشى يربط الصورة بالغرض الذي عقد عليه قصيدته وذلك في قوله :

عُلِّقْتُهَـــا عَرَضًـــا وَعُلِّقَـــتْ رَجُـــلاً غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَـــا الرَّجُـــلُ

إلى قوله :

فَكُلُّنَـــا مُغْـــرَمٌ يَهْـــذِي بِصَـــاحِبِهِ نَـــاءٍ وَدَانٍ وَمَحْبُـــولٌ وَمُحْتَبَـــلُ

وقد عقد الصورة هذه بالمطلع بكلمتين هي (محبول ومحتبل) وقد وقع بعد ذلك هجاؤه يزيد بني شيبان في وصف مسعاه بالوقيعة بين الأقوام ثم قال : (وهذا ما نراه أصلا لقوله هناك : كما يمشي الوجى الوحل) .

ثم عرض لقصيدة علقمة :

طَحَابِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَـــانِ طَـــرُوبُ

ثم يقول : «وإشارات الشعر ورموزه أغمض من هذا ، ولا تغفل عن مقصودنا وهو باختصار إشارات المطالع إلى المقاصد»[1] وهي دراسة قائمة على الاختصار الشديد لاهتمامها بفتح آفاق البحث البلاغي على نافذة علوم القرآن ، واتخذ هذا الفن طورا آخر في تناوله البناء اللغوي لمعلقة الأعشى :

مَـــا بُكَـــاءُ الْكَـــبِيرِ بِـــالأَطْلَالِ

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، ص٢١ وما بعدها .

يقول : « وقد افتتح الشاعر القصيدة بقوله : ما بكاء الكبير . . . وهذا الافتتاح يرمي في صميم مغزى القصيدة ، لأن الشاعر أفزعه ما رأى من حال قومه حين رجع فوجد الحي مباحا ، ووجد الأسود اللخمي الذي خاطبه بهذه القصيدة مادحا قد استباح قومه »[1] .

ثم مضى يطرِّق هذا الباب ببيانه دقائق النظم وتظاهرها على موضوع القصيدة ، وبيان معاقد الكلام في القصيدة ثم قال : « وأول ما يبدو في القصيدة هو قوة التلاحم مع ليونة اللغة وملاستها ، وترى القصيدة تمتد بصورة حية ، كأنها كائن حي ينمو نموا طبيعيا يطرد في نسق ونظام ، يمهد أوله لثانيه بل ينبثق بعضه من بعض في ترابط محكم ، فالجملة ليس لها أول تراه معزولا عن سابقه ، وليس لها آخر تراه معزولا عن لاحقه »[2] .

ثم تناول القصيدة ذاتها في دراسة أخرى (الصورة البيانية في معلقة الأعشى) قال فيها : « وللأعشى فنون ومذاهب في افتتاح القصائد وذكر الصاحبة والديار تحتاج إلى دراسة مفردة تربط كل مطلع بما جاء في القصيدة من صور ومعان ومقاصد ، وكان الأعشى ذا قدرة متميزة في بث مقصوده من القصيدة في ذكر الصاحبة وحديثها ، وذكر الصبوة وشجونها »[3] ، وطابع هذه القصيدة في ذكر الصاحبة لم يخالط التشبيهات

---

(١) البناء اللغوي لمعلقة الأعشى ـ بحث نشر بعد في كتاب دراسات في البلاغة والشعر .

(٢) السابق ص٣١ .

(٣) الصورة البيانية في معلقة الأعشى ص٣ بحث نشر بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد السابع سنة ١٩٨٩م .

التي ذكر فيها صاحبته باللذة والمتعة ، كصنيعه في بقية تشبيهاته ، وذلك ظاهر من المطلع ، فقد أنكر البكاء ، وذكر الصاحبة ، ثم انصرف بسرعة وبقطع تناسبا مع موضوع القصيدة ، المعقودة لمدح الأسود اللخمي لاسترداد قومه من يده ، فلم يكن المناسب اشتغاله بالصبوة شأنه في قصائده الأخرى[1] ، وهكذا يمضي الشيخ في مثابرة لتطريق هذا الباب ، لأن استكشاف علائق الأنساب بين لغة القصيدة وبين مطلعها وبين صورها وبين المطلع باب لطيف ودقيق المسلك ، وكان الذي فتق له هذا الباب معارف علوم القرآن ، والبحث بعد عاكف على تراث الأمة يستخرج منه طريقة العلماء في استكشاف العلائق في سور الذكر الحكيم بين مطالع السور ومقاصدها .

* * *

(١) الصورة البيانية في معلقة الأعشى ص٤ وما بعدها .

الباب الأول

الأطر العامة للكشف
عن العلاقات في تراث العلماء

- الفصل الأول : من معارف علوم القرآن وصلتها بموضوع الدراسة

  أولاً : السور مناط التحدي .

  ثانيًا : وحدة الغرض في السورة أهم أسس العلاقات .

  ثالثًا : علم المناسبات وصلته بموضوع الدراسة .

  رابعًا : كلامهم في الحروف المقطعة وصلته بالكشف عن العلاقات .

- الفصل الثاني : فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم .



الفصل الأول

من معارف علوم القرآن وصلتها بموضوع الدراسة

(السورة مناط التحدي ـ وحدة الغرض في السورة أهم أسس العلاقات ـ علم المناسبات وصلته بموضوع الدراسة ـ كلامهم في الحروف المقطعة وصلته بالكشف عن العلاقات)

أولا : السورة مناط التحدي :

اختلف العلماء في قدر المعجز ، قال أبو بكر الباقلانى (ت : ٤٠٣هـ) «الذي ذهب إليه عامة أصحابنا ـ وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري في كتبه ـ أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة ، قصيرة كانت أو طويلة ، أو ما كان بقدرها . قال : فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة ، وإن كانت سورة الكوثر ، فذلك معجز .

وذهبت المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة ، وقد حكي عنهم نحو قولنا ، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة ، بل شرط الآيات الكثيرة»(١) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٥٤، والبرهان للزركشي ١٠٨/٢، ١٠٩ .

والبقاعي يبني رأيه في هذه المسألة على اعتبار (من) ـ في قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم** ﴾ (البقرة:٢٣) ـ تبعيضية[1] ـ ثم يجمل آراء العلماء في قدر المعجز ـ يقول : « وحكمة الإتيان بمن التبعيضية في هذه السورة دون بقية القرآن ، أنه ـ سبحانه ـ لما فرض لهم فيها الريب الذي يلزم منه زعمهم أن يكونوا اطلعوا على مثيل ، أو سمعوا أن أحدا عثر له على شبيه اقتضى الحال الإتيان بها ، ليفيد أن المطلوب منهم في التحدي قطعة من ذلك المثل الذي ادعوه حكيمة المعاني متلائمة المباني ، منتظم أولها بآخرها ، كسور المدينة في صحة الانتظام ، وحسن الالتئام ، والإحاطة بالمباني ، التي هي كالمعاني ، والتقاء الطرفين حتى صار بحيث لا يدرى أوله من آخره ، سواء كانت القطعة المأتي بها تباري آية أو ما فوقها لأن آيات القرآن كسوره يعرف من ابتدائها ختامها ، ويهدي إلى افتتاحها تمامها ، فالتحدي هنا منصرف إلى الآية بالنظر الأول ، وإلى ما فوقها بالنظر الثاني .

والمراد بالسورة هنا مفهومها اللغوي ، لأنها من المثل المفروض ، وهو لا وجود له في الخارج ، حتى يكون لقطعه اصطلاح في الأسماء معروف ، ولأن معرفة المعنى الاصطلاحي كانت مخصوصا بالمصدقين ، ولو أريد التحدي بسورة من القرآن لقيل : فائتوا بمثل سورة منه ، ولما كان هذا المراد قصرهم في الدعاء على من بحضرتهم من الشهداء ، والتحدي بسورة

---

(١) وقد ذكروا أن (من) في الآية إما أن تكون ابتدائية ويعود الضمير في مثله على محمد ﷺ وإما أن تكون للبيان ويعود الضمير للمنزل ، ورجحوا هذا الوجه ، أو أن تكون تبعيضية أي بسورة أي بمقدارها ، أو أن تكون زائدة . البحر المحيط ١/١٠٤، ١٠٥ الفتوحات الإلهية ١/٢٧، ٢٨ .

يشمل أقصر سورة كالكوثر ، ومثلها في التحدي آية مستقلة توازيها وآيات ، كما قاله الإمام جلال الدين المحلي في (شرح جمع الجوامع) وسبقه الإمام شمس الدين البرماوي ، ونقله إمام الحرمين في الشامل ، وعن كلام الفقهاء في الصداق ـ فيما لو أصدقها تعليم سورة فلقنها بعض آية ، وسبقهما العلامة سعد الدين التفتازاني ، فقال في تلويحه على توضيح صدر الشريعة ـ المعجز هو السورة ، أو مقدارها ، هكذا ذكر الذين تكلموا في الإعجاز من الأصوليين وغيرهم ـ أن التحدي وقع بسورة من القرآن ، والصواب أنه إنما وقع بقطعه آية فما فوقها ، لأن المراد بالسورة مفهومها اللغوي لا الاصطلاحي .

ونقل كلام الخطابي ، ثم علق عليه قال : « وأول كلامه يميل إلى أن الإعجاز بمجرد النظم من غير نظر إلى المعنى ، وآخره يميل إلى أنه بالنظر إلى النظم والمعنى معا من الحيثية التي ذكرها ، وهو الذي ينبغي أن يعتقد ، لكن في التحدي بسورة واحدة أما بالعشر فبالنظر إلى البلاغة في النظم فقط »[(١)] .

والبقاعي ـ رحمه الله ـ يرجح المعنى اللغوي للسورة ، لكن التسوير من خصائص الذكر الحكيم ، ولئن كان شيوخنا ناظرين إلى نزول القرآن منجما آنذاك ، فلقد نزلت سورة الأنعام ، وهي من الطوال ـ جملة واحدة ، ثم البقاعي نفسه يصرح ـ في كتابه (نظم الدرر) في كثير من المواطن ـ برد خاتمة السورة على أولها ، ورد مقطعها على مطلعها ، وصرح بذلك علماء المناسبات ، ثم إن سورة القرآن سميت بذلك ـ كما ذكر الأئمة والبقاعي ـ

(١) نظم الدرر ١/١٦٥-١٨١ .

لمشابهتها بسورة المدينة (حائطها المشتمل عليها)[1] وفاتحة السورة ، وخاتمتها هما حائطاها ، وذلك مطرد في سور القرآن ، وغير مطرد في آياته .

والفن الذي يعالجه هذا البحث ذو علاقة وثيقة بخلاف العلماء في قدر المعجز ، ولعل الذي عَدَّد الآراء في هذا الأمر ، تعدد آيات التحدي ، وقد وقعت في الذكر الحكيم بحسب ترتيب المصحف الشريف في سور (البقرة ـ يونس ـ هود ـ الإسراء ـ الطور) .

قال تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ (البقرة:٢٣) .

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ (يونس:٣٨) .

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ (هود:١٣)

﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ (الإسراء:٨٨) .

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ** ﴾ (الطور:٣٣،٣٤) .

وكلها سور مكية عدا سورة البقرة ، ولعل ذلك هو الذي حمل العلماء على وقوع الإعجاز بأقل من سورة ، نظرا لظروف التنزيل آنئذ ، لكن كثيرا

---

(١) يراجع مثلا المفردات مادة سور ص٢٤٨ واللسان مادة سور ص٢١٤٧، ٢١٤٨.

من السور المكية ـ إن لم نقل معظمها ـ قد اكتمل تنزيله في مكة ، ناهيك بسورة الأنعام أطول المكيات .

وكان تعدد آيات التحدي مجالاً لبسط القول في توجيه هذا التعدد ، والوجه عند أبي حيان أنه « تحداهم أولا بعشر سور مفتريات قبل تحديهم بسورة ، إذ كانت هذه السورة مكية ، والبقرة مدنية ، وسورة يونس أيضا مكية ، ومقتضى التحدى بعشر أن يكون قبل طلب المعارضة بسورة ، فلما نسبوه إلى الافتراء طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ؛ إرخاء لعنانهم . . . وقال ابن عطية : وقع التحدي في هذه الآية بعشر ، لأنه قيدها بالافتراء ، فوسع عليهم في القدر ، لتقوم الحجة غاية القيام ، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية بسورة مثله ، دون تقييد في مماثلة تامة في غيوب القرآن ونظمه ووعده ووعيده ، وعجزوا في هذه الآية بأن قيل لهم : عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير ، والغرض واحد واجعلوا مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه ، فهذه غاية التوسعة ، وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر ، لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة ، ولا يبالي عن تقديم نزول هذه على هذه ، ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة ، إنما هو بسبب الريب ، ولا يزيل الريب إلى العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة »[1] .

والوجه عند الفيروزأبادي ـ في الكلام على آية يونس « أن ما في هذه السورة تقديره : بسورة مثل سورة يونس ، فالمضاف محذوف في السورتين ، وما في هود إشارة إلى ما تقدمها من أول الفاتحة إلى سورة هود ، وهو

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٨ .

عشر سور»[1] ولعله ناظر إلى ما روي عن ابن عباس «أن السور التي وقع بها طلب المعارضة لها هي معينة البقرة وآل عمران . . .» قال ابن حيان : ولعل هذا لا يصح عن ابن عباس ، واحتج لذلك بأن هذه السور أكثرها مدني[2] ومنهم من وجه هذا التعدد بالتدرج في التحدي[3] .

ونحا الشيخ محمد رشيد رضا منحًى آخر فقال : «لعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة ، إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز ، وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة ... كأنه يقول : أدع لكم ما في سورة القصص من الأخبار عن الغيب ، وأتحداكم أنتم ، وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن في قصصها ، مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراة . . . وأما اكتفاؤه في سورة يونس بعدها بالتحدي بسورة واحدة في مقام الرد على قولهم (افتراه) ، فلأنه لم يقيد بكونها مفتراة ، لا من باب التخفيف عليهم بالواحدة . . . فعلم من هذا التفضيل أن التحدي بإعجاز القرآن لذاته في جملته ، والتحدي ببعض أنواع إعجازه في عشر سور مثله ، وبسورة مثله كلاهما ثابت في السور المكية قبل نزول آية البقرة ، وسورتها بعد الهجرة في المدينة المنورة»[4] .

وقد رد الأستاذ سيد قطب هذا الرأي قائلا : «ونحسب ـ والله أعلم ـ أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد ، وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين

---

(١) بصائر ذوى التمييز ١/٢٤١، ٢٤٢ .

(٢) البحر المحيط ٥/٢٠٨، وغرائب القرآن ١٢/١٢ .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٣/٤١٨، والفتوحات الإلهية ٢/٣٨٤، والبرهان ٢/١١٠ .

(٤) تفسير المنار ١/١٦١، ١٦٢ .

وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة فيقول مرة ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور دون ترتيب زمني ، لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن»[١] والرأي الأرجح ـ فيما نرى ـ في توجيه هذه الآيات (التدرج في التحدي) وأن التحدي وقع بالسورة ، كما تنص على ذلك آيات الذكر الحكيم ، وأن المراد بالسورة المعنى الاصطلاحي .

والذين قالوا : إن التحدي يقع بالسورة قالوا : إنه «يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت ، أو قصيرة ، لأنها نكرة في سياق الشرط ، فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين»[٢] والتحدي ـ عند الفخر الرازي ـ لا يقع بالسور القصار ـ إلا في حالة ما «إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز»[٣] .

وفي الفوائد ـ المنسوب لابن القيم أن التحدي ما وقع «إلا بسورة منكرة أي سورة كانت ، فهذا دليل على أن القرآن العظيم قد اختيرت أقصر سورة فيه من المعاني البديعة ، والفصاحة التي تسد بها عن معارضة الذريعة»[٤] ثم ضرب مثلا بسورة الكوثر .

وقد ذكروا للتسوير فوائد منها :

١- أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع ، واشتمل على أصناف كان أحسن وأنبل وأفخم .

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٦١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٦٢ .

(٣) مفاتيح الغيب ١/٥١٤ .

(٤) الفوائد ص ٢٥٢، ٢٥٣ .

٢- تنشيط السامع .

٣- أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه[١] .

٤- أن تلك السور متخالفة المقادير فهي كأنواع من جواهر نفيسة متفاوتة الأحجام[٢] .

٥- أن الحكمة في تسوير القرآن سورا تحقيق كون السورة بمجردها معجزة ، وآية من آيات الله ، والإشارة إلى أن كل سورة نمط مستقل[٣].

والفخر الرازي يجعل التحدي بسورة « يدل على أن القرآن وما هو عليه من كونه سورا ، هو على حد ما أنزله الله تعالى ، بخلاف قول كثير من أهل الحديث : إنه نظم على هذا الترتيب في أيام عثمان ، فلذلك صح التحدي مرة بسورة ، ومرة بكل القرآن »[٤] .

وصفوة القول ما ذكره ابن عاشور في وجه التحدي بسورة في قوله « وإنما وقع التحدي بسورة أي سورة وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه ، بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه ، وانتقال الأغراض ، والرجوع إلى الغرض وفنون الفصل والإيجاز والإطناب

---

(١) ينظر : الكشاف ٢٣٩/١ .

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف بهامش الكشاف ٢٣٩/١ .

(٣) الإتقان ٨٧/١ .

(٤) مفاتيح الغيب ٥١٤/١ .

والاستطراد والاعتراض ، وقد جعل شرف الدين الطيبي هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات»[1] .

وفننا هذا الذي نعالج من أهم ما يرجع إلى مجموع نظم الكلام ، ولعل هذا البحث يدلك لصحة ما تقرر لدى العلماء من أن وحدة التحدي هي السورة .

ثانيا : وحدة الغرض في السورة أهم أسس العلاقات :

الذي عليه أكثر أهل العلم أن السور القرآنية تتعدد أغراضها نظرا لظاهر نصوص القرآن الكريم ، واستنادا لما تحويه سور الذكر الحكيم من قصص الأنبياء وأمور الغيب ، وأمور العقائد ، والتشريعات ، وقد نجد كل هذا في سورة واحدة كالطوال والمثاني والمئين ، ولم تخلص سورة لغرض واحد كسورة يوسف عليه السلام وهذا أمر شائع ومتعالم بين كثير من أهل العلم .

والذي عليه جماعة من العلماء ـ كالبقاعي والشاطبي وأبي القاسم المشدالي ومن المحدثين العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز والأستاذ سيد قطب والمرحوم مصطفى الرافعي ـ أن السورة ذات غرض واحد ، وتتنوع الموضوعات فيها وفاء بهذا الغرض الأصلي ، وقد شاع ذلك في حديثهم عن المناسبات .

فالعلامة أبو القاسم المشدالي يقرر أن «الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب . . . فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن»[2] .

---

(١) التحرير والتنوير ١/١١٤ .

(٢) نظم الدرر ١/١٨ .

وتلميذه البقاعي ـ رحمه الله ـ طبق هذه القاعدة في كتابه (نظم الدرر) فيذكر مثلا في سورة البقرة قوله : « وإن شئت قلت : مقصود هذه السورة وصف الكتاب فقط ، ما عدا ذلك فتوابع ولوازم »[1] .

« وقد ظهر لى باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ ـ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب ـ أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها ، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه ـ عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه ـ ذلك هو الذي أنبأ به آدم ﷺ عند العرض على الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها »[2] وكذلك بيان مقصود كل سورة هاد إلى تناسبها مع مطلعها كما سيكشف عن هذا الأمر البحث عن العلاقات .

وقد أفرد ـ رحمه الله ـ كتابا لهذا الغرض سماه « مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور » أو « المقصد الأسمى في أن اسم كل سورة مطابق للمسمى » ومع استصحاب ما ذكره البلاغيون في علاقات المجاز المرسل ، واشتراطاتهم فيما يصلح أن يعبر به عن الكل ، وتقريرهم أن يكون هذا الجزء له مزيد اختصاص بالمعنى الذي قصد بالكل[3] .

والناظر في الأساليب التي تستعمل هذه العلاقة يتبين له أنه لا يقوم المعنى بغيرها ، بالنظر إلى مساقات الكلام ـ مع استصحاب ما ذكرت يتدبر في ضوئه أسرار تسمية السور باسم موضوع من موضوعاتها ، وقد

---

(١) نظم الدرر ٧٧/١ .

(٢) المرجع نفسه ١٩/١، ٢٢، ٢٣ .

(٣) راجع في هذا مثلا المطول ص٣٥٦ ، ومواهب الفتاح ٣٥/٤، وعروس الأفراح ٣٧/٤، والتصوير البيانى دراسة تحليلية لمسائل البيان ص٣٥٥ ، الدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .

يكون أقلها مساحة في السورة الكريمة وكأنه إشارة هادية إلى اتحاد مقصود كل سورة .

ودونك الشاطبي وهو يعالج هذا الأمر في سورة «المؤمنون» يذكر أن «سورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة ، وإن اشتملت على معان كثيرة ، فإنها من المكيات ، وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد ، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى . **أحدها :** تقرير الوحدانية لله الواحد الحق . . . **والثاني :** تقرير النبوة للنبي ﷺ . **والثالث :** إثبات أمر البعث والدار الآخرة . . . فإذا تقرر هذا ، وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين مثلا وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه ، إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة ، التي هي المدخل للمعنيين الباقيين ، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم ، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن جاءت فكانت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها ، وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاحتباء من الله تعالى . . .»[1] .

والشاطبي ينبهنا إلى استقراء هذا المعنى الذي اختصت به سورة (المؤمنون) في الذكر الحكيم لبيان الخصيصة البيانية له في سورة (المؤمنون) . . . وذلك أمر قرره الشاطبي في موطن آخر من الموافقات ـ في الكشف عن الجهة التي يختص بها لسان العرب (من جهة كونها ألفاظا وعبارات مفيدة ، دالة على معان خادمة ، وهي الدلالة التابعة . . . فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية ، وذلك الإخبار ، فإن كل خبر يقتضي في هذه الجهة أمورا خادمة لذلك الإخبار ، بحسب المخبر

(١) الموافقات للشاطبي ٣/٤١٦، ٤١٧ .

والمخبر عنه والمخبر به ، ونفس الإخبار في الحال والمساق ونوع الأسلوب . . . ثم يتنوع أيضا بحسب تعظيمه أو تحقيره . . . وبطول الباع في هذا النوع يحسن مساق الكلام ، إذا لم يكن فيه منكر ، وبهذا النوع الثاني اختلفت العبارات ، وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتي مساق القصة في بعض السور على وجه ، وفي بعضها على وجه آخر ، وفي ثالثة على وجه ثالث)[١] .

ثم نعود إلى البقاعي ـ رحمه الله ـ الذي يعد أبا عذرة هذا الباب ـ فهو يضع منهاجا وسنَنًا لا حِبًّا لدراسة موضوعنا في الذكر الحكيم في قوله : « فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ، ويستدل عليه فيها ، فترتيب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه ، وأبدع نهج ، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدل عليه ، وهكذا في دليل الدليل وهلم جرا ، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتدأ ، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر عليه على نهج آخر بديع ومرقى غير الأول منيع ، فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية ، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدرر ، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر ، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها ، وشعبة ملتحمة بما بعدها ، وآخر السورة قد واصل أولها ، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها ، وعانق ابتداؤها ما قبلها ، فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغر البديعة النظم العجيبة الضم بلين تعاطف أفنانها وحسن تواصل ثمارها وأغصانها ولأجل اختلاف مقاصد

---

(١) الموافقات للشاطبي ٢/٦٦، ٦٨ .

السور تتغير نظوم القصص وألفاظها بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك المقصد»[1] .

وهذا الذي ذكره ـ رحمه الله ـ «مما لا تناله يد المتناول ، ويقصر على عليائها كل متطاول» . لأنه يقتضي إحكام فهم قضايا السورة وتناسبها ، ورد آخرها على أولها ، والحكومة في كل ذلك للأسلوب الذي هو علم البلاغة . وكما قال الشاطبي : «المسافات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان ، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره ، بحسب القضية وما اقتضاه الحال منها ، لا ينظر في أولها دون آخرها ، ولا في آخرها دون أولها ، فإن القضية وإن اشتملت على جمل ـ فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد ، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق في النظر في أجزائه ، فلا يتوصل به إلى مراده فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض الأجزاء دون بعض»[2] .

ومع أن كلامه ـ رحمه الله ـ في الكلام على الأدلة تفصيلا ، إلا أنه يكشف لنا مشقة معالجة الأساليب بحسب المساقات ، وخطر فهم الأساليب بمعزل عن سياقها ، مما ينتج مضيعة لمقصود الشارع ، يستغفر أهل العلم ربهم منها وما أرى لمشتبه النظم إلا أنه معلم دال على هذا الباب ، وتنبيه إلى خطره وإلا فالأساليب في لغتنا متسعة للكشف عن المعاني دون التضييق بذكر الأسلوب ببعض المخالفة في التراكيب . وهذا

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ١/١٥١، ١٥٢ .
(٢) الموافقات للشاطبي ٣/٣١٣ .

التخالف في بعض التراكيب ـ أيضا ـ يعد تنبيها إلى وحدة الروح البيانية لكل سورة ، فلكل سورة نمطها في النظم وروحها في التركيب ، وذلك هو ما قرره الرافعي ـ رحمه الله ـ فبعد ما ذكر هذا الأمر قال : « فإذا أنت حرفت ألفاظه من مواضعها ، أو أخرجتها من أماكنها . . . . . حصلت معك ألفاظ كغيرها ، بما يدور في الألسنة ، ويجري في الاستعمال ورأيتها في الحالين لغة واحدة ، كأنما خرجت من لغة إلى لغة ، لبعد ما كانت فيما صارت إليه ، بيد أنك إذا تعرفت ألفاظ اللغة على غير هذا الوجه في كلم عربي غير القرآن أصبت أمرا بالخلاف ، ورأيت لكل لفظة روحا في تركيبها من الكلام ، فإذا أفردتها وجدتها قريبة مما كانت ، لأنها هي نفسها التي كانت من روح ، ولم يكن لهذا التركيب في جملته روح خاصة بالنسق والنظم فعلى كل لفظة معنى في الجملة كما أعطتها اللغة معنى في الإفراد ، حتى إذا أبنتها وميزتها من هذه الجملة ضعفت ونقصت وتبينت فيها الوحشة والقلة ، شبيه الذي يعرض للغريب إذا نزح عن موطنه وبان من أهله . . . وهذه الروح التي أومأنا إليها روح التركيب »(١).

وقد تعلق الدكتور محمد رجب البيومى بهذا القول فذكر أن « السورة الواحدة بهذه الروح ذات طابع مستقل متميز ، ولو أنك أدغمت آيات من سورة كريمة إلى آيات من سورة أخرى لوجدت ـ حتى مع اتحاد الموضوع ـ نشازا منكرا لا يقبله ذوق ، أو يستسيغه منطق ، واقرأ ـ إن شئت ـ سورة القمر وسورة هود وميدانهما معا الحديث عن أنبياء الله السابقين . . . ثم حاول أن تلحق نصا من هذه بنص من تلك ، فستجد من الانفصام والتخاذل ما يمنعك أن تقوم جادا بهذه المحاولة .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩ .

هذا والموضوع هو الموضوع ، والعبرة هي العبرة ، ولكن الروح التركيبية للبلاغة القرآنية تمنع هذا الخلط الكريه»[1] .

وقد قرر هذا أحد الباحثين في القصص القرآني وذكر أن «الأحداث المتماثلة يجتمع بعضها إلى بعض في مساق واحد ، وفي عرض متصل في سورة أو بعض سورة . . . ففي أكثر من سورة من القرآن الكريم ، جمعت أحداث كثيرة لعدد من الأنبياء ، حيث تتماثل الأحداث وتتشاكل الوقائع ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة»[2] .

والأستاذ سيد قطب يقرر أن لكل سورة شخصيتها ، ويحاول تطبيق ذلك في ظلال القرآن فيقول مثلا : «ومن ثَمَّ يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية متميزة ، شخصية لها روح يعيش معها القلب ، كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس . . . وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا ولا يشذ عنه هذه القاعدة طوال السور»[3] .

وقد عالج العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز سور (البقرة ويونس وهود) ثم لخص نتيجة هذه المعالجة فقال : «ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا ، يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة ، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية ، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر ، وإنما يحتل كل جزء

---

(١) البيان القرآني الدكتور رجب البيومي ص١٨٣ .

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص٤٤ .

(٣) في ظلال القرآن ١/٢٧، ٢٨ .

المكان المناسب له في جملة السورة وأخيرا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة »[1] .

وذلك يوضح إعجاز الله في كتابه الناطق (القرآن) كما هو ظاهر في كتابه الصامت (خلق الله) لأن مصدر الكتابين واحد[2] ، وكما أن لكل من مفردات الخلق سمات وملامح في الكتاب الصامت ، فكذا مفردات الكتاب الناطق (السور) فيما ارتضيناه من أن أقل قدر في التحدي السورة قصيرة كانت أو طويلة .

وكل سورة بمثابة الإنسان لها مقصود هو روحها وقلبها وترابط موضوعاتها بمثابة ترابط جوارح الإنسان مقابلة بمفردات الكتابين المعجزين « والواقع أنه قد يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية أو اكتشاف العلاقة بين هذه الأفكار بعضها وبعض ، أو بينها وبين النواة المركزية للسورة ، وقد تجهل حتى الظروف التي استدعت التجمع بينها في سورة واحدة »[3].

لكن استكشافه في الذكر الحكيم ينأى بنا عن الخطر في فهم بلاغة الذكر الحكيم ولما كان استكشاف هذا الأمر بعيد المنال اكتفى كثير من الباحثين بالقول بتعدد ـ أغراض السورة الواحدة ، استنادا لظاهر سور القرآن ، ورضًى بالنظرة العجلى وبعدا عما يحتاج في تفهمه إلى شدة تكلف وكثرة تَعَمُّل كما قال الشيخ دراز ـ رحمه الله ـ .

---

(١) المدخل إلى القرآن الكريم ص١١٩ .

(٢) أفدنا هذا التعبير من تقديم شيخنا الأستاذ الدكتور إبراهيم الخولي لأسلوب التعريض في القرآن الكريم ص أ .

(٣) المدخل إلى القرآن الكريم ص١٢٢ .

وقد انتهى أحد الباحثين عن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم إلى عدة نتائج :

١- أن السورة الواحدة وحدة كاملة لها هدف واحد قد يستتبع أغراضا مختلفة غالبا .

٢- السورة الواحدة لها طابع خاص في اللفظ والسياق والفواصل وختام الآيات ولها في الوصول إلى هدفها طرق خاصة .

٣- كل موضوع ذكر في السورة سواء كان قصة أو غيرها ، فهو مناسب كل المناسبة للسورة .

٤- إذا كـرر الموضـوع الواحـد فهـو في كـل سـورة يناسـبها شـكلا وموضوعا .

٥- لم تتكرر القصة الواحدة في سورة واحدة أبدا[1] .

ومما مضى بيانه ظهر لنا أن وحدة الغرض في السورة القرآنية أهم عناصر العلاقات ، فيقرر مقصود كل سورة ، ويكشف عن علاقته بالمطلع ، كما سنحاول بيانه هذه الدراسة .

ثالثا : علم المناسبات وصلته بموضوع الدراسة :

ومما له صلة وثيقة بدراستنا علم المناسبات ، واستكشاف موضوع السورة الأصلي من أجل ما يعقد بين آيات السورة ، والمناسبة في القرآن الكريم تكون بين أجزاء الآية فيلائم اللفظ اللفظ كقوله تعالى : ﴿ **تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا** ﴾ (يوسف:٨٥) فالتناسب بين أغرب ألفاظ القسم ، وأغرب صيغ الأفعال الرافعة للاسم الناصبة للخبر

---

(١) الوحـدة الموضـوعية في القـرآن الكـريم ص٥٢، ٥٣ ، الـدكتور محمـد محمـود حجازى .

ظاهر وملاءمة اللفظ للمعنى المراد وغير ذلك ، والتناسب بين الآيات يكون ظاهرا بأن تكون الآية الثانية سببا للأولى كقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ** ﴾ (آل عمران:٢٣،٢٤) أو تكون الثانية تقريرا لمعنى الأولى ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ** ﴾ (غافر:٣٨،٣٩) أو تكون مؤكدة لهما : ﴿ **وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ** ﴾ (غافر:٤١،٤٢) أو تكون الثانية مفسرة للأولى : ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾ (المعارج:١٩، ٢١) أو تقع من سابقتها موقع الاعترض ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ﴾ (الواقعة:٧٥،٧٦) أو تكون الثانية واقعة من الأولى موقع الإيضاح بعد الإبهام ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ** ﴾ (الشورى:٥٢،٥٣) ومن المناسبات ما لا يظهر ارتباطه ، وهو إما أن يكون معطوفا أو غير معطوف ، ويكون التناسب بين الآيات بالمطابقة كقوله : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ** ﴾ (الليل:٥) أو بمراعاة النظير ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** ﴾ (طه:١١٨، ١١٩) وغير المعطوف يكون بالنظير بأن تكون الآية الثانية مماثلة للأولى أو مقاربة لها ، وغير ذلك من المناسبات .

وللقرآن مزية على كل كتاب هو أنه يتعدى التعانق بين الآي إلىالتعانق بين السور ، وتكون المناسبات بين السورة تارة خفية وتارة ظاهرة ، وقد

تكون المناسبة لفظية كقوله تعالى : ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وقد تكون باتحاد الموضوع بين السورتين (كالمائدة والأنعام) ، وقد تتناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها كآل حم ، وقد تكلموا على مناسبة فواتح السورة وخواتمها ويكثر في المصحف الشريف مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها ، وقد تتناسب السورتان بالتقابل فإن الكوثر كالمقابلة للماعون ، وقد يكون التناسب بالتضاد ، وقد تكون الثانية مجملة للأولى أو مفصلة لها كفصلت وغافر ، وقد تكون السورة معترضة بين السورتين »[1] .

وهكذا يتسع مجال النظر عند الأئمة إلى معاقد الآيات والسور في الذكر الحكيم ، وذلك أمر معين على استكشاف العلائق بين المطالع والمقاصد في سور الذكر الحكيم ، وقد ترك السلف تراثا عظيما في هذا الفن كان معينا على بيان العلائق كما سيأتى في مواضعه فإن القرآن الكريم له مطلع هو فاتحة الكتاب ، وله خاتمة هي المعوذتان هما طرفاه وما بينهما سلسلة من السور متواصلة ومتعانقة ، كما نهض ببيان هذا أو شيء منه علماء المناسبات .

رابعا : كلامهم في الحروف المقطعة وصلته بالكشف عن العلاقات :

كان افتتاح تسع وعشرين سورة من القرآن الكريم بالحروف المقطعة ، تلك التي لم ينقل عن العرب دلالات لها ، ولو كانت لها دلالات لتواتر النقل عليها ولنقل ذلك علماء الصحابة وكأن افتتاح السور بها ـ فيما أرى ـ داعية التوجه لمحاولة كشف أسرارها ، ووجودها في مطالع السور ، معلم

---

(١) راجع الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ، ص ٣٠١، ٣٠٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤١٣، ٤١٧ .

دال على أهمية افتتاحات السور القرآنية ، لذا لم تقع ـ على كثرة مواقعها في الذكر الحكيم ـ في غير مطالع السور .

ولما لم تكن لها دلالات معلومة كان للعلماء بشأنها موقفان : « ذهب الشعبي وسفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين إلى أنها سر الله في القرآن وهي من المتشابه وقال الجمهور من العلماء : بل يجب أن يتكلم فيها ، وتلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها »[1] .

وقد استجاد كثير من العلماء الوجه الثاني ، استبعادا لأن يحتوي كتاب الله على ما لا يفهم ، وقد تواترت النقول عن ابن عباس ـ ترجمان القرآن ـ بشأن تأويلها وغالب الظن أنها اجتهادات له ـ رحمه الله ـ وهو إمام الناس قاطبة في فتح مغاليق الذكر الحكيم ـ لذلك اتسع مجال القول بشأن هذه الفواتح بل خصها جماعة بمؤلفات ، فلابن أبي الأصبع « الخواطر السوانح في أسرار الفواتح » ، ومن المحدثين دكتور محمد أبو فراج في « الحروف المتقطعة في أوائل السور القرآنية » ، دكتور محمد بدري عبد الجليل « براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور » .

وقد أكثر ابن أبي الأصبع من التفسيرات الرياضية ، والحسابات الفلكية لهذه الحروف ، وقد حاول الباحث الأخير أن يضع مفهوما لهذه الحروف ، وأن يربط هذا المفهوم بمقاصد السورة ، قياسا على ما قدمه من تفسير لافتتاح قصائد الشعراء بأسماء محبوبات لا حقيقة لها في الواقع ، وربطه موضوع القصيدة بهذا الاسم الذي انتهى إلى أنه رمز ، واستنادا لما جاء في اللسان وغيره من معان لأسماء الحروف كمعنى (الألف) و(الحاء) و ...إلخ .

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/١٣٨ وما بعدها .

يقول : « فلأمر ما نرجو ألا نهمله نص علماء الرسم القرآني على كتابة فواتح السور حروفا ، ولأمر ما نرجو ألا نغفله نص علماء القراءات على نطق فواتح السور كلمات ، وبقدر ما اختلف المسلمون حول الحكمة ، أجمعوا على أنها استهلالات ابتدئ بها ، ومن ثَمَّ كان مصطلح براعة الاستهلال ، بما هو إشارة في الصدر إلى المقصود وما قد يمت إليه من مصطلحات معينة على الكشف »[(1)] .

وقد فسر كل الحروف المقطعة بما جاء لمعانيها في لغة العرب على أية حال فهو اجتهاد ، لكنه يتكئ على المذهب الرمزي ، ولئن صح هذا التفسير له ـ مع شدة التكلف ـ في مثل (ق) و (ص) و (ن) فكيف يصح في (آل حم) هل تتفق موضوعات السور السبعة تمام الاتفاق كما اتفقت افتتاحاتها ، وما قوله في (آلم) وفي (طسم) وغير ذلك ، أنه يفسر كل حرف بمعناه ، ثم يفرض إيجاد تفسير لتكرر الحروف في الافتتاح ، وعلى ما بذله من مجهود وما أخصب به بحثه من مراجع فإن فيما توصل إليه خطرا شديدا ينبغي أن ينأى بكتاب الله عنه ، ثم إن منهجه لم يطرد له وحسب فساد المنهج عدم اطراده .

وعلى اتساع القول بشأن تأويل الحروف المقطعة[(2)] ، رجح القول بأن : « تلك الحروف علامات دالة ، ورموز منصوبة فحواها أن هذا القرآن الذي

---

(١) براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور ص٢١٥ .

(٢) فقال تأولوا لها معاني كثيرة منها :

١- أنها اسم من أسماء القرآن .

٢- أو فواتح يفتح الله بها القرآن .

٣- أسماء للسور التى وردت فيها .

==



أعجز العرب أمره وبان لهم وجه التحدي فيه ، ليس بلغة غير لغتهم ، بل هو مؤتلف من مادة اللغة التي يحذقونها ».

واستأنسوا لذلك بأمور منها :

(١) أن ستا وعشرين سورة ـ مما فواتحه حروف مقطعة ـ مكية النزول ، وقد كانت فترة تحد وعناد .

(٢) معظم هذه السور فيها حديث بعد الفواتح مباشرة عن سمو القرآن وعلو طبقته .

(٣) أن هذا الرأي أبعد ما يكون عن النقد .

(٤) أنه يلتقي مع غيره من الآراء[1] .

== ٤- اسم الله الأعظم .

٥- قسم أقسم الله به وهو من أسمائه .

٦- حروف مقطعة من أسماء وأفعال كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر .

٧- حروف هجاء موضوع .

٨- حروف يشتمل كل حرف منها على معانٍ شتى مختلفة .

٩- حروف من حساب الجمل .

١٠- لكل كتاب سر وسر القرآن فواتحه .

١١- ابتدئت بذلك السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين .

١٢- أو أنها علامات لأهل الكتاب أنه سينزل على محمد كتاب يفتتح بالحروف المقطعة . يراجع في ذلك سورة البقرة ، جامع البيان ، المحرر الوجيز لابن عطية ، البحر المحيط ، مفاتيح الغيب ، تفسير ابن كثير ، تفسير أبى السعود محاسن التأويل للقاسمى ، الجامع لأحكام القرآن ، البرهان ١٦٩/١، الإتقان .

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ١٥٩/١ وما بعدها ، دكتور عبد العظيم المطعنى ، مكتبة وهبة .

« وقال القاضي أبو بكر : إنما جاءت على نصف حروف المعجم كأنه قيل : من زعم أن القرآن ليس بآية ، فليأخذ الشطر الباقي ، ويركب عليه لفظا معارضة للقرآن »[1] لا سيما أنها « نزلت في المرحلة التي بلغ فيها عتو المشركين أقصى المدى ، وأفحشوا في حمل الوحي على الافتراء والسحر والشعر والكهانة ، فواجههم القرآن بالتحدي »[2] .

ويستحسن الدكتور زكى مبارك رأى المسيو بلانشو في القول بأنها رموز صوتية وأنه « من المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية ، ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين في كل شيء ، حتى في الأصوات الموسيقية ، فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل وأن تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين »[3] .

ثم توقف في قبوله على ما تكشف عند دراسة أصول الموسيقى في الكنائس الحبشية والشامية ، ولو كان كذلك لنقل عنهم أيضا ، ولأغنى ذلك علماءنا عن كثرة التأويلات التي أوجزتها .

ويرى الأستاذ عبد الكريم الخطيب أن هذه الحروف « ترسم لمرتل القرآن أسلوبا خاصا في التلاوة »[4] ، وهو رأي يقبل بعد درس القرآن على المستوى الصوتي لما تفتتح به السور من الحروف المقطعة وآيات هذه السور مما يكشف لنا عن العلاقة الصوتية بين مطلع السورة ومقصدها .

---

(١) البرهان ١/١٦٧ .

(٢) الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق ص ١٦٦ .

(٣) النثر الفنى زكى مبارك ١/٤٧ .

(٤) التفسير القرآني للقرآن ١/٢٣ .

فقد ذكر أحد الباحثين أن «الفاقهين من العلماء تتبعوا الحروف المقطعة في أوائل السور ، فوجدوا أن كل سورة من هذه السور ، قد اختصت بما بدئت به فلم تكن لترد (آلم) في موضع (آلر) . . . وذلك لأن هناك تناسبا بين افتتاحية السورة وآياتها ، فكل سورة بدئت بافتتاحية معينة تكون أكثر كلماتها ، وحروفها مماثلة لها»[1] . لكنه يذكر لنا تعليلات لعدم إمكانية استبدال الافتتاحات .

والزركشي ـ رحمه الله ـ ذكر ذلك في الحروف المفردة ، وكشف عن العلاقات الصوتية بين مطلع السورة ومقصدها ، يقول : «ومن ذلك ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ . . . ﴾ فإن السورة مبنية على الكلمات الكافية من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلق . . . وسر آخر هو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح»[2]، وضرب مثلا أيضا بسورة ﴿ صٓ ﴾ وما اشتملت عليه من الخصومات .

وكان كلامهم ـ كما ترى ـ ذا صلة وثيقة بشأن بيان العلاقات ، وكان اتساع اجتهاداتهم بشأن الحروف المقطعة ، منبها لنا إلى فهم واستخراج العلاقات في فواتح سور الذكر الحكيم كله .

والدكتور عبد العظيم المطعني يمضي في هذا النسق فيذكر لنا خصائص السور المفتتحة بالشرط ، ويلحظ أنماط الأساليب داخل هذه السور ، وكان مما قال في هذا الشأن : «والقيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها ـ والله أعلم ـ آثر القرآن افتتاح هذه السور بها هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطا ملاحظا فيه ترتب

---

(١) الحروف المتقطعة في أوائل السور القرآنية ، ص٩٣ .

(٢) البرهان ١/١٦٩، ١٧٠ .



المسبب على السبب ، فإذا ذكرت أداة الشرط ، وأردفت بفعل الشرط ، تشوفت النفس إلى ذكر ما سيكون ، فإذا ذكر الجواب بعد هذه الإثارة ، وهذا التشويق تمكن أيما تمكن»[١].

فقد تمخض حديثهم في الحروف المقطعة عن الكشف عن بعض العلاقات الصوتية والعلاقات التركيبية ، فكان لأحد الباحثين أن يعمم ذلك في الذكر الحكيم فيقول : «وقد ضمَّن الله فاتحة كل سورة ما اشتملت عليه تلك السورة من المقاصد النافعة للبشر في الدين والدنيا ، وأبرز ذلك في عبارة هي الغاية ، فيما عرف من براعة الاستهلال ثم صرف المعاني من غرض إلى غرض»[٢] .

وكأن كلامهم في هذه القضايا التي أشرنا إليها بيان لطرائق الكشف عن علاقات المطالع بالمقاصد ، ويمكن أن يكون كلامهم في القضيتين الأوليين أطرا عامة تهدى في موضوع دراستنا .

* * *

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ١٦٣/١، ١٦٤ .

(٢) إعجاز القرآن ، ص ٧٢ ، دكتور السيد الحكيم .



الفصل الثاني

فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم

كلام علمائنا في هذا الموضع من أدق الكلام وأحكمه ، ولئن جاء كلام الباحثين في تبيان العلاقة بين مطالع الشعر ومقاصده ضربا من التَّظَنُّن ، وقائله لا يكاد يبين ، فقد جاء في الدرس القرآني على أتم وجه وأبينه ، لأنه جاء استنباطا لكلام من لا ينطق عن الهوى ﷺ مفسر القرآن الأول ، وجاء مصطلح «براعة الاستهلال» ـ معنى لا اسما ـ في كلام رسول الله ﷺ على أوسع نطاق وأحكمه بما يعد به هذا الفن في القرآن ضربا من ضروب الإعجاز ، وبما تعد به السنة الشريفة المحضن الأول لفن البلاغة عند التأريخ لفنونها .

وقد جاء مصطلح «براعة الاستهلال» في درس البلاغيين ذيلا لمؤلفاتهم وجاء في الدرس القرآني في أول صفحات التراث القرآني ، روى محمد ابن جرير الطبري بسنده عن رسول ﷺ أنه قال في فاتحة الكتاب : «هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني»[1] .

---

(١) جامع البيان للطبرى ٣٦/١ ، فتح الباري بشرح صحيح البخارى كتاب التفسير ٢٣٢/٨ .

وقد علل علماؤنا لتسميتها بأم القرآن ، وأنتجت تأويلاتهم تراثا هائلا في موضوع دراستنا ، وقد علل لهذه التسمية محمد بن جرير (ت : ٣١٠هـ) متخذا المعنى اللغوي للأم أصلا في فهم هذه التسمية قال ابن جرير :

« وسميت أم القرآن ، لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخر ما سواها خلفها في القرآن والكتابة ، وذلك أن معناها شبيه بمعنى فاتحة الكتاب وإنما قيل لها : ـ لكونها كذلك ـ أم القرآن ، لتسمية العرب كل جامع أمرا ، أو مقدما لأمر ، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع : أما ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : أم الرأس ، وتسمي لواء الجيش ، ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش : أما ... »(١).

ويروي البيهقي (ت : ٤٥٨هـ) أثرا في فضل فاتحة الكتاب يقوي تأويل ابن جرير ويفتح بابا آخرللعلماء في التأويل من بعده ـ روى البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن الحسن قال :

« أنزل الله ـ عز وجل ـ مائة وأربعة كتب من السماء ، أودع علومها أربعة منها ـ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ـ ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور الفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب ، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة »(٢) .

---

(١) جامع البيان ٣٦/١ .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي كتاب فضائل القرآن ٤٥١/٢ تحقيق : محمد السعيد ابن بسيوني ، دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ .

ولعله خص المفصل بالذكر ، لأن النبي ﷺ قد فُضّل بالمفصل ، فقد روى ابن جرير بأسانيد متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المثاني مكان الزبور ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وفضلت بالمفصل »(١) .

وقد تتابعت استنباطات العلماء من الحديثين السابقين في التعليل لتسميتها بأم القرآن ، ذكر البغوي (ت:٥١٦هـ) أنها « سميت فاتحة الكتاب ، لأنه تعالى بها افتتح القرآن ، وأم الكتاب ، لأنها أصل القرآن »(٢) .

وكان فهم جار الله الزمخشري أصرح من غيره فقد قال في هذا الموضع : « وتسمى أم القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن التعبير بالأمر والنهي ، ومن الوعد والوعيد »(٣) .

ولما كان هذا الفهم ـ الذي يعني أن علاقة فاتحة الكتاب بمقاصده هي علاقة الإجمال ثم التفصيل ـ يمكن أن يعترض عليه باشتمال بعض سور القرآن الكريم على ما اشتملت عليه الفاتحة ، ولم تسم بهذا الاسم حرر السيد الشريف هذا الاستنباط فقال :

« ولا يقال : كثير من السور تشتمل على هذه المعاني ، ولم تسم أم القرآن ، لأنا نقول : لما كانت هذه السورة متقدمة على سائر السور موضعا ـ بل نزولا على قول الأكثر ، وكانت مشتملة على تلك المعاني ، مجملة على أحسن ترتيب ، ثم صارت مفصلة في السور الباقية ، فنزلت منها

---

(١) جامع البيان ٣٤/١ ، والبرهان للزركشي ٢٥٨/١ .
(٢) معالم التنزيل للبغوي ٣٧/١ تحقيق : خالد عبد الرحمن ، بيروت ١٤٠٦هـ .
(٣) الكشاف ٢٣/١ .

منزلة مكة من سائر القرى ، حيث مهدت أرضها أولا ، ثم دحيت الأرض من تحتها ، فكما أن مكة أم القرى ، كذلك الفاتحة أم القرآن »[1].

وقد ذكر الطبرسي (وهو من علماء الإمامية في القرن السادس الهجري) تأويلا يلتقي مع التأويلات السابقة قال : « وسُميت بذلك ، لأنها متقدمة على سائر سور القرآن . . . وقيل : سميت بذلك ، لأنها أصل القرآن ، والأم هي الأصل ، وإنما صارت أصل القرآن لأن الله تعالى أودعها مجموع ما في السور ، لأن فيها إثبات الربوبية والعبودية وهذا هو المقصود بالقرآن »[2] .

وهو ما ذكره القرطبي (ت : ٦٧١هـ) بعد ذلك في قوله :

« وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها ، وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن »[3] .

ثم تخطو الفكرة خطوة أخرى على يد الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ (ت : ٦٠٤هـ) فيشرح معنى قول الزمخشري في اشتمال الفاتحة على معاني القرآن ويجمل مقاصد القرآن الكريم يقول ـ رحمه الله ـ في تعليل تسميتها بأم القرآن : ...

والثالث : أم القرآن والسبب فيه وجوه :

الأول : أن أم الشيء أصله ، والمقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة ـ الإلهيات والمعاد والنبوات وإثبات القضاء والقدر لله تعالى : فقوله ﴿ **ٱلْحَمْدُ**

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ٢٣/١، ٢٤ .

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسى ٣٥/١ ، بيروت ١٣٧٧هـ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥٧/١ ، دار الغد العربي .



لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يدل على الإلهيات ، وقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يدل على المعاد ، وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يدل على نفي الجبر والقدر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره ، وقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يدل أيضا على إثبات قضاء الله وقدره وعلى النبوات . . . فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة وكانت هذه السورة مشتملة عليها لقبت بأم القرآن» .

السبب الثاني : أن حاصل جميع الكتب الإلهية يرجع إلى أمور ثلاثة :

إما الثناء على الله باللسان ، وإما الاشتغال بالخدمة والطاعة ، وإما طلب المكاشفات والمشاهدات فقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . ﴾ كله ثناء على الله ، وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ اشتغال بالخدمة والعبودية وأما قوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ فهو طلب للمكاشفات والمشاهدات وأنواع الهدايات .

السبب الثالث : أن المقصود من جميع العلوم : إما معرفة عزة الربوبية أو معرفة ذلة العبودية ، فقوله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . . يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يدل على أنه هو الإله المستولي ثم من قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . .﴾ إلى آخر السورة يدل على ذل العبودية .

السبب الرابع : أن العلوم البشرية إما علم ذات الله وصفاته وأفعاله ، وهو علم الأصول ، وإما علم أحكام الله تعالى وتكاليفه ، وهو علم الفروع ، وإما علم تصفية الباطن والمقصود من القرآن بيان هذه الأنواع الثلاثة ، وهذه السورة مشتملة على تقرير هذه المطالب الثلاثة»[(١)].

---

(١) مفاتيح الغيب ١/٢١٩، ٢٢٠ .

وقال الطيبي في الفاتحة : «وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلا ، فإنها واقعة في مطلع التنزيل والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله ، ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق»[1] .

وذكر الغزالي (ت : ٨٠٦هـ) (في خواص القرآن) أن «مقاصد القرآن ستة ، ثلاثة مهمة ، وثلاثة تتمة .

الأولى : تعريف المدعو إليه ، كما أشير إليه بصدرها ، وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها ، وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة كما أشير إليه بقوله : ﴿ **مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ** ﴾ الأخرى : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار إليه بقوله : ﴿ **ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ** ﴾ ، وتعريف منازل الطريق ، كما أشير إليه بقوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ** ﴾[2] .

وقد نبه جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١هـ) في «تناسق الدرر في تناسب السور» إلى أنه أَلَّف كتابا في تعلقات القرآن سماه «أسرار التنزيل» جعله مشتملا على بضعة عشرة نوعا .

الأول : في بيان مناسبات ترتيب سوره .

والثاني : بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها .

والثالث : وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها .

والرابع : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له ، وذلك براعة الاستهلال[3] .

(١-٣) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص٧٥ .

والنوع الرابع : هو موضوع دراستنا ، ولـم أعـثر على هـذا الكتاب ، لا مخطوطا ولا مطبوعا ، ويبدو أنه يحوي خيرا كثيرا بشأن موضوعنا ، والسيوطى ـ رحمه الله عندما تكلم في سورة الفاتحة جمع كلام العلماء واستهله بقوله : « افتتح ـ سبحانه ـ كتابه بهذه السورة ، لأنها جمعت مقاصد القرآن ، ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال »[١] وقد كرر الكلام على فاتحة الكتاب في كثير من مؤلفاته ، بما لا يخرج عما ذكرته[٢] .

وهذا الاسم لفاتحة الكتاب الذي انبنت عليه كل أقوال العلماء السابقين دفعـه بعض العلماء ، محتجا بضعف الحديث ، ومستندا إلى قوله ﷺ : « لا يقولن أحدكم أم الكتاب ، وليقل فاتحة الكتاب » وقد دفع السيد محمود شكري الألوسي (ت : ١١٢٧ هـ) هذا الاحتجاج ، فقال « لا أصل له بل قد ثبت في الصحاح تسميتها به »[٣] ، وقد علل ـ رحمه الله ـ لهذه التسمية ، ثم شرح مقالة جار الله العلامة ـ الزمخشري ـ في اشتمالها على مقاصد المعاني التي في القرآن فشرح اشتمالها على التعبد ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، بما لا يخرج عن كلام الفخر الرازي ، والقاضي البيضاوي ، والسابقين من العلماء وقد استخرج الشيخ محمد صديق خان (ت : ١٣٠٧ هـ) من فاتحة الكتاب ما يدعو للعجب حيث قال :

« إن فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد في ثلاثين موضعًا »[٤] .

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص ٧٥ .
(٢) ينظر : معترك الأقران ١/٥٣، وشرح عقود الجمان ص١٧٥، والإتقان ٢/١٣٦.
(٣) روح المعانى للألوسى ١/٣٤ .
(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن ١/٤٧ لمحمد صديق خان .

وقد استخرج ذلك من مواضع التقديم والتأخير في السورة الكريمة .

وقد وصل ظهور العلاقة (الإجمال والتفصيل) التي بين فاتحة الكتاب ومقاصد الذكر الحكيم ، إلى أن تكون مرجحا لنزول الفاتحة أول القرآن ، عند ضعف الاستناد إلى ما أخرجه البيهقي في الدلائل عن أبي ميسرة « أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا ، فقالت : معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق ، ثم إنه ﷺ أخبر ورقة بذلك ، وإن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء ، وإنه ﷺ لما خلا ناداه الملك : يا محمد قل : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **وَلَا ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ »[1] .

قال الأستاذ المراغي : « وقد رجح هذا بأنها مشتملة على مقاصد القرآن على سبيل الإجمال ، ثم فصل ما أجملته بعد . . . »[2].

وقد استبعدوا نزولها بالمدينة لعلتين أولاهما : أن سورة الحجر مكية بالاتفاق ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي** ﴾ وهى فاتحة الكتاب . . . والثاني : أنه يبعد أن يقال : إنه أقام بمكة بضع عشرة سنة بلا فاتحة الكتاب »[3].

---

(١) مفاتيح الغيب ١/٢٢٤ عن عمرو بن شرحبيل أنه قال : أول ما نزل من القرآن : الحمد لله رب العالمين ، ثم ساق الحديث ببعض الاختلاف وينظر أيضا تفسير المراغي ١/٢٣، ٢٤ ، الحلبي ثالثة ١٣٨٢هـ .

(٢) تفسير المراغي ١/٢٤ .

(٣) مفاتيح الغيب ١/٢٢٤ .



ووجود هذه العلاقة أيضا يرجح أن يكون ترتيب سور القرآن بتوقيف من النبي ﷺ على أرجح الآراء[1] كما قرر العلماء واحتجوا لذلك بعدة حجج .

---

(١) وللعلماء ـ رحمهم الله ـ مذاهب في ترتيب سور القرآن الكريم ، وممن ذهب إلى القول بأنه توقيفي ـ أبو جعفر النحاس محتجا بحديث النبي ﷺ (أعطيت مكان التوراة ...) والكرماني في البرهان يرجح ذلك الرأي أيضا فيقول : ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ ، وهو على هذا الترتيب كان يعرض ـ عليه السلام ـ على جبريل كل سنة ، ما كان يجتمع عنده منه ، وعرض عليه في السنة التي توفي فيها مرتين ، واحتج أيضا بقول جماعة من المفسرين في بيان الوجه في تعدد آيات التحدي بما ذكرته في موضعه من البحث .
وممن ذهب إلى ذلك أيضا أبو بكر الأنباري وعنده أن القرآن كله أنزل إلى سماء الدنيا ، ثم فرق في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر ، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها ، فقد أفسد نظم الآيات .
وهو رأي كثير من العلماء أيضا ، وقد رجحه الفخر الرازي ، والطاهر ابن عاشور ، وكثير من العلماء . (يراجع في هذا الموضوع البرهان للزركشي ٣٤/١ وما بعدها ، ومفاتيح الغيب ٣٤/٤، والتحرير والتنوير ٧٩/١ والإتقان للسيوطي) .
وكما قال العلامة محمد فاضل بن عاشور بأن ترتيب النزول ترتيب عارض « أما الترتيب فقد كان منظورا فيه إلى تسلسل المعاني ، وتناسب أجزاء الكلام ، وكلا الترتيبين راجع إلى الوحي ، وكلاهما وقع به التحدي الإعجازي إلا أن أولهما مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة ، والترتيب الآخر ، وهو ترتيب التلاوة التعبدي باق في ذات الكلام ، يدركه كل واقف عليه وتال له من الأجيال المتعاقبة (ينظر : التفسير ورجاله ص١٠ وما بعدها) وهو كلام جيد بالغ .

بل كان وجود هذه العلاقة أساسا لدى الشيخ الإمام محمد عبده في ترجيح نزول الفاتحة أولا فقد قال الشيخ رشيد رضا :

« وأما الأستاذ الإمام ، فقد رجح أنها أول ما نزل على الإطلاق ، ولم يستثن قوله تعالى : ﴿ **ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ** ﴾ ونزع في الاستدلال على ذلك منزعا غريبا في حكمة القرآن وفقه الدين ، فقال ما مثاله : ومن آية ذلك أن السنة الإلهية في هذا الكون ـ سواء كان كون إيجاد أو كون عدم تشريع ـ أن يظهر سبحانه ـ الشيء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا . . . والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن ، كل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها » .

ثم نزع منزعا آخر في بيان مقاصد القرآن الكريم ، يوسع دائرة توضيح هذه العلاقة فقال رحمه الله :

« وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور ـ **أحدها** : التوحيد ... **ثانيها** : وعد من أخذ به ، وتبشيره بحسن المثوبة ، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة ، **ثالثها** : العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس ، **رابعها** : بيان سبيل السعادة ، وكيفية السير فيه الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة ، **خامسها** : قصص من وقف عند حدود الله تعالى ، وأخذ بأحكام دينه ، وأخبار من تعدوا حدوده ، ونبذوا أحكام دينه » .

ثم بين اشتمال الفاتحة على هذه الأمور فالتوحيد في ﴿ **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ ، والوعد والوعيد الأول منهما مطوي في ﴿ **بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ ، و ﴿ **مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ** ﴾ يتضمن الوعيد والعبادة : ﴿ **إِيَّاكَ نَعۡبُدُ** . . . ﴾ ويشمل العبادة وأحكام المعاملات

وسياسة الأمة قوله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ، وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ .

فتبين من مجموع ما تقدم : أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلا ، فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى في الإبداع وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى أم الكتاب .

وقد وفق الأستاذ محمد رشيد رضا بين القول بنزولها أولا ، والقول بنزول سورة العلق ثانيا حيث قال :

« ويمكن أن يقال : إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحكم التي بينها ، لأنه تمهيد للوحي المجمل ، والمفصل خاص بحال النبي ﷺ وإعلام له بأنه يكون ـ وهو أمي ـ قارئا بعناية الله تعالى »[1] .

ويأتي كلام العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في فاتحة الكتاب عصارة لمقالات السابقين ، وإفرازا بديعا لمقالاتهم ، وتوليدا لأفكارهم ، يقول : رحمه الله ـ تعالى ـ في مقال نشر بمجلة « المجلة » بعنوان « نظرات في فاتحة الكتاب » .

« ولكن هلم بنا نلق على هذه السورة الكريمة نظرتين أخريين : نظرة في موادها ومقاصدها ، مقارنة بمواد القرآن ومقاصده .

ونظرة في وجهة خطابها مقارنة بوجهة الخطاب القرآني . . .

فالشئون التي تناولها القرآن ـ على تنوعها وكثرتها ـ نستطيع أن نجملها في أربعة مقاصد هي في الحقيقة كل مطالب الدين والفلسفة والأخلاق .

(١) تفسير المنار المسمى بتفسير القرآن الحكيم ٢٩/١ وما بعدها .

مقصدان نظريان هما : معرفة الحق ، ومعرفة الخير ، ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان .

فثمرة الحق : هي تقديس الحق واعتناقه ، وثمرة معرفة الخير : هي فعل الخير والتزامه . . . فإن كان هذا الأصل النظري الأول هو معرفة الله ، فالأصل العملي الأول الذي يثمره هذا الأصل هو توقير الله .

ومن جملة هذين الأصلين يتألف الجانب الإلهي بعنصريه (النظري والعملي) والقرآن يفصله تفصيلا ، وسورة الفاتحة تجمله إجمالا في شطرها الأول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، وهذه هي المعرفة الأساسية .

الشطر الثاني : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذا هو الموقف العملي الذي تثمره تلك المعرفة .

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . . مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ شذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة في ترتيب بالغ الغاية في الإبداع والإحكام (المبدأ فالواسطة فالمعاد).. (التوحيد فالنبوة فالجزاء).. ثم هو ليس ذا رحمة واحدة ، ولكنهما رحمتان مفسرتان في القرآن : رحمة وسعت كل شيء ... ورحمة أخرى خصوصية إضافية علاوة يمنحها لمن يستحقها ، تلك هي رحمة الاصطفاء والاجتباء والقيادة والإمامة على هاتين الرحمتين يقوم ركن النبوات . .

عرفنا الآن مغزى هذه الصفات الثلاث ، ومواقعها فيما بينها ، فلننظر إلى مواقعها مما حولها ، لنرى كيف وقعت بين قضيتين ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾؟ فكانت تأييدا لما قبلها ، وتمهيدا لما بعدها فمنزلتها من قضية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . . ﴾ منزلة البرهان من الدعوى ، ومنزلتها من

قضية العبادة ، منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة . . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ باجتماع هاتين الكلمتين بطل الشرك كله (شرك العبادة لغير الله ، وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به الله) .

وهكذا الجانب الإلهي ـ نظريه وعمليه ـ يمثل نصف المهمة القرآنية وقد رأينا كيف جمعته سورة الفاتحة في شطرها الأول .

والعجيب من شأن سورة الفاتحة ، أنها ـ على فرط إيجازها ـ قد انتظمت المنهجين جميعا في كلمتين ، وذلك أنها حين حببت إلينا طريق الفضيلة ، بينت لنا أولا قيمته الذاتية ، فوصفته بالاعتدال والاستقامة ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

ثم بينت ما في عاقبته من نفع وجدوى ، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ونعمته ، وأشارت في الوقت نفسه إلى مثله التاريخية في سيرة أهله الذين نصبوا أنفسهم للقدوة الحسنة .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد انتظمت المقاصد القرآنية الأربعة الجانب الإلهي (نظريه وعمليه) ، والجانب الإنساني (نظريه وعمليه) .

كل ذلك في أوجز عبارة ، وأحكم نسق . . .

سورة الفاتحة إذن : هي خريطة القرآن ، وفهرست مواده إنها جوهرة القرآن ونواته ، ولب لبابه ، فهي بحق أم القرآن . . .

وبقيت نظرة ثانية سريعة تقارن فيها بين أسلوب الخطاب في الفاتحة وأسلوب الخطاب في القرآن . . .

ماذا نرى في هذين الأسلوبين؟ نرى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف .

فسورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي وضعت أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا ، ولكن على لسان البشرية المؤمنة تعبيرا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء ، بينما سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض .

وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مفاجأة ثنائية الفاتحة أحد طرفيها ، وسائر القرآن طرفها الآخر . . .

أول ما نلتقطه من هذه العبر ، أن القرآن وهو دستور الإسلام لوجاءنا بدون الفاتحة لكان دستورا وافدا على الأمة طارئا عليها . . .

إن موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعي الذي تعلق به الأمة المؤمنة حاجتها إلى هذا الدستور ، وتؤكد مطالبتها به ، وإن موقع القرآن كله بعد الفاتحة هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب»[1] ، انتهى كلامه رحمه الله .

والشيخ ـ كما ترى ـ يجمع الأغراض المتشاجرة في الذكر الحكيم التي يحسبها الناظر أغراضا شتى ـ إلى أغراض أربعة ، ثم يكشف عن العلاقة بين هذه الأغراض ، فالمقصدان العمليان هما ثمرتا المقصدين النظريين ، ثم يكشف عن مواقع هذه الأغراض في فاتحة الكتاب ، وذلك من أظهر البيان عن علاقة فاتحة الكتاب بمقاصد الذكر الحكيم ، ويقول الشيخ الصعيدى ـ « ويجب أن تشتمل مع هذا على ما يسمى براعة الاستهلال ، وهي أن يؤتى قبل الشروع في المقصود بما يشعر به ، ليعرف القارئ الغرض من وضع الكتاب ، ويكون على بصيرة به قبل الشروع فيه ، ثم

(١) نظرات في فاتحة الكتاب للعلامة محمد عبد الله دراز ، مقال نشر بمجلة المجلة العدد السابع ذو الحجة ١٣٧٦هـ يولية ١٩٥٧م .



جاء فيها بعد ذلك ركنها الثالث بقوله : ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾ ، وفي ذلك براعة الاستهلال المطلوبة ، لأنه يشير إلى أن المقصود بالقرآن وضع دين جديد للخلق يشتمل على أحكام لا عوج فيها ولا انحراف ، ويصلح ما أفسده الناس في شرائع من قبله »[١] .

كل هذا التراث الهائل ، كان استنباطا لكلام رسول الله ﷺ في تسمية الفاتحة بأم الكتاب ، وهكذا يأخذ فن براعة الاستهلال الذي هو في التراث القرآني فن علاقة مطالع الكلام بمقاصده ـ المكان الطبعي للنص في التناول له ـ وبيان خيوط النص ، وترابطه وتشابه أوله مع آخره لفظا ومعنى .

ولم يقف علماؤنا عند هذا الحد بل اعتبر أبو جعفر بن الزبير البقرة بيانا لقوله : ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾ قال رحمه الله : « لما قال العبد بتوفيق ربه : ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾ قيل له : ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ** ﴾ هو مطلوبك وفيه أربك وهو الصراط المستقيم،و﴿ **هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ** ﴾ القائلين ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ** . . .﴾[٢] إلى آخر ما قال رحمه الله .

وقال بعض الأئمة : « تضمنت سورة الفاتحة الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليها في دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهود والنصارى ، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها ، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم »[٣] .

---

(١) النظم الفني في القرآن ص٤٢،٤٣ للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب .
(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص٧٨ .
(٣) تناسق الدرر في تناسب السور ص٧٦ .

حتى لكأننا نكاد أن نقول ـ رجما بالغيب ـ إن كل سورة من سور القرآن اختصت ببيان جزء من فاتحة الكتاب ، ولعل في أمر الشارع بوجوب تكرارها في كل ركعة من الفرائض تنبيها إلى عظمها ، وقد أحسن برهان الدين البقاعي عندما قرر أن مقصودها «مراقبة العباد لربهم ، فإن التزام اسمه تعالى ـ وحده كما دل عليه تقديم الجار ـ في كل حركة وسكون داع إلى ذلك : فلا سورة في القرآن أعظم من الفاتحة ، لأنه لا مقصود أعظم من مقصودها ، وهي جامعة لجميع معاني القرآن ، ولا يلزم من ذلك اتحاد مقصودها مع مقصوده بالذات ، وإن توافقا في المآل فإنه فرق بين الشيء ، وبين ما جمع ذلك الشيء فمقصود القرآن تعريف الخلق بالملك وبما يرضيه ، ومقصود الفاتحة غاية ذلك ، لكونها غاية له ، . . وعلى جلالة هذا المقصود جاءت فضائلها»[(١)] ، وكان تقريره هذا المقصود ملازما له في سور القرآن الكريم ، فقد ذكر أن خمسا من سورالذكر الحكيم افتتحت بالحمد لله (الفاتحة ـ الأنعام ـ الكهف ـ سبأ ـ فاطر) ولما كانت الفاتحة أم الكتاب كان حتما أن يكون الحمد فيها أصلا للحمد في بقية السور الأربع ، ولما كانت جميع النعم ترجع إلى إيجاد وإبقاء أولا ، وإيجاد وإبقاء ثانيا في دارى الفناء ، والبقاء ، فإنه قد جمعت سورة الفاتحة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على الإيجادين والإبقاءين ... ثم جاء بالتعبد بالحمد بعد الفاتحة في أربع سور أشير في كل سورة منها إلى نعمة من هذه النعم على ترتيبها ، فالأنعام اختصت بالإيجاد الأول . . والكهف اختصت بالإبقاء الأول ... أما سبأ فإن الحمد فيها على نعمة

---

(١) مصاعد النظر ٢٠٩/١، ٢١٠ .

الإيجاد الثاني .. وأما سورة فاطر فهي سورة الإبقاء الثاني في دار الخلود[١]، وهذه دقيقة من دقائق البقاعي في لطائف المناسبات ، وبيان لعلاقة الإجمال والتفصيل .

وما أحسن قول بعض أهل العلم : « خذ فاتحة الكتاب ، وتأملها بعد أن تكون فرغت لتوك من قراءة القرآن كله لتجعل منه بأسره ، سياقا عاما لهذه السورة »[٢] فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والمغضوب عليهم هم اليهود ، و(الضالين) هم النصارى فوصفه بالاستقامة تعريض بهذه السبل ، فهي سورة الانتماء للإسلام والبراءة من كل ما عداه[٣] .

فمقالات الأئمة شكلت إطارا عاما لموضوع براعة الاستهلال للكتاب كله بفاتحة الكتاب لم يحظ بها كتاب آخر ولا ديوان لشاعر .

* * *

---

(١) راجع نظم الدرر في فواتح هذه السور .

(٢) التعريض في القرآن الكريم ص١١٢ .

(٣) التعريض في القرآن الكريم ص١١٣ وما بعدها .

الباب الثاني

علاقة المطالع بالمقاصد
في السور المفتتحة بحروف التهجي

- الفصل الأول : سورة البقرة .
- الفصل الثاني : سورة آل عمران .
- الفصل الثالث : سورة الأعراف .
- الفصل الرابع : سورة يونس .
- الفصل الخامس : سورة هود .
- الفصل السادس : سورة يوسف .
- الفصل السابع : سورة الرعد .
- الفصل الثامن : سورة إبراهيم .
- الفصل التاسع : سورة الحجر .
- الفصل العاشر : سورة مريم .
- الفصل الحادي عشر : سورة طه .

الفصل الأول

سورة البقرة

يأتى كلامنا في هذه السورة الكريمة إشارات مستخرجة مما ذكره الأئمة في بعض مواضع منها ، ولن نقف إلا عند بعض تراكيب منها ، لأنها أطول سور القرآن قاطبة وهي المسماة الفسطاط .

وقد افتتحت السورة الكريمة بالحروف المقطعة ، والأمر الذي ارتضاه العلامة جار الله الزمخشري ، والمبرد ، واختاره جمع عظيم من المحققين ، أن الله تعالى إنما ذكرها احتجاجا على الكفار ، وذلك أن الرسول ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، فعجزوا عنه ، أنزلت هذه الحروف ، تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف ، وأنتم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين الفصاحة[1] ، وكما تعددت الآيات التي صرحت بالتحدي ، تعددت الافتتاحات المتحدى بها ، وكلامنا يأتي استخراجا مما حدد لها العلماء من مقاصد .

---

(١) الكشاف ٩٦/١، ٩٧ ، ومفاتيح الغيب ٣٦١/١ ، وقد تكلمنا على هذه المسألة في ص ٣٩ من هذا البحث .

وقد تناول العلامة محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم سورة البقرة، وذكر:

«أنها على طولها تتألف وحدتها من مقدمة، وأربعة مقاصد وخاتمة:

المقدمة: في التعريف بشأن هذا القرآن (من أولها إلى الآية ٢١).

المقصد الأول: في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام (٢١-٢٥).

المقصد الثاني: في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم، والدخول في هذا الدين الحق (٤٠-١٦٢).

المقصد الثالث: في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا (١٧٨-٢٨٣).

المقصد الرابع: ذكر الوازع، والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها (٢٨٤).

الخاتمة: في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم (٢٨٥-٢٨٦) وما سقط من الأرقام فهو مداخل.

وقد بين السلك الذي انتظم هذه المعاني، والمقدمة عنده تمتد إلى عشرين آية من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة: ٢١).

وهذه المقدمة تمثل عندنا مطلع السورة الكريمة، والمقاصد التي ذكرها تدخل ضمن هذه المقدمة، ويمكن أن يجمع هذه المقاصد جميعا مقصد واحد هو ـ فيما أرى ـ التعريف بالقرآن، وموقف الناس منه، والدعوة إلى اتباعه مرتضيا في ذلك كلام برهان الدين البقاعي ـ رحمه الله ـ في نظم الدرر.

«وإن شئت قلت: مقصود هذه السورة وصف الكتاب فقط، وما عدا ذلك فتوابع ولوازم»[1].

---

(١) نظم الدرر ١/٧٨.

مع ضميمة ما ذكره في مصاعد النظر في بيان مقصود هذه السورة «والمقصود من هذه السورة : إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل حال ، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب ، ومجمعه الإيمان بالآخرة ، ومداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب ، فلذلك سميت بها السورة ، وكانت بذلك أحق من قصة إبراهيم عليه السلام لأنها في نوع البشر ، ومما تقدم في قصة بنى إسرائيل من الإحياء بعد الإماته بالصعق ، وكذا ما شاكلها ، لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر ، بمباشرة من كان من آحاد الناس ، فهي أدل على القدرة ، ولا سيما وقد أتبعت بوصف القلوب بالحجارة بما عم المهتدين بالكتاب والضالين . . وسميت بالزهراء ، لإيجابها إسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالغيب . . . وبالسنام لأنه ليس في الإيمان بالغيب بعد التوحيد الذي هو الأساس الذي ينبني عليه كل خير .

وبهذا علم أيضا سر التسمية بالذروة ، وبالفسطاط ، والفسطاط : هو الخيمة والمدينة والجماعة ، ولا شك أن الكتاب من الدين بتلك المنزلة ، ولا سيما وفي سورته الدعائم الخمس الخطيرة ، وهو الجهاد وغير ذلك(١).

ولنا عدة استنباطات نرجح بها ما ذكره البقاعي ـ رحمه الله ـ أولها في تركيب بداية مطلع هذه السور ، فمن توابع الكتاب الإيمان بالغيب ، ومدار الإيمان بالغيب البعث ، كما ذكر ـ رحمه الله ـ فقد جاء الحديث عن الكتاب في ثلاث جمل ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ** ﴾ ، ﴿ **لَا رَيْبَ** ﴾ ، ﴿ **فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ فهو الكتاب الموصوف بالكمال ، ونفي الريب عنه في مطلع السورة يتناسب مع ما اختصت به هذه السورة الكريمة من الاستدلال

(١) مصاعد النظر ٢/٩، ١٠ .

للبعث والجملة الثالثة تتناسب مع ما اشتملت عليه السورة من بيان أحكام الشريعة من (الجهاد والطهارة والحيض والصلاة والقبلة ، وطهارة المكان ، وصلاة الجماعة وصلاة الخوف وصلاة الجمع والزكاة والاعتكاف وأنواع الصدقات والبيع والإجارة والميراث والوصية والوديعة والدين والنكاح والخلع والشهادات والربا . . .) .

وهذه اللام الجارة التي في قوله : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ « هي المعبرة السرية التي انزلق عليها الكلام ، وانصب انصبابا واحدا إلى نهاية الحديث عن المؤمنين »[1] ، ثم جاء الحديث عن صفات المتقين مع مراعاة أن النظم الكريم لم يكن : للمتقين المؤمنين بالغيب والمقيمين الصلاة . . . ويكون هذا الكلام المغسول أدخل في باب الإيجاز ، لكن الوصف جاء بالاسم الموصول ، لأن الإبهام يحتاج إلى إيضاح الذي هو جماعة الصلة والتى جاءت فعلية فعلها مضارع ومجيء الجملة بهذه الهيئة يدل على التجدد والحدوث ، وملحظ مهم أيضا في هذا التركيب فقد جاء الإيمان بالغيب هاهنا أول وصف للمتقين ، ولم يأت هذا المعنى بهذا النمط في القرآن ، فكأن تفرد السورة في مطلعها من حيث تركيبه إشارة إلى تفرد مقاصدها ، وتتفرد التراكيب بخصائص تبعا لتفرد المقاصد .

وكان مما ساق الله إلينا استنباطا من كلام العلماء ، أن تركيب جملة الإيمان بالغيب بالفعل المضارع ، إشارة إلى اشتمال السورة الكريمة على استدلالات متعددة بعضها كان ، وبعضها يتجدد وكلها تتآزر في نفي الريب عن البعث .

---

(١) النبأ العظيم ص١٦٥ .



فالبعث أمر غيبي ، والإيمان بالغيب أول صفة للمتقين كما أنبأ بذلك مطلع السورة الكريمة ولما كانت الملائكة أقرب مخلوقات الله ـ سبحانه ـ معرفة به ، وكان تقربهم إلى الله داعية التعرف على أمر الغيب نفى الله عنهم هذه الصفة فيما ذكر من قصة آدم .

وقصة آدم على كثرة ورودها في الذكر الحكيم لم ترد بهذا النمط الذي آذن من أول إيراد القصة باختصاص الله بالغيب يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:٣٠) وترقى الأسلوب في نفى علم الغيب عن أقرب مخلوقاته إليه فقال : ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ (البقرة:٣٠-٣٣).

فأجرى الأسلوب على ريبهم في اختصاص الله بالغيب مع تقربهم من الله وكأن ذلك جاء تفسيرا لتقديم الإيمان بالغيب على أركان الإيمان في مطلع السورة الكريمة ، ولعل اليهود هم أكثر الناس ريبة في أمر البعث الذي هو مدار الإيمان بالغيب لذلك فقد خصهم الله بأدلة على البعث ، خص بها هذه السورة الكريمة أولها قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (البقرة:٥٥،٥٦) ولا أدعى إلى اليقين بالبعث من أن يموت الإنسان ويحييه الله ، وقد ذكروا أن القائلين



«هم السبعون الذين اختارهم موسى»[1] فكأن هذا المشهد اليقيني على البعث لم يره بقية اليهود ، فأجرى الله بعثا بعد ذلك شاهده اليهود ، بفعل بسيط من البشر ، فكان إيراد قصة البقرة التي هي من خصوصيات هذه السورة الكريمة تناسبا مع المطلع الذي تقدم فيه الإيمان بالغيب .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ فكانوا أحق ـ بعد هذا الاستدلال أن توصف قلوبهم بأنها أشد قسوة من الحجارة .

وأمر آخر يفسره مطلع السورة الكريمة وهو اختصاص هذه السورة بقصة هاروت وماروت ، والسحر من أنواعه ادعاء معرفة الغيب ، وقد كان شائعا في اليهود ، وجاء في تراكيب هذه القصة ما يبين أن السحر يتوصل إلى معرفته بالتعلم ، أما علم الغيب فمما لا سبيل إلى تعلمه قال تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ** . . .﴾ (البقرة:١٠٢)، وهو في النظم كما ترى يكرر لفظ التعلم دفعا لادعاء السحرة ـ الذين كثروا في اليهود ـ معرفة الغيب الذي مداره الإيمان بالبعث ناهيك بادعاء الكهنة ، معرفة الآجال ومواقيت انتهائها .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/٤٤٣ .

ثم تختص هذه السورة بحادثة تحويل القبلة التي منها خفاء الحكمة في تحويل القبلة ، ولولا أن الله ذكرها ما عرفها المسلمون حيث قال :

﴿ **وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾ (البقرة:١٤٣) فوجه الحكمة في تشريع الشرائع أمر غيبى .

ومن الاستدلالات على البعث مما خصت به هذه السورة قوله تعالى :

﴿ ۞ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾ (البقرة:٢٤٣).

وقد ذكر المفسرون أنهم « كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون ، وقالوا : نأتي أرضا ليس بها موت ، فأماتهم الله ـ تعالى ـ فمر بهم نبي فدعا الله ـ تعالى ـ فأحياهم ، وقيل : إنهم ماتوا ثمانية أيام وقيل : سبعة »[١] وذكروا غير ذلك ، وقد جاءت هذه القصة في مساق الأمر بالجهاد في سبيل الله ، وهذه القصة تشابه من بعض الوجوه قصة قوم موسى الذين أخذتهم الصاعقة ، إلا أنهم لما كانوا فارين من الموت هاهنا ، صاغ النظم الكريم قصة موتهم بما يفيد أنهم امتثلوا لأمر الله ، وكأن سهولة الموت عند الله كما قال : ﴿ **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (يس:٨٢).

ورحم الله الزمخشري فقد قال في هذه الآية : « فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ **فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟** ﴾ قلت : معناه فأماتهم ، وإنما جيء به على هذه

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٧٤/٣، ٤٧٥، والجامع لأحكام القرآن ١١٤٢/١، ١١٤٣، وتفسير ابن كثير ٢٩٨/١، والكشاف ٣٧٧/١ .

العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوا امتثالا من غير إباء ولا توقف»[1] وهذه القصة مع الإتيان بها للحث على الجهاد في سبيل الله ، إلا أنه لا يمنع من أن تكون للاستدلال على البعث الذي هو مدار الإيمان بالغيب بجوار أخريات القصص السابقة .

ولعل مطلع السورة أيضا يفسر لنا سر اختصاصها بمحاجة إبراهيم عليه السلام الملك ، بنسبة الإحياء والإماتة إلى الله وتفرده ـ سبحانه ـ بهما في قوله تعالى : **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ... ﴾**

(البقرة:٢٥٨).

فنقله إبراهيم عليه السلام إلى موضع لا سبيل إلى المجادلة فيه ، فإذا ثبت الثاني لله ، ثبت له الأول .

ومن الاستدلالات للبعث مما خصت به هذه السورة الكريمة قصة الرجل الذي مر على قرية ، فداخله الريب في أمر البعث لما رأى من خواء عروشها ، وهذا الريب يتجدد لكثير من الناس قال تعالى :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) الكشاف ١/٣٧٧، ٣٧٨ .

قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٥٩) ولنا أن نقارن بين مغزى هذه القصة وبين قوله تعالى في مطلع السورة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وأن نقارن بين هذا الاستدلال ، وبين الاستدلالات السابقة ، فلم تبين الاستدلالات السابقة كيفية الإحياء ، وليس فيها أمر بالنظر كما هنا وانظر إلى حمارك . . . وانظر إلى العظام . وقد جاءت القصة هاهنا ردا لاستفهام تعجبي أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ لذلك ختمت القصة بقوله : ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

ثم تأتي قصة إبراهيم عليه السلام مع الأطيار مبدوءة بطلبه رؤية إحياء الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٠) ويراعى ما في هذه القصة من ذبح الأطيار وتوزيع أجسادها على رءوس الجبال فقد روي «أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ، ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ، وأن يمسك رءوسها ، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال ، على كل جبل ربعا من كل طائر ، ثم يصيح بها : تعالين بإذن الله ، فجعل كل جزء يطير على الآخر حتى صارت جثثا ، ثم أقبلن فانضممن على رءوسهن كل جثة على رأسها»[1] .

وهذه الرواية تدل على أن هذه القصة في الاستدلال للبعث أدعى إلى اليقين به من كل مامضى من القصص ، ولما صدرت بقول الخليل ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ختمت بقوله تعالى : ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

---

(١) الكشاف ٣٩٢/١ .



وملحظ آخر هو أن هذه السورة الكريمة اختصت ببسط الحديث عن الإنفاق في سبيل الله، وضرب الأمثال له ولمضاعفة أجره وجاءت تشبيهات الإنفاق في سبيل الله مشتملة أيضا بالاستدلال للبعث ، لأن الإيمان به أدعى إلى الإنفاق في سبيل الله انظر كيف صور مضاعفة النفقة في سبيل الله :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ . . . ﴾ (البقرة:٢٦١) وكان يمكن أن يؤدي هذا المعنى بقولنا : الحسنة بسبعمائة ضعف ، ولكنه جاء بالمثل هكذا ليصور قصة البعث[١] . التي تتجدد كل يوم في النبات تناسبا مع مطلع السورة من وصف المتقين بالإيمان بالغيب الذي مداره البعث كما ذكر برهان الدين .

وكلامنا في مثل النفقة جاء استنباطا من كلامه ـ في وجه سياقة هذا المثل ـ « وساقه على وجه يتضمن إحياء الموات الذي هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات فهو إيماء إلى الاستدلال على البعث بأمر محسوس ، وذلك من دقيق الحكمة فكأنه تعالى يقول : « إن خليلي لما كان من الراسخين في رتبة الإيمان أهلته لامتطاء درجة أعلى من درجة الإيقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن إحياء الأطيار ، وأقمت نمطا من ذلك لعامة الخلق مطويا في إحياء النبات على وجه معتاد فمن اعتبر به أبصر ومن عمي انعكس حاله وأدبر »[٢] .

كذلك لم يكثر الأمر بإقامة الصلاة ، والمحافظة عليها ، والاستعانة بها كثرته في هذه السورة فقد جاء ذلك في تسع آيات تناسبا مع مطلع السورة من وصف المتقين بإقامة الصلاة .

---

(١) ينظر في تحليل هذا التشبيه : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ، ص ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨ دكتور إبراهيم الهدهد مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/٧٤ .

كذلك لم يطل الحديث عن اليهود طوله في هذه السورة مع يقيننا بأنهم كفار من حيث عقيدتهم ، فقد جاء في هذه السورة الحديث عن صور شتى من إيمانهم ثم كفرهم ثم إيمانهم . . . إلخ فكأن ذلك يتناسب مع ما في مطلع السورة ، من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ** ﴾ .

ومما يتناسب أيضا مع مطلع السورة في قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ** ﴾ حديثه سبحانه عن المنفق المرائي بنفقته ، والرياء خصلة من خصال المنافق ولبرهان الدين البقاعي ـ رحمه الله ـ نصوص جيدة في هذه السورة عند بعض التراكيب نستطيع أن نستخرج تفسيرها من مطلع السورة قال عند قوله تعالى : ﴿ **فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ** . . . ﴾ .

« وحكمة الإتيان بمن التبعيضية في هذه السورة دون بقية القرآن ، أنه ـ سبحانه ـ لما فرض لهم فيها الريب الذي يلزم منه زعمهم أن يكونوا اطلعوا على مثيل ، أو سمعوا أن أحدًا عثر له على شبيه اقتضى الحال الإتيان بها ، ليفيد أن المطلوب منهم في التحدي قطعة من ذلك المثل الذي ادعوه »[1] .

وترجيحه أن تكون من تبعيضية يتناسب الترقي في التحدي ؛ والآية الأقرب إلى تركيب هذه الآية قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ** ﴾ (يونس:٣٨) فالإعجاز عند البقاعي يأتي في سورة ، أو في

---

(١) نظم الدرر ١/١٦٥ .

مقدارها من الآيات ، وادعاؤهم أن القرآن افتراء لا يقضي أن يكونوا اطلعوا على مثيل لكنه لما فرض الريب في مطلع آية التحدي في سورة البقرة ورؤية المثيل من دواعي الريب تحداهم بالإتيان بسورة من هذا المثل والناظر في مطلعي سورتي البقرة ويونس يتبين الفرق ، ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ** ﴾ ﴿ **تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ** ﴾ فقد جاء نفي الريب بأبلغ بيان في مطلع سورة البقرة ، وجاءت آية التحدي بعد ببيان قاهر ﴿ **فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ** ﴾ تناسبا مع المطلع ، وبيانا لكمال هذا الكتاب ، ونفيا لكل ريب يخدش هذا الكمال ، ولعل برهان الدين كان ناظرا إلى مطلع البقرة في بيان هذه الحكمة التي ذكرها ، فقد صرح بالنظر إلى أول السورة في مواطن متعددة من السورة .

قال عند قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ (البقرة:١٦٧).

« ولعل الآية ناظرة إلى قوله أول السورة : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**. . . ﴾ يعني : كما أن في أهل الكتاب منافقين مصارحين ، فكذلك في العرب ، فصار قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ**. . . ﴾ شاملا للأقسام الأربعة ثم أتبع ذلك المنافقين من العرب ثم المنافقين والمشاقين من أهل الكتاب ، ثم المجاهدين من العرب ، فصار قسما العرب مكتنفين لقسمي أهل الكتاب ، إشارة إلى أنهم المقصودون بالذات ، وأنه سيؤمن أكثرهم »[1] .

---

(١) نظم الدرر ٢/٣١٣ .



وأفهم من هذا النص أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ . . . ﴾ إجمال لوصف موقف الكافرين من الكتاب . . . ثم صنف القرآن ـ بعد هذا الإجمال ـ الكافرين إلى أصناف ... ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا . . . ﴾ (البقرة:٨) وما ترتب على هذه الآية بعد ذلك . . . ثم الصنف الذي يتحدث عنه هنا .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ (البقرة:١٦٥). . . وصنف آخر يعود إلى الصنف الأول ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (البقرة:٢٠٤) وصنف آخر ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ (البقرة:٢٠٠).

وصنفان ممدوحان يعودان إلى أوصاف المتقين في مطلع السورة الكريمة ، هما قوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً . . . ﴾ (البقرة:٢٠١) وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ . . ﴾ (البقرة:٢٠٧).

مع مراعاة أن هذا التركيب ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن . . . ﴾ الذي يصنف الناس لم يتكرر في القرآن تكرره في سورة البقرة ، والمواضع التي جاء فيها في القرآن[1] لم تتناول تصنيف الناس من الوجهة التي تناولتها هذه السورة ، وهذه أسرار لا تتجلى إلا بدراسة تنوع هذا التركيب تبعا لتنوع مساقاته في كل موضع لا سيما تنوع مطالع السور التي جاء فيها .

ومما صرح به في بيان العلاقة عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى

(١) راجع هذا التركيب في سورة الحج ٣، ٨، ١١ والعنكبوت ١٠، ولقمان ٦، ٢٠، وفاطر ٢٨ .

بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قوله : « أي الذي له العلم الشامل والقدرة التامة ، انعطاف على ذلك الكتاب لا ريب فيه وما شاكله »[1] .

لعله يقصد أن قوله ﴿ **مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ** ﴾ انعطاف على قوله : ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ** ﴾ أي من يكتم هذا الكتاب الكامل الذي أنزله من له العلم الشامل والقدرة التامة فله من العذاب كذا وكذا ، على أي حال فلم يرد توعد لمن يكتم الآيات بهذا التركيب ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ** . . . ﴾ إلا في هذه السورة الكريمة هنا وقيل ذلك في قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ** . . . ﴾ (البقرة:١٥٩) تناسبا مع تفرد المطلع بوصف الكتاب بالكمال ونفي الريب عنه ، وتناسبا مع ما سبق في السورة من تحريف أهل الكتاب كتابهم ، وكتمان ما فيه وتكرره في غير موضع من هذه السورة الكريمة ، بحيث يصبح من خصائص سورة البقرة .

وكان مما قاله برهان الدين ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى : ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ** . . . ﴾ (البقرة:٢١٦) قوله :

« ولما كانت النفقة من أصول ما بنيت عليه السورة من صفات المؤمنين ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ ثم كرر الترغيب فيها من أول آيات الحج الماضية آنفا مع أنها من دعائم بدايات الجهاد إلى أن تضمنتها الآية السالفة مع القتل الذي هو نهاية الجهاد ، كان هذا موضع السؤال عنهما فأخبر تعالى عن ذلك على طريق النشر المشوش .... فقال معلما لمن سأل : هل سأل المخاطبون بذلك عنهما ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ** ...﴾[2] .

---

(١) نظم الدرر ٢/٣٣٠ .

(٢) نظم الدرر ٣/٢١٢ .



فاشتمال مطلع السورة على أصول بنيانها من أقوى العلاقات ، وبعد تفنن الأسلوب في الحديث عن الإنفاق من خصائص هذه السورة ، ووضوح كلام البقاعى هنا لا يحتاج إلى بسط .

ومما صرح به في بيان العلاقة ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ** . . . ﴾ (البقرة:٢٥٦) قال : ـ رحمه الله ـ « ولعل في الآية التفاتا إلى ما ذكر أول السورة في الكفار من أنه سواء عليهم الإنذار وتركه »[١] ولم يرد في القرآن ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ** ﴾ في غير هذه السورة تناسبا مع مطلعها ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ** . . . ﴾ لأن آية المطلع هي الأخرى لم ترد في أي من سور القرآن ، وإن جاء التعبير عن معناها بوجوه أخرى .

ومن مقالاته في بيان علاقة المطالع بالمقاصد ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** . . . ﴾ (البقرة:٢٦١) قوله : « ولما انقضى جواب السائل عن الملك الذي لا تنفع عنده شفاعة بغير إذنه ولا خلة ولا غيرهما وما تبع ذلك ، إلى أن ختم بقصة الأطيار التي صغت إلى الخليل بالإنفاق عليها ، والإحسان إليه ، ثنى الكلام إلى الأمر بالنفقه ، قبل ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه الوسائل إلا بالوجه الذي شرعه بعد قوله : ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ** . . . ﴾ نظر إلى أول السورة تذكيرا بوصف المتقين حثا عليه فضرب لذلك مثلا صريحا لمضاعفتها »[٢] .

على أنه قد ورد الحديث عن الإنفاق في مطالع سور أخرى ، لكن التشبيه هنا جاء مشتملا بالاستدلال على البعث لعلاقة المجاورة في نظام

---

(١) نظم الدرر ٤/٤٤ .

(٢) نظم الدرر ٤/٧٣ .

الآيات التي في مطلع هذه السورة الكريمة ، وقد ظهر ذلك في اختيار عناصر التشبيه كما ذكرت .

ومما صرح به أيضا في بيان العلاقة عند قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ . . . ﴾ (البقرة:٢٨٥) ـ قوله ـ بعد بيان مناسبتها لما قبلها : « وأما مناسبتها لأول السورة ردا للمقطع على المطلع ، فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم ختمها بذلك ، بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي »[(١)] .

وهذا الموطن من أصرح المواطن في موضوعنا الذي نعالج ، ولوقوع هذه الآية في نهاية البقرة وجه لطيف في بيان وصف الكتاب أولا ، ثم موقف الناس ، ثم ختم السورة بأرقى المواقف تجاه هذا الكتاب المحكم ، وهو ما ينبغي أن يكون ، وجاء مطلع الآية بلفظ الماضي هاهنا (ءامن) ولنا أن نقارن بين هذا اللفظ ، وبين مجيئه بالمضارع في مطلع السورة الكريمة ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ إنها رحلة وصف هذا الكتاب والاستدلال لصدقه واليقين بما يحويه، ينبغي أن تختم هذه الرحلة بالإيمان والتصديق، ولما حوت السورة شرائع أهل الكتاب كان من شريعة المؤمنين ألا يفرقوا بين أحد من رسله وكل آمن ﴿ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ اقرأ في المطلع إن شئت ﴿ وَبِٱلْأَٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ألا لله تنزيل هذا الكتاب .

---

(١) نظم الدرر ١٦٨/٤ .



وقد ختم برهان الدين الكلام على هذه السورة بقوله :

« وقد بان بذكر المنزل والإيمان به ، والنصرة على الكفار وبعد تفصيل أمر النفقة ، والمال الذي ينفق منه . . . رد مقطعها على مطلعها وآخرها على أولها »[1] ولم أجد في تراث علمائنا ما أستطيع أن أستنبط منه حديثا في علاقة المطالع بالمقاصد في هذه السورة الكريمة ، سوى ما ذكرت من كلام برهان الدين ـ رحمه الله ـ وما قاله العلامة الدكتور دراز في بيان وحدة هذه السورة الكريمة .

* * *

(١) نظم الدرر ١٨٨/٤ .

الفصل الثاني

سورة آل عمران

يكاد يجمع الأئمة[1] على أن صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية منها نزلت في وفد نصارى نجران في محاجتهم رسول الله ﷺ بل روي «أن السورة كلها إلى قوله : ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ كان سبب نزولها نصارى نجران ، ولكن مزج معهم اليهود ، لأنهم فعلوا من الجحد والعناد فعلهم»[2] .

وكان سبب نزول هذه الآيات نورا اقتبس منه أهل البصيرة تأويلات لآيات هذه السورة ، كانت لنا فيها بصائر تهدي إلى استكشاف علاقة مطلع السورة بمقصودها الأصلي وعلاقة المقاصد الأخرى بذلك المقصود الأصلي .

---

(١) ينظر : في سبب نزول هذه الآيات جامع البيان ١٠٧/٣، ١٠٨، ومفاتيح الغيب ٦٦/٤، وأسباب النزول للواحدى النيسابورى ص٦٧، والجامع لأحكام القرآن ١٣٥٧/٢، وتفسير ابن كثير ٣٦٨/١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٤٧١/٢ .

ذكر محمد بن جرير الطبري ـ بعد ذكر سبب النزول ـ في تأويل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ أنه ـ سبحانه ـ افتتح السورة بتبرئة نفسه ـ تبارك وتعالى ـ مما قالوا ، وتوحيده إياها بالخلق والأمر لا شريك له فيه ، ورد عليهم ما ابتدعوا من الكفر ، وما جعلوا معه من الأنداد ، واحتجاجا عليهم بقولهم في صاحبهم ليعرفهم بذلك ضلالتهم فقال : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ﴾[(١)] .

وذكر تأويل السلف معنى ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾ « فقال بعضهم : معنىذلك من الله تعالى ذكره ـ أنه وصف نفسه بالبقاء ، ونفى الموت الذي يجوز على من سواه من خلقه عنها (ثم عز إلى محمد بن جعفر بن الزبير أن معنى الحي) الذي لا يموت ، وقد مات عيسى ، وصلب في قولهم ، يعني في قول الأحبار الذين حاجوا رسول الله ﷺ من نصارى أهل نجران . . . وقال آخرون : معنى الحي ـ الذي عناه الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية ووصف به نفسه ـ أنه المتيسر له تدبير كل ما أراد وشاء لا يمتنع عليه شيء أراده ، وأنه ليس كمن لا تدبير له ، من الآلهة والأنداد ، وقال آخرون : معنى ذلك أن له الحياة الدائمة التي لم تزل له صفة ، ولا يزال كذلك . . ومعنى ذلك عندي أنه وصف نفسه بالحياة الدائمة ، التي لا فناء لها ، ولا انقطاع ، ونفى عنها ما هو حال بكل ذي حياة من خلقه من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله فأخبر عباده أنه المستوجب على خلقه العبادة والألوهة ، والحي الذي لا يموت ولا يبيد كما يموت كل من اتخذ من دونه ربا ، ويبيد كل من ادعى من دونه إلها واحتج على خلقه بأن من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى ، فلا يكون إلها يستوجب أن يعبدون الإله الذي لا يبيد

(١) جامع البيان ١٠٨/٣ .

ولا يموت ، وأن الإله هو الدائم الذي لا يموت ولا يبيد ولا يفنى ، وذلك ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1] .

وهذه الصفة ـ بكل ما أورد السلف من تأويلات لها ـ من مقتضيات الوحدانية التي هي أول صفات الله في هذه السورة ، فالواحد في ذاته واحد في صفاته ، ولوصفه ـ سبحانه ـ نفسه في مطلع هذه السورة بالحياة تفسير لاختصاص هذه السورة بكثير من المعاني كما سيأتي بيان شيء منه .

وقد ذكر ابن جرير تأويل السلف معنى ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فقال بعدما أورد وجوه اختلاف القراءات فيها : « ومعنى ذلك كله القيم بحفظ كل شيء ورزقه ، وتدبيره وتصريفه فيما شاء وأحب من تغيير وتبديل وزيادة ونقص . . . عن مجاهد . . . ﴿ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ القائم على كل شيء . . . عن الربيع ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ، وقال آخرون : معنى ذلك القيام على مكانه ، ووجهوه إلى القيام الدائم الذي لا زوال معه ولا انتقال ، وأن الله ـ عز وجل ـ إنما نفى عن نفسه بوصفها بذلك التغيير والتنقل من مكان إلى مكان ، وحدوث التبدل الذي يحدث في الآدميين وسائر خلقه وغيرهم . . . عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ القيّام على مكانه من سلطانه في خلقه لا يزول وقد زال عيسى في قولهم يعني : في قول الأحبار الذين حاجوا النبي ﷺ من أهل نجران في عيسى عن مكانه الذي كان به وذهب عنه إلى غيره ، وأولى التأويلين بالصواب ما قاله مجاهد والربيع ، وأن ذلك وصف من الله ـ تعالى ذكره ـ نفسه بأنه القائم بأمر كل شيء في رزقه والدفع عنه . . . من قول العرب : فلان قائم بأمر هذه البلدة يعني بذلك : المتولي تدبير أمرها »[2] .

---

(١) جامع البيان ٣/١٠٩ .

(٢) جامع البيان ٣/١١٠ .

وهذه الصفة أيضا من مقتضيات الوحدانية ، والذي يكون على ذكر من هذه الصفات الثلاثة ، وتأويل أهل البصر لها ، ويستظهر كتاب الله ، ويقرأ السورة الكريمة يرى أن معاني هذه السورة جرت في هذه الروافد الثلاثة المذكورة في مطلعها ، مع مراعاة تفرد هذا المطلع بهذه الصفات ، ومراعاة تفردها بتفصيل الحديث عن أهل الإنجيل «قال الحرالي : ولما كانت هذه السورة منزلة لتبيين ما اشتبه على أهل الإنجيل جرى ذكر أهل التوراة فيها مجملا بجوامع من ذكرهم ، لأن تفاصيل أمرهم قد استقرأته سورة البقرة ، فكان أمر أهل التوراة في سورة البقرة بيانا ، وأهل الإنجيل إجمالا ، وكان أمر أهل الإنجيل في سورة آل عمران بيانا ، وذكر أهل التوراة إجمالا»[1].

وذكروا أيضا أنه «لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة وكالمكملة لها افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك ، وصرح في منطوق مطلعها بما طوي في مفهوم تلك»[2] ولعلهم يشيرون بذلك إلى التصريح بالتوحيد الذي هي من مدارج الإيمان بالغيب في الذروة .

ولعل مقالة الحرالي تفتح لنا بابا لفهم اختصاص السورة الكريمة بآية المتشابه ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ** ﴾ (آل عمران:٧) فالسورة منزلة لتبيين ما اشتبه على أهل الإنجيل ـ كما ذكر ـ فلعل الكيفية التي خلق بها عيسى عليه السلام من متشابه آيات الله في كتابه المفتوح والتي ينبغي رد الأمر فيها إلى الله ـ تعالى وجلت قدرته ـ فكذلك ينبغي أن يكون موقف المسلمين من متشابه الآيات

(١) نظم الدرر ٤/٢٩٨ .

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص٨٣ .

في كتاب الله المقروء ، وأن يكون قولهم : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[1] استسلاما وانقيادا .

وسبب النزول هو الذي هدى بصيرة البقاعي إلى بيان مقصود السورة فقال : « ومقصودها : التوحيد . . . فلما ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنه هدى ، وقامت به دعائم الإسلام الخمس ، جاءت هذه لإثبات أمر الدعوة الجامعة في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ . . . ﴾ فأثبت الوحدانية له ـ سبحانه ـ بإبطال إلهية غيره ، بإثبات أن عيسى عليه السلام الذي كان يحيي الموتى عبده ، وهو الذي أقدر آحاد بنى إسرائيل ـ على عهد موسى عليه السلام على إحياء ذلك القتيل . . . .

والدليل على أن المقصود من هذه السورة الدلالة على التوحيد تسميتها بآل عمران ، فإنه لم يعرب عن هذا القصد في هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه ـ سبحانه ـ فيها من إخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد ، الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه ، فهو التاج الذي هو خاصة الملك المحسوسة ، كما أن التوحيد خاصته المعقولة »[2] .

والسورة منزلة لبيان ما اشتبه على النصارى فلم لم تُسَمَّ بسورة « عيسى » ؟ ولا تستهِينَنَّ بكلام البلاغيين في أن تسمية السورة بمقصود من مقاصدها من باب تسمية الكل باسم الجزء ، فالأمر في فقه هذا الكتاب على غير الوجه الذي تظن ، لأن مقالة البقاعي تلك تساندها تراكيب قصة آل عمران مع استحضار تأويلات السلف الصالح لمطلع السورة الكريمة .

---

(١) وهو ما عليه مذهب أهل السنة من رد المتشابه إلى المحكم ، وهم أبصر الناس بفقه هذا الكتاب .

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢/٦٧، ٦٨ .

فقصة آل عمران هي قطب هذه السورة وعمودها ، وجاءت تراكيب القصة على ما اقتضاه مطلع السورة من التوحيد ومقتضياته .

ولعل ما يساندنا في هذا الفهم من أهل البصيرة ما ذكره العلامة ابن عاشور من أن السورة من أولها إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ... ﴾ « تمهيد لما نزلت السورة بسببه ، وبراعة استهلال لذلك »[(١)] ولم يكن ـ رحمه الله ـ ممن يلقون بالكلام دون تدبر ، والأمر كما قال ـ رحمه الله ـ إلا أننا نرى أن هذا التمهيد الذي ذكره جرى في هذه الروافد الثلاثة المذكورة في مطلع السورة . أليس من مقتضيات القيومية أن يكون القيم عالما بكل ما يقوم عليه؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ وخالف أنت هذا النظم وقل : إن الله يعلم كل شيء في الأرض وفي السماء أترى فرقا؟ لا ريب أنك واجد أن التعبير المعجز يؤدي مفهومه إلى المعنى الآخر على التمام والكمال ، ولكن الثاني لا يؤدي إلى الأول ، فضلا عمَّا في التعبير المعجز من دقائق يطويها التعريف والتنكير والتأكيد وغير ذلك مما يناسب معنى القيومية ، ودلل لقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ بقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ بما لا يدع مجالا لمرتاب في خفاء ذلك على كل أحد إلا الله ، لذلك ينبغي أن يكون الإقرار بعد ذلك بأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قال القرطبي : « وهذه الآية تعظيم لله تعالى وفي ضمنها الرد على نصارى نجران وأن عيسى من المصورين »[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير آل عمران ص١٤٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/١٣٦٠ .

ولما كان من مقتضيات الإيمان بالقيومية الثقة بالرزق ، وتحري جمعه من الحلال وتقبيح جمعه من الحرام ، لأنه يؤدي إلى اهتزاز قاعدة الثقة بقيومته ، كان لهذه السورة الكريمة خصوصيات في الدعوة إلى الزهد ، وجرت المعاني الكثيرة في هذا الرافد المذكور في مطلع السورة (القيوم) والذي قلته جاء استبصاراً لكلمة البقاعي ـ عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا . . .﴾ «ولما كانت هذه السورة سورة التوحيد ، كان الأليق بخطابها أن يكون الدعاء فيه إلى الزهد أتم من الدعاء في غيرها ، والإشارة فيه إلى ذلك أكثر من الإشارة في غيره ، فكانت هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . .﴾ قاطعة للقلوب»[1] .

مع تدبر الفرق بين قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِيَ ﴾ وقولنا : (لن تدفع عنهم . . . . .) وكان التعبير الثاني هو الأليق بمقام دفع العذاب بحسب النظر إلى الآية وحدها لكن التعبير القرآني ناسب معنى القيومية ، وجاء دفع العذاب في التعبير المعجز ضمن فوائد المال والولد ، وأفاد مع ذلك أن الاهتمام بجمعه بنية دفع السوء وغيره ينافي الإيمان بالقيومية التي مقتضى الإيمان بها التسليم والانقياد للواحد ، ثم جاء عقب هذه الآية إشارة لتنويع الناس من حيث الإيمان بالقيوم ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ . . .﴾ ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ . . .﴾ بما ستفصله السورة بعد ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ الذي يعد من خصائص هذه السورة والذي يجري في رافد الدعوة إلى الزهد ، الذي هو من مقتضيات الإيمان بالقيومية .

ثم جاء القرآن بعد ذلك برصد جزاء المؤمنين بقيومية الله ووحدانيته ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم . . .﴾ ثم رصدت أوصافهم من بعد ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/٢٥٤ .

﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا . . .﴾ ولما كانت الدعوة إلى الزهد الذي يقتضي البذل ، الذي من أعلى أنواعه بذل الروح ، وكانت هذه الأمور تحتاج إلى صبر مُحَلَّى بالصدق ، وكان القنوت معينا عليه ، والإنفاق من ثمراته ، وإمساك المال وحبه من سيئات هذا الصبر مما يقتضي الاستغفار كان نظام أوصافهم في النظم المعجز ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فهذه الصفات ـ التسليم لله ، والصبر ، والصدق ، والتعبد ، والإنفاق والاستغفار ـ إطار عام لقصة بدر وأحد وحمراء الأسد التي جاءت في السورة بعد ، والناظر في تراكيب هذه القصص في هذه السورة وهذه الآية التي بأيدينا ، بوسعه أن يفسر كثيرا من مشتبه النظم في السورة الكريمة .

ثم عادت السورة إلى الأصل الكبير الذي هو مقصودها صراحة بقوله : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ . . .﴾ وهذه الشهادة الإلهية لم تقع إلا في هذه السورة ، وأحسب أن علاقة هذه الآية بمطلع السورة من أوضح ما يكون ، وتدبر تراكيب الآية واستبصار المطلع يؤديان إلى التسليم بأنه من عند الله ، ولما كان روح الاعتقاد بوحدانية الله وحياته وقيوميته التسليم له والانخراط في منهجه جاء قوله : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1] «جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى» (آل عمران:١٩) وهي من خصائص هذه السورة جرت في الرافد الأول من روافد هذه السورة ، وكان بداية التعبير بها فاتحة الإكثار بالتعبير عن الاستسلام والانقياد لله في هذه السورة وكثر استعمال النظم لها في هذه السورة كثرة تجعله من خصائصها .

---

(١) الكشاف ٤١٨/١ .



﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ (آل عمران:٢٠) ومجال التنظير بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ . . .﴾ إلى آخر قوله : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ . . .﴾ (آل عمران:٦١-٦٦) يجعلنا نعتقد أن الآية الأولى قاعدة المحاججة وإجمال لطريقتها وبيان لنتائجها الواقعة في السورة بعد ، وتلك كلمة ابن عاشور أن السورة إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ . . .﴾ تمهيد لما نزلت السورة بسببه وبيان أيضا أن قصة آل عمران هي قطب السورة وعمودها .

ومن خصائص هذه السورة مما يجري في الرافد الأول من مطلعها ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ . . .﴾ (آل عمران:٨٣) وقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ . . .﴾ (آل عمران:٨٥) مع تبصر أن هذين القولين وقعا بعد عرض قصة آل عمران ، ولنا في المقارنة بين هذين القولين من حيث التراكيب ـ وبين تراكيب آية شهادة الله لنفسه بالوحدانية ، وتقرير أن الدين عند الله الإسلام استناد قوي في التدليل على صدق مقالة البقاعي في أن الدليل على أن مقصودها التوحيد تسميتها بآل عمران .

واستناد آخر إلى تركيب القصة ذاتها ، فقد مهد النظم لإيراد قصة آل عمران بآيتين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٣٣،٣٤).

أرأيت قد جاء ذكر عيسى عليه السلام ضمنا في آخر المصطفين وفي ضمن ذلك رد على النصارى ، في أنه لم يحظ باصطفاء وحده وإنما هو من آل عمران الذين جرت فيهم أعاجيب قدرة الله ، وملمح لطيف يُرد به على النصارى أيضا في الآية الثانية التي وقعت بدلا ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا . . .﴾ ولا ريب

أن النصارى واليهود على التسليم بأن آل عمران ذرية مصطفاة ، والتسليم بهذا تسليم ببشرية عيسى عليه السلام ولئن ورد الشك في حقيقته فإيراد الشك في ألوهيته أولى .

ولئن أورد الشك في آل عمران فوروده في آل إبراهيم الذين منهم محمد ﷺ الذي يحاججونه والذين ينحدر منهم آل عمران ، والذين ضمنهم عيسى يأتى ضمنا ، والإقرار بأن هؤلاء المصطفين جميعا ذرية آدم الأطهار ، مما لا ريب فيه ، فأى خصوصية لعيسى دون هؤلاء حتى يكون ، ابنًا لإله أو إلها ، إن تركيب الآيتين ناظر إلى مطلع السورة الكريمة ، فقد مات هؤلاء جميعا كما مات عيسى وسبحان الحي ولا ينبغي أن يكون ميلاده المعجز دعوى تأليه ، ولئن كان كذلك فدعوى التأليه لآدم أولى ، وليس عيسى واحدا في خلقه ولا في تصرفه ولا في تفضيله ، وسبحان الواحد ثم تأتي تراكيب القصة غير مفردة لعيسى باصطفاء ، وإنما جعلته ذيل المصطفين من آل عمران كما يقضى بذلك ، وذلك في الرد على النصارى أقوى ولحجتهم أقرع .

لذا لو خالفنا النظم المعجز مثلا وقلنا : (وإذ قالت حنَّة رب[1] إنى وضعتها أنثى . . .) وكان هذا التعبير المقترح يكون أدخل في باب الإيجاز وأكثر تطابقا مع الواقع ، فما فائدة عدم التصريح باسم أم مريم ، وما فائدة إضافتها إلى عمران؟ ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى . . .﴾ (آل عمران:٣٦).

إن ذكر عمران هنا هو الرابط وعمود قصص بني إسرائيل في السورة فهو الذي ربط القصة بالآيتين السابقتين ، واندرجت بعد قصة مريم ،

(١) وحنة هذه «هى حنة بنت فاقود بن قنبل جدة عيسى عليه السلام» . الجامع لأحكام القرآن ٢/١٤١٦ .



وزكريا ـ عليهما السلام ـ ثم عيسى من بعدهما ، حتى لا يتبادر إلى ذهن مرتاب أن . . . هؤلاء جميعا ليسوا من آل عمران الذين اصطفاهم الله ، ولو جاء النظم على ما اقترحناه من التعبير لانفرط عِقْدُ القصة ، الذي انتظمه غرض هذه السورة الكريمة ، وهذه القصة من قصص آل عمران تفردت السورة بحلقة منها حديث الاصطفاء وحمل مريم ، ونذر أمها إياها ـ على اشتهائها الولد[1] ـ إلى بيت المقدس ، وقصة رزق مريم العجيب في نوعه وكيفيته ، وقصة تقبل الدعاء ، الذي جاء على لسان من آمن بقدرة الله وقيوميته وحياته ووحدانيته هكذا كان آل عمران في الإيمان بالوحدانية ، والذي يتدبر فروق النظم في هذه القصة ، يرى أنها جرت في روافد مطلع السورة الثلاثة ، بل أغرب من ذلك أن يكون السر في مشتبه النظم هو غرض السورة الذي جاء في مطلعها ، والبقاعي يحثنا على تدبر اختلاف نظوم القصص فيقول :

« ولأجل اختلاف مقاصد السور تتغير نظوم القصص وألفاظها ، بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك القصد ، مثال مقصود سورة آل عمران التوحيد ، ومقصود سورة مريم ـ عليهما السلام ـ شمول الرحمة فبدئت آل عمران بالتوحيد وختمت بما بني عليه من الصبر ، وما معه مما أعظمه التقوى ، وكرر ذكر الاسم الأعظم الدال على الذات الجامع لجميع الصفات ـ تكريرا لم يكرر في سورة مريم ، فقال في قصة زكريا عليه السلام :

---

(١) فقد رووا « أنها كانت عاقرا لم تلد إلى أن عجزت فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد ، وتمنته فقالت : اللهم إن لك عليَّ نذرا شكرا إن رزقتنى ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل » الكشاف ١/٤٢٥ .

﴿ كَذَٰلِكَ يَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ وقال في مريم : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . .﴾ ، وقال في آل عمران في قصة مريم ـ عليها السلام ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ . . .﴾ وفي مريم : ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ وغير ذلك بعد أن افتتح السورة بذكر الرحمة لعبد من خلص عباده ، وختمها بأن كل من كان على منهجه في الخضوع لله يجعل له ودا ، وأنه ـ سبحانه ـ يسر هذا الذكر بلسان أحسن الناس خَلْقا وخُلُقا ، وأجملهم كلاما ، وأحلاهم نطقا ، وكرر الوصف بالرحمن وما يقرب منه من صفات الإحسان من الأسماء الحسنى في أثناء السورة تكريرا يلائم مقصودها ، ويثبت قاعدتها وعمودها »[1] .

ونضرب مثلا لذلك ، بقوله تعالى في آل عمران : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ . . . ﴾ (آل عمران: ٤٠) وقال في مريم : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم: ١٩) .

والعلة في هذا التغاير عند الكرماني أنه « قدم ذكر المرأة ، لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبر في قوله : ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ ، وتأخر ذكر المرأة في قوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ﴾ ثم أعاد ذكرها فأخر ذكر الكبر ليوافق عتيا ما بعده من الآيات »[2] ، فالعلة عنده مراعاة الفاصلة ، ونحن لا ننكر أثر التنغيم الصوتي في إبلاغ المعنى ، لكنا نرى وجها آخر في التعليل لهذا الفرق ، فقصة آل عمران مقصودها التوحيد ، وفيها مجادلة النصارى .

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١/١٥٢، ١٥٣ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٤٧ .

ودعوى التأليه والبنوة عرضتا للنصارى من افتقاد عيسى في وجوده للسبب الأقوى في الوجود (الأبوة) ، والبشارة بيحيى في آل عمران جاءت مماثلة لهذا المقصود ، فقدم السبب الأقوى وأخر السبب الأدنى ولا يعترض علينا في هذا الاستنباط بأنه قد تقدم قوله تعالى في مريم : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ (مريم:٤)، وقوله : ﴿ **وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا** ﴾ (مريم:٥) فجاء ترتيب آل عمران على ترتيب مريم ، فالمقارنة فيما قاله زكريا عليه السلام بعد البشارة ، وهو ما وقع فيه التقديم والتأخير ، بل إن ما يعترض به علينا يمكن أن يكون معينا لنا في أن زكريا قدم ضعف السبب الأقوى ، وأعقبه بالأدنى في دعائه .

ولئن صح ما استنبطته فهو من أسباب تسميتها بآل عمران لدلالتها على التوحيد أيضا ، وكان هذا الاستنباط قبسا من بصيرة البقاعي في قوله : « ومناسبة ابتدائها بالتوحيد لما في أثنائها أنه لما كان خلق عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أنثى فقط ، وهي أدنى أسباب النماء ، كان وجوده إشارة إلى أن الزيادة قد انتهت ، وأن الخلق أخذ في النقصان . . . وصدرت هذه السورة التي نزل كثير منها بسببه بالوحدانية إشارة إلى أن الورث قد دنا زمان إرثه »[1] والوارث هو الحي .

ونموذج آخر يهدينا البقاعي إلى استكشافه في أن تراكيب القصة تتابع في تغايرها اختلاف المقصود قال رحمه الله ـ نقلا ـ عن الحرّالي « وقال الحرّالي : قد أنبأ ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه السورة الخاصة بقصة مريم ـ عليها الصلاة والسلام ـ من تقبلها وإنباتها وحسن سيرتها ، بما نفى اللبس في أمر ولدها ، لأن المخصوص بمنزل هذه السورة ما هو في بيان

(١) نظم الدرر ٤/١٩٨ .

رفع اللبس الذي ضل به النصارى ، فيذكر في كل سورة ما هو الأليق والأولى بمخصوص منزلها فلذلك ينقص الخطاب في القصة الواحدة في سورة ما يستوفيه في سورة أخرى ، لاختلاف مخصوص منزلها ، كذلك الحال في القصص المتكررة في القرآن من قصص الأنبياء ، وما ذكر فيه لمقصد الترغيب والتثبيت والتحذير[١] ، واهتداء ببصيرة الأئمة نقول ـ محاولين التعليل للفرق بين قول مريم هنا : ﴿ **قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ**. . .﴾ (آل عمران:٤٧) وقولها في مريم : ﴿ **قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ**. . . ﴾ (مريم:٢٠)، إنما عبر بالولد في آل عمران لأنها سورة التوحيد ، والأمر في نفي الولد ، ورفع اللبس الذي ضل به النصارى ، وإذا كان القصد نفي الولد في القرآن فإنه لم يذكر بغير هذا اللفظ ﴿ **مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ** ﴾ (مريم:٣٥)، و(البقرة:١١٦)، و﴿ **قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا** ﴾ وغير ذلك من آيات الذكر الحكيم ، أما الغلام فإنه قد يطلق على الولد وقد لا يطلق ، لأنه وصف للإنسان في مرحلة سنية[٢] .

وقد وقع الفرق عند تاج القراء الكرماني «لأن في هذه السورة تقدم ذكر المسيح وهو ولدها ـ وفي مريم تقدم ذكر الغلام حيث قال : ﴿ **لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا** ﴾[٣] .

---

(١) نظم الدرر ٣٥٧/٤ .

(٢) قال الراغب «الغلام : الطارُّ الشارب يقال غلام بين الغلومة والغلومية ـ أما الولد فيقال للمولود قال أبو الحسن : الولد : الابن والابنة «المفردات (غلم ـ ولد)، ص٣٦٤، ٥٣٢ .

(٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٤٧ .

وقد استبصر العلماء نكات في بعض تراكيب هذه القصة تناسب الغرض المسوقة له القصة المذكور في مطلع السورة ، قال الرازي في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران:٤٥) « فإن قيل : كيف قال ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ والخطاب مع مريم ، وهي تعلم أن الولد الذي بشرت به يكون ابنها؟ قلنا : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه »[1] لأن رأس القضية نفي الولد ، مع مراعاة تفرد القصة هنا بقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:٤٧)، وبهذه الجملة فسروا معنى قوله : ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، وذلك أنسب في الرد على النصارى ، ومن مفردات هذه السورة في هذه القصة مثلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:٥٩) ، فلئن كان عيسى كلمة الله فآدم أيضا كلمة الله وقد لحظ المفسرون هذا التشاكل ،وأجروا التشبيه على مقتضى ما لحظوه، فقد قالوا : « والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم ، لا على أنه خلق من تراب »[2] ، فأمر التراكيب في قصة عيسى جار في الرافد الأول من روافد هذه السورة (الوحدانية) .

ودونك آية المباهلة[3] التي هي من خصائص هذه السورة ، والتي هي أقطع للحجة في الرد على النصارى ، وقد نبه الدكتور أحمد بدوى إلى

---

(١) مسائل الرازى وأجوبتها ص٤٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤٥١/٢ .

(٣) يجمع المفسرون على أنها قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ . . . ﴾ (آل عمران:٦١) .

مناسبة قصة عيسى عليه السلام بمطلع السورة بقوله : «وقد يكون مفتتح السورة موحيا بفكرتها ، ومتصلا بها شديد الاتصال ومتناسبا معها شديد التناسب ، فمن ذلك سورة آل عمران التي افتتحت بقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ ، وقد عالجت السورة أمر عيسى ، ونزهت الله عن الولد أولا ترى البدء مناسبا لهذا التنزيه؟»[1].

ومن بصائر البقاعي في محاولة ربط فروق التراكيب بمطلع السورة ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:٦٢) «ولما بدأ ـ سبحانه وتعالى ـ القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته مستدلا على ذلك بأنه الحي القيوم صريحا ، ختمها بمثل ذلك إشارة وتلويحا ، فقال عاطفا على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله ، معمما الحكم مفرقا بزيادة الجار في النفي»[2] ويتقارب مع هذا التركيب قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (المائدة:٧٣) تناسبا مع ما شاع في السورة هناك من الحديث عن التثليث ، وقوله هنا ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ يتناسب مع مطلع السورة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فجاء عقب القصة بهذا التركيب ردا إلى المطلع ، وبهذه الوقفات نرى أن أئمتنا ينبهوننا إلى لحظ التناسب بين تراكيب السورة ومطلعها ، وتنبيهات أخرى أنبه إليها استنباطا من كلام علمائنا .

---

(١) من بلاغة القرآن ص٢٤١ .

(٢) نظم الدرر ٤/٤٤٤، والمقصود بالزيادة الزيادة الصناعية بحيث لا تؤثر في الإعراب شيئا ، وقد أطلقوا على مثل هذه المواضع في القرآن (التأكيد) على وجه الأدب في الاصطلاح مع الذكر الحكيم ، ولكن لم تشعر أقوالهم من قريب ولا من بعيد بالزيادة على معنى .

قوله تعالى : ﴿ **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ** . . .﴾ (آل عمران:٢٦،٢٧) من خصائص هذه السورة وهو ما يجري في الرافد الثالث من روافدها ، ومما يجري فيه أيضا قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ** . . .﴾ (آل عمران:٧٥) وهو من خصائص السورة أيضا ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا** . . .﴾ (آل عمران:٩١،٩٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** . . .﴾ (آل عمران:١١٧) مع مراعاة تقييد الإنفاق بهذا القيد ﴿ **فِى هَـٰذِهِ** . . . . . .﴾ وحاجة السياق إلى اسم الإشارة وحاجته إلى وصف الحياة بالدنيا ، وهذا أمر لا يتبين إلا بالتنظير بين أمثال هذا التشبيه وسياقاتها[1] .

ومن خصائصها أيضا فروق التراكيب في غزوة بدر ، وذكر موت النبي ﷺ وهي عندنا تجري في الرافد الثاني في المطلع وقصة أحد واختصاصها بهذه السورة مما يجري في الرافد الثالث في المطلع ، وقصة حمراء الأسد مما يجري في الرافدين الثاني والثالث أيضا ، وحديث الإنفاق في سبيل الله وذكر قول اليهود : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ** . . . ﴾ مما يجري في الرافد الثالث .

ومن خصائصها أيضا ما ختمت به السورة من ذكر أوصاف الذين يؤمنون بالروافد الثلاثة التي جاءت في مطلع السورة ، وما ذكرته من جريان هذه المعاني في الروافد الثلاثة التي في مطلع السورة ، له في التراكيب ما يرجحه ، إلا أن إثبات ذلك يقتضينا النظر في كل التراكيب التي تناولت الحديث عن المعاني التي وردت هاهنا ثم إن القرآن يبين لنا

---

(١) ينظر في هذا الموضوع : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٢٤٦ ، دكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

هذا الترابط القوي في السورة الواحدة ، وينبهنا إلى الكشف عنه ، أرأيت كيف كان قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران:١٩٩، ٢٠٠) فختم السورة بالحديث عن أهل الكتاب ردًّا لآخرها على أولها ، وأمر المؤمنين بمقتضيات الإيمان بالروافد الثلاثة المذكورة في مطلع السورة .

فالسورة « قد بدأت بـ ﴿ **الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ ، وكان مدار السورة كلها على هذه الجملة الموجزة ، ثم لما أوشكت على الانتهاء ذكرت القارئ بأن الدعاء مخ العبادة ، فإذا كان لابد من الملجأ ، فليكن لله وحده ، فادعوه في كل الأوضاع في شتى شئونكم ، فهو الذي يقضي الحاجات ، لأنه قيوم السموات والأرض ، وبذلك تلتقى السورة وتتصل أجزاؤها في وحدة متحدة متماسكة »[1]، والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

---

(١) الإعجاز البياني في تركيب آيات القرآن الكريم وسوره ، ص٣٣٥، ٣٣٦ دكتور محمد أحمد يوسف القاسم .

الفصل الثالث

سورة الأعراف

هذا الاسم للسورة كان معروفا من عهد النبي ﷺ «أخرج النسائى عن زيد بن ثابت أنه قال لمروان بن الحكم : مالي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين؟ قال مروان : قلت : يا أبا عبد الله ما أطول الطوليين؟ قال : الأعراف» .

وكذلك حديث أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ « كان يقرأ في المغرب بطولى الطوليين»[(١)] .

وكان افتتاحها بالحروف المقطعة ، واختصاصها بحرف الصاد داعية للتأمل ، وسبيلا من سبل الكشف عن العلاقات فقد ذكروا أنه «ما من سورة افتتحت بـ(الم) إلا وهى مشتملة على ثلاثة أمور (بدء الخلق والنهاية ـ التي هي المعاد ـ والوسط ـ الذي هو المعاش) والإشارة إليها الاشتمال على المخارج الثلاثة (الحلق واللسان والشفتين) وَزِيدَ في هذه السورة على ذلك الصاد لما فيها مع ما ذكر من شرح القصص[(٢)] .

---

(١) التحرير والتنوير الأعراف ص٥ .

(٢) روح المعانى ٧٤/٨ .

ومما ذكروا أيضا لأجل الصاد أن معناه «أنا الله أعلم وأفصل»[1] .

وإن كان جمهور العلماء قد ارتضوا التحدي هو الوجه في الافتتاح بالحروف المقطعة ، إلا أن ما نقلناه نبهنا إلى خصيصة لهذه السورة ، هي تفصيل القصص وإلى أن الأئمة قد لحظوا علاقة بين مطلع السورة وأبرز خصيصة لها وكأن النظم المعجز يحثنا على التأمل بزيادة الصاد في هذه السورة ، دون السور المفتتحة بـ (الم) ، وكما كان كلامهم هاهنا كاشفا عن خصيصة ـ بيانية عند التحقيق ـ لهذه السورة كذلك كان كلامهم على وجه تسميتها بالأعراف كاشفا عن مقصودها .

والوجه القريب في هذه التسمية «أنها ذكر فيها لفظ الأعراف . . . ولم يذكر في غيرها من سور القرآن ، لأنها ذكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة»[2] فكأن وجه التسمية هو اختصاصها بذكر الأعراف «من باب تسمية الشيء بجزئه»[3] .

وقد اشترط البلاغيون في الجزء أن يكون له مزيد خصوصية ، ليصلح معبرا عن الكل في أمثلة المجاز المرسل ، وكان البقاعي ـ رحمه الله ـ على وعي بمقالتهم في تفسير الوجه في التسمية ، وتلك مقولته في استبصار مقصود السورة تقرر أن مقصود السورة «إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السور الماضية من التوحيد والاجتماع على الخير ، والوفاء لما قام على وجوبه من الدليل في الأنعام ، وتحذيره بقوارع الدارين ، وأدل ما فيها على هذا المقصد : أمر الأعراف فإن اعتقاده يتضمن الإشرف على

---

(١) البحر المحيط ٤/٢٦٦ .

(٢) التحرير والتنوير الأعراف ص٥ .

(٣) الصاوي على الجلالين ٢/٦٢ .

الجنة والنار ، والوقوف على حقيقة ما فيها ، وما أعد لأهلها الداعي إلى امتثال كل خير ، واجتناب كل شر »[1].

فالسورة هي سورة الإنذار كما قرر ـ رحمه الله ـ وجزاء الخائفين الجنة وجزاء الكافرين النار ، وبين هاتين المنزلتين يكون الأعراف ، ذلك المغزى الذي استنبطه البقاعي من التسمية ، هو محور السورة الذي تدور عليه مقاصدها ، والذي تكشف عنه تراكيب السورة ، وكان لجار الله الزمخشري تفسير لمعنى (كتاب) في مطلع هذه السورة :

يقول : « والمراد بالكتاب السورة »[2] هل كان الزمخشري ناظرا إلى مقصود السورة؟ وهل يستقيم لنا أن نفسر (الكتاب) في مطلع كل سورة بحسب مقصودها؟ فالكتاب في البقرة مثلا يكون معناه كتاب الغيب والكتاب هنا يسمى كتاب الإنذار؟ هل تتشاكل المعاني لهذه الكلمة بتشاكل مقاصدها؟ لعل ذلك يكون فلا أبصر ببلاغة القرآن من الزمخشري ـ رحمه الله ـ كما يتبين ذلك من استقرأ التفاسير البيانية للقرآن الكريم .

مقصود السورة كما قرره برهان الدين يجمله قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الأعراف:١، ٢) ذلك مطلع السورة الذي يكشف هيئة تراكيبها ، وجريان معانيها وخصائصها البلاغية .

---

(١) مصاعد النظر ١٣٠/٢، ١٣١ .

(٢) الكشاف ٦٥/٢ ، وقد بسط أبو السعود هذا القول في توجيه تقديرهم أن كتاب خبر المبتدأ محذوف تقديره هذا يقول : « وتذكير اسم الإشارة مع تأنيث المسمى لما أن الإشارة إليه من حيث إنه مسمى بالاسم المذكور لا من حيث إنه مسمى بالسورة ، كأنه قيل : المؤلف من جنس هذه الحروف مرادا به السورة كتاب » . إرشاد العقل السليم ٢٥٩/٤ ، بهامش الفخر الرازي .

كان للعلماء كلام بشأن مطلع السورة يحسن ذكره استئناسا بكلامهم ، يقول العلامة ابن عاشور : « افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن ، والوعد بتيسيره على النبي ﷺ ليبلغه ، وكان افتتاحها كلاما جامعا ، وهو مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد ، فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان وأكملها شأن سور القرآن »(١) .

وذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي معنى هذا المطلع ثم قال : « في هذا براعة مطلع للغرض المقصود من السورة »(٢) .

ويذكر الدكتور عبد الله شحاته أن بداية هذه السورة « تعد براعة استهلال أو عنوانا لما تشتمل عليه السورة وهي سمة غالبة في سور القرآن حيث نجد الآيات الأولى منها عنوانا معبرا عن أهدافها وسماتها »(٣) .

ومن قبل هؤلاء استصحب الأستاذ سيد قطب معنى هذا المطلع ليستكشف به وحدة بلاغة السورة فيقول في موطن : « وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين حين يقف السياق عليها للتذكير والتحذير ، وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق السورة ، فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة تعقيب للإنذار والتذكير ثم يمضي »(٤) .

ويقول أيضا : « وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة إنما هو خطاب غير مباشر وأحيانا مباشر للنبي ﷺ وقومه للإنذار والتذكير ، كما يشير هذا المطلع القصير »(٥) .

---

(١) التحرير والتنوير الأعراف ص٧ .

(٢) النظم الفني في القرآن ص١١١ .

(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها ص٩٤ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/١٢٤٥ .

(٥) في ظلال القرآن ٣/١٢٤٦ .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٧) ويجيء ذكر الشكر تنسيقا مع ما سبق في مطلع السورة : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ »[١] .

وذلك المطلع تكونه عدة جمل ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقد اختلفوا في إعراب (كتاب) على وجهين أشهرهما أنه خبر لمبتدأ محذوف[٢] ، وعليه فالجملة الثانية (صفة) وفيها تخصيص له بالإنزال تشريفا له ﷺ وتسلية تناسب رفع الحرج . والوجه الثاني : أنه مبتدأ وقع نكرة لوجوه « إما لأنها أريد بها النوع . . . . . وفائدة إرادة النوع الرد على المشركين إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله واستبعادهم ذلك ، فذكرهم الله بأنه كتاب من نوع الكتب المنزلة على الأنبياء . . . وإما لأن التنكير أريد به التعظيم . . . وإما لأنه أريد من التنكير التعجيب من شأن هذا الكتاب في جميع ما حف به من البلاغة والفصاحة» وعليه فقوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ « إما أن يكون صفة لكتاب ، وإما أن يكون هو الخبر ، فيكون المقصود من الإخبار تذكير المنكرين والمكابرين ، أو الامتنان والتذكير بالنعمة ، ويجوز أن يجعل الخبر هو قوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ مع ما انضم إليه من التفريع والتعليل ، أى هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصدر ، فإنه أنزل إليك لتنذر به الكافرين وتذكر به المؤمنين . . . وبهذه الاعتبارات وبعدم منافاة

---

(١) في ظلال القرآن ١٢٦٧/٣ .

(٢) يراجع الكشاف ٦٥/٢ ، والبحر المحيط ٢٦٦/٤ ، والفتوحات الإلهية ١١٩/٢، والصاوي ٦٢/٢ .

بعضها لبعض يحمل الكلام على إرادة جميعها ، وذلك من مطالع السور العجيبة البيان »[1] .

وذلك كلام العلامة ابن عاشور ، لكن الوجه الأول أولى ، لبعده من التأويل وقد ذكروا أن قوله تعالى : ﴿ **فَلَا يَكُن** . . . ﴾ اعتراض ، واستخرجوا له فوائد تكون نورا لنا في استكشاف خصائص للسورة ، لا سيما أنه جاء بين الكتاب المنزل وما تعلق به ﴿ **لِتُنذِرَ** ﴾ الذي يعد رأس الأمر في هذه السورة ، وذلك الموقع جعلهم يقولون في شأنه ؛ إنه وقع ذلك « تقريرا لما قبله ، وتمهيدا لما بعده ، وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الإنزال للإنذار »[2] .

وذلك معنى تفسير الزمخشري « لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تبليغه »[3] ، وفائدة التقديم والتأخير عند الرازي « أن الإقدام على الإنذار والتبليغ لا يتم ولا يكمل إلا عند زوال الحرج عن الصدر »[4]، ومجيئة بين شيئين متصلين « مبادرة من المتكلم بإفادته لأهميته »[5] ، مع ملحظ مهم هو أنه « أسند النهي إلى الحرج ومعناه نهي المخاطب عن التعرض للحرج ، وكان أبلغ من نهي المخاطب ، لما فيه من أن الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك ، فانته أنت عنه بعدم التعرض له ، ولأن فيه تنزيه نبيه ﷺ بأن ينهاه فيأتي التركيب فلا تحرج منه »[6] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير في سورة الأعراف ص١٠، ١٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٦١/٤ بهامش الرازي .

(٣) الكشاف ٦٦/٢ .

(٤) مفاتيح الغيب ٦٥٢/٦ .

(٥) التحرير والتنوير الأعراف ص١٢ .

(٦) البحر المحيط ٦٦/٤ .

وذلك مما لا يناسب التشريف السابق في قوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ ولعل النظام النحوي للمطلع هو الذي نبه البقاعي ـ رحمه الله ـ لبيان مهمة هذا الاعتراض فنظام النحو هاهنا قاض بأن مهمة الكتاب (الذي يراد به السورة) الإنذار وذلك لما يظهر من أن قوله : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ . . . ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ فليست قضية السورة في الإنزال ، وإنما هي في الإنذار تدبر قول البقاعي « ولما كان المقصود من البعثة أولا النذارة للرد عما هم عليه من الضلال وكانت مواجهة الناس بالإنذار شديدة على النفوس ، وكان الإقدام عليها من الصعوبة بمكان عظيم ، قدم قوله ـ مسببا عن تخصيصه بهذه الرحمة ـ ﴿ فَلَا يَكُن . . . ﴾ »[(١)] .

ولا أرفع للحرج ، ولا أعون على الإنذار من بيان أحوال السابقين وبيان جزاء الطائعين ، وعاقبة المستكبرين ، وقد مهد النظم المعجز ـ بعد هذا المطلع العجيب ـ لهذا السبيل (قصص النبيين وبيان أحوال أقوامهم) بعدة جمل تتصل بالمطلع ، ويتناغى معها كثير من تراكيب السورة .

فقد جاء بعد المطلع قوله : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ . . . ﴾ (الأعراف:٣) تنفيذا للإنذار ، مع ملحظ مهم ، هو أن الإنزال هاهنا مخصوص بهم دفعا لإيهام ما قد يظن من التركيب الأول ـ ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ ـ من اختصاصه ﷺ بالإنزال ، لذلك ذكروا أن هذه الآية « بيان لجملة ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ بقرينة تذييلها بقوله : ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ »[(٢)] ، مع ملحظ آخر هو قوله : ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ومشاكلته للتركيب الأول ، وما في ذكر الربوبية من معاني الإنعام ، تناسبا مع مقصود السورة (الإنذار

---

(١) نظم الدرر ٣٤٨/٧ .

(٢) التحرير والتنوير الأعراف ص١٤ .



والتذكير) ولما كان هذا المقصود يتوصل إليه بسرد أحوال السابقين على وجه لا يكون في مقصود آخر مهد لذلك بقوله : ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ** ﴾ (الأعراف:٤) وما ينبئ به مطلع الآية من التكثير بكم الخبرية ، وما في الإهلاك من التنبيه على أن المذكور في السورة من الإهلاك أزجر وأنذر منه في المواضع الأخرى من الذكر الحكيم ، ووجدت أصداء هذا التركيب في كثير من تراكيب السورة الكريمة ، وكان من صداه قوله تعالى ـ بعد ذكر كثير من القصص ـ : ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ** ﴾ (الأعراف:٩٧-٩٩) مع ملحظ مهم هو أن التركيب الأول مع التركيبين الآخرين دون الثالث مما لم يجر في سورة أخرى ، وما في الاستفهام التوبيخي المتتابع من كشف تحسر الهالكين ، وذلك تجاوبا مع أصداء التركيب الأول الذي جاء فيه قوله : ﴿ **أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ** ﴾ «وفى التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب ، ولذلك خص الوقتين ، ولأنهما وقت دعة واستراحة ، فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع»[1] .

وهذا التوبيخ المتتابع يتناغى أيضا مع قوله تعالى : ﴿ **فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ** ﴾ (الأعراف:٥) .

فذلك الاعتراف الذي ذكر في أول السورة ، ترجمت عنه تراكيبها ، فكان الاستفهام التوبيخي مع غيره من التراكيب كاشفا عن هذه الحسرة وتناغي التراكيب بهذه الهيئة للكشف عن وحدتها البيانية وكان هذا أمر

(١) البيضاوي ١/٣٤٢ .

عذاب الدنيا فجاء بعده الوعيد بعذاب الآخرة فذلك قوله : ﴿ **فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الأعراف:٦) .

وذلك التركيب لم يوجد في سورة أخرى ، تدبر علاقته بمطلع السورة ﴿ **لِتُنذِرَ بِهِۦ** ﴾ ولا تحرج لأنك ستسأل ، وتدبر ما في الفعل من توكيد بلام القسم والنون المؤكدة وتساوي المُنْذَرِين والمُنْذِرِين في المساءلة ، تدبر في ضوء ذلك أيضا وجه اختصاص السورة بقوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ** ﴾ (الأعراف:١٧٢)، تدبر هذا في ضوء الوعيد بالمساءلة ، ثم تدبر ما في هذه الآية من تكرار الربوبية وعلاقته بقوله : ﴿ **ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ .

ثم يأتي بعد ذلك قوله : ﴿ **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ** ﴾ (الأعراف:٧) مع وعينا بما في تتابع هذه الفاءات من تصوير لتتابع الإهلاك في قصص هذه السورة ، وما في ذلك من تصوير للوعيد .

وحسبك أن يؤكد الحق الخبر بلام القسم والنون المؤكدة ، وما في ذلك من اتساع دائرة الإنذار ، وما يفضي إليه من تصوير العذاب ؛ لذلك جاء القصص بعليهم دون لهم ، فالقصص حجة عليهم ، تصويرا لقوة الحجة ، وتوعدا للمخالفة ، وحسبك هذا القيد ﴿ **بِعِلْمٍ** ﴾ وما في تنكيره من التفضيل والتعظيم ، وما أكدته الجملة بعد ﴿ **وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ** ﴾ مما يصور لنا أن هذا السبيل هو أقوى السبل للإنذار الذي هو مقصود هذه السورة ، لذلك كانت هذه التراكيب من خصائص هذه السورة ، كما أن التوسيع في تفصيل القصص خصيصة هذه السورة الكبرى .

ثم جاء ذكر الميزان في إطار الإنذار، وجاء قوله: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف:٩) وهو يتناغى مع قوله قبل: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾، وجاء التمهيد للقصص أيضا متناغيا مع الربوبية المستوجبة الشكر في مطلع السورة، ومتناغيا مع ما في تراكيب قصص الأنبياء وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:١٠)، فهو يتناغى مع كثير من تراكيب السورة ناهيك بقول إبليس: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٧).

جاءت تراكيب قصص النبيين في السورة وغيرها من الأغراض في هذه الأطر التي ذكرناها في المطلع، وفي التمهيد للسبيل الأعظم الذي أجمله المطلع ليقدم لنا مقصود السورة مجملا في أول السورة. وكان ما مضى من أمر المطلع والتمهيد استبصارا لكلام ابن الزبير ـ رحمه الله ـ فقد حاولنا التماس النور في قوله: « فتأمل افتتاح سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ (الأعراف:٧)، وختم القصص فيها بقوله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٥) بعد تعقيب قصص بني إسرائيل بقصة بلعم ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ﴾ ثم قال: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (الأعراف:١٧٦).

وكيف ألحق من كَذَّب رسول الله ﷺ من العرب وغيرهم ممن قص ذكره من المكذبين، وتأمل افتتاح ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعم، وكلاهما ممن كفر على علم، وفي ذلك أعظم موعظة. قال تعالى إثر ذلك: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ (الأعراف:١٧٨)[1].

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص٩٨.

وكان جريان القصص في السورة بهذه الهيئة ـ عند ابن الزبير ـ علة لتركيب مطلع السورة ، لذلك قال بعد هذا البيان : «فبدأ ـ سبحانه ـ بذكر ما أنعم به عليه ، وعلى من استجاب له فقال تعالى : ﴿ **الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ** ﴾ فأشار إلى نعمته بإنزال الكتاب ، الذي جعله هدى للمتقين وأشار هنا إلى ما تحمله من التسلية وشرح الصدور بما حوى من العجائب والقصص مع كونه هدى ونورا فقال : ﴿ **فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ** ﴾ أي أنه قد تضمن مما أحلناك عليه ما يرفع الحرج ،ويسلي النفوس ، ﴿ **لِتُنذِرَ بِهِۦ** ﴾ كما أنذر من قبلك ممن نقص خبره من الرسل ، ولتستن في إنذارك ودعائك وصبرك بسنتهم وليتذكر المؤمنون»[1].

ويقول كاشفا الفرق بين قصة بنى إسرائيل هنا وفي البقرة : «ومن عجيب الحكمة أن الواقع في السورتين من كلا القصتين مستقل شاف»[2] . أي يتناسب مع مقصود السورة التى يذكر منها ، وكلامه إحالة لبيان وجه الاختصاص .

وعجيبة في هذه السورة نذكرها اهتداء ببصائر الأئمة واستبصارا بنور المطلع الذي لحظته أن هذه السورة تولى صفة الاستكبار اهتماما لم تحظ به سورة أخرى في الذكر الحكيم وتجعلها أم الأسباب في الكفر ، ويتكرر ذكر هذه الصفة بجانب الكافرين تكراراً غير معهود في سورة أخرى ، ولعل التكبر أعظم الأسباب في الإحجام عن الإنذار ، وأعظم أسباب الضيق والحرج .

تدبر ما أذكر من الآيات في ضوء الاعتراض المذكور في المطلع ، تجده من أعون شيء في رفع الحرج. وكان للتكبر في هذه السورة عاقبتان،

(١،٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص٩٩ .

الطرد من الجنة والصغار قال تعالى مخاطبا إبليس : ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٣) ، وقال بعد ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأعراف:٣٦) وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ (الأعراف:٤٠) ، مع ملحظ مهم هو أن هذه التراكيب لم تقع في غير هذه السورة ، وقد جاء على لسان الأعراف ـ أدل شيء على الإنذار كما قال البقاعي ـ قولهم لأهل النار : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (الأعراف:٤٨) .

وجاء قصص النبيين مبرزا بتراكيبه أن سبب الكفر الاستكبار ، قال القرآن عن ثمود قوم صالح : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ... ﴾ (الأعراف:٧٥) وقولهم : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (الأعراف:٧٦) ثم قول قوم شعيب : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ (الأعراف:٨٨) ، وفي قوم فرعون قال ربنا : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٣٣) .

ثم عقوبة للمستكبرين تتفرد بها هذه السورة ، وتتناسب مع ما أعقبته من القصص وما في تراكيبها من الوعيد يناسب الإهلاك . قال تعالى : ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٦)، يتدبر هذا مع آية إبليس في التكبر وذلك مما لا نظير له في سور الذكر الحكيم .

تدبر في سياق الاستكبار هذين التركيبين اللذين لم يرد مثلهما في تراكيب قصص النبيين في الذكر الحكيم ﴿ **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ** ... ﴾ (الأعراف:٦٣)، وقول هود : ﴿ **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ** . . . ﴾ (الأعراف:٦٩) .

وعلة قوله : ﴿ **مِّنكُمْ** ﴾ في الموضعين التذكير بتساوي الخلق ، وفي ذلك تقريع على الاستكبار ، مطية الكفر ، وفي تذكير النبي بذلك تسلية ورفع للحرج .

يتدبر كل ذلك في نور الاعتراض المذكور في مطلع السورة . ألم تر إلى قولهم : ﴿ **وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ (الزخرف:٣١) ذلك الاستكبار من أعظم أسباب الحرج ، وتصرف معانيه وعقوباته ونسبته الكفر إليه كان سلكا انتظم هذه السورة من بداية المطلع إلى آخر آية في السورة تلك التي تنظر إلى قصة إبليس واستكباره ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ** ﴾ (الأعراف:٢٠٦) . وذلك السجود علامة العبودية ، وسيما الخضوع والانقياد ، يقابل هذا الذي هو علامة التكبر والعصيان جمعت هذه المعاني هذه الآية التي في نهاية السورة وتدبر التقديم ﴿ **وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ** ﴾ .

تلك لطيفة من لطائف الذكر الحكيم ، وقصص النبيين أعظم السبل في الكشف عن مقصود هذه السورة ، وتحضرنا مقالة البقاعي في أن اختلاف

نظوم القصص يتغاير بتغاير مقاصد السور ، وأقرب الأبواب في الكشف عن ذلك مشتبه النظم ، وتفرد السورة بحلقات من القصص المذكورة في مواطن أخرى .

من ذلك أنك لن تجد في القرآن في قصة إبليس مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الأعراف:١٨) ، وقد جاء هذا التركيب متشاكلا مع جريان القصص في السورة ، وقد وقع هذا ـ كما قال تاج القراء ـ «لأنه ـ سبحانه ـ لما بالغ في الحكاية عنه بقوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ بالغ في ذمه فقال : ﴿ ٱخْرُجْ ﴾ والذأم أشد الذم»[1] .

والمبالغة تناسب مقصود السورة ، وتناسب سلك الاستكبار وعواقبه ، الذي ينتظم كثيرا من قصص النبيين ، والمبالغة في الحكاية عن إبليس من خصائص هذه السورة ، تدبر قوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) .

ولن تجد كهذه الآية في القرآن الكريم ، تدبر ما في القعود من التفرغ للشيء وما في ذكر هذه الجهات من الإحاطة المتناسبة مع القعود المذكور في مطلع قوله ، ثم اصطحب هذا المعنى الذي قاله ذلك المستكبر في كلام المستكبرين في السورة تجد صداه واضحا ، تدبر قول شعيب عليه السلام لقومه المستكبرين : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأعراف:٨٦) . وقابل بين قوله في الإتيان من كل جهة ، وقول شعيب بكل صراط ، واستقرئ ذلك في الذكر الحكيم .

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٨٠ .



وتدبر هذه الاستعارة ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ (الأعراف:٢٢) واختصاصها بالسورة ، لاختصاص السورة بالمبالغة في الحكاية عن إبليس وفي توعده ، إتيان بني آدم من كل وجه ، وما تطويه هذه الاستعارة من التفنن في التغرير ببني آدم المتناسب مع القعود والتفرغ فقد «شبه حالهما حين سقطا في المخالفة بعد المحاولات ، والأيمان التي أكد بها نصحه وإخلاصه ، بحال من يتدلى من الأعلى إلى الأسفل وهو مخدوع مغـرور لا يدري أنه يسقط ، وانظر إلى كلمة (دَلاهُمَا) وكيف تصف الهبوط من المعارج السامية إلى المهاوي الدانية ، وانظر إلى كلمة ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ وكيف أضاءت حول تلك الحالة النفسية التي تصحب الاستواء والمخالفة»[1].

وذلك يتناسب مع هذا التحذير في قوله : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ (الأعراف:٢٧) ، وما في نداء بني آدم من التنبيه لهم بمسالك الذي توعد أنه سيقعد لهم بكل صراط .

ويبدو أن نداءات بني آدم من خصائص هذه السورة ، لأن أكبر خصيصة لها التوسع في قصص النبيين ، لأن مقصودها الإنذار المذكور في مطلعها ، فقد وقعت نداءات بني آدم في أربعة مواطن ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا ﴾ (الأعراف:٢٦) و ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ (الأعراف:٢٧) و﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ ﴾ (الأعراف:٣١) و ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ (الأعراف:٣٥) وذلك يتناغى مع العهد المذكور فـي آخـر السورة ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ﴾ (الأعراف:١٧٢) ولم يقع نداء

---

(١) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان ص٣٢٠ دكتور محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة .

لبني آدم إلا في سورة يس ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ (يس:٦٠) .

كل ذلك في إطار تفصيل المبالغة في ذم إبليس ، للمبالغة في الحكاية عنه وأنت خبير بتناسب النداءات مع مقصود السورة (الإنذار) المذكور في مطلعها .

وللبقاعي ـ رحمه الله ـ كلمات في مشتبه النظم ـ ذلك المعلم الدال على وحدة السورة البيانية ، تتصل بمقصود السورة .

يقول : مقارنا بين قوله في قوم لوط هنا ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف:٨١) وقوله : في النمل ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (النمل:٥٥) ـ (ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار كان الأليق به الإسراف الذي هو غاية الجهل المذكور في سورة النمل ، فقال : ﴿ مُّسْرِفُونَ ﴾[1] تدبر هذا مع ضميمة ـ ما ذكره تاج القراء في المبالغة في ذم إبليس كما مضى .

ويقول : ـ رحمه الله ـ كاشفا عن سر اختصاص آية الصلب بحرف التراخى في سورة الأعراف في قوله ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ (الأعراف:١٢٤) ولما كان مقصود هذه السورة الإنذار فذكر فيها ما وقع لموسى عليه السلام والسحرة على وجه يهول ذكر ما كان من أمر فرعون على وجه يقرب من ذلك ، فعبر بحرف التراخي ، لأن فيه ـ مع الإطناب الذي يكون شاغلا لأصحابه عما أدهشهم مما رأوه ـ تعظيما لأمر الصلب ، فيكون أرهب للسحرة ، ولمن تزلزل بهم من قومه فقال : ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾[2] ، وفي استكشاف هذه الدقائق ما ترى من المشقة ، مما صرف العلماء عنها وكثيرا ما رموا

(١) نظم الدرر ٧/٤٥٥ .
(٢) نظم الدرر ٨/٣٢ .



الباحث عنها كمثل البقاعي بالتكلف ، والأمر كما ترى ظاهر المقنع لمن تدبر وأبصر .

ومن ذلك أيضا قوله : في بيان الوجه في تقديم الحواس في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ (الأعراف:١٧٩) ـ «ولما كان السياق للتفكر بدأ بالقلوب»[١] ، وهذا النظم متخالف في الترتيب مع قوله تعالى : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ (الفرقان:٤٤) .

ومما استبصره بنور المطلع أيضا قوله تعالى : ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأعراف:١٨٥) قال : «ولما كان قد تقدم في أول السورة النهى عن التحرج من الإنذار بهذا الكتاب ، وبان بهذه الآيات أنه ﷺ اتصف بالإنذار به حق الاتصاف ، وبان أن القرآن مباين لجميع المخلوقات ، فثبت أنه كلام الله تسبب عن ذلك الإنكار على من يتوقف عن الإيمان به . . . . وذلك في أسلوب دال على أن الإيمان بعد هذا البيان مما لا يسوغ التوقف فيه إلا لانتظار كلام آخر فقال : ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ** ﴾ . . .»[٢] .

فقد كان ـ رحمه الله ـ مستحضرا مقصود السورة في كل تركيب ، ونحاول نحن أن نستخرج من كلام الكرماني في المشتبه من النظم ما له علاقة بالمطلع فهو يقوله في الكلام على الفرق بين قوله تعالى هنا : ﴿ **وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (الأعراف:٧٣)، وقوله في هود : ﴿ **وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** ﴾ (هود:٦٤). وقوله في الشعراء :

(١) نظم الدرر ١٧٣/٨ .
(٢) نظم الدرر ١٨٢/٨، ١٨٣ .



﴿ **وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ** ﴾ (الشعراء:١٥٦) يعلل لذلك فيقول : « لأنه في هذه السورة بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد »[١] كأن استفراغ المجهود في الوعظ يستوجب شدة الوعيد ، والمبالغة في الوعظ تناسب سورة الإنذار ذلك المقصود المجمل في مطلعها . ويعلل لاختلاف النظم بين الإخبار عن قوم صالح هنا ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ** ﴾ وفي سورة هود ﴿ **وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ** ﴾ (هود:٦٧) فيرى أن القرآن الكريم « حيث ذكر الرجفة وَحَّدَ الدار ، وحيث ذكر الصيحة جمع ، لأن الصيحة كانت من السماء ، فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فاتصل كل واحد بما هو لائق به »[٢] . والسؤال هو لم ذكر الرجفة هنا وذكر الصيحة في غيرها قبل الإجابة على الجمع والتوحيد؟ ولأنه أرجع العلة في الفرق لما ينبغي أن يعلل له ، ولأجل هذا الاستعمال فسر العلماء الرجفة بالصيحة وفسروا الدار بالبلد[٣] .

غير أن أبا السعود استبصر وجها آخر في الفرق بين الصيحة والرجفة فقال : « ولعلها من مبادئ الرجفة ، فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة ، وإلى البعيد أخرى »[٤].

وهذه السورة أولى بذكر الرجفة ، لأنها سورة الإنذار ، والتعبير بالرجفة يتناغى مع قوله في أول السورة : ﴿ **وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا** ﴾ كما مضى

(١) البرهان للكرماني ص٨٤ .

(٢) البرهان للكرماني ص٨٥ .

(٣) يراجع في ذلك : جامع البيان ١٦٤/٨، والكشاف ٩٠/٢، والجامع لأحكام القرآن ٢٧٥٧/٣، ٢٧٥٨ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٣٨٤/٤، والفتوحات الإلهية ١٦٦/٢ .



ذكره في التمهيد للقصص ويؤيد ما قاله أبو السعود قول ابن كثير «وجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح»[1] .

وهما يستندان فيما ذكراه إلى ما قاله ابن عباس وغيره (من أن الله فتح عليهم بابا من جهنم ، فأرسل عليهم حرا شديدا . فأخذ بأنفاسهم ، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ، فدخلوا في الأسراب ، ليبردوا فيها ، فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هاربين إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم ـ وهى الظلة ـ فوجدوا لها بردا ونسيما ، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ، ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض من تحتهم ، فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلى ، وصاروا رمادا)[2].

فكان المتناسب مع الإنذار ذكر الرجفة وإفراد الدار .

وقال الكرماني في بيان الفرق بين قوله تعالى في البقرة : ﴿ **فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ** . . . ﴾ (البقرة:٥٩) وقوله في سورة الأعراف ﴿ **فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ** . . . ﴾ (الأعراف:١٦٢) «لأن لفظ الرسول والرسالة كثرت في الأعراف ، فجاء ذلك وفقا لما قبله ، وليس كذلك في سورة البقرة»[3] ، وإنما كثر لفظ الرسول والرسالة دالين على التكليف في هذه السورة تناسبا مع الإنذار الذي هو مقصود السورة المجمل في مطلعها ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٢٩٩ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٢/١٦٦ .

(٣) البرهان للكرماني ص٣٠ .

وقد وقع ذلك في مواطن كثيرة من السورة الكريمة[1] بما يمكن أن يعد من خصائصها بوجه من وجوه الاستعمال .

وفي ضوء ذلك قارن بين قوله تعالى في الأعراف ﴿ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ ﴾ (الأعراف:١١١) وقوله في الشعراء : ﴿ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ ﴾ (الشعراء:٣٦) فعلل قائلا : «لأن الإرسال يفيد معنى البعث ، ويتضمن نوعا من العلو ، لأنه يكون من فوق فخصت هذه السورة به لما التبس ، ليعلم أن المخاطب به فرعون دون غيره»[2] ، وذلك النوع من العلو يتناسب ونمط الاستكبار الذي ذكرناه من قبل ، ويأتي الحديث عن الشيطان في آخر السورة متناغيا مع ما ذكر في أولها من المبالغة في التحذير ، وذلك يظهر في إدارة لغة السورة في قصة الشيطان في مطلعها .

ويأتي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٤) كاشفا عن السبيل الموصلة إلى تنفيذ أمر الله في مطلع السورة الكريمة ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:٣) مع مراعاة أن بناء جملة الشرط هذه لم يقع في سورة أخرى ، ولم يجمع بين الأمرين (الاستماع والإنصات) في غير هذه السورة ، لأن الاستماع والتدبر يدلان المسلم وغيره على الرشاد والهداية المستوجبين الرحمة ، وما أحسن موقع هذه الآية التي جاءت في ختام الحديث عن الهالكين .

* * *

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ٦، ٣٥، ٣٧، ٤٣، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٧، ٦٨، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٧، ٩٣، ٩٤، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١١١، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢ .

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٨٩ .

الفصل الرابع

سورة يونس

لا يطلق البلاغيون الجزء على الكل إلا أن يكون للجزء مزيد اختصاص فيما يدل عليه الكل ، وعجيب أمر هذه السورة فلو سميت بسورة موسى ، لكان بسط قصته هنا تعليلا للتسمية ، والعجب أن جاءت قصة يونس في آية واحدة ، وفي آخر هذه السورة قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (يونس:٩٨) .

كانت هذه الآية من قصة يونس التي سميت بها السورة كاشفة عن مقصود السورة عند البقاعي ، مع ضميمة استنباطه للمقصود من مطلع السورة قال : ـ رحمه الله ـ في مقصود السورة «ومقصودها : وصف الكتاب بأنه من عند الله ، لما اشتمل عليه من الحكمة ، وأنه ليس إلا من عنده ـ سبحانه ـ لأن غيره لا يقدر على شيء منه ، وذلك دال بلا ريب على أنه واحد في ملكه ، لا شريك له في شيء من أمره ، وتمام الدليل على هذا قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا به عند المخايل كشف

عنهم العذاب فدل قطعا على أن الآتى به إنما هو الله الذي آمنوا به ، إذ لو كان غيره ، لكان إيمانهم به ـ سبحانه ـ موجبا للإيقاع بهم ، ولو عذبوا كغيرهم ، لقيل : هذه عادة الدهر . . . . ودل ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم ، إنما هو من عند الله لكفرهم ، لما اتسق من ذلك طردا بأحوال سائر الأمم من أنه كلما وجد الإصرار على التكذيب ، وجد العذاب وعكسا من أنه كلما انتفى في وقت يقبل قبول التوبة انتفى »[1] .

ومقصود السورة ـ على ما ذكر البقاعي ـ يجمله قوله تعالى : ـ ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ (يونس:١،٢) .

وقد تقاربت الآية الأولى من المطلع مع مطلعي سورتي (يوسف ولقمان) وكان هذا التقارب داعيا ابن الزبير لاستكشاف علل للفروق الدقيقة التي وقعت في هذه المطالع فهو يعلل لوصف الكتاب بـ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ في هاتين السورتين ، وبـ ﴿ ٱلۡمُبِينِ ﴾ في سورة يوسف ، بما اشتملت عليه كل سورة من معان وآيات ، وهذا الذي يذكره ينبهنا إلى أن المطالع تختلف لاختلاف المقاصد ، وتتقارب في تراكيبها وفي لغتها بقدر ما تتقارب المقاصد . يقول : ـ رحمه الله تعالى ـ « والجواب ـ والله أعلم ـ أن سورتى يونس ولقمان تردد فيهما من الآيات المعتبر بها المطلعة على عظيم حكمته .... ما لم يرد في سورة يوسف كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ . . . ﴾ وقد تبع الآية المذكورة من سورة يونس ما يجاريها في التنبيه بما به الاعتبار . . . لم يتخللها ما يخرج عن باب الاعتبار من حكم أو غيره ،

(١) مصاعد النظر ١٦٤/٢ .

ولا من القصص إلا ما تضمن اعتبارا كالوارد من قصة نوح . . ولم يرد هذا الضرب المقتضب من قصة نوح عليه السلام على هذه الصفة في غير هذه السورة لما قدمنا ذكره ، ولم يكن ليناسب ما يثبت عليه السورة غير هذا الوارد ، وأما سورة لقمان : فورد فيها قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ** . . ﴾ إلى قوله : ﴿ **هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ** . . . ﴾ وفي هذه السورة ما منح لقمان من الحكمة ، ولم تخرج آى هذه السورة عن هذا ، فهذا وصف الكتاب في هاتين السورتين بالحكيم . . . وأما سورة يوسف عليه السلام فلم تنطو على غير قصته . . . فلهذا أتبع الكتاب بالوصف بالمبين »[1] .

وما ذكره ـ رحمه الله ـ من اختصاص هاتين السورتين بالاعتبار يدفعه ما يوجد في كثير من السور من آيات الاعتبار من غير المفتتحة بهذا المطلع ، ويمكن أن يجاب عنه ـ بأن آيات الاعتبار التي لم تخل منها سورة تكون في كل موضع في قيد ما سيقت له السورة ، فهى ـ مع كثرتها وشيوعها في الذكر الحكيم ـ تنال التخصيص والتحديد بمواضع سياقاتها ، وتوحي بهذا التخصيص دلالة التراكيب واستكشاف ذلك في الذكر الحكيم ، باب لا يحاط به .

وقد استوقفه ـ رحمه الله ـ أيضا المفارقة الواقعة في الحروف المقطعة ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ﴿ **الٓر** ﴾ في لقمان ويونس ، وأرجع العلة في وقوع هذا الفرق لاشتمال سورة لقمان على آيات الاعتبار ، أكثر مما اشتملت عليه سورة يونس ، وعلل لوجود الراء دون الميم في مطلع سورة يونس ، باشتمال يونس على معاني الربوبية ،وبتكرر اسم الرب فيها في بضعة عشر موضعا ، وبتكرر حرف الراء فيها في مائتين وعشرين كلمة أو نحوها[2] .

---

(١) يراجع ملاك التأويل ٦٠٦/١، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩ .

(٢) يراجع ملاك التأويل ٢٠٩/١، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢ .

فلست أدرى أيرجع ما ذكره إلى خصوصية في الميم وفي الراء؟ ولئن كان كذلك فينبغى أن يقال هذا في كل سورة افتتحت بالحروف المقطعة ، وضمنها هذان الحرفان أو أحدهما ، على أى حال فبحسبه أنه نبهنا إلى استخراج أسرار دقائق التراكيب في المطالع ، من أسرار تراكيب المقاصد . والأمر ـ كما ارتضينا من كلام الأئمة ـ في الحروف المقطعة يرجع إلى التحدى ، وهذا لا يمنع وجود هذه الإشارات .

والذي قرره برهان الدين من مقصود السورة ، تسانده آراء المحدثين وشيء آخر هو أن ذات التراكيب تدل على صحته ، ودائما يخلد ويبقى ما استنبط من ذات التراكيب في الذكر الحكيم ، واستكشاف المقصود وتحديده ، هو الذي يهدينا إلى استبصار النمط البياني الذي جاء لهذا المقصود ، ولم يجئ لغيره ، ودونك كلام المحدثين النظري في هذا الذي ذكرت .

يقول الأستاذ سيد قطب ـ بعد بيان أن السورة ينتظمها غرض واحد من المطلع إلى الختام «الترابط في سياق السورة حين يوجد بين مطلعها وختامها فيجيء المطلع في قوله تعالى : ﴿ **الٓر** . . .﴾ ويجيء الختام في قوله : ﴿ **وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ** . . . ﴾ فالحديث عن قضية الوحي ، هو المطلع وهو الختام ، كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطلع والختام»[1] .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب عند قوله تعالى : ﴿ **قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ** . . . ﴾ «بهاتين الآيتين تختم السورة الكريمة ، فيجيء ختامها متلاقيا مع مبدئها ، ويكون ما بين البدء والختام عرضا شارحا لمضمون

(١) في ظلال القرآن ١٧٥٢/٣ .

البدء والختام (ثم يقول) ثم تختم السورة بهاتين الآيتين بهذا الإعلان العام الذي بدأت به ، فتصل منه ما انقطع . الحق من ربكم ، وهو هذا الكتاب الحكيم»[1] .

ويقرر الشيخ عبد المتعال الصعيدي أنه « يقصد من هذه السورة تنزيل الكتاب ، وهي في هذا تنقسم إلى أربعة أقسام أولها : في إبطال شبههم عليه ، وثانيها : في تحديهم به ، وثالثها : في دعوتهم إلى تصديقه بطريق الترغيب والترهيب ، ورابعها : في خاتمة تناسب مقام هذه السورة»[2].

ويكشف لنا الإمام محمد عبده عن خصيصة لهذه السورة فيقول : « وسورة يونس كسورة الأنعام في السورة المكية ، إلا أنها أكثر منها ، ومن سائر السور إثباتا للوحى والرسالة ، وتحديا بالقرآن وبيانا لإعجازه»[3].

وتراكيب مطلع السورة هي نور بيان المقصود من السورة ، الآية الأولى من المطلع لا تشير إلى مقصود السورة ـ لاسيما إذا ارتضينا أن معنى الكتاب السورة على ما ذكر جار الله[4] ـ وإنما تشير إلى أن الآيات الواردة في السورة من الحكمة بمكان في الكمال ، وهي بذلك العموم تثير سؤلا مؤداه ما الداعي إلى إيراد هذه الإشارة إلى آيات السورة؟ لذلك جعل العلامة ابن عاشور الآية الثانية ﴿ أَكَانَ . . . ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا ، للإبهام الذي اشتملت عليه الآية الأولى ثم قال : « ولك أن تجعله استئنافا ابتدائيا ،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١١/١٠٩٦، ١٠٩٧ .

(٢) النظم الفني في القرآن ، ص١٣٧ .

(٣) تفسير المنار ١١/٤٩٤ .

(٤) الكشاف ٢/٢٢٤ .

لأنه مبدأ الغرض الذي جاءت له السورة ، وهو الاستدلال على صدق الرسول وإثبات البعث»[1].

قضية السورة إذن في هذه الآية في اسم كان وخبرها ومتعلقاتهما ، وما يدل عليه اسم كان هو قطب السورة ، وخبرها ومتعلقات كل منهما من مقتضيات ما دل عليه اسم كان ، وهي قضايا تتشابك تشابكا ولغة تكتنز المعاني اكتنازا ، ثم تنتشر بياناتها داخل السورة ، ولا تتكشف خصائصها البلاغية إلا بنور هذا المطلع الذي يجمل الغرض والمقصود من سياقه كل آية ، ففي كل آية من السورة صدى من مطلعها يهدي إليه أهل البصر والبصيرة ، وآية المطلع تقدم خبرها على اسمها ﴿ **عَجَبًا** ﴾ وجاء مسبوقا باستفهام تعجبي ، فتواردت دلالتان على شدة إنكار الكفار . إحداهما بالفحوى (همزة الاستفهام التعجبي) والثانية باللفظ ﴿ **عَجَبًا** ﴾ ، تنبيها إلى أن بيان هذه السورة سيكون في شغل ببسط هذه الحجج التي دفعت إلى هذا العجب وإشارة أيضا إلى أن رد هذه الحجج سيكون ملائما لهذا الإنكار المتعاظم ، إذ الردود ستكون مما يلامس واقعا ، ويعايش دائما من حياة المتعجبين ، ومن تصرفاتهم بأنماط بيانية خاصة بهذه السورة ، يدلك على شدة تعجب الكفار أيضا تقديمه ﴿ **لِلنَّاسِ** ﴾ والتعبير باللام دون (عند) يدل على (أنهم) جعلوه لهم أجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس في (عند الناس) هذا المعنى»[2] وفي تقديم الخبر أيضا تنبيه إلى الاهتمام به والعناية بتفصيله ، وتأخير اسم كان الذي هو المقصود ، فيه إشارة إلى أن اهتمامات السورة ليست فيه ، وإنما فيما يثار حوله من شبهات وحجج .

---

(١) التحرير والتنوير ٨٣/١١ .
(٢) الكشاف ٢٢٤/٢ .

وكأن دلالة التركيب في قوله ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ مشيرة إلى أمرين أولهما : صدق الوحي ، لأنه من الله ، وصدق الرسول الذي جاء به ، وهذان الأمران هما متعلق الإنكار ومثار التعجب ، واكتنز هذا التعبير أول شبهة للكافرين في الموحى إليه (النبي ﷺ) بقوله : ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ فقد كانت تلك أول شبهة للكافرين في الوحي كما صرح بذلك الذكر الحكيم في مواطن متعددة .

ثم جاء قوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ . . . ﴾ ليكشف طريقي الدعوة إلى هذا الوحي (الترهيب والترغيب) لتجنب تبعات الطريق الأول (العذاب) واغتنام مقتضيات الطريق الثاني (الثواب) ، وبيان هذين الطريقين كأنه رد لإنكار الناس الوحي والموحى إليه ، إذ هي دعوة لاغتنام الخير وإبعاد الشر ، ولا ينبغي أن ينكر على من يدعو لهذا الطريق ، وإنما ينبغي أن يتوجه الإنكار إلى من ينكر ذلك ، إذ لا ينكر الدعوة إلى الخير إلا مدخول في عقله ، فالدعوة إلى الخير هي روح الوحي ، وذلك يكشفه اعتبار أن (أن) تفسيرية ، لأنه لا يسوغ اعتبارها كذلك إلا إذا كان الوحي متضمنا معنى القول وهو كذلك .

ثم جاء في المطلع شيء من تفسير تعجب الكافرين وإنكارهم ﴿ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ وقد جاءت بدون عاطف لأنها وقعت من قوله تعالى : « ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ . . . موقع بدل الاشتمال »[1] أو شبه كمال اتصال ، لكونهما « استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب؟ »[2] ، ومعنى قولهم هذا : أنه أتاهم بما يقطع الأطماع ويقهر

(١) التحرير والتنوير ١١/٨٦ .
(٢) روح المعاني ١١/٦٣ .

القوى والقدر ـ كما يقول شيوخنا ـ رحمهم الله ـ لذلك ادعوا أنه سحر مفترى ، وأن قائله ساحر ، وجاء كلامهم مؤكدا تحسبا لما ينكر عليهم من أنه من لغتهم ومن لسانهم ، وتناسبا مع الإنكار المذكور في أول الآية ، فلغتهم في الإنكار متشابهة ومتقاربة .

وما ذكرناه شيء من نور المطلع ، وبيان لكيفية استبصار البقاعي مقصود السورة وأن ما ذكره ـ رحمه الله ـ من ذات المباني ، وقد علمت موقع المقصود من مطلع السورة ، ولمحاولة الاحتجاج لما رجحناه نذكر بعضا من التراكيب التي اختصت بها السورة دون غيرها ، لبيان تناغيها وتواصلها مع المطلع ، ولمحاولة الكشف عن روح بلاغة هذه السورة . وعلماؤنا كانوا يفسرون السورة ، وأعينهم على مطلعها قال الرازي : رحمه الله ـ في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ** . . . ﴾ (يونس:٣) « اعلم أنه ـ تعالى ـ لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ، ثم إنه ـ تعالى ـ أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد ألبته ، في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم ... كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين : أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلها قاهرا قادرا نافذ الحكم بالأمر والنهى والتكليف .

ثانيهما : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولها ، فلا جرم أنه ـ سبحانه ـ ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين . أما الأول ، وهو إثبات الإلهية فبقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ** . . . ﴾ وأما الثانى (إثبات المعاد) قوله تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** ﴾ »[1] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٨/٢٤٣، ٢٤٤ .



وقال ابن عاشور في موقع هذه الآية هي : « استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله ـ تعالى ـ بالإلهية ، وإنما أوقع هنا : لأن أقوى شيء بعث المشركين على ادعاء أن ما جاء به النبي سحر هو أنه أبطل الشركاء لله في الإلهية »[1] .

وما ذكره الفخر ـ رحمه الله ـ إجمال للإنذار والبشارة ، فقوله : ﴿ **إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا** ﴾ بيان عن محل تحقيق الإنذار والبشارة ، وقوله : ﴿ **إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ**. . . ﴾ تفصيل له ، وإجمال ترى صداه في السورة الكريمة فيما شبهت به الحياة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا** . . . ﴾ (يونس:٢٤) وفيه دلالة على البعث ونذارة للكافرين بمثل محس واقع كما نبه إلى ذلك المطلع ، وقد جاء تشبيه الحياة مفصلا تفصيلا لم تفصله سورة أخرى يستظهر بمقارنته بنظائره[2] « وقد جاء هذا التفصيل الدقيق ملائما لسياقه متناغيا مع ما ورد في السورة من معان وأساليب ، فالتمثيل جاء مفصلا لدورات حياة النبات ، بدءا من نزول الماء ، واهتزاز الأرض له ، وهو رمز قريب للحمل ، وما أعقبه من أطوار النبات وازدهاره ، ثم يبسه وفنائه هذا كله متلائم ومتناظر مع قوله تعالى في أول السورة : ﴿ **إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ** . . . ﴾ ، وتلوح ظاهرة التفصيل في مفتتح السورة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ** . . . ﴾ ، وهذا إشارة إلى الأمر الذي بنيت عليه السورة ، لأن فواتح السور تدل على أصول المعاني الجارية فيها ، فالتفصيل باد من ذكر الأيام الستة ، ولم يكتف النظم بذكر خلق السموات

---

(١) التحرير والتنوير ٨٧/١١ .

(٢) يستظهر في المصحف الشريف الآيات : الكهف ٤٥، الحديد ٢٠، الأنعام ٣٢، محمد ٣٦، العنكبوت ٦٤، آل عمران ١٨٥، الرعد ٢٦، غافر ٣٩ .

والأرض فكأن ذكر الأيام إشارة إلى المراحل والأزمنة التي كان فيها التكوين والخلق ، وهذا أيضا متلائم مع التفصيل الموجود في قوله : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ** . . . ﴾ وفي هذا تدقيق وبيان للأطوار طورا بعد طور ، ومنازل القمر تكون منزلة بعد منزلة . . . وهكذا يتناغى التفصيل في التشبيه مع التفصيل المنتشر في السورة وآياتها»[1] . وليس التفصيل بذاته مطلبا تسعى تراكيب السورة إليه ، وإنما الأمر في علة هذا التفصيل ، والأمر ـ كما أرى ـ أن هذا التفصيل في تشبيه الحياة الدنيا جاء تصويرا لمعان سابقة من مثل قوله تعالى : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ** . . . ﴾ (يونس:٢٢،٢٣) والتشبيه من روح هاتين الآيتين ، وهاتان الآيتان وقعتا بعد قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً** . . . ﴾ (يونس:٢١) وهو متشارب من فيض دلالة قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ** . . . ﴾ (يونس:١٢) الذي فصل كل أحوال الإنسان في حركته بما لا نظير له في الذكر الحكيم[2].

وجاء ذلك كله في إطار رد هذه الشبهة ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ** . . . ﴾ (يونس:١١) ، ويمكن أن يكون ذلك بمنزلة بدل الاشتمال من قوله تعالى : ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا** ﴾ في المطلع ، وأن تكون هذه الردود من روح قوله تعالى : ﴿ **أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ** ﴾ في المطلع ، فالمذكور كله من الإنذار الواقع الذي يلامسه الفرد والجماعة ، أليست الغفلة عن تدبره مما يقتضي العجب؟!

---

(١) عزاه الباحث محمود حسن مخلوف لشيخنا الدكتور أبو موسى في إحدى جلساته يراجع (طرفا التشبيه القرآنى بين السياق والدلالة) رسالة دكتوراه ، ص٢٩ .

(٢) يراجع في المصحف الشريف الآيات : الروم ٣٣، والزمر ٨، ٤٩، وهود ١٠، وفصلت ٥٠ .

فأول شبهة لهم كانت في المطلع ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ** ﴾ ثاني شبهة ، والشبهة الثالثة هي : قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ** ... ﴾ (يونس:١٥) والشبهة الرابعة هي : قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ** . . . ﴾ (يونس:٢٠)[1] .

والشبهة الثانية : ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ** . . . ﴾ هي قطب شبهاتهم في هذه السورة لذلك جاء قصص النبيين في هذه السورة ناظرا إلى هذه الشبهة ، كما سنذكر شيئا منه ، ويقويها قولهم مرة أخرى في قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ (يونس:٤٨) الذي عده الفخر الرازى شبهة خامسة وتتناغى التراكيب داخل السورة فقوله : ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ** ﴾ (يونس:٥٠) يتلاءم وقوله : ﴿ **أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا** ﴾ في تشبيه الحياة الدنيا ، وقوله : ﴿ **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ** ﴾ (يونس:٥١) يتواصل في رد الشبهة الثانية التي جاءت الآية ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ** . . . ﴾ مذكرة بها ، ولبيان أن الانتفاع بالإنذار إنما يكون قبل العذاب ، لا عند ظهور مخايله ، ولن تجد في الذكر الحكيم مثل قوله تعالى : ﴿ **لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ** ... ﴾ (يونس:٦٤) وتواصله مع قوله تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** ... ﴾ واضح جدا في سياق الشبهة ، إذ لن يصاب المؤمن بعذاب الدنيا ، ثم جاء ما يدل على إفلاس الكافرين من الحجة من توعدهم النبي ﷺ ذلك ما نَمَّ عنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ (يونس:٦٥) .

---

(١) نبهنا إلى حصر هذه الشبهات الفخر الرازي يراجع في ذلك مفاتيح الغيب ٢٩٤/٨، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٥، ٣٧٦ .

ورحم الله ـ الفخر الرازي ـ فقد بين مناسبة الآية فقال : «اعلم أن القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التي حكاها الله ـ تعالى ـ عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب عنها بالأجوبة التي فسرناها وقررناها ، عدلوا إلى طريق آخر ، وهو أنهم هددوه وخوفوه ، . . . والله ـ سبحانه ـ أجاب عن هذا الطريق بقوله : ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ** . . . ﴾[1] وتواصل هـذه الآية مـع المطلع ﴿ **إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ** ﴾ أمر ظاهر جدا ، ويفسر في ضوئه وجه اختصاص السورة بهذا التركيب في قصة نوح عليه السلام ﴿ **يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ** ﴾ (يونس:٧١) وهذا التركيب في الرد على من يتهدد أحدا ، لا نظير له في قصة نوح في الذكر الحكيم ومما جاء في القصة ﴿ **وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا** . . . ﴾ (يونس:٧٣) ولم يرد في قصة نوح في سورة أخرى ، وهو هنا ناظر إلى قوله : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ**... ﴾ (يونس:١٤) وهو ناظر إلى قوله : ﴿ **أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ** ﴾ .

وفى قصة موسى ترى رد الكافرين مشاكلا لرد كفار مكة في قوله تعالى : ﴿ **قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ (يونس:٧٦) ولا نظير لهذا التركيب في قصـة موسى في غير هذا الموضع لذلك كان رده عليه السلام ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ** ﴾ (يونس:٨١) بما لا نظير له في قصته من الذكر الحكيم ، ويفسر وجه اختصاص السورة بقوله تعالى في قصة موسى : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ** ﴾ (يونس:٨٤) في نور قوله : ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** . . . ﴾ كما يلاحظ اختصاص السورة بأمر الله موسى عليه السلام بقوله : ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وهو ناظر إلى المطلع ، كما يفسر وجه

(١) مفاتيح الغيب ٤٠٥/٨ .



اختصاص السورة بدعاء موسى عليه السلام على قوم فرعون ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ** ﴾ (يونس:٨٨، ٨٩) في نور قوله : ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** ﴾ ، ويفسر وجه اختصاص السورة بقوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴾ (يونس:٩٠، ٩١) في نور قوله : ﴿ **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ** ﴾ (يونس:٥١) في نور قوله : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ** ﴾ (يونس:٤٨) في نور قوله : ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ** ﴾ (يونس:١١) في نور قوله : ﴿ **أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ** ﴾ (يونس:٢) .

كما يفسر وجه اختصاص السورة بالتركيب من قصة موسى عليه السلام ﴿ **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ** ﴾ (يونس:٩٣) في نور قوله : ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (يونس:٨٧) في نور قوله : ﴿ **لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾ (يونس:٦٤) في نور قوله : ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ (يونس:٢) .

ويبدو أن قوله تعالى : ﴿ **فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ** ﴾ (يونس:٩٤) يفسر لنا ما اقتضاه قوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ** ﴾ من تفصيل معين تقصد السورة إليه ، كما تشى بذلك تراكيبها ، وكأن عرض القصص كله متعلق بالنبي ﷺ الذي تنزل عليه الوحي ، وبيان لصدق الوحي بعرض قصص السابقين .

ويترجح ما استبصرناه من أن قوله : ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ** ﴾ (يونس:١١) هو قطب شبهاتهم في هذه السورة ، بما جاء عقب القصص من قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ** ﴾ (يونس:٩٦) ، وما بعدها ، وهو من نور قوله : ﴿ **وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ** ﴾ (يونس:١٣) وما تفردت به السورة

بعد من ذكر قوم يونس ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ (يونس:٩٨) ووجه اختصاصها كما ذكر الأستاذ سيد قطب هو أنها «هي المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم ، فيتوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة ، وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم»(١) . وهذا يدل كما ذكر البقاعي على اتحاد جهة الوحي وجهة العذاب فالإيمان بالأول يرفع الثاني وقد جاءت هذه القصة مقابلة لقصص النبيين السابقين ، ومفسرة لتأجيل العذاب ومنبهة بتفسير الغرض من التأخير إلى المطلع الذي يقصد منه النذارة والبشارة .

وختمت السورة بما يدل على أن قصتها كانت في إثبات صدق الوحي والموحى إليه ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ (يونس:١٠٨) وقوله : ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ (يونس:١٠٩) تلك بصيرة البقاعي ـ رحمه الله ـ في قوله : «وقد ختم ـ سبحانه السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب ، والإشارة إلى الإرشاد، لما ينفع من ثمرة إنزاله، وهو العمل بما دل عليه ... وهذا بعينه أول التي بعدها ، فكان ختم هذه السورة وسط بين أولها ، وأول التي تليها ، ففيه رد المقطع على المقطع وتتبع لما استتبع»(٢) .

ولعل ما ذكرناه كان بصيرة من نور كلام الأئمة المخلصين وترجمة لقول ابن عاشور وغيره في آيتي الختام عند بيان موقعها مما مضى حيث قال هي «استئناف ابتدائي وهو كذيل لما مضى في السورة كلها ،

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٥٢/٣، ١٧٥٣ .

(٢) نظم الدرر ٢٢٢/٩، ٢٢٣ .

وحوصلة لما جرى من الاستدلال والمجادلة والتخويف والترغيب ، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلاما جامعا وموادعة قاطعة »[1] .

والسورة تتشابه في كثير من تراكيبها مع كثير من السور ، مما يجعل استبصار نمطها البياني أمرا عظيما ، لأن ذلك يقتضينا رؤية تراكيب السورة مناظرة برؤية كل تراكيب الذكر الحكيم التي تقاربت مع التراكيب التي وردت فيها . والحمد لله على ما ساق وأعطى .

* * *

(١) التحرير والتنوير ٣٠٨/١١ .

الفصل الخامس

سورة هود

هذه السورة الكريمة تلي سورة يونس نزولا وتلاوة ، وقد اشتبهتا في كثير من نظمهما . لدرجة جعلت الإمام محمد عبده يزعم أنهما اتفقتا في الموضوع فيما يقول : « فقد أجمل في كل منهما ما فصل في الأخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما ، فهما باتفاق الموضوع ، واختلاف النظم والأسلوب آيتان من آيات الإعجاز »(١) .

بل إن تراكيب مطلع هذه السورة جعلت ابن الزبير ـ في استكشافه مناسبتها لما قبلها ـ يجمل معاني السور الطوال وسورة يونس ثم يقول : « فلما تقدم هذا كله في السبع الطوال ، وما تلاها أعقب ذلك بقوله : ﴿ **كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ** . . . ﴾ ثم أتبع هذا بالإيماء إلى فصول ثلاثة ، أما الأول : فأشار إليه قوله ﴿ **أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾ وأما فصل الرسالة فأشار إليه قوله : ـ سبحانه ـ ﴿ **إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ** ﴾ وأما فصل التكاليف فأشار إليه قوله : ـ سبحانه ﴿ **وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ** . . . ﴾ وهذه الفصول الثلاثة هي التي تدور

(١) تفسير المنار ١٢/٣ .

عليها آي القرآن ، وعليها مدار سوره الكريمة»[1] وكلمته ـ رحمه الله ـ تكشف عن اكتناز معنى هذه الآيات ، بحيث كانت إجمالا لمقاصد الذكر الحكيم .

والسيوطي في محاولته استخراج مناسبة بين السورتين ـ يذكر أن سورة يونس أجملت قصة نوح ، وفصلتها هود تفصيلا لم تفصله سورة نوح[2] ـ وهو ـ فيما يبدو ناظر إلى قوله تعالى : في المطلع ﴿ **ثُمَّ فُصِّلَتْ** ﴾ وقد عللوا لتسميتها بهود بذكر اسم (هود عليه السلام) فيها خمس مرات[3] ، ولئن كان تفصيل قصة من القصص وكثرة ذكر اسم نبي من الأنبياء ، أو موضوع من الموضوعات ، أو أي مما ذكرنا يصلح تعليلا للتسمية فلقد كان الأولى بهذه السورة أن تسمى بسورة (نوح) فلقد بسطت فيها قصته عليه السلام وورد ذكره فيها سبع مرات[4] ، لكن علة التسمية ترجع إلى أن لقصة هود عليه السلام مزيد اختصاص بالمقصود ، لا يوجد في قصة نوح ولا غيره من النبيين ـ صلى الله عليهم أجمعين ـ ذلك ما أبصره البقاعي ـ رحمه الله ـ في تقرير مقصود هذه السورة حيث قال : «ومقصودها : وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل في حالتى البشارة والنذارة المقتضي لوضع كل شىء في أتم مجاله ، وإنفاذه مهما أريد . الموجب للقدرة على كل شىء ، وأنسب ما فيها لهذا المقصد ، ما ذكر في سياق قصة هود عليه السلام من أحكام البشارة والنذارة بالعاجل والآجل في قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ** ﴾ ، والتصريح

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص١١٠ .

(٢) يراجع تناسق الدرر ، ص ١٠٨ .

(٣) الآيات من سورة هود ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩ .

(٤) الآيات من سورة هود ٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٨٩ .

بالجزم بالمعالجة والمنابذة الناظر إلى أعظم مدارات السورة ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ** ﴾ والعناية بكل دابة ، والقدرة على كل شيء من البعث وغيره ، المقتضي للعلم بكل معلوم اللازم منه التفرد بالملك »[1] .

وكان هداه في تقرير هذا المقصود تراكيب قصة هود ، وتراكيب مطلع السورة التي تجمل مقصودها في قوله تعالى : ﴿ **الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ** ﴾ (هود:١-٤) .

والمطلع يتقارب مع مطلع سورة يونس ، وأمر السورة في تفصيل البشارة والنذارة ، وذلك أمر في مطلع السورة الماضية أيضا ، والفصل بين سياقة البشارة والنذارة هاهنا ، وفي يونس أمر ملبس جدا فتفصيل البشارة والنذارة لم يقع في سورة يونس بقصص النبيين ، وإنما جاء قصص النبيين في سياق البشارة والنذارة هناك عنصرا مضافا إلى ما سبق من أحوال الإنسان وتصرفاته ، وأحوال الدنيا ، ولذلك جاءت القصص قصيرة ولثلاثة من النبيين متلائمة مع المقصود الذي أجمله المطلع هناك لكن القصص هاهنا هو قطب السورة الوافى بمقصودها المجمل في مطلعها كما سيظهر كما قال الأستاذ قطب : « وقصص هذه السورة هو قوامها ، ولكنه لم يجئ فيها مستقلا ، وإنما جاء مصداقا للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها والتي أجملها السياق في مطلع السورة : كِتَابٌ أُحْكِمَتْ . . . إلى قوله : وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ »[2] .

---

(١) مصاعد النظر ٢/١٧٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/١٨٧٠ .

وقد جاء في نظم السورة معالم دالة على ما ذكره ـ رحمه الله ـ لنتبين نور مطلع السورة الكريمة باصطحابه في استكشاف خصائص تركيبية للسورة ، ومحاولة وضع اليد على تفسير لها .

وقد ذكروا في (كتاب) إعرابين إما أن يكون مبتدأ ومسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بقوله : ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ ويكون قوله : ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ معطوفا عليه ، وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ خبر المبتدأ وإما أن يكون ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، ويكون قوله ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ صفة للخبر ، وقوله : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة ثانية ، أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت ، ويكون في هذا الوجه (طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها . . . خبير عالم بكيفيات الأمور)[1] وعلى الوجهين الإحكام والتفصيل متعلقان بالكتاب ، والجملة بهذا التركيب تستدعي سؤالا مؤداه ـ فيما أرى ـ فيم الإحكام والتفصيل أو لم الإحكام والتفصيل؟

فجاء قوله ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ بعلاقة نحوية ظاهرة ، وكاشفة عن الرابط الشديد في مؤدى الجمل المتواصلة في المطلع ، و(أن) إما أن تكون مفسرة ، لأن في تفصيل الآيات معنى القول ، ووقع هذا التفسير « لما في معنى أحكمت آياته . . . . من الدلالة على أقوال محكمة ومفصلة »[2] ، وإما أن تكون تعليلية ، ويكون المعنى : « لأجل أن تتركوا عبادة غير الله وتعبدوا الله ، فأخذ الترك من لا النافية والإثبات من الاستثناء »[3] وهذا اكتناز للمعنى يظهر بموازنته بقولنا : أن تعبدوا الله ، فتضيع نكتة الإيجاز ،

---

(١) الكشاف ٢٥٨/٢ ويراجع في هذه الإعرابيات البحر المحيط ٢٠٠/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٥/١١ .

(٣) الفتوحات الإلهية ٣٧٩/٢ .

وفائدة القصر ، وعلى التركيب المعجز يتأتى الإنذار والبشارة فهو « مشتمل على المنع عن عبادة غير الله ، وعلى الترغيب في عبادة الله تعالى فهو ﷺ نذير على الأول بإلحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها ، وبشير على الثاني بإلحاق الثواب العظيم لمن أتى بها »[1] ، ووقع هذا الاعتراض بعده ليكشف جلال هذا المعنى الذي اكتنزه التركيب الأول ﴿ **إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** ﴾ ووقع هذا الموقع « لأن شأن الاعتراض أن يكون مناسبا لما وقع بعده وناشئا منه »[2] .

وجاء قوله : ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا** . . . ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ **أَلَّا تَعْبُدُوا** ﴾ مكمل لتفصيل ما أجملته الآية الأولى ، وهذا يناسب في المطلع من حيث الإجمال والتفصيل ، وبيان لتعلق الإحكام والتفصيل بالبشارة والنذارة وتتبين هذا التشاكل في استخدام (ثم) التي تعبر عن التراخي في الحال لا في الزمان ، وقد وقع التفصيل في شأن الاستغفار بما لا نظير له في غير هذه السورة على سبيل الجواب له ﴿ **يُمَتِّعْكُم** . . . ﴾ وجاء الجواب مكتنزا للبشارة في الدارين بقيد ﴿ **إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ ثم قوله : ﴿ **وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾ ولكل من هذه التراكيب صدى داخل السورة ومع أن مفهوم هذه الجملة يقتضى الإنذار ، إلا أنه فصل الإنذار بجواب وشرط ﴿ **وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾ وفي هذه التراكيب إلماع إلى أن البشارة والنذارة في هذه السورة تجرى على الشرط والجزاء أنسب التراكيب لهذا الغرض ، عندما يكون مقصودا أعظم للسورة ، وهو ما تتظاهر عليه تراكيب قصص النبيين داخل السورة وقد وصف يوم العذاب بقوله :

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٩/٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٦/١١ .

﴿كَبِيرٍ﴾ ولا نظير له في الذكر الحكيم ، وتجد صدى هذا الوصف الخاص بآيات هذه السورة في قصص النبيين .

ووقع قوله : ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ. . .﴾ (هود:٤) موقع شبه كمال الاتصال ليكشف عن داعي خوف النذير ، وهو متواصل مع ما قبله إذ هذا اليوم موطن تحقيق النذارة والبشارة .

ثم جاء قوله : ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ﴾ (هود:٥) ليجمل من الإنذار والتهديد ما يتناسب واختصاص السورة بالبشارة والنذارة ، وقد تظاهرت التراكيب على بيان علمه سبحانه ـ بكل خَافٍ ، ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وتتلاءم هذه التراكيب . وقوله : ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، وما جاء في الآية بعدها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ. . .﴾ (هود:٦) بهذا الاستغراق الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهي ناظرة إلى البشارة في قوله : ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ. . .﴾ وإلى النذارة في قوله ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ. . .﴾ وإلى تفصيل قوله : ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وتستظهر مناسبتها لما قبلها بتنظيرها بما تقاربها[1] فلن تجد تفصيلا كهذا التفصيل ، وقوله : ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ ناظر أيضا إلى قوله : ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وإلى قوله في الآية الأولى ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وكذا قوله ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ .

وجاء قوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ. . .﴾ (هود:٧) متفردا بخصائص لا توجد في نظائره[2] تتلاءم مع المطلع الذي يجمل المقصود ، فهو أكثر التراكيب تفصيلا في هذا المعنى ، ولا كقوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ في الذكر الحكيم ذلك ما أبصره البقاعي في قوله : «وهذا زيادة تفصيل لما ذكر في سورة يونس عليه السلام من أمر العرش ، لأن هذه سورة

---

(١) الأنعام ٣٨، والعنكبوت ٦٠ .

(٢) الأنعام ١، ٧٣، والأعراف ٥٤، ويونس ٣، ٦ .

التفصيل»[1] وفيه من التهديد الملائم لقصد النذارة والبشارة متعلق التفصيل في السورة بتنظيره بما سبق من تراكيب تدل على قدرته ـ سبحانه ـ لاسيما بعد أن وقعت في سياق قوله : ﴿ **إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ** ﴾ ، ويترجح هذا الاستنباط باختصاص هذا التركيب دون نظائره بقوله : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ** ﴾ الذي وقع علة لخلق السموات والأرض وأنهما ما خلقتا بمن فيهما إلا لأن يكونا محلا للنذارة والبشارة والناس بصددهما فريقان تفصل السورة شأنهما وجزاءهما ، وتبين شأن السابقين نحوهما والسورة من مطلعها تجمل البشارة والنذارة وتفصلهما ، ولا يغادر تركيبا داخل السورة نور المطلع ، ولا يغيب صدى المطلع عن المُتَسَمِّع لأى من تراكيب السورة .

فقوله : ﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ** ﴾ (هود:٨) متقارب مع قوله تعالى في يونس: ﴿ **وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ**... ﴾ (يونس:١١) لكنه قال هنا : ﴿ **إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ** ﴾ تناسبا مع قوله في المطلع ﴿ **يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ وأجمل هنا ما فصله في يونس من سوق البشارة والنذارة من تصرفات الإنسان تناسبا مع المطلع هناك فقال هنا : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ** ﴾ (هود:٩) ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ** ﴾ (هود:١٠) ، وهما وجهان للبلاء متصلان بما خلق السموات والأرض لأجله لذا لم يكن لهاتين الآيتين أن تقعا في يونس مع تصدير كل من السورتين بآية خلق السموات والأرض . . . لأن هذا السورة تمحضت لتفصيل البشارة والنذارة ، وقد وقع هذا التقارب في التراكيب وفي أنماط جريان المعنى لتقارب المطالع ، ولما بين القرآن ، حال النوع الأول بين ـ إجمالا ـ حال النوع الثانى بقوله ﴿ **إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ** . . . ﴾ (هود:١١) وقد جعل الصلة ﴿ **صَبَرُواْ** ﴾

---

(١) نظم الدرر ٢٣٩/٩ .



دون (آمنوا) تناسبا مع ما مضى من الآيتين ، ولأن المراد مقابلة حالهم بحال الكفار «ودل الاستثناء على أنهم متصفون بصفات ضد المستثنى»[1].

وقد جاء قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ** . . . ﴾ (هود:١٧) ليكون مفتاحا لفقه نظم قصص السورة وهو متلائم مع المطلع بشأن المنذر المبشر أن يكون على بينة ، وقد ذكر العلامة ابن عاشور أن «الفاء للتفريع على جملة أم يقولون افتراه إلى قوله : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ ، وأن أبينهما اعتراض لتقرير توغلهم في المكابرة ... وهذا التفريع تفريع الضد على ضده في إثبات ضد حكمه له ، أى : إن كان حال أولئك المكذبين كما وصف ، فثم قوم هم بعكس حالهم قد نفعتهم البينات والشواهد فهم يؤمنون بالقرآن ، وهم المسلمون ، وذلك مقتضى قوله : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ أى كما أسلم من كانوا على بينة من ربهم منكم ومن أهل الكتاب»[2] والآية فيها إجمال وتفصيل ، فقد ذكر النوع الأول ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ** ﴾ وحذف الطرف الثاني (كمن ليس كذلك) ودل عليه بقوله : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ** ﴾ فهو لف ونشر مرتب كما يقولون[3] مع ملحظ مهم هو أن هذا الإجمال والتفصيل وقع في شأن تنويع الناس من حيث البشارة والنذارة مقصد هذه السورة ، مع ملحظ مهم أيضا هو اختصاص الآية في هذه السورة بقوله : ﴿ **وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** ﴾ وما يقتضيه قوله : ﴿ **عَلَىٰ بَيِّنَةٍ** ﴾ من التبصر ، وما يقتضيه التركيب الثاني من التسمع ، كل ذلك في إطار البشارة والنذارة ، وذلك التركيب المبني

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/١٢ .

(٣) راجع الفتوحات الإلهية ٣٨٨/٢، والصاوي على الجلالين ٢١١/٢ .

على اللف والنشر المرتب[1] صوره قوله : ﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ (هود:٢٤) . على اللف والنشر المرتب أيضا ولا كهذا التركيب في الذكر الحكيم وبهذا الترتيب البديع (البصير) يصور ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ والسميع يصور (ويتلوه شاهد منه)، والعكس يصور العكس ، وقد مهد لهذا التشبيه بقوله : ﴿ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾ (هود:٢٠) ليبين عن طرف السورة الآخر (الأعمى والأصم) .

وكان لابن عاشور أن يقول بشأن هذا التشبيه «الجملة فذلكة للكلام وتحصيل له وللتحذير من مواقعة سببه»[2].

وهذا التشبيه ـ فيما أرى ـ بهذا التناغي هو مفتاح السورة ، فقد أجملت السورة ، وفصلت في البشارة والنذارة في المطلع ، وبينت إجمالا حال الناس تجاهها وجاء قوله : ﴿ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ ﴾ ليكشف لنا أن الحديث الماضي كان إجمالا لحال الفريقين أي تجاه البشارة والنذارة ، وأن ما يأتي من قصص النبيين إنما هو في بيان الفريقين السابقين ، ولما كانت السورة متمحضة لتفصيل هذا الغرض اتبع الذكر الحكيم الترتيب التاريخي للنبيين فقد ذكر قصص (نوح ـ هود ـ صالح ـ إبراهيم ـ لوط ـ شعيب ـ موسى) ولم يتبع الذكر الحكيم هذا النمط التاريخي في الترتيب إلا في هود وسورة الأعراف لتمحضها للإنذار ، وتمحض الأولى للنذارة والبشارة ، والذي هدانا إلى استبصار موقع هذا التشبيه في السورة ، وكونه مفتاحا لفقه أسلوب

---

(١) ويعرفه البلاغيون بأنه (ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه ، وإن جاء النشر على ترتيب اللف سمي باللف والنشر المرتب) . شروح التلخيص ٣٢٩/٤ وما بعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٤٠/١٢ .

قصص السورة قول البقاعي في بيان مناسبته لما قبله «ولما استوفى أوصاف الحزبيين وجزاءهم ضرب للكل مثلا بقوله : (مَثَلُ الفريقين)»[1].

وقد جاءت في قصص النبيين معالم دالة على ارتباطها بهذا التشبيه بتناغيه مع هذا السياق ، بتواصله مع المطلع فلا تجد كقوله تعالى ﴿ **أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾ (هود:٢٦) في قصة نوح في الذكر الحكيم ، وهو التركيب المذكور في مطلع السورة ، ومن هذه المعالم اختصاص قصص النبيين في هذه السورة بقول نوح ﵇ : ﴿ **أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى** ﴾ (هود:٢٨) وقول صالح ﵇ ﴿ **أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى** ﴾ (هود:٦٣) وقول شعيب ﵇ ﴿ **أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى** ﴾ (هود:٨٨) ، فهو تواصل لا ينقضي منه العجب ، ولا كقوله تعالى في قصة نوح في الذكر الحكيم ﴿ **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** ﴾ (هود:٢٨) وهي استعارة بديعة «إذ شبهت الحجة التي لم يدركها المخاطبون كالعمياء في أنها لم تصل إلى عقولهم ، كما أن الأعمى لا يهتدي للوصول إلى مقصده»[2] يفسر وجه اختصاص السورة به بنور التشبيه الذي وقعنا على تفهمه بتناغيه وتواصله ، وبتدبر تواصل قول نوح ﵇ ﴿ **وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ** ﴾ (هود:٣١) مع قوله ـ سبحانه ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ** ﴾ (هود:١٢) ، وتواصل قوله : ﴿ **لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ** ﴾ (هود:٤٣) مع قوله : ﴿ **أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ** ﴾ (هود:٨).

ومعلم آخر يدل على هذا الترابط العجيب وقع لابن عاشور ولم يقع لغيره فقد عد قوله تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ** ﴾ (هود:٣٥) اعتراضا في قوله : هي «جملة معترضة بين جملة أجزاء القصة

---

(١) نظم الدرر ٢٦٣/٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٢/١٢ .



وليست من القصة ، ومن جعلها منها فقد أبعد وهى تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة ـ ومناسبة هذا الاعتراض أن تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم ويعيدوا ذكره»(١) وهو إلماع إلى غرض سياقة القصة .

ولعل في تسمية السورة بهود معلما دالا على هذا الترابط العجيب بينها وبين المطلع الذي يجمل مقصود السورة فقد تكررت فيها ـ دون غيرها من قصص النبيين تراكيب تتقارب أن لم تعد بنمطها المذكور في المطلع من مثل قوله : ﴿ **وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا** ﴾ (هود:٥٢) و﴿ **مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ** ﴾ (هود:٥٦) ولا كقوله تعالى في قصة صالح عليه السلام : في الذكر الحكيم ﴿ **فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ** ﴾ (هود:٦١) ولا في قصة لوط ﴿ **وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٍ** ﴾ (هود:٧٦) وهو متلائم مع قوله : ﴿ **أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ** ﴾ (هود:٨) ولم يأت في الذكر الحكيم تفصيل في الإنذار بالسابقين كقوله تعالى : ﴿ **وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ** ﴾ (هود:٨٩) وهو فيما أرى يرجح ما استنبطناه من أن الترتيب التاريخى للقصص لا يأتى إلا إذا تمحضت السورة للبشارة والنذارة .

وفى تكرار قوله تعالى ـ معقبا قصة كل نبي من الأنبياء ـ بقوله : ﴿ **وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (هود:٤٤) وقوله : ﴿ **أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ** ﴾ (هود:٦٨) وقوله : ﴿ **كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ** ﴾ (هود:٩٥) نور من وقوعه في

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/٦٣ .

سياق النذارة والبشارة اللتين تمحضت السورة لتفصيلهما ، لذلك لم يقع هذا التركيب في غير هذه السورة إلا في سورة (المؤمنون)[1] مع مراعاة الفرق الهائل بين التركيبين الواردين هناك وبين هذه التراكيب .

وكان وصف يوم العذاب بهذا الوصف (كبير) الذي لا نظير له إشارة إلى إنذار الأنبياء السابقين بهذا اليوم بأوصاف لا نظير لها في غير السورة أيضا ﴿ **هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ** ﴾ (هود:٧٧) . . . ﴿ **عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ** ﴾ (هود:٨٤) .

وكثير من تراكيب السورة يظهر الترابط بينها وبين المطلع الذي يجمل المقصود إلا أننا نضع اليد على ما حاولنا تلمسه من بيان سلك السورة البلاغي ، ثم جاء عقب القصص قوله : ﴿ **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ** ﴾ (هود:١٠٠) إلى آخر السورة ، وهو ختام للسورة « يشتمل على تعليقات ، وتعقيبات متنوعة مبنية على ما سبق في سياق السورة من المقدمة ومن القصص »[2] ، وفيه معالم دالة على تواصله مع المطلع وفي ذلك من تحديد غرض سياقة القصص ما لا راد له ، فقوله ﴿ **وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ** ﴾ (هود:١٠٤) ناظر إلى قوله : ﴿ **وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ** ﴾ (هود:٨) وهو ناظر إلى المطلع ، وجاء قوله : ﴿ **عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ** ﴾ (هود:١٠٨) مقابلا لقوله في المطلع : ﴿ **يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى** ﴾ تنبيها لاستبصار السلك الذي انتظم بيان السورة إلى هذا الموضع .

وجاء قوله : ﴿ **وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡ** ﴾ (هود:١١١) ، وهو (تذييل للأخبار السابقة)[3] .

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٤١، ٤٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/١٩٢٦ .

(٣) التحرير والتنوير ١٢/١٧٣ .

وجاء قوله : ﴿ **فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ** ﴾ (هود:١١٢) ناظرا إلى قوله في المطلع ﴿ **وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ** . . . ﴾ وعبر بالماضي في قوله : ﴿ **وَمَن تَابَ** ﴾ وبالأمر في قوله : ﴿ **ثُمَّ تُوبُوٓاْ** ﴾ في المطلع ، لبيان ما ينبغي أن يصنعه الاعتبار بالسابقين في الإنذار وقوله : ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ** ﴾ (هود:١٢٠) « تذييل وحوصلة لما تقدم . . . وهذا تهيئة لاختتام السورة وفذلكة لما سبق فيها من القصص والمواعظ »[١] . وقوله : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ** ﴾ (هود:١٢٣) « كلام جامع وهو تذييل للسورة مؤذن بختامها ، فهو من براعة المقطع »[٢] وقوله : ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ** ﴾ « فذلكة جامعة فهو تذييل لما تقدم »[٣]، وما أجمل ما أبان به البقاعى في ختم السورة بقوله : ﴿ **وَمَا رَبُّكَ** . . . ﴾ فقال : « ولما كانت العادة جارية بأن العالم قد يغفل نزه عن ذلك ـ سبحانه ـ نفسه ، فقال : ـ مرغبا مرهبا ـ ﴿ **وَمَا رَبُّكَ** . . . ﴾ ولا تهديد أبلغ من العلم ، وهذا بعينه مضمون قوله تعالى : ﴿ **كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ** . . . ﴾ »[٤].

فهذه إشارات من نور ما اهتدينا به من بصائر السلف في محاولة التعرف على السلك البياني لهذه السورة ، والمعاني والتراكيب فيها متواصلة متناغية في سلك عجيب ، هذا القلم دون الكشف عن شيء منه ، والحمد لله على ما ساق وأعطى .

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٩١ .

(٢) المرجع نفسه ١٢/١٩٤ .

(٣) المرجع نفسه ١٢/١٩٦ .

(٤) نظم الدرر ٩/٤٠٧ .

الفصل السادس

سورة يوسف

هذه السورة الكريمة دون سائر السور تتميز بعدة خصائص :

أولها : استغراق قصة يوسف جل آيات السورة ، وكانت هذه الخصيصة تأييدا لمن قالوا بوحدة مقصودة السورة القرآنية ، والذين قالوا بتعدد أغراض السورة استثنوا هذه السورة مما قرروه .

ومن ميزات قصة هذه السورة أن الله وصفها بقوله : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ** ﴾ ، وقد علل العلماء لتفردها بهذا الوصف بعدة علل أبانت عن العلاقة بين مطلعها ومقصودها :

١- أن مضمونها مفارق لمضمون قصص النبيين ، إذ حاصلها فرج بعد شدة وتعريف بحسن عاقبة الصبر ، وأنها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدتهم أول الأمر إلى أن جمع الله شملهم[1] .

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص ١١١ .

٢- أنها تتضمن من العبر والحكم ما لا تتضمنه قصة أخرى ، واستدلوا لذلك بقول الله في آخرها : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ** ﴾ (يوسف:١١١)(١) وهذه العلة ثمرة النظر في الآيات التي وقعت قصة يوسف بينها في المطلع والخاتمة حيث أبانت عندهم عن المقصود من القصة ، لأن قصص النبيين ليس مقصدا يطلب وإنما هو سبيل للمقصود .

٣- أنها اختصت بذلك لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم وعفوه عنهم(٢) . وهذه من علاقة المطلع بالمقصود من القصة أيضا .

٤- أنها اختصت بذلك ، لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة(٣).

٥- أنها انفردت عن سائرها بما فيها من ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس(٤) .

٦- أوبأن في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص(٥) .

وكل ما قالوه في هذه التعليلات كان ثمرة النظر إلى ما تفردت به القصة من الوصف في مطلع السورة ، مقارنا بالتأمل في عبر القصة وطريقة عرضها وخصائصها البيانية ، وما عقب به على القصة من آيات هي من فيض دلالة المطلع .

(١،٢،٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٤١/٥ .
(٤) البحر المحيط ٢٧٨/٥ .
(٥) التحرير والتنور ١٩٧/١٢ .

ومن ميزات هذه القصة أنها لم تتكرر ، وقد عللوا لذلك بالتحدي بما لم يتكرر كما تحدوا بما تكرر من قصص النبيين ، لبيان أنه لم يقدر مخالف على معارضته ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر[1] .

كما عللوا لتأخرها إلى هذا الموضع من الذكر الحكيم بتفردها بنوع العبرة التي تحكيها القصة إذ هي « إخبار بعاقبة من آمن واتعظ ووقف عند ما حدد له ، فلم يضره ما كان »[2] .

وكان مطلع السورة وخاتمتها ، وما وقع بينهما من عرض القصة وما تذاكره العلماء فيما مضى هاديا إلى تحديد مقصود السورة عند البقاعي ، فقال : رحمه الله ـ « ومقصودها : وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى لما ثبت فيما مضى ، ويأتي في هذه السورة من تمام علم منزله غيبا وشهادة ، وشمول قدرته قولا وفعلا ، وهذه القصة كما ترى أنسب الأشياء لهذا المقصود ، وأدل عليه مما في آخرها فلذلك سميت سورة يوسف »[3] .

ومطلع السورة يجمل هذا المقصود الذي قرره البقاعي ، ويكشف عما يحتاج إليه هذا المقصود من مقدمات لتقريره . وذلك المطلع هو قوله تعالى : ﴿ **الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ** ﴾ (يوسف:١، ٢، ٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٣٩/٤ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٢٢ .

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١٨٥/٢ .

ويترجح ما قرره من المقصود بما قرره جار الله من أن المراد بالكتاب المبين السورة ، وتابعه الفخر الرازي وأبو حيان في الرأي المرجوح وأبو السعود ، وتابعه البيضاوي في هذا وفي أن المراد بالقرآن في قوله : ﴿ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ السورة[1] .

كما يترجح بأن قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا ﴾ (يوسف:٢) « استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه ومعناه ، فإن كونه قرآنا يدل على إبانة المعاني ، لأنه ما جعل مقروءا إلا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ ، وكونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه عن المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء »[2] وجار الله يجعل الضمير في (أنزلناه) عائدا إلى الكتاب الذي هو بمعنى السورة يقول : « أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف »[3] .

وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ (يوسف:٣) منزل من جملة ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ « منزلة بدل الاشتمال . . . وكون القصص من عند الله يتنزل منزلة بدل الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله ، وقوله : ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يتضمن رابطا بين جملة البدل والجملة المبدل منها »[4] ، ومع كونه رابطا بين الجملتين هو ربط للآية بالمطلع أيضا ، الذي هو جذر المقصود أشار الزمخشري إلى هذا الرابط فقال : « أي بإيحائنا إليك هذه السورة »[5]

---

(١) يراجع الكشاف ٣٠٠/٢، ومفاتيح الغيب ٦٤٥/٨، والبحر المحيط ٢٧٧/٥، وإرشاد العقل السليم ١٥٠/٥، وأنوار التنزيل ٤٨٦/١ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠١/١٢ .

(٣) الكشاف ٣٠٠/٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٢/١٢ .

(٥) الكشاف ٣٠٠/٢ .

والباء على هذا التأويل سببية ، والقرآن بمعنى السورة ، وفي هذا التركيب بالإضافة إلى تفرد القصة بهذا الوصف ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ إشارة إلى أن هذه القصة ستكون مشتملة على كل ما يوجب الهدى ، ويكون المقصود وصف الكتاب ـ السورة ـ بالإبانة عن كل ما يوجب الهدى ، ولو قلنا إن مقصودها وصف الكتاب بالإبانة فقط لالتبس ذلك بمطالع سور أخرى[1] .

وكان قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ داعية الاختلاف في تقرير مقصود السورة عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، فهو يقرر أن مقصودها : « إثبات تنزيل القرآن كما يقصد من سورتي يونس وهود ، ولهذا ذكرت بعدهما ، وتختلف طريقة إثباته فيهما ، لأن طريقة إثباته فيهما كانت بتحديهم أن يأتوا بسورة أو عشر سور مثله ، أما طريقة إثباته في هذه السورة ، فبأنه يقص عليهم من تفصيل أخبار يوسف ما لا يُمَكِّنُ أميا مثله أن يعرفه ، وقد جاءت هذه السورة في هذا الغرض على ثلاثة أقسام : أولها : مقدمة يقصد منها التمهيد لقصة يوسف ، وثانيها : في قصة يوسف ، وثالثها : في خاتمة تناسب ما سيقت له هذه القصة »[2] .

وربما يتأيد ما رآه بما عزاه السيوطي إلى ابن عباس وجابر بن زيد من أن يونس نزلت ثم هود ثم يوسف[3] ، وبما عزاه الواحدي إلى سعد ابن أبي وقاص في قوله : ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ ﴾ : قال :« أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصت فأنزل الله تعالى :

---

(١) يستظهر في المصحف الشريف مطالع سور ـ الحجر ، الشعراء ، النمل ، القصص .

(٢) النظم الفني في القرآن ص١٤٩ .

(٣) تناسق الدر في تناسب السور ص١٠٩ .

﴿ الٓر ﴾ إلى قوله : ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ ﴾ فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ . . . ﴾ قال : كل ذلك ليؤمنوا بالقرآن»[1].

مما يجعل القصص عند العرب طريقا لإثبات الوحي ، وما قرره البقاعي أولى لما ذكرناه من علاقة تراكيب المطلع ، وما علل به العلماء لتفرد القصة بهذا الوصف ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ ، ولئن كانت السورة مبينة عن كل ما يوجب الهدى فذلك طريقٌ لإثبات الوحي أيضا ، إلا أن هذا الغرض الذي قرره الشيخ عبد المتعال ، جاء فرعا عن مقصود السورة الذي قرره البقاعي ، فالمطلع يجمل المقصود على الرأيين .

وعندي وجه آخر لاختصاص السورة بهذا الوصف ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ هو أن يوسف عليه السلام وصف بالإحسان ممن يحبه ، وممن يكرهه ، ومن نفسه وهذا أمر اختصت به القصة دون سائر قصص الذكر الحكيم .

فقد جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢) وفي كلام صاحبي السجن ﴿ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٣٦) وبعد جعله على خزائن مصر ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦) ومن إخوته ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٧٨) وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٠) فكأن قصته وصفته بالحسن في المطلع لما اشتهر صاحبها بالإحسان ، ووقع هذا الوصف له خمس مرات

---

(١) أسباب النزول ، ص٢٠٣، وقال رواه الحاكم في صحيحه .



في السورة تستظهر هذه اللطيفة بتنظيرها بما جاء في سورة الصافات من وقوع هذا التذييل ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ خمس مرات عقب قصص النبيين ، مرة عقب قصة نوح ، ومرتين عقب قصة إبراهيم ، ومرة عقب قصة موسى وهارون ، ومرة عقب قصة إل ياسين[(١)] .

وما ذكرناه مستنبط من تفرد هاتين السورتين بوقوع هذا الوصف خمس مرات في كل منهما ، كأن هذه القصة تحوى من الإحساس ما يحويه قصص النبيين ومن الحكم ومن العبر وغير ذلك مما علل به العلماء لتفرد القصة بهذا الوصف .

وقد أبان عن ذلك أيضا موقع قوله : ﴿ **إِذۡ قَالَ يُوسُفُ** ﴾ (يوسف:٤) فهو ـ كما قال جار الله ـ « بدل من أحسن القصص ، وهو من بدل الاشتمال »[(٢)] وهذه الآية باتصالها بالمقصود الذي أجمله المطلع وآيتان بعدها تعد إجمالا لقصة يوسف أيضا من أول قوله: ﴿ **إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ الآيات (٤، ٥، ٦) ولتراكيب هذه الآيات صدى في تراكيب آيات القصة ، وهي متواصلة مع المطلع تواصلا ظاهرا ، فقد أبانت السورة التي بمعنى الكتاب عن هذه القصة خير بيان يوجب الهدى ، واشتملت على تمام معرفته غيبا وشهادة ، وشمول قدرته قولا وفعلا بطريق القصة .

ومما يذكر في هذا الصدد أن أحد الباحثين[(٣)] مع اشتغاله بالكشف عن

---

(١) سورة الصافات الآيات ٨٠، ١٠٥، ١١٠، ١٢١، ١٣١ .

(٢) الكشاف ٢/٣٠١ .

(٣) يراجع (الخصائص البلاغية في سورة يوسف) ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم ١٦٢٨ للباحث : محمود حسن مخلوف ص٢٣٨، وما بعدها .

الخصائص البلاغية لهذه السورة ـ وإفراده مبحثا جعله لبيان معاقد الكلام وبنية الجملة في السورة ـ مع كل ذلك قسم السورة إلى ثماني فقرات كانت أول فقرة عنده من قوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وهي بمثابة تمهيد للرؤيا ولم يبين لنا موقع الفقرة الأولى من الآيتين الأُولَيَيْن اللتين تعدان إجمالا للمقصود على ما قرره البقاعي والشيخ الصعيدي ، والأمر كما ترى من الترابط والتواصل بين المقصود وبين المطلع وبين القصة بهذا الترتيب التنازلي بإجمال المقصود في المطلع ، ثم شرحه بالقصة إجمالا ثم تفصيلا بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ ... ﴾ ومما يدلك على أن الثلاث آيات التي وليت المطلع كانت إجمالا لقصة يوسف ، ما تجده من التراكيب المباشرة التي لها علاقة بهذا الإجمال ، وكأن الذكر الحكيم وضعها معالم دالة على هذا التواصل والترابط من مثل قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف:٢١) وقوله على لسان صاحبى السجن ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ (يوسف:٣٦، ٣٧) ورؤيا الملك ، وتأويلها الذي كان سبب التمكين وتمام النعمة ، كما أجمل ذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ (يوسف:٦) .

وجاء ختم القصة مبينا أن قصة السورة كانت رؤيا ، عرضت السورة لتفصيلها ثم تحققت في نهاية القصة ، وعاد الكلام إلى إجمال القصة في المطلع بقوله : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ والآية إجمال عقب شرح القصة يتعانق وإجمال مطلع القصة بهذا الترتيب

والتناسق الذي يتلاءم مع الترتيب التنازلي في مطلع القصة فقوله : ﴿ **إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ يعانق قوله : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ وقوله : ﴿ **إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ يعانق قوله في الختام ﴿ **مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ** ﴾ وقوله : ﴿ **يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ** ﴾ يعانق قوله : ﴿ **هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ** ﴾ في الختام .

ولما كانت قصة الرؤيا أمر هذه القصة قال عليه السلام في الختام ﴿ **رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ** ﴾ (يوسف:١٠١) وهو تحقيق لقوله : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ** ﴾ (يوسف:٦) فهو رد للعجز على[1] الصدر في نطاق متسع يصور وحدة بناء السورة وعلاقة تراكيب القصة ، بإعادة تراكيب مباشرة وظاهرة في النهاية .

وكان للعلماء وقفات عند قوله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ** ﴾ (يوسف:١٠٢) كشفت عن بيان علاقة هذه الآيات بالمطلع ، ورجحت ما قرره البقاعى من مقصود السورة الذي أجمله المطلع ، فالختام إحدى عشرة آية بدأت من هذه الآية (١٠٢) إلى آخر السورة ، وهي جميعا تعقيب على القصة يتعانق مع التقديم لها في بيان المقصود من عرضها فيما يقول صاحب المنار : «وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية . . . وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال على ما أنزله

---

(١) البلاغيون يعدون هذا اللون من المحسنات اللفظية ، ويذكرون أنه يقع في النظم والنثر ، وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها راجع شروح التلخيص ٤٣٣/٤، وما بعدها ، ولكن يبدو أن هذا اللون في القرآن على وجه آخر ، وقد يكون على ما قرروه على اعتبار أن القصة من أولها إلى آخرها فقرة واحدة ، فيكون معلما على وحدة بناء السورة .

الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين . . .»[1] بغض النظر عما قرره من مقصود يخالف ما قرره البقاعي .

وفيما يقول الأستاذ سيد قطب عند هذه الآية : «وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ويعطف ختامها على مطلعها»[2]، وهو الذي نبهنا ـ رحمه الله ـ إلى أن للقصة مطلعا وختاما وللسورة مطلعا وختاما بقوله عند آخر آية : «وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة ، كما توافق المطلع والختام في القصة ، وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة وطريقة أدائها وعباراتها كذلك»[3] .

وما ذكره العلامة ابن عاشور من أن «ذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة»[4] ، وهذا التعقيب متناسب مع البدء منبه إلى أن ما جرى في السورة من الوحي بقوله هنا : ﴿ **ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ** ﴾ (يوسف:١٠٢) وقوله في المطلع : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا** ﴾ (يوسف:٣) وما أجمل التعريض بالمشركين وبغبائهم في هذا الموقع ﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا** ﴾ (يوسف:١٠٢) ، وقد تولد عن هذا التعريض قوله : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ ، (يوسف:١٠٣) .

---

(١) المنار ١٢/٢٠٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٠٣١ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/٢٠٣٧ .

(٤) التحرير والتنوير ١٢/٢٠٨ .

قال الفخر ـ رحمه الله ـ في هذه الآية «اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود ، طلبوا هــذه القصة مـن رسول الله ﷺ على سبيل التعنت ، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها فربما آمنوا فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت»[1] ، وذلك لأن هذه القصة تشتمل على كل ما يوجب الهدى ، وذلك ما لا يكون إلا بطريق الوحي . ثم استطردت الآيات في هذا المعنى ، ووضع القرآن معلما لهذا الاستطراد هو قوله : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ** ﴾ (يوسف:١١٠) وذلك الاستيئاس لا يكون إلا بعد استفراغ المجهود في بيان سبل الهدى ، وهذا المعنى متواصل مع آية الختام التي تتواصل هي الأخرى مع آيات المطلع التي تجمل المقصود من القصة .

وجاء قوله : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (يوسف:١١١) وهو إجمال لمقصد السورة متلاق مع المطلع مصورا الترقي في بيان المقصود وما يحتاج إليه من المقدمات بادئا بالأدنى مترقيا إلى المقصود الأعلى بعكس آيات المطلع التي بدأت ببيان المقصود الأعلى في وصف الكتاب ـ الذي هو بمعنى السورة بالإبـانـة ، وما احتاج إليه ذلك المقصود من عرض قصة هي أحسن القصص في بيان ما يوجب الهدى . مع مراعاة أن هذا التركيب لا نظير له في الذكر الحكيم فقوله : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ** ﴾ متعانق مع قوله ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ** ﴾ كما مضى من تعليلات الأئمة لتفرد القصة بهذا الوصف ، وقوله : ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ متعانق

---

(١) مفاتيح الغيب ١٧٣/٩ .



مع قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ . . . ﴾ وقوله : ﴿ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ متعانق مع وصف الكتاب ـ بمعنى السورة ـ بالإبانة لكل ما يوجب الهدى . في هذا التناسق ، المذهل لبيان القرآن الكريم . كما قال الفخر ـ رحمه الله ـ في بيان وجوه الاعتبار في الوجه الثالث :

« أنه ذكر في أول السورة ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ . . . ﴾ ثم ذكر في آخرها ﴿ لَقَدۡ كَانَ . . . ﴾ تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة »[١].

وقد ذكروا أن الضمير في ﴿ قَصَصِهِمۡ ﴾ « عائد على يوسف وإخوته بدليل قوله تعالى في أول هذه السورة : ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ . . . ﴾ »[٢] ويرجحه قوله سبحانه ﴿ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (يوسف:٧) بقرينة أن التنكير في ﴿ ءَايَٰتٞ ﴾ للتعظيم .

وكانت هذه الآية ـ كما قال ابن عاشور ـ « من رد العجز على الصدر ، فهي مرتبطة بجملة ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ ، وهي تتنزل منها منزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ . . . ﴾ وهي أيضا تتنزل منزلة التذييل للجمل المستطرد بها لقصد الاعتبار بها ابتداء من قوله : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ . . . ﴾ وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ . . . ﴾ فكما سماه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية »[٣].

وتعانق البدء مع الختام بهذه الهيئة يرجح ما قرره البقاعي ـ رحمه الله ـ من مقصود السورة ـ والحمد لله أولا وآخرا .

* * *

---

(١) مفاتيح الغيب ١٧٢/٩ .
(٢) الصاوي على الجلالين ٢٦٢/٢ .
(٣) التحرير والتنوير ٧١/١٣، ٧٢ .



الفصل السابع

سورة الرعد

مما يلفت في هذه السورة افتتاحها بـ ﴿ الٓمٓر ﴾ ، فجمع افتتاحها بالحروف بين ذوات (الر) و(الم) ، وقد ذكر الكتاب عقب هذه الافتتاحات فيما عدا بعض السور وربما يكون افتتاح الرعد بهذه الهيئة إشارة إلى تقارب مقصودها ، مع مقصود نظائرها وتفردها بخصيصة دون أخواتها ، وفي ذكر الكتاب بعد هذه الأحرف عجيبة أخرى تضاف إلى هذه العجيبة ، فالكتاب يتبع بصفات دائما في نظائرها ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أما هنا فقد قال : ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ، كان هذا المطلع بهذه المفارقات بينه وبين نظائره ، مع ما سميت به السورة ، وما اختصت به السورة من بعض التراكيب ، كل ذلك كان هاديا البقاعي إلى استبصار مقصود السورة فقرره بكلام يغري أول الأمر بدفعه ، إلا أن تفهمه يهدينا إلى استكشاف خيط البيان الذي انتظم هذه السورة الكريمة .

يقول : رحمه الله ـ « ومقصودها : وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه ، وتارة يتأثر عنه ـ مع أن له صوتا وصيتا وإرغابا وإرهابا يهدي بالفعل ـ

وتارة لا يتأثر ، بل يكون سببا للضلال والعمى ، وأنسب ما فيها لهذا المقصد الرعد ، فإنه ـ مع كونه حقا في نفسه ، يسمعه الأعمى والبصير والبارز والمستتر ـ تارة يتأثر البرق عنه والمطر ، وتارة لا ، وإذا نزل المطر فتارة ينفع إذا أصاب الأراضي الطيبة ، وسلمت من عاهة ، وتارة يخيب إذا نزل على السباخ الخوارة ، وتارة يضر بالإغراق أو الصواعق أو البرد وغيرها »[1] .

والمقصود ـ على قول البقاعي ـ يجمله قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ** ﴾ (الرعد: ١) .

والزمخشري يخص اسم الإشارة بآيات السورة ، لأنه يفسر الكتاب بالسورة ويتأول المعنى فيقول : « تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها »[2]، ويتأول غيره الكتاب بالقرآن ، والحق فيما تأوله الزمخشري ، لأن معطوف هذه الجملة قوله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ** ﴾ ، ولو كان المراد من الكتاب القرآن لكان التركيب تلك آيات الكتاب الحق الذي أنزل إليك من ربك ، أو حذف حرف العطف من التركيب لكنه جاء بعاطف فاقتضى المغايرة ، وعطفت الجملة ﴿ **وَٱلَّذِيٓ** ... ﴾ على ﴿ **ٱلۡكِتَٰبِ** ﴾ من باب « عطف العام على الخاص »[3] . كأن المعنى على هذا الوجه . تلك آيات السورة الكاملة في الدلالة على أن الكتاب حق في نفسه .

ويغري على القول بهذا التأويل تعريف الخبر ﴿ **ٱلۡحَقُّ** ﴾ لما في التعريف من الاختصاص ، مع ملحظ مهم هو أن هذا الوصف ﴿ **ٱلۡحَقُّ** ﴾

---

(١) مصاعد النظر ١٩٣/٢ .

(٢) الكشاف ٣٤٨/٢ .

(٣) أنوار التنزيل ٥١٢/١ .



لم يقع للمنزل خبرا في الذكر الحكيم في غير هذا المطلع ، وإنما جاء مجرورا (بالحق) واصفا ما يحويه الكتاب أو ما نزل به الكتاب[1] . نعم وصف الكتاب بأنه حق لكنه ليس بهذا التركيب في قوله تعالى : ﴿ **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (هود:١٧) ما لكتاب تباعد ذكره في هذا التركيب فلم يصرح بذكره لأن مطلع الآية ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ** ﴾ .

وعطف على هذا التركيب قوله : ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ ولم يأت هذا التركيب سوى ما هنا وما في هود وما في غافر في قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (غافر:٥٩) ، وهذا الاستدراك « راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقية إبطالا يقتضى ارتفاع النزاع في أحقيته ، أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به ، فمن أجل هذا الخلق الذميم منهم يستمر النزاع في كونه حقا »[2] .

وقد أشار الأستاذ سيد قطب إلى ما أجمله هذا المطلع فيما تقصد السورة إليه فقال : « هذا هو الافتتاح الذي يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها ، ومن ثَمَّ يبدأ في استعراض آيات القدرة »[3] .

وهذه الآية منزلة من السورة « منزلة الديباجة من الخطبة »[4] عند ابن عاشور لأن الآية الثانية عنده استئناف ابتدائي هو ابتداء المقصود من

---

(١) البقرة ١٧٦، ٢١٣، آل عمران ٣، النساء ١٠٥، المائدة ٤٨، الأنعام ١١٤، يونس ٩٤، الإسراء ١٠٥، سبأ ٦، الزمر ٢، الشورى ١٥، الحديد ١٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٧٦/١٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٠٤٤/٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٧٩/١٣ .

السورة . نعم الآية استئناف ابتدائي لتفصيل المقصود من السورة ولهذه الصلة ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ صدى في تراكيب السورة ، هذه الآية هي أول الصدى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ (الرعد:٢) ، جهة الإنزال التي نصت عليها الصلة في المطلع ، وقابل بهذه الآية قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ (الرعد:٣) مع ملحظ مهم في بيان آية السموات هو أن قوله فيها : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ يتأثر عنه قوله في آية الأرض : ﴿ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ وآيات مد الأرض ، وإن جاءت في سورتين أخريين ، [1] إلا أنهما لم تشتملا على التفصيل الذي هنا ، فقد رشح هذا التركيب للآية بعده ، لاسيما قوله : ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ الذي ينص على اتخاذ أصل كل منتج ، ترى صدى تركيب هذه الآية في قوله : ﴿ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ ﴾ وهو متلائم مع قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ ولا تجد كهذه التراكيب في الذكر الحكيم . في النص على كون النخيل وغيره صنوان وغير صنوان ثم هذه الجملة ﴿ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ ، وقد وقع ذكر السماء (جهة الإنزال) بين الكتاب المنزل بالحق ، وبين ذكر الماء والسورة تأخذ بتراكيبها في إثبات أن القرآن حق في نفسه بهذه المقابلة بينه وبين الماء الذي لا يدفع أحد في أنه حق في نفسه ، وقد سبق الماء ببيان جهته ، وببيان طبيعة متلقيه ﴿ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ والنص على اتحاد القطع في الأصل ، والاتحاد في المشرب ، واختلافها في الإثمار ، وفي مذاقها ، وهيئاتها .

وليست هذه الاستنباطات بعيدة من نور قوله : ﷺ « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت

---

(١) الحجر ١٩ ، ق ٧ .

الماء ، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها ، وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[1] .

وقد فسر مجاهد ـ رحمه الله ـ الماء في الآية بأنه « ماء السماء كمثل صالح بني آدم وخبيثهم أبوهم واحد) .

كأن من دلائل السورة على أن الكتاب حق في نفسه ، تأثر الناس به بالإيجاب وبالرفض بحسب طبائعهم كاستجابة الأرض للماء ، لأن جهة الإنزال واحدة ، كما سيأتي بيانه من تراكيب السورة .

وجاء قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ** ﴾ (الرعد:٥) متناسبا مع قوله : ﴿ **لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ** ﴾ (الرعد:٢) ، وقولهم هذا إنكار في جزء من الحق (البعث) ثم استعجلوا العذاب .

ولما طلبوا آية لم يجابوا إليها ، وإنما قيل للنبى ﷺ ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ** ﴾ (الرعد:٧) « فلو علم ـ الله تعالى ـ أنهم طلبوا ذلك لأجل الاسترشاد ، وطلب البيان ومزيد الفائدة ، لأظهره الله تعالى وما منعهم عنه »[2] . وأظهر الأسلوب سعة علم الله في ذلك بالمقابلة وبالطباق ، ليتميز هذا الأمر تميزا واضحا (تغيض ـ تزداد) ﴿ **عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ** ﴾ ﴿ **سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ** ﴾ .

---

(١) فتح البارى ٢١١/١، والترغيب والترهيب ٥٧/١ .
(٢) مفاتيح الغيب ١٩٨/٩، ١٩٩ .



وجاء قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ﴾ (الرعد:١١) متواصلا مع قوله : ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ (الرعد:٦) وكل هذه التراكيب متناغية مع ما مضى فهناك صلة بين تغيض وتزداد وبين يسقى بماء واحد ، وبين من أسر . . . ومن هو مستخف ، ويغشى الليل والنهار .

وجاء قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ ﴾ (الرعد:١٢) ملائما مع قوله : ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ . . . ﴾ وقوله : ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ له صداه في التمثيل في قوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الرعد:١٧) وأتبع البرق بذكر الرعد إرهاصا لنزول الماء ، أو لنزول العذاب ، وتارة ينزل الرعد أمطارا وتارة لا ، وكل هذه مقدمات لعنصر السورة الرئيسى (الماء) الذي يقابل القرآن الكريم .

وقد جاءت صورة عجز الأصنام عن النفع جاعلة الماء عنصرا رئيسيا ﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (الرعد:١٤) وهذا الضلال صور بعد بـ (الظلمات) ، وقد جاء الماء في الصورة عنصرا رئيسيا ، بعد بيان البرق وإنشاء السحاب والرعد فالماء تقوم به كل حياة كما قال ربنا : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَىۡءٍ حَىٍّ ﴾

(الأنبياء: ٣٠).

ثم استعار مثلين للكافر والمؤمن (الأعمى والبصير) ومثلين للإيمان والكفر ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ فأبان عن الطريقين خير بيان بالطباق (الأعمى في ظلمات والبصير في النور) ، ثم استفهم النظم متعجبا ﴿ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ (الرعد:١٦) كأن مثل هذا يمكن أن يكون اعتذارا عن عدم إيمانهم ولا ريب أنه لا يقر أحد بما ذكر النظم ، وتلاءم هذا التعجب مع المطلع ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ لأن



هذا الاستفهام بهذا البناء أبان عن كثرة غير المؤمنين ، لغاية جعلتهم بمثابة من اختلط عليه الأمر بتقارب الآلهة مع الله في القدرة على الخلق ولا تجد كهذا البيان في غير هذه السورة .

ثم ضرب الله بعد ذلك مثلين الماء أحدهما ، والفلز آخرهما ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً** ﴾ وجاء النص على جهة الإنزال متلائما مع المطلع ﴿ **وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ** . . . ﴾ ومع ما بعده ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ** ﴾ ، وكاشفا عن جهة إنزال الماء الواحد المذكور في قوله : ﴿ **يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ ويلاءم بـ ﴿ **فَسَالَتۡ** ﴾ قوله : ﴿ **وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ** ﴾ لذلك لا تجد في آية البرق[1] في سورة الروم هذا التركيب وقوله ﴿ **فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ يتشارب من فيض قوله : ﴿ **وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ** ﴾ وقد جعل الأودية هنا فاعلا لسالت وقيده بقيد هو (بقدرها) إشارة إلى الصورة الممثل لها ، فالتشابه ظاهر جدا بين هذا المثل وبين قوله : ﴿ **وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ** ﴾ .

وأكثر أهل العلم على أن التمثيلين تصوير للحق والباطل ، لقوله : ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ** ﴾ ، والأولى بسلك بيان السورة ما عزى إلى ابن عباس رحمه الله ـ في قوله : ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً** ﴾ قال : قرآنا ، وفي قوله : ﴿ **فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا** ﴾ قال : الأودية قلوب العباد[2] . وقد قال الفخر : ـ رحمه الله ـ بعد بيان أن أكثر أهل العلم على أن التمثيلين للحق والباطل : « أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء ، وهو القرآن والأودية قلوب العباد وشبه القلوب بالأودية لأن القلوب

---

(١) الروم ٢٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٦٤١ .

تستقر فيها أنوار علوم القرآن . . . (ثم يقول) كذا هاهنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات ، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع ، ويبقى العلم والدين والحكمة . فهذا هو تقرير هذا المثل ، ووجه انطباق المثل على الممثل به ، وأكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه»[1] .

وأوجزه ابن عاشور بقوله : «شبه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة من السماء ، وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات»[2] . ويبدو أن السورة سميت بالرعد ، ولم تسم بالماء إلماعا إلى استعجالهم السيئة قبل الحسنة ، كما أن البرق والرعد إرهاصان للحسنة وللسيئة ، وهذا ظاهر في بيان الآيتين ﴿ **وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ** ﴾ ﴿ **وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ** ﴾ وتسمية السورة بالرعد دون الماء ، إحالة إلى مقدمات العنصر الرئيسي في كثير من تراكيب السورة (الماء) . فدلالة أن الماء والفلز حق البقاء والنفع ودلالة أن الزبد باطل الغناء وعدم النفع ، فبقاء القرآن وعلمه في القلوب دليل على أنه حق في نفسه وعقد بالمثلين فائدة واحدة ، فلذلك قال : ﴿ **زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ** ﴾ ، لبيان أن مغزى المثلين واحد بقوله : ﴿ **فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ** . . . ﴾ .

ثم أحال على المطلع بالمثلين بقوله : ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ** ﴾ وفي المطلع ﴿ **وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ** ﴾ وفي مطلع الآية ﴿ **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً** . . .﴾ فالحق هو الذي يبقى ويدافع عوادي الزمان ببسط منافعه ، والزيف والباطل لا يبقيان وليس فيهما ما يدفعان به نوازل الحدثان ، وهذا الاعتراض ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ** ﴾ الذي

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٢٦/٩، والقرطبي ٣٦٤١/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١١٦/١٣ .

ينبه بهذا التركيب المباشر إلى هذه الروابط ، ويقع قبل بيان مغزى المثلين ، فلا ينبغي أن تقع فائدة المثلين إلا باستحضار هذه العلائق ، ولن تجد كهذين المثلين في الذكر الحكيم .

وهذا الاستنباط الذي أحاول بيانه مستبصر بكلمة البقاعي ، فعباراته مكتنزة جدا ، وبيانه معطاء إذا ما استصحب في استكشاف بيانات السورة . ثم بين الذكر الحكيم بعد هذين المثلين انقسام الناس تجاه القرآن ﴿ **لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ** ﴾ (الرعد:١٨) .

ومما يغري بالقول بأن المثلين للقرآن هذا التشبيه القائم على المقايسة بين الفريقين في قول الله بعد : ﴿ **أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ** ﴾ (الرعد:١٩) هو أنه أعاد استعارة الكافر المذكورة قبل المثلين ﴿ **كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ** ﴾ وملحظ آخر هو أنه وصف المنزل بقوله : ﴿ **ٱلۡحَقُّ**﴾ فأشار بهذا التركيب المباشر إلى هذه العلائق بين المثلين السابقين ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ** ﴾ وبين الاستعارات الأربع ﴿ **قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي** ﴾ (الرعد:١٦) وبين المطلع ﴿ **وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ**﴾ ﴿ **أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ**﴾ ولا تجد كهذا التركيب في الذكر الحكيم ، وذلك نور المطلع وصداه ، تتلمسه بتأمل التراكيب المباشرة مع المطلع التي ينثرها الذكر الحكيم . وترى إشارات الأئمة في هذا الباب لمحا في خفاء تضيء لك عباراتهم ضوءا خافتا إن لم تكن شديد الحرص على تحسسه فلينِدَنَّ عنك نورُ كلامهم .

ولله أبو السعود في قوله : عند قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَعۡلَمُ** . . . ﴾ أي « من القرآن الذي مثل بالماء المنزل من السماء . . . الخالص في المنفعة

والجدوى»[1] ، وقد نظر العلامة ابن عاشور بهذا التركيب إلى أول السورة فقال : «ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله : ـ في أول السورة ـ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ »[2] .

ثم سرد النظم أوصاف الذين استجابوا لربهم ، وأوصاف الذين لم يستجيبوا في تقابل بديع ﴿ **ٱلَّذِينَ يُوفُونَ** ﴾ (الرعد:٢٠) ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ** ﴾ (الرعد:٢١) والتقابل ظاهر في الذين لم يستجيبوا قبل هذا ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ** ﴾ وقال في المستجيبين ﴿ **وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ** ﴾ وتابع أوصاف المستجيبين ﴿ **وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ** ﴾ (الرعد:٢٢) وبين جزاءهم ﴿ **جَنَّٰتُ عَدۡنٖ** ﴾ (الرعد:٢٣،٢٤) ثم قابل أوصافهم وجزاءهم بأوصاف وجزاء غير المستجيبين ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ** ﴾ (الرعد:٢٥) .

وأقام جزاءهم على المقايسة ، يستظهر هذا مثلا بتدبر قوله : ﴿ **وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ** ﴾ (الرعد:٢٦) وقد تفرد تشبيه الحياة الدنيا دون نظائره[3] بحرف الجر (فى) الذي أفاد المقايسة ، لأنه داخل بين مفضول سابق وفاضل لاحق ، والتقدير : «وما الحياة القريبة كائنة في جنب الآخرة بالنسبة إليها ، ولا يجوز أن يكون ظرفا للحياة ولا للدنيا ، لأنهما لا يكونان في الآخرة»[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٢٨٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٢٣ .

(٣) يستظهر في المصحف الشريف آل عمران ١٨٥، غافر ٣٩، الحديد ٢٠، ويراجع أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٤٧، ٤٨ ، دكتور إبراهيم الهدهد ـ مكتبة وهبة ، ١٤٤٠هـ .

(٤) الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ٢/٥٠٣ .

والملحوظ أن أوصاف الفريقين تتكرر فيها تراكيب مباشرة ، وتتقابل معاني الفريقين ، لأنهما بطبيعتهما متقابلان ، فكانت المقابلة أنسب الألوان البلاغية بهذا البيان الذي يشتغل ببيان الحق والباطل .

وجاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ** ﴾ (الرعد:٣١) الذي لا نظير له في غير هذه السورة ، وكأن السياق من الآية الثانية بعد المطلع الذي أجمل المقصود ـ يتحدر تحدرا في بيان دلالة القرآن على أنه حق في نفسه بتراكيب السورة ، وبمقابلته بالماء كما حاولنا استظهاره ـ ليصل إلى هذه الآية التي سبقت ببيان إصرارهم على طلب الآية ، التي سكت الذكر الحكيم عن إجابتها ، واتجه إلى النبي ﷺ بقوله : ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ** ﴾ (الرعد:٧) وما يزالون يطلبون هذه الآية فيجيب الذكر الحكيم جوابا يشى بأن ما مضى كاف في الدلالة على أنه حق ، ودلالة أحقيته ظاهرة ، لا يخطئ رؤيتها إلا أعمى ، ولا يهتدي إليها إلا بصير ﴿ **قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ** ﴾ (الرعد:٢٧) مع وعينا بما أفاده قوله : ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ** ﴾ من الإشارة إلى سرد آيات من نوع خاص بمقصود السورة يستغرق هذه المساحة بين الآيتين التي تصل إلى نصفها ، ولله البقاعي فيما أبصر ولله هداه فيما سطر .

ويذكر الأئمة أن سبب نزول قوله : ﴿ **وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا** . . . ﴾ هو أن الكفار تذاكروا معجزات الأنبياء لمحمد ـ ﷺ ـ ثم قالوا : « فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ، ويفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث ومزارع ، ونأكل وإلا فادع أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا ، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبا فننحت منها وتغنينا »[1] ،

---

(١) أسباب النزول ص٢٠٦ .

ولعمري إنهم يطلبون ما يغني وما ينفع فيما يظنون ـ والمثلان السابقان للقرآن يصوران ما يبقى وما ينفع ، ألمثل هؤلاء يجاب طلب الآية؟ وقد أوتيها كل لو عقل . ذلك هو القرآن ـ ومع وعينا بأن سبب النزول ما هو إلا إضاءة شكلت جزءا من مقام الآيات ، لكن إيحاءات التراكيب تبقى في الدلالة على مراد القرآن ، وتتسع لكل مقام يستحدث .

الملحوظ أن هذه الآية التي تثبت للقرآن مظاهر هذه القدرة ، جاء فيها جواب لو محذوفا ، مع أنه جاء مذكورا في قوله : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ** ﴾ (الحشر:٢١) . لكن حذفه هنا جاء تعويلا على السياق مع المطلع ـ كما ذكرنا ـ إلى هذه الآية ، وقد نظر العلماء بالحذف إلى التراكيب التي تقدمت على الآية ، وكأن الحذف إحالة على السياق لاستخراج روابط الآية به .

فهم يقولون : « وهذا متصل بقوله : ويقولون لولا أنزل . . . . »[١] وقطعا هذا القول متصل بالقول الأول[٢] ، والقول الأول متصل بالمطلع ، أو « جواب لو محذوف استغنى بمعرفة السامعين المراد من الكلام عن ذكر جوابها »[٣] أو « لكونه معلوما »[٤] .

ولله أبو السعود ـ رحمه الله ـ فيما يقول : « وجواب لو محذوف لانسياق الكلام إليه ، بحيث يتلقفه السامع من الله تعالى . . . أي لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٦٥٤/٥ .

(٢) القول الأول هو الآية ٧ .

(٣) جامع البيان ١٠٢/١٤ .

(٤) مفاتيح الغيب ٢٤٨/٩ .

الله تعالى وهيبته ـ عز وجل . . . . . واقتراحهم ـ وإن كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن ـ لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به ، مبالغة في بيان اشتماله عليها ، وأنه حقيق بأن يكون مصدرا لكل خارق . . . »[1].

وأبو السعود يحرر لنا السياق ، الذي حاولنا ـ بكلام الأئمة ـ بيانه ، بما قد يسوق ظاهر التراكيب إلى غيره ، وقد ظهر في السياق أن الماء كان العنصر الرئيسى في بيان أن القرآن حق في نفسه ، وأحال حذف جواب لو على هذا السياق ، فتواصل سلك بيان السورة مع المطلع كما قرر البقاعي ، واختبرنا كلامه بتراكيب السورة .

وتتابعت الآية إلى آخر السورة في بيان حال الناس تجاه هذا الحق ووضعت تراكيب مباشرة مع بيان السورة إحالة على استصحاب العلائق البيانية من مثل قوله : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ (الرعد:٣٣) وفي جزاء المستجيبين ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ مقابلا بنعيم الكافرين الفاني ، وقابل عقبى الذين اتقوا بعقبى الكافرين ، وبما يشبه أن يكون تعليلا لعدم استجابة الله لطلب الآيات بقوله:﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد:٣٨) وبما يقابل قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ . . . ﴾ بقوله : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ . . . ﴾ (الرعد:٤٦) وختمت السورة بما يتناغى مع قول الكافرين في طلب الآية ، وعدم استجابة الله لهم مما أدى إلى إنكار الرسالة ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ (الرعد:٤٣) أي مادمت لم تأت بما طلبنا من آيات .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١ .

وتتلاءم الآية وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ** ﴾ (الرعد:٢٧) وقوله : ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ (الرعد:٧) .

ويتلاءم قوله : ﴿ **وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ** ﴾ (الرعد:٤٣) ومع قوله : ﴿ **ٱللَّهُ يَعْلَمُ**... ﴾ إلى آخر الآيات الدالة على علمه بما نفوسهم ، وما وراء طلبهم الآيات ، وجاء إنكارهم الرسالة في الختام كاشفا عن دخائل نفوسهم في طلب الآيات ، وملائما لما نسبه سبحانه إلى نفسه من العلم ، ودليلا على بيان أن الكتاب حق في نفسه ، كما أظهرت الأيام صدق مقولاته ، فتلاءم الختام مع المطلع كما قال الأستاذ سيد قطب : «ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة ، وقد بدأها بإثبات الرسالة فيلتقي البدء والختام»[1]. هذا ما حاولنا في تلمس خيط بيان السورة ، وهو خيط دقيق وخفي جدا ، هدانا إلى استبصاره بيان البقاعي المكتنز الذي اشتمل على كثير من المعاني ، التي حاولنا استخراج شيء منها على قدر ما أوتينا ، وما تزال عبارته وافرة العطاء .

والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٠٦٥ .

الفصل الثامن

سورة إبراهيم

يبصر البقاعي ـ رحمه الله ـ مقصود السورة ، مستنيرا بنور المطلع وتسمية السورة وخاتمتها ،وقد أبان كلامه أن مقصودها يجمله قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

(إبراهيم: ١، ٢).

يقول : ـ رحمه الله ـ « ومقصودها التوحيد ، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله ، لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه المؤدي إليه ، وأدل ما فيها على هذا المرام قصة إبراهيم عليه السلام أما التوحيد فواضح ، وأما أمر الكتاب فلأنه من جملة دعائه ـ لذريته الذين أسكنهم عند البيت المحرم »[1].

وذلك المقصود الذي قرره جاءت على مقتضاه الجملة النحوية ومتعلقاتها التي كونت مطلع السورة الكريمة ، ولا يدفع ما قرره اختلاف

---

(١) مصاعد النظر ٢/١٩٨ .

وجه الإعراب في هذه الجملة ولا يتعارض مع ما قرره من أن مقصود سورة آل عمران : التوحيد فمقصودها ـ فيما أرى ـ كان في بيان حقيقة التوحيد ، ومقتضيات صفة الوحدانية ، كما ظهر من مطلعها ، وفي بيان حقيقة خلق عيسى عليه السلام وسورة إبراهيم عليه السلام بيان عن حال الداعين إلى التوحيد وحال المدعوين إليه ، وعاقبة كل كما سيظهر من تراكيبها ومن بيان ما اختصت به ، وذلك أمر تكشفه ذات تراكيب المطلع في السورتين .

وهم يختلفون في إعراب (كتاب) فإما أن يكون مبتدأ خبره جملة (أنزلناه) وإما أن يكون خبرا عن (الٓر) وجملة (أنزلناه) صفة له ، مع مراعاة أن الزمخشري ـ رحمه الله ـ يفسر الكتاب بالسورة[1] ، كما مضى في مطالع كل السور ولا يذكر قولا غيره ، مع وعيه بمقالات المفسرين ، وهو تفسير يتناسب مع اختصاص كل سورة بمقصود ، وقد وقع بعد هذه الجملة قوله : ﴿ لِتُخْرِجَ . . . ﴾ بلام التعليل التي تحدد مهمة هذه السورة ، بدخولها على هذه الجملة ، فمهمة السورة إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وقد دفع هذا التركيب الشيخ عبد المتعال الصعيدي إلى القول بأن مقصود السورة (بيان الغرض من نزول القرآن) ، وقد انقسمت السورة عنده في هذا الغرض إلى ثلاثة أقسام :

الافتتاح ويتضمن بيان الغرض (١-٣) ، ثم الانتقال إلى بيان موافقة القرآن للكتب المنزلة قبله في هذا الغرض (٤-١٩) ، ثم الانتقال إلى تحذير مشركي مكة من تكذيبه بما حصل للمكذبين قبله (٢٠- آخر السورة)[2] .

---

(١) الكشاف ٢/٣٦٥ .

(٢) انظر : النظم الفنى للقرآن ص١٦١ وما بعدها .

لكن استنباط البقاعي ـ فيما يبدو ـ جاء من غاية الإخراج ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، وهم يعدون قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ اعتراضا ، وقوله : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ﴾ بدلا من النور بتكرير العامل ، أو استئنافا . كأنه قيل : إلى أي نور؟ فقيل : إلى صراط[1] . . . . قالوا : «ولا يضر هذا الفصل بين المبدل منه والمبدل لأن ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ معمول للعامل في المبدل منه ، وهو ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾»[2] «ويعدون لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهِ ﴾ بدلا أو عطف بيان»[3]، أو مؤخرا من تقديم ، والأصل إلى صراط الله ونكتته اقتضاء سؤال مؤداه من العزيز الحميد؟ واستبعدوا كونه نعتا ، لأن اسم الذات لا ينعت الصفة[4].

والتركيب بهذه الهيئة يكشف غاية الكتاب (السورة) ويكشف أن ما قرره البقاعي جاء على ما اقتضاه نظم المطلع . وإنما جاء بهذا التزاحم في المعاني ، لبيان غاية الكتاب ، وغاية الرسالة ، وبيان أنهما من أعظم المنن ، بإخراجهما الناس من الظلمات إلى النور ، وعلق هذا الإخراج بالإذن من الله ، بيانا للامتنان على الرسل بنعمة الوساطة ، وتلمح صفة التوحيد في لفظ ﴿ ٱلنُّورِ ﴾ فلم يقل (الأنوار) وتلمح في جمع الظلمات الإشارة إلى تعدد أنماط الكفر واتحادها في كونها ظلمات ، وطابق بينهما ، وتمحض اللفظات هنا للاستعارة ، التي كانت محتملة في مطلع سورة الأنعام . إشارة للتضاد الذي تتظاهر تراكيب السورة عليه في إجمال دعوة النبيين إلى

---

(١) يراجع مفاتيح الغيب ٢٧٥/٩ .

(٢) البحر المحيط ٤٠٣/٥ .

(٣) الكشاف ٣٦٥/٢ .

(٤) مفاتيح الغيب ٢٧٧/٩، ٢٧٨ .

النور ، وتخبط الكافرين في الظلمات . وهو أمر ظاهر في تراكيب السورة جميعا وقد فرق ابن عاشور بين قوله : ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ في مطلع الأعراف ، وقوله هنا : ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ وعلل لإظهار الفاعل هنا ، بأن المقام مقام امتنان ، أفاده التعليل بقوله : ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ وذكر صفة الربوبية وقد تعرض للمنزل إليه هنا للتنويه بشأنه ، وليجعل له حظ في هذه المنة ، وهو حظ الوساطة ، وعلل لاختيار هذين الوصفين ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ بمناسبتهما للمقام « لأن العزيز الذي لا يغلب ، وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس . . . والحميد بمعنى المحمود ، لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه ، وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة ، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة »[1] مع ملحظ مهم هو أن اسم الذات الدال على الوحدانية جاء بعدهما .

وقد انبنى المطلع على تقديم وتأخير ، وطباق واعتراض وإضافة وغير ذلك والمطلع وإن كان يتقارب مع مطالع سور أخرى ، إلا أنه امتاز عنها بخصوصيات دقيقة تصور اختصاص السورة بخصائص بيانية ، كما تصور تقاربها مع السور الأخرى لأن الكتاب نزل من الواحد ، واستكشاف هذه الخصائص البيانية لكل سورة ، أمر خفي ودقيق ، دقة الفروق التي بين مطالع السور . وتجد في سور الذكر الحكيم لدقائق فروق تراكيب مطالعها صدى صاخبا متعالي الصوت داخل السورة ينادي بهذه العلاقات التي بين المطلع وبين تراكيب السورة قالب معانيها . وهو ما لحظه الأئمة الربانيون وأشاروا إليه .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٧٩ وما بعدها بتصرف .

فبعد جملة المطلع الذي أعقب بجملة دعائية ، تجد قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ ﴾ (إبراهيم:٤) وهو إجمال وتقديم لدعوة النبيين جميعا لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهو متناغ مع المطلع تناغيا ظاهرا ، فقد اكتفى بما صور في المطلع من الإيمان والكفر ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ وشرع هنا في تفصيل الغرض بسرد قصص النبيين ذلك ما ذكره الألوسي عند قوله : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ ﴾ (إبراهيم:٥) بقوله : « شروع في تفصيل ما أجمل في قوله : وما أرسلنا »[(١)].

وعلل أبو السعود لتقديم الضلال على الهدى المرتبين على تبيين الرسل بأنه وقع « للمبالغة في بيان ألا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل ، وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى ، بإيهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى »[(٢)] .

مع ملحظ مهم هو أنه لم يقع في الذكر الحكيم ترتيب للضلال والهدى على النبيين غير ما هنا وشيء آخر هو أن قوله : ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ لم يقع في غير هذا المطلع ، لذا تجد له انتشارا داخل السورة ، لا تجده في سورة أخرى[(٣)] ، فقد وقع مضافا لهذا الوصف (الرب) ثلاث مرات (١-٢٣-٢٥) ، ومضافا إلى لفظ الجلالة (الله) مرة واحدة (١١) وهو منتشر في سور أخرى[(٤)] أكثر من انتشاره هاهنا ، وانتشاره هنا بإضافته لصفة الربوبية ألصق بمقام الامتنان . وإضافته للفظ الجلالة هنا تشبه في سياقها سياقات

---

(١) روح المعاني ١٨٧/١٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣١٨/٥ .

(٣) سور الأعراف ٥٨ ، وسبأ ١٢، والقدر ٤ .

(٤) سور البقرة ٩٧، ١٠٢، ٢٤٩، ٢٥١، آل عمران ٤٩، ١٤٥، ١٤٦، النساء ٦٤ .

المواضع الأخرى في القرآن ، ومن التراكيب المباشرة التي تنادي على علاقتها بالمطلع ما وقع في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** ﴾ (إبراهيم:٥) الذي لا نظير له في قصة موسى في الذكر الحكيم ، وقد علل أبو مسلم الأصفهاني بأن ذلك قد وقع لبيان « أن المقصود من البعثة واحد في حق جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهو أن يسعوا في إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات »[١] . مع ملحظ مهم هو أنه قدم ذكر موسى عليه السلام لأنه أكثر الأنبياء آيات ، واليهود أكثر الناس ضلالات ، وذلك أنسب لمقام الامتنان وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ولهذا المقام وقع العطف بالواو في وقوله : ﴿ **يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ** ﴾ (إبراهيم:٦) وإنما جاء بالواو لأن العطف ـ بطبيعته ـ يقتضي المغايرة ، إيهاما بأن الصفتين أصبحتا جنسين ، لاشتداد الاتصاف بكل منهما ، ذلك ما ألمع إليه الرازي الحنفي بقوله : « حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيرا للعذاب وبيانا له وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب ، لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة ، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ »[٢] أي لأنه ألصق بهذا المقام الذي أبان عنه المطلع . مع ملحظ مهم هو أن بناء قصة موسى هنا يأخذ هيئة المطلع ، بما يطويه التركيب من الامتنان بأول كلمة ، وبما يتناسب مع صفتي العزيز والحميد اللتين أتيتا متأخرتين في المطلع فتأخر معناهما في قصته أيضا في قوله تعالى : ﴿ **لَئِن شَكَرۡتُمۡ** ﴾ (إبراهيم:٧) .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٨٦/٩ .

(٢) مسائل الرازى وأجوبتها ص٢٢٢ .



وجاءت قصة موسى بين إجمالين أولهما : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا ﴾ ـ وثانيهما : ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ ﴾ (إبراهيم:٩) والقصة تتخذ هيئة المطلع في بنائها ، وكذلك الإجمال الثانى الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، والبقاعي ـ لا محالة ـ كان ناظرا إلى مثل هذه التراكيب في السورة ولا كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ في استقصاء مقولات الرسل جميعا والجملة اعتراض معناه أنهم من الكثرة بحيث لا يعلمهم إلا الله فيما يقول جار الله العلامة ، ودفعه أبو حيان بأنها لم تقع بين جزأين أحدهما يطلب الآخر[1] والقول ما قال جار الله لأن الجملتين ، وإن لم تتلازما لفظا ، فقد تلازمتا معنى .

ولا كقوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ ذلك القول البديع الذي يحتمل عدة معان هي ـ عند التحقيق ـ لا تتعارض ، بل يتآخى كل ما رآه العلماء ليصلح كله تفسيرا لهذه الجملة ، التي تستغرق بما تحتمله من معان كل مواقف الكافرين ويستعان في فهمها بما فصلته سورتا الأعراف وهود من ردود الكافرين ، فأقوال الرسل ما بين تذكير بالنعم ، وإنذار بالعذاب وإتيان بالآيات ، وأقوال الكافرين ما بين كفر وتكذيب وسخرية وتسفيه ، واستبعاد لاجتماع البشرية مع الرسالة ، واستعجال بالعذاب وتوعد بالإخراج . ولعل اختلافهم في معنى هذه الجملة كان بنظرهم إلى قصص النبيين في الذكر الحكيم ، ولعل الذين عدوا اليد مجازا عن النعمة ، كانوا ناظرين إلى مقام الامتنان في مطلع السورة وفي قصة موسى عليه السلام

---

(١) يراجع الكشاف ٣٦٨/٢، والبحر المحيط ٤٠٨/٥، والدرر اللقيط ٤٠٨/٥ بهامش البحر المحيط .

وقد بلغت أقوالهم في الجملة عشرة أقوال[1] كشفت عن جهات نظرهم ـ رحمهم الله ـ ثم كشف التركيب عن اتحاد دعوة الرسل ـ ناظرا إلى المطلع ، ولعل الضمير في قول الكافرين : (بما أرسلتم به) يعود إلى التوحيد ، وهو ما فسر به القرطبى قوله : ﴿ **مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ** ﴾ من

---

(١) قد تأول العلماء عدة معان ، فإن كان المراد باليد والفم الجارحتين ، ففيه ثلاثة أوجه : فإن كان الضمير عائدا إلى الكفار في (أيديهم) فللمعنى أربعة أوجه : الأول : أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ ، الثاني : أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء ضحكوا سخرية ، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كمن غلبه الضحك . الثالث : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين إلى الأنبياء بالسكوت . الرابع : أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما تكلموا به .
الوجه الثانى : أن يكون الضمير راجعا إلى الرسل ، والمعنى على ذلك إما أن يكون أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ، ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم وإما أن يكون أن الرسل لما يأسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم ، فعل من ذكر كلاما عند قوم فأنكروه فخافهم .
الوجه الثالث : أن يكون الضمير في أيديهم راجعا إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل ، والمعنى ذلك إما أن يكون أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء ، أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيبا لهم وإما أن يكون أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء منعا لهم من الكلام على سبيل المبالغة وإذا كان المراد باليد المجاز ، فتكون اليد مجازا عن الحجة باعتبارها نعمة ، ولما كان القبول تلقيا بالأفواه عن الأفواه ، كان الدفاع ردا في الأفواه .
أو أنه مجاز عن سكوتهم عن الجواب ، ورد هذا الوجه بجوابهم بالتكذيب (يراجع مفاتيح الغيب ٢٩٤/٩ وما بعدها) واستحسن ابن عاشور أن يكون المعنى أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل نفوسهم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل . التحرير والتنوير ١٩٦/١٣ .

التوحيد[1] وهو ناظر إلى لفظ الجلالة الذي وقع بدلا من قوله : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ الذي وقع بدلا من قوله : ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الذي جاء غاية للكتاب ، وذلك أمر كشفه قول الرسل : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ الذي لا نظير له في الذكر الحكيم بهذا الاستفهام الإنكاري الداخل على الظرف « لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه ، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه »[2] أرأيت كيف ذكر التوحيد بعد التذكير بالنعم وبالبينات تلك إيحاءات هيئة التركيب تنادي على العلاقة بينها وبين المطلع .

ولا تجد في الذكر الحكيم جمعا لكلمة الرسل وتوحيدا في البيان عنها ، كما في هذه السورة ، كل هذه القرائن التي تنم بها ذات التراكيب تنادى على صحة ما قرره البقاعي من مقصود السورة .

والسيوطي ـ رحمه الله ـ يفسر الشكر (بالتوحيد والطاعة) في قوله : ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ ﴾ ولهذا المقصود اتحدت كلمة الرسل ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ ﴾ (إبراهيم: ١٠) ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ ﴾ (إبراهيم: ١١) واتحدت كلمة الكافرين ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا ﴾ (إبراهيم: ٩) ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ (إبراهيم: ١٠) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ ﴾ (إبراهيم: ١٣) ، ووقع الحوار بين الرسل وبين الكافرين ، ثم ظهرت عاقبتهم بعدما استفتح الرسل ، ثم أبين عن موقفهم في اليوم الآخر ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (إبراهيم: ٢١) ثم استغرق الحوار رئيس الضالين (الشيطان) الذي أسرع بالتبرؤ كما فعل المستكبرون ، ثم ذكر عاقبه المؤمنين ، وربطه بالمطلع ببيان مباشر ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ ثم ذيل

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٦٨٣/٥ .
(٢) الكشاف ٣٦٩/٢ .

هذا الحوار بمثلين لكلمة أهل الحق ، وكلمة أهل الضلالة . وقوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ الذي جمع المثلين «استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية ابتداء من قوله : ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ ، فضرب الله مثلا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك»[1] مع مراعاة أن هذين التمثيلين لم يقعا في غير هذه السورة ، وفي كون العنصر الأول في التمثيل كلمة مناسبة لاتحاد كلمة الرسل وكلمة الكافرين ، ومناسبة لاستعارة الظلمات والنور للكلمتين .

وهذان التمثيلان يتأيد بهما قول البقاعي في مقصود السورة ، لاسيما أن الأئمة فسروا الكلمة الطيبة بأنها (لا إله إلا الله) أو قالوا : هي كلمة التوحيد وفسروا الكلمة الخبيثة بكلمة الشرك[2] ، ومجيء هذين التمثيلين بعد البيان عن أقوال الرسل وأقوال الكافرين يتناسب مع المطلع الذي ذكر التوحيد في آخر متعلقات الجملة كما مضى بيانه وقد ذكر على لسان موسى في بداية الحوار قوله : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ (إبراهيم:٧) ، وأشار إلى ما عاقب به الكافرين بعد البيان عن ذلك بقوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ (إبراهيم:٢٨) فوضع أخبار الرسل بين هاتين الآيتين اللتين تتناغيان مع مقام الامتنان في المطلع ، ومع التضاد بين الشرك والإيمان وموقع القصص بين هاتين الآيتين ـ فيما أرى ـ تنبيه إلى تحديد مهمة عرض قصص الرسل كما هو ظاهر في كل سورة .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٣/١٣ .

(٢) يراجع جامع البيان ١٣٥/١٣، ١٤٠، أبو السعود ٣٣٦/٥، ٣٣٧، البحر المحيط ٤٢١/٥، مفاتيح الغيب ٣٣٤/٩، ٣٣٥ ، القرطبى ٣٦٩٦/٥ .

وشيء آخر من التناسب فقد ذكر لجهنم اسما لا نظير له في الذكر الحكيم ﴿ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ وهو متناسب جدا مع تمثيل الكلمة الخبيثة ، ومع تمثيل أعمال الكافرين ، فهذان التمثيلان مهمتهما إفادة إهلاك الكلمة لأصحابها ، وإهلاك ما انبنى عليها ، فكانت عاقبتهم من جنس أعمالهم ، وهو تناسب عجيب يستظهر بتنظيره بتشبيهات أعمال الكافرين في القرآن الكريم[(١)] ـ وتأمل عناصر التشبيه في كل موضع .

ولأن معنى التوحيد هو السلك الذي انتظم بيان السورة يفسر البيضاوي الضمير في قوله : ﴿ لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (إبراهيم:٣٠) بالتوحيد[(٢)] ، ولهذا الغرض «افتتح الكلام باسم الموجد لأن تعيينه هو الغرض الأهم»[(٣)] في قوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (إبراهيم:٣٢) وهو ناظر إلى المطلع ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ (إبراهيم:٢) وجاء قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم:٣٤) ناظرا إلى المطلع المشعر بالامتنان وقد علل البقاعي ـ رحمه الله ـ لمغايرة ما ختمت به الآية ، لما ختمت به نظيرتها في النحل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (إبراهيم:١٨) بقوله : «لأن تلك سورة النعم بدئت بالنهي عن استعجال العذاب ، لأن الرحمة أسبق ، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع فالتعبير إذن هنا : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ، ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة ، لأنه غفور رحيم ، وأما هذه السورة فبدئت بأن الناس في الظلمات»[(٤)] . فجاء الفرق على ما اقتضاه المطلعان وهو أوقع مما

---

(١) آل عمران ١١٦، ١١٧، النور ٣٩، ٤٠، الفرقان ٢٣ .

(٢) أنوار التنزيل ٥٣١/١ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٣٤/١٣، ٢٣٥ .

(٤) نظم الدرر ٤٢٣/١٠ .

علل به ابن عاشور في قوله : «وصيغتا المبالغة (ظلوم وكفار) اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ . . . ﴾ »[1] ، لأن ذلك المقتضى واقع في سورة النحل أيضا .

وقد جاء بعد التذكير بالنعم بقصة أبي الأنبياء ـ على الرأي الراجح ـ الذي كان من دعائه ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم:٣٦) ولا كهذا التركيب في قصة الخليل في الذكر الحكيم ، فكانت دعوته ﷺ أن يثبته وبنيه على التوحيد وهو التفات إلى مقصود السورة الأعظم ، مع ملحظ مهم هو أن السورة اتبعت في معانيها طريقة تركيب المطلع ، فقد وقعت قصة إبراهيم بعد حوار الرسل جميعا وبعد التذكير بالنعم ، وكان طلبه الثبات على التوحيد من أعظم دعائه ، وذلك يتناسب مع جعل التوحيد في نهاية مقتضيات الجملة النحوية في المطلع ، وقد وقعت قصته بين خطابين للنبى ـ ﷺ ـ في قوله : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (إبراهيم:٣١) ، وكان من دعاء الخليل ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (إبراهيم:٣٧) وجاء الخطاب الثانى للنبى ﷺ ـ في قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا ﴾ (إبراهيم:٤٢) وكأنه من تمام قوله : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (إبراهيم:٢١) وقد اتحدت كلمة الكافرين جميعا ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ (إبراهيم:٤٤) وترى في قوله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ (إبراهيم:٤٧) تنبيها إلى الوعد في قوله : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:١٣،١٤) وقد نبه على أنه من تمام ما مضى بهذا التركيب المباشر أيضا ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم:٤٨) وذلك لأن السورة تدور بتراكيبها في نسق واحد هو مقصودها . وكان لابن عاشور أن

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٣٧ .



يقول : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ﴾ « عطف على الجمل السابقة ، وله اتصال بجملة قل تمتعوا »[(١)] . وقد أبانوا ـ رحمهم الله ـ عن هذا المعنى من الاتصال خير بيان بما قالوا عند قوله : ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم:٥٢) .

وقد اختلفوا في المشار إليه على ثلاثة أقوال[(٢)] أن يكون هو كل القرآن ، أو السورة كلها ، أو إلى المذكور من أول قوله : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ والعجيب أن الزمخشري[(٣)] لم يذكر غير القول الثالث ، مع أن القول الثاني هو المتلائم مع تفسيره الكتاب في المطلع بالسورة ، وقد قصر ابن عاشور كلامه على القولين (الثاني والثالث) فيما يقول : « الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلها من أين ابتدأته أصبت مراد الإشارة ، والأحسن أن يكون للسورة كلها »[(٤)].

واسم الإشارة رابط مباشر بمطلع السورة ، وهو معلم دال على أن السورة تسعى بتراكيبها إلى مقصود واحد ، هو الذي صرح به في نهاية السورة ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ .

وهذه العلائق المباشرة تجعلنا نرجح ما استبعده أبو حيان في قوله عند الآية : « وناسب ختم هذه السورة مفتتحها ، وكثيرا ما جاء في سورة القرآن ، حتى إن بعضهم زعم أن قوله : ﴿ وَلِيُنذَرُواْ ... ﴾ معطوف على قوله :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٥/١٣ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣٧٦/٩، إرشاد العقل السليم ٣٧١/٥، البحر المحيط ٤٤٠/٥، البيضاوى ٥٣٦/١، روح المعاني ٢٥٨/١٣ .
(٣) الكشاف ٣٨٥/٢ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٥٤/١٣ .

﴿ لِتُخْرِجَ . . . ﴾»[1] كأن هذا الزاعم فيما يرى أبو حيان ـ يرى السورة كأنها جملة واحدة على غير ما اصطلح النحاة من الجمل التي بينها تلازم لفظي ، فالسورة كأنها جملة واحدة لما بينها من التلازم المعنوي والعلائق الخاصة بين تراكيب كل سورة ـ كما حاولنا كشف شيء منها فيما مضى ـ تغرى بقبول مثل هذا القول الذي قال عنه الألوسي : «وهو من البعد بمكان»[2].

وشبيه بهذا القول ما ذكروه عند هذا الختام في قولهم : «فيه من المحسنات رد العجز على الصدر ، فقد افتتحت هذه السورة بقوله : كتاب أنزلناه ...»[3] مع مراعاة أن هذا اللون يقع في النظم في البيت أو البيتين ، ويقع في النثر في الفقرة على ما اصطلح عليه البلاغيون ، كأن القائلين بهذا القول يعدون سورة القرآن جملة واحدة . وقد جاء الانتهاء ناظرا في الابتداء دأب سور الذكر الحكيم .

وما أجمل ما عزاه القرطبي إلى بعضهم ـ وقد سئل هل لكتاب الله عنوان؟ فقال : نعم قيل : وأين هو؟ قال : قوله تعالى : هذا بلاغ[4] لعل القائل كان ناظرا إلى ما اختصت به السورة من جمع كلمة المرسلين وكلمة الكافرين ، وبيان عاقبة كل فكانت السورة خلاصة الرسالات ، لاسيما أن مقصودها التوحيد .

والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

---

(١) البحر المحيط ٤٤١/٥ .

(٢) روح المعانى ٢٥٩/١٣ .

(٣) الصاوي على الجلالين ٢٩١/٢، والفتوحات الإلهية ٥٣٦/٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٧٢٤/٥ .





الفصل التاسع

سورة الحجر

تدبر تراكيب سورة الحجر ، ومحاولة استظهار بعض خصائصها البلاغية يغري بقبول ما قرره البقاعي ـ رحمه الله ـ في مقصودها فيما يقول : « ومقصودها : وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الموضحة للحق من غير اختلاف أصلا وأشكل ما فيها وأمثله وأشبهه في هذا المعنى قصة أصحاب الحجر ، فإن وضوح آيتهم عندهم ، وعند كل من شاهدها أو سمع بها ، وضحت عنده كوضوح ما دل عليه مقصود هذه السورة في أمر الكتاب عند جميع العرب ، لاسيما قريش ، وأيضا آيتهم في غاية الإيضاح للحق ، والجمع لمعانيه الدائرة على التوحيد ، المقتضي للاجتماع على الداعي ومن هنا يتضح ويتأيد ما اخترته من الإعراب لقوله تعالى : ﴿ **كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ** ﴾ من تعليقى له بقوله ﴿ **فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ** . . .﴾ على أن لفظ الحجر يدل على ما دل عليه مقصود السورة من الجمع والاستدارة التي روحها الإحاطة المميزة للمحاط به من غيره بلا لبس أصلا »[١] .

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ٢/٢٠٣ .



وهذا المقصود الذي قرره ـ رحمه الله ـ واستدل له يجمله قوله تعالى : ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ (الحجر:١) وهو مقلوب مطلع سورة النمل ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾ ولا تكرر مطالع السور في الذكر الحكيم ، وإنما تتقارب وتتمايز بدقائق في تراكيبها .

وقد اختلفوا في المشار إليه أهو القرآن؟ أم المنزل إلى هذه السورة؟ أم السورة؟ وأكثر أهل العلم على القولين الأول والثاني والثالث هو رأي الزمخشرى ، وقد اختلفوا تبعا لهذا الاختلاف في المراد بالكتاب والقرآن ، والمراد بهما عند جار الله السورة لا غير كأنه قيل : « الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان »[1] ، وتقرير البقاعي للمقصود يلائمه هذا الوجه ، فيكون المعنى تلك آيات السورة الجامعة للكمال والغرابة في البيان .

وقد دفع أبو السعود كون المراد بالكتاب السورة ، لأنه حينئذ لابد من جعل « تلك إشارة إلى كل واحدة منها ، وفيه من التكلف ما لا يخفى »[2] وهو احتجاج عقلي وقد تكون إضافة الآيات إلى الكتاب بمعنى (من)[3] فيكون المشار إليه آيات السورة ، والذين فسروا الكتاب والقرآن بالكتاب كله وجهوا هذين الوصفين بأن الأول : (يفيد اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها) . والثاني : يدل على (طريقة كونه ممتاز عن غيره نسيج وحده بديعا في بابه) وأخرت الصفة الثانية المفيدة امتيازه

---

(١) الكشاف ٢/٣٨٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/٣٧٣ .

(٣) السيوطى بهامشه الفتوحات الإلهية ٢/٥٣٧ .

على سائر الكتب المنزلة ، لأن ذلك أدخل في المدح ، وأدفع لما يظن أن امتيازه راجع إلى استقلاله بصفات خاصة به كما ألمع أبو السعود[1] .

وجاءت الصفتان بالعطف « إشارة إلى التقارير بين المتعاطفين ، وأنهما مقصودان بالذات ، فلذا عطف أحدهما على الآخر »[2] دلالة على اشتداد ظهور الوصفين في الموصوف ، وهذا المفاد البلاغي وارد على كون المراد بالكتاب والقرآن السورة أيضا ، فيكون العطف من قبيل عطف الصفات « بأن يكون الكتاب عبارة عن السورة الموصوفة بالكمال ، والقرآن عبارة عن السورة الموصوفة بأنها المقروء المبين . . . فيرجع المعنى إلى أنه قرآن جامع لفخامة الشأن وغرابة البيان »[3] .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال جميعا ، والتي احتملها التركيب والسياق الداخلي للسورة ، والسياق الكلي للقرآن الكريم ، بأن هذه السورة أدل سورة في القرآن على هذا المقصود الذي هو بيان أن القرآن جامع للمعاني الموضحة للحق ، فالاختلاف ـ فيما أرى ـ وقع في مثل هذه المواضع لاختلاف جهات نظرهم ـ رحمهم الله ـ فبصائرهم في الذكر الحكيم تتكامل ولا تتنافر يقينا بصدق ما حررت أياديهم ، تقربا إليه ـ سبحانه ـ بالتشرف بمحاولة خدمة هذا الكتاب ، ولئن غاب هذا عن طلاب العلم ، فذلك من سوء النظر .

وقد جاءت السورة في هذا المقصود الذي أجمله المطلع في ثلاثة أطر بعد المطلع ، الإطار الأول حكاية استهزاء مشركي مكة بوضوح آيات

---

(١) ينظر إرشاد العقل السليم ٣٧٣/٥، ٣٧٤ بتصرف .

(٢) الفتوحات الإلهية ٥٣٧/٢ .

(٣) حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي ١٤٤/٢ .

الكتاب في الدلالة على الحق بتراكيب تختص بهذا المقصود ، رغم ورود الاستهزاء في كثير من مواضع الذكر الحكيم ، الإطار الثاني : بيان أن ذلك شأن السابقين في الاستهزاء بالآيات الجامعة للحق ، الإطار الثالث : خاتمة السورة التي تواصلت مع ذكر قصص النبيين وفصلت ما أجمله الإطار الأول حينا ، وأجملت ما فصله الإطار الأول حينا آخر كما سيظهر . وكان سياق الاستهزاء علة تقديم الكتاب على القرآن في المطلع عند ابن عاشور فيما يقول : « فأما تقديم الكتاب على القرآن في الذكر فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم »[1] وقد « وقعت هذه الآية في مفتتح تهديد المكذبين بالقرآن لقصد الإعذار إليهم باستدعائهم للنظر في دلائل صدق الرسول ﷺ »[2] .

وقد عد ابن عاشور الآية ـ التي تمثل المطلع ـ كالتنبيه والإنذار ، وقوله تعالى : ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** . . .﴾ مفتتح الغرض[3] وهو لا يدفع ما تقرر فيما قلناه ، فالآية مفتتح تفصيل الغرض ، والسابقة عليها إجمال للغرض .

وسياق الاستهزاء يتعالى بيانه في الآية الثانية ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ** ﴾ (الحجر:٢) ، وقد احتمل هذا التركيب عدة معان ، أرجحها عند أهل العلم أنه جاء على سبيل التهكم والاستهزاء لموافقته للسياق ، وهذا مبني عندهم على أن ربما ـ لاسيما إذا دخلت على المضارع ـ تفيد التقليل والمقام هنا ينادى بإفادتها التكثير ، قالوا :

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٩ .

(٢) المرجع نفسه ١٤/٨ .

(٣) المرجع نفسه ١٤/١٠ .



«والعرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده كثيرا»[1] «والعمدة في ذلك على سياق الكلام ، لأنه إذ اقتضى مثلا تكثيرا ، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل ، استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين»[2] . «وهذه طريقة إنما تسلك إذا كان الأمر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب ، فيصار إليه هضما للحق ، فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للإسلام في كل آن . . . وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ، ولو جيء بكلام يدل على ضده . . . وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار . . . كما ينطق به قوله : ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ** . . .﴾ أو ذهابا إلى الإشعار بأن من شأن العاقل إذا عن له أمر أن يكون مظنون الحمد ، أو قليلا ما يكون كذلك أن لا يفارقه ولا يقارف ضده ، فكيف إذا كان متيقن الحمد . . . والمقصود من سلوك هذه الطريقة إظهار الترفع ، والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره . . . وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر»[3].

وبذلك يكون الاستهزاء واردا على قول من وجه التقليل بأنهم «تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين ، فإن كانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا فلذلك قلل»[4] .

وقد جاء هذا الأسلوب ردا على استهزاء الكافرين بوضوح الآيات ، وفي النظم معلم ظاهر فقد استخدم في رد استهزائهم حرفا لم يقع في غير هذه

---

(١) الكشاف ٢/٣٨٦ .

(٢) الانتصاف بهامش الكشاف ٢/٣٨٦ .

(٣) إرشاد العقل السلم ٥/٣٧٥، ٣٧٦ .

(٤) البحر المحيط ٥/٤٤٥ .

السورة (ربما) واستخدم في حكاية استهزائهم حرفا لم يرد في غير هذا الموضع (لوما) في قولهم : ﴿ **لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾ (الحجر:٧) وهو محكى بعد قولهم ﴿ **وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ** ﴾ (الحجر:٦) ولما كان متاعهم في الدنيا مغريا باستهزائهم ، ذكر بين رد استهزائهم وحكايته علة الإمهال ، بهذا التناغم والتواصل البديع الذي يتعالى صداه داخل السورة الكريمة ، كما سنحاول الوقوف على بيان شيء منه .

وفى تعليل الإمهال مفارقة عجيبة في مجيء الواو على غير قياس في قوله : ﴿ **وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ** ﴾ وعللوا لذلك بأنه وقع «لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف»[1] مع أن العطف يقتضي المغايرة ، فكأن الكتاب المعلوم أصبح جنسا في علة تأخير العذاب ، وقد أكد هذه العلة بقوله : ﴿ **مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا** ﴾ (الحجر:٥) لبيان أنه لا هلاك قبل سبق الكتاب ، وفي هذه الواو قال القاضى منذر بن سعيد : «هذه الواو التي تعطي أن الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ** . . . ﴾»[2] ، وهو استعمال متناسب مع قوله : ﴿ **ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ** ﴾ (الحجر:٣) وهو أمر مجازى في التهديد والوعيد ، وقد ذكر ابن عاشور أن قوله : ﴿ **وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ** ﴾ (الحجر:٦) معطوف على قوله : ﴿ **ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ** . . . ﴾ «والمناسبة أن الجملة المعطوف عليها تضمنت انهماكهم

---

(١) الكشاف ٢/٣٨٧ .

(٢) البحر المحيط ٥/٤٤٥ .



في الملذات والآمال ، وهذه تضمنت توغلهم في الكفر والتكذيب»[1] وحكاية استهزائهم تتضمن الاستهزاء بالذكر ومن نزل عليه ، وتنزل الملائكة وما سبق كان ردا له ، وما وقع من الوعيد تناسب مع ما يتبعه نزول الملائكة وعدم الإيمان من الإهلاك ، وكان هذا المطلب لهم ـ فيما يزعمون ـ هو الدليل الواضح على أن الذكر حق ، فأحالتهم السورة على ما هو أوضح في ذلك ، لجمعه المعاني الواضحة للحق ، والدليل على جمعه لذلك أنه محفوظ ، وقد اتصل قوله : ﴿ **وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩) بالرد ، «دليلا على أنه منزل من عنده آية ، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية ، لتطرق عليه الزيادة والنقصان ، كما يتطرق على كل كلام سواه»[2] .

ويلحظ أن استهزاءهم يتواصل مع الرد الوارد بعد المطلع ، كما أن ما حكاه الله من استهزائهم ، والرد عليه جاء مترابطا ترابطا ظاهرا نبه إليه الشيخ الصاوي في قوله : «والحاصل أنهم قالوا مقالتين الأولى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى** . . . ﴾ والثانية ﴿ **لَّوْ مَا تَأْتِينَا** ... ﴾ وقد رد الله ذلك على سبيل اللف والنشر المشوش ، فقوله : ﴿ **مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ** ... ﴾ رد للثانية ، وقوله : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ** ... ﴾ رد للأولى»[3].

وقد وقع بعد هذا الرد قوله : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝** ﴾ (الحجر:١٠، ١١) وهو تصريح بأن المقام مقام استهزاء ، وسرى عن النبي ﷺ ببيان أن ذلك دأب

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٤ .
(٢) الكشاف ٣٨٨/٢ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٩٣/٢ .

ـ الكافرين ، ولم يقع استغراق لاستهزاء كل الأمم كما وقع هنا ، وهذا التعميم يفسر لنا قصص هذه السورة ولا يدفع هذا القول ما جاء في سورة يس من قوله : ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ (يس:٣٠) لأنه هناك جاء في سياق قصة أصحاب القرية ، فقد وقع ذلك على لسان المؤمن : ﴿ **يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم** . . . ﴾ فإفادة التعميم جاءت هنا بمؤازرة الآية الواقعة قبلها ، ولا كقوله تعالى : ﴿ **كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (الحجر:١٢) في إيضاحه الحق للمؤمن وللمجرم ، وتقديم هذه الآية بين يدى القصص دلالة ظاهرة على أن القصص في السورة سيدل بتراكيبه على ظهور الآيات الدالة على الحق في كل أمة ، ووقوعه بعد الإخبار باستهزائهم دليل على عدم إيمان الأمم رغم ظهور هذه الحقائق ، وفي قصص هذه السورة من مفردات التعبير ما يدل لما نقول ، مع مراعاة أن التعبير بالمضارع في ﴿ **نَسْلُكُهُۥ** ﴾ يتلاءم وموقع الآية بين يدى القصص ، والذي يغري بتقبل هذا القول ورود الآية في سورة الشعراء عقب قصص النبيين بالماضى ﴿ **كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ وعقب وصف الكتاب بتمام الإبانة ، ووصفه بالإبانة في مطلع سورة الشعراء ، ولم يرد هذا التركيب في غير هذين الموضعين ، والآية بهذه الهيئة تقابل قوله : ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ (الحجر:٢) وما ذكرناه من علة التعبير بالمضارع في ﴿ **نَسْلُكُهُۥ** ﴾ من قول أبي السعود «وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما في الوجود ، وهو السلك الواقع في الأمم السالفة أو للدلالة على استحضار الصورة»[1] . وكان هذا التركيب ترشيحا لتعليل رد طلبهم إتيان الملائكة ، لأن إيمانهم وعدمه لا يرجع إلى ظهور الحق أو خفائه ، وإنما عدم الإيمان عندهم سمة ثابتة .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣٨٦/٥ .

كان قوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥ ﴾ (الحجر:١٤، ١٥) ، ولا كهذه التراكيب في الذكر الحكيم لاسيما في مواضع الرد على طلبهم نزول الملائكة ، وما أبان عنه النظم من قوة الحجة بقوله : ﴿ فَظَلُّواْ ﴾ «ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون»[1] وحكاية قولهم بالتضعيف ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ تناسب تجدد العروج ، وقوله ﴿ بُرُوجًا ﴾ يناسب قوله : ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ والتعبير بفى يتناسب مع قوة الحجة ويكشف عن تتابع العروج داخل السماء ، ولو قال : لقد جعلنا للسماء بروجا ما تناسب مع قوة بيان هذه الحجة المتناسب مع مقصود السورة المجمل في مطلعها ، وقوة الرد على هذه الحجة يدل قطعا ـ لاسيما بعد وقوعه في سياق الحديث عن قوة بيان الذكر ـ على أن قوة هذه الآيات في بيان الحق أقوى مما يطلبون من إنزال الملائكة ، لكن عدم الإيمان دأبهم .

وقد جاءت تراكيب السورة جميعا ناظرة إلى حكاية استهزاء مشركي مكة والرد عليها ، فقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ (الحجر:٢٤) . يتلاءم مع قوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (الحجر:٥) على أن أولى الأقوال بالصواب «ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فنقدم موته ، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حي وممن هو حادث منكم»[2] ولا يتعارض هذا مع سبب النزول ، في أنها نزلت في شأن المتقدمين في الصف والمستأخرين فيه لشأن النساء فذلك تهديد ووعيد .

---

(١) الكشاف ٢/٣٨٨ .

(٢) جامع البيان ١٤/١٨ .

ثم جاءت قصة إبليس ، وتوسع في عرض النظرة ، تناسبا مع ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ** . . . ﴾ ﴿ **وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ** . . . ﴾ . ومن خصائص قصة إبليس في هذه السورة تكرر قوله : ﴿ **مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ ثلاث مرات ، وقطعا لهذه الخصيصة اتصال بالمقصود لا أعرفه ، ومما له اتصال ظاهر في قصة إبليس بالإمهال في قوله : ﴿ **إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ** ﴾ قوله : ﴿ **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ** ﴾ (الحجر:٣٧) في اختصاص الآية بالفاء هنا الداخلة «على الجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم في ذلك . دليل على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لإنظار خاص به»[1] ، وقد وقع بعد قوله : ﴿ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (الحجر:٤٣) لاشتراكهم في الإمهال المذكور في الإطار الأول من السورة .

وجاء بعد ذلك قوله : ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِىٓ** ﴾ (الحجر:٤٩) وهو « تقرير لما ذكر وتمكين له في النفوس ، وعطف ونبئهم على ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِىٓ** ﴾ ليتخذوا ما أحل من العذاب يوم لوط عبرة يعتبرون بها»[2] والآية ـ كما قال ابن عاشور ـ «استئناف ابتدائي وهو مرتبط بقوله : في أوائل السورة ﴿ **وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ** . . . ﴾»[3] .

وكان البقاعي ـ رحمه الله ـ يبصر علل فروق التراكيب في نور المقصود الذي يجمله المطلع ، فيفسر اختصاص قصة إبراهيم هنا بقوله : ﴿ **إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾ (الحجر:٥٢) «ولما كان طلبهم في هذه الصورة للملائكة

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣٩٨/٥ .
(٢) الكشاف ٣٩٢/٢ .
(٣) التحرير والتنوير ٥٦/١٤ .



على وجه أوكد مما في سورة هود ﷺ أشار لهم إلى ما في رؤية الملائكة من الخوف ، ولو كانوا مبشرين وفي أحسن صورة من صور البشر بقوله : بلسان الحال أو المقال ﴿ **إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾ وأسقط ذكر جوابه ﷺ ولا يقدح ذلك ، فيما في سورة هود وغيرها ، من ذكره ، فإن (إذ) ظرف زمان بمعنى حين ، والحين قد يكون واسعا ، فيذكر ما فيه تارة جميعه على ترتيبه وأخرى على غير ذلك ، وتارة بعضه مع إسقاط البعض مع صدق جميع وجوه الأخبار ، لكونه مشتملا على الجميع ، وتكون هذه التصرفات على هذه الوجوه لمعان يستخرجها من أراد الله»[1] وهو في هذا التعليل ناظر إلى قوله : ﴿ **لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ** ﴾ (الحجر:٧) .

ويفرق بين قوله هنا في قصة لوط ـ ﷺ ـ ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ** ﴾ (الحجر:٧٤) وقوله في هود ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ** ﴾ (هود:٨٢) . فيقول : «ولما كان الزجر في هذه السورة أعظم من الزجر في سورة هود ﷺ لطلبهم أن يأتى بجميع الملائكة أعاد الضمير على المعذبين لا على مدنهم كما في سورة هود ﷺ لأن هذا أصرح فقال : ﴿ **عَلَيْهِم** . . . ﴾»[2] .

ويلحظ اختصاص قصة لوط هنا بقوله : ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ (٧٢) .

وهو متناسب مع قوله : ﴿ **لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا** ﴾ ولما كانت القصة في سياق ظهور الآيات والإعراض ، اختصت القصة في السورة بهذين التذييلين ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ (الحجر:٧٥) .

---

(١) نظم الدرر ٦٥/١١٤ .

(٢) المرجع نفسه ٧٧/١١ .



وعن ابن عباس وغيره للمتوسمين أى للناظرين[1] ، وقال جار الله : « للمتوسمين المتأملين ، وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشىء »[2]، وبالتذييل الآخر ﴿ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** ﴾ (الحجر:٧٦) أى : « وإن هذه المدينة مدينة سدوم لبطريق واضح مقيم يراها المجتاز بها لاخفاء بها ، ولا يبرح مكانها فيجهل ذو لب أمرها »[3] ، واختصت قصة أصحاب الأيكة بهذا التذييل أيضا ﴿ **وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الحجر:٧٩) أى بطريق واضح ، وهذه الخصائص واضحة العلاقة بالمطلع جدا ، كأن السورة جمع للآيات الواضحة على الحق في الكتاب الناطق والكتاب الصامت وهذا يؤيد ما قرره البقاعي من مقصود السورة .

ثم جاء ذكر أصحاب الحجر ، مضافا إلى أوضح آية على الحق في قصتهم في قوله : ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الحجر:٨٠) ، ولا كهذه الإضافة في قصة ثمود قوم صالح ، وآيتهم للعرب أظهر الآيات من قصص السابقين لعظمها وبقائها وأنبأ الله عن سبب عذابهم بقوله : ﴿ **وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** ﴾ (الحجر:٨١) فكان الإهلاك عاقبتهم ، وهذا متناسب جدا مع قوله : ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا** ... ﴾ وقوله : ﴿ **وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾ في المطلع .

وقال العلامة ابن عاشور « وخص بالذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر لأنهم مثل قوم لوط في موعظة المشركين لأن أهل مكة يشاهدون

(١) جامع البيان ١٤/٣١ .

(٢) الكشاف ٢/٣٩٦ .

(٣) جامع البيان ١٤/٣٢ .



ديار هذه الأمم الثلاث»[1] واجتزاء هذه القصص ، يشبه أن يكون بيانا وتعليلا لقوله : ﴿ **لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا** ﴾ .

« ولقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ** ﴾ (الحجر:٨٥) موقع لطيف ، فهذه الجملة صالحة لأن تكون تذييلا لقصص الأمم المعذبة . . ولأن تكون تصديرا للجملة التي بعدها »[2] ، وهي كذلك لأنها بداية الإطار الثالث في بيان مقصود السورة فهي متلائمة مع الإمهال المذكور في صدر السورة ، وقوله : ﴿ **وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ (الحجر:٨٩) متلائم جدا مع المطلع ﴿ **تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ** ﴾ ولا كهذا التركيب في القرآن الكريم في وصف النبي ﷺ بأنه نذير مبين ، كما أنه لا نظير للمطلع أيضا .

ثم جاء قوله بعد : ﴿ **كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١** ﴾ (الحجر:٩٠ ، ٩١) وقوله : ﴿ **كَمَآ** ﴾ متعلق ـ كما قال البقاعي رحمه الله بقوله : ﴿ **وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا** ﴾ (الحجر:٨١) وهذا ملحظ بديع من البقاعي[3] ، لأنه حينئذ تشبيه مقلوب ، كأن ثمود قوم صالح أغضوا عن الآيات على ظهورها ، كإعراض مشركي مكة عن آيات القرآن على جمعها للمعاني الواضحة عن الحق ، وهذا المعنى ألصق بالمطلع .

وقد اختلفوا في المقتسمين اليهود والنصارى أم مشركو مكة؟

وأصوب الآراء عند ابن جرير أنهم مشركو مكة ، وأن معنى جعلهم القرآن عضين أى قولهم : إنه سحر وشعر وما أشبه ذلك ، ورجح ما رآه

---

(١) التحرير والتنوير ٧١/١٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٧٤/١٤ .

(٣) ينظر : نص البقاعي في تقرير مقصود السورة ، ص١٨٢ من هذا البحث .

ـ رحمه الله ـ بدلالة « ما قبله من ابتداء السورة ، وما بعده ، وذلك قوله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ »[1] وهذا الوصف لهم بالاستهزاء ، أشعر به المقام في أول السورة ، ولم يصرح به وإنما حكى استهزاءهم ، بل اكتفى بذكر ضميرهم عنهم في قوله ﴿ ذَرْهُمْ ... ﴾ بعد وصفهم بالكفر ، فلم يقل : ربما يود الذين استهزأوا ، وتعليق ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا . . . ﴾ بقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ يتظاهر على صحة ما قرره البقاعي من أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها .

وقد لمح ابن عاشور العلاقة بين هذه الآيات وبين أول السورة ، ونظم ذلك في سلك بديع عند الحديث عن قوله تعالى : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر:٨٥) فقال : « ثم إن في هذه الآية ضربا من رد العجز على الصدر ، إذ كان قد وقع الاستدلال على المكذبين بالبعث بخلق السموات والأرض عند قوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا . . . ﴾ وختمت بآية : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ . . . ﴾ ثم انتقل هنالك إلى التذكير بخلق آدم . . . ثم إلى سوق قصص الأمم . . . فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم ، حيث ذكر خلق السموات والأرض . . . فجاءت على وزان قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا . . . ﴾ »[2] وللآية علاقة مباشرة ، فهي تنادي على اتصالها بقوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ . . . ﴾ .

ولا كقوله تعالى في الاستعارة للجهر بالدعوة ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر:٩٤) المتناسب مع مقصود السورة الذي قرره البقاعي ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ (الحجر:٩٥) ينادي على قوله : ﴿ ذَرْهُمْ

---

(١) جامع البيان ٤٥/١٤ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ٧٧/١٤ .



﴿ يَأْكُلُوا ... ﴾ لاسيما بتكرير هذا التركيب المباشر ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر:٩٦) الذي ذكر أول السورة .

وكان الأمر كما قال الألوسي : ـ رحمه الله ـ «ولا يخفى مما ذكره غير واحد من المفسرين مناسبة خاتمة هذه السورة لفاتحتها ، وأن قوله : ـ سبحانه ـ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ... ﴾ في مقابلة : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾»[1] .

وقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩) يتلاءم مع قوله: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا ... ﴾ فالسورة بحكاية الاستهزاء مرة أخرى على ظهور الآيات وضعت القصص في إطار غرض تساق فيه ، وتميزت قصص هذه السورة بفروق دقيقة في التراكيب تنادي على علاقتها بالمقصود الذي أجمله المطلع ، ونظر الختام إلى المطلع دال على أن السورة تدور في رحم واحد هو مقصودها .

والحمد لله على ما وفق .

* * *

(١) روح المعاني ١٤/٨٨ .



الفصل العاشر

سورة مريم

هذه السورة الكريمة تسمى بسورة (مريم) فيما أخرجه الطبراني وأبو نعيم والديلمي من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده قال : «أتيت رسول الله ﷺ فقلت : ولدت لي الليلة جارية فقال : والليلة أنزلت عليَّ سورة مريم سمها مريم»[١]. وتسمى أيضا بـ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ .

وقد تأول الصحابة والتابعون معانى لقوله ـ سبحانه ـ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ رواها الطبري[٢] ، ودفعها الرازي لعدم دلالة اللغة عليها لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، ولم يودع الله في كتابه إلا ما جرت عليه سنة اللغة في الدلالة ، ولا تصح هذه التأويلات عند النيسابوري إلا بإسنادها إلى الوحي أو الإلهام[٣].

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٢٥٨/٤ .

(٢) ومجملها أنها اختصار لأسماء من أسماء الله ، واختلفوا في تقديرها ، أو أنها أقسام أقسم الله بها ، أو أنها من أسماء القرآن ، والعجيب أنه تروى عدة تأويلات تسند إلى ابن عباس فالله أعلم . يراجع : جامع البيان ٣٣/١٦، ٣٤ .

(٣) يراجع : مفاتيح الغيب ٣٩٤/١٠ وغرائب القرآن بهامش الطبري ٢٨/١٦ .

وقد ذكر البقاعي تأويلا لها ـ لم يسبق به ، ولم يتابع فيه ـ اعتمد فيه على مخارج الحروف وصفاتها ، ومجمل كلامه أن صفات الحروف ومخارجها من الشدة والانفتاح وغير ذلك تشير إلى مراحل دعوة الأنبياء[1]. وما قاله يمكن أن يقال في كثير من السور المفتتحة بالحروف المقطعة ، ولم أر لصحته وجها ، ويبقى كونها دلالة للتحدي رأيا مستقيما كما مضى بيانه .

وقد أبصر ابن الزبير وجها لمناسبة السورة لما قبلها ـ تابعه فيه الخالفون وكان عند البقاعي هو السبيل إلى البيان عن المقصود ـ يقول : ـ رحمه الله ـ بعد بيان ما اشتملت عليه سورة الكهف من البدائع المستغربة ـ « فكأنه قد قيل : أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية ، وهو قصة زكريا . . . ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله ، وإنما الفعل له ـ سبحانه ـ لا للمسبب ، وإلى هذا أشار قوله تعالى : لزكريا عليه السلام ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا** ﴾ (مريم:٩) ثم أتبع ـ سبحانه ـ بشارة زكريا بيحيى بإتيانه الحكم صبيا ، ثم بذكر مريم وابنها ـ عليهما السلام ـ ، وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة »[2] .

ولم يبين ـ رحمه الله ـ الخيط الذي تعلقت به الآي ، ولعله كان خبيرا به إلا أنه أراد تخليص كتابه (البرهان) لاستبصار المناسبات بين السور ، إلا

---

(١) ينظر : مصاعد النظر ٢/٢٥٧ وما بعدها وقد أطال في هذا التفسير جدا ونظر بين ما يقول وبين سيرة النبي ﷺ في الدعوة .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص١٢٨، ١٢٩، ويراجع أيضا تناسق الدرر ، ص١٥٥، ١١٦، وروح المعاني ١٦/٥٧، والتفسير القرآني ٦/٧٢١ .



أن ـ بصيرته تلك هدت البقاعي إلى استبصار مقصود السورة ـ الذي كان السبيل إلى البيان عنه نسبة البدائع والغرائب والنعم والإفضال إلى الله وحده مع ضميمة ما أبصره متناثرا في تراث الأمة وكلام أعيان الأئمة ، ثم أخرجه في ثوب قشيب فيما يقول «ومقصودها : بيان اتصافه ـ سبحانه ـ بشمول الرحمة ، بإضافة جميع النعم على جميع خلقه ، المستلزم للدلالة على اتصافه بجميع صفات الكمال المستلزم لشمول القدرة على إبداع المستغرب ، المستلزم لتمام العلم الموجب للقدرة على البعث والتنزه عن الولد ، لأنه لا يكون لمحتاج ولا يكون إلا مثل الوالد ، ولا سمى له ـ سبحانه ـ فضلا عن مثيل ، وعلى هذا دلت تسميتها بمريم ، لأن قصتها أدل ما فيها على تمام القدرة وشمول العلم»[1].

وبيانه ـ رحمه الله ـ جلي الوضوح في الكشف عن كيفية تشاجر العناصر في الكشف عن المقصود الذي ذكره ، ومراتب هذا التشاجر بقوله : «بإضافة . . . . المستلزم . . . . المستلزم . . . . الموجب إلخ ما قال ـ رحمه الله ـ والسورة تتقارب مع سورة آل عمران ، بل تتقارب في التسمية أيضا ، فمريم هي ابنة آل عمران لذا تجد هناك قصة مريم وزكريا ، وتجدها هنا ، وتجد تقاربا في تراكيب قصتيهما بل ألفاظا بعينها ، تختلف بتقديم وتأخير وغير ذلك في إطار ما اقتضاه مساق مقصود السورة ، ولطيفة أخرى تترجمها هذه الصلة في تسمية السورتين ستأتي محاولة الكشف عنها .

والمطلع الذي لمح فيه البقاعي ـ مع نظره إلى معاني السورة ـ المقصود هو قوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۞ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ (مريم: ١، ٢)،

---

(١) مصاعد النظر ٢/٢٥٦، ٢٥٧ .



وهم يختلفون في رافع ﴿ ذِكْرُ ﴾ على ثلاثة أقوال رجحوا منها أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر محذوف ، وضعفوا أن يكون خبرا عن ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ لأن المبتدأ لم يشتمل على ذكر الرحمة ، ولم تشتمل الرحمة على معناه »[1] .

وكان نظر ابن عاشور لما اختصت به السورة في ذكر الأنبياء من قوله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ خمس مرات[2] دون مواضع قصص النبيين في الذكر الحكيم ، كان داعيا إياه لاستظهار وجه آخر في رافع قوله : ﴿ ذِكْرُ ﴾ هو أن يكون « ﴿ ذِكْرُ ﴾ أصله مفعولا مطلقا نائبا عن عامله بمعنى الأمر ، أي اذكر ذكرا ، ثم حول عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات ، وقد جاء نظم هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الأخبار ، وأصل الكلام : ذكر عبدنا زكريا إذ نادى ربه فقال رب . . . فرحمة ربك . . . ، فكان في تقديم الخبر بأن الله رحمه اهتمام بهذه المنقبة له ، والإنباء بأن الله يرحم من التجأ إليه مع ما في إضافة رب إلى ضمير النبي ﷺ وإلى ضمير زكريا من التنويه بهما »[3] .

وكان بهذا التكلف يوطئ للقول بأن قوله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ (مريم:١٦) معطوف على قوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ (مريم:٢) ، وهو عنده من « عطف القصة على القصة فلا يراعى حسن اتحاد الجملتين في الخبرية والإنشائية على أن ذلك الاتحاد ليس بملتزم على أنك علمت أن الأحسن

(١) يراجع : جامع البيان ٣٥/١٦، والكشاف ٥٠٢/٢، ومفاتيح الغيب ٣٩٥/١٠، وإملاء ما من به الرحمن ٥٤٣/٣، ٥٤٤، وغرائب القرآن ٢٩/١٦ .

(٢) الآيات : ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٦١/١٦، ٦٢ .

أن يكون قوله : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ مصدرا وقع بدلا من فعله»[1] . ولعل في قراءة ﴿ ذِكِّرْ ﴾ بتشديد الكاف على أنه فعل أمر غناء عن كل هذا التكلف ، لأن القراءات تتآزر في إظهار الدلالة ويكون قوله ﴿ وَٱذْكُرْ . . . ﴾ معطوفا على الأحسن في اتحادهما إنشاء .

وعبارة الألوسي في ترجيح إعراب ﴿ ذِكْرُ ﴾ خبرا هي «أى المسمى به ذكر رحمة . . . فإن ذكر ذلك لما كان مطلع السورة الكريمة ، ومعظم ما انطوت هي عليه جعلت كأنها نفس ذكره»[2] بل هي كل ما انطوت عليه .

وفي ذكر المصدر ﴿ ذِكْرُ ﴾ وإضافته لـ(رحمة) ثم إضافة الرحمة (رب)، وإضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ كل ذلك أفاد شمول الرحمة واتساعها ، ولو عبر بغير المصدر ما كان هذا الشمول . وفي موقعه الإعرابي على أن السورة تجري في مقصود ذكر رحمة الله عباده ـ سبحانه ـ لذلك كان المفعول (عبده) ووقع زكريا بدلا منه أو بيانا له ، وكأني بنور كلام الله يوشك أن يدل على أن إضافة الذكر إلى الرحمة في مطلع السورة ، يدل على أن السورة بنيت على ذكر رحمة الله عباده ، وأن إضافة الذكر إلى الرحمة في المطلع أغنت عن الإضافة في السورة فلم يقل : واذكر في الكتاب رحمة ربك مريم ، واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده إبراهيم ، واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده موسى . . . واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده إسماعيل . . . واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده إدريس . . . مع ضميمة اختصاص المطلع بهذا التركيب ، واختصاص السورة بهذا التركيب ، وبما فسر به العلماء الكتاب بالسورة .

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٧٨ .

(٢) روح المعاني ١٦/٥٨ .



ولله أبو السعود فيما يقول عند قوله : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ (مريم:١٦) «والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن ، إذا هي التي صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها»[١] .

ويرى الألوسي أن يكون المراد بالكتاب السورة أو القرآن[٢] ، والعجيب أن أبا السعود ذكر ـ بعد ما جزم بأن يكون المراد السورة ـ عند قوله : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (مريم:٤١) هذين التأويلين[٣] فلعل تسمية السورة بمريم حملته على الجزم في الموضع الأول ، وأن السياق الذي ذكره هو الذي حمله على هذا وكأنه كان تفسيرا منه لتسمية السورة بمريم ، وأن قصتها هي التي استتبعت قصة زكريا قبلها ، وقصة الأنبياء بعدها ، والذي أراه أن المراد بالكتاب السورة بالنظر إلى علاقة التركيب بمساق السورة ، وأن المراد به القرآن بالنظر إلى مساق السورة في القرآن كله فالله أعلم أي ذلك أراد .

ولعل تعاطف قوله : ﴿ وَٱذۡكُرۡ . . . ﴾ يحملنا بلا منازع على إجراء ما ذكر من قصص النبيين على ما اقتضاه تركيب الآية الأولى في السورة ، فقد جاء بعد ذكر الأنبياء بجملة من الكلام عقدها بما قبلها بفاء التفريع ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ (مريم:٥٩) وما بعدها إلى قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ ﴾ (مريم:٦٤) . وهذه الآية تلفتنا مباشرة ـ بعد مرورها بقصة مريم ـ إلى المطلع في إضافة الرحمة إلى الرب وإضافة الرب إلى ضمير

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/٧٧٧ .

(٢) روح المعاني ١٦/٩٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/٧٩٠ .



النبي ﷺ فهم يذكرون أن القائل ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ هو جبريل عليه السلام الذي كان رحمة الله للبشر ، ولذلك جاء قوله : ﴿ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ بهذه الإضافة تناغيا مع المطلع ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ ، ولو قال بأمر الله ما تناسب مع المطلع ، وكانت هذه العلاقة نورا مما ضعفه أبو حيان في قوله : «وقد حكى النقاش عن قوم أن قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ متصل بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴾ (مريم:١٩) وهذا قول ضعيف»[1] .

وقد اقتضى سياق الرحمة الذي جاء في المطلع أن تكون بشارة مريم هنا بجبريل على ما ذكره الأئمة ، وفي آل عمران بالملائكة ، وليس ذلك الاختلاف مقتضيا تكرر البشارة ، وإنما قد يكون التعبير في آل عمران بالملائكة تعبيرا بالجزء عن الكل فكان جبريل عليه السلام هو الملائكة جميعا ، لأنه رسول الله إلى رسله .

والذي يغري بتقبل ما ضعفه أبو حيان هو أن السياق بعد ذلك بين حال الفريقين نظر بطريق آخر إلى قصة مريم بقوله : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾ (مريم:٨٨) فوضع كفار العرب ، وكفار النصارى في إطار واحد ، وذلك مما يربط سياق السورة بالتوحيد ، الذي مقصود آل عمران ، والذي يثلج الصدر بهذا الملحظ الذي ضعفه أبو حيان أن الذي وقع بعد قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ (مريم:٦٤) هو قوله : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم:٦٥) ولا نظير لقوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ في الذكر الحكيم ، وقد لحظ حبر الأمة هذه العلاقة فيما روى عنه «أراد لا يسمى بالرحمن غيره»[2] .

---

(١) البحر المحيط ٢٠٣/٦ .

(٢) الكشاف ٥١٧/٢، ومفاتيح الغيب ٤٩٢/١٠ .

قال النيسابوري قلت : « وهذا صحيح ، ولعله هو السر في أنه لم يذكر لفظ الرحمن في سورة تكريره في هذه السورة »[1] حيث وقع ذلك في السورة في ست عشرة مرة[2] ، وقع لفظ الرحمة أربع مرات[3] ، وهو ما يكشف لنا عن لطائف في كتاب الله .

والعجيب أن سورة الرحمن المسماه بهذا الاسم ، والتى صدرت به لم يذكر فيها لفظ الرحمن غير مرة واحدة ، وهو ما يدل قطعا على أن تكرار لفظة بعينها في سورة دون غيرها ، لا يعني أن ما دارت السورة حوله هو غرضها ، أو غرضا من أغراضها بل هو يمثل عنصرا من عناصر غرض السورة ومقصودها ، فاختصاص مريم بتكرار هذا الاسم الجليل بما لا نظير له في الذكر الحكيم ، وتسميتها مع ذلك بمريم ، وهي مبدوءة بذكر زكريا عليه السلام فكان المقتضى أن تسمى سورة زكريا .

كل ذلك كان داعيا لاستبصار علاقة بين مقصود سورة آل عمران وسورة مريم مع ضميمة ما فرق به الأئمة بين (الرحمن والرحيم) حيث ذكروا أن الرحمن رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة ، وأنه قدم على الرحيم لزيادة هذا المعنى ولأنه لا يسمى به غيره ، وأنه وقع بعد الاسم الأعظم لأنه ناسبه من جهة الاختصاص به دون الرحيم . واستأنسوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ **قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ (الإسراء:١١٠)[4] .

---

(١) غرائب القرآن ١٦/٦١ .

(٢) الآيات : ١٨، ٢٦، ٤٤، ٤٥، ٥٨، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦ .

(٣) الآيات : ٢، ٢١، ٥٢، ٥٣ .

(٤) يراجع : جامع البيان ١/٤٢ وما بعدها ، والكشاف ١/٤١، ٤٢، وحاشية السيد الشريف ١/٤١، ٤٢، ومفاتيح الغيب ١/٢٨٦، ٢٨٧، ومسائل الرازى ص٩، والبرهان للكرمانى ص٢٠ وغيرها من تراث الأمة .

أتبصر معي أن هذا التكرار لهذا الاسم (الرحمن) في هذه السورة، وتسميتها على ذلك بمريم ـ التي ابنها المسيح الذي كان ميلاده المعجز داعيا النصارى للإشراك بالله، والذي اختصت السورتان (مريم وآل عمران) بقصة ميلاده عليه السلام أتبصر معي أن سورة مريم جارية في مقصود التوحيد، وأن الرحمة التي نورت هذا السياق تلي الاسم الأعظم في أول سورة آل عمران (الله لا إله إلا هو) أي ولا رحمن إلا هو؟ ما يدل قطعا على أن أسماء السورة توقيفي، فالله بسر كلامه عليم.

والذي يتأيد به ما ادعيته من هذه العلاقة ما ذكره الأئمة من مثل ما قالوه عند قوله تعالى: ﴿ **وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ (مريم:١٣) «أي رحمة من عندنا لا يملك عطاءهما أحد غيرنا»[١] ـ وهو قول الربيع ـ أي لأنها من (الرحمن) الذي لا رحمن إلا هو ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا** ﴾ (مريم:٦٥)، ومن دقة ما قرره البقاعي في بيان المقصود أنه قال: «ومقصودها بيان اتصافه ـ سبحانه ـ بشمول الرحمة بهذا البيان الدقيق»[٢]. فلله دره.

وكان لهذه العلاقة الوثيقة بين السورتين أثرها في تراكيب قصتي زكريا ومريم في الموضعين، ووقوع الاختلاف في أسلوب السورتين جاء جاريا على ما اقتضاه المقصودان ذلك ما أبصره البقاعي في قوله: في بيان سبب اختلاف نظوم القصص ـ «مثال مقصود سورة آل عمران التوحيد، ومقصود سورة مريم عليها السلام ـ شمول الرحمة فبدئت آل عمران بالتوحيد، وختمت بما بني عليه من الصبر، وما معه مما أعظمه التقوى، وكرر ذكر الاسم الأعظم الدال على الذات الجامع لجميع الصفات ـ

---

(١) الدر المنثور ٢٦١/٤.

(٢) مصاعد النظر ١٥٢/١.

تكريرا لم يكرر في سورة مريم ، فقال في قصة زكريا عليه السلام : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ وقال في مريم : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ ، وقال في آل عمران في قصة مريم ـ عليها السلام ـ : ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ ﴾ وفي مريم : ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ وغير ذلك بعد أن افتتح السورة بذكر الرحمة لعبد من خُلَّص عباده ، وختمها بأن كل من كان على نهجه في الخضوع لله ـ يجعل له ودا وأنه ـ سبحانه ـ يسر هذا الذكر بلسان أحسن الناس خَلْقا وخُلَقا ، وأجملهم كلاما وأحلاهم نطقا ، وكرر الوصف بالرحمن ، وما يقرب منه من صفات الإحساس من الأسماء الحسنى في أثناء السورة تكريرا يلاءم مقصودها ، ويثبت قاعدتها وعمودها »[1] .

فتناثر الاسمين الجليلين في السورتين معالم دالة على توحد السياقين وتقاربهما لأن الجهة الجامعة هي التوحيد ، فإن سورة مريم من بنات مقصود آل عمران ، وترى دقائق الفروق في مثل ما اختصت به السورة من وصف كبر زكريا عليه السلام بهذه الاستعارة ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ بمؤاخاتها بالسياق الذي وقعت فيه كما يقول الإمام عبد القاهر[2] ـ رحمه الله ـ وهذا السياق الذي قررناه بكلام الأئمة هو الذي اقتضى التعبير بـ (ليال / ١٠) في قصة زكريا بدل (أيام / ٤١) في آل عمران ولا اختلاف بينهما فقد كانت ثلاثة أيام بلياليهن إلا أن المقصود في كل موضع هو الذي اقتضى هذا الفرق الدقيق ذلك قول البقاعي معللا لهذا الفرق « ولما بدئت السورة

---

(١) مصاعد النظر ١/١٥٢، ١٥٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص٤٠٢، ٤٠٣ ، تحقيق الشيخ محمود شاكر .



بالرحمة ، وكان الليل محل تنزلها . . قال : ثلاث ليال ، أى بأيامها كما دل عليه التعبير بالأيام في آل عمران»[1] .

ومن أثر المطلع ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ ما تراه من الفرق بين قوله هنا : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ (مريم:٩) وما جاء في آل عمران في نفس الحديث ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (مريم:٤) ذلك نور كلمته « ولما بنيت هذه السورة على الرحمة واللطف والإحسان بعباد الرحمن عبر باسم الرب الذي صدرت به بخلاف سورة التوحيد آل عمران المصدرة بالاسم الأعظم فقال : رَبِّكَ . . . »[2] .

وفى نور سياق وصف الله بشمول الرحمة يفسر وجه اختصاص قصة عيسى هنا بقوله : ﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّا ﴾ (مريم:٢١) ويستظهر بمناظرته بقوله في آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ (مريم:٤٥) ، وما ألطف الله بمريم في البشارة بقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مريم:١٧) أى « إنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه »[3] .

ويفسر في هذا النور وجه اختصاص السورة بقصة مخاضها ، ودلالتها على المخرج ما سيرميه به قومها ، وسياق شمول الرحمة أظهر من أن يخفى ، ويفسر في هذا النور وجه اختصاص السورة بما جاء من قصة إبراهيم ، وقصة بره بوالده التي لا نظير لها في الذكر الحكيم ، والتي تدل بتراكيبها على إخلاص الموعظة لاسيما في اختصاصها بتكرر النداء

(١) نظم الدرر ١٢/١٧٧ .
(٢) المرجع نفسه ٢/١٨٦ .
(٣) الكشاف ٢/٥٠٥ .

﴿ يَٰٓأَبَتِ . . . ﴾ أربع مرات ، وهذا التناغم العجيب في مثل قوله : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ . . . ﴾ (مريم:٤٥) وكان مقتضى الكلام على غاية ما يصبو إليه بيان البشر (عذاب من الجبار . . .) لكن هذا المقصود المجمل في المطلع وروح اللطف والرحمة يتعالى صداها في التراكيب ، ولا كقوله في قصة إبراهيم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (مريم:٤٧) «البليغ في البر والإلطاف»[1] .

ومما يدلك على قوة هذه العلاقة بهذا السياق سياق ذكر بر يحيى بأبيه الذي تقدمت به السن ـ عليهما السلام ـ فكان مظنة العقوق ، وقصة بر المسيح بوالدته عليهما السلام ـ وضعف الأم مظنة العقوق ، فكان ذكر إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء بهذا الجزء من قصته متناسبا مع هذا السياق تمام التناسب ، والنظم يلفتنا إلى قصة زكريا عليه السلام ، ويكشف لنا عما قرره أبو السعود من أن ذكر قصة زكريا والأنبياء اقتضاه مقصود قصة مريم وأسلوبها في هذه السورة .

يقول الخليل ـ بلسان رب العالمين ـ بعد انتهاء دعوته أباه إلى التوحيد ﴿ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (مريم:٤٨) فلم يقل : وأعبد ربي ولو قال كذلك لما كان قرآنا ، لأن السياق من المطلع سياق دعاء ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ (مريم:٣) وتدبر دقائق فروق النظم فإبراهيم الخليل في مقتبل نبوته وحياته يقول : عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ، وزكريا عليه السلام يقول في نهاية نبوته وإدبار عمره ﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم:٤) عقب ندائه ، كما يقول إبراهيم عقب إخباره بالدعاء والاستغفار ، وهكذا بهذه العلاقات المباشرة التي هي من هم هذا البحث .

---

(١) الكشاف ٥١٢/٢ .

ولا كقوله تعالى في قصة موسى : ﴿ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ (مريم:٥٢) ولا كقوله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ (مريم:٥٣) ، ولما كان المقصود وصفه سبحانه بشمول الرحمة ، وتوهم أن المشمول بالرحمة هم المذكورون من الأنبياء في السورة دون غيرهم من الأنبياء ومن الناس ، جاء بهذا التنزيل الذي لا نظير له في التعقيب على قصص النبيين في الذكر الحكيم : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم:٥٨) بهذا البناء المستغرق كل النبيين ، وكل العباد المقبلين على الله وحده .

وكان لابن كثير أن يقول : « يقول تعالى : هؤلاء النبيون ، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء ـ عليهم السلام ـ استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس »[1] . بل وبغيرهم ممن تنطبق عليهم صفة العبودية وذلك من قوله : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ على عكس ما قصره غيره على المذكورين في السورة[2] بقرينة اسم الإشارة والأول ألصق بمقصود السورة الأعظم .

ومما ترى له موقعا عظيما في التناغي قوله : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٦٧) وهو يتعالى صوته في النداء على قوله : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٩) مع ضميمة اختصاص السورة بهما) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٦/٣ .

(٢) جامع البيان ٧٣/١٦، وروح المعاني ١٠٧/١٦ .

وهم يذكرون أن قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ (مريم:٧٧) تفريع على قوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ (مريم:٦٦، ٦٧) يقول العلامة ابن عاشور «وهو تفريع على قوله : ويقول الإنسان . . . وما اتصل به من الاعتراض والتفريعات والمناسبة أن قائل هذا الكلام كان في غرور مثل الغرور الذي كان فيه أصحابه ، وهو غرور إحالة البعث»[1] ، وهو مع هذه المناسبة قدم للقدرة عليه بقصة زكريا ومريم ـ عليهما السلام ـ وبذلك يتلاقى السياق في ترتيبه مع النزول في ترتيبه .

ويتعالى صوت العلاقة بين السورة وبين سورة آل عمران باقتران (الرحمن) مثل قوله : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾ (مريم:٨٨) وقوله : ﴿ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴾ (مريم:٩١) وقوله : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ (مريم:٩٢) وما يلفتنا به إلى المطلع الذي أضاف الرحمة إلى الربوبية وأوقعها على العبودية ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ ﴾ (مريم:٢) بقوله : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾ (مريم:٩٣) وفي نور هذا السياق يفسر ما أعد الرحمن للمؤمنين من قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ (مريم:٩٦) وفي ذلك قال ابن عاشور : «يقتضي اتصال الآيات بعضها ببعض في المعاني أن هذه الآية ، وصف لحال المؤمنين يوم القيامة ، بضد حال المشركين فيكون حال إتيانهم غير حال انفراد بل حال تأنس بعضهم ببعض»[2] ، ناهيك بما ذكره في جانبهم بهذا الاسم (الرحمن) وقد ألمع الزمخشرى إلى لطيفة في التكرير «وفى اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة ، أي هو

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٥٨ .

(٢) المرجع نفسه ١٦/١٧٤ .

الرحمن ـ وحده ـ لا يستحق هذا الاسم غيره من قبل أن أصول النعم وفروعها منه»[1] وهو أمر اقتضاه سياق شمول الرحمة .

وقد أبصر العلماء العلاقة بين قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ (مريم:٩٧) وبين سياق السورة في مثل ما يقول الزمخشري : «هذه خاتمة السورة ومقطعها فكأنه قال : بلغ هذا المنزل أو بشر به ، وأنذر ، فإنما أنزلناه . . .»[2] ، وقد جوز الشيخ زاده أن تكون الضمائر في الآية «لهذه السورة الكريمة ، وأن تكون للقرآن كله»[3] ، وذلك كما قررنا من قبل راجع لاختلاف جهات النظر بحسب النظر إلى مساق الآية في السورة ومساق السورة في القرآن .

واختار ابن عاشور أن يكون الضمير عائدا إلى القرآن بدلالة السياق[4] ، ومن لطائف هذه السورة أنها اختصت بقوله في المطلع : ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ، واختصت في آخرها بقوله : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾ (مريم:٩٨) والركز في كلام العرب الصوت الخفي على ما قال الأئمة[5] ، وهذا من دقائق العلاقات بين المفردات في السورة الواحدة فهي تكون من بحر واحد ، وأمر المفردات ظاهر في التصاقه بالمقصود الذي حاولنا تقريره بكلام الأئمة ، وجاءت تأويلاتهم جارية على مقتضاه . . .

والحمد لله على ما أعطى .

* * *

(١، ٢) الكشاف ٥٢٦/٢ .

(٣) حاشية محيي الدين شيخ زاده ٣٠٥/٢ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧٦/١٦ .

(٥) جامع البيان ١٠٢/١٦، والكشاف ٥٢٧/٢، والدر المنثور ٢٨٨/٤، والشهاب على البيضاوى ٨٦/٦ .



الفصل الحادي عشر

سورة طه

لأهل العلم في ﴿ طه ﴾ أقوال[1] أبعدها من النقد أنها من الحروف المقطعة يقصد بها التحدي ، والذين تأولوا هذه الحروف كانوا ينظرون إلى جريان المعاني في السورة الكريمة .

من ذلك أنهم قالوا : إنها جملة بمعنى (طأها) زاعمين لذلك سببا في النزول ـ ضعفه القاضي عياض ـ هو ما روي أنه ﷺ « كان إذا قام من

(١) قالوا بأنها حروف مقطعة ، واختلفوا في تأويلها فمن قائل إنها اسم من أسماء الله ، أو قسم أقسم الله به ، أو اسم من أسماء النبي ﷺ أو اختصار لأوصاف النبي ﷺ أو رمز حسابي يعني (يا بدر) وغيرها مما لا تدل عليه اللغة ، واستظهر ابن جرير أن معناها (يا رجل) بلغة عك ، واستدل لذلك ببيتين من الشعر ، وزعم غيره أن هذا المعنى باللغة السريانية أو النبطية أو القبطية .
ورد الزمخشرى رأي ابن جرير وزعم ظهور التكلف فيما استشهد به ، وتأول كونها بهذا المعنى على لغة عك بتصرفهم فيها على وجه أنكره أبو حيان .
يراجع : جامع البيان ١٠٢/١٦، ١٠٣، والكشاف ٥٢٨/٢، ومفاتيح الغيب ٥١٨/١٠، ٥١٩، والبحر المحيط ٢٢٤/٦، ٢٢٥، والقرطبى ٤٣٣٧/٦، ٨٣٣٨، ولسان العرب ٢٧١/٤، والتحرير والتنوير ١٨٣/١٦ .

الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام ، وقال بعضهم : يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ، ولا تعذبها بالأسف على كفر هؤلاء ، فإنا إنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به»(١) .

وقالوا : إن أولها قد نزل لقول المشركين للنبى ﷺ « إنك لتشقى بترك ديننا ، وذلك لما رأوه من طول عبادته واجتهاده»(٢) .

ورأى السيد الألوسي وجها ومناسبة ـ لما تأولوه من أن ﴿ طه ﴾ جملة ـ لتقديم الأرض على السموات في قوله : ﴿ **تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى** ﴾ (طه:٤) فيما يقول : «وقيل : لأنه أوفق بمفتتح السورة بناء على جعل ﴿ طه ﴾ جملة فعلية ، أى طأ الأرض بقدميك ، أو لقوله : ﴿ **مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ**. . . ﴾ بناء على أنه جملة مستأنفة ، لصرفه ﷺ عما كان عليه من رفع إحدى رجليه عن الأرض في الصلاة»(٣) ، وهو السبب الذي دفعه القاضي عياض رحمه الله .

وإنما دفعهم إلى كل هذه التأويلات نظرهم إلى بناء اللغة في قوله تعالى : ﴿ **مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾ (طه:٢، ٣) وهذا النمط من البناء اللغوى دفع ابن الزبير ـ رحمه الله ـ إلى استبصار مناسبة سورة طه لسورة مريم ، إما بين السورة وبين قوله تعالى في مريم : ﴿ **فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ** ﴾ (مريم:٥٩) ، وإما بينها وبين قوله : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ** ﴾ (مريم:٩٨) . واستظهر الوجه الثاني ، وكل ـ فيما أرى ـ مراد كما سيظهر ـ إن شاء الله ـ وكان كلامه في المناسبة هاديا بصيرة البقاعي في تقرير مقصود السورة كما سيأتي .

---

(١) مفاتيح الغيب ٥٢٠/١٠، ٥٢١ .

(٢) أسباب النزول ص٢٢٨، ٢٢٩ .

(٣) روح المعاني ١٥٢/١٦ .

يقول ابن الزبير : بعد بيان ذكر الله الأنبياء في مريم ، وتذييل ذكرهم بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ ﴾ (مريم:٥٨) ، وما أتبعه به من قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ (مريم:٥٩) (كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه ـ تعالى ـ بملاطفة نبيه ـ ﷺ ـ ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى فقال : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا . . . ﴾ أو أنه ـ سبحانه ـ لما ختم سورة مريم بقوله : ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا ﴾ (مريم:٩٨) بعد قوله : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ (مريم:٩٧) «وقد رأى عليه السلام من تأخر قريش عن الإسلام وردها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم ـ ولا شك أنه عليه السلام يحزنه تأخر إيمانهم . . . فكأنه عليه السلام ظن أن سيصعب المقصود من استجابتهم ، أو ينقطع الرجاء من إنابتهم ، فيطول العناء ثم أتبع ـ سبحانه ـ ذلك تعريفا وتأنيسا بقوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ . . . ﴾ إلى أول قصص موسى عليه السلام فأعلم ـ سبحانه ـ أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره . . . فإذا شاء هداية من وفقه لم يصعب أمره ، ثم أتبع ذلك بقصة موسى عليه السلام وما كان منه من إلقائه صغيرا في اليم ، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع . . . وكل ذلك مما يؤكد القصد المتقدم»[(١)] .

وإنما نقلته بطوله ، لأنه يكشف لنا تحديد المطلع ، ويبين أنه مجمل للمقصود وأن ما جاء من الآيات بعده ، وقصة موسى وآدم ـ عليهما السلام ـ وخاتمة السورة جاء كل ذلك توكيدا للقصد المتقدم في المطلع الذي هو ملاطفة المحبوب والعجيب أن ما ذكروه من سبب النزول يتلاقى مع ما استخرجه ابن الزبير من ذات تراكيب السورتين ، مع مراعاة أن السورتين توالتا في النزول فيما يروى عن ابن عباس وجابر بن زيد[(٢)] ،

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص١٢٩، ١٣٠ .
(٢) تناسق الدرر في تناسب السور ، ص١١٦ .

ويتوافق كذلك مع ما تأولوه في قوله تعالى : (طه) وقد أفرز البقاعي كل هذا التراث فقال :

« ومقصودها : إعلام الداعى ﷺ بإقبال المدعوين والترفق إلى أن يكونوا أكثر الأمم في زيادة شرفه ﷺ وعلى هذا المقصد الشريف دل اسمها المشهور بطريق الرمز والإشارة ليتبين أهل الفطنة والبصارة »[1] .

ثم قابل بين مخارج الحرفين وصفاتهما ، وما أشار إليه من انتشار دعوته ﷺ وأن تأويل (يا رجل) في معناها إشارة إلى قوته وعلو قدره ، وإن كان (طه) بمعنى الجملة (طأ الأرض) فذلك إشارة إلى قوة التمكين . . . إلخ[2] ، وهى معان ـ عند التحقيق ـ مستنبطة من تراكيب السورة ومن بناء قصة موسى عليه السلام من أولها إلى انتشار أمره ، لا من دلالة هذا اللفظ (طه) .

والمقصود عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي « حث النبي ﷺ على الصبر على ما يلقاه من إعراض قومه عن دينه ، ولهذا افتتحت بأنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى . . . ثم قص عليه بعد هذا قصة موسى من أولها إلى آخرها ليتأسى بما كان من ثباته أمام فرعون . . . ثم ختم السورة بحثه على الصبر كما افتتحها به »[3] .

والسورة ـ عند ابن عاشور ـ « افتتحت بملاطفة النبي ﷺ . . . وفي هذه الفاتحة تمهيد لما يرد من أمر الرسول ﷺ وبكونه من أولى العزم مثل

---

(١) مصاعد النظر ٢/٢٧١ .

(٢) ينظر : مصاعد النظر ٢٧٢، ٢٧٣ .

(٣) النظم الفني ، ص١٩٤ .

موسى عليه السلام وألا يكون مفرطا في العزم كما كان آدم عليه السلام قبل نزوله إلى الأرض ، وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن»[1] .

وقد ذكر الأستاذ سيد قطب أن قصة موسى عليه السلام ومشاهد القيامة ، وقصة آدم تسير جميعا في اتجاه المطلع ، وأن السورة ختمت بما يشبه مطلعها[2] والأمر بين في توافق السالفين والخالفين في تحديد المقصود وفي إجمال المطلع له ، ومجيء قصص السورة وأسلوبها وبناء معانيها على مقتضيات بيانية وخصائص تركيبية اقتضاها هذا المطلع الذي يجمل المقصود ، وباستبصاره واستصحاب نوره يستبين نور دقائق التراكيب في السورة ، ذلك النور الكاشف هو قوله تعالى : ﴿ **طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ** ﴾ ، ﴿ **طه** ﴾ نتحدى أن يلاطف أحد أحدا ببيان كهذا البيان ، ألست معي أن التركيب يستقيم لغة بدون قوله : ﴿ **لِتَشۡقَىٰٓ** ﴾ فيقال : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة ، وبدون قوله لمن يخشى؟ فماذا أضافت هاتان الكلمتان اللتان اقتضيتا هذه التأويلات التي أوجزناها؟ محاولة لاستكشاف مدب أقدام أسلافنا في توليد أفكار أسلافهم .

لا ريب أن هاتين الكلمتين هما مناطا استخراج الأئمة للمقصود على اختلاف جهات نظرهم ، فسياق السورة هو سياق الملاطفة ، والذي نفسر به الشقاء هو كل ما جاء في الذكر الحكيم من مثل قوله : ﴿ **وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ** ﴾ (الحجر:٦) و﴿ **وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ** ﴾ (النحل:١٠٣) و﴿ **فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ** ﴾ (الغاشية:٢١)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٨٤ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٤/٢٣٢٦، ٢٣٢٧ .

و﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف:٦) ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٣) ، وغيرها من آيات الذكر الحكيم ، ومن أسباب النزول ، وما روته كتب السيرة وكتب السنة مما وقع قبل نزول السورة الكريمة ، وما وقع بعدها للنبي ﷺ وما وقع وما يقع لكل داع إلى الحق من لدن أن كانت الدنيا إلى أن تزول ، والذي يهدينا إلى استبصار هذا التأويل هو اختصاص السورة بسرد قصة موسى عليه السلام من لدن أن كان في بطن أمه إلى أن ظهر أمره في سياق الملاطفة ، كما تدل عليه تراكيب القصة باستبصار نظائرها في سياقاتها .

وقوله : ﴿ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ ـ مع أن القرآن تذكرة للناس كافة ـ ينبهنا إلى ما اختصت به السورة من أوصاف من يخشى مدرجة في سياق الملاطفة ، الذي يستبصر بتنظيرها بنظائرها في الذكر الحكيم ، وقد ألمع الزمخشري إلى هذا السياق بقوله : « ما بعد تنزيلا ... إلا قوله : ﴿ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ تعظيم وتفحيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته »[1] .

أتبصر أن هذه الآيات الخمسة تفسير لاختصاص التذكرة بمن يخشى؟ ولكن ماذا ترى لهذه الآيات من خصوصيات سياق الخشية في مقصود الملاطفة؟ ماذا في اختصاص هذا السياق بوصف السموات بـ ﴿ ٱلۡعُلَى ﴾ مع أنه مستفاد بقوله : ﴿ تَنزِيلٗا ﴾ وبقوله : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا ﴾ ألست ترى أن هذا الوصف مع دلالته على الخشية يدل على الملاطفة ويشرح صدر المحبوب المجتبى ، وبصيرة أخرى أظهر وأقوى وأقهر في قوله في هذا السياق ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) الذي اختصت به السورة هو تقديم

(١) الكشاف ٢/٥٢٩ .



قوله : ﴿ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ على قوله : ﴿ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ على عكس ما جاء في الذكر الحكيم كله ، زيادة في إظهار العلو والقهر ، وتذكيرا بالعقاب وإلماعا إلى التملك والجبروت ، اقتضاء لسياق ﴿ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ وماذا للملاطفة في هذا التركيب الذي يتعاظم إرهابه وتهديده؟

تختص هذه الآية دون نظائرها[1] بعود الضمير في ﴿ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ إلى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ مع استبصار خصوصيات هذا الاسم الجليل كما مضى في سورة مريم ألست تبصر أن هذا المقصود فيه نور من سياق الرحمة في مريم؟ وأن السياق هنا تهديد في ملاطفة وتعنيف في رفق؟ وآيات نسبة ملكية السموات والأرض لا تخلو معظم سور القرآن منها ، وتشاركها آية سورة طه ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ (طه:٦) تفترق عنها جميعا بقوله : ﴿ وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ فما حاجة هذا السياق إلى هذه الكلمة التي انفصلت بها هذه الآية عن نظائرها في الذكر الحكيم؟ على أن الثرى قد سبق ذكره ضمنا في الأرض ، والذي أبصره أنه تخويف في ملاطفة يفسر لنا كثيرا من خصائص السورة ، فعلماء السلف يتأولون الثرى بالندى « يقال للتراب الرطب المبتل ثرى . . . عن قتادة : كل شيء مبتل »[2] فهي طبقة الإنبات في الأرض ، وعلى الإنبات تقوم حياة الناس والدواب ، ثم إن هذا اللفظ جاء فيه ذكر الماء ضمنا ، وكل ذلك إلاحة إلى تضييق المعاش لمن يعرض عن هذا المنزل تذكرة،وفيه إلاحة إلى البعث،

---

(١) الأعراف ٤٥، يونس ٣، هود ٧، الرعد ٢، الفرقان ٥٩، السجدة ٤، الحديد ٤، قال تعالى في الحديد ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ . . . ﴾ .

(٢) جامع البيان ١٦/١٠٥ .

وفي هذا السياق يفسر اختصاص السورة بقوله : ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ (طه:٥٥) وقوله في قصة آدم : ﴿ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾ (طه:١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩) ويتعالى صدى هذه اللطيفة في قوله : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ (طه:١٢٣) الذي قال في نظيره ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (البقرة:٣٨) ثم وضع الذكر الحكيم معلما مباشرا لهذه العلاقة لتبصر هذه الخصائص في نور قوله : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ (طه:٢، ٣) بعدما عرض لذكر شقاء آدم ذلك قوله : ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ (طه:١٢٤) وهم يتأولون الذكر بالقرآن[١] بناء على جريانه في السورة في نحو قوله : ﴿ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴾ (طه:٩٩) .

وقد استبعد الأئمة وقوع الضنك في الآخرة ، ورجحوا أن يكون ذلك في الدنيا أو في القبر[٢] ، فهذا شيء من نمط سياق الخشية في مقصود الملاطفة ، ترى نوره يبصرك بأسرار اختلاف نظم القصص .

وإخبار الله عن نفسه بمعرفة الجهر والسر شائع في الذكر الحكيم إلا أنك لا تجد كقوله : ﴿ وَأَخۡفَى ﴾ (طه:٧) وهو من نور الخشية في سياق الملاطفة ، وترى معالم ظاهرة اختصت بها هذه السورة تكشف لك هذا

---

(١) مسائل الرازي ص٣١٠ .

(٢) يراجع جامع البيان ١٦٣/١٦ وما بعدها .

الخيط الدقيق في مثل قوله : ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ (طه:٦٢) وكان المقتضى (وأسروا التنازع) إلا أن ذلك دل على المبالغة في كتمانهم أمرهم ، وكان السياق هو الذي فسر لنا معنى السر ، وهو أيضا الذي يفسر لنا ما هو أخفى من السر فيها اختصت به السورة من قوله : ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ (طه:٦٧، ٦٨) وفي تقديم المجرور ما يترجم عن شدة إخفائه مع ما في التعبير بأوجس من هذه الدلالة أيضا ، ويمتد إشعاع هذا الخيط ونوره إلى وصف مشاهد الآخرة ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۝١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (طه:١٠٣، ١٠٤) الذي لا تجد له نظيرا في الذكر الحكيم على شيوع مشاهد القيامة .

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام دائرة في نور المطلع وما تعلق به من آى ، كما سنحاول ـ في عجالة ـ كشف شيء منه ، وقد علل الأئمة لورود قصة موسى عقب هذه الآيات بعلل مجملها تأسى النبي ﷺ بموسى عليه السلام إذ إنه أشد الأنبياء فتنة وبلاء ، والتعريض بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه[1] .

والقرآن بهذا الكلام اللفظى يعقد بين قصة موسى والمطلع وما ساق إليه بحرف العطف ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ ﴾ (طه:٩) ويظهر أسلوب الملاطفة في قصته بتنظيرها بنظائرها ويظهر أسلوب الخشية فيما أخبر به عن فرعون بموازنته بما جرى في السور الأخرى أيضا ، والمعلم الدال الذي ينبهنا إلى استبصار أسلوب القصة في نور المطلع وما انساق إليه هو قوله في أول

---

(١) يراجع مفاتيح الغيب ٥٣٨/١٠، وتفسير البيضاوى ٤٦/٢، والصاوي على الجلالين ٤٩/٣، والتحرير والتنوير ١٨٢/١٦ .

القصة الذي أوقعه بدلا مطابقا للوحى الذي يلفتنا بهذا البناء إلى قولـه : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ﴾ (طه:٢) ذلك هو قوله : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (طه:١٣-١٦) ولا نظير لذلك في قصة موسى عليه السلام في الذكر الحكيم .

وآيات الإخبار عن الساعة شائعة في الذكر الحكيم إلا أنك لا تجد كقوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ وهو ـ فيما رجحوا ـ بمعنى أظهرها ، وله من زيادة التخويف ما ترى لاسيما أنه عقد على ذكرها جملة بلام الغرض لا نظير لها في آيات ذكر الساعة ساق إلى ذكرها سياق الخشية ذلك قوله : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[1] .

وهذا الموقف ، وسياق هذه الآيات هذا المساق في بداية الوحي بهذا التشابه بينها وبين المطلع وما ساق إليه ، ثم قول موسى عليه السلام في نهاية القصة ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه:٩٨) بعد هذه الرحلة المصورة لدعوته ، وما يفيده قوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه:٩٨) من النظر إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ (طه:١٥) الذي ينظر إلى قوله : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ ﴾ (طه:٧) الذي ينظر إلى المطلع ، وَضْعُ القصة بين هذين الإطارين مؤذن ، بتشارب تراكيبها من نور المطلع ، والذي يغري بقبول هذا الملمح هو ما يلفتنا إليه قوله عقب القصة

---

(١) لاستبصار هذه الخصيصة يراجع مثلا : الأنعام ٣١، الأعراف ١٨٧، يوسف ١٠٧، الحجر ٨٥، النحل ٧٧، الكهف ١١، الأنبياء ٢٩، الحج ١، ٧، ٥٥، لقمان ٣٤، الأحزاب ٦٣، سبأ ٣، غافر ٥٩، الزخرف ٦١، ٨٥، القمر ١، النازعات ٤٢ .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴾ (طه:٩٩) وهو ينبهنا إلى أن ننظر بالقصة وأساليبها وتراكيبها إلى قوله : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ (طه:٢،٣) .

على أن الأئمة يفسرون الذكر في هذا الموضع بالقرآن[1] ، وكأنى بالقرآن الكريم يتعالى صدى تراكيبه في السورة يقول : ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ كما لم نوح إلى موسى ليشقى لاسيما أن ذكر القصة قد بني على الوحي وعلى قوله : ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ (طه:٢٤) الذي كان من أجله الوحي ، وكان من ملاطفة الله نبيه موسى حديث العصا الذي اختصت به السورة ، وما يحيكه من إيناس الله له ، وكان سياق الملاطفة هو الذي قضى بقلب وضع القصة بعد بيان قصة الوحي ودعاء الله موسى ربه بقوله : ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ۝٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ ﴾ (طه:٣٧-٣٩) ويظهر نور سياق الملاطفة بموازنته بما جاء في سورة القصص : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ (القصص:٧) ، فالمقام هنا مقام تلطف الله لتثبيت قلب نبيه بتذكيره بالعناية الأولى ـ وهو غير سياق سورة القصص ـ لذا رأيت هنا تهويل الحدث وتفخيمه ﴿ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ الذي تناسب معه تكرار القذف ﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ الذي يتناسب معه الإخبار عن آخذه بقوله : ﴿ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ ﴾ والأمر على غير ما ترى في سورة القصص ، وكل ذلك التهويل والتفخيم ينمحي بقوله :

---

(١) الطبري ١٥٤/١٦، والقرطبي ٤٤١٧/٦، وابن كثير ١٦٤/٣ .

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (طه:٣٩) رعاية ولطفا لا تراهما في سورة القصص ، وإنما جاء هذا الأسلوب بعد ذكر الوحي كما قال ابن عاشور ليعلم أنه لما كان بمحل العناية من ربه من أول أوقات وجوده فابتدأه بعنايته قبل سؤاله فعنايته بعد سؤاله أحرى ، ولأن تلك العناية الأولى تمهيد لما أراد الله به من الاصطفاء والرسالة .

وقد أبصر تاج القراء الفرق بين قوله هنا : ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ ﴾ (طه:٤٠) وقوله في القصص ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ ﴾ (القصص:١٣) في نور سياق الملاطفة فيما يقول : معللا « لأن الرجع إلى الشيء والرد إليه بمعنى ، والرد على الشيء يقتضي كراهة المردود ، ولفظ الرجع ألطف فخص بطه وخص القصص بقوله : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ ﴾ تصديقا لقوله : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ »[1] .

وبعد التذكير بهذه المنن التي تلخص حياة موسى عليه السلام قبل الوحى حسبما ورد في الذكر الحكيم يقرر القرآن أن هذا اللطف من الله كان اصطناعا لموسى من الله لأجل الرسالة : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ (طه:٤٢) ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ (طه:٤٣) مدمجا في ذلك ما ترقى إليه الأسلوب بإجابة سؤله عليه السلام والذي يغريك بأن القصة في سياق الملاطفة والخشية هو اختصاص القصة هاهنا بقوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٤٤) ضعها إذن ثابت الفؤاد في نور قوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٢،٣) وقارن ورودها هاهنا بورودها في سورة النازعات[2] تبصر ما فيها من نور السياق الذي نحاول استبيانه .

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ص ١٣٨، ١٣٩ .

(٢) النازعات ١٧، ١٨، ١٩ .



وقد علل الأئمة في هذا النور للفرق بين قوله هنا : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ (طه:٥٣) وقوله في الزخرف : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ (الزخرف:١٠) وحسب تاج القراء أن ينبهنا إلى أن كلا جاء على أسلوب سورته فيما يقول : «لأن لفظ السلوك مع السبيل أكثر استعمالا به فخص به طه ، وخص الزخرف بجعل ازدواجا للكلام وموافقة لما قبلها وما بعدها»[1] وكان ابن الزبير ـ في بيانه للعلة ـ ناظرا إلى نور المطلع حسبما قرره كما نقلناه فقال : «فى آية طه مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله ـ عز وجل ـ على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ . . . ﴾ فلما بنى الكلام على هذا ، وأعقب بقوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ . . . ﴾ ولا إشكال في أن هذا من التلطف والرفق في الدعاء ناسب العبارة بسلك عما أنهج تعالى من السبل والطرق وهي منبئة عما تعطيه جعل في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح ، وكمال التهيئة فهي أنسب لما قصد في هذه السورة»[2] .

ألا ترى أن قوله : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ (طه:٦٩) تنبهنا إلى أن خوف موسى كان ظنا بأنهم أوتوا من الخصائص ما أوتيه ساعة الوحي تناسبا مع قوله ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:١٧) بالنظر إلى قوله : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ (الأعراف:١١٧) وقوله : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ﴾ (الشعراء:٤٥) وبقرينة : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٦٦) وقال ساعة الوحى : ﴿ فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ (طه:٢٠) ألا ترى سياق الملاطفة منورا لقوله : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ ومؤانسا لفؤاد موسى عليه السلام .

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ص١٣٩ .

(٢) ملاك التأويل للغرناطي ٢/٨٢٤ .

مع بصرنا بما تقدمه من قوله : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (طه:٦٨) لأنه وحى ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ (طه:٤) وقد عللوا لاختصاص السورة بتقديم هارون على موسى بأن ذلك وقع «للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه ، حيث كان فرعون رب موسى عليه السلام فلو تقدم موسى لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون ، وتقديمه في سورة الأعراف تقديم في الحكاية لتلك النكتة .

وجوز أبو حيان أن يكون ما هنا قول طائفة منهم ، وما هناك قول أخرى ، وراعى كل نكته فيما فعل ، لكنه لما اشترك في المعنى صح نسبة كل منهما إلى جميع واختيار هذا القول هنا ، لأنه أوفق بآيات هذه السورة»[1] أى بسياق الملاطفة بإظهار المنة المتقابلة مع اختصاص القصة هاهنا بقوله : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (طه:٦٠) .

وقد ترجم القرآن عن مدى هذا الكيد ومنتهى هذا الغيظ بما عبر به فرعون في توعده السحرة باستخدام حرف الوعاء مكان حرف الاستعلاء ، تشبيها «لتمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه»[2] وكما قال أحد أهل العلم «تعبيرا عن شدة الأخذ وعدم الرحمة بالمصلوبين ، جاء حرف الوعاء دالا على أنهم سيشدون إلى الجذع شدا بالغ القوة والقسوة ، حتى ليكاد المصلوب يواريه الجذع ويشتمله»[3] ، لذا لم يوجد هذا الحرف في نظيريها في الأعراف والشعراء .

---

(١) روح المعاني ١٦/٢٣٠ .

(٢) الكشاف ٢/٥٤٦ .

(٣) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص١٢٧، دكتور محمد الأمين الخضرى ، مكتبة وهبة .

وقد علل البقاعي في نور المقصود المجمل في المطلع لحذف لفظ (فرعون) في قوله : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ ﴾ (طه:٧١) إذا ما قورن بما جاء في غير هذا الموضع(١) ـ بقوله : « ولما كان موسى عليه السلام هو المقصود بالإرسال إلى فرعون ، استأنف ـ تعالى ـ الإخبار عن فرعون عندما فجأه ذلك فقال : (قال) أى فرعون للسحرة منكرا عليهم ، وأضمر اسمه هنا ، ولم يظهره ـ كما في الأعراف ـ لأن مقصود السورة الرفق بالمدعوين والحلم عنهم ، وهو غير متأهل لذكر اسمه في هذا المقام »(٢).

ومما هو ظاهر المناسبة والتواصل بالمطلع مما اختصت به القصة قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه:٨٣) فهو متواصل مع قوله : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ بقرينة ما قال في القرآن بعد في قوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ (طه:١١٤) ، وكان ذلك مما يسبب شقاء للنبى ﷺ كما بينه قوله ـ سبحانه ـ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٦-١٩) وهو بمقارنته بقوله ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ ﴾ يبين خطر العجلة بالقرآن .

وترى نور سياق الملاطفة في قول هارون هاهنا : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (طه:٩٤) وقد جمعها الأمر بالملاطفة من قبل ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه:٤٤) وقد جاء في أسلوب الأعراف في سياق

---

(١) الأعراف ١٢٣، والشعراء ٤٩، وهو المتوافق مع ما في الشعراء إلا أنا نقلناه لبيان بصيرة البقاعي في النظر إلى المطلع .

(٢) نظم الدرر ٣١١/١٢ .

الإنذار والتذكير ـ وفيه تقارب مع هذا السياق ذاكرا قصة جر موسى لحية أخيه ، وكان قول أخيه هناك : ﴿ **قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الأعراف:١٥٠) وكثير من ألفاظ وأساليب السورة ينبهنا إلى وحدة هذا السياق ، ألا ترى أن قوله ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا** ﴾ (طه:١١٥) ينظر إلى قول موسى لبنى إسرائيل ﴿ **قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا** ﴾ (طه:٨٦) وكل ينظر إلى سياق الملاطفة في المطلع ، ويستأنس بقول البقاعي عند قوله ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَآ** ... ﴾ فيما يقول : «ولما كان المقصود من السورة ـ كما سلف ـ الإعلام بالحلم والأناة والتلطف بالنائي والقدرة على المعرض ، ذكر فعلة آدم عليه السلام في هذه السورة بلفظ المعصية مع التصريح بأنها على وجه النسيان ، وذكر ذلك أولا مجملا ثم أتبعه تفصيله ، ليكون ذلك مذكورا مرتين ، تأكيدا للمعنى المشار إليه»[1].

ومما هو ظاهر المناسبة بما جاء في قصة موسى ، وكل متواصل مع المطلع قوله : ﴿ **فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** ﴾ (طه: ١٣٠) وهو ينظر إلى قول موسى : ﴿ **كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا** ﴾ (طه:٣٣، ٣٤) الذي ينظر إلى الوحى ﴿ **وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ** ﴾ (طه:١٤) وهو ناظر إلى المطلع كما سبق بيانه ، وكذلك قوله : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا** ﴾ (طه:١٣٢) وهو أمر بملاطفة المدعوين والترفق بهم ، على الوجه الذي أمر به موسى عليه السلام : ﴿ **فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا** ﴾ (طه:٤٤) .

(١) نظم الدرر ١٢/٣٥٥ .



ثم عرض شيئا مما كان يسبب شقاءه وبعد سياق الملاطفة ﴿ **وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ** ﴾ (طه:١٣٣) ، «ووجه اختيار الصحف هنا على الكتب أن في كل صحيفة من الكتب علما ، وأن جميعه حواه القرآن فكان كل جزء من القرآن آية ودليلا»[1] .

وقد عرض قصة موسى عليه السلام بكل أحداثها ، والحدث الذي لم يفصله ذكر من الألفاظ ما يشير إليه في مواضعه في الذكر الحكيم ، يستأنس لذلك مثلا بقول الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿ **وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ** ﴾ (طه:٧٩) ، فيما يقول : قوله : ﴿ **وَمَا هَدَىٰ** ﴾ «تهكم به في قوله : ﴿ **وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ﴾ »[2] يشير ـ رحمه الله ـ إلى ما في سورة غافر ، وزاد ابن عاشور إلى أنه تلميح إلى ما في هذه القصة من قوله : ﴿ **وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ** ﴾ (طه:٦٣) ثم يقول : «فيكون من التلميح إلى لفظ دفع في قصة مفضيا إلى التلميح إلى القصة»[3] وذلك يرجح ما رآه من نكتة التعبير بالصحف .

ثم ختم السورة بما يرفع الحرج والشقاء عن النبي ﷺ ﴿ **وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم** . . . ﴾ (طه:١٣٤، ١٣٥) فنظر بذلك إلى المطلع ، وكانت تراكيب السورة تتشارب من ماء واحد كما حاولنا استبيانه ، وقد علق السيد الألوسي عند الخاتمة بقوله : «وما أشد مناسبة هذه الخاتمة للفاتحة ، وقد ذكر الطيبي أنها خاتمة شريفة ناظرة إلى الفاتحة ، وأنه إذا لاح أن القرآن أنزل لتحمل تعب الإبلاغ ولا تنهك نفسك فحيث بلغت وبلغت جهدك فلا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٤٥/١٦ .

(٢) الكشاف ٥٤٧/٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧١/١٦، ٢٧٢ .

عليك ، وعليك بالإقبال على طاعتك قدر طاقتك وأمر أهلك ، وهم أمتك المتبعون بذلك ، ودع الذين لا يتجمع فيهم الإنذار ، فإنه تذكرة لمن يخشى ، وسيندم المخالف حين لا ينفعه الندم»[1] .

وقال ابن عاشور عند الخاتمة : «ومن محاسنها أن فيها شبه رد العجز على الصدر ، لأنها تنظر إلى فاتحة السورة وهى قوله : ﴿ **مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾ لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال ، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدر أنه أدى الرسالة والتذكرة ، فلم يكونوا من أهل الخشية»[2].

وما حاولناه في السورة كان اهتداء ببصائر الأئمة .

فلله الحمد على ما وفق .

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٨٧/١٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٩/١٦ .

الباب الثالث

السور المفتتحة بالجملة الخبرية وعلاقاتها بمقاصدها

- الفصل الأول : (الافتتاح بالجملة الخبرية لفظاً ومعنى) .
  - المبحث الأول : سورة الأنفال .
  - المبحث الثانى : سورة التوبة .
  - المبحث الثالث : سورة النحل .
  - المبحث الرابع : سورة الأنبياء .
  - المبحث الخامس : سورة المؤمنون .
  - المبحث السادس : سورة النور .
- الفصل الثانى : الافتتاح بالثناء في سور (الأنعام ـ الإسراء ـ الكهف ـ الفرقان)
- الفصل الثالث : (الافتتاح بالدعاء في سورة المطففين) .
- الفصل الرابع : (الافتتاح بالتعليل في سورة قريش) .
- الفصل الخامس : (الافتتاح بالشرط في سورة الزلزلة) .

الفصل الأول

الافتتاح بالجملة الخبرية لفظاً ومعنى

المبحث الأول : سورة الأنفال .

المبحث الثانى : سورة التوبة .

المبحث الثالث : سورة النحل .

المبحث الرابع : سورة الأنبياء .

المبحث الخامس : سورة المؤمنون .

المبحث السادس : سورة النور .

المبحث الأول

سورة الأنفال

تروى أسباب عديدة بشأن مطلع هذه السورة أولها ما نسب إلى عبادة ابن الصامت أنه قال : « لما هزم العدو يوم بدر واتبعتهم طائفة يقتلونهم ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ واستولت طائفة على العسكر والنهب ، فلما نفى الله العدو ، ورجع الذين طلبوهم ، وقالوا ، لنا النفل بحسن طلبنا العدو ، وبنا نفاهم وهزمهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : والله ما أنتم بأحق به منا ، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غرة ، فهو لنا ، وقال الذين استولوا على العسكر والنهب : والله ما أنتم بأحق به منا نحن أخذناه ، واستولينا عليه ، فهو لنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** . . . ﴾ (الأنفال:١) »[(١)].

ذلك هو مطلع السورة الكريمة الذي بنوره تتكشف طرائق المباني الدالة على معاني هذه السورة ، المتعانقة في سبيل الوفاء بمقصودها وقد أضاء سبب النزول ، ومناسبة السورة لما قبلها ، وتسميتها سبيل التعرف على مقصودها ، يتلفت ابن الزبير في الكشف عن المناسبة إلى قوله تعالى : ﴿ **وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ** ﴾ (الأعراف:١٧٦) .

---

(١) أسباب النزول ص ١٧٣ .

فيقول : « فأشار ـ سبحانه ـ إلى أن اتباع الأهواء أصل كل ضلال ، نبهوا على ما فيه من الحزم،من ترك الأهواء جملة،فقال تعالى:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ. . . ﴾ فكأنه قد قيل لهم : اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم ، وفوضوا في أمره الله ورسوله ، ذلك أسلم لكم وأحزم في دفع أغراضكم »(١).

ثم يقول : ناظما ذكر أحوال بني إسرائيل من سورة البقرة إلى هنا ـ « فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة ، وبين فيها اعتداؤهم وبناؤه على اتباع الأهواء ، والهجوم على الأعراض طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة فقيل في آخر السورة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (الأعراف:٢٠١) ثم افتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق ، وإليه سبب يقيم عذرهم شرعا فيما كان منهم ، فكأنه قد قيل لهم : ترك هذا أسلم ، وأبعد عن اتباع الهوى ، فسلموا الحكم في ذلك لله ورسوله ، واتقوا الله ثم تناسج السياق »(٢).

وسبب النزول يكشف لنا التنازع فيما لهم به تعلق ، اعتقادا بتملكهم أسباب تحصيله وقد جاء السؤال كاشفا عن التنازع ، وجاء الجواب صارفا إلى مقصود السورة ، مرتبا على المقصود أوامر تناسج فيها السياق كما ذكر ابن الزبير ، وكلمته تلك لها خطرها في تفهم جريان هذا النسيج الذي في السورة ، وتبصر طرائقه ، وتبين تلاحمه حتى صار معجزا بذات مبانيه ومطاوي معانية .

وكان ما ذكرناه من سبب النزول ، ومن كشف التناسب بين السورتين هاديا بصيرة البقاعي ـ مع ضميمة اسم السورة ـ إلى بيان مقصود هذه

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٠٠ .
(٢) البرهان لابن الزبير ص ١٠٤ .

السورة الأعظم يقول : رحمه الله «ومقصودها : تبرؤ العباد من الحول والقوة ، وحثهم على التسليم لأمر الله واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده ، وأن الإنسان ليس له فعل يثمر ذلك الاعتصام بأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة ، المثمر لنصر الدين وإذلال المفسدين المنتج لكل خير والجامع لذلك كله أنه كما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله والاجتماع عليه ـ لما ثبت من تفرده واقتداره ـ كان مقصود هذه السورة بإيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان والتسليم والرضا ، والتبرؤ من كل حول وقوة إلى من أنعم بذلك كله ، ولو شاء سلبه .

وأدل ما فيها على هذا المقصود قصة الأنفال التي اختلفوا في أمرها ، وتنازعوا في قسمها ، فمنعهم الله منها ، وكف عنهم حظوظ الأنفس ، وألزمهم الإخبات والتواضع ، واسمها الجهاد كذلك ، لأن الكفار دائما أضعاف المسلمين وما جاهد قوم منا قط إلا أكبر منهم ، وتجب مصابرة الضعيف فلو كان النظر إلى غير قوته ـ سبحانه ـ ما أطيق ذلك»[1] .

وإن تعددت معاني هذه السورة فهي جميعا جارية في رافد واحد هو تبرؤ العباد من الحول والقوة ، وحثهم على التسليم لأمر الله والأنفال أدل شيء على هذا الغرض في سورة الأنفال ، فهي قطب السورة وعمودها ، لذا ذكرت في مطلعها على وجه التنازع فيها ثم عاد الحديث عن قسمها في منتصف السورة الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ** . . . ﴾ (الأنفال:٤١) .

والسياق في كل هذا يتواصل في إطار واحد هو تبرؤ العباد من الحول والقوة «ولقد حرص النظم القرآني أن يبرز الأنفال في مطلع السورة تعبيرا

(١) مصاعد النظر ٢/١٤٦، ١٤٧ .



عن الظفر والنصر الذي حققه البدريون ... ففي المقدمة براعة استهلال »[1] .

والسورة بهذا المقصود ـ الذي قرره البقاعي ـ والذي تظاهره تراكيب السورة ـ تعد جزءا من سورة آل عمران التي مقصودها التوحيد الذي من مقتضياته حياة الله وقيوميته كما قررنا ، استنباطا من كلام الأئمة[2] فمن مقتضيات الإيمان بالقيومية الثقة والتوكل والتسليم والتبرؤ من الحول والقوة . ولنا معالم دالة في الذكر الحكيم على ما تبصرناه ، فقصة بدر لم تذكر إلا في سورة آل عمران وسورة الأنفال ، وتشابهت الحلقة المذكورة في سورة التوحيد من غزوة بدر ، مع نظيرتها في سورة التبرؤ من الحول والقوة ، كما سنحاول في موازنة التراكيب المذكورة منها في السورتين .

ولعلك تجد معلما آخر في آيتين اشتبه نظمهما في السورتين وقد اختصتا بهما دون سور الذكر الحكيم في قوله تعالى في آل عمران ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (آل عمران:١١) وقوله تعالى في الأنفال مرتين : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٥٢) .

ثم قوله : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ (الأنفال:٥٤) كأن وجود مثل هذه التراكيب والتشابه دلالة على تقارب السياقات وتقارب التراكيب في الموضعين ، وهذا الذي نظن تتظاهر عليه التراكيب كما سيظهر .

---

(١) بلاغة القرآن الدكتور العبيسى ص ١٨ .

(٢) انظر : سورة آل عمران من هذا البحث .



ولئن كان سبب النزول معينا في الكشف عن تراكيب المطلع الذي جاء موائما لمقامه ، فدلالة تركيب المطلع على مقصود السورة وتواصله مع دلالة باقية بقاء خالدا في هيئة مبانيه .

فقد جاء السؤال بصيغة المضارع «ومجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرر السؤال ، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين ، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد ، ولذلك كان قوله : ﴿ **يَسۡـَٔلُونَكَ** ﴾ مؤذنا بتنازع بين الجيش في استحقاق الأنفال»[1] وذلك التنازع جاء تبعا لما ظن كل فريق من تسببه في تحصيل المسئول عنه (الأنفال) وذلك ادعاء الحول والقوة في تحصيله ينبني عليه عدم التفويض والتسليم في المتحصل بحولهم وبقوتهم ، وذلك أمر ظاهر في الجواب ولعل التنازع كان شديدا ، والتسليم كان بعيدا ، فلم يأت الجواب بالقسمة ، وإنما جاء نازعا الأنفال من المتنازعين فيها معلما لهم التسليم والتفويض مذكرا إياهم أنها ما تحصلت لهم بحولهم وقوتهم ، فكان الجواب ﴿ **قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ** ﴾ ولما كانت الأنفال أول شيء لهذا الغرض أعادها بلفظها ، وذلك من وضع الظاهر موضع المضمر ، تنبيها لأهميته فلم يكن النظم قل هي لله والرسول ، وشيء آخر في هذا التركيب هو أن تكون تلك الطريقة في الأنفال عامة فلو قال (هي لله والرسول) لظن ـ بقرينة أن أل التي في الأنفال الأولى للعهد ، إذ هي أنفال بدر ـ أن التسليم إنما هو في أنفال بدر ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، ليكون ذلك القانون في الأنفال بعامة ، وذلك أنسب لمقصود السورة .

---

(١) التحرير والتنوير سورة الأنفال ص ٢٤٩ .

هذا التواصل بين السؤال والجواب في المطلع يقرر مقصود السورة وتتناغى تراكيبها معه ، وتدور تراكيب هذه السورة على نفـي الـدعـوى ـ الحول والقوة ـ التي أدت إلى التنازع ، الذي نم عنه السؤال في مطلع هذه السورة ودوران التراكيب على اقتلاع أصل التنازع بهذه الهيئة لا يقع إلا من خالق ، تدبر معي ماذا لو قال ربنا : يسألونك عن الأنفال قل ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ... . لا ريب أن ارتضاءنا ما مضى من فاسد القول يسقط الآيات التي بين آيتي الأنفال والآيات التي وليت آية تقسيمها فتوزع الحديث عن الأنفال تنبيه إلى توحد مقصود السورة ، وأن ليس القصد من ذكرها تقسيمها ، فذلك أمر تنهض به الآية الثانية وحدها .

وقد ترتب على هذا الجواب الذي ساق الله إلينا شيئا من فيض دلالـتـه ـ ولا يزال ـ فيما أرى ويرى غيري ـ كنزا مغلقا وسرا مكتما إلى أن يرفعه الله إليه ـ ترتبت عليه جمل تواصلت تواصلا يكشفه من له معرفة بنحو اللغة وبلاغتها ـ جاءت جمل مرتبة على الجواب هي ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ــ أَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ــ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ــ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ وقد تعاطفت الجمل الثلاث الأول ، ولكل جملة صداها في تراكيب السورة ، مع ملحظ مهم هو ترتبها جميعا على الجواب الذي يطوي مقصود السورة بالفاء ﴿ **فَٱتَّقُواْ** ﴾ وتنهض الجملة الرابعة بمهمة أخرى ، مع تواصلها مـع ما قبلها ، فقد وقعت على سبيل التذييل وجاء جواب الشرط محذوفا ليصطحب ما قبله في تقديره ـ وذلك أمر من الإيجاز عجيب فلعـل التقدير : إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله وأصلحوا ... فهو كما يقولون « شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه »[١].

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/١١٦ .



وماذا لو لم تأت الأوامر الأولى بالفاء وقيل : قل الأنفال لله والرسول واتقوا الله ... وقد يكون الجواب على ما ذهب إليه «أبو العباس المبرد وغيره أطيعوا الله السابق ، إذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط ، والصحيح ما ذهب إليه سيبويه وهو أنه محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وفيه تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال»[1].

وتأخير هذا التذييل أنتج سؤالا مؤداه هل هناك امتراء في إيمانهم؟ فجاء الجواب واقعا من سابقة موقع شبه كمال الاتصال كما اصطلح عليه أهل الفن ، وهذا الجواب «استئناف مسوق لبيان صفات المؤمنين ، فهو كالدليل لما قبله»[2] وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ** ... ﴾ (الأنفال:٢) ولا يعنى ذلك ضعف إيمانهم ، وإنما المراد كمال الإيمان ، لأن اللام في (المؤمنون) لام الكمال ، واستدل الزمخشري[3] لكونها كذلك بقوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ (الأنفال:٤) ويتوالى الحديث عن صفات المؤمنين وجزائهم ثلاث آيات ، وكان التذييل واصلا إياها بالمطلع .

ثم جاء التشبيه حاذفا المشبه معولا على استنباطه من السياق ومستقر المشبه في مطلع السورة ، كما تأوله العلماء ، تأمل هذا الرابط البلاغي العجيب ، فيه يتحدر الأسلوب دائرا في مقصود السورة الذي هو نفي الحول والقوة ، فكأن الكلام لئن تنازعتم في الأنفال ، فلقد تنازعتم قبل ذلك في مجرد التفكير في غزة بدر ، وكرهتم لذلك فكان خيرا لابتنائه على التسليم لله والرسول حينئذ ، فلا تكرهوا التسليم في كل ما أنتجه هذا الخروج ، تأمل كيف يعالج القرآن هذه الدعوى .

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٢٢٥ .

(٢) الصاوي علي الجلالين ٢/١١٦ .

(٣) انظر الكشاف ٢/١٤٢ .



يؤيدنا في هذا الفهم ما عزاه ابن جرير إلى بعض نحوي الكوفة في الآية فقد قالوا : «ذلك أمر من الله لرسوله ﷺ أن يمضي لأمره في الغنائم ، على كره من أصحابه ، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير ، وهم كارهون ، وقال آخرون منهم : معنى ذلك يسألونك عن الأنفال مجادلة ، كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجتنا للعير ، ولم تعلمنا قتالا فنستعد له»(١) «قال الزمخشري : يعنى أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب»(٢) .

وهذا التباعد بين المشبه والمشبه به في النظم ، مع إشارته لاستحالة نزعه من هذا السياق ، له دلالة أخرى ، هي تصوير هذا الزمن الذي بين الأمرين التفكير في الخروج وتقسيم الأنفال ، وشيء آخر هو استحضار حالة الضعف وافتقاد أسباب ما تتحصل به هذه الأنفال ، والتشبيه مقايسة حال بحال كما ترى ، لذلك جاءت مظاهر الكراهة واقعة من التشبيه موقع شبه كمال الاتصال ، «كأن سائلا سأل فقال : ما مظاهر كراهة هذا الفريق؟ فقيل : يجادلونك»(٣) وذلك لاستذكار حال المنازعة في الأمرين ، ثم ـ اقتضاء لنفى الحول والقوة ـ جاء تشبيه يصور حالهم في المجادلة حينئذ وكل ما نذكره من خصائص هذه السورة .

فقد كانوا في الخروج ﴿ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** ﴾ (الأنفال:٦) وذلك التشبيه من عطاء التشبيه الأول ، ووفرته وخصوبته ، وظاهر بهذا التشبيه حال القوم في عدم الثقة بالنصر ، لضعف أسبابه لديهم

---

(١) جامع البيان ١٢٢/٩ .

(٢) الكشاف ١٤٣/٢ .

(٣) مع بلاغة القرآن ص٤٤ .



وعناصر التشبيه وصياغته جاءت اقتضاء للغرض ، أرأيت كيف ظهر بالتشبيه أن القوم طلبوا بغير سبب ، وادعوا بغير حجة وتنازعوا بغير حق ، ولذلك خطره في نفي الحول وتعلم التفويض إنه القرآن لا غير هو الذي يستطيع أن يقول هذا الإعجاز ، ثم جاءت بعد ذلك (إذ) وما أدراك ما إذ؟ في استحضار ماضي الأحوال وسالف الحادثات ، لتقع في اثنى عشر موضعا من[1] السورة ولكل موقع لها هاهنا قصة من المعاني ، وفيوضات من الخواطر ، تتآخى جميعا في سبيل نفي الحول وتعلم التسليم ذلك المقصود الأعظم للسورة تدبر في هذا الإطار موقع (إذ) الأولى ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**. . . ﴾ (الأنفال:٧) .

تدبر كيف فضح المتنازعين في الأنفال أمام أنفسهم ، وذلك بتذكيرهم بهذا الخوف وعدم الثقة ـ فرضا ـ بوعد الله ، تدبر كيف أباح القرآن بمكنونهم ﴿ **وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** ﴾ لم ودوا هذا؟ هذه الكتابة التي هي من خصائص السورة ، فإيثار القرآن هذا التعبير ﴿ **غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ** ﴾ له إيحاءاته في هذا الموقع في تصوير خوفهم من العدد والعدة التي يمتلكها الكفار مما يجعل القتال حديدا ، إن هذا التعبير يتناغى مع التشبيه السابق الذي يقول عنه جار الله « ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم ، وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة ، بحال من يعتل إلى القتل ، ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن ، وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها »[2] وهل تصل حالة الخوف إلى هذا المدى الذي

---

(١) الآيات ٧، ٩، ١٢، ٢٦، ٣٠، ٣٢، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٥٠ .

(٢) الكشاف ٢/١٤٤ .

يصوره الذكر الحكيم ، إلا بالاتساع والمفارقة الهائلة لوسائل القتال بين الطائفتين ، إن التذكير بهذه الأحوال يجعل المؤمن يستحي من مجرد السؤال عن الأنفال ، لكن فرحة النصر تغري ، وتأييد الله ـ أحيانا ـ ينسي ، لعل ذلك ما كان عليه المتنازعون .

ثم تدبر ـ في ضوء ما حاولنا تمثله ـ قوله تعالى : ﴿ **إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ** . . . ﴾ وموقع الاستغاثة من مقصود السورة المذكور في مطلعها ، وقوله ﴿ **إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ** . . . ﴾ وإسهامه في طمأنة القلوب ونفي المحول حتى عن الملائكة ـ إن ظن أنها سبب النصر ـ ﴿ **إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ** ﴾ تدبر موقع معية الله وأثرها في نفي الحول وقوله ـ في إطار ما قررنا ـ ﴿ **فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** . . . ﴾ .

ولا كهذه التراكيب في الذكر الحكيم في نفي الحول والقوة ، المؤدي نفيهما إلى التسليم والتفويض ، حتى الملائكة والرسول لا حول لهم ولا قوة ، « وأكثر أهل التفسير أن الآية نزلت في رمي النبي عليه السلام القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين شاهت الوجوه ، ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء ، قال حكيم بن حزام : لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الحصاة فانهزمنا فذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ** . . . ﴾ »[1] تدبر أثر هذه التراكيب في اجتثاث أصل المنازعة ، ولا كقوله تعالى : ﴿ **وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ** ﴾ (الأنفال:٢٤) في نفي الحول والقوة

(١) أسباب النزول ص١٧٤ .



ـ لاسيما أنها تخللت الأمر بطاعة الرسول والاستجابة له والنهي عن خيانته ـ تلك الاستعارة التمثيلية التي لا نظير لها في الذكر الحكيم في هذا الإطار ، والمعنى ـ كما قال أبو حيان ـ «أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء ، والقادر على الحيلولة بين الإنسان ، وبين ما يشتهيه قلبه فهو الذي ينبغى أن يستجاب له إذا دعا إذ بيده ملكوت كل شيء»[1] وبمعنى آخر هي «تمثيل لغاية قربه ـ تعالى من العبد ـ . . أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه ، بحيث يفسخ عزائمه ، ويغير نياته ومقاصده»[2] .

ولهذه الاستعارة صدى آخر في السياق يتناغى معها ، ويتشارب من فيض دلالتها ، أعقب أمر الإعداد للجهاد في قوله تعالى :

﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ** ... ﴾ (الأنفال: ٦٠).

قيد الإعداد بالاستطاعة ، تحذيرا من التكاسل عن ذات الشوكة وتنبيها إلى تنحية الحول والقوة ، وهذا التعبير من خصائص هذه السورة ، ولئن سميت بسورة الجهاد فذلك نمط آياته وهو ـ كما ترى ـ جار في مقصودها . وبعد ذلك يأتي صدى الاستعارة التي ذكرناها ﴿ **وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣) .

والبيان كما ترى كالشرح للاستعارة ، فلا يقدر على مثل ذلك إلا من يحول بين المرء وقلبه ، وفيه ما ترى من تنحية القوة والحول عن الرسول ﷺ تدبر هذه الاستعارة وتفسيرها في ضوء قوله تعالى ﴿ **وَأَصْلِحُواْ**

---

(١) البحر المحيط ٤/٤٨١ .

(٢) تفسير أبى السعود ٤/٥٣٢، ٥٣٣ .

ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أترى أن الإصلاح يقع بغير التسليم والتفويض ، وتنحية الحول والتدبير؟

ثم تسير السورة بعد الاستعارة التي ذكرناها في هذا الإطار الذي قررناه بمثل قوله تعالى : ﴿ **وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ** ...﴾ ثم يعاود القرآن الكريم نفي الحول عن النبي ﷺ .

﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ... ﴾ (الأنفال:٣٠) ثم تجيء آية تقسيم الأنفال ناظرة إلى المطلع تدبر هذا التذييل بعد التقسيم ﴿ **إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا** . . . ﴾ (الأنفال:٤١) في ضوء التذييل الأول ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ في آية المطلع ، والتعبير بالماضي في التذييل الثاني له موقع لطيف بعد التذكير بقصة الأنفال في إطار نفي الحول والقوة .

قال العلامة ابن عاشور عند آية التقسيم هذه هي « انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال الذي افتتحته السورة ، ناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين ... والخطاب لجميع المسلمين ، وبالخصوص جيش بدر ، وليس هذا نسخا لحكم الأنفال المذكور أول السورة ، بل هو بيان لإجمال قوله (لله والرسول) »[1] .

ولعمري لم تأخر بيان هذا الإجمال إلى منتصف السورة؟ إنها علاقة الإجمال ثم التفصيل ثم جاءت (إذ) بعد آية التقسيم لتذكر المتنازعين بافتقاد كل الأسباب المادية للنصر ﴿ **إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا** . . . ﴾ ﴿ **إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً** ﴾ ثم نهاهم عن التنازع الجالب الفشل وذهاب الريح ، بتركيب آخر متقارب مع تركيب سورة آل عمران في غزوة أحد

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٥ .



في قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ . . . ﴾ (آل عمران:١٥٢) .

والنهي عن التنازع متناغ مع قوله تعالى في المطلع : ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم ... ﴾ (الأنفال:٤٧) وقد جاء هذا التشبيه « إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم ، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال ، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها ، وتنكشف مزيد الانكشاف ، إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين وذلك أبلغ في النهي ، وأكشف لقبح المنهي عنه »[(١)] .

تدبر هذا التشبيه مع مطلع السورة المؤذن بالتنازع ، مع ضميمة أنه قد جاءت تشبيهات كثيرة في الذكر الحكيم تحذر المؤمنين من التشبه بالضالين[(٢)] إلا أن هذا التشبيه من خصائص سورة الأنفال تأمل قول البقاعي ، وهو يسلسل المناسبة قائلا : « ولما ذكرهم ـ سبحانه وتعالى ـ ما أوجب نصرهم ، أمرا لهم بالثبات عليه ، ذكر لهم حال أعدائهم الذي أوجب قهرهم ، ناهيا عنه ، تعريضا بحال المنازعة في الأنفال ، وأنها حال من يريد الدنيا ، ويوشك ـ إن تمادت ـ أن تجر إلى مثل حال هؤلاء الذين محط نظرهم الدنيا فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ . . . ﴾ »[(٣)] .

فالتراكيب والأحوال تأتى مقتضيات للمقصود الذي تجمله تراكيب المطلع ، ودونك معلما آخر دالا على توحد مقصود السورة ، وتوحد

---

(١) التحرير والتنوير : سورة الأنفال ص٣٢ .

(٢) الآيات من آل عمران ١٠٥، ١٠٦، الأنفال ٢١، النحل ٩١، ٩٢، الأحزاب ٦٩، الحديد ١٦، الحشر ١٨، ١٩ .

(٣) نظم الدرر ٨/٢٩٥ .



بنائها البياني ، ففي أول السورة قال : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ وقد بينا موقعه من مطلع السورة ، يأتي آخر الأنفال ناظرا إلى هذا التركيب مكررا إياه ، فيقول الله تعالى في آخر السورة ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** . . . ﴾ (الأنفال:٧٤) .

مع ضميمة أن هذين التركيبين من خصائص هذه السورة .

ويجمل بنا ـ في إطار ما حاولنا تقريره ـ أن نقارن ـ كمثال ـ بين قوله تعالى في آل عمران ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ** ﴾ الآية (١٢٦) .

وقوله تعالى في الأنفال : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (١٠) .

وقبل محاولة الكشف عن علل فروق هذين التركيبين نذكر كلام تاج القراء ، وكلام أبي حيان في بيان هذه العلل قال تاج القراء « قوله : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ** . . . ﴾ هاهنا بإثبات ﴿ **لَكُمْ** ﴾ وتأخير ﴿ **بِهِۦ** ﴾ وحذف ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ** ﴾ وفي الأنفال بحذف ﴿ **لَكُمْ** ﴾ وتقديم ﴿ **بِهِۦ** ﴾ وإثبات ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ** ﴾ لأن البشرى هنا للمخاطبين ، فبين وقال : ﴿ **لَكُمْ** ﴾ وفي الأنفال قد تقدم ﴿ **لَكُمْ** ﴾ في قوله : ﴿ **فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ** ﴾ فاكتفى بذلك ، وقدم ﴿ **قُلُوبُكُمْ** ﴾ هنا ، وأخر ﴿ **بِهِۦ** ﴾ ازدواجا بين المخاطبين فقال ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ** ﴾ وقدم ﴿ **بِهِۦ** ﴾ في الأنفال ازدواجا بين الغائبين فقال : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ** ﴾ وحذف ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ** ﴾ هاهنا ، لأن ما في الأنفال قصة بدر ، وهي سابقة على ما في هذه السورة ، فإنها في قصة أحد ، وأخبر هناك بأن الله عزيز حكيم ، وجعله في هذه السورة

صفة ، لأن الخبر قد سبق»[1] ولست أدري كيف جعل ما في آل عمران من قصة أحد وفي آل عمران قال أبو حيان : «والمعنى إلا بشرى لكم ، وأثبت في آل عمران لأن القصة فيها مسهبة ، وهنا موجزة تناسب هنا الحذف ، وهنا قدم وأخر هناك على سبيل التفضيل والاتساع في الكلام ، وهنا جاء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ مراعاة لأواخر الآي ، وهناك ليست آخر آية ، للتعلق ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ بما قبله ، فناسب أن يأتي ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ على سبيل الصفة ، وكلاهما مشعر بالعلية»[2] .

ولعل أبا حيان قصد بالقصة قصة البشارة بالملائكة ، وقوله على سبيل التفنن والاتساع،دفع للكشف عن دواعي هذا التفنن ومقاصد هذا الاتساع، فأنت خبير بأبي حيان من هو؟ وهذا كلام الشيخين دون تعليق ، واستبصار التركيبين عندنا معلم دال على أن مقصود الأنفال الذي هو (نفي الحول والقوة) متقارب مع القيومية التي هي من مقتضيات التوحيد الذي هو مقصود آل عمران ، جاءت قصة بدر في آل عمران في سياق ثمرة التوكل ، الذي هو من مقتضيات الإيمان بالقيومية ، وقد تخللت قصة بدر في آل عمران الحديث في قصة أحد ، ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٢) .

كأن تقارب الغرضين من عرض حلقتي قصة بدر في السورتين ، ينبه إليه تقارب التراكيب ، قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ... ﴾ (آل عمران:١٢٣) «تذكير ببعض ما أفادهم التوكل . . .

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٥١ .

(٢) البحر المحيط ٤٤٦/٤ .



وإنما قال : أذلة ، ولم يقل : ذلائل تنبيها على قلتهم مع ذلتهم ، لضعف الحال ، وقلة المراكب والسلاح »[1] .

فعرض القصة في سياق التوكل ، ثم جاء التركيب بعد ذلك منكرا عليهم اهتزاز التوكل ، ومصورا ضعفهم وخوفهم ﴿ **إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ** . . . ﴾ (آل عمران:١٢٤) قال جار الله : « إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة ، وإنما جيء بلن الذي هو لتأكيد النفي ، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالآيسين من النصر »[2] وهذه الحالة تنافي التوكل ، وملحظ مهم هو أن البشارة هنا جاءت بثلاثة آلاف ثم وعدوا ـ مع الصبر ـ بخمسة آلاف مسومين ، وذلك إسهاب في البشارة ، وقد جاءت البشارة بألف من الملائكة مردفين في الأنفال ، وقد استظهر الزمخشرى وغيره أن يكون مردفين بمعنى « متبعين أنفسهم ملائكة آخرين ، أو متبعين غيرهم من الملائكة ، ويعضد هذا الوجه قوله في سورة آل عمران بثلاثة آلاف ... »[3] ونقل البيضاوي أنه قد قيل :« أمدهم الله يوم بدر أولا بألف من الملائكة ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف »[4] والأسباب في قصة البشارة في آل عمران التي جاءت في سياق التوكل استدعت الخطاب في قوله : (لكم) وتقديم القلوب في آل عمران إيماء لاطمئنانها ، للإسهاب في البشارة ، وتأخير القلوب في الأنفال إيماء إلى عدم اطمئنان القلوب تناسبا مع البشارة ، كأن

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ١/١٨٠ .

(٢) الكشاف ١/٤٦١ .

(٣) السابق ٢/١٤٦ .

(٤) البيضاوى ١/١٨٠ .

التراكيب تنم عن الحالة النفسية لقلوب المسلمين عند أول البشارة في الأنفال ، وعند تتابع نزول الملائكة في آل عمران في سياق التوكل وحذفه (لكم) في الأنفال دلالة على عدم إسناد أسباب النصر إليهم تناسبا مع نفى الحول والقوة حتى عن الملائكة ، لذلك جاء بعد الآية في الأنفال بـ ﴿ **إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً** ﴾ دلالة على اطمئنان القلوب بالبشارة ، لذا أخر القلوب هناك .

وسياق نفي الحول والقوة اقتضى ختم الآية المناظرة لآل عمران بتذييلين ﴿ **وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ** ﴾ ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ يقول جار الله : معلقا على التذييل الأول « ولا تحسبوا النصر من الملائكة ، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة »[1] أي « لا يتوقف على التأهل والتهيؤ بالعَدَد والعُدَدِ ، كما تعللتم بذلك حين كرهتم القتال »[2] وذلك فيه نظر للسياق ، ولاختصاص السورة بالتذييل الثاني دون آل عمران مزية فجملة التذييل « تعليل لما قبلها متضمن للإشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة »[3] إذ هو تأييد من الله متوجه نحو نفي الحول والقوة فكما ترى تعليل الفروق بين التركيبين تعليل ملبس جدا ، وذلك لقوة العلائق ، التي بين التوكل ، وبين نفي الحول والقوة والحث على التسليم والتفويض ، وكان ما مضى من القول مما ساقه الله إلينا من غير حول منا ولا قوة .

* * *

---

(١) الكشاف ١٤٦/٢ ومما يؤيد هذه اللطائف أن الأنفال نزلت قبل آل عمران .

(٢) الفتوحات الإلهية ٢٣٠/٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٥٢٠/٤ .



المبحث الثاني

سورة التوبة

تختص هذه السورة دون سور الذكر الحكيم بخلوها من البسملة دأب القرآن الكريم في مطالع السور في نصب المعالم الدالة على خصائص السورة من بدايتها،وقد ذكر الأئمة وجوها لخلو مطلع السورة من البسملة، من ذلك أنه إشارة إلى أن السورة جزء من سورة الأنفال ، لأن قصة هذه السورة شبيهة بقصة سورة الأنفال ـ وأن في الأنفال أمرا بالجهاد ـ وفي التوبة أمرا بنبذ العهود إلى آخر ما ذكروه[(١)] .

وهم يقتدون في عدم كتابة البسملة بعثمان ـ رضي الله عنه ـ الذي يذكر ـ مجيبا ابن عباس عن سر إسقاط البسملة ـ أن الرسول ﷺ كان «مما يأتي عليه الزمان ، وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ ووضعتها في السبع الطوال»[(٢)] .

---

(١) انظر البرهان لابن الزبير ص١٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣١/٢ والحديث رواه الإمام أحمد وأبو دواد والنسائي وابن حبان والحاكم .

وكان إسقاط البسملة دليلا للقائلين بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم ، فالسور كلها انتظمت بقوله ﷺ وتبيينه بل كان ذلك دليلا لصحة القياس عند الفقهاء ، وهو ما قال به ابن العربي معلقا على حديث عثمان ـ رضي الله عنه ـ « هذا دليل على أن القياس أصل في الدين ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجأوا إلى قياس الشبه عند عدم النص . . فإذا كان الله قد بين دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنك بسائر الأحكام »(١).

وقد وجه العلماء إسقاط البسملة بأن ذلك يتناسب ومقصودها .

قال أبو السعود : « حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها في رفع الأمان الذي يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة »(٢) وكلامه ـ رحمه الله ـ بين في أن ترك التسمية بتوقيف من الله وذلك التوقيف يكشف سمة بيانية للسورة الكريمة ، وقد شرح ذلك السيد محمود شكرى الألوسي قائلا : « هذه السورة لا تشبهها سورة ، فإنها ما تركت أحدا : كما قال حذيفة ـ إلا نالت منه ، وهضمته وبالغت في شأنه ، أما المنافقون والكافرون فظاهر ، وأما المؤمنون ففي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ (التوبة:٢٣) ، وهو من أشد ما يخاطب به المخالف ، فكيف بالموافق؟ وليس في سورة ـ ويل ـ ولا في سورة ـ تبت ولا ولا ، ولو سلم اشتمال سورة على نوع ما اشتملت عليه لكان الامتياز بالكمية والكيفية مما لا سبيل لإنكاره ، ولذلك تركت فيها البسملة ـ على ما أقول ـ والاسم

(١) تفسير القرطبي ٢٩٩٠/٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥٧٧/٤ .



الجليل ـ وإن تضمن القهر الذي يناسب ما تضمنته السورة لكنه متضمن غير ذلك أيضا مع اقترانه صريحا بما لم يتضمنا سوى الرحمة ، وليس المقصود هنا إلا إظهار صفة القهر ، ولا يتأتى ذلك مع الافتتاح بالبسملة »[1] .

فهي سورة مستقلة ، واشتهارها بعدة أسماء قاض بذلك ولقد كانت أسماؤها كاشفة عن مقصودها عند البقاعي ، وذلك المقصود هو العلة في رفع البسملة ، وفي اختصاصها بهذه الخصيصة دون سور القرآن الكريم ، يقول البقاعي : رحمه الله ـ مقررا مقصود السورة (ومقصودها : معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية من اتباع الداعي إلى الله في توحيده ، واتباع ما يرضيه ، وموالاة من أقبل عليه ، وأدل ما بها على الإبلاغ في هذا المقصد : قصة المخلفين فإنهم ، لاعترافهم بالتخلف عن الداعي بغير عذر في غزوة تبوك «المحتمل على وجه بعيد منهم ـ رضي الله عنهم ـ للإعراض بالقلب ـ هجروا وأعرض عنهم بكل اعتبار ، حتى بالكلام ، حتى بالسلام ، إلى أن تيب عليهم فذلك معنى تسميتها بالتوبة ، وهو يدل على البراءة ، لأن البراءة منهم بهجرانهم ـ حتى في رد السلام ـ كان سبب التوبة ، فهو من إطلاق المسبب على السبب ، وتسميتها ببراءة واضح أيضا فيما ذكر من مقصودها ، وكذا الفاضحة ، لأن من افتضح كان أهلا للبراءة منه ، والبحوث ، لأنه لا يبحث إلا عن حال البغيض ، والمبعثرة والمنفرة والمثيرة والحافرة والمخزية والمهلكة والمشردة والمدمدة ، لأنه لا يبعثر إلا حال العدو . . وكذا المقشقشة لأنهم قالوا : إن معناه المبرئة من النفاق ـ من تقشقشت قروحه : إذا تقشرت للبراء ـ وتوجيهه أن من عرف أن الله

---

(١) روح المعاني ٤١/١٠ .



بريء منه ورسوله والمؤمنون لأمر ، فهو جدير بأن يرجع عن ذلك الأمر ، وعندى ، أنه مضاعف القش الذي معناه الجمع ، لأنها جمعت أصناف المنافقين»[(١)].

والمقصود الذي قرره البقاعي وهو (معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية) هو الذي تتظاهر عليه تراكيب السورة ، فهذه الكلمة العامة الجامعة التي ذكرها البقاعي تشمل الكفار وأهل الكتاب والمنافقين ، وقد تشابهوا جميعا في الأعراض ، فاشتبهت نظوم آيات هذه السورة الكريمة ، في بيان طرائقهم وعقائدهم وعاداتهم ، وعاقبتهم في الدنيا وفي الآخرة ، لذلك وقع كثير من مشتبه النظم داخل السورة الكريمة ، ودقائق النظم ترجع إلى مناسبة كل آية لصنفها كما سنذكر شيئا فيه بعد بيان المطلع وتحديده ، فهو الذي يكشف لنا مسار بيان السورة ، وجريان معانيها .

والمطلع ـ حسب تفهمنا لمقالات السلف ولهيئة تركيبه ـ هو قوله تعالى : ﴿ **بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ الآية (١) جاء المطلع ـ كما ترى ـ ملائما للمقصود ، مجملا إياه من أول كلمة ، مع ضميمة خلو السورة من البسملة ، قال العلامة ابن عاشور : في هذا المفتتح «افتتحت السورة كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدل حكمة على الغرض الذي يراد منها»[(٢)] ، وذلك أمر يرجع إلى دلالة الكلمة ، أما عن دلالتها في هذا التركيب ، ففيها العجب العاجب ، وقد اختلف الأئمة في إعراب هذه الكلمة على وجهين أولهما : أن تكون مبتدأ والخبر ﴿ **إِلَى**

---

(١) مصاعد النظر ٢/١٥٤، ١٥٥ وفي اللسان (قش الشيء يقشه قشا : جمعه ، وتقشقش : برأ) اللسان مادة قشش ص٣٦٣٦ .

(٢) التحرير والتنوير التوبة ص١٠٢ .



﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم ﴾ ، وثانيهما : أنها خبر مبتدأ محذوف ، وكان الوجه الثاني أعجب إلى ابن جرير ـ رحمه الله ـ وذلك « لأن من شأن العرب أن يضمروا لكل معاين ـ نكرة كان أو معرفة ذلك المعاين هذا وهذه ، فيقولون : عند معاينتهم الشيء الحسن ـ حسن والله ، والقبيح قبيح والله ، يريدون : هذا حسن والله ، وهذا قبيح والله »[1] . وهذا التقدير فيه إشارة إلى السورة كلها ، فكلها عبارة عن براءة .

وهذا الوجه هو الذي تقتضيه جزالة النظم عند أبي السعود « لأن هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ، ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله ـ حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ، ويعجل المقصود بالذات والعمدة في الأخبار شيئا آخر هو وصولها إلى المعاهدين ، وإنما الحقيق بأن يعتني بإفادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ، ووصولها إليهم ، فإن حق الصفات ـ قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها ـ أن تكون أخبارا ، وحق الأخبار ـ بعد العلم بثبوتها لما هي له ـ أن تكون صفات »[2] .

وهذا التقدير يتوجه بالمطلع نحو المقصود ، ويكشف عن بيان السورة المتناسب مع كون البراءة من الله ، ومن في هذا الموضع « ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ، ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل ، أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله ، واصلة إلى الذين عاهدتم من المشركين »[3] .

---

(١) جامع البيان ٤٢/٩ .
(٢) إرشاد العقل السليم ٥٧٩/٤ .
(٣) المرجع نفسه ٥٧٨/٤ .



ونسبة البراءة إلى الله ورسوله أضفت عليها طابع الأمر ، وقد استشكل العلماء نسبة البراءة إلى الله ورسوله ، ونسبة المعاهدة إلى المشركين وذكر أبو السعود وجها لطيفا لنسبتها إلى الله تعالى ، فقد ذكر أن النظم جاء كذلك « للإنباء عن تنجزها وتحتمها من غير توقف على رأي المخاطبين لأنها عبارة عن إنهاء حكم الأمان ، ورفع الحظر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة ، وذلك منوط بجناب الله ـ عز وجل ـ . . . وأما المعاهدة فحين كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لا تتحصل في نفسها ... إلا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه ـ سبحانه ـ وإنما الصادر عنه في شأنها هو الإذن فيها ، وإنما الذي يباشرها ويتولى أمرها المسلمون . . . فنسبت كل واحدة منها إلى من هو أصل فيها »[1] .

وقد اختار لفظ المشركين في المطلع على الكافرين ، لتشمل البراءة أهل الكتاب ، فهم موصوفون هاهنا بالإشراك ، وقد وصف النصارى ـ دون اليهود بالإشراك والكفر في غير هذا الموضع[2] ، وتقدير المبتدأ (هذه) يجعل السورة كلها دائرة على البراءة ، ومنطوق المطلع يعني معاداة كل المشركين ومفهومه يعني موالاة الله والرسول والمؤمنين ، والمعاداة تقتضي القتال في هذا الإطار جرت معانى السورة الكريمة ، وقد جاءت التراكيب متواصلة مع المطلع في بيان مقصود السورة فجاء عقب المطلع قوله تعالى : ﴿ **فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ** ﴾ (التوبة:٢) « والفاء لترتيب الأمر بالسياحة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الحرب ... كأنه

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤/٥٨٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٧، ٧٢، ٧٣ .



قيل : هذه براءة موجهة لقتالكم ، فاسعوا في تحصيل العدد والأسباب ، وبالغوا في إعداد العتاد من كل باب»[1].

وقد جاء الأمر على سبيل التهديد ، وهو تهديد إلى ميقات حدده الله الذي أوجب البراءة ، لا يملك المشركون تأخيره كما يظنون ، ولعله قال في آخر الآية : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ بدل (المشركين) ليدخل المنافقون في الحكم ، وظاهر من تراكيب هذه السورة أن الله ـ سبحانه ـ أخزاهم وفضحهم ، ونصر رسوله ﷺ ثم عطف قوله : ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ (التوبة:٣) على المطلع ، وقيد ذلك الإعلام بيوم الحج الأكبر ، لإسقاط الحجة في الموالاة والمعاداة ، وتهكم بالكافرين فقال : بأسلوب الاستعارة التهكمية ـ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة:٣) ثم استثنى بعد ذلك من حفظ العهد ، ثم بين بعد ذلك ما يجب أن يفعله المسلمون بعد الميقات المذكور أول السورة ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (التوبة:٥) بهذه الاستعارة التي تومئ إلى وجه بناء الأسلوب ، فكما أن جلد الشاة واق لها ، كذلك الأشهر الحرم بالنسبة للمشركين ، وهي متناسبة مع صيغة الأمر المجازي الوارد على سبيل التهديد أول السورة في قوله : ﴿ فَسِيحُواْ . . . ﴾ ، وتركيب الاستعارة «فيه مزيد لطف ، لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين من غوائل أيدى المسلمين»[2] ، وقد كانت في الواقع أشد من ذلك أرأيت كيف أباح الله بعدها للمسلمين قتلهم ، وأسرهم ومحاصرتهم والقعود لهم بكل مرصد ، إلى أن يقولوا ، والملحوظ أن القرآن هنا يكثر من استخدام

(١، ٢) إرشاد العقل السليم ٤/٥٨٧ .

أسلوب الشرط والجزاء ، كأن التوبة تقوم مقام العهد وأكثر منه في حفظ الحقوق ، ثم أتاح الله فرصة أخرى لمن يريد الاقتناع مبالغة في حرية الفكر ، واحتراما للعقل .

ثم يجيء استفهام تعجبي للبقاء على عهود المشركين ﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ** . . . ﴾ (التوبة:٧) والآية « مرتبطة في المعنى بقوله : براءة . . . إذ هي مسوقة للناقضين للعهود »[١] ثم يجيء هذا الاستفهام مرة أخرى ليكرر « استبعاد ثبات المشركين على العهد »[٢] في قوله : ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ** ﴾ (التوبة:٨) كأن هذين الاستفهامين التعجبيين المتواليين يكشفان عن تثاقل بعض المسلمين في إنفاذ البراءة المذكورة في المطلع ولهم في ذلك علل تبسطها السورة بعد ، وتردها بوجوه من النظم . . . والملحوظ أن التراكيب تتقارب إلى درجة التكرار في مثل قوله : ﴿ **لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً** ﴾ الآية (التوبة:٨) وقوله : ﴿ **لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً** ﴾ الآية (التوبة:١٠) قال النحاس : ليس هذا تكريراً ، ولكن الأول لجميع المشركين ، والثاني لليهود خاصة ، والدليل على هذا (اشْتَرَوا بِآيَاتِ الله)[٣] وهذا الاشتباه في النظم يناسب مقصود السورة كما قررنا استنباطا من كلام الأئمة ، وجاءت آية الأمر بقتالهم ﴿ **قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ** ... ﴾ الآيتان (التوبة:١٤،١٥) وقد وقع بينهما وبين قوله تعالى قبل ﴿ **فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ** ... ﴾ الآية (التوبة:٥) استبعاد ثباتهم على العهد ، وتحينهم الفرص لقتل المسلمين

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٢٢٦ .

(٢) مفاتيح الغيب ٧/٥٧٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤/٣٠٠٧، والبرهان للكرماني ص٩٦ .

واشتهارهم بنكث الأيمان تأمل الفارق الكبير بين الآيتين اللتين ذكرتهما ، فالآية الثانية كاشفة عن وعد الله للمسلمين وتأييده لهم ، وأن ذلك من البلاء ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾الآية (التوبة:١٦)، والآية مبتدأة باستفهام توبيخي وفيها إشارة إلى سرد المشبهات في معاداة من تبرأ الله منهم تدبر قوله ﴿ **وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً** ﴾ . «والمعنى دخيلة مودة من دون الله ورسوله»[(١)] .

وقد كشف الفخر ـ رحمه الله ـ مناسبة قوله تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ الآية (التوبة:١٧) للمطلع فقال : «اعلم أنه ـ تعالى ـ بدأ السورة بذكر البراءة عن الكفار ، وبالغ في إيجاب ذلك ، وذكر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ما يوجب تلك البراءة ، ثم إنه ـ تعالى ـ حكى عنهم شبها احتجوا بها في أن هذه البراءة غير جائزة ، وأنه يجب أن تكون المخالطة والمناصرة حاصلة ، فأولها ما ذكره في هذه الآية»[(٢)] .

وهذا التناسب يعين على استكشافه سبب النزول يروى في الآية أنه «لما أسر العباس يوم بدر أقبل عليه المسلمون ، فعيروه بكفره بالله وقطيعة الرحم ، وأغلظ عَلِيٌّ له القول ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا ، فقال له على : ألكم محاسن؟ قال : نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ....»[(٣)] ، وقد استمر رد هذه الشبهة إلى الآية (٢٢)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠١٥/٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ٥٩٥/٧، والبحر المحيط ١٨/٥ .

(٣) أسباب النزول ص١٨١ .

وفى الشبهة قيود في التركيب تناسب المطلع من مثل قوله : ﴿ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ ووصفهم بالشرك يوجب البراءة منهم وحسب المؤمنين شهادة الكافرين على أنفسهم بالكفر ، وجاءت الشبهة الثانية في معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ . . . ﴾ الآية (التوبة:٢٣) وذلك « أن الرجل المسلم قد يكون أبوه كافرا ، والرجل الكافر قد يكون أبوه وأخوه مسلما ، وحصول المقاطعة التامة بين الرجل وأبيه وأخيه كالمتعذر الممتنع ، وإذا كان الأمر كذلك كانت البراءة التي أمر الله بها كالشاق الممتنع المتعذر ، فذكر الله تعالى هذه الآية ليزيل هذه الشبهة »(1) .

ولا كهذه الآية في الذكر الحكيم في معاداة المعرضين ، لاسيما أنه أعقب هذه الشبهة بتقرير لها ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ . . .﴾ الآية (التوبة:٢٤) وهي ناظرة إلى قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ . . . ﴾ فذلك من البلاء ، لأنه لا ينبغي بحال أن يواد من حاد الله ورسوله ، وكانت الآية الأولى كافية في تقرير الشبهة ، لكن النظم المعجز فصل درجات القرابة والاستكثار بها والاستكثار بالمال ، ليبين ضآلة كل ذلك بجانب موالاة الله ومعاداة من عاداه .

ثم ذكر بعد ذلك غزوة حنين ، ولها موقع لطيف في رد هذه الشبهة وقد كانوا قريبي عهد بها ، وقد غفلت قلوبهم لحظات عن الله ، وقد جاء بها في هذا الموقع « ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به ، هي عدة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد ، وحين

---

(١) مفاتيح الغيب ٧/٦١٠ .

يخذلهم المال والإخوان والأولاد»[1] وقد جاء النظم مثيرا إلى هذا المقصود وذلك بإذ في قوله : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ** ﴾ الآية (التوبة:٢٥) فالنظم ـ كما ترى ـ متوجه لاستنكار حالة الإعجاب لأن إذ بدل من يوم حنين ، وقد ذكروا أن حنين كانت ذات مواطن كثيرة لكنه لم يرد هاهنا إلا حالة الإعجاب بالكثرة ، ثم بين لهم عاقبة الإعجاب ﴿ **فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾ (التوبة:٢٥) وفي هذه القصة تهديد لمن يستمسك بهذه الشبهة ، وذلك يفسر لنا اختصاص السورة بغزوة حنين ، ثم زالت حالة الإعجاب ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** . . . ﴾ (التوبة:٢٦) .

وتأتي بعد ذلك الشبهة الثالثة في عدم إنفاذ البراءة وذلك في قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ** ﴾ الآية (التوبة:٢٨) . والآية ناظرة إلى الشبهة الأولى ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ** ﴾ والتراكيب بهذه الهيئة تشير إلى توحد مقصود السورة، وموطن الشبهة قوله: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً** ﴾ وذلك «لأنه ﷺ لما أمر عليا أن يقرأ على مشركى مكة أول سورة براءة ، وينبذ إليهم عهدهم . . . قال أناس : يا أهل مكة ستعلمون ما تلقونه من الشدة ، لانقطاع السبل ، وفقد الحمولات فنزلت هذه الآية»[2] .

---

(١) في ظلال القرآن ١٦١٦/٣ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦١٧/٧ .

« كان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم ، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر ، وقالوا : من أين نعيش ، فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله ، قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله : قاتلوا الذين . . . »[1].

ثم صرح القرآن هاهنا بمعاداة أهل الكتاب ، وهو ناظر إلى مطلع السورة الكريمة ﴿ **قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٍ وَهُمۡ صَـٰغِرُونَ** ﴾ الآية (التوبة:٢٩) والتركيب في آخره متقارب مع قوله تعالى في أول السورة ﴿ **وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى ٱلۡكَـٰفِرِينَ** ﴾ ولما أمر الله بمعاداتهم هنا بين عقيدتهم في الإشراك ، ولم تبين سورة في الذكر الحكيم إشراك اليهود كما بينته سورة براءة ﴿ **وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ** ﴾ الآية (التوبة:٣٠) فقد اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله بذلك التركيب الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهو متناسب جدا مع ما في المطلع من قوله : ﴿ **إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾ ناهيك بهذا الفعل ﴿ **يُضَـٰهِـُٔونَ** ﴾ الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، والذي يصور تقارب عقائد اليهود والنصارى والمشركين ، والكاشف عن كثير من أسرار التراكيب المتقاربة في شأن هذه الفرق جميعا ، وبعض هؤلاء الأرباب الذين اتخذوهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ـ هؤلاء جميعا تهكم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/٣٠٣٣ .

الله بهم ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأنهم يضاهئون قول الذين كفروا وقد تهكم الله بعذابهم في أول السورة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة:٣) .

ثم عاد السياق ـ بعد بيان من عادى من الفرق ـ إلى تفصيل الميقات الذي ذكره في أول السورة﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ـ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾، ليبين جريمتهم جميعا في تبديل هذه الأشهر ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ ﴾ (التوبة:٣٦) ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلْكُفْرِ . . . ﴾ (التوبة:٣٧) ، ولم يذكر في الذكر الحكيم زيادة في الكفر إلا هاهنا .

ثم تعجب النظم بعد ذلك من تثاقل المسلمين عند الدعوة لمعاداة هذه الفرق جميعا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ . . . ﴾ (التوبة:٣٨) بهذا الفعل الذي يصور التثاقل والقعود ، ويتناغى مع التعجب بعد عرض جرائمهم ، وهذا الاستفهام التعجبي ، يتناغى مع الاستفهام التعجبى في أول السورة ، ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ـ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ـ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ . . . ﴾ ، وكل ذلك النظم البياني ، يتدبر في ضوء المطلع الذي بنوره تتكشف طرائق المباني ، وتستبصر مجاري المعاني .

والسورة الكريمة من هنا إلى آخرها في غزوة تبوك تلك التي فضحت أمر المنافقين ، وأمرت بمعاداتهم فقد رووا « أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وغزوة حنين أمر بالجهاد لغزو الروم ، وذلك في زمان عسرة من الناس ، وجدب من البلاد وشدة من الحر ، حين أخرقت النخل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في

المساكن والمال وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل هذه الآية»[1].

وذلك السبب لنزول الآية يكشف لنا سر كثرة الاستفهام التعجبي من التثاقل في إنفاذ البراءة من المشركين، وفي الاستطراد في رد شبه معاداتهم، فقد كان يرغبهم في مقاتلتهم أول السورة ﴿ **قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ** ﴾ الآية (التوبة:١٤) وبعد رد الشبه قال مهددا ﴿ **إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ** ﴾ الآية (التوبة:٣٩)، ثم كشف النظم المعجز عن قدرته على ذلك بتذكيرهم بموقف هجرة النبي ﷺ وأمر من التناسب بين سور القرآن عجيب، ففي سورة الأنفال ذكر تآمر المشركين بالنبي في دار الندوة ﴿ **وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ... ﴾(الأنفال:٣٠) وأشار إليه في أول السورة هنا ﴿ **أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمًا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ** ﴾ الآية (التوبة:١٣) ثم شرحه هنا بما يتناسب والسياق وتتابع البناء بإذ ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** ﴾ (التوبة:٤٠) تدبر هذا التكاثف واكتناز المعاني، لاستحضار هذا الموقف الذي تكاثر المشركون على النبي ﷺ فيه وقدرة الله سبحانه في غشيان أبصارهم حين الغار، والقول الباقي ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** ﴾ وبناء الجملة بعد بفاء التعقيب، ومقارنتها بثم في غزوة حنين في قوله: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ** ﴾ وقوله: ﴿ **وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا** ﴾، وذلك القول الذي ينبغي أن يعليه الجهاد، وتلك الكلمة التي ينبغي أن تبذل لها الأنفس والأموال، وتفرد هذه السورة

---

(١) أسباب النزول ص١٨٤.

الكريمة بها ، وقد علا الإسلام بالهجرة ، تدبر تقارب هذه التراكيب مع تركيب غزوة حنين ، وذلك لتقارب مغزى القضيتين ومهمتهما في سياق معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية .

وفي تراكيب هذه القصة من التهديد للمتثاقلين ـ ما ترى ـ وحثهم على التشرف بنصر النبي ﷺ أمر واضح في التراكيب وفي مغزى القصة ، ومعذب ذلك الذي يتثاقل عن طلب هذا الشرف ، وإن أصر على ذلك فليمنعنه ، ودونك ما صرح به الذكر الحكيم بعد من نحو قوله في الحرمان من شرف طاعة الأمر ﴿ **قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** . . . ﴾ (التوبة:٥٣) وقوله : ﴿ **فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ** ﴾ (التوبة:٨٣) .

وقد جرى عرض قصة تبوك في سياق الجهاد بالمال وبالنفس ، وصنف السياق المنافقين في هذين الإطارين ، وكما قال الفخر ـ رحمه الله ـ « اعلم أن هذه السورة أكثرها في شرح أحوال المنافقين ، ولا شك أنهم أقسام وأصناف فلهذا السبب يذكرهم على التفصيل »[1] .

ومن الخصائص البيانية لهذه السورة وضوح أسلوب التصنيف لجرائم المنافقين ، من مثل قوله : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٤٩) .

وقوله : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٥٩) وقوله : ﴿ **وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٦١) وقوله : ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٧٥) وصنف المنافقين من الأعراب في مثل

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠٣/٨ .

قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٩٨) وقوله : ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ** . . . ﴾ الآية (التوبة:١١١) ، والمنافقون جميعا يضاهئون المشركين . يكشف لك هذه المضاهاة تركيبان في السورة الكريمة لا نظير لهما في الذكر الحكيم فلئن قال الله سبحانه في المشركين ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٢٨) فلقد قال في المنافقين ﴿ **فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** ﴾ (التوبة:٩٥) وهم يقولون : هذا رجس نجس تصويرا للخبث باللفظين فهم يستوون جميعا في البراءة منهم ، ثم تدبر تهديد الله للمتثاقلين ﴿ **إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ وعرض السورة بعد لتعذيب المنافقين في الدنيا بالمال والأولاد مجمل الشبه التي حالت دون إنفاذهم البراءة ، وتشابهت تراكيب آيات النفاق داخل هذه السورة الكريمة ، لأنهم كما قال ربنا ـ في هذه السورة دون غيرها ﴿ **ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ** ﴾ الآية (التوبة:٦٧) لذلك تشابهت نظوم آياتهم وعاقبتهم ، نأخذ من ذلك مثلا قوله تعالى : ﴿ **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ** ﴾ الآية (التوبة:٥٥) . . . . وقوله : ﴿ **وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ** ﴾ الآية (التوبة:٨٥) .

وقد وجه العلماء هاتين الآيتين عدة توجيهات منها[1] .

١- أن يكون التركيب الثاني في حق فريق غير الفريق الأول .

٢- أن يكون التركيب قد تكرر للتوكيد .

---

(١) يراجع في ذلك البرهان للكرماني ص٩٧، ٩٨، وتفسير أبي السعود ٤/٧٠٣، والبحر المحيط ٥/٨١، والقرطبي ٤/٣١٤٨، والصاوي على الجلالين ٢/١٦٢.

ومفاد كلامهم أن التركيب الثاني أقوى من الأول ، لاسيما أنه أسقط وصف الدنيا بالحياة في التركيب الثاني بيانا لخستها ، واستئناسا بما سبق في السياق من موت المنافقين ـ والحق أن التوجيهات جميعا لها في السياق ما يؤيدها ، فلئن كان الغرض التوكيد فذلك أمر ظاهر في تفضيل المنافقين البقاء في المال والولد على الجهاد ، وفي ذلك تعذيب لهم إنفاذا لوعيد الله ﴿ **إِلَّا تَنفِرُواْ** . . . ﴾ ولئن كان كل تركيب في حق فريق ، فذلك أمر ظاهر في السياق الذي عني بتفصيل أحوال المنافقين ، وتقارب التركيبين يدل على تقارب الصنفين ، لأن المنافقين جميعا بعضهم من بعض كما ذكرت السورة .

على أن في وصف المنافقين بالكفر مضاهاة للكفر في التبرأ منهم ، لذلك ذكر لهم في هذه السورة الكريمة دون سور الذكر الحكيم عقوبات تخزيهم ، تناسبا مع قوله : ﴿ **وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ** ﴾ أول السورة من ذلك قوله : ﴿ **يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ** ﴾ الآية (التوبة:٦٤) ﴿ **ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ** ﴾ الآية (التوبة:٨٠) ﴿ **فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا** ﴾ الآية (التوبة:٨٣) ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا** ﴾ الآية (التوبة:٨٤) ولا كقوله تعالى : ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ** ﴾ الآية (التوبة:١٠١) بل من أشد التعذيب لهم نهى النبي ﷺ من الصلاة في مسجد الضرار بناء المنافقين ﴿ **لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا** ﴾ الآية (التوبة:١٠٨).

لا نظير لتراكيب هذه السورة الكريمة في الأمر بالتبرأ من أعداء الله ومعاداتهم ، كما أجمل ذلك مطلع السورة الكريمة ، بل تعالى صوت هذه السورة في التبرأ منهم أمواتا كالتبرأ منهم أحياء ذلك ما كشفت عنه بصيرة الفخر الرازى عند قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ** ﴾ (التوبة:١١٣) قال : رحمه الله ـ «اعلم أنه تعالى لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب إظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه بين في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم ، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم ، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم ، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات ، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب»[(١)]، وكلام الفخر ـ رحمه الله ـ ظاهر في أن تراكيب آيات المنافقين ومعانيها جرت في مقصود السورة ذلك الذي بينا ـ استنباطا من كلام العلماء ـ أنه مجمل في مطلعها .

ثم ذكرت السورة بعد ذلك قصة المخلفين ، وبينت كيف شددت السورة في قبول توبتهم كما قال النظم ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ** . . . ﴾ الآية (التوبة:١١٨) وذلك يتناسب مع تركيب مطلع السورة ، الحاث على البراءة ، المحارب كل من لا ينفذها ويقوم بمقتضاها ، وعادت السورة بعد ذلك إلى ما بدأت به من الأمر بمعاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية في قوله :

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ**

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩٤/٨ .

غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الآية (التوبة:١٢٣) ـ وفي ذلك كما قال العلماء رد لمقطعها على مطلعها .

وختمت بقوله تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ الآية (التوبة:١٢٩) ـ وهو متناغ مع قصة الهجرة التي وردت داخل السورة ، ومع التهديد بالعذاب في الدنيا وفي الآخرة عند التولي ، وكشف عن نسبة البراءة إلى الله ورسوله من المشركين دون غيرهما في المطلع وبيان لاتباع الرسول لإنفاذ البراءة ، وإن تولى ناصروه وكان ما ذكرناه من حديث هذه السورة استبصارا لكلمة البقاعي في مقصود السورة .

فالله أعلم .

* * *

المبحث الثالث

سورة النحل

الشائع أنها سورة النحل ، وعن قتادة أنها تسمى «سورة النعم»[(١)] والنحل من جملة هذا الاسم ، وعللوا لتسميتها بالنعم بتعداد كثرة النعم فيها [(٢)] وليس تعداد النعم مقصودا تسعى السورة بتراكيبها إليه ـ فما من سورة إلا وفيها نعم مذكورة ـ لكنه ـ فيما أرى ـ سبيل الكشف عن مقصود تتظاهر تراكيب السورة عليه ، ومقصود السورة ـ كما أبصره البقاعي ـ «الدلالة على أنه ـ تعالى ـ تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار ، منزه عن شوائب النقص ، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها في دقة الفهم ... ووسمها بالنعم واضح في ذلك»[(٣)] وتقرير هذا المقصود ناظر إلى المطلع وتراكيب السورة ، وعلى اختلاف موضوعاتها ظاهرا ترى تراكيبها تنادي على انتظامها في هذا المقصود ، واستبصار هذا الخيط الخفي مما تنقضي الأعمار دون إظهاره وكشفه .

وينظم الشيخ الصعيدي مقصود السورة ناظرا إلى ظاهر موضوعاتها فيقول : «يقصد من هذه السورة إنذار المشركين بالعذاب ، وإبطال شركهم

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٤/٩، وغرائب القرآن ٤١/١٤، والصاوي على الجلالين ٣٠٤/٢، وروح المعاني ٨٩/٤، والتحرير والتنوير ٩٣/١٤ .

(٢) الصاوي على الجلالين ٣٠٤/٢ .

(٣) مصاعد النظر ٢١٣/٢، والصاوي على الجلالين ٣٠٤/٢ .

ورد شبههم على القرآن والنبوة والبعث ، وهي أمور متشابكة متلازمة وقد افتتحت بآيتين أجملت فيهما تلك الأغراض ، ويقصد بهما التمهيد لتفصيل الكلام فيهما »[1] على أن ما ذكره ـ رحمه الله ـ من تقرير المقصود شائع في كثير من السور لكن بحسبه الإشارة إلى أن الآيتين الأوليين أجملتا مقصود السورة ، وذلك المطلع هو قوله تعالى كما يظهر من كلام البقاعي فيما يأتي : ﴿ **أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ** ﴾ (النحل:١، ٢) .

وهن أربع كلمات صدرت بهن السورة الكريمة ، وقد تواصلن تواصلا كشف عن جريان معاني السورة ، وكشفن بنورهن أسرار دقائق فروق تراكيب السورة كما لحظه الربانيون من الأئمة على ما نورده من بصائرهم الكلمة الأولى ﴿ **أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ** ﴾ تثبت تمام قدرته سبحانه ، فكان مقتضى الكلمة الثانية ﴿ **فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ** ﴾ أن يقال : سيأتي أمر الله ، لكنه أخرج ما لم يقع مخرج ما قد وقع ، « على طريق الاستعارة التبعية التي جعلته بمنزلة الآتي الواقع »[2] .

وذلك المسلك في بيان البشر يسعى إليه عند توفر أسباب حصول الشيء لغاية تجعله بمثابة ما قد حصل وقد جاء في كلام من يملك الأسباب على هذا المسلك .

وقد يكون الماضي باقيا على وضعه ، وذلك بأن يكون المراد إتيان مباديه[3] وهذا المراد يقويه سبب النزول فيما روي من أن المشركين

---

(١) النظم الفني في القرآن ص١٦٧ .

(٢) الكشاف ٢/٤٠٠، وحاشية الصاوي ٢/٣٠٤ .

(٣) روح المعاني ١٤/٩٠ .

استهزءوا لما نزل أول القمر وزاد استهزاؤهم بنزول أول الأنبياء «وقالوا : يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به ، فأنزل الله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فوثب النبي ، ورفع الناس رؤوسهم ، فنزل ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ فاطمأنوا ، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بإصبعيه ـ إن كادت لتسبقني»(١).

وله في السورة ما يؤيده أيضا ، مع ضميمة ما ذكر من ظهور علامات الساعة في كتب السنة ، وهو متناسب جدا مع الكلمة الثانية في المطلع ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ ومتناسب مع تعداد النعم ، كما أن الوجه الأول متناسب مع سبب النزول ومع الفاعل ﴿ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ ومع كثير من تراكيب السورة ، فالراجح في المراد بأمر الله عذابه عند السلف ، وقد ضعفوا أن يكون المراد بأمر الله فرائضه تعويلا على أنه لم يثبت عن الصحابة أنهم استعجلوا فرائض الله(٢) .

وكأنه ألقى بهذا التعبير في صدر السورة حتى يتناسب مع كل التراكيب الواردة في إطاره . فالتعبير بالأمر يشمل كل أنواع العذاب الذي منه الساعة وأعظمه هي فلم يقل : أتى عذاب الله ، وإنما عبر عنه بالأمر «للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه في نفسه ، وإتيانه منوط بحكمه النافذ ، وقضائه الغالب»(٣) . وفي هذا التعبير من إبراز تمام القدرة ما ترى ، مع ضميمة إضافته إلى الاسم الأعظم والكلمة الثانية في المطلع ، أبانت عن تمام علمه ـ سبحانه ـ الذي يقتضي تأخير العذاب ، وإيقاعه في أي وقت

---

(١) أسباب النزول ص٢٠٩ .

(٢) ينظر : جامع البيان ١٤/٥٢، ٥٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/٤٢٢ .

شاء ، وإمهال الكفار والإنعام عليهم والكلمة الأولى تقتضي تفرده بالخلق والملك والإنعام وغير ذلك ، والجملة الثانية تقتضي تفرده بالعلم بمهمات الكلمة الأولى ، وكل ذلك شائع في سياق السورة ، وهو وإن كان شائعا في الذكر الحكيم كله ـ إلا أن الكلمة الثالثة ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ أبانت عن هيئة جريان معاني مقتضيات الكلمتين الأوليين في إطار المقايسة بين الإله الحق وبين معبوداتهم والجملة ـ كما قال ابن عاشور «مستأنفه استئنافا ابتدائيا ، لأنها المقصود من الوعيد ، إذ الوعيد والزجر إنما كانا لأجل إبطال الإشراك ، فكانت جملة ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ** ﴾ كالمقدمة وجملة ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ كالمقصد»[1] .

وقد كشف أبو السعود عن صلة الجملة الثالثة بالجملتين الأوليين وقد كان ـ فيما أرى ـ ناظرا إلى جريان معاني السورة ـ لاسيما ما اختصت به دون غيرها ـ وكأن معاني السورة عنده تفصيل لما أجمله المطلع فيما يقول : رحمه الله ـ «ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج إشراكهم المستتبع نسبة الله ـ عز وجل ـ إلى ما لا يليق به من العجز والاحتياج إلى الغير ، واعتقاد أن أحدا يحجزه عن إنجاز وعده ، وإمضاء وعيده . . . فقيل بطريق الاستئناف : سبحانه . . .»[2] وهو من نور ما علل به الزمخشري لموقعها في قوله «لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك»[3] .

وقد أبان سبب النزول عن الاستهزاء بالوحي والموحى إليه ﷺ فنسب الوحي إلى الملائكة ، والآية الثانية كلها جملة واحدة ، لأنها كالتفصيل

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/٩٨ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/٤٢٣، ٤٢٤ .

(٣) الكشاف ٢/٤٠٠ .



لقوله : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ . . .﴾ ذلك تنوير كلمة الفخر الرازي عند الآية فيما يقول: «هذه الآية تدل على أن الروح المشار إليها بقوله تعالى:﴿ يُنَزِّلُ ... ﴾ ليس إلا لمجرد قوله تعالى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾»[1] وقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ رجوع لقوله : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ . . . . «رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود»[2] في قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ . . . ﴾ أو أنه «تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على التوحيد»[3] ولو قال فاعبدون ما تناسب مع الكلمة الأولى ، وما أشعرت به من الوعيد .

واستعجال العذاب من المشركين يوحى بالمجادلة عن الشريك ، فتواردت النعم تواردا متتابعا ناظرا إلى المطلع ، فجاء قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ وهو ناظر إلى المطلع كاشف عن أن النعم المذكورة جميعا ، لبيان تنزيهه ـ سبحانه ـ وتمام علمه وقدرته ، وقوله ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴾ كاشف عن جريان المعاني المصورة للمجادلة عن الشريك ، فجاءت تشبيهات المقايسة بين المعبود الحق وبين معبوداتهم ، مفصلة ما أجمله المطلع ، فسياق السورة هو نور المطلع لأنه تفصيل له ، والمطلع هو نور سياق السورة ، لأنه مجمل مغزى السورة ، وبيان المغزى من كل تركيب يكشف أسرار صياغته ، وعلل النحو فيه .

ولأجل الغرض المجمل في المطلع ، جاءت طرائق البيان في السورة على نحو ما أشار إليه المطلع ، فجاء ذكر النعم الدالة على تمام القدرة

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٩/٩ .

(٢) أنوار التنزيل ٥٤٨/١ .

(٣) الصاوي على الجلالين ٣٠٤/٢ .

والعلم وعقب ذكر كل جملة من النعم تأتي مقايسة وإنذار بالعذاب ، وكثر ذكر لفظ (نعمة) كثرة تتفارق به السورة عن سائر السور ، فقد جاء ذكره في سبعة مواضع[1] ، وجاء في مثل القرية ، وقصة إبراهيم[2] لفظ (أنعم) جمع قلة ولم يقع في غير هذه السورة .

وقد تتابع ذكر النعم من الآية (٣) المبدوءة بقوله : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ** ... ﴾ إلى الآية (١٦) ثم أعقبها تشبيه من خصائص هذه السورة، وهو ناظر إلى بداية ذكر هذه الجملة من النعم ، وناظر إلى المطلع ـ كما حاولنا كشف بيانه ذلك قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ** . . . ﴾ (النحل:١٧) بهذا التناغي العجيب ، مع ما يوحي به المطلع من المجادلة ، وما يشي به وصف الإنسان بأنه خصيم مبين ، وقد أجمل ذكر النعم عقب هذا التشبيه بقوله : ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ** ﴾ (النحل:١٨) «وهو تذكير إجمالي بعد تفصيل النعم»[3] ، وقد ختمت الآية بقوله ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ لتصل بالغرض ، وتفارق نظيرتها في سورة إبراهيم ، كما أبصر البقاعي التركيبين بنور المطلع ، وعلل لختامها هنا بقوله : «لأن تلك سورة النعم بدئت بالنهي عن استعجال العذاب ، لأن الرحمة أسبق ، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع»[4] أما سورة إبراهيم ، فقد افتتحت بأن الناس في ظلمات كما مضى في سورة إبراهيم ولولا أن المطلع يحمل المقصود لما كانت تلك الرؤية عند البقاعي ، ووقع قوله : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ**

---

(١) الآيات ١٨، ٥٣، ٧١، ٧٢، ٨١، ٨٣، ١١٤ .

(٢) الآيات ١١٢، ١١٤ .

(٣) الصاوي على الجلالين ٢/٣٠٧ .

(٤) نظم الدرر ١٠/٤٢٣ .



﴿ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ (النحل:٢٠،٢١) وهو شرح لقوله ﴿ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ وليس تكرارا «لأنه أولا أفاد أنهم لا يخلقون شيئا ، وأفاد أنهم مع كونهم لم يخلقوا شيئا هم مخلوقون ففيه زيادة»[1] وهو بناء متناسب مع مقصود تمام العلم لله وقدرته وتنزيهه عن الشريك ، كهيئة بناء المطلع في التظاهر على هذا المقصود ، مع ملحظ مهم ، هو أنه في ثنايا استكمال هذه المقايسة وقع قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ . . . ﴾ (النحل:١٨) وهو مفيد تمام القدرة وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ . . . ﴾ (النحل:١٩) وهو مفيد تمام العلم ، وجاء التصريح بالوحدانية عقب نهاية هذا التشبيه الذي جاء على هيئة المقايسة في قوله : ﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (النحل:٢٢) .

فقد أثبت هذا القياس تمام القدرة ثم تمام العلم ، ثم نزه الله عن الشريك ، بذلك البناء الذي يتعاظم العجب منه ، ولعله الشيخ الصاوي كان يلحظ هنا في قوله عند هذه الآية «وهذا نتيجة قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ وحينئذ فيكون المعنى أتى أمر الله فآمنوا ، وصدقوا أخبارنا ولا تنكروها فالذين لا يؤمنون . . . .»[2] ولا جرم أن قوله : ﴿ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ من نور قوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴾ وكذا قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ (النحل:٢٣) ثم ذكر الذكر الحكيم صورة من صور هذا الخصام ، فيها من نور المطلع ما لا يتسع المقام لبسطه ، ومما له علاقه مباشرة بالمطلع قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ ﴾ (النحل:٤٠) .

---

(١) الصاوي على الجلالين ٢/٣٠٧ .

(٢) الصاوي على الجلالين ٢/٣٠٨ .

وقد لحظ ابن عاشور أن قوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾ (النحل:٤٣) ذو علاقة بقوله : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ في قوله عند الآية : « وهذا ينظر إلى قوله في أول السورة ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ »[1] .

ثم عاد النظم إلى ذكر جملة من النعم من قوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ ﴾ (النحل:٤٨) وجاءت آية السجود الدالة على عدم استكبار كل خلائقه سبحانه ـ كذلك ختمها بقوله : ﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (النحل:٤٩) وهو من نور قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ (النحل:٢٣) وقوله : ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (النحل:٢٢) وقوله: ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (النحل:٣) ونور المطلع ، وذلك مما عقدت به الآيات من قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (النحل:٥٠) ، لأنه يباشر العلاقة بقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَٱتَّقُونِ ﴾ الذي يباشر قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ وذلك يكشفه ما صرح به بعد من قوله : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (النحل:٥١) والعلاقة بين المطلع وبين قوله : ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ ظاهرة ، ومحل التهديد المصرح به التنزيه عن الشريك وعن النقص مذكور في المطلع ، هيئة بناء المطلع ظاهرة جدا في كل عناصر سياق السورة ، ولذلك ذكر بعد هذا التهديد قوله : ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (النحل:٥٢) وهو من نور قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (النحل:٣) مع ملحظ مهم أنه قدم المفعول في التهديدين ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ فكان التهديد ها هنا أبلغ من التهديد في المطلع ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ تناسبا مع إجمال الغرض في المطلع ، ومع التفصيل الذي شاع من بداية

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٠ .

ذكر النعم إلى هنا ، ولا كقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) في بيان تمام القدرة .

ثم يمهد السياق لإجراء مقايسة أخرى متصلة ببيان تمام القدرة من قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ (النحل:٥٦) ويضع الذكر الحكيم معالم تنادي على علاقة التراكيب داخل السورة بالتراكيب في مطلعها مثل قوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ (النحل:٦١) وقوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل:٦٨) لذلك كان أمر النحل أدل على تمام قدرته من بين سائر مخلوقاته لما في شرابه من الفوائد العجيبة ، وغير ذلك مما أبانت عنه السنة ، وكشفه الطب فيما بعد ، فأبان القدير عن أن هذه الأعاجيب في أمر النحل وحي ، والنحل من عباده ، وكأني بصوت هذا التعبير يتعالى في النداء على قوله : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ وهذا تواصل عجيب في بناء المعاني في السورة القرآنية ينفصل به كلام الله عن بيان الناس ، فسبحان من أنزله ولله نوره .

والملحوظ أن النعم الواقعة في التمهيد لمقايسة تجري بين المعبود الحق ومعبوداتهم هي المذكورة في العنصر الأول من السورة بعد المطلع من ذكر الماء ، والأنعام وغير ذلك ، ولابن عاشور ملمح لطيف في التفريق بين قوله هنا : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ (النحل:٦٥) وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ (النحل:١٠) في قوله : «فكان ذكر إنزال الماء في الآية مسوقا مساق الاستدلال وهو هنا مسوق مساق الامتنان .... وبهذا الاعتبار خالفت هذه النعمة المذكورة في قوله سابقاً : هو الذي أنزل .... باختلاف الغرض الأول»[1] ولله هداه فيما نور من أن

(١) التحرير والتنوير ١٩٧/١٤ .

عناصر سياق السورة ، قد تتقارب في بنائها لدرجة إيهام التكرار ، وتقع بعض الفروق إيذانا بقوة الملابسة ، ودقة المفارقة في آن واحد ، وذلك لأن المساقين يساقان في مقصود واحد ، هو تمام علم الله وقدرته والمقايسة التي تمهد الآيات لها ، مقايسة في الامتنان ، كما سيظهر ، ومما له صلة بما نحن فيه من بيان العلاقات ما فرق به البقاعي بين قوله هنا : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ (النحل:٦٦) وقوله في المؤمنون : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ (النحل:٢١) بقوله « ولما كان الأنعام اسم جمع فكان مفردا ـ كما نقل ذلك عند سيبويه ـ وذكر المسقى وهو اللبن لما اقتضاه سياق السورة من تعداد النعم ، فتعينت إرادة الإناث لذلك ، فانتفى الالتباس مع تذكير الضمير قال تعالى : ﴿ مِّمَّا ﴾ أي من بعض الذي ﴿ فِي بُطُونِهِۦ ﴾ فذكر الضمير لأمن اللبس والدلالة على قوة المعنى ، لكونها سورة النعم بخلاف ما في المؤمنون »[1].

وسياق الامتنان هو الحكومة في الفرق بين الأسلوبين ، وقد أبصر البقاعي الفرق بين قوله تعالى هنا ﴿ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (النحل:٧٠) وقوله في الحج : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (النحل:٥) في نور المقصود الذي يجمله المطلع يقول « ولما كان مقصود السورة الدلالة على تمام القدرة ، وشمول العلم والتنزه عن كل شائبة نقص ، وكان السياق هنا لذلك . . . . بدليل ختم الآية نزع الخافض للدلالة على استغراق الجهل لزمن ما بعد العلم ، فيتصل بالموت ولا ينفع فيه دواء ، ولا تجدي معه حيلة فقال : بعد علم »[2].

---

(١) نظم الدرر ١/١٩٣ .

(٢) نظم الدرر ١١/٢٠٦ .

وقد جاء قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ ﴾ (النحل:٧١) ناظراً إلى آية المهاد لتمثيل المقايسة في الآية ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٥٦) ومتواصلا مع مثلي المقايسة في قوله : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا ﴾ (النحل:٧٥، ٧٦) كاشفا أن السياق سياق الامتنان كما لحظ الأئمة فقد ذكروا أن قوله : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ ﴾ «مثل ضربه الله ـ تعالى ذكره ـ للمشركين بالله ... وهذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ، فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منه من نفسك ولا تعدل بالله أحدا من عباده وخلقه»[1] «أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء»[2] ، وختم الاستعارة التمثيلية هذه ، برابط يكشف عن علاقة سياق النعم ، بتمام القدرة والعلم كما نور المطلع ، ذلك قوله : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (النحل:٧١) وما بعده ، وجاء قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (النحل:٧٣) ليرجع بنا إلى التمهيد لتمثيلات المقايسة في قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ (النحل:٥٦) وأحالنا بقوله : ﴿ شَيْـًٔا ﴾ الذي أفاد استغراق ملكيته ـ على المقايسة الأولى في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ (النحل:٢٠) ثم جاءت الاستعارتان التمثيليتان اللتان كشفتا بالتصوير البياني دقائق علاقات السياق ، وتضامت بها هذه العلاقات وتواصلت بالمطلع تواصلاً محكماً ، يكشف البقاعي ـ رحمه الله ـ مناسبتها فيقول : «ولما ختم سبحانه وتعالى ـ بذلك تأكيد الإبطال مذهب عبدة الأصنام بسلب

---

(١) جامع البيان ص١٤/٩٥، ٩٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٨٦٧ .

العلم الذي هو مناط السداد عنهم حسن أن يصل به قوله ـ إقامة للدليل على علمه بأن أمثاله لا يتطرق إليها الطعن ، ولا يتوجه نحوها الشكوك فقال : ضرب الله »[1] فالاستعارتان دليل على علمه فيما يقول ، وقد ذكر القرطبي أن قوله ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً ﴾ « منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم ، وعدم مثل ذلك من آلهتهم »[2] .

وقال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ « ومعلوم أنه يمتنع أن يكون أمر بالعدل وأن يكون على صراط مستقيم إلا إذا كان كاملاً في العلم والقدرة »[3] بل قد لحظ رحمه الله ـ أثر هذا السياق في بناء قوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النحل:٧٧) وقد وجه تعقيب الاستعارتين التمثيليتين[4] بهذه الآية فقال : بعد بيان أن المثلين أولهما دال على تمام علمه ، وثانيهما دال على تمام قدرته ـ « ذكر في هذه الآية بيان كونه كاملا في العلم والقدرة ، أما بيان كمال العلم فهو قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ . . .﴾ وأما بيان كمال القدرة فقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ ... ﴾

---

(١) نظم الدرر ٢١٥/١١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٧٢/٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ٥٩٩/٩ .

(٤) وقد عدهما الزمخشري تشبيهي تمثيل ، وأوضح السيد الشريف أن مراد الزمخشري أن طريق الاستعارة أن يطوي ذكر المشبه قطعا ، وألا يكون منويا أو مرادا ، وقد ذكر أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ . . . ﴾ تمثيل وقاس هذين التمثيلين عليه ، وذكر أن من عدهما من قبيل الاستعارة فقد خالف سلامة الفطرة .

يراجع : الكشاف ٢١٠/١، وحاشية السيد على الكشاف ٢١٠/١، وأسرار البلاغة ص٢٩٦، ٢٩٧ .

والمراد منه تقرير كمال القدرة»[1] كأن كلامه ـ رحمه الله ـ هو نور بصيرة البقاعي ـ رحمه الله ـ في تقريره مقصود السورة وتشبيه سرعة وقوع الساعة يرجع به البقاعي إلى أول السورة مع مراعاة موقعه بعد هاتين الاستعارتين فيقول : «ولله غيب . . . . كما أن له وحده شهادتهما فما أراد من ذلك ، كانت قدرته عليه على الشهادة من الساعة التي تنكرونها استعظاما لها ومن غيرها ، بما فصله لكم من أول السورة إلى هنا من خلق السموات والأرض وما فيهما ...»[2] فكلامه هو الذي أعاننا على تحديد المطلع ، وبيان بداية تفصيله ، مع ملحظ مهم هو أنه لم يقل وما أمر الله إلا كلمح البصر تناسبا مع الوجه الثاني في المراد بقوله : ﴿ **أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ** ﴾ من إبقاء الماضي على وضعه وتظهر قوة صلة تشبيه سرعة وقوع الساعة بالمطلع بمقارنة التشبيه بقوله تعالى في سورة القمر ﴿ **وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ** ﴾ (القمر:٥٠) ، واستبصار التركيبين يدل على أن تركيب تشبيه النحل يفيد سرعة الوقوع أبلغ من تشبيه سورة القمر ، وقد تقارب التشبيهان لتقارب افتتاح السورة فيهما ، واللغة تدل على أن قولنا : لمح بصره معناه نظر إلى الشيء ، ولمح ببصره امتد نظره إلى الشيء كأن الباء أكسبت الفعل تراخيا في الوقوع بهذا الفرق الدقيق الذي يتناغى فيه كل تشبيه مع ما افتتحت به السورة في كل كما بيناه في دراسة أخرى[3] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٥٩٩/٩ .

(٢) نظم الدرر ٢٢٠/١١ .

(٣) يراجع مادة (لمح) المصباح المنير ، ص٥٥٨، واللسان ٤٠٧٢/٥، وأساس البلاغة ، ص٤١٤، أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٢٧٧ وما بعدها الدكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

ثم انتقل السياق إلى ذكر جملة أخرى من النعم تتقارب في سياقها مع الجملة من النعم المذكورة في قوله : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ** ﴾ (النحل:٤٨) من قوله : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ** ﴾ (النحل:٧٩) مع تناغي التسخير مع آية السجود ولتقاربها مع سياق الامتنان السابق جاء في سياق ذكرها قوله : ﴿ **كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾ (النحل:٨١) وقوله : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا** ﴾ (النحل:٨٣) وجاء قوله : ﴿ **وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ** ﴾ (النحل:٨٦، ٨٧) كشرح لقوله : ﴿ **أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (النحل:٢٧) .

وهكذا تتواصل آيات السورة ، وكلها دائرة في نور المطلع الذي يجمل المقصود ، وفي نهاية السورة تجد قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (النحل:١٢٠، ١٢١) وهو ظاهر الصلة بسياق النعم ، ونور المطلع لذلك لا تجد كقوله : ﴿ **شَاكِرًا ...** ﴾ في قصة إبراهيم عليه السلام في الذكر الحكيم مع ملحظ مهم هو أنه أبو الأنبياء .

وخيط آخر حاولنا استبصاره في نور المطلع وسياق النعم فلا كقوله تعالى : ﴿ **قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ (النحل:٢٦) وهو استعارة تمثيلية[1] تصور سرعة وقوع العذاب ، متصلة

(١) يراجع : حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القرطبي البيضاوي ١٧٥/٢، ونصه (وهو استعارة تمثيلية شبه حالهم في أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها الأنبياء فجعلها الله ـ تعالى ـ سبب هلاكهم بحال قوم بنوا بنيانهم ، وعمدوه بالأساطين ، فأتى البنيان من تلك الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف).

بالنعم من البنيان والقواعد والسقف بهذه العناصر التي بنت الاستعارة ، وأبان عن سر اختيارها نور المطلع الذي يجمل المقصود تجد نور هذه الاستعارة في قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . . ﴾ (النحل:٣٣) وهو مما يرجح أن المراد من الماضي في قوله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ حقيقته أي مباديه والآية عند ابن عاشور «استئناف بياني ناشئ عن جملة قد مكر ، لأنها تثير سؤال من يسأل عن إبان حلول العذاب على هؤلاء ، كما حل بالذين من قبلهم فقيل : ما ينظرون إلا أحد أمرين ..»[1] ويلحظ أن قوله : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (النحل:٣٤) من نور الاستعارة التي تفيد تمام إحاطة العذاب بهم .

كما تجد صداها متعاليا في قوله : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النحل:٤٥) وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (النحل:٤٦) وما أحال على المطلع وكشف علة قوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ من قوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل:٤٧) هو تواصل محكم وعجيب وبديع كما تجدها بصداها ونورها ، ولونها وشياتها في المثل أيضا في قوله : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (النحل:١١٢،١١٣) .

وهو مثل كاشف عن وقوع العذاب ، وواصل وقوع العذاب بالنعم كما يتظاهر به مطلع السورة وقد قال ابن عاشور في وجه عطف هذا المثل هو

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٤٥ .



(عطف عظة على عظة ، والمعطوف عليها هي جمل الامتنان بنعم الله تعالى عليهم من قوله : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ (النحل:٥٣) ، وهو قول من استبصر السلك الخفي الذي انتظم التراكيب إلى هذه الآية ، وفي تراكيب استعارات السورة وبيانها وصياغتها ما تشيب له النواصي من الدهش عند استكشاف شيء من نور علاقات تراكيبها ومعانيها وسبحان الله العظيم .

وقوله : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ** . . . ﴾ إلى آخر السورة ناظر إلى المطلع الذي ينم عن مجادلة الكافرين ، لاسيما إذا ما استعين على استكشاف ذلك بسبب النزول : ولولا شغلنا بمحاولة الكشف عن العلاقات لاستوقفتنا أسرار تراكيب السورة التي جاءت وفقا للعلاقات والروابط الدقيقة ، والتي تتواصل جميعا في سبيل بيان المقصود الذي أجمله المطلع .

وقد ذكر البقاعي ـ رحمه الله ـ بأن الانتهاء جاء ناظرا في الابتداء في قوله عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ** ﴾ (١٢٨) « فهم في حضرات الرحمن وأنت رأس المتقين المحسنين ، فالله معك ، ومن كان الله معه كان غالبا ، وصفقته رابحة ، وحالته صالحة ، وأمره عال ، وضده في أسوأ الأحوال فلا تستعجلوا قلقا ، كما استعجل الكفار استهزاء تخلقا في التأني والحلم ، بصفة من تنزه عن نقص الاستعجال وتعالى عن ادعاء الكفار والأمثال ، فقد عانق آخرها أولها ، ووافق مقطعها مطلعها »[١] . والحمد لله على ما وفق . .

* * *

---

(١) نظم الدرر ١١/٢٨٥ .



المبحث الرابع

سورة الأنبياء

ذلك هو اسمها فيما ورد عن النبي ﷺ «بنوا إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول ، وهن من تلادى»[1]. وقد اشتملت آيها على ذكر ستة عشر نبيا ، وقد تضاربت مع سورة الأنعام التي ذكر فيها ثمانية عشر نبيا ، إلا أنها اجتزأت بحلقة من قصة كل نبي في الغالب على العكس من سورة الأنعام ، فقد أجمل ذكر الأنبياء فيها عدا إبراهيم عليه السلام .

ويعظم بيان الخصيصة البيانية لذكر حلقة كل نبي في هذه السورة ، لأن مقتضى استظهار هذه الخصائص استبصار قصص النبيين في الذكر الحكيم كله ، وهو في الاتساع كما ترى ، فحسبنا في هذا المقام الإشارة إلى بعض الخصائص ومحاولة كشف علاقتها بالمطلع .

يبصر ابن الزبير ـ رحمه الله ـ مناسبة الأنبياء لطه مجملا ذكر مناسبة طه لمريم لأن القرآن ـ عنده ـ سياق واحد ـ فيرى أن الأنبياء من جملة التأنيس الذي سبق في (طه) وقد أعانه على استبصار هذه العلاقة ما ختمت به سورة طه ، وهو بين المناسبة بأول الأنبياء يقول ـ رحمه الله ـ «ثم ابتدأت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس فبين اقتراب الحساب ، ووقوع يوم الفصل المحمود منه ثمرة ما كوبد في ذات الله ... . وقد تضمنت هذه السورة إلى

(١) فتح البارى أخرجه البخارى في كتاب تفسير القرآن ٢٨٩/٨ .

ابتداء قصة ـ إبراهيم عليه السلام من المواعظ والتنبيه على الدلالات وتحريك العباد إلى الاعتبار ... وهو من مقصود السورة وفي قوله : ﴿ **ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ** ﴾ إجمال لما فسره النصف الأخير من هذه السورة من تخليص الرسل (أبصر عبارته فهو يحثنا على استبصار قصص السورة في نور هذه الآية) وتأييدهم الذي تضمنه النصف الأخير من لدن قوله : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ** ﴾ إلى آخر السورة ، وكمال للغرض المتقدم من التأنيس وملائمة ما تضمنته سورة (طه) وتفسير لمجمل قوله : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ** ﴾ (ثم يكشف لنا عن علاقة تراكيب السورة الخاصة بها ـ فيما قال ـ بالمطلع ، بل يجعل المطلع هو مقتضى اختصاص السورة بتراكيب خاصة) يقول : ولما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى : ﴿ **ٱقْتَرَبَ** . . . ﴾ وكان واردا في معرض التهديد ، وتكرر في مواضع منها ﴿ **وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ و﴿ **سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى** . . . ﴾ و﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ** . . . ﴾ و﴿ **لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** . . . ﴾ و ﴿ **وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ** . . . ﴾ و﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ** . . . ﴾ و﴿ **وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ** ...﴾ و﴿ **كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ** .. ﴾ ﴿ **وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ** ... ﴾ ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ** ... ﴾ ﴿ **يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ** . . . ﴾ إلى ما تخلل هذه الآى من التهديد وشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بما في الساعة وما بعدها وبين يديها في نظائر هذه السورة ، وقد ختمت بمثل ما به ابتدئت»(١) لله هذا الرجل كم استغرقه البحث والتنظير بين معاني السورة ، وطرائق بيانها في السورة ، وجريانها وطرائق

---

(١) البرهان لابن الزبير ص١٣١-١٣٣ .



بيانها في القرآن كله حتى قطع بهذه النتيجة ، التي كشفت عن العلاقة البيانية بين تراكيب السورة ، وبين مطلعها؟

وبصيرة ابن الزبير هذه هي التي هدت البقاعي ـ رحمه الله ـ إلى إحكام البيان عن المقصود ، وإحكام البيان عن العلاقات التي جمعت آيات السورة في هذا المقصود .

يقول : رحمه الله ـ « ومقصودها : الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ـ ولو بالموت ـ ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير (ثم تسمع إليه وهو يبين عن علاقة جريان معاني السورة بما قرره) لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها ،وهو من لا يبدل القول لديه ، والدال على ذلك أصح دلالة . فمجموع قصص جماعة ممن ذكر فيها من الأنبياء عليهم السلام ـ ولا تستقل قصة منها استقلالا ظاهرا لجميع ذلك ... . ولا تخلو قصة من قصصهم من دلالة على شيء من ذلك فنسبت إلى الكل »[(١)] .

ماذا وراء عبارته ـ رحمه الله ـ من الكد والوكد حتى تنورت له هذه العلائق؟ والمقصود عند الشيخ الصعيدي إثبات قرب ما أمروا بتربصه[(٢)] فآخر السورة قطب السورة الذي تدور عليه تراكيبها هو الاستدلال على قرب وقوع الساعة ، ووقوع الساعة والحساب فيها ، والاستدلال على قرب وقوع الساعة غير الإخبار بقرب وقوعها كما جاء في مطلع سورة القمر ، ولهذا المقصود جرت معاني السورة وطرائق بيانها على إلقام الكفار الحجر فيما أنكروا من أمرها المستتبع ما بعدها ، ذلك ما ينبئ به بناء المطلع الذي يمثله قوله تعالى ﴿ **ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ**

(١) مصاعد النظر ٢٨٦/٢ .

(٢) ينظر النظم الفني ص١٩٩ .

مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:١) وأنت ترى عدة دقائق ظاهرة في هذا التركيب منها أن ذكر الساعة وقع ضمنا ، والتركيب على ما قرروه من مقصودها اقتربت الساعة التي يقع بعدها الإنشار ـ الذي لم يدعه الناس لآلهتهم ـ الذي يقع بعده حساب الناس وهم ... لكن القرآن بإسناد الاقتراب إلى الحساب دل على أن كل ما ذكر من هذه الأمور جاء اقتضاء لذكر الحساب ، وأومأت تراكيب آي هذه الأمور بمعالم لفظية ظاهرة إلى عقدها بذكر الحساب فامتازت ـ لاتصالها بمقصودها ـ عن نظائرها في الذكر الحكيم ، كما نقلناه فيما مضى من كلام ابن الزبير ، وكما أبصرناه في عبارة أبي السعود فيما يأتي من استبصار نور المطلع .

ولما كان بدهيا أنه لا إنذار بعد الساعة ، والقرآن إنذار ـ استحكم لدى الأئمة أن المراد من اقتراب الحساب اقتراب الساعة يقول جار الله : «والمراد اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة ، فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك ونحوه ـ وَاقْتَرَبَ الوعد الحق»[1] وولَّد أبو السعود نكتة هذه المخالفة في الإسناد للمراد ـ فيما يظن ـ فقال : «وإسناد الاقتراب إليه لا إلى الساعة ـ مع استتباعها له ، ولسائر ما فيها من الأحوال والأهوال الفظيعة ـ لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عما يذكرهم ذلك»[2] مع مراعاة أن الساعة بالموت وبإهلاك الأمم ، وبالساعة الكبرى وكل ما جاء من الآى في هذه الأمور ينساق إلى بيان غفلتهم عن الحساب وإعراضهم كما أبصره أبو السعود .

«والاقتراب مبالغة في القرب ، فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة

---

(١) الكشاف ٥٦١/٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٦٨/٧ ، وروح المعاني ٣/١٧، ٤ .



مستعملة في تحقق الفعل ، أي اشتد قرب وقوعه بهم»[1] . ويتقابل معه ما في السورة ـ مما اختصت به من نحو قوله : ﴿ **خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ** ﴾ (الأنبياء:٣٧) .

والمراد بالناس المشركون فيما يقول ابن عباس ، وكما يفصح عنه ما بعده فيما يقول أبو السعود[2] كما يكشفه بناء آي القرآن بعد المطلع ، وقد أدخل القرآن الكريم الروع في قلوب المشركين بأمور في التركيب ـ مع ضميمة دلالة اقْترب ـ بإضافة الحساب إليهم وباللام التي أكدت هذه الإضافة فيما يقول جار الله[3] وبتقديم (للناس) على الفاعل الذي يدل على «المسارعة إلى إدخال الروعة ، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوءهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب»[4] ولوعيهم بدقائق هذه اللغة الشريفة ودلالتها ، أورثوا رعبا بهذا الخبر فيما ترجم القرآن حالهم عند سماعهم إياه ، ﴿ **وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ** ﴾ تأمل مبالغتهم في إخفاء نجواهم ، واجتهادهم في كتمانها ومحاولتهم دفع ماداخلهم من الروع من هذا الخبر ، فيما حاولوا به التخفيف من حدثه بقولهم : ﴿ **هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ** ﴾ (الأنبياء:٣) أتبصر معي أنهم كانوا على بصيرة من أنه لا يقدر على الإخبار بهذا الخبر إلا من كان قادرا على الإنشار الذي يقع بعده الحساب؟ مع ضميمة أن إنكارهم كان متوجها إلى البعث لا إلى الموت ، فذلك مما لا سبيل إلى

(١) التحرير والتنوير ٨/١٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٦٨/٧ .

(٣) الكشاف ٥٦١/٢ .

(٤) أبو السعود ٦٨/٧ .

إنكاره ، وذلك الذي ينكرونه لم يدعه أحد لإله متخذ ؛ لعل جلاء الحق ووضوحه لديهم ، ثم إعراضهم عنه هو ما وراء وصفهم بالظلم في الآية المذكورة ، مع ضميمة إسرارهم بالنجوى في هذا الموضع الذي لم يقع في غيره ، ويفسر قتادة ـ رضي الله عنه ـ الضمير في أسروا بالمطلع فيقول : «وأسر هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعة منهم وهم في غفلة ـ فيما يرويه ابن جرير ـ رحمه الله ـ (والذين ظلموا) عنده إما أن يكون بالخفض على أنه تابع للناس في قوله : ﴿ **ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ** ﴾ والرفع على الاسم الذي في قوله : ﴿ **وَأَسَرُّواْ** . . . ﴾ وقد يحتمل أن يكون رفعا على الابتداء ويكون معناه وأسروا النجوى هم الذين ظلموا ....»[1] وعلى أى الوجوه فهو مما يؤانس ما حاولنا استنباطه .

ودقيقة أخرى مهمة في المطلع بعدما احتمل كل هذه الدلالات وغيرها هي في هذا القيد ، ﴿ **وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ** ﴾ وغير المتعظ لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون غافلا ، وإما أن يكون معرضا ، ومن بدائع الذكر الحكيم اختصاص السورة لاسيما في مطلعها بالجمع بين الأمرين[2] بل بتقييد الإعراض بالغفلة ، وذلك ـ فيما أرى ـ يلوح إلى أن السورة تختص بدلائل وآيات على اقتراب الساعة هي جلية جلاء الشمس في وضح النهار لا ينكر نورها إلا غافل معرض ، وذلك هو الظلم ، وذلك يترجمة ما اختصت به السورة من قوله : ﴿ **وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٧) وهذا التركيب ينادي على قوله : ﴿ **ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ** ﴾

---

(١) جامع البيان ٣/١٧ .

(٢) وقد ذكرت الغفلة ثلاث مرات في سورة مريم ٣٩، والقصص ١٥، وق ٢٢ .



وقوله ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ ﴾ ينادي على قوله ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ولو قال هاهنا (بل كنا معرضين) لسقط ما بين الآيتين من دلائل وحجج اقتراب الحساب وحسبهم وصف أنفسهم بجريمة الإعراض في آخر السورة ﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٧)[١] . وفي مقابلة تصدير السورة بذكر الغفلة انتشر لفظ الذكر مقصودا به القرآن غالبا انتشارا غير معهود في سور الذكر الحكيم قاطبة بل وصفت التوراة بأنها ذكر ، وذلك ما لم يقع في سورة أخرى ، ويغريك بقبول هذه اللطيفة أن سورة (ص)[٢] مع تصديرها بلفظ الذكر لم ينتشر فيها هذا الانتشار ، وسورة القمر[٣] كذلك وانتشر في السورة ـ مقابلة لوضوح الآيات أيضا ـ الإعراض انتشارا غير معهود في سور[٤] الذكر الحكيم .

وقد أعقب المطلع بجملة من الكلام تبين وجه اتصافهم[٥] بالحال ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ وفي تراكيب هذه الجمل من الخصائص ما يعقدها بالمطلع ، وقد جاءت تراكيب في قصص النبيين في السورة ناظرة إلى هذه الجمل معرضة بكفار مكة على مقتضى أحوال أقوام المرسلين ، ومقتضى أحوال العرب في آن واحد ، كما سنحاول كشف شيء منه .

---

(١) الآيات : ٢، ٧،١٠، ٢٤، ٣٤، ٣٦، ٤٢، ٥٠، ٨٤، ١٠٥ .

(٢) الآيات ١، ٨، ٣٢، ٤٩، ٨٧ .

(٣) الآيات ١٧، ٢٢، ٢٥، ٣٢، ٤٠ .

(٤) الآيات من سورة الأنبياء ١، ٢٤، ٣٢، ٤٢ .

(٥) وعلاقة التبيين بالمطلع ظاهرة في كلام الأئمة يغني عن ذكرها الإشارة إليها في مطلعها ، جامع البيان ٣/١٧، وأبو السعود ٦٩/٧، والصاوي على الجلالين ٧١/٣، والتحرير والتنوير ١١/١٧ وغيرهم من الأئمة .



وجاء الحديث المجمل عن المرسلين والهالكين ناظرا إلى هذه الجمل من الآية (٦) إلى (١٥) رادا ما أسر به الظالمون من كفار العرب من البشرية والسحر والافتراء والجنون ، والأكل والموت ، ولظهور هذه العلائق مثلا ذكر البيضاوى أن قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ (الأنبياء:٧) «جواب قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم»[1] وفيما ذكر أبو السعود من أن قوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ﴾ (الأنبياء:١٠) «كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقبة القرآن العظيم الذي ذكر في صدر السورة الكريمة إعراض الناس عنه»[2] وفيما قال ابن عاشور معللا إضافة الذكر إليهم في نفس الآية ـ مع مراعاة اختصاص السورة بإضافة الذكر إلى الكفار من العرب ـ قال في إضافة الضمير «تحقيق لكون القرآن حقا ، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عموا عنها فيما حكى أول السورة بقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم . . . ﴾ »[3] .

وقد شاع ذكر إهلاك الأمم في الذكر الحكيم إلا أنك لن ترى كقوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (الأنبياء:١١) وتناسب المجاز العقلي في قوله : ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ الذي ينبئ بفحش الظلم وشيوعه ـ مع القصم الذي هو أشد الكسر كما تناسب معه تشبيه أهل القرية إثر هذا الفعل مما اختصت به السورة ﴿ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ (الأنبياء:١٥) ولم ينفعهم قولهم حين البأس : ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٤) ألست تبصر أن في هذه الخصائص تعريضا

---

(١) أنوار التنزيل ٦٧/٢ .

(٢) أبو السعود ٧٣/٧، وروح المعاني ١٤/١٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢/١٧ .



بالمشركين؟ بضميمة أنهم وصفوا في المطلع بأنهم في غفلة معـرضـون وما بعدها من القيود في جمل التبيين ، ثم لا ينفعهم قولهم حيـن البـأس ﴿ **قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٧) كأن وصفهم بالإعراض في المطلع ثم بالظلم هنا يشي بتشارب السياق وهو ناظر إلى المطلع ذى البناء البياني الخاص بما يثيره من التهديد والوعيد ، تلك بصيرة جار الله عند قوله تعالى : ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا** ﴾ (الأنبياء:١١) وقد نور أن الآية « واردة عن غضب شديد ، ومنادية على سخط عظيم ، لأن القصم أفظع الكسر ، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف القصم »[١] وعبارته ظاهرة في النظر إلى المطلع كما ترى . وبإهلاك الأمم كانت ساعتهم ، ولم ينكر أحد إهلاكهم ، وإنما قد يجرى الإنكار فيمن يسند إليه الإهلاك وفيما يكون بعده .

وفي نور المطلع ـ على ما حاولنا تمثله ـ تبصر اختصاص السورة بهذه الاستعارة ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ (الأنبياء:١٨) فللحق سلطانه بالفعل حينا كما يفسره اختصاص السورة بالفعل ﴿ **قَصَمْنَا** ﴾ وبالحجة حينا آخر كما سيأتي ـ فنوره جلي ظاهـر لا ينكره إلا غافل معرض على حد ما ذكر المطلع . ويبدو أن هذه العلائق كانت بينة عند جار الله وهو يفسر هذه الاستعارة ـ مع إغماض الطرف عن اعتزاله في بيان المستعار له ـ يقول : « واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا ، قذف به على جرم رخو أجوف فدفعه »[٢] ألست ترى

---

(١) الكشاف ٢/٥٦٤ .

(٢) الكشاف ٢/٥٦٥، ٥٦٦ .



مناسبة بين الاستعارة وبين ﴿ قَصَمۡنَا ﴾؟ كما أبصر الألوسي ـ رحمه الله ـ فيما قال في هذه الاستعارة «أي يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى»[1].

وماذا تبصر وراء قوله ﴿ فَيَدۡمَغُهُۥ ﴾ بدل فيقتله أو فيقصمه أو غيرهما من مفردات اللغة ؟ ألا تبصر أن ذلك إشارة إلى أن ما سيرد من البراهين على اقتراب الحساب مما يصيب الدامغ فيأخذ بمخانق صاحب الباطل؟ ألا تبصر أيضا أن هذه الحجج لا تجري إلا بمن أوتي رشده؟ وهو أمر بين في قصة الخليل عليه السلام كما سيأتي ، لأن ما نحاول كشفه الآن له صفة وثيقة بالقصة .

ومن نور المطلع ما تراه في هذه الحجة فالتشفيع على اتخاذ الآلهة . جار في كثير من المواضع إلا أنك لن تجد كهذين القيدين ﴿ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾﴿ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾ في قوله : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٢١) وفي القيد الأول «الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض»[2] وفيه إلماع إلى قصة الخليل مع الأصنام كما سيأتي وفي القيد الثاني رميهم بدعوى اختصاص آلهتهم بالإنشار ، وهذا القيد «هو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع لا محالة»[3].

وقد استشكل جار الله رميهم بهذه الدعوى ، وهم أبعد ما يكونون منها ثم أجاب «الأمر كما ذكرت ، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ،

---

(١) روح المعاني ٢٠/١٧ .
(٢) مفاتيح الغيب ٩٤/١١ .
(٣) أبو السعود ٧٧/٧ .



والإنشار من جملة المقدورات»[1] والبناء البياني ـ كما ترى ـ مع تشاربه من فيض الاستعارة الماضية ناظر إلى المطلع ، لاسيما أنه بنى عليه الوحدانية ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ (الأنبياء:٢٢) وعقد كل ذلك بالمطلع ، فالذي توحد في الإنشار توحد في كونه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣) وهو وحده الذي يمكن أن يتوعد ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ ألم أذكر لك أن جريان المعاني في كثير من السور يأتي في كل موضع متواصلا مع مقاصدها التي تجملها مطالعها ، فآيات الوحدانية جارية في الذكر الحكيم ، وأنت تراها هاهنا ناظرة إلى المطلع ، ناهلة من فيض الاستعارة بهذا البرهان العقلي الساطع ، حتى الملائكة المقربون عند ادعاء الألوهية ـ تنزهوا عنها ـ في جهنم ، لكنهم عباد مكرمون من خشية ربهم مشفقون لا يصدرون إلا عن أمره ، تدبر قوله ـ سبحانه : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٢٩) هم إذن في عداد القائلين ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

مازال سياق ذكر الإنشار (محل الحساب وموضعه) هو الذي يستحوذ علينا في بيان الآيات انتقل القرآن بعد هذا الحجاج العقلي في إثبات الإنشار لله ، إذ الكل على الإقرار بعدم إثباته لآلهتهم ، فيكون عند عدم إثباته لله غير مثبت لأحد ، مع أن دلائل الكون يتعالى صوتها بحصوله كل آن ، آيات ذكر السموات والأرض شائعة في سياق الذكر الحكيم لكنها جاءت هاهنا في سياق الإنشار ، الناهل من فيض دلالة الاستعارة الناظرة إلى المطلع تأمل ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء:٣٠) وعقد كلا بالمطلع

---

(١) الكشاف ٢/٥٦٦ .



بقوله : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٢) ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

والذي يعنينا هو ما قاله ابن عاشور وعلى جميع التقادير فالمقصود من ذلك أيضا الاستدلال على أن الذي خلق السموات والأرض وأنشأهما من العدم قادر على أن يخلقه بعد انعدامه[1].

فالآية الكريمة دالة على إنشائهما وبدايتهما ولعلنا نستطيع في هذا النور تفسير اختصاص السورة بقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) التي وقعت في سياق قوله : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ (الأنبياء:٩٧) وقوله : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ (الأنبياء:١٠٣) ومعنى الطي عند المفسرين واللغويين « رد بعض أجزاء الجسم اللين المطلوق على بعضه الآخر ، وأنه نقيض النشر »[2] ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي نعيدها رتقا كما كانت ، وتزداد بصيرة بنور تشبيه السماء في هذا السياق بمقارنته بنظائره في تشبيهات السماء عند قيام الساعة[3] وقد حاولناه في دراسة أخرى .

وجاء قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ. . . ﴾ (الأنبياء:٣٤) ناظرا إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٨) وجاءت مسلمة أخرى لا سبيل إلى إنكارها ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (الأنبياء:٣٥) وهي ساعة كل أحد ، وموقعها من سياق ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ كما ترى ، عقدت بالمطلع ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥) وجاء في هذا السياق قوله : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٥٥ .

(٢) البيضاوي ٨٢/٢ ، وبصائر ذوى التمييز ١٩٢/٣، والتحرير والتنوير ١٥٨/١٧، واللسان ٨٧٢٩/٣ ، وأساس البلاغة ، ص ٢٨٧ .

(٣) الآيات في : الرحمن ٣٧ ، المعارج ٨ ، النبأ ١٩ .

﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ (الأنبياء:٤٢) الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، وقد تضمن ما ذكر من آيات الحفظ في مثل قوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ (الأنعام:٦١) وتضمن مع ذلك ما شاع في الذكر الحكيم من آيات الرزق ، وما يجري بين العباد من القضاء الذي هو حفظ للحقوق وتتضمن الحفظ من الشياطين والأفاعي وغير ذلك ، وقد جاءت هذه الآية مهادا لقوله : ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ (الأنبياء:٤٣) .

والآية في سياق الإنشار كأني بصدى الذكر الحكيم يقول : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ أو يمنعوننا من أخذهم وإنشارهم ـ في تركيب بديع للحجج كما ترى ـ بل إن ما اتخذوهم لا يستطيعون نصر أنفسهم إلا أن يجاروا منا ، تأمل لا يخطئك نور قوله : ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ (الأنبياء:١٨) ثم تدبر ما يلفتك به النظر إلى أصحاب القرى ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٤٦).

أي كما قال أصحاب القرى الذين قصمناهم ، وموقعها من سياق المطلع والاستعارة على ما بينا ويلح السياق بعد كل هذا ليلفتك إلى المطلع بنور دقيق البيان فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧)[1] ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ .

---

(١) وقد ذكرت في آيات الميزان في سور أخرى الأعراف ٨، ٩، والمؤمنون ١٠٢، ١٠٣، والقارعة ٦، ٨ .



ومما تتجلى فيه العلاقة في قصة موسى هاهنا أنك لا تجد كقوله ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (الأنبياء:٤٨) فقد وصفت التوراة بالفرقان لوقوعها في سياق الميزان ، وسياق الاستعارة ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ**. . . ﴾ هكذا حجج الله في كتبه جميعا وشبهت التوراة هاهنا بالضياء ، واتصاله بالسياق كما ترى يستبصر ذلك بتنظير تشبيهها بالنور والبصائر والإمام في مواطن أخرى[١] ـ كما حاولناه ـ بفضل منه تعالى ـ في دراسة أخرى ، ومما يتدبر هاهنا وصفها بالذكر في سياق الغفلة ومنه أيضا وصف المنذرين بها بقوله : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ** ﴾ (الأنبياء:٤٩) وأنت تراه ينظر إلى قوله : ﴿ **وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ** ﴾ (الأنبياء:٢٨) لأنه قول من ﴿ **لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ (الأنبياء:١٩) وتتابع قصص النبيين في نور المطلع وما ساق إليه ، وينبهنا الذكر الحكيم إلى هذا الاستبصار بقوله : ﴿ **وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٥٠) .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ « أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد منكرون وتقولون : هو أضعاث أحلام بل افتراه »[٢] بماذا يشير ابن جرير بهذا التعبير الذي لم يعجبه غيره؟ ألم أذكر لك أن الأئمة انتشرت بياناتهم في هذه العلائق ، وأوضح منه وأظهر ، ما ذكره أبو السعود ـ رحمه الله « أي القرآن الكريم أشير إليه بهذا إيذانا بغاية وضوح أمره

---

(١) الأنعام ٩١، وهود ١٧، والأحقاف ١٢، والقصص ٤٣، ويراجع : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٨٨ وما بعدها ، الدكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

(٢) جامع البيان ٢٦/١٧ .



(ذكر) يتذكر به من يذكر ، وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام ، وموافقته لما مر في صدر السورة الكريمة»[1] الأئمة حرروا ما ندَّعي محاولة كشفه ، فالله المستعان على محاولة جمعه والانتفاع به .

لعل مما يثلج الصدر الآن أن تفسير اختصاص قصة إبراهيم هاهنا بقوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (الأنبياء:٥١) في نور قوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الأنبياء:١٨) وهذا القيد (من قبل) يشير إلى ما تلبسناه من أن القرآن سيسوق براهين على الحساب تدفع الكفار بمن أوتي رشده محمد ﷺ بعد الاستعارة التي تلح علينا في آيات السورة ، وكأني بالسياق يقول : لئن أوتيت رشدك فقد أوتيه موسى من قبل (الفرقان) وقد أوتيه من قبلكما إبراهيم ، وهذا الفهم هو الذي يجبرنا حتى نفهمه على وجهه ـ على أن نجعل قصص السورة تحت مرآة ما مضى من السياق ، وهذه ومضات من هذا النور ، ألا ترى أن قول إبراهيم ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ﴾ يوشك أن يدل على أنه يريد أن يقول لهم : (أنتم تلعبون) كما أبان عنه القرآن بردهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٥٥) أبصر كل ذلك في نور قوله ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنبياء:٢) أو أبصر أولهما في نور ثانيهما هكذا أنت تحار في فصم النورين ، الأول اقتضى سياق الثاني على وجه ما من الأسلوب ، والثاني يعرض بالأول ، فسبحان الله! وكل ما نحاول سياقته ناظر إلى سياق هذه الحلقة في المواضع الأخرى من القرآن الكريم ثم تدبر قوله ﷺ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ (الأنبياء:٥٦) أي فطرهن بعدما كانتا رتقا ، الخليل إذن يسوق دليل الإنشار تدبر الخليل

(١) تفسير أبي السعود ٧/٨٩ .



لسان الحق ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ (الأنبياء:٥٨) لا يخطئك نور ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الأنبياء:١٨) ولا نور ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ (الأنبياء:١١)تدبر في هذا النور وصفهم إياه بالظلم،﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٥٩) ثم تدبر سلطان الحق ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنبياء:٦٤) ثم ارتدوا بعد ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ (الأنبياء:٦٥) انقلبوا إذن . تدبر نور قوله ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ .

وما أعجب كلام الأئمة عند التعريض في قوله ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنبياء:٦٣) وهذا باب لا يتغلغل فيه إلا أذهان الراضة من علماء المعاني كما ذكر جار الله ، والذي يعنينا هاهنا هو بيان العلائق تدبر قول جار الله بعدما ذكر أنه لم يقصد نفي الفعل عن نفسه « وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم (ثم تدبر قوله الذي نوره النظر إلى الاستعـارة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ﴾) فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم ...»[(١)] .

والعبارة الأولى ناظرة لقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ. . . ﴾ والثانية ناظرة إلى قوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذلك ما ذكرت من ذي قبل من أن جار الله كان يتنور هذه العلائق .

تلك مساحة النظر إلى سياق التعريض فيما ألح عليه شيخنا الدكتور الخولي في تحرير طبيعة دلالة التعريض ومنشئها يقول بعد هذه المحاجة « فيم المعركة إذن يا قوم؟ إن القضية كلها بنيت على أساس واحد إذا اهتز تداعت كلها بأصولها وفروعها .

(١) الكشاف ٥٧٧/٢ .



بنيت على أساس أن الأصنام التي اعتدى عليها آلهة ، وقد تهدم هذا الأساس بشهادتكم أنتم أنها عاجزة أن تقول فضلا عن أن تفعل شيئا (تدبر هو ينظر إلى قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم ... ﴾ ثم يقول) قلت : إن دلالات اللفظ على تنوعها تتحول في أسلوب التعريض إلى ذرائع ووسائل لتوليد المعنى التعريضي ، وهذا بدوره يصبح ذريعة ووسيلة لتحقيق الغرض المسوق له الكلام »[١] .

تدبر قولهم : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ (الأنبياء:٦٨) وكيف ينصر العابد المعبود يااَللَّهِ لهذه الغفلة غفلة كفار قوم الخليل وقوم النبي ﷺ (أجمعين) .

ولأن قصص النبيين وقع في ضمن السياق الوارد فيه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنبياء:٩) كما مضى في كلام ابن الزبير ، تكرر ذكر النجاة تكرارا غير معهود في الذكر الحكيم[٢] مع القصص ولا في الأعراف ولا في هود[٣] .

وقصة داود وسليمان عليهما السلام ذكرت في مواضع أخرى إلا أن قصة الحكومة التي جاءت هاهنا لم تقع في أى من مواضع ورود قصصهما ، وألحظ أن قوله : « نَفَشَتْ » لم يقع في أي من المواضع إلا هنا دون القرآن كله ـ كما أن لفظ ﴿ يَكْلَؤُكُم ﴾ لم يقع إلا هنا ومعنى (نَفَشَ) كما قال الراغب « ونفش الغنم انتشارها ، والنفش بالفتح الغنم المنتشر قال تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ والإبل النوافش المترددة ليلا في المرعى بلا راع »[٤].

(١) التعريض في القرآن الكريم ص٣٧، يراجع الفصل بأكمله من ص١٩ وما بعدها .
(٢) الأنبياء ٩، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٨٨ .
(٣) الأعراف ٦٤، ٧٢، ٨٤ ، وهود ٥٨، ٦٦، ٩٤ .
(٤) المفردات ص٥٠٢ .

كأن القصة فيما أرى ـ جاءت في نور قوله ﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ** ﴾ (الأنبياء:٤٢) بهذا القيد ، وبتقديم الليل ، لدفع ما يظن من أن حقوقهم فيما بينهم تحفظ بحكوماتهم وأقضياتهم ، فأبان النظم أن ذلك من الله كما يدل قوله ﴿ **فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ** ﴾ (الأنبياء:٧٩) بعد قوله : ﴿ **وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ** ﴾ (الأنبياء:٧٨) وتعاقب الحكمين يبين تفاوت الإجراء بين الحافظين للحقوق ، بل إن ما يحفظهم من البأس إنما هو من إلهام الله ﴿ **وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ** ﴾ (الأنبياء:٨٠) وأنت تبصر في سياق الآية التي ذكرناها قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ** ﴾ (الأنبياء:٨٢) ﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم** . . . ﴾ إذن لا يمنعه أحد من الإنشار ولا من الحساب ﴿ **لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ** ﴾ (الأنبياء:٢٣) .

وهكذا ينساق الكلام انسياقا في المطلع الذي جمل المقصود ، ولا تجد كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ (الأنبياء:٩٨) وما بعدها ، وهي ناظرة إلى قوله ﴿ **أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا** ﴾ (الأنبياء:٤٣) بسياقها يقول ابن جرير عند هذه الآية (الأنبياء:٩٨) «يقول ـ تعالى ذكره ـ لهؤلاء المشركين الذين وصف ضعفهم أنهم ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون وهم مشركو قريش ... .»[1] .

وهو ناظر بهذا التركيب إلى المطلع كما ترى من بيانه .

---

(١) جامع البيان ٧٥/١٧ .



وجاءت الآيات ناظرة إلى المطلع فقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) ناظر ـ كما بينا ـ إلى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ (الأنبياء:٣٠) بسياقه إلى المطلع ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) ناظر إلى قوله : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾ (الأنبياء:٤٤) بسياقه إلى المطلع ، وترى قوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ ﴾ (الأنبياء:١٠٩ ، ١١٠) في من نور قوله ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنبياء:٤) وقوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ﴾ (الأنبياء:٣) وقوله : ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ . . . ﴾ ينظر إلى قولهم : ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ ﴾ (الأنبياء:٣) .

والحمد لله على ما وفق .

* * *

المبحث الخامس

سورة المؤمنون

يتفق كثير من السالفين والخالفين ممن عنوا باستكشاف المناسبات بين السور على أن سورة (المؤمنون) جاءت تفصيلا لقوله تعالى : في سورة الحج ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (٧٧) يقول ابن الزبير : ـ رحمه الله ـ بعد بيان أن المؤمن قد استشرف سؤالاً لتفصيل ما أمر به من العبادة المستوجبة الفلاح في السورة الماضية ـ «فقيل له : المفلح من التزم كذا وكذا ، وذكر له سبعة أضرب من العبادة هي : أصول لما وراءها ومستتبعة سائر التكاليف ... وأتبعت هذه الضروب بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا ... وكأن قد قيل : إنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة ، وإنما تتخلص في دنياك بالتزام العبادات السبع وقد وقع عقب هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ** ﴾ ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار»[1].

وكان وضوح هذه العلاقة بين السورتين ـ شأن السور قاطبة ـ واسم السورة هاديي البقاعي إلى استكشاف مقصود السورة الذي تدور عليه دقائق

(١) البرهان لابن الزبير ص١٣٥، وقد تابعه في بيان هذه المناسبة السيوطي ، والشيخ عبد المتعال الصعيدي من المحدثين يراجع : تناسق الدرر ص١١٨، والنظم الفني في القرآن ص٢٠٨ .

تراكيبها والذي يجمله المطلع في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنون:١) بما تفيده قد من التحقيق لاسيما بدخولها على الماضي ، وأحكام عبارته في الدلالة على المقصود فقال : ـ رحمه الله ـ « ومقصودها : اختصاص المؤمنين بالفلاح ، واسمها واضح الدلالة على ذلك »(١).

وقد سبقه الشاطبي ـ رحمه الله ـ (ت : ٧٩٠ هـ) إلى تناول سورة (المؤمنون) بتبيان دورانها على غرض واحد ، وإقامة العلل في دقائق الفروق على هذا الغرض بما يعطي نموذجا لدراسة السورة القرآنية ، نحاول في كل ما مضى استكشاف آفاقه ولولا أن للنفس شغفا ، بالبحث عن أصول الأفكار وتتبعها ـ بارقاتٍ ولُمَعًا ومعايشتها خواطر في عقول الأمة حتى تخلقت ولائد غالبات في تراث أعيان علماء الأمة ، لولا ذلك ولولا أن النفس تأبى ـ طمعا في فضل الله ورغبة في عطائه ـ إلا استشراف نور علائق التراكيب في سور القرآن قاطبة ، لولا كل ذلك لكان فيما وضعه أبو إسحاق ـ رحمه الله ـ كفاية في تقرير المنهج في درس السورة القرآنية ، ولخطر كلامه في هذا الموضع ، أورد نصه كاملا ، وأجعل ما أحاول تفهمه منه حاشية ـ دون اقتضاب نصه أو تدخل فيه ـ فالله المستعان يقول أبو إسحاق(٢) ـ رحمه الله تعالى ـ :

---

(١) مصاعد النظر ٣٠٣/٢ .

(٢) وهذا الكلام هو الذي استحث العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في تناول سور القرآن بهذه الطريقة ، وتناول سورة البقرة في كتابه النبأ العظيم وسورتي يونس وهو في موضع آخر على وجه معجب جدا كما يعرف أهل العلم ، وبه ـ رحمه الله ـ دللنا على قراءة (الموافقات في أصول الشريعة) .

« وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة ، وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من المكيات ، وغالب المكي[1] أنه مقرر لثلاثة معان ، وأصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى .

أحدها : تقرير الوحدانية لله الحق ، غير أنه يأتي على وجوه ، كنفي الشريك بإطلاق ، أو نفيه بقيد ما ادعاه الكفار في وقائع مختلفة من كونه مقربا إلى الله زلفى ، أو كونه ولدا ، أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة .

---

(١) تدبر كيف كانت أساليب القرآن المكي مثل صفحة معروضة في عقل الرجل ، بمفرداتها ودقائق فروق تراكيبها ، ووجوه جريان معانيها ، وكيف اتسعت وجوه جريان هذه الأصول الثلاثة ، وتباعد كل وجه بدقائقه من هيئات المباني وأنساق المعاني لينادي على اختصاصه بسياق دون نظائره ، وكيف تقاربت هذه الوجوه جميعا ، بعد هذه المفارقات ـ لتتماسك بجذر واحد هو الدعاء إلى عبادة الله تعالى ، فيوضع كل بيقين تحت قوله تعالى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ في أم القرآن كما قال سيدى رسول الله ﷺ وفداه أبي وأمي ونفسي وعيني ـ وكما ألمع إليه الشاطبي ـ رحمه الله ـ وقد فرق ـ رحمه الله ـ بين ما يأتي تابعا وما يأتي أصليا في القرآن المكي ، ولا ريب أن الذي يأتي تابعا يأتي على وجه من الأسلوب ، كذلك الوجه الذي جاء عليه الأصلي ، وهو شائع في تراث الأمة ، فيما حاولنا استنباطه فيما مضى ـ وهو ما يقتضينا استقراء أساليب هذه المعاني في سور الذكر الحكيم قاطبة ، لاستشراف الخصيصة الأسلوبية لمساقها في كل سورة ثم استشراف علائق الأنساب بين هذه المعاني ، وبين المعاني الأصلية التي جاءت أما لها ، ثم استشراف العلائق بين هذه المعاني جميعا ، وبين قضية السورة التي يجملها المطلع فيما حاولناه بكلام السلف ، والأمر كما ترى من الكد والعناء بما يجعلنا نعتذر عمن قالوا بتعدد أغراض السورة وقضاياها .

الثاني : تقرير النبوة للنبي محمد ﷺ وأنه رسول الله إليهم جميعا ، صادق فيما جاء به من عند الله ، إلا أنه وارد على وجوه أيضا ، كإثبات كونه رسولا حقا ، ونفي ما ادعوه عليه من أنه كاذب أو ساحر أو مجنون أو يعلمه بشر ، وما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم .

الثالث : إثبات أمر البعث والدار الآخرة ، وأنه لا ريب فيه بالأدلة الواضحة ، والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به ، فرد بكل وجه يلزم الحجة ، ويبكت الخصم ، ويوضح الأمر .

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عادة الأمر ، وما ظهر ببادي الرأي خروجه عنها ، فراجع إليها في محصول الأمر ويتبع ذلك الترغيب والترهيب والأمثال والقصص ، وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك .

فإذا تقرر هذا ، وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين ـ مثلا ـ وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه ، إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة ، التي هي المدخل للمعنيين الباقيين ، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ، ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم ، أو ينال هذه الرتبة غيرهم ـ إن جاءت ـ فكانت السورة تبين وصف البشرية ، وما تنازعوا فيه منها ، وبأى وجه تكون على أكمل وجوهها ، حتى تستحق الاصطفاء والاحتباء من الله تعالى[1] .

---

(١) إنما تكشفت للشيخ هذه الخصيصة ، باستقرائه وجوه أساليب إنكار النبوة في الذكر الحكيم ، وأن إنكارهم لها كان على وجه الترفع ، لتساويهم والنبيين في البشرية،وهو ما يدلنا على أن الخطاب في السورة جار في مواجهة المستكبرين، متصل بإنكار النبوة ، كاشف عن وجه إنكارهم لها ، وأن ما جاء من آيات القصص وآيات العذاب ، وآيات الوحدانية ماض على هذا النسق ، متقابل كل ذلك مع وصف المؤمنين الخاضعين المتواضعين بالفلاح في المطلع ، والذي==



==هو مقصود السورة ، ولم تشتغل السورة بالحديث عن فلاحهم كثيرا ، وإنما اشتغلت ببيان خسارة أضدادهم من المستكبرين ، وهو إثبات لفلاحهم باللزوم .
وقد ذكر الاستكبار وداعيه في السورة في أربعة مواضع ﴿ **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ (٢٤) ، ولن تجد كقوله : ﴿ **يُرِيدُ** ... ﴾ في قصة نوح ﷺ في الذكر الحكيم وهي تعقد أسلوب القصة هاهنا بأسلوب المطلع بعلاقة التقابل والتضاد كما ترى ، وكذا قوله : ﴿ **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾** ﴾ ، وأتت جملة جواب القسم ﴿ **إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ** ﴾ ، لتنادي على علاقتها بالمطلع ، مع مراعاة أنه قول المستكبرين ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾ (٣٣) ، مع مراعاة أن السورة ـ لاسيما مطلعها ـ اختصت بتقييد الخشوع بقوله : (في صلاتهم) ليدل على غاية التواضع الذي يقابله غاية الترفع في السورة ، ولن تجد كقوله تعالى ـ في قصة موسى : واستغراقها لكثير من القرآن على ما تعرف ـ ﴿ . . .**فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾** ﴾ ، وتميمة التراكيب كما ترى تشي باشتغال قصص السورة بمقالات المستكبرين وهو ما يجعلنا نؤمن بيقين أن المراد بـ (الملأ) في السورة الأشراف ، ولئن شاع في القرآن ذكر إنكار الأمم لاجتماع الرسالة والبشرية ، فلن تراه غالبا غلبته هاهنا ، ولن ترى كهذه القيود التي تنادي على تفرد مساق قصص السورة بهذه الخصيصة ، ولئن جاءت في بعض المواضع ، فلن تجدها بهذه الغلبة ولا بهذا التصريح ، ثم أجمع كل ذلك بقول من لعنه الله ـ فيما حكى ربنا ـ ﴿ **لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (٣٣) ، بعد قوله ـ جل وعز ـ للملائكة ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (٢٨) ، الحجر وقوله : ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾** ﴾ (ص ٧١) .
راجع لاستبصار هذه اللطيفة ، الأنعام ٩١، هود ٢٧، إبراهيم ١٠، ١١، الإسراء ٩٣، ٩٤، الكهف ١١٠، الأنبياء ٣، ٣٤، الشعراء ١٥٤، ١٨١، يس ١٥، فصلت ٦، القمر ٢٤، المدثر ٢٥، التغابن ٦ .

ففافتتحت السورة بثلاث جمل إحداها ـ وهى الآكد فى[1] المقام ـ بيان الأوصاف المكتسبة للعبد ، التي إذا اتصف بها ، رفعه الله وأكرمه ، وذلك قوله : ﴿ **قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** . . .﴾ إلى قوله : ﴿ **هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ الآيات من (١-١١) .

الثانية : بيان أصل التكوين للإنسان ، وتطويره الذي حصل له ، جاريا على مجاري الاعتبار ، والاختبار بحيث لا يجد الطاعن إلى الطعن على من هذا حاله سبيلا (الآيات من ١٢-١٦) .

الثالثة : بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به في التربية والرفق ، والإعانة على إقامة الحياة ، وأن ذلك له بتسخير السموات والأرض وما بينهما ، وكفى بهذا تشريفا وتكريما .

ثم ذكرت قصص من تقدم مع أنبيائهم واستهزائهم بهم بأمور منها ، كونهم من البشر ، ففي قصة نوح مع قومه قولهم : ﴿ **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ** . . . ﴾ ثم أجمل ذكر قوم آخرين ، أرسل فيهم رسولا منهم ، أى من البشر لا من[2] الملائكة فقالوا : ﴿ **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ**

---

(١) ليس المراد الجملة النحوية ، وإنما هي الجملة من الكلام المتواصلة والمتظاهرة على غرض واحد ، وقوله : هي الآكد في المقام ينبهنا إلى أن كل ما جاء في السورة لأجلها ، وقوله ـ رفعه الله وأكرمه ـ إلاحة إلى سياق المستكبرين على ما عرفت ، وبيان واضح في تحديد المقصود الذي أبصره البقاعى بعد .

(٢) يلحظ أنه يلمع بذلك إلى اختصاص السورة بهذا الأسلوب ﴿ **فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا** ﴾ (٣٢) والعجب العاجب في هذا الأسلوب أنه لم يأت إلا في موضعين من فسطاط القرآن مرادا به النبي ﷺ أولهما دعوة الخليل ﴿ **رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ** ﴾ (١٢٩) وثانيهما مخاطبة للمؤمنين ﴿ **كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ** ﴾ (١٥١) بمن التي هي لبيان الجنس ، وهو أظهر في النص على بشرية الرسل==

مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا . . . ﴾ (المؤمنون:٤٤) فقوله : ﴿ رَّسُولُهَا ﴾ مشير إلى أن المراد رسولها الذي تعرفه منها[1] .

ثم ذكر موسى وهارون ، ورد فرعون وملئه بقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (المؤمنون:٤٧) .

==من الإضافة . وقد شاع في الذكر الحكيم إضافة ضمائر الأقوام إلى الرسل . راجع : الأعراف ١٠١، التوبة ٧٠، يونس ١٣، ٧٤، إبراهيم ٩، ١١، ١٣، الروم ٩، ٤٧، فاطر ٢٥، غافر ٢٢، ٥٠، ٨٣، التغابن ٦ .

وقد علل البقاعي لاختصاص السورة به فقال : «ولما كان المقصود الإبلاغ في التسلية عدى الفعل بـ (في) دلالة على أنه عمهم بالإبلاغ ، كما يعم المظروف الظرف ، حتى لم ندع واحدا منهم إلا أبلغ في أمره»[1] مع ضميمة ما ذكرنا ، في (من) ، ولا ريب أن الإبلاغ في التسلية كما قال البقاعي يعني في دائرة مواجهة المستكبرين ، ولاحظ أن تميمة أساليب القصص هنا تعرض بكفار العرب المستكبرين ، كما يظهر من سياق السورة الثاني ، وبوسعك أن تفسر اختصاص السورة بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾ (٦٤) وقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (٦٧) بوضعه بإزاء قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣٣) ومقابلتهما بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (١ ، ٢) .

(١) لاحظ أنه يفتح لنا أن نفسر اختصاص السورة بقوله في كفار العرب ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (٦٩) وهو ما يجعلنا بيقين نضع قوله في كفار العرب المستكبرين ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (٧٠) بإزاء قوله : فيما حكى عن قوم نوح ـ بما لا نظير له في قصته من الذكر الحكيم ـ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢٥) وسبب هذه المقولات جميعا الاستكبار والأمر على ما عرفت من التقابل بين هذا السياق والمطلع .

هذا كله حكاية عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية ، تسلية لمحمد ﷺ ثم بين أن وصف البشرية للأنبياء لا غض فيه ، وأن جميع الرسل إنما كانوا من البشر يأكلون ويشربون كجميع الناس ، والاختصاص أمر آخر من الله تعالى ـ فقال : ـ بعد تقرير رسالة موسى ﴿ **وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ** ﴾ (المؤمنون:٥٠) ، ثم قال : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾[1] (المؤمنون:٥١) .

---

(١) مع مراعاة أن هذا التركيب لم يقع في غير هذه السورة ، وسر وضعه عقب قصص النبيين ، تعميم أن دأب الرسل جميعا الطعام والشراب ، وقد فرق تاج القراء بين ما هنا وبين ما في الأنبياء ناظرا إلى مطلع السورة ـ فيما أرى ـ فقال : (قوله : (فاعبدون) (وتقطعوا) (الأنبياء ٩٢ ، ٩٣) وفي المؤمنين (فاتقون) (فتقطعوا) ٥٢ ، ٥٣ ، لأن الخطاب في هذه السورة (الأنبياء) الكفار ، فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد ، وتقطعوا بالواو لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ، ومن جملة خطاب المؤمنين فمعناه داوموا على الطاعة ، وفي المؤمنين الخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين بدليل قوله : (أيها الرسل) والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى (فتقطعوا) أي ظهر منهم التقطع بعد هذا القول)[1] ولا ريب أنه ناظر إلى مطلع كل سورة في هذا التعليل ، وأصرح منه قول البقاعي ، (ولما كان الخطاب في هذه السورة كلها للخلص من الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين ، قال : ﴿ **وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ** ﴾ بخلاف ما في سورة الأنبياء المصدرة بالناس ، فإن مطلق العبارة أولى بدعوتها[2] « ويؤيده أنه قال في الأنبياء ﴿ **كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ** ﴾ أي للحساب كما جاء في المطلع ، وأنه قال هنا : ﴿ **كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ كاشفا عن إعجاب كل حزب بما لديه » « أي فرحون معجبون به لا يرون أن الحق سواه »[3] وسياقه على ما عرفت .

أي هذا من نعم الله عليكم ، والعمل الصالح شكر تلك النعم ، ومشرف للعامل به ، فهو الذي يوجب التخصيص ، لا الأعمال السيئة ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ ﴾ (المؤمنون:٥٢) إشارة إلى التماثل بينهم ، وأنهم جميعا مصطفون من البشر .

ثم ختم هذا المعنى بنحو مما به بدأ فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٧) إلى قوله : ﴿ وَهُمۡ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٦١)، وإذا تؤمل هذا النمط من أول السورة إلى هنا فهم أن ما ذكر من المعنى هو المقصود ، ومضافا إلى المعنى الآخر[1] ، وهو أنهم إنما قالوا ذلك ، وغضوا من الرسل بوصف البشرية ، استكبارا من أشرافهم ، وعتوا على الله ورسوله ، فإن الجملة الأولى من أول السورة تشعر بخلاف الاستكبار ، وهو التعبد لله بتلك الوجوه المذكورة .

والجملة الثانية مؤذنة بأن الإنسان منقول في أطوار العدم ، وغاية الضعف فإن التارات السبع أتت عليه ، وهي كلها ضعف إلى ضعف وأصله العدم ، فلا يليق بمن هذه صفته الاستكبار[2] .

---

(١) إنه يكشف لنا عن علاقة النسب التي بين قصص النبيين ، وبين المطلع الذي يجمل المقصود ، ودله على ذلك تعقيب قصص النبيين بنحو ما بدأت به السورة وذلك عنده ظاهر من تأمل نمط الأسلوب ، وهو يدلنا على أن قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ ﴾ (٥٧) الذي هو من خصائص السورة ، موضوع بإزاء المطلع الذي هو من خصائص السورة أيضا ، وأن التراكيب التي بينهما تتشارب منهما ، وهو ما يجعلنا نقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾ أي ﴿ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ (٦٠) فعبادة المفلحين على الرجاء والخوف ، في تقابل ظاهر مع المستكبرين .

(٢) الرجل يكشف لنا عن اختلاف الدلالات الاستتباعية للآيات المتوافقة في المعنى لاختلاف سياقاتها ، وأنت قريب عهد بسياق نفس الآية في ذكر الساعة ، ==

والجملة الثالثة مشعرة بالاحتياج إلى تلك الأشياء ، والافتقار إليها لولا خلقها لم يكن للإنسان بقاء ، بحكم العادة الجارية ، فلا يليق بالفقير الاستكبار على من هو مثله في النشأة والخلق[1] .

==وكيف كانت هناك دليلا أصليا على البعث متشاربا من سياق حول الساعة ، وهي هاهنا دليل على الضعف في سياق المستكبرين المتقابل مع سياق المتواضعين ، وكانت دلالتها على البعث هاهنا دلالة فرعية ، وهيئة التراكيب في الموضعين دالة على هذه الفروق الدقيقة ، فقد قدم للآية في الحج بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (الحج:٥) ، ووقع بعدها في (المؤمنون) قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ ﴾ (١٥ ، ١٦) ، كأن الذكر الحكيم يضع المعالم الدالة على دقة الفروق بين هذه الدلالات ، فلله در الشاطبي .

(١) لست أبصر ما في الأسلوب من الإشعار بالحاجة والفاقة ، واستبصار هذا الوجه ولا ريب أن أبا إسحق أبصره ـ يستوجب النظر في آيات الإنعام التي من هذا الباب في سور الذكر الحكيم قاطبة ، ولعل هذا الإشعار جاء مما اختصت به آيات النعم هاهنا بتكرار قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١٩ ، ٢١) عقب ذكرها ، وما اختص به الأسلوب من قوله : ﴿ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴾ (٢٠) ، ولم يكثر في سورة أخرى في مثل هذه النعم كثرته[1] هنا ـ ولعل مما يرشح لذلك أن المستكبرين عابوا على بشرية النبيين بافتقارهم إلى الأكل والشرب كافتقار أنفسهم لذلك ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (٣٣) لاسيما أنهم عللوا لذلك بقولهم : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ (٣٤) وكأنهم يشيرون إلى أن سبب الخسارة هو اتباعهم من لا يغنيهم لأنهم مفتقرون إلى الأكل والشرب ، مظاهر الترف وسماته عندهم وهل يستقيم ترشيح هذا الاستنباط بأنه علق كل هذه النعم على الماء الذي أسكنه في الأرض ، فأومأ ـ مهددا ـ بإذهابه ، وبذهابه يذهب ما هم فيه من الترف والنعيم من شدة الحاجة وعظم الفاقة ، كل ذلك فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ (١٨) وهو (من أوقع النكرات وأحزها للمفصل ،==

فهذا كله كالتنكيت عليهم والله أعلم ، ثم ذكر القصص في قوم نوح ﴿ **فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟** . . . ﴾ والملأ هم الأشراف كذلك فيمن عندهم ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ** . . . ﴾ وفي قصة موسى ﴿ **أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا** . . . ﴾ ومثل هذا الوصف يدل على أنهم لشرفهم في قومهم قالوا هذا الكلام .

ثم قوله : ﴿ **فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾ (المؤمنون:٥٤) إلى قوله : ﴿ **بَل لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ (المؤمنون:٥٦) رجوع إلى وصف أشراف قريش ، وأنهم إنما تشرفوا بالمال والبنين ، فرد عليهم بأن الذي يجب له الشرف من كان على هذا الوصف ، وهو قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ** ﴾ (المؤمنون:٥٧) ثم رجعت الآيات إلى وصفهم في ترفهم ، وحال مآلهم ، وذكر النعم عليهم ، والبراهين على صحة النبوة ، وأن ما قال عن الله حق من إثبات الوحدانية ، ونفي الشريك وأمور الآخرة للمطيعين والعاصين[1] حسبما اقتضاه الحال والوصف للفريقين .

==والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باقتدار المذهب ، وأنه لا يتعايا عليه شيء إذا أراده ، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله : ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ** ﴾ (الملك:٣٠) فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر) ، الكشاف ٢٨/٣.

وبقوله إنك تجد صداه فيما اختصت به السورة بعد من قوله : ﴿ **وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ** ﴾ (٩٥) في تهديد مترفي مكة من الكفار .

(١) ويبصر كل ذلك في نور السياق الذي شرحه ـ رحمه الله ـ وقد وضع القرآن معالم دالة على ذلك .



فهذا النظر إذا اعتبر كليا في السورة[1] وجد على أتم من هذا الوصف لكن على منهاجه وطريقه ، ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن ،

---

(١) وهو يشير إلى أن كل تراكيب السورة تتواصل وتتظاهر جميعا على غرضها ، الذي يجمله مطلعها وقد بين رحمه الله . أنها الطريقة في فهم القرآن رحم الله أبا إسحق ، ومن يطيق ما أطاق ؟ ثم أنجبت الأمة بعد حبرا آخر ـ وما أمة سيدنا محمد بعقيم كما أخبر فيما بلغنا ـ جاء البقاعى بعد ، ليحدد بكل دقة لكل سورة من القرآن مقصودها الذي تدور عليه تراكيبها أفرز في كل سورة سطرا أو أسطرا ، هي لآلئ من البيان توارى وراءها صفحات من البحث والكد والعناء ، يدق فهمها ، ويستغلق تبيانها(*) .
واستقام المنهج بهذا الكتاب الذي أفرز تراث الأمة من لدن قول النبي ﷺ في فاتحة الكتاب ، وتناثر بعد في بعض أقوال ابن عباس ، ومحمد بن جرير والزمخشري ، والفخر الرازي وأبي حيان وغيرهم واتسع القول على يد ابن الزبير بكتابه البرهان الذي أراد به الكشف عن الأنساب بين السور ، فكان يسوقه ذلك إلى تحديد بعض مقاصد السور ، ثم اعتصر الشاطبي كل ذلك ـ وهو غرناطي ثم أندلسى كابن الزبير ـ وعرضه على سورة (المؤمنون) عرضا موجزا لم يتناول كل السورة على ما عرفت ، ثم جاء البقاعي بعد كل ذلك مستجيبا لرغبة الشاطبى فحدد مقصود كل سورة ، فكانت أساس لبنات هذا المنهج ، وبقي على عاتق طلاب علم البلاغة تلقفها ، وعرضها على سور القرآن لاستبيان صحتها من خطئها بدرس الأساليب وعلائق الأنساب بينها في السورة ودرجات هذه العلائق ، وذلك من أرفع الفقه على حد ما بين شيخنا الدكتور أبو موسى(**) .

(*) هو كتابه (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) وغفر الله لمحقق هذا الكتاب الدكتور عبد السميع محمد حسنين فقد رصد أسفل هذه اللآلئ ـ الذي أغفله عن فقهها عاجل البصر وباده النظر ـ وليس له من هم إلا تخطئة كل قول ليس من ولائد البقاعي وحده وإنما هو عصارة عقول أعيان الأئمة ، ثم ينقل==

فالباب مفتوح والتوفيق بيد الله ، فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد ، وبالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون ، فإن ذلك تسلية لمحمد ﷺ وتثبيت لفؤاده ، لما كان يلقى من عناد الكفار ، وتكذيبهم له على أنواع مختلفة ، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله ، وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة ، بحسب اختلاف الأحوال ، والجميع حق واقع لا إشكال في صحته ، وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى في النظر في القرآن ، لمن أراد فهم القرآن والله المستعان»[1].

ولنعد إلى ما كنا فيه ـ بعد ما ساقنا إليه قول الشاطبي ـ وقد بينا بحاشيتنا على كلام الشاطبي بعض العلائق ، ولعلك تلمح أن القرآن يحيلك على فقه التراكيب في نور ما مضى من السياق أرأيت إلى قوله : ﴿ **بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ** ﴾ (المؤمنون:٨١) ألا تراه ملفتا أبصارنا إلى ما مضى من القصص ، فكان ذلك ملزما لنا أن نضع قول كفار العرب ﴿ **قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** ﴾ (٨٢ المؤمنون:) ﴿ **لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ (المؤمنون:٨٣) بإزاء قول السابقين ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا**

== كلمات عن صاحب الظلال في تحديد موضوع السورة ـ يزعم أنها الصواب ـ ووالله ما حرره آباؤنا هم غافلون ، وإنما الأمر من الفقه والعنت على ما رأيت في كلامهم رحمهم الله أجمعين ، وغفر لنا وله .

(**) كان ذلك مما حظي به كاتب هذه السطور عند تعليقه على ما أبصرناه في سورة النحل في الجزء الذي راجعه ـ رضى الله عنه ـ من هذا البحث بما لا أحب أن لي به حمر النعم ، ونسأل الله القبول .

(١) الموافقات ٤١٦/٣ وما بعدها .

أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (المؤمنون:٣٥ ، ٣٦) وكل وارد ، على وجه الاستكبار المعقب الخسران المتقابل مع التواضع المعقب الفلاح .

ثم أبان القرآن عن استكبار كفار مكة بما لم يقع مجتمعا في سورة أخرى ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ (المؤمنون:٨٤) إلى قوله : ﴿ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ (المؤمنون:٨٩) وآيات نفي الشريك في الاتساع في القرآن على ما تعرف إلا أنك لن تجد كقوله : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ (المؤمنون:٩١) أليس ذلك ما يترجم الفساد الذي يترتب على اتباع هواهم في سياق المترفين ﴿ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون:٧٠، ٧١) ماذا تبصر في اختصاص آية نفي الشريك بقوله : ﴿ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾؟ «أي لغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ، من تمايز الممالك ومن التغالب»[(١)] .

ألا تراه إلاحة إلى حالهم ، وتعريضا بما هم عليه من التعالي على بعض ، وكأني بالقرآن يقول : أي كما يتعالى بعضكم على بعض أيها المترفون .

وآيات نفخ الصور في سور كثيرة إلا أنك لن تجد كقوله : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠١) قال ابن عباس : رحمه الله «لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا ولا يتساءلون

---

(١) غرائب القرآن ٣٠/١٨، وفيما قال أبو حيان من قبل البحر المحيط ٤١٩/٦.

فيها كما يتساءلون في الدنيا»[1] أرأيت؟ ابن عباس يفسر الآية بالسياق الذي صال فيه الشاطبي ومن بعده من علماء الأمة : وكذا ابن مسعود فيما روى أبو حيان في قوله : «فلهول المطلع اشتغل كل امرئ بنفسه ، فانقطعت الوسائل وارتفع التفاخر والتعاون بالأنساب»[2] .

ولن تجد كقوله : ﴿ **وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٠) الذي ينبئ بما في القبر من عذاب والذي يتقابل مع ما ظنه المترفون ، من عدم العذاب أو النعيم فيه ، بل وحملهم طول ما أهلك آباؤهم ولم يروا بعثا لأحدهم ـ حملهم على استبعاد البعث حتى قال أحدهم :

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ ... حديثُ خُرافَةٍ يا أمَّ عَمْرِو

ألا تراه مقابلا لقول كفار العرب ﴿ **لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ (المؤمنون:٨٣) وقد قدم ﴿ **نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا** ﴾ على اسم الإشارة لأن الغرض هو حكاية مقالة الآباء والتشبث بها كما دل عليه قوله : ﴿ **بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ** ﴾ (المؤمنون:٨١) وذلك على عكس ما في سورة النمل كما أبصر بعض أهل العلم[3] من قول الزمخشري في الفرق بين الآيتين (التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وأن الكلام إنما سيق لأجله) ومقالة آبائهم أدل في استبعاد البعث وظن الراحة في القبور فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** ﴾ (المؤمنون:٣٦) ، وكل في سياق الاستكبار المتقابل مع التواضع .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٦٨٥/٦ .

(٢) البحر المحيط ٤٢١/٦، والسيوطى ٢٥/٣ بحاشية الصاوى .

(٣) الكشاف ١٥٨/٣، وتفسير سورة المؤمنون ص١١١ بتصرف الدكتور بسيونى فيود .

ويفسر في نور هذا السياق اختصاص السورة بما يصيب استكبار المترفين من العذاب على وجوههم مناط تكبرهم من قوله : ﴿ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٤) وقد وضع القرآن معلما ملفتا إلى أنه عذاب المترفين بقوله بعد : ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ** ﴾ (المؤمنون:١٠٥) والذي يلفتنا إلى قوله : ﴿ **قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ** ﴾ (المؤمنون:٦٦،٦٧) .

ويفسر في نور هذا السياق اختصاص السورة بقوله : ﴿ **قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ** ﴾ (المؤمنون:١٠٨) في سياق إذلال المترفين ، وإهانة المستكبرين أى « ذلوا فيها ، وانزجروا كما تنزجر الكلاب ، إذا زجرت يقال : خسأ الكلب ، وخسأ بنفسه »[١] وهي « استعارة مكنية حيث شبهوا بالكلاب التي تخسأ إبعادا وطردا ، وهوانا ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه ، وهو (خسأ) على سبيل الاستعارة المكنية »[٢] .

وترى قوله : ﴿ **قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ** ﴾ (المؤمنون:١١٢-١١٤) متقابلا مع ما مضى من استبعادهم البعث ، واستطالتهم الحياة فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** ﴾ (المؤمنون:٣٦) .

وقد ختمت السورة بقوله : ﴿ **إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ** ﴾ (المؤمنون:١١٧) لترد بمقابلة السياق بقوله في المطلع ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ ، قال جار الله

---

(١) الكشاف ٤٤/٣، والآية من سورة النمل (٦٨) .

(٢) تفسير سورة المؤمنون ص١٤٦ الدكتور بسيوني فيود .



في هذا الموضع : « جعل فاتحة السورة ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ وأورد في خاتمتها ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة »[1] .

وفيه ضرب من رد العجز على الصدر كما قال ابن عاشور[2] ، وفيه ما يسميه البلاغيون ببراعة الابتداء وبراعة الانتهاء فيما قال بعض أهل العلم[3] . والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

(١) الكشاف ٤٥/٣، والبحر المحيط ٤٢٥/٦ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٣٦/١٨ .

(٣) ينظر : تفسير سورة المؤمنون ص١٦٠، ١٦٢، ١٦٥ الدكتور بسيوني فيود .

المبحث السادس

سورة النور

هذه السورة الكريمة أظهر سور القرآن ـ إلى هذا الموضع ـ ترابطا ، فإن فيها قوانين وإجراءات ـ تتجه بجملتها وتفصيلها لتحقيق أمرين ، تطهير المجتمع من الخبث ، والفحش في شتى مظاهرهما ، وإعادة صياغته على الطيب والطهارة في أعلى صورهما وأشدها كمالا(١) وكل ذلك في إطار ما قرر القرطبي بقوله : « مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر »(٢).

ويمكن أن تنتظم آي هذه السورة جميعًا ـ بما فيها من حدود وآداب بالغي الدقة والحذر ـ في مقصود واحد هو (بيان حرمة عرض المسلم) كأن هذه السورة الكريمة هي الحصن الذي يضرب بسوره حول عرض المسلم ، ولخطر هذا الأصل في شرعنا اختصت السورة ببراءة عائشة في عشر آيات من السورة ، بعدما أعمل المرجفون في المدينة ألسنتهم في عرضها ، وكان ما كان وقتها من بوادر التشاحن والتقاطع بين مجتمع المدينة ، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، وكانوا على وشك التفرق والتنادي بالسيوف ، وإيقاظ فتنة العصبية الجاهلية ، وذاك سببه الاعتداء على عرض النقية الطاهرة ابنة الصديق ـ رضي الله عنها .

---

(١) التعريض في القرآن الكريم ص٩٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرطبي ٤٦٩٣/٦ .

وقد ألمح ابن الزبير ـ رحمه الله ـ إلى ترابط سياق آي السورة في بيان مناسبتها لسورة (المؤمنون) فقد لحظ أنها ـ أي السورة ـ جاءت مفصلة لقوله تعالى : في المؤمنون ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ** ﴾ (المؤمنون:٥-٧) فقد استدعى هذا الكلام (بيان حكم العادي في ذلك ، ولم يبين فيها ، فأوضحه في سورة النور : فقال تعالى : ﴿ **ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي** . . . ﴾ ثم أتبع ذلك بحكم اللعان والقذف ، وانجر مع ذلك الإخبار بقصة الإفك ، تحذيرا للمؤمنين من زلل الألسنة . . . وأتبع ذلك بعد بوعيد محبي شيوع الفاحشة في المؤمنين . . . ثم بالتحذير من دخول البيوت إلا بعد الاستئذان ثم الأمر بغض الأبصار ، ونهي النساء عن إبداء الزينة إلا لمن سمى الله ـ سبحانه ـ في الآية ، وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة إلى ذكر حكم العورات الثلاث ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام ، وكل هذا مما تبرأ ذمة المؤمن ، بالتزام ما أمر الله فيه من ذلك ، والوقوف عند ما حده ـ تعالى ـ من أن يكون من العادين المذمومين في قوله تعالى : ﴿ **فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ** ﴾ (المؤمنون:٧) وما تخلل الآي المذكورات ونسق عليها ، مما ليس من الحكم المذكور ، فلاستجرار الآي واستدعائه[1] وبين أن ما ذكره ابن الزبير ينتظم فيما قلناه ، لاسيما أنه ذكر أن ما يوجد مما يوهم ظاهره انصرافه عن الغرض من آي السورة ، جاء استدعاء واستجرارا لآيها المذكورات ، والأمر في كشف علاقة النسب بين هذه الآي المستدعاة ، والآيات الداعية لها ، ووجوه الاستدعاء ، كما سنبين بعضا منها بكلام العلماء .

---

(١) البرهان ص١٣٥، ١٣٦ .

والبقاعي ـ رحمه الله ـ يذكر مقصود السورة ناظرا إلى اسمها ، وحادثة الإفك فيها وخاتمتها ، كاشفا علائق الأنساب بين آي السورة فيقول : «ومقصودها : مدلول اسمها المودع قبلها ، المراد منه أنه تعالى ـ شامل العلم اللازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة اللازم منه تأكيد الشرف للنبي ﷺ اللازم منه شرف من اختاره ـ سبحانه ـ لصحبته على منازل قربهم منه ، واختصاصهم به ، اللازم منه غاية النزاهة والشرف والطهارة لأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي مات النبي ﷺ وهو عنها راض ، ثم ماتت هي ـ رضي الله عنها ـ صالحة محسنة ، وهذا هو المقصود بالذات ، ولكن إثباته محتاج إلى تلك المقدمات»[1] .

وهو ـ كما ترى ـ يجعل براءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ المقصود الأصلي للسورة وما جاء في السورة بعد من مستتبعات هذا المقصود الأصلي ، ولسورة النور ميزة ظاهرة ـ بعد ما رأيت من ظهور ترابط آيها ومعانيها ـ هذه الميزة هي أن السورة ذاتها حددت مطلعها الذي يمثل آية واحدة ، وانساقت آي السورة بعدها إلى بيان المقصود كأن هذا النظام يحثنا على استكشاف العلاقة بين قوله تعالى : ﴿ **سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النور:١) وبين آي السورة جميعا ، وقد زخر هذا المطلع بعدة بدائع ، أولها : الإشارة إلى آي السورة بهذه التسمية ﴿ **سُورَةٌ** ﴾ ـ على القول بأنها خبر لمبتدأ محذوف تقدير هذه ـ وثانيها : وجه اختصاص هذه السورة بهذا الوصف ﴿ **أَنزَلْنَاهَا** ﴾ وكل سور الذكر الحكيم منزلة . وثالثها : وجه اختصاصها بهذه الجملة ، المعطوفة (وفرضناها) وغالب سور القرآن الكريم لا يخلو من أمور مفروضة ، ثم

---

(١) مصاعد النظر ٢/٣١٠ .

وجه اختصاصها بهذه الجملة المعطوفة ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ وقد كان فيما وصفت به السورة أولا كفاية عنها ببادئ النظر . نظم المطلع بهذا التركيب حمل الأئمة على استكشاف علل لهذه الخصائص ، وكانوا في تعليلاتهم لها ينظرون إلى تراكيب السورة ، ونظام آيها ، وجريان معانيها .

ومن علمائنا من يعلل لتسمية القطعة من القرآن الكريم بالسورة بأنها سميت بذلك بتشبيهها بسور البناء ، أي القطعة منه ، أو من سور المدينة ، لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور[1] ، وله موقع لطيف ها هنا ، كأن هذه الكلمة ووقوعها خبرا في صدر هذه السورة تشير إلى أن ما يرد من الآي يحيط بغرضه إحاطة السور بالبناء والذي يغري بتقبل هذا الملمح هو أن الغرض (بيان حرمة عرض المسلم) وأن السورة اختصت بآداب الاستئذان ، وما فيها من الحدود من حد الزنا والقذف ومن اللعان كأن السورة بناء حول عرض المسلم ، وكأن علماءنا في هذا التعليل ينظرون إلى هذا الموضع من القرآن ، ولا يمنع هذا التعليل من التعليلات الأخرى لتسمية القطعة من القرآن سورة ، سواء أكانت تعليلات لغوية ، أم اصطلاحية ، لأنه منصرف إلى التسمية بهذا الوضع (سورة النور) سورة كذا . . . إلخ ولكن الذي حملنا على الاجتهاد في هذا التفسير ناظرين إلى آي السورة ، هو اختصاص السورة لاسيما في مطلعها بهذا التصدير ، فالله أعلم ـ المهم أن المناسبة كائنة .

أما عن هذه الأوصاف فقد ذكر ابن عاشور أن «المقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السورة ليقبل المسلمون بشراشرهم على تلقى

---

(١) يراجع : المفردات للراغب (سور) والمصباح (سور) واللسان (سور) والبرهان للزركشي ١/٢٦٣، ٢٦٤ .

ما فيها»[1] وهو ناظر إلى معاني السورة في تحديد تلاؤم ما قرره المفسرون في معنى ﴿ وَفَرَضْنَـٰهَا ﴾ فقال : «ومعنى ﴿ وَفَرَضْنَـٰهَا ﴾ عند المفسرين : أوحينا العمل بما فيها ، وإنما يليق هذا التفسير بالنظر إلى معظم هذه السورة لا إلى جميعها فإن منها مالا يتعلق به عمل كقوله ﴿ ٱللَّهُ نُورُ . . . ﴾»[2].

ورحم الله النيسابوري من قبل فقد فرق بين هذين الوضعين ﴿ وَفَرَضْنَـٰهَا ﴾ ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ ناظرا في آي السورة مشيرا إلى أن المطلع يشير إلى ما في السورة من الأحكام ، ومن دلائل التوحيد ، فقال : «ولابد من تقدير مضاف لأن السورة قد دخلت في الوجود ، فلا معنى لفرضها ، فالمراد فرضنا أحكامها التي فيها ، ومن شدد فللمبالغة أو للتكثير . . . . وأما الآيات البينات ، فإنها دلائل التوحيد التي يذكرها الله تعالى بعد الأحكام والحدود ، ويؤيده قوله : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾»[3] ثم ذكر توجيها آخر لتعليل الجمع بين هذين الوصفين ـ هو فيما أرى مرجوح ـ هذا التوجيه أملاه اشتمال السورة على أحكام وحدود ودلائل وحدانية ـ قال النيسابوري «وقال أبو مسلم : هي الحدود والأحكام أيضا ، ولا بعد في تسميتها بآيات ، وقال القاضي : أراد بها الأشياء المباحة المذكورة في السورة بينها الله لأجل التذكر»[4] وقول أبي مسلم من قول الزمخشري في بيان معنى فرضناها ومعنى آيات بينات فليراجع في موضعه من الكشاف ٤٦/٣ ، ٦٧ .

وقد ذكر الشيخ الصاوي إجمالا لكل ذلك ناظرا إلى آي السورة فقال «قد ذكر في أول هذه السورة أنواع من الأحكام والحدود ، وفي آخرها

(١،٢) التحرير والتنوير ١٤٢/١٨ .

(٣،٤) غرائب القرآن للنيسابوري ٣٧/١٨ .

دلائل التوحيد ، فقوله : ﴿ وَفَرَضْنَـٰهَا ﴾ إشارة إلى الأحكام ، وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ إشارة إلى الأدلة »[1] .

وقد عللوا لتكرار الإنزال بأنه لكمال الاعتناء بما في السورة والتنويه به ، وتوكيد الأخذ بكل ما فيها على درجة سواء ، آدابا وأخلاقا وحدودا وعقوبات[2] ومرجع ذلك إلى أن هذه الآداب والأخلاق الواردة في السورة يسوق تركها وإهمال العمل بها إلى الحدود والعقوبات الواردة في السورة ، وهذا يرجح ما لمحناه في وجه التصدير بـ (سورة) فكأن السورة سورت عرض المسلم ، وبالغت في حرمته بطريق أبلغ هو النهي عن كل ما قد يفتح بابا للاعتداء عليه .

ولا ريب أن الفقهاء[3] ـ فيما استظهره أحد أهل العلم من المحدثين ـ الذين رجحوا أن الاستثناء في قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ . . . ﴾ (النور:٤، ٥) .

راجع إلى قوله : ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ﴾ وقوله : ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ ومذهب أبي حنيفة يستظهر رجوعه إلى الأخيرة وحدها ، وذلك بعد اتفاقهم على عدم رجوعه إلى الأولى ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ﴾ لا ريب أن أعينهم كانت على سياق السورة التي تشتمل على تشريعات وآداب وحدود

---

(١) الصاوي على الجلالين ١٢٧/٣ .

(٢) يراجع : الصاوي ٦٢٧/٣، في ظلال القرآن ٢٤٨٧/٤، والتحرير والتنوير ١٤٣/١٨ .

(٣) هو مذهب الشافعي ومالك وأحمد يراجع دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ص٢٤٣ دكتور محمود توفيق محمد سعد ، مكتبة وهبة .

بالغة الدقة والحذر في حرمة عرض المسلم ، وقد استظهر الدكتور محمود توفيق رأي هؤلاء الفقهاء بتراكيب الآيات التي وقع الاستثناء في سياقها ، وبتراكيب الجملة محل الخلاف ﴿ **وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ** ﴾ فقد « جاء الحكم في صورة النهي (لا تقبلوا) وهي أدل على قوة الطلب وعدم الترخيص في طاعته ، وتنفيذه من الأمر (ردوا) لأن النهي لا يحتاج إلى قوة (إيجابية) فاعلة بل إلى قوة (سلبية) ساكنة . .

وجاءت العبارة بتقديم الضمير ، وجره باللام وتعليقه بمحذوف (لهم شهادة) دون قولنا : (شهادتهم) لأن ما عليه النظم يؤذن بأن قبول شهادة الشاهد هو في الوقت نفسه شهادة له بالعدالة ، التي هي من أعالي ما يحرص المسلم على الاتصاف به ، فكأن الجزاء من جنس العمل »[1] وهو استنباط متناسب مع سياق السورة جملة وتفصيلا لأن كل آدابها وحدودها ودلائلها ، جاءت في حدود ما زخر به المطلع من البدائع المثيرة إلى إيراد هذه الأمور في إطار بالغ من الدقة والحذر كما تومئ بذلك تراكيب المطلع وتراكيب آي السورة جميعا .

والذكر الحكيم بما وضع لنا من دقائق فروق التراكيب يصور لنا امتداد صدى المطلع وشعاع نوره ، نعم وصفت الآيات بأنها بينات في كثير من سور الذكر الحكيم[2] ووصفت بأنها مبينات في سورة واحدة[3] هي سورة الطلاق ، لكن لم يجتمع لها هذان الوصفان في سورة واحدة كما وقع ها هنا ، والسياق نفسه يحثنا على استكشاف هذا النور .

---

(١) يراجع دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ص٢٥١، ٢٥٢ .

(٢) البقرة ٩٩، ١٨٥، ويونس ١٥، والحج ١٦-٧٢، والعنكبوت ٤٩، وسبأ ٤٣، والجاثية ٢٥، والأحقاف ٧، والحديد ٩ .

(٣) الطلاق ١١ .

يضع القرآن الكريم معلما للمطلع في حادثة الإفك ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:١٨) .

تذكر قول البقاعي في مقصود السورة في أن المراد من اسم السورة لأنه تعالى شامل العلم اللازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة ، والملحوظ أن هذا التذييل جاء بعد بيان حد الزنا والقذف واللعان ، وفي براءة السيدة عائشة ، قد وقع بعد قوله : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ ﴾ (النور:١٧) كأن ما مضى من الحدود شرع لأجل عائشة والمؤمنات من أمثالها .

ثم يضع القرآن بعد ذلك معلما ظاهر الضوء فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (النور:٣٤) مع تدبر الفرق بين ﴿ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ في المطلع و﴿ مُّبَيِّنَـٰتٍ ﴾ ها هنا ، وما يصوره الفرق بين الصيغتين من وصف الآيات والحدود بالوضوح والظهور ، ووصفها بأنها كاشفة موضحة ، وكأن أولهما قبل إيرادها ، وثانيهما بعد إيرادها .

ثم يأتي بعد ذلك قوله : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النور:٤٦) وتذييلات أخرى تذكرنا بالمطلع في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:٥٨) وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:٥٩) وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (النور:٦١) وما ختمت به السورة من قوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ (النور:٦٤) لبيان أنه ـ سبحانه ـ شامل العلم كما قال برهان الدين ـ رحمه الله واستقراء كلام المفسرين عند الآيات الثلاثة (١، ٣٤، ٤٦) يدل على لحظهم لهذا السياق .



قال أبو جعفر في الآية (١) : «يقول تعالى ذكره ـ وأنزلنا في هذه السورة علامات ودلالات على الحق بينات ، يعني واضحات لمن تأملها وفكر فيها بعقل ، أنها من عند الله ، فإنها الحق المبين وإنها تهدي إلى الصراط المستقيم»[١] وكأنه يومئ إلى معنى الآية (٤٦).

ثم يقول عند الآية (٣٤) مراعيا الفرق بين الصيغتين «بينات ومبينات ـ ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس دلالات وعلامات مبينات يقول : مفصلات الحق من الباطل وموضحات ذلك» ثم بين أن قراءتي الكسر والفتح في (مبينات) متقاربتا المعنى قال : «وذلك أن الله إذا فصلها ، وبينها صارت مبينة بنفسها الحق لمن التمسه من قبلها ، فبين الله ذلك فيها»[٢] .

وعبارته عند الآية (٤٦) تتقارب جدا مع عبارته عند الآية (١) يقول : «لقد أنزلنا أيها الناس علامات واضحات دالات على طريق الحق وسبيل الرشاد والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[٣] فالذكر الحكيم يدل على العلاقات بين مطالع السور وآيها بهذه المعالم التي تنادي على هذه العلاقات ، وذلك كائن في كل سورة وإنما يدق بحسب أهل البصر .

والنيسابوري ـ رحمه الله ـ يلفتنا إلى ما يصوره الذكر الحكيم من رحلة السياق عند الآية (٣٤) في قوله سبحانه : ﴿ **وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةً لِّلۡمُتَّقِينَ** ﴾ وهذه الكلمة تلفتنا إلى قوله سبحانه في حادثة الإفك ﴿ **يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ** ﴾ (النور:١٧) كما تلفتنا إلى أنها وزان قوله في المطلع ﴿ **لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النور:١) يقول «كونه (مثلا من الذين خلوا) أى

(١) جامع البيان ١٨/٥٢ .

(٢) المرجع نفسه ١٨/١٠٤ .

(٣) المرجع نفسه ١٨/١١٩ .

قصة عجيبة من قصصهم ، فإن العجب في قصة عائشة ليس بأقل من العجب في قصة يوسف ومريم وما اتهما به »[1].

وله ملحظ لطيف جدا عند الآية (٤٦) فيما علل من الفرق بين عطف الأولى (٣٤) (ولقد) وافتقاد العاطف في الثانية (لقد) يقول : « وحين فرغ من إثبات هذه الدلائل أراد أن يبين أحوال المكلفين وأن فيهم منافقين ، فقدم لذلك مقدمة ، وهي قوله : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ﴾ ، وإنما فقد العاطف هاهنا بخلاف قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ ﴾ لأن المقصود هناك هو ماسبق من التكاليف والمواعظ ، والغرض هاهنا ، توطئة لما يجيء عقيبه من حال أهل النفاق »[2] وهو يكشف لنا بدقة عن ترابط ما جر إليه سياق الآيات الماضية وما ذلك من سياق السورة ببعيد ، أليس الذي تولى كبر الإفك على عائشة هو رأس المنافقين عبد الله بن أبي؟ أليس هو الذي يجبر الفتيات على البغاء طمعا في التكسب من بغائهن ، كما يوضحه سبب النزول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ (٣٣) بل إن سياق هذه الآيات هو الذي حمل الدكتور إبراهيم الخولي على القطع بأن الآية (٣٣) تعريض بعبد الله بن أبي وأمثاله ، اعتمادا على ما استظهره من سياقات القرآن من استحالة أن يراد بالخطاب المؤمنون ، وما ورد في حادثة الإفك في صدر السورة[3] كأن السورة نزلت لبيان حرمة عرض عائشة وأمثالها من المؤمنات ، كما ألمع البقاعي ، إلى أن ذلك هو المقصود بالذات .

---

(١) غرائب القرآن ١٨/٨٨ .

(٢) المرجع نفسه ١٨/١٠٥ .

(٣) يراجع : التعريض في القرآن الكريم مبحث دور المقام في التعريض الصفحات ص٨٨، ٩٣، ٩٧ وغيرها .

قال العلامة ابن عاشور عند الآية (٣٤) «وصفت هذه الآيات المنزلة بثلاث صفات كما وصف السورة في طالعتها بثلاث صفات ، والمقصد من الأوصاف في الموضعين هو الامتنان ، فكان هذا يشبه رد العجز على الصدر» ثم يقول : بعد بيان هذه العلاقة مفرقا بين عدم العطف هنا ووجوده في الآية (٤٦) «وإنما عدل عن الفصل إلى العطف لأن هذا ختام التشريعات والأحكام التي نزلت السورة لأسبابها ، وقد ذيلت بمثل هذا التذييل مرتين من قبل هذا بقوله تعالى في ابتداء السورة ﴿ **وَأَنزَلْنَا** . . . ﴾ ثم قوله : ﴿ **وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ** . . . ﴾ فكان كل واحد من هذه التذييلات زائدا على الذي قبله . . . . وقوله : ﴿ **وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ يقابل قوله في أولها ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾»[1] والرجل ـ كما ساقته دقائق فروق تراكيب هذه الآي ـ يصور لنا تشارب تركيب المطلع من نور السياق ثم وضعه مرة بعد مرة بدقائق تصور هذا التشارب ، وهذا هو الفرق بين تركيب آية المطلع ، والآيات التي تقاربها في السورة .

ألا ترى أن هذه الروابط التي ذكرناها ـ مما اختصت به السورة من أوصاف الآيات وتشاربها من سياقها ـ ألا ترى أن ذلك يفسر لنا اختصاص السورة بقوله : ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ** ﴾ (النور:٣٥) وقد وقعت بعد الآية (٣٤) وأمرها عند السلف ما علمت ، وعلاقتها بالمطلع ما عرفت ، وهذه الآيات فيما يبدو من عاجل البصر أخفى صلة بهذا السياق من آيات السورة كلها ، مع أن عناصر اللغة بين هذه الآيات وبين المطلع ظاهرة (آيات بينات بيانها كمثل نور مشكاة فيها مصباح . . . .) كأنى بآيات السورة تقول هذا .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٢٨، ٢٢٩ .

وأهل العلم حرروا هذه العلاقة فالمراد بـ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ﴾ عند أبي جعفر ـ رحمه الله ـ هادي من في السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون « ثم قال : وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك ، لأنه عقيب قوله : ولقد أنزلنا . . فتأويل الكلام ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات مبينات الحق من الباطل ، ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ، فهديناكم به ، لأني هادي أهل السموات وأهل الأرض »[(١)] ويراجع ما ذكره عند الآية (١) فإن معنى مطلع السورة يرمي معناه . . . فيما ذكره ـ إلى علاقة هذا التشبية وما استتبعه من التشبيهين الآخرين بالمطلع .

بل إن ابن عاشور[(٢)] لقوة هذه العلاقة ـ ذكر أن قوله ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ﴾ معترض بين الآية الماضية (٣٤) وبين قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ وهذا الاعتراض له دلالته ، فهو ينص على وجه وصف آيات السورة والحدود المذكورة فيها بأنها نور ، لأنها من الله وهو سبحانه ﴿ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالمثل بيان للآية (٣٤) كما قال ابن عاشور ، والعلاقة بين هذه الآية والمطلع على ما عرفت فسبحان الله ، فكأن التشبيه وما استتبع من نور المطلع والسياق بعده وليس اختلاف العلماء في المراد بالضمير في قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ ليس ذلك صارفا عن هذه العلاقة فاختلافهم يؤيد ما ذكرناه بكلام الأئمة فهم يذكرون أن المراد بالضمير القرآن وهو نظر إلى سياق القرآن كله ، وهو كله نور كما جاء في سياقات أخرى ، بل إن التوراة والإنجيل نور كما جاء في سياق[(٣)] آخر ، ولم تتبع أي من هذه

---

(١) جامع البيان ١٨/١٠٥ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ص٢٣١ .

(٣) آل عمران ١٨٤، النساء ٧٤، المائدة ١٥،٤٤،٤٦، فاطر ٢٥، الأنعام٩١.

السياقات بمثل هذا التشبيه ، ألا ترى أن المطلع ونظائره في السورة هو العلة في اختصاص السورة بهذا التشبيه وما استتبع .

وقالوا: المراد به (بالضمير) محمد ﷺ وهم في ذلك ينظرون إلى قوله: ﴿ **وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ (الأحزاب:٤٦) أو المراد بالضمير قلب المؤمن أو مثل ضربه الله لطاعته[١] ولا يمنع أن يراد كل ذلك ، فهذه الحدود والآيات نور ، لأنها من نور السموات والأرض ، وبلغ هذا النور من سمعه فوعاه فعمل به فكان نورا هدى به من بلغه وعمل به فكان نورا لنفسه ولغيره من المؤمنين .

وكما اختصت السورة بأوصاف الآيات التي ذكرناها بهذه الانتقالات في الصياغة اختصت أيضا بهذا التشبيه ، وبذكر النور فيها ست مرات[٢] والعلاقة بين النور والبيان جلية وظاهرة الأول سبب الثاني والثاني أثر الأول .

وقد تناول الدكتور محمد أبو موسى هذه التشبيهات الثلاثة (٣٥،٣٩،٤٠) بالدراسة وقد بين فيها خطر البحث عن علائق الأنساب بين تشبيهات السورة القرآنية وآياتها والكشف عن النسق الذي وجدت فيه تشبيهات السورة ، ووحدة موضوع السورة ظاهرة عنده ظهورا لا يلتبس ، وقد بين أن التشبيه الأول (٣٥) مثل للعامل بحدود ، وأن الثاني (٣٩) جاء مقابلا له ، فقد بنيا على التقابل يقول : «فصاحب الأعمال في سورة النور حي طليق يركض وراء السراب ، وهذا متلاءم مع سياق يحدد للناس ضوابط السلوك في جانب حيوي من جوانب الحياة ، فليس هنا موت ولا عذاب

---

(١) جامع البيان ١٨/١٠٦ .

(٢) النور ٣٥، ٤٠ .

في جهنم ، وإنما هنا حياة فسيحة متسعة[1] ، وفريق من الناس يستضيء بنور الشريعة ، التي هي كمشكاة فيها مصباح . . وفريق آخر انقطع عن نور الشريعة ، فضل في أوهام الفكر وسراديب الضلال ولذلك كان ـ وجود صاحب الأعمال في المثل حيا يسعى سعيه ويركض جهده أمرا طبيعيا . . . . . ».

وعنده أن التشبيه الثاني (٣٩) تشبيه لحياة التاركين حدود الشريعة وضوابطها وأن الثالث (٤٠) جاء ترقيا وانتقالا من البليغ إلى الأبلغ[2] وينبغي أن ينظر بهذا التشبيه إلى المطلع كما ذكرنا .

والذي أراه أن التشبيه الثاني (٣٩) تشبيه لضياع أعمال الكافرين في الآخرة لاسيما وأن عناصره ـ (السراب ـ بقيعة ـ الظمآن . . .) تتلاءم مع ما اختصت به السورة من وصف يوم القيامة من قبل التشبيه بقوله : ﴿ **يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ** ﴾ (٣٧) ودلالته ما ترى من التذكر وتقليب الذاكرة ، وتعلقها بوهم ما يظن من خيرات الكافرين في الدنيا من صلة الرحم وغير ذلك ، والتشبيه الثالث لم يأت ترقيا (٤٠) وإنما جاء واصفا حياة المنقطعين عن شريعة الله وحدوده في الدنيا ، ولغة بناء التشبيه الثالث تنادي على هذا التقابل ﴿ **أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ** . . . ﴾ ﴿ **مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ** ﴾ ووضع القرآن معلما مباشرا على قوة هذه العلاقة ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن**

---

(١) لاحظ أنه يقارن بين هذا التشبيه وبين تشبيه سورة إبراهيم ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟** ﴾ (١٨) .

(٢) يراجع (أمثال سورة النور) بحث بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى .



نورٍ﴾ (٤٠) وهو ينادي على قوله : ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (٣٥) لأن الأول يسير على هدى آيات بينات ، والثاني يخبط في ظلمات بعضها فوق بعض وهذا التنويع متناسق مع هذا السياق ، ولم يتنوع التشبيه الأول للعاملين بالحدود ولأن من كانت الشريعة نوره في الدنيا كانت حياته نورا على نور ، وكذلك قبره ، وكذلك شأنه يوم الحساب .

وكما يتقابل هذان التشبيهان مع التشبيه الأول ، يتقابلان مع المطلع «الذي وقع التشبيه الأول في سياقه»[1] ولاتجد هذا التقابل ، ولا هذه العناصر إذا ما قارنت هذا التشبيه بنظائره ولك نور المطلع الذي ينبغي أن يصطحب معناه عند كل آية .

ونتابع بعض ما ذكره الأئمة من الروابط كشف ابن عاشور عن موقع قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾ (٥٨-٦٠) فيقول «استئناف انتقالى إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة ، وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة ، وقطع عند قوله : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾»[2] وأنت تعلم أن الآية (٣٤) أخت المطلع في تركيبها هي التي استتبعت هذا البيان عن حال الناس تجاه هذه الحدود التي أنزلت في الدنيا وفي الآخرة .

---

(١) راجع بتوسع ما وفقنا إليه ـ بفضل منه تعالى ـ في معالجتنا الكشف عن أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٢٥٧ وما بعدها ، الدكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ . وبحث شيخنا الدكتور أبو موسى ، هو الذي فتق لنا هذا الباب .

(٢) التحرير والتنوير ١٨/٢٩٢ .



ويكشف النيسابوري المناسبة في قوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ بقوله : « ثم ختم السورة بسائر الصورة التي يعتبر فيها الإذن »[1] ، وهو يشير إلى رابطة ما يظن أنه ليس من مقصود السورة .

ويقول القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٦٢) « إنما في هذه الآية للحصر . المعنى : لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنت في أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ونحو ذلك وبين تعالى ـ في أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما النزول على محمد ﷺ فختم السورة بتأكيد الأمر في متابعته عليه السلام ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن »[2] ويؤيده ما مضى في السورة من تكرار الأمر بالطاعة مع الرسول في قوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ (٥٤) وذلك فيما ذكروا يقع في سياق يعتنى فيه بإظهار طاعة الرسول ، لاسيما سياق الحدود التي بينتها السنة كحد الرجم مثلا .

ويقول ابن عاشور عند خاتمة السورة ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ . . . ﴾ وهو « تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها ، وافتتاحه بحرف التنبيه ، إيذان بانتهاء الكلام ، وتنبيه للناس ليعوا ما يرد بعد حرف التنبيه »[3] وقد ختمت السورة بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ أي في فرض حدود وأحكام السورة وبيانها هذا البيان ، شأنه في كل شيء ، وقد حاولنا بيان بعض الروابط . وبالدراسة الدقيقة المتأنية للسورة الكريمة يتكشف لها عطاء القرآن الذي لا يخلق على كثرة الرد .

* * *

---

(١) غرائب القرآن ١١٥/١٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤٨٥٨/٦، والبحر المحيط ٤٧٥/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٣١١/١٨ .



الفصل الثاني

الافتتاح بالثناء

المبحث الأول

سورة الأنعام

«عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ما نزل عليَّ سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام ، وما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها ، وقد بعث بها إلى مع جبريل مع خمسين ملكا ، أو خمسين ألف ملك يزفونها ، ويحفونها ، حتى أقروها في صدري ، كما أقر الماء في الحوض ، ولقد أعزني الله وإياكم بها عزا لا يذلنا بعده أبدا ، فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه»[1] .

وتروى روايات كثيرة بشأن هذه السورة[2] ، هذه الرواية أجمعها ، وكانت كلمة النبي ﷺ محل استنباطات للسلف مقابلة بالنظر في جريان المعاني في السورة الكريمة ، ومقارنة بتركيب مطلع هذه السورة ، فقد عزا القرطبي إلى العلماء أنهم قالوا : «هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة ، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة»[3] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٦/٢٠٧ .

(٢) يراجع مثلا : تفسير ابن كثير ٢/١١٢، والجامع لأحكام القرآن ٣/٢٣٦٨، والفتوحات الإلهية ٢/٢، وحاشية الصاوي على الجلالين ٢/٢ وغير ذلك .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٤٦٩ .

وما ذكروه ـ كما ترى ـ من كلمة النبي ﷺ ـ «فيها دحض حجج المشركين . . . . وكلام الأئمة فيه بيان ظاهر باتحاد مقصود السورة وتصريف الأساليب في سبيل الوفاء به ، وذلك هو ما استقر لدى البقاعي ـ رحمه الله ـ يقول في بيان مقصود السورة : «ومقصودها : الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب في السور الماضية من التوحيد ، بأنه ـ سبحانه ـ الحائز لجميع الكمالات من الإيجاد والإعدام ، والقدرة على البعث وغيره ، وأنسب الأشياء المذكورة فيها لهذا المقصد الأنعام ، لأن الإذن فيها سبب في قوله : ﴿ **فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ** . . . ﴾ عما ثبت له من الفلق ، والتفرد بالخلق وتضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها دينا ، لأنه لم يأذن فيه ولا أذن لأحد معه لأنه المتوحد بالألوهية لا شريك له ، وحصر المحرمات من المطاعم التي جلها في هذا الدين وغيره على إحاطة علمه باللازم عند شمول القدرة وسائر الكمالات ، وذلك عين مقصودها»[1] .

فمقصود السورة هو إثبات الألوهية ، وكان تقرير هذا المقصود معينا البقاعي على بيان وجوه لمشتبه النظم في هذه السورة الكريمة وكان في بيانه ـ رحمه الله ـ مقنع ، فهو ينظر إلى اللفظة ، وعينه على السورة كلها ، بل بعين سياقاتها في الذكر الحكيم كله ، فالمقصود في كل سورة هو السلك الخفي الذي ينتظم تراكيبها ودونك كلامه .

يقول عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ** . . ﴾ «ولما ثبت بالوحدانية والنبوة والرسالة ، وتفاريع من تفاريعها ، وانتهى الكلام هنا إلى ما تجلى به مقام العظمة . . . قال : ـ دالاً عليه ، مشيرا إليه ، معلما أن ما مضى أنتجه وأظهره ـ لابد ـ وأبرزه ، مذكرا بآياته . . . وبمحاجة

---

(١) مصاعد النظر ٢/١١٨ .

إبراهيم عليه السلام مصرفا ما مضى أول السورة من دلائل الوحدانية ، على أوجه أخرى ، إعلاما بأن دلائل الجلال تفوق عدد الرمال ، وتنبيها على أن القصد بالذات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته»[1].

والبقاعي في كلامه مهتدٍ بكلام ابن الزبير في بيان مناسبة الأنعام للمائدة ومجمل كلامه أن السور الماضية تكفلت بالرد على اليهود والنصارى ، وهذه السورة اختصت بالرد على مشركي العرب ، والمجوس الذين لم يتقدم لهم ذكر «فبدأ ـ تعالى ـ بذكر خلق السموات والأرض التي عنها وجد النور والظلمة . . . ثم جرت السورة من أولها إلى آخرها منبهة على بسط الدلالات في الموجودات ، مع التنبيه على أن ذلك لا يصل إلى استثمار فائدته إلا من هدى بحسب السابقة ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ** ﴾ وهو ـ والله أعلم ـ من نمط ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ** ... ﴾ أجمل هنا ، ثم فسر بعد في السورة بعينها»[2].

وهو بكلمته الأخيرة يقفنا على تناغي تراكيب السورة الواحدة ، وذلك باب في البلاغة دونه خَرْطُ القَتَاد ـ والبقاعي ـ رحمه الله ـ يوجز هذه المناسبة التي بسطها ابن الزبير فيقول : «ولما تكفلت السور المتقدمة بالرد على مشركي العرب واليهود والنصارى ، مع الإشارة إلى جميع أنواع الشرك ، سيق مقصود هذه السورة في أساليب متكفلة بالرد على بقية الفرق»[3] .

---

(١) نظم الدرر ١٩٤/٧ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ، ص٩٠-٩٢.

(٣) نظم الدرر ٦/٧ .



وتأتي كلمة السيوطي في المناسبة تقريرا لكلام السابقين واستنباطا وتفريخا لأقوالهم ، يقول : رحمه الله ـ في بيان المناسبة : «أنه لما ذكر في آخر المائدة ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله فبدأ بذكر ، أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور . . . ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء ، لما فيهن من النيرين والنجوم ، وفلق الإصباح . . . ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك أكثر فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك ، والخالق ، والمنشئ واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنساني والملكوتي . . . فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها ، وما يتعلق بها ، وما يرجع إليها فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها ، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها . . . ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ذكر فيها ما وقع عند بدء الخلق وهو قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ . . . ﴾»[1] مع مراعاة تكرر هذا التركيب ، واختصاص السورة به دون سائر السور ، وتناسب ذلك مع المطلع في الآية الثانية .

وكلام السيوطى ـ رحمه الله ـ بيّنٌ في علاقة مطلع السورة لا بمقصودها فحسب ، بل بتراكيب معانيها ، وهيئة تصريفها بشتى الأساليب في السورة مع ضميمة ما قرره البقاعي من مقصود السورة ، وهو ما يقتضينا إحصاء المعاني المذكورة في السورة ، وإحصاء ألفاظها وتدبر ما شاع من الألفاظ فيها ، مقارنين كل ذلك بسور القرآن الكريم كله ، ومن الأمثلة التي ذكرها

---

(١) تناسق الدرر ص٩٧-١٠١ .

البقاعي ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ (الأنعام:١٢٨) مقارنا إياه بقوله تعالى : ﴿ **خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** ﴾ (هود:١٠٨) : « ولما كان القصد في هذه السورة إلى إظهار العظمة للغيرة على مقام الإلهية عبر بالاسم الأعظم فقال : الله »[1] .

مركَبٌ صعبٌ ذلك الذي ركبه البقاعي في تفسير مشتبه النظم يقول أيضا عند قوله تعالى : ﴿ **يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا** ﴾ (الأنعام:١٣٠) مقارنا إياه بقوله : ﴿ **وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا** ﴾ (الزمر:٧١) « ولما كان النظر في هذه السورة إلى العلم غالبا لإثبات تمام القدرة الذي هو من لوازمه بدليل قوله : ﴿ **يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ** ﴾ و ﴿ **أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ و ﴿ **وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ** ﴾ وغيرها ولذلك أكثر فيها من ذكر التفصيل ، الذي لا يكون إلا للعالم كان القص ـ الذي هو تتبع الأثر ـ أنسب لذلك ، فقال : يقصون ... »[2].

مع ضميمة أن السورة اختصت بالإكثار من الإعلام بتفصيل الآيات فقد وقع لفظ (نفصل) مرة ولفظ (فصل) أربع مرات[3] ، ولم تحظ بذلك سورة أخرى .

قال محمد بن جرير عند قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ** ﴾ (الأنعام:٥٥) « يعني ـ تعالى ذكره ـ بقوله :

---

(١) نظم الدرر ٢٦٩/٧ .

(٢) نظم الدرر ٢٧٢/٧ .

(٣) الآيات ، ص ٥٥، ٩٧، ٩٨، ١١٩، ١٢٦ .



﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ . . . ﴾ وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها يا محمد إلى هذا الموضع حجتنا على المشركين من عبدة الأوثان ، وأدلتنا ، وميزناها لك وبيناها كذلك نفصل لك إعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل غيرهم »[1].

وكان تراث السلف ـ كما ترى ـ نورا من نور كلمة النبي ﷺ في شأن هذه السورة ، واستنباطا من ذلك تخالف الأستاذ سيد قطب مع قول العلماء : بأن السورة مكية « إلا ست آيات فإنـهـا مدنيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١) إلى آخر الآيات الثلاث ، وقـولـه تعـالـى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام:٩١) وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الأنعام:٢١) »[2] تخالف معهم فقال بأن السورة مكية ومجمل ما رد به قولهم دليلان : أولهما : احتمال الأدلة التي وردت بشأن مدنيتها ، ثانيهما : عدم احتمال السياق لمدنيتها ، فالسورة « فى جملتها تعرض حقيقة الألوهية وتعرضها في مجال الكون والحياة ، كما تعرضها في مجال النفس والضمير ، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود . . . ويكاد اتجاه السورة كله يمضى إلى هذا الهدف المحدد من أولها إلى آخرها »[3] وهو أرجح لقول النبي ﷺ السابق ، ولبعده عن التأويل ، ولتوافقه مع تراكيب السورة وجريان المعاني فيها .

وقد ذكر ابن عاشور أن السورة « أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية وأشدها مقارعة جدال لهم ، واحتجاج على سفاهة أحوالهم من

---

(١) جامع البيان ١٣٤/٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠٥/٦ .

(٣) ينظر في ظلال القرآن ١٠١٦/٢-١٠١٨ وما بعدهن .

قولـه : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ (الأنعام:١٣٦)»[١]. وهو ناظر إلى قول النبي ﷺ ، وقول ابن عباس : «إن سرك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ الثلاثين ومائة من سورة الأنعام»[٢] .

فى نور ما أوردناه من قول السلف نقرر أن مطلع السورة قولـه تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (الأنعام:١ ، ٢) .

يقول الدكتور عبد الله شحاته مشيرا إلى هذا المطلع ، «ذلك هو مطلع السورة . . . وكل ما جاء في هذه السورة ، إنما هو بيان وتفصيل ، أو تمثيل وتطبيق على هذه الحقيقة أحيانا بصفة مباشرة ، وأحيانا بوسائط تقرب أو تبعد ، وهذا هو المعنى الذي يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد الألوهية ، استدلالا بوحدانية الربوبية»[٣].

فالعلاقة بين مطلع السورة وتراكيبها هي علاقة الإجمال ثم التفصيل ، تلك العلاقة التي لم يتبين لنا غيرها في الذكر الحكيم إلى هذه السورة ، وأمر المطلع عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي على غير هذا الوجه فهو يقول : «وقد ابتدئت بإثبات التوحيد والنبوة تمهيدا لمناظرة المشركين فيهما ، وختمت ببيان أن النبي ﷺ ليس في شيء منهم بعد أن قام بإبطال شبهتهم»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير الأنعام ص١٢٥ .
(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى كتاب التفسير ١٤٠/٨ .
(٣) أهداف كل سورة ومقاصدها ص٧٩، ٨٠ .
(٤) النظم الفني في القرآن ص٩٩ .



واستوقفت عناصر مطلع السورة كثيرا من المفسرين ، دأب القرآن الكريم في مطالع السور، فقد استوقفهم الافتتاح بالحمد، والفعلان ﴿ **خَلَقَ** ﴾ و ﴿ **وَجَعَلَ** ﴾ و ﴿ **ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ** ﴾ و﴿ **ثُمَّ** ﴾ وبتعلق الباء في ﴿ **بِرَبِّهِمۡ** ﴾ ، ومعطوف قوله : ﴿ **ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ** ﴾ ، وموقع الآية الثانية من الأولى ، وكان في كثير من توجيهاتهم نظر إلى جريان المعاني في السورة الكريمة وكشف عن خصائصها .

قال القرطبي : « بدأ ـ سبحانه ـ فاتحتها بالحمد على نفسه وإثبات الألوهية . . . فإن قيل : فقد افتتح غيرها بالحمد لله ، فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره . فيقال : لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة وأيضا فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون »(١) .

وهذه الجملة تفيد القصر كما هو مقرر في طرائق اللسان : ويقول أبو السعود ـ رحمه الله ـ : « الحمد لله ، تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولا باسم الذات الذي يدور عليه كافة ما يوجبه من صفات الكمال ، وإليه يئول جميع نعوت الجلال ، والجمال للإيذان بأنه ـ عز جل ـ هو المستحق له بذاته »(٢) وإثبات الألوهية هو مقصود السورة وهو مجمل في مطلعها كما ترى ـ وقد وصف الخبر باسم الموصول ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ** ﴾ ، وكما ترى جملة الصلة والجملة المعطوفة تابعة للصلة ، والنعت من التوابع كما هو مقرر ، وهذا التركيب للمطلع مؤذن بأن قضايا الخلق وإثبات القدرة الواردة في السورة ، واردة في

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٤٦٩، ٢٤٧٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/٣ بهامش الفخر الرازي .



سبيل الوفاء بالمقصود الأصلي الذي هو إثبات الألوهية ، والذي قررته الجملة الأولى .

وقد تتابعت أقوال السلف في بيان الفرق بين (خلق وجعل) ، قال جار الله : « والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التضمين »[(١)] .

وحرر القاضي البيضاوي مثالته فقال : « ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمات بالجعل تنبيها على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت المثنوية »[(٢)] .

وقال أبو حيان : « والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التبصير كإنشاء شيء من شيء »[(٣)] .

وعبارة أبي السعود « وجعل . . . عطف على خلق مترتب عليه ، لكون جعلهما مسبوقا بخلق منشئهما ومحلهما داخل معه في حكم الإشعار بعلة الحمد »[(٤)] .

« فالخلق إنشاء وإبداع ، والجعل تصريف وتقليب والعالم أجمع في دائريتهما فلا ينفك شيء منه عن كلا هذين المظهرين »[(٥)] .

فقد جاءت الجملة الثانية تابعة للأولى التي هي جملة الصلة ، وقد وقع اسم الموصول تابعا للجملة الأولى ، وهيئات التراكيب في السورة الكريمة

---

(١) الكشاف ٣/٢ .

(٢) أنوار التنزيل ٣٠١/١ .

(٣) البحر المحيط ٦٨/٤ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٤/٤ .

(٥) أهداف كل سورة ومقاصدها ص٧٩ .

تأخذ نفس الطريق في بناء المعاني ، كما سنحاول بيانه ، وداخل الجملة المعطوفة على جملة الصلة طباق ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ له أثر في سير المعاني ، وقد ذكروا أن المراد بهما المحسوسات ، « ونقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ أي ظلمة الشرك والنفاق والكفر ، والنور يريد نور الإسلام والإيمان والنبوة واليقين »[(١)] .

وقال الواحدي أيضا : « والأولى حمل اللفظين عليهما معا »[(٢)] وهو ما نرجحه لما سنذكره ، والعلة في جمع الظلمات وإفراد النور عند الزمخشري « القصد إلى الجنس . . . أو لأن الظلمات كثيرة »[(٣)] .

والعلة عند أبي السعود أنه « جمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ، ومحالها عند الناس ، ومشاهدتهم لها على التفضيل »[(٤)] .

وكل ما ذكروه وبسطوه من التوجيهات له علاقة بجريان المعاني في السورة ، ثم تأتي جملة أخرى في المطلع ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ وقد ذكر المفسرون أن ﴿ ثُمَّ ﴾ « استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته »[(٥)] .

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ : « ثم دالة على قبح فعل الكافرين ، لأن المعنى : أن خلقه السموات والأرض قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان

(١،٢) مفاتيح الغيب ٢١٩/٦ .

(٣) الكشاف ٣/٢ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٦/٤ .

(٥) يراجع الكشاف ٤/٢، ومفاتيح الغيب ٢٢٠/٦، والبحر المحيط ٦٩/٤ .

أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ، ثم تشتمني ، ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه ، لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم»[1] .

ثم اختلفوا في معطوف هذه الجملة ، إما أن يكون « هو قوله : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ فيكون المعنى (أن الله ـ سبحانه ـ حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته) أو هو قوله : ﴿ **خَلَقَ** ﴾ على معنى (أنه خلق ما لا يقدرعليه أحد سواه ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه) وتكون الباء على الأول متعلق بكفروا وصلة يعدلون محذوفة ، أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل ، وعلى الثاني متعلقة بيعدلون ، والمعنى : أن الكفار يعدلون بربهم الأوثان ، أي يسوونها به»[2] ، والكل داخل تحت الصلة ، كأنه قيل : «الحمد لله الذي كان منه تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر »[3] .

والذي يعدل بربه الأوثان لا بد أن يحاج للعادل به ربه ، ولعل السلف استنبطوا من هنا أن السورة أصل في محاجة المشركين وهي داخل في جملة الصلة وجملة الصلة تابعة للجملة الأولى التي هي قضية السورة ، هذا النظام النحوى للمطلع يكشف لنا عن خيوط المعانى في عرض السورة ، ووفائها بالمقصود الأول ، مع ملحظ مهم جدا هو أنني سأحيل فيما استنبطه على ما ذكره السلف في تركيب المطلع وما بينوه من كونها سورة الحجاج .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٧٣/٣ .

(٢) أنوار التنزيل ٣٠٢/١ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٩/٤ .

ويأتى بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ (الأنعام:٢) وهو «استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به ، إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى ، مع معاينتهم لموجبات توحيده»[١] ، ثم عطف عليه قوله : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ وذكروا أن ﴿ ثُمَّ ﴾ «استبعاد ، لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم»[٢] .

فقد ذكر في المطلع قضايا أولها (إثبات الألوهية) ثم موجباتها (القدرة الحائزة لجميع الكمالات) ثم (استبعاد المحاجة في القضية الأولى) ثم (قضية البعث) ثم (استبعاد المحاجة فيها) ، لأن المحاجة فيها محاجة في القضية الأولى .

وقد ورد في المطلع جملتان ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ، فالمحاجة هي الطابع البلاغي لهذه السورة ، وهو أمر ظاهر في المطلع بذكر هاتين الجملتين ، مع ملحظ مهم أن الجملتين عطفتا بثم ، ومعناها الاستبعاد كما ذكر العلماء ، ويستنبط من ذلك ، احتواء هذه السورة الكريمة لمعاني قدرة الله بتراكيب تفوق نظائرها في الذكر الحكيم مع اليقين ببلاغة التراكيب الأخرى في مواضعها لتناسبها مع مقصود ما سيقت له السورة ، وإثبات هذا الأمر يقتضينا استقراء معاني القدرة في السورة من حيث تراكيبها ، مقارنة باستقراء معاني القدرة في الذكر الحكيم من حيث تراكيبها أيضا ، وذلك لإثبات صحة هذه الدعوى . وقد ذكر البقاعي ـ رحمه الله ـ صورا من النظر إلى التراكيب من هذه الجهة كما مضى بيانه في السورة .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٩/٤ .

(٢) يراجع الكشاف ٤/٢، ومفاتيح الغيب ٢٢٠/٦، والبحر المحيط ٦٩/٤ .



ودونك ما استنبطناه من هيئة تركيب المطلع ، ناظرين إليه بمقولات السلف . وجود هذا الطباق في مطلع السورة ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ بين لنا هيئة جريان معاني الهدى والضلال في هذه السورة حتى صار من خصائصها ، فقد ذكرت مادة (هدى) ومتصرفاتها في أربعة وعشرين موضعا من سورة الأنعام[١] ، ومادة (ضل) ومتصرفاتها في أحد عشر موضعا[٢] .

ومع أن مادة (هدى) ومتصرفاتها وَقَعَتْ في البقرة في تسعة وعشرين[٣] موضعا ، ومادة (ضل) ومتصرفاتها وقعت في النساء في ثلاث عشر[٤] موضعا إلا أن المادتين لم تقعا متقابلتين دائما كما وقعتا متقابلتين في سورة الأنعام غالبا فهذه على سبيل المثال خصيصة لجريان المعاني في السورة رغم ورودها في سورة أخرى ، وأنبأنا المطلع بهذه الخصيصة كما ظهر . يتدبر مثلا قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام:٥٦) وقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الأنعام:٧٧) والذي لم يقع من مادة الضلال مقابلا لمادة الهدى يتقابل مع ما يقارب معناها مثل قوله تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام:٣٩).

---

(١) الآيـــات : ٣٥، ٥٦، ٥٧، ٧١، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٧، ١١٧، ١٢٥، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٧، ١٦١ .

(٢) الآيات : ٢٤، ٣٩، ٥٦، ٧٤، ٧٧، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٤٠، ١٤٤ .

(٣) الآيات : ٢، ٥، ١٦، ٢٦، ٣٨ ٥٣، ٧٠ ٩٧، ١٢٠ ١٣٥، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٧، ١٥٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٨٥، ١٩٨، ٢١٣، ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٧٢ .

(٤) الآيات : ٤٤، ٦٠، ٨٨، ١١٣، ١١٦، ١١٩، ١٣٦، ١٤٣، ١٦٧ .



ويمكن أن ينظر بما قررناه من كلام السلف في المطلع إلى محاجة إبراهيم عليه السلام قومه ، فهي محاجة في الألوهية ، واستدراج للخصم ومجاراة له وهذا من أصول المناظرة وتكررت في ثنايا هذه المحاجة مادتا (الهدى والضلال) ومادة (أفل) الدالة على الإظلام ، وكان النور والإظلام مطيتين لإبطال حجج قوم إبراهيم عليه السلام ثم نبه النظم المعجز على ارتباط هذه المحاجة بالمقصود الأول للسورة ، حتى يتنبه للخيط الذي ينتظم السورة الكريمة ، لذلك كان نهاية الحجاج قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾(الأنعام:٧٩).

يتدبر ـ في ذلك أيضا من قبل المحاجة ـ هذا التشبيه ، وعلة اختصاصه بالسورة في نور ما قرر من أمر المطلع قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنعام:٧١) ويتدبر تراكيب هذا التشبيه مقارنا بما يقاربه في الذكر الحكيم ، ومثل آخر هو قوله تعالى : ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** ﴾ (الأنعام:١٢٢) .

وبعد ذكر الأنبياء وترتيبهم ترتيبا متخالفا مع الترتيب التاريخي يشير إليهم النظم بعين التعظيم ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام:٩٠) تدبر هذا الخيط خيط الهدى والضلال إلى آخر السورة يقول ربنا : ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:١٦١) .



وشيء آخر مستنبط من نور مطلع السورة أيضا ، ومن كلام النبي ﷺ (فيها دحض حجج المشركين) وقول العلماء (السورة أصل في محاجة المشركين) . وهو أمر ظاهر في جريان معاني هذه السورة ، ولما كان الحجاج في السورة في النبوة ، وتوزعت شبهاتهم على السورة الكريمة ، وظن أن السورة متعددة القضايا ، وتخالف هذا الظن مع ما ارتضيناه من كلام أهل البصيرة من توحد مقصودها . كان في السورة ما يرد هذا الظن ، والذي يؤيدنا في ذلك اختصاص السورة بقوله تعالى : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٣) .

فالمحاجة في القضية الأولى (إثبات الألوهية) في شخص المرسل بها ﷺ .

وقد تفرد محمد بن جرير ـ رحمه الله ـ فيما أعلم ـ باستصحاب معنى قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ في كل خطاب وجه للمشركين وكل حديث نسب إليهم ، وكل قول أسند للنبي ﷺ فهو عند لفظ (قل) يقول دائما : «قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم» وعند (قالوا) يقول : «وقال هؤلاء العادلون بربهم» وعند قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ** . . . ﴾ يقول : «يقول ـ تعالى ذكره ـ لهؤلاء العادلين به الأصنام»[1]

(١) يراجع في ذلك مثلا هذه الصفحات من الجزء السابع : ٩٩، ١٠١، ١٠٤، ١٠٨، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٨، ١٢٢، ١٢٥، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٩ ، والجزء الثامن : ٢، ٧، ٨، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٧٠، ٧٦، ٨٢، ٨٣، ٨٤ .



مع خصيصة أخرى لهذه السورة الكريمة بشأن المحاجة ، فقد تكرر لفظ (قل)[١] إملاء لرد الحجة على النبي ﷺ في السورة تكررا لا نظير له في الذكر الحكيم .

وقد توزعت شبهات المشركين في النبوة في السورة كما يلي[٢] فقد كانت الشبهة الأولى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ** ﴾ (الأنعام:٨ ، ٩) ، وقد استغرق الرد على هذه الشبهة إلى الآية (٣٦) المختتمة بآية هداية هي قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ** ﴾

(الأنعام:٣٥) .

وفيها تمهيد للشبهة الثانية ، ففيها حرص النبي ﷺ على الإتيان بالآيات ، وكانت تلك شبهتهم الثانية التي تبدأ بقوله تعالى:﴿ **وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٧) واستغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (٩٠) .

---

(١) الآيات من سورة الأنعام : ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٣٧، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٩٠، ٩١، ١٠٩، ١٣٥، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤ .

(٢) استنبطنا هذا التفسير مما كتبه الشيخ عبد المتعال الصعيدي في ، النظم الفني في القرآن ، الصفحات ٩٩-١١٠ .

وفي تركيب الشبهة ما يؤمئ إلى بسط رد هذه الشبهة ، فأنت خبير بالفرق بين (نزل) بالتضعيف و (أنزل)[1] ، وفي أثناء هذه الشبهة كان الحديث عن البعث فيه طابع المحاجة الذي أنبأ به مطلع السورة ، يستنبط ذلك باستظهار المصحف الشريف ، مع تدبر أغراض التقديم والتأخير والحذف والذكر والتعريف والتنكير ، والتصوير البياني ، وغير ذلك من مسائل فن البلاغة .

ثم تأتي الشبهة الثالثة ، وكان في قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ** ﴾ (الأنعام:٩٠) تمهيد لها ، حيث ذكر الأنبياء ، وآية الشبهة هي قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا** . . . ﴾ (الأنعام:٩١) .

مع ملحظ مهم في هذه الشبهة هو تشبيه التوراة بالنور ، وعطف الهدى عليه والنور من أسباب الهدى ، وهذا التشبيه ناظر إلى مطلع السورة الكريمة ، لأن كتاب موسى عليه السلام شبه بالإمام وبالبصائر ، وبالضياء في مواطن أخرى من الذكر[2] الحكيم تناسبا مع مقاصد السور التي جاء فيها ، وقد استغرق رد هذه الشبهة من الآية ٩١ إلى الآية ١٠٨ .

ودونك آية النجوم فهى ناظرة إلى مطلع السورة أيضا قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ** ...﴾ (الأنعا:٩٧)

---

(١) فالأولى تفيد التكثير فمن المقرر أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فهم كما يومئ هذا لفعل يطلعون بآيات كثيرة ، أما الصيغة الثانية فلا تفيد التكثير ، كما ذهب إليه بعض العلماء ، والأظهر أن ذلك يرجع إلى السياق .

(٢) هود ١٧، والأحقاف ١١، والأنبياء ٤٨، والقصص ٤٣ .

فالنجوم ترد في الذكر الحكيم للزينة ، وغير ذلك ، وجاءت علامات للهداية في سورة النحل ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ (١٦) .

والبناء على غير ما ترى ، وكل ما في السورة من آيات البعث والقدرة ناظرة إلى المطلع في تركيبها .

ثم تأتى الشبهة الرابعة في الآية (١٥٩) بقول الله تعالى : ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَـٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٌ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ واستغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (١١٧) .

وجاءت الشبهة الخامسة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤) وقد استغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (١٤٧) .

وقد وقع بعد هذه الشبهة قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَـٰمِ . . . ﴾ (الأنعام:١٢٥) وهذا التمثيل متناسب جدا مع شبهة المشركين التي تدل على إفلاسهم في الحجج ، وفي معادلتهم الأصنام بربهم ، وكان هذا التمثيل من خصائص هذه السورة .

والشبهة السادسة هي قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١٤٨) واستغرق رد هذه الشبهة السورة إلى الآية (١٥٨) .

وهذه الشبهة ناظرة إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ (الأنعام:٣٥) ، مع تدبر ما شاع في السورة من مادة فطر ، وخلق ،

وفلق ، وجن ، وأفل وغير ذلك من الألفاظ المتناسبة مع تراكيب مطلع السورة الكريمة ، ولعل أهل الجدل كان لهم نظر واسع في هذه السورة .

ثم كان ختام السورة بقوله : ﴿ **قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:١٦١) وإملاء هذه الحجة ناظرة إلى قول إبراهيم في المحاجة التي هي من خصائص هذه السورة الكريمة ﴿ **إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:٧٩) فكان ذلك ردا لآخرها على أولها ، إنها خيوط في السورة ، وجمعها يؤيد نظر البقاعي في القرآن الكريم ، وكان النظر إلى التركيب النحوي في مطلع السورة الكريمة ، هو مدخلنا لتبين نظام بناء المعاني في هذه السورة ، وبيان الجملة الأصلية وتوابعها ، يكشف المعاني الأصلية ، وثواني المعاني في السورة الواحدة .

والحمد لله على ما ساق وأعطى .

* * *

المبحث الثاني

سورة الإسراء

الآية الأولى من هذه السورة الكريمة التي تفردت بالتصريح بمعجزة الإسراء لا تشركها آية أخرى ، وهي التي أجملت مقصود السورة فيما يقول البقاعي : «ومقصودها الإقبال على الله وحده ، وخلع كل ما سواه ، لأنه ـ وحده ـ المالك لتفاصيل الأمور ، وتفضيل بعض الخلق على بعض ، وذلك هو العمل بالتقوى التي أدناها خلع الأنداد ، واعتقاد التوحيد . . . وكل أسمائها واضح الدلالة على هذا .

أما (سبحان) الذي هو علم للتنزيه ، فمن أظهر ما يكون فيه ، لأن من كان على غاية النزاهة عن كل نقص ، كان جديرا بأن لا تعبدوا إلا إياه ، وأن يعرض كل مخلوق عن كل ما سواه ، لكونه متصفا بما ذكر .

وأما (الإسراء) : فمن عرف أموره كلها في السرى بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم العروج . . . علم أن الفاعل لذلك متصف بكل ما ذكر ، فأقبل بكليته ، وانقطع دائما إليه ، وكذا تسميتها بالأقصى ، فإنه مشير إلى قصة الإسراء .

وأما (بنو إسرائيل) : فمن أحاط ـ أيضا ـ بتفاصيل أمرهم في سيرهم إلى الأرض المقدسة ، الذي هو كالإسراء ، وإيتائهم الكتاب ، وما ذكر مع ذلك من شأنهم في هذه السورة ، الذي هو معروف بالفرق بين الإسراءين والفرق بين الإيتاءين عرف ذلك»[1] .

---

(١) مصاعد النظر ٢/٢٣٠، ٢٣١ .

وبيانه ـ رحمه الله ـ مدل على جذر السورة الذي هو مقصودها ، وكان تعدد التسمية عنده بيانا وكشفا عن تشاجر فروع هذا الجذر ومراتب هذا التشاجر في السورة وتواصل أغصانها ، وتمايل أفنانها ، لأن السورة ـ عنده ـ كالشجرة النضيرة في هذا التواصل والتشابك ، ولها جذر ينتظم كل فروعها وأغصانها وأوراقها يلقي به دائما في مطلع السورة الكريمة ـ فيما استقر لدينا حتى هذه السورة ـ وتتقارب سور الذكر الحكيم تقاربا بينا ، لأن كل هذه الأشجار توقد من شجرة مباركة من نور السموات والأرض العلى العلام . وذلك النور الذي نحاول به استشكاف علائق البيان في السورة الكريمة ـ وهي علائق دقيقة ورائعة ـ ذلك هو قوله تعالى : ﴿ **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾ (الإسراء: ١). والمقصود الذي قرره البقاعي تدل عليه تراكيب الآية كما يظهر من كلام الأئمة .

فقوله : ﴿ **سُبْحَٰنَ** ﴾ إما أن يكون علما للتسبيح[١] ، أو اسما موضوعا موضع المصدر[٢] ، أو مصدرا سماعيا ثم صار علما على التنزيه[٣] . «وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض ـ أحد العشرة ـ أنه قال للنبي ﷺ : ما معنى سبحان الله؟ فقال : تنزيه الله من كل سوء»[٤] .

وتصدير السورة بهذا اللفظ كان إشارة للمح بعض العلاقات ، فهو إما أن

---

(١) الكشاف ٤٣٦/٢، والبيضاوى ٥٧٥/١، وأبو السعود ٥٤١/٥ .

(٢) جامع البيان ٢/١٥، والجامع لأحكام القرآن ٣٩٣١/٥ .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٣٤/٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٩٣٢/٥ .

يكون دالا على التنزيه عن العجز عما ذكر بعده[1] ، عند من قصر دلالته على التنزيه ، وإما أن يكون مشيرا إلى أن الوارد بعده أمر خارق للعادة عند من قصر دلالته على التعجب البليغ[2] ، والمقصودان مرادان كما قال الشيخ الجمل[3] لأن اللفظ بذاته يدل على التنزيه ، وإلقاءه من دون سبق كلام يمحض مقصوده للتنزيه مؤذن «بأن خبرا عجيبا يستقبله السامعون ، دالا على عظيم القدرة من المتكلم ، ورفيع منزلة المتحدث عنه»[4] وهو مشير أيضا إلى هذه الرحلة من حيث اشتقاقه من السبح الذي هو الذهاب والإبعاد في الأرض[5] .

والذي علق بهذا اللفظ كل هذه الاحتمالات هو تصديره سياق السورة ، لذا تعددت جهات نظرهم في السورة وهي ـ فيما أرى ـ متممات لبعضهن ، فلكل دلالة خيط في السورة الكريمة يسري فيها كمسرى النفس في النفس ، بل لمحوا أكثر من هذا فقد ذكروا أن التسبيح يذكر بمعنى الصلاة ، واستدلوا لذلك بقوله : ﴿ **فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ** ﴾ (الصافات:١٤٣) [6]، ولا أرتاب في أنهم كانوا يقصدون إلى الصلاة التي تسرى فيها روح الإقبال على الله وحده ، وخلع كل ما سواه ، وذلك منهم كشف عن اختصاص السورة بصلاة الفجر ، وقرآن الفجر وبيان فضله ، وتفصيل آية السجود التي تترجم بخير بيان عن روح العبودية والإقبال﴿ **يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا** ﴾(١٠٧)،

---

(١) البيضاوي ١/٥٧٥ .

(٢) حاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٢٠٨/٢ .

(٣) الفتوحات الإلهية ٦٠٨/٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٩٠/١٥ .

(٥) تفسير أبي السعود ٥٤١/٥، ٥٤٢ .

(٦) يراجع : جامع البيان ٢/١٥، ومفاتيح الغيب ٦/١٠ .

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١٠٩) فهو نظر الربانيين ، وأهل البصيرة .

والذي يثلج صدرك ويغريك بتقبل هذا الملمح أن هذه الكلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وقعت في سياق السورة ثلاث مرات[١] غير هذه المرة ، ولم يذكروا عند أي منها أنها تذكر بالصلاة ولم يقع هذا اللفظ بهذه الكثرة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ في غير هذه السورة الكريمة وهي علاقة أخرى .

وقد أضيف هذا اللفظ البديع إلى الاسم الموصول «للتنبه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه»[٢] وللإشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف»[٣] ، «لا سيما مع تصدير الجملة بالتسبيح الذي هو مختص بالله»[٤] والذي يقتضي الإقبال على الله وحده ، وترجمت الصلة عن هيئة المقبل على الله وثمرة هذا الإقبال ، لذلك جاء هذا الوصف للنبي ﷺ (عبده) في مقام يراد منه تعظيمه ، وقد عللوا لهذا الوصف بأن الله سماه عبدا في أرفع مقاماته وأجلها ، وهو هذا وقوله : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم:١٠) وذلك لكي لا تغلط فيه أمته كغلط أمة المسيح ، وقيل لكي لا يتطرق إليه التعجب والكبر[٥] ، ولكل تعليل خيطه البياني في السورة ، كما سنحاول بيانه .

وإنما كان هذا الوصف للنبي ﷺ ولغيره أرفع الأوصاف قدرا ، لأنه وصف للمقبل على الله وحده أرفع مقامات التوحيد ، لذا قال العلماء في

---

(١) الآيات : الإسراء ٤٣، ٩٣، ١٠٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/١٠ .

(٣) أبو السعود ٥/٤٢، وروح المعاني ١٥/٤، ٥ .

(٤) الصاوي على الجلالين ٢/٣٣٤ .

(٥) ينظر : مسائل الرازي وأجوبتها ص٢٥٤ .

هذا الموضع : «لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية»[1] فالتركيب مشعر بالتفضيل من المطلع ، لذا تجد خيط بيانه ظاهرا في السورة الكريمة في إطار مقام المطلع الذي يجمل مقصود السورة .

وخيط آخر يستنبط من قوله : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وهو إذا ما قورن بقولنا : (سرى بعبده) ولد لطيفة تناسب هذا المقام «وهي التلويح إلى أن الله تعالى كان مع رسول الله ﷺ في إسرائه بعنايته وتوفيقه»[2] .

وتلويح إلى ما اختصت به السورة الكريمة من بيان خصائص النبي ﷺ من المقام المحمود وغيره . . .

ذلك ما أبصره ابن الزبير وتابعه البقاعي فيما ورد «ولا أعلم في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصائصه التي فضل بها كافة الأنبياء مثل ما تضمنت هذه»[3] وذلك لأنه اتخذ الله وكيله كما سنحاول تتبعه في السورة الكريمة .

وقد انتشر وصف العبودية في السورة انتشارا ليس في سور الذكر الحكيم[4] قاطبة جاءت في معظم مواضعها متقابلة مع عكسها ، كاشفة عن بعض ثمار هذا الوصف في بيان يتعالى فيه صدى هذا المقصود المجمل في المطلع .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٩٣٢/٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١١/١٥ .

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن ص١٢، ونظم الدرر ٢٩٨/١١ .

(٤) الآيات : ١، ٣، ٥، ١٧، ٣٠، ٥٣، ٦٥، ٦٦ .

وقد ذكروا أن التنكير في (ليلا) للتقليل[1]، واستدلوا لذلك بقراءة عبد الله وحذيفة (من الليل) وهو متناسب مع دلالة سبحان على التعجب أو لدفع توهم أن الإسراء كان في ليال ـ وهو بعيد ـ أو أنه يدل على التعظيم مناسبة للسباق والسياق[2]، وهو متناسب مع مقام تفضيل النبي ﷺ والذي يظهر أن دلالة التنكير على التقليل أقوى في مقام التعظيم المستفاد بقرائن أخرى من إضافة علم التنزيه إلى الصلة ، ووقوع الحدث في حيزها ، فالتعليل يدل على تعظيم ما في حيز الصلة (أسرى) ، وقد استعظم الكفار وقوعه في وقت بسيط وذكر مبدأ الإسراء ونهايته . كان إشارة إلى ما في السورة من التشريع الاجتماعي من قوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ. . .﴾ عند العلامة ابن عاشور[3] . وهو ملمح جيد لا يدفعه ورود التشريع الاجتماعي في سورة أخرى ، لأن بناءه البياني هاهنا جاء ناظرا إلى المطلع ، ومناديا على وجه ورودها كما سنحاول الإشارة إليه في استبصار بعض خيوط بيان السورة .

وكما أن قوله : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يدل على تفضيل النبي ﷺ فذكر مبدأ الإسراء ونهايته . (المسجد الحرام ـ المسجد الأقصى) يدل قطعا على إدارة معانى السورة الكريمة في إطار بيان التفاوت بين الشريعتين والكتابين في حدود الإقبال على الله وحده ، والتشريف بنسبة وجود هذا الإقبال كما ألمع إليه المطلع ، لذلك ذكر القرآن الكريم في السورة إحدى عشرة مرة[4] بما لا تكاد تتقارب معها سورة أخرى .

---

(١) الكشاف ٤٣٦/٢، وأنوار التنزيل ٥٧٥/١، والشيخ زاده ٢٠٨/٢، والبحر المحيط ٥/٦.

(٢) روح المعاني ٤/١٥، ٥، والتحرير والتنوير ١١/١٥ .

(٣) يراجع : التحرير والتنوير ١٥/١٥ .

(٤) الآيات : ٩، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٦٠، ٧٨، ٨٢، ٨٨، ٨٩، ١٠٦ .

ببيان بديع لا نملك معه إلا أن نخر لله سجدا ، فهو نور الله العلي العلام وكلامه القديم يتعاظم إشعاعه في مطلع السورة الكريمة يلحظه الأئمة ببيان تتلمسه تلمسا حثيثا في مثل ما أبصره الشهاب الخفاجي في توجيه العطف في قوله تعالى : ﴿ **وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ**. . . ﴾ (٢) في أنها عطفت «بجامع أن موسى أعطى التوراة بمسيره إلى الطور ، وهو بمنزلة معراجه ، لأنه منح ثمة التكليم وشرف باسم الكليم ، وطلب الرؤية . مدمجا فيه تفاوت ما بين الكتابين ، ومن أنزلا عليه ، وإن شئت فوازن بين ﴿ **أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ** ﴾ و ﴿ **مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ**. . . ﴾ وبين ﴿ **هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴾ و ﴿ **يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ** ﴾»[(١)] .

وعد الألوسى هذه الآيات استطرادا تمهيدا لذكر القرآن ، لذا يقول عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ** ﴾ (الإسراء:٩) : «متعلق بصدر السورة كما مرت الإشارة إليه ، وفي الإشارة بهذا تعظيم لما جاء به النبي ﷺ»[(٢)] والآية عند ابن عاشور «استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة وهو تأييد النبي ﷺ بالآيات والمعجزات ، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن»[(٣)] وليس ما بين الآيتين استطراد إنما هو جار في إطار بين التفاوت كما نور المطلع ، لكنه جاء على خلاف نظام المطلع حين ذكر في المطلع الفاضل ثم المفضول اقتضاء قص الحدث وإجرائه ، وجاء هذا في الموازنة بذكر المفضول لسبق وجوده، ثم ذكر الفاضل فقوله: ﴿ **وَءَاتَيْنَا مُوسَى** . . . ﴾ (٢) ، بداية تفضيل مقصود على ما استبصرناه في

---

(١) عناية القاضي وكفاية الراضي ٨/٦ .
(٢) يراجع روح المعاني ١٤/١٥، ٢٢ .
(٣) التحرير والتنوير ٣٩/١٥ .

كلام الأئمة ، فالآيات من قوله : ﴿ **وَءَاتَيۡنَا** ﴾ (الإسراء:٢) إلى قوله : ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ** ﴾ (الإسراء:٩) تفصيل لقصة بني إسرائيل إزاء المسجد الأقصى في إطار ما قرره المطلع جاءت مقابلة لما قرره المطلع من الإقبال على الله وحده من أول أمر ، وجاء كل ما في السورة الكريمة من آيات ـ على ورود كثير منها في سورة الذكر الحكيم ـ متقابلا مع هذه الآيات ليتلاقى مع ما قرره المطلع وجاءت آيات في قصتهم آخر السورة مستغرقة أربع آيات من قوله : ﴿ **وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ** ﴾ (الإسراء:١٠١) إلى قوله : ﴿ **وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ** ﴾ (الإسراء:١٠٥) ، وذكر بين هذين الموضعين من أحوال الكفار ما يشاكل حال اليهود بمفارقات نادرة وعجيبة وتشابك مستحكم لا نستطيع معه فصل عنصر عن آخر في أداء المقصود ، فبيان شعراء الجاهليين مبدوء ـ غالبا ـ بوصف الطلل ثم ذكر الناقة . . . أو . . . أو . . . إلى آخره مع سريان روح التركيب في القصيدة الواحدة ، فيستبين الناظر مواقع عناصر مقصود القصيدة ، أما في كلام الله فمحال أن نحدد مواقع بدايات عناصر المقصود وكل ما نستطيع الوقوف عليه هو استبصار خيوط هذه العناصر وامتداداتها في السورة من المطلع إلى الختام حينا ، ومن الختام إلى المطلع حينا آخر .

فالتحذير الأول لبني إسرائيل هو قوله تعالى : ﴿ **أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا** ﴾ (الإسراء:٢) ولا تجد كهذه الآية في قصة بنى إسرائيل في الذكر الحكيم ، وهي من نور المطلع الذي يحمل معنى الإقبال على الله وحده ، وقد ألقى القرآن بهذه الآية : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا** ﴾ (الإسراء:٣) بهذا التعليل الذي لم يقع في غير هذا الموقع ، بهذا التعانق البديع الذي يقتضيه قوله : ﴿ **أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا** ﴾ وهو

من نور العبودية في قوله : ﴿ **أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ** ﴾ وقد ذكروا أن الآية «استئناف لبيان علة ما ذكر قبله ، وحث الذرية على الاقتداء به»[1] .

مع مراعاة ما في تركيب الآية بهذا الإيجاز البديع الذي يبين عن وجه الإقبال على الله وحده ، وثمرته (النجاة) من أجل (العبودية) ، لذا لم يذكر هنا إبراهيم عليه السلام .

ولحظ للمناسبة أيضا بين قوله : ﴿ **حَمَلْنَا** ﴾ وقوله : ﴿ **أَسْرَىٰ** ﴾ وما يطويه مفهوم تركيب الآية من التهديد ، عند الإخلال بوصف العبودية ، كما كشفه قوله بعد : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا** ﴾ (١٧) ولما كان هذا العنصر أقوى عناصر السورة اتصالا بالغرض المجمل في المطلع ، كان أكثر انتشارا تجد نور هذا العنصر في قوله : ﴿ **لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ** ﴾ (الإسراء:٢٢) وقوله : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ** ﴾ (الإسراء:٢٣) وقوله : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ** ﴾ (الإسراء:٣٩) .

مع ملحظ مهم هو أن آيتى (لا تجعل) وقع بينهما التشريع الاجتماعى لخصوصية سنحاول كشفها ـ وتجد نور هذا العنصر في قوله : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً** ﴾ (الإسراء:٤٢) وقوله : ﴿ **قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً** ﴾ (الإسراء:٥٦) ويعلل في هذا النور اختصاص قصة إبليس بقوله: ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً** ﴾ (الإسراء:٦٥) والذي يتعاظم إشعاع المطلع فيه هنا إذا ذكرنا قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ** ﴾ (الحجر:٤٢) .

---

(١) حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي ٢/٢١٠ .



كما تزداد بنور هذا العنصر بصرا بقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٦٨) باستحضار التناغي بين ﴿ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء:٣) و ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٢) وكأن هذه العبارات اقتضت ذكر الآيات من قوله ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى ﴾ (الإسراء:٦٦ ، ٦٧) ويتعاظم العجب عندك إذا ما أبصرت بعد قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء:٦٩) ، وما في تتابع المجرورات هذه من بدع البلاغة والتي هي من عيوب الفصاحة في الكلام على ما عرفت في بيان البشر ، ثم تجد هذا النور في مخاطبة النبي ﷺ الموصوف في المطلع بالعبودية عند فرض اختلال هذه الصفة ، وهي مباشرة للمطلع تجد رابطا مباشراً للآيات من قوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ (الإسراء:٧٣ ، ٧٤) في قوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء:٧٥) وقد كانت إرادة الفتنة منحصرة في إرادتهم ترك بعض ما أوحي إليه ﷺ ففصلت الآيات وعينها على المطلع إلى أن جاء قوله : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٨٦) . بهذا النمط البديع الناظر كله إلى قوله : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٢) الناظر إلى قوله : ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ هذا نور الله سبحانه ثم تتضام كل هذه المعاني بعد توزع خيوطها في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ (الإسراء:١١١) في ختام السورة ، مع مراعاة اختصاص السورة بهذا الخيط البديع الذي تتنادى فيه التراكيب بتقاربها وتشاربها من بحر واحد وحقل واحد ، هو مطلع السورة الكريمة الذي يجعل مقصودها بما يضيق المقام ببيانه .

وخيط آخر أحاول استبصاره في قوله : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ (الإسراء:٤) وقد أبانت السورة عن هذا الإفساد خير بيان

فقد كان هذا الإفساد مقابلا لما قرره المطلع من الإقبال على الله وحده ، والظاهر أنه كان إفسادا متعلقا بمجتمعاتهم ، فأول إفساد هو اتخاذهم من دون الله وكيلا ، ثم العزوف عما قرره شرعهم ، فسبب إخراجهم أنه لم يكونوا عبادا ، تلمح هـذا فـي هذه المقابلة ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ وما في دقة هذا التركيب يجعلنا نقرر أن الآية (٤) كأنها تترجم عن قول مؤداه فلم تكونوا عبادا لنا فنبعث عليكم عبادا لنا وهذا سر وقوع آيات التشريع بين قوليه سبحانه ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ .

فيبدو أنه كان من إفسادهم عقوق الوالدين ، الذي أوشك الذكر الحكيم أن يجعل طاعتهما عبودية بهذه الاستعارة التمثيلية التي هي من خصائص السورة الكريمة على ورود البر بالوالدين في مواضع أخرى من الذكر الحكيم ، ولولا قوله : ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ لأوشكت طاعتهما أن تكون عبودية ، وتلك مقتضيات المطلع في الإقبال على الله وحده ـ أي وعلى تشريعاته وحدها ـ ويبدو أنه كان من إفسادهم أكل حقوق الأقرباء والمساكين ، والتبذير ، والبخل وقتل الأولاد ، وشيوع الزنا ، وتعطيل القصاص ، وأكل مال اليتيم ونقض العهد ، وبخس الكيل والميزان ، وتتبع العورات والعجب والكبر ، وكل ما يقطع قوى المجتمع ويهتك أواصره فتكون الذلة ، وأول هذه الآفات وآخرها هو مخالفة قوله سبحانه : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٢) .

والذي يغريك بتقبل هذا الملمح أنه كان يكفى في إبلاغ هذه التشريعات أن يقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ـ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ـ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ـ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ـ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ـ وَلَا تَقْرَبُواْ

ٱلزِّنَىٰٓ – وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ – وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ – وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ – وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ – وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ – وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾ .

كان هذا القدر كافيا في الأمر بهذه التشريعات إن لم نجد في السياق قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ (الإسراء:٩) وإن لم نجد قبله مقابلة الإفساد بعباد له سبحانه أولى بأس شديد ، وأسلوب التفضيل في آية القرآن هذه لم يقع في سورة أخرى ، لذلك عطف على كل تشريع اجتماعي ، وذيل كل تشريع بما يربطه بمقصود السورة ، وأظهر بيان على ما نقول مثلا قوله : ﴿ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩) وقوله : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (الإسراء:٣٣) وما في الجملة الأولى من الذلة ، وما في الرضا بالقصاص من التأييد وحقن الدماء ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٥) إلى آخره فكأن آيات التشريع هذه مفهوم لمنطوق قوله : ﴿ لَتُفۡسِدُنَّ ... ﴾.

وتجد نور قوله : ﴿ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ فى قوله : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾ (الإسراء:١٦) وقوله : ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء:٣٧) وتجده في قوله : ﴿ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ ﴾ (الإسراء:٥١) وقد أعقبه بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ (الإسراء:٥٢) أى تستجيبون حامدين له ، ونجد صداه في إخباره عن الكافرين ﴿ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٦٠) وفي قول إبليس : ﴿ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ ﴾ (الإسراء:٦٢) الذي لم يرد في غير هذا الموضع ، لأنك لا تجد في السياقات الأخرى كقوله : ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ ﴾ (الإسراء:٧٠).

مع أن الإمداد تفضيل يستوجب الحمد ، والتفضيل من العلى العلام ، كما أنبأ المطلع ونور ، وأشاع ذلك في السياق من أول قوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ (الإسراء:٦) وتجد نوره في قوله : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ (الإسراء:٢٠) وقوله : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (الإسراء:٢١) وفي تفضيل النبيين ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (الإسراء:٥٥) قال جار الله ـ ناظرا إلى المطلع ـ « قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم ، لأن ذلك مكتوب في زبور داود ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) .

وهذا التركيب مع مجيئه في سورة النساء إلا أن له دلالة خاصة أشاعها فيه نور المطلع ، لأنه جاء في النساء في آخر قوله : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (النساء:١٦٣) لكنه جاء في الإسراء تعريضا « للمشركين بأن المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون عليهم ، لأن ذلك مكتوب في الزبور »[١] .

وسياق الإخلال بنعمة التفضيل المتناغي مع مقام الإقبال على الله وحده اقتضى اختصاص السورة بقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ (الإسراء:٩٧) ولا كقوله : ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا . . . ﴾ في الذكر الحكيم لأنه ـ سبحانه ـ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ (الإسراء:١١١) كما ترجم ختام السورة .

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٣٧ .

ومن بدائع هذه السورة اختصاص جهنم بوصف ﴿ حَصِيرًا ﴾ بيانا لعاقبة الخارجين على ما قرره المطلع ، وقد تكاثرت أقوال المفسرين في المراد بحصيرا ورجحتُ في دراسة أخرى[1] أن المراد بالحصير السجن ، ورجحتُ أنه تشبيه بليغ بقرينة الحديث : إن في جهنم سجنا يقال له : بولس . . .) ، واستبعدت أن يكون المراد بالحصير (الحصير المرمول) لعدم استقامته إلا على وجه التهكم ، وذلك مما يخلو منه السياق ، لأن السياق في إذلال الخارجين على مقصود هذه السورة وذلك مع تقابله مع المطلع له إشعاعاته في السياق تجد فوره في قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الإسراء:١٨) وفي قوله : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ (الإسراء:٢٢) ، وفي قوله : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩) وفي قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الإسراء:٣٩) .

وتجد هذا الجزء مقابلا لعمل كفار مكة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (الإسراء:٤١) وقوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ (الإسراء:٤٦) وربما تجد نوره ظاهرا فيما اختصت به السورة من قوله في اليهود ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (الإسراء:١٠٤) .

---

(١) يراجع : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٤١٢ وما بعدها ، الدكتور إبراهيم الهدهد ـ مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ ، وقد راجعت في هذا الموضع الكشاف ٤٣٩/٢ والبيضاوي ٥٧٩/١، والفتوحات ٦١٧/٢، وابن كثير ٢٦/٣، والشهاب على البيضاوي ١٣/٦، والتحرير والتنوير ٣٩/١٥، والترغيب والترهيب ١٨/٤، واللسان ١٧٩/١، والقاموس ٢٠٩/٢، وأساس البلاغة ، ص٨٥، والمعجم الوسيط ١٧٩/١ .



وهي مرحلة تسبق دخول جهنم الموصوفة بقوله : ﴿ حَصِيرًا ﴾ وقوله ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء:٩٨) ينادى مباشرة على قوله : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾ (الإسراء:٤٩) وما فيه من نحو قوله : ﴿ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ . . . ﴾ الذي يتواصل مع قوله : ﴿ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ (الإسراء:٤) المتقابل مع مقام العبودية ، وهي تتضام جميعا في قوله : ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ .

وسياق العلو والإمداد بالأموال والنفير المقتضيين للإقبال على الله وحده ، ثم إخلاف اليهود المقصود منهما اقتضى وقوع الفرق فيما حكاه الشيخ الجمل في قوله : ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ (الإسراء:٣١) بتنظيره بقوله : ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ﴾ (الأنعام:١٥١) لأن ما في الإسراء « خطاب للموسرين بدليل قوله : ﴿ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ ﴾ أي خشية وقوع الفقر بكم ولذلك أخر ذكرهم ، وقدم ذكر الأولاد في قوله : ﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ وتقدم في سورة الأنعام نهي المعسرين بقوله : ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ ﴾ أي من أجل فقر واقع بكم ، ولذلك قدم ذكرهم في قوله : ﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ﴾ وفي الكرخي حاصله : « أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله وإن كان لأجل الغيرة على البنات ، فهو سعي في تخريب العالم ، فالأول ضد التعظيم لأمر الله ، والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم »[(١)].

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٦٢٣، ٦٢٤ .

وهو تفسير ناظر إلى قوله : ﴿ سُبْحَٰنَ . . . ﴾ الذي يترجم الإقبال على الله وحده ، وإلى ما في السياق من قوله : ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم ﴾ (الإسراء: ٤٠) .

كما تجد أن آيات الكافرين من قولهم : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ (الإسراء: ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣) هي من نور قوله ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الإسراء:٦) ، كما تجد نوره في قوله : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء: ١٠٠).

وتجد قوله في قصة موسى ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ (الإسراء:١٠٣) مقابلا لقول كفار مكة ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ (الإسراء:٧٦) وقد مهد لعرض هذه الحلقة من قصة موسى بقوله : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ (الإسراء:٧٧) وكأن قول الفريقين وفعلهما من أثر ما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ (الإسراء: ٦٤) .

وتجد أوصاف قوله : ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ في آخر السورة بما لا نظير له في الذكر الحكيم من قوله : ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسراء:١٠٧) ويتأيد ذلك عندك بقوله في أول السورة ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ (الإسراء:٥) بمقارنته بقول العباد بما وقع في فروق التركيب من قولهم ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (الإسراء:١٠٨).

وكان للأئمة أن يقولوا : «وما ألطف المناسبة بين ابتداء هذه السورة وهذا الختام ، وليس ذلك بدعا في كلام اللطيف العلام»[1] .

---

(١) روح المعاني ١٩٦/٥ .

وقد اختصت السورة بقوله : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ كاختصاصها بالتصدير بقوله : ﴿ سُبْحَانَ . . . ﴾ وذلك ما ألمح إليه أبو حيان في قوله في آخر السورة «أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال ، وأكد بالمصدر تحقيقا له وإبلاغا في معناه ، وابتدئت هذه السورة بتنزيه الله تعالى واختتمت به»[1].

وتواصل آيات السورة بدع في البلاغة شأن سور الذكر قاطبة .

فسبحان العلي العلام .

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦/٩١ .

المبحث الثالث

سورة الكهف

كان اسم السورة ، وقيد الكتاب ﴿ قَيِّمًا ﴾ الذي تفرد به هذا المطلع مناطى استبصار مقصود السورة عند البقاعي فيما قال ـ رحمه الله ـ : «ومقصودها وصف الكتاب بأنه قيم ، لكونه زاجرا عن الشريك ـ الذي هو خلاف ما قام عليه الدليل في ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ ، من أنه لا وكيل دونه ، ولا إله إلا هو ـ وقاصا بالحق أخبار قوم قد فضلوا في أزمانهم ، وفق ما وقع الخبر به في ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ من أنه يفضل من يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وأدل ما فيها على هذا المقصد قصة أهل الكهف لأن خبرهم أخفى ما فيها من القصص ، مع أن سبب فراقهم لقومهم الشرك ، وكان أمرهم موجبا بعد طول رفادهم للوحدانية وإبطال الشرك»[(١)] .

وهو مما نفسر به كثيرا من خصائص السورة ، مع ضميمة ما ذكره من تعليل افتتاح السورة بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ مما أفضى به إلى بيان وجه اختصاص السورة بقصة الخضر وقصة ذي القرنين .

وهو ما قاله ـ رحمه الله ـ : بعد تبيينه علة افتتاح خمس من سور الذكر الحكيم بالحمد لله ، وأن أولها سورة الفاتحة لاشتمالها على الإيجادين والإبقاءين وأن الأنعام اختصت بالإيجاد الأول لجميع العالمين ، وذلك

---

(١) مصاعد النظر ٢/٢٤٣، ٢٤٤ .

مشار إليه في الفاتحة بقوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : « أما الكهف فقد اختصت بالإبقاء الأول ، وافتتحت حديثها باستحقاقه ـ تعالى ـ الحمد لذاته ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وعللته أيضا بإنزاله الكتاب واستفادته الذي هو أس استنفادة البقاء الأول في دار الفناء (الأرض) وبقاء نظام العالم ، والنوع الإنساني إنما يكون بالنبي والكتاب وذكر فيها قصة الخضر الذي انتظم ، واستقام به كثير من أحوال أهل السفينة والغلامين اليتيمين والرجلين الصالحين ، وذكر فيها قصة ذي القرنين الذي استقام بصنيعه أهل الأرض فحفظهم من فساد يأجوج ومأجوج ، فهذه القصص التي لم ترد في غير هذه السورة تؤكد الإشارة إلى أسباب البقاء الأول فكان الحمد فيها على نعمة الإبقاء الأول »[(1)] .

ومعنى ﴿ قَيِّمًا ﴾ على ما ذكر البقاعي « مقوما لأمور معاشهم ومعادهم »[(2)].

وهو الوجه الذي ارتضاه الرازي ، ودفع به قول ابن عباس في أن المعنى « معتدلا مستقيما ، وقيل : عنى به أنه قيم على سائر الكتب يصدقها ويحفظها »[(3)] ، لأن ارتضاءه يشكل به موقع قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ إذ إن مفهوم الجملة أنه جعله مستقيما معتدلا ، مما حملهم على استخراج وجه لهذا التكرير ، وتكلف ناصب لقوله : ﴿ قَيِّمًا ﴾ تبعا لهذا المعنى[(4)] ، مع أن المعنى هو الذي يتحكم في القاعدة من غير عكس .

---

(١) نظم الدرر ٣/١٢ بتصرف .

(٢) المفردات (ق ى م)، ص٤١٧ .

(٣) جامع البيان ١٢٦/١٥ .

(٤) فذكروا أنه منصوب بمضمر ، لأن انتصابه على الحال يترتب عليه الفصل بين الحال وصاحبه بأجنبي ، وتكلفوا المحامل لنصبه على الحال على اعتبار أن==

وقد ذكر جار الله أن الوجه في تعاقب الوصفين ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ ﴿ قَيِّمًا ﴾ «التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخل من أدنى عوج عند السبر والتصفح»[1] والذي أبصره الرازي وأبو السعود والبيضاوي[2] أن الوصف الأول إشارة إلى كونه كاملا في ذاته ، والوصف الثاني إشارة إلى كونه مكملا لغيره ، فهو وصف له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ، وعليه استظهر الرازي فساد ما ذكروه من التقديم والتأخير في الوصفين .

بل رجح أبو السعود المعنى الذي ارتضاه الرازي بالنظر إلى ما بعد آية المطلع فيما يقول : «قيما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير»[3] . وهو ما نبهنا إلى عنصري البيان عن مقصود السورة الذي أجمله مطلعها ، إذ إنه علق هذا المقصود الذي أجمله المطلع بلام الغرض التي أدرجت في ثناياها عدة جمل أبانت ـ بهذه العلاقة الصناعية الظاهرة ـ عن العناصر التي تفرعت عن هذا المقصود ، فهي سورة الزجر والتقويم ، وكان لهذا المقصود صداه المتعالي داخل

== الواو في (ولم يجعل) واو الحال لا واو العطف ، أوعد قوله : (ولم يجعل) اعتراضا ، وعليه جاز الفصل ، أو هما حالان متواليان أولاهما مؤسسة والثانية مؤكدة أو أن الوجه على التقديم والتأخير والتقدير (قيما ولم يجعل عوجا) أو أن (قيما) بدل من (ولم يجعل). يراجع : الكشاف ٤٧١/٢، وجامع البيان ١٢٦/١٥، ومفاتيح الغيب ٢٣٣/١٠، والبحر المحيط ٩٥/٦، والبيضاوي ٤/٢ .

(١) الكشاف ٤٧١/٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٣٣/١٠ وما بعدها ، وإرشاد العقل السليم ٦٧٣/٥ ، والبيضاوي ٣/٢، والتحرير والتنوير ٢٤٨/١٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٦٧٣/٥ .

السورة ، وتعالى نداء التراكيب على علاقتها بمطلع السورة الذي هو نورها كما سيظهر ـ إن شاء الله ـ .

عناصر البيان عن هذا المقصود ـ الذي يجمله في قوله تعالى : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا** ﴾ ـ تبدأ من قوله : ﴿ **لِّيُنذِرَ** ﴾ في الآية الثانية إلى قوله : ﴿ **وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ في الآية (٨) ويضيق المقام باستظهار إشعاعات هذه الآيات ، لأن حديثنا في حدود إثبات دعوى إجمال المطلع لمقصود السورة ، وبيان أن الأول ناصيتها والثاني جسدها وروحها ، ومحاولة استبصار هذه الدعوى في كلام الأعيان من الأئمة ، فلو كان النظم الحمد لله الذي أوحى إلى عبده . . . أو آتى عبده ، أو جعل الكتاب . . . إلخ أتراه يتناسب وهذا القيد ﴿ **قَيِّمًا** ﴾ كما ارتضى معناه الأئمة؟ لا ريب أن التعبير المعجز بقوله ﴿ **أَنزَلَ** ﴾ راعى هذا التناسب فقد أضفى على الكتاب صفة العلو وهي أهم أصول صفات الزاجر ولو جيء بما افترضناه ـ محاولة لاستظهار نور الله في كلامه ـ لسقطت هذه الدلالة وانتفت قيمة الزجر الذي استمد قيمته من جهة إنزاله ، لا من جهة مبلغه لذا لم يصلح هنا أن يقول غير قوله : ﴿ **عَلَىٰ عَبْدِهِ** ﴾ في هذا المقام ، مع استبصارنا لما في هذه الإضافة من التشريف ، وما في تقديم الجار والمجرور من إثبات صدقه لأن حديثه وحي ، بل إن هذا المقصود اقتضى تقديم الإنذار على التبشير .

كما أبصر الألوسي فيما يقول : « وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه »(١) . وهو الذي اقتضى حذف

(١) روح المعاني ٢٠٣/١٥ .



المفعول الأول لقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ كأنه «قد جعل المنذر به هو الغرض المسوق إليه ، فوجب الاقتصار عليه ، والدلالة عليه تكرير الإنذار»[1].

وهو الذي اقتضى وصف البأس الذي هو بمعنى العذاب بالشدة ، ولم يقع في غير هذه السورة ، والذين ارتضوا أن يكون ﴿ قَيِّمًا ﴾ بمعنى مستقيما ، يذكرون أن البأس وصف بالشديد للتأكيد قالوا : «فإن الشديد هو البأس ، وكرر للتأكيد»[2] وهذا من أثر تركيب المطلع .

يقول الشهاب ـ بعد بيان إشارة البيضاوي إلى أن قرينة حذف المفعول مقابلتهم بالمؤمنين قال : «وأورد عليه أن مقابلته بالمؤمنين الصالحين ، يقتضي شموله للعصاة لكن كون المراد من البأس الشديد العذاب الذي بلغ العناية يقتضي تخصيصه بالكافرين» وتبعه بعض المتأخرين ، لكنه قال : «لا اقتضاء لما ذكر للتخصيص إذ كل عذاب الله شديد ، وتعقبه بعضهم بأن المراد بالبأس الشديد العذاب البالغ في الغاية وهو مخصوص بالكفار وهو مصادرة»[3] .

والذي تجمل الإشارة إليه أن الذي قال بالتخصيص ناظر إلى مقصود السورة المجمل في مطلعها ، والذي يغري يتقبل هذا القول أنه وصف أجر المؤمنين في مقابلتهم بأوصاف لم تقع ـ في تتابعها ـ في غير هذه السورة ، فلن تجد كقوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ في وصف أجر المؤمنين ، وستدل تراكيب السورة على هذا التقابل البين .

---

(١) الكشاف ٤٧١/٢ .

(٢) حاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٢٤٧/٢ .

(٣) عناية القاضي وكفاية الراضي ٧٣/٦ .

وقوله : ﴿ مِّن لَّدُنۡهُ ﴾ اقتضاهم الاختلاف في وقت العذاب أفي الدنيا أم في الآخرة؟ فإن كان في الدنيا فاستعمال الظرف مجازي ، وإن كان في الآخرة فاستعماله حقيقي ، واستظهر ابن عاشور أن يكون المراد به شدة الحال في الدنيا وهو في هذا التفسير ناظر إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (الكهف:٧ ، ٨) ، ومثل صاحب الجنتين ، وجمهور المفسرين على غير هذا الوجه ، وكل ناظر إلى معاني السورة ، وعليه فكما قال ابن عاشور :« ويجوز أن يراد بالبأس الشديد ما يشمل بأس عذاب الآخرة ، وبأس عذاب الدنيا . . . ويكون استعمال ﴿ مِّن لَّدُنۡهُ ﴾ في معنييه الحقيقي والمجازي »[1] .

وقد ذكروا أن عطف قوله : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ (الكهف:٤) ، على قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ من باب عطف الخاص على العام[2] ، وهو تناسب مع مقام الزجر ، وشيء آخر وراء هذا التخصيص وهذا العطف هو أن أول مقتضيات وصف الكتاب بأنه قيم ، الزجر عن أن يكون لمنزله شريك ، وذلك ما تراه متعالي الصدى عقب كل إنذار وتبشير وأثناء كل قصة ، وفي بأس الدنيا الشديد ، وبأس الآخرة الشديد ، وقد ذكروا أن القائلين هم كفار العرب واليهود والنصارى[3] .

واستظهر ابن عاشور[4] أن يكون المراد كفار العرب نظرا لنزول السورة في مكة وليس الأمر كما يقول ، لأن سبب النزول هو جزء من المقام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٩/١٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٣٨/١٠، والصاوي على الجلالين ٢/٣ .

(٣) مفاتيح الغيب ٢٣٨/١٠، وأبو السعود ٦٧٥/٥ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٥١/١٥ .

ووسيلة معينة على استظهاره فقط وحتى بالنظر إليه ، فالذين أذوا كفار مكة بهذه المسائل الثلاثة هم اليهود .

ولما كان ادعاء الولد لله يقتضي اتساع علم المدعي هذه الفرية جاءت هذه الجملة التي نفت العلم عنهم وعن آبائهم بهذا الشأن بما لا نظير له في الذكر الحكيم ﴿ **مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً** ﴾ (الكهف:٥)، ومن عجائب الذكر الحكيم أنه لم يقع نفي العلم عن الآباء في قرن واحد بهذا الأسلوب الصريح إلا في سورة الأنعام في قوله : ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ** . . . ﴾ (الأنعام:٩١) ، ومن الأعجب أن نفي العلم عنهم وعن آبائهم جاء عقب إنكارهم إنزال الكتاب على أي من البشر وأن الكهف افتتحت بعد الثناء بذكر إنزال الكتاب ، فتقاربت مع الأنعام في افتتاحهما بالثناء ، كأن من مقتضيات إثبات الألوهية ـ الذي هو مقصود الأنعام سورة الإيجاد الأول على ما قرر البقاعي ـ إنزال الكتاب الذي هو قيم على الإبقاء الأول وإنكار الثاني يقتضي إنكار الأول فكان ذلك التركيب مترجما ـ مع تواصله مع المطلع ـ عن سر اختصاص السورة هنا بقصة موسى والخضر ، وذي القرنين وأصحاب الكهف .

ثم فرع على زجرهم عن اتخاذ الشريك بقوله : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ** ﴾ (الكهف:٦) ثم ربط هذا المطلع بعلاقة مباشرة بقوله : ﴿ **إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ لأنهم يذكرون أن المراد بالحديث «القرآن الذي عبر عنه في صدر السورة بالكتاب»[1] ويتعالى صدى هذا التفريع في قوله : ﴿ **وَٱصْبِرْ**

---

(١) يراجع في ذلك : الكشاف ٤٧٣/٢، البحر المحيط ٩٨/٦، ومفاتيح الغيب ٢٤٠/١٠، وأبو السعود ٦٧٦/٥ وغيرها .

﴿ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ (الكهف:٢٨) ، ووقع بعد التفريع قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ (الكهف:٧،٨) ولا كهذا التركيب الجامع في الذكر الحكيم ، وقد وقع ـ كما قال ابن عاشور ـ موقع التعليل للتفريع وهو متواصل مع لام الغرض وما دخلت عليه كما أبصره ابن عاشور في التعليق على الآيتين بقوله : « هذا تعريض بأنه سيحل بهم قحط السنين السبع . . . ولهذا اتصال بقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا . . . ﴾ »[1] وذلك تبعا لما ارتضاه من وقوع البأس الشديد في الدنيا فرارا من اعتبار التكرار في الإنذار ، لكن الزجر هو الذي اقتضى التكرار إن تقبلنا كونه تكرارا .

وصدى هاتين الآيتين اقتضى زجر كفار مكة عن الاغترار بزينة الدنيا في قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ واقتضى ورود قصة صاحب الجنتين في هذه السورة دون غيرها ووضع الذكر الحكيم معالم دالة مباشرة داخل ما ذكرناه إشارة إلى هذه العلاقة وعناصر البيان عن المقصود الذي أجمله المطلع الزجر عن الشريك ـ الذي اقتضى إثبات الولاية لله والعلم ونفاهما عن غيره ، ووضع روافد هذا العنصر في رافدي إنذار وتبشير يتعالى فيهما صوت الزجر والتقويم ، وعنصر آخر هو النهي عن الاغترار بالدنيا وزينتها لأن الاغترار بها يقتضي إثبات الشريك ، وجاءت الآيات الدالة على هذا العنصر في الرافدين اللذين جاء فيهما النهي عن الشريك سبيلي البيان عن المقصود المجمل في المطلع .

وقد اقتضى ترتيب هذه العناصر مجيء قصة الكهف أولا ، لأن قطبها النهي عن اتخاذ الشريك ومع دورانها حول هذا القطب تظهر فيها سمات العناصر الأخرى في تشابك بديع ، والاستبصار بنور هذه الآية ـ التي لم

(١) التحرير والتنوير ١٥/٢٥٦ .



ترد في غير هذه السورة ـ : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف:٤ ، ٥) هو الذي ينور بناء البيان في مثل قوله : ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (١٤) ووصف القول بالشطط من نور قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ وقوله : ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١٥) من نور قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ من نور قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ وأولهما تعجب ، وثانيهما استفهام إنكاري تعجبي ، ومع أن الفتية قاموا فوحدوا الله وكانت هذه الآيات كافية في الدلالة على اعتزالهم أقوامهم ، إلا أنه صرح بسبب هذا الاعتزال ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الكهف:١٦) تناسبا مع الزجر عن الشريك ، ثم نفى البيان العلم عن هؤلاء الفتية ، الذين كان أمرهم عجبا عند الناس ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فبادروا بنسبة العلم إلى الله ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

ثم يعلو صوت الزجر عن الشريك في إطار الإنذار ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف:٢٠) وهو يتقابل مع قوله : ﴿ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ويترجم أن قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ يكون قائما أبدا تقابلا مع أجر المؤمنين ، ويتعالى صوت الزجر في بيان سبب الإعثار عليهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ (الكهف:٢١) ، ولعل البيان عن هذا الوعد هو النذارة والبشارة الواردة عقب المطلع ، والمفسرة داخل السورة ناظرة إليه .

ويتعالى صدى قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾ في قوله : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ (الكهف:٢٢) ثم على النبي ﷺ التوقيف في العلم والفعل على الله وحده ، وهو متقابل مع قوله ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾ لأن لله ـ سبحانه ـ كل العلم وهو ما تعالى صداه بعد في قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ (الكهف:٢٦) والتركيب هاهنا جاء مقلوبا لقوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾ إذ وقع نفي العلم بعد حكاية اتخاذهم لله ـ تعالى ـ ولدا ، وقد جاء هاهنا مثبتا العلم أولا نافيا الشريك ثانيا ، تقابلا مع بداية قصتهم من قوله : ﴿ إِذۡ قَامُواْ ﴾ ومع الآيات التي ذكرناها من قوله : ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴾ (الكهف:٤) لأن الذين عثروا عليهم كانوا مؤمنين وهو ما أبصره البقاعي في المقصود الذي قرره حيث أوجب أمرهم الوحدانية مع أن سبب اعتزالهم هو الشرك .

وبعد هذه القصة وقع قوله : ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾ (الكهف:٢٧) وهو يلفتنا إلى المطلع ، وقد وقع عقب قصة اشتملت على عدم إهانة الفقراء اغترارا بالسلطان ، وقصة توحيدهم وما اشتملت عليه الآيات من الإنذار والتبشير ـ نمط عناصر المطلع كما حاولنا بيانه ـ وموقع هذه الآية في صدر آيات أخرى يذكرنا باستحضار نمط بناء عناصر المطلع ، وقد نبه على كون الكتاب (قَيِّمًا) بقوله : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾ والآيات من قوله : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ﴾ (الكهف:٢٨) إلى قوله : ﴿ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴾ (الكهف:٤٨) ناظرة إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (الكهف:٧ ، ٨) الذي وقع تعليلا للتفريع الذي تفرع عن النهي عن اتخاذ الشريك ، الذي زجر عنه كما وصف الكتاب .

ومن العجب العاجب أن قوله : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ ﴾ (الكهف:٢٨) يتكامل مع سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ ﴾ (الأنعام:٥٢) وهناك نهي عن الطرد وهاهنا أمر بالصبر ، والذي هاهنا ألصق بالزجر ، لأن النهي عن طردهم أخف من الأمر بالصبر معهم ، والأئمة يذكرون في أسباب النزول سببا واحدا في الموضعين هو أن جماعة من المؤلفة قلوبهم قالوا : « يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جلابيبهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك»[1] ، والسورتان مفتتحتان بالثناء ، أولهما على الإيجاد الأول ، وثانيهما على الإبقاء الأول ، وهم يكادون يجمعون على نزول الأنعام جملة واحدة ، فالله بسر كتابه عليم .

وفي الآية معلم مباشر يدل على علاقته بالمطلع فقوله : ﴿ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (الكهف:٢٨) ينادي على قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ (الكهف:٧) لذلك لا تراه في آية الأنعام ـ وهو يتواصل بالمطلع ـ كما حاولنا استبيانه .

وقد جاء الإنذار ببأس الآخرة ناظرا إلى المطلع ناهيك بذكره قبل البشارة موافقة للبناء في قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسًا ... ﴾ وقد جاء قوله في وصف النار الذي لم يقع في غير هذه السورة ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾ (الكهف:٢٩) كناية عن إحاطة العذاب بهم وهو متقابل مع قوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ في وصف أجر المؤمنين « وليس قوله أبدا بتأكيد لمعنى ماكثين بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام»[2] .

---

(١) أسباب النزول ص٢٢٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/٢٥٠ .

وتجد قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (الكهف:٣٠) وهو من نور قوله ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الكهف:٢) وترى الذكر الحكيم يلفتنا إلى التقابل بين عاقبة الفريقين إلى المطلع بقوله مذيلا عقاب الكافرين ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف:٢٩) وقوله مذيلا ثواب المؤمنين ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف:٣١) بيانا عن الدوام في الجزاء والعقاب كما نورت آية المطلع بقوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ .

وجاءت قصة صاحب الجنتين لأجل قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ كما نور القرطبى معلقا على قوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ (الكهف:٣٢) : « هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين وهو متصل بقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ »[١] .

بل ذكر الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ قبله أبدع من هذا فيما قال عند قوله : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ ﴾ (الكهف:٢٧) « اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة ، وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله ﷺ إن أردت أن نؤمن بك فاطرد . . . »[٢] .

وفي قصة صاحب الجنتين تواصل مباشر مع عناصر البيان عن المقصود المجمل في المطلع فأنت ترى قوله ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (الكهف:٣٤) وما بعده (٣٥، ٣٦) ناظرا إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ... ﴾ ، وإنكاره الساعة ناظر إلى قصة الكهف في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ (الكهف:٢١) وترى قول المؤمن : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٣٨) ناظرا إلى قول أصحاب الكهف الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤١٢٩/٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٩٣/١٠ .



يتواصل مع المطلع من قوله : ﴿ **إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ** ﴾ (الكهف:١٤ ، ١٥) وإلى قول أصحاب الكهف : ﴿ **وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا** ﴾ (الكهف:٢٠) مع وقوع كل ذلك في سياق قوله : ﴿ **وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ**. . . ﴾ .

ويتعالى صدى العلاقة في قوله : ﴿ **فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا** ﴾ (الكهف:٤٠) في النداء على قوله : ﴿ **صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ ولا كهذين التركيبين في الذكر الحكيم في وصف الأرض إذا هلك ما عليها ، وهما قد وقعا في إطار ﴿ **لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا** ﴾ الذي وقع في إطار وصف الكتاب بأنه (قيم) ، وقد وقع وصف الجنتين مهلكتين بعد وصفهما مزينتين وكشفت القصة عن سبب إهلاكهما ، وفي نمط بناء عناصر البيان عن المطلع .

ووصف الأرض وإن وقع في سورة السجدة متقاربا مع ما في الكهف في قوله : ﴿ **أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ** ﴾ (الكهف:٢٧) إلا أن له هاهنا وجها آخر وسياقا متغايرا فالحديث في السجدة عن إحياء الأرض ، لكنه في الكهف حديث في إهلاكها ولذلك وصفت ما على الأرض بصيرورته ﴿ **صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ كما وقع في وصف جنتي الكافر ، والمفسرون يفسرون ﴿ **جُرُزًا** ﴾ بقولهم : «لا نبات عليها ولا زرع ولا غرس»[١] أو أنها «أرض بيضاء لا نبات فيها»[٢] أو «الأرض التي لا تنبت شيئا»[٣] أو الجرز «القاحل الأجرد»[٤].

---

(١) جامع البيان ١٣٠/١٥ .
(٢) الكشاف ٤٧٣/٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤٠٧٨/٥ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٥٨/١٥ .

أو «منقطع النبات من أصله»[1] ، ومقتضى السياق فيما ذكروه أن هذين الوصفين تشبيه لحالة إهلاك بعد حالة نفع ، لأن الله قال : ﴿ **وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا** ﴾ فهو منصرف إلى الأرض المنتجة لا القاحلة من أصلها ، وبذلك يتباين موقع لفظ (الجزر) مع ما في سورة السجدة .

وهم يفسرون ﴿ **صَعِيدٗا زَلَقًا** ﴾ بما فسروا به ﴿ **صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ لكن الظاهر أن التشبيه الثاني لما على الأرض ، أشد في الوصف بالإهلاك من الأول ، ويبدو أن الذي اقتضى هذا الترقي هو تفصيل الزينة التي على الأرض بطريق قصة صاحب الجنتين وهذا بدع في كلام الله لن تجد له نظيرا في بيان البشر ، وقد لحظ الأئمة هذا الملحظ ، فيقول قتادة ـ رحمه الله ـ في ﴿ **زَلَقًا** ﴾ أي تصبح «أرضا ملساء لا شيء فيها . . . وعادت خرابا بلا قمح زلقا لا نبت في أرضها»[2] وهو أوقع من تفسير ابن عباس فيما قال : فتصبح صعيدا زلقا مثل الجرز ، وبما عزاه الطبري إلى ابن زيد في قوله : صعيدا زلقا وصعيدا جرزا واحد ليس فيها شيء من النبات»[3] .

ثم كان ذهاب الجنتين داعيا لعــدم الإشراك ﴿ **يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا** ﴾ (الكهف:٤٢) مع أنهما كانتا سبب الإشراك نمط قصة أصحاب الكهف ، وقوله : ﴿ **وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ** ﴾ (الكهف:٤٣، ٤٤) من نور قوله : ﴿ **وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا** ﴾ (الكهف:٢٧) الواقع في إطار وصف الكتاب بأنه (قيم) وقصص السورة دائر

---

(١) المفردات ، ص٩١ .

(٢،٣) جامع البيان ١٦٣/١٥ .



في هذا المقصود ، كما أن ختام القصة يشاكل ختام قصة أصحاب الكهف ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٢٦).

ثم جاء قوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الكهف:٤٥) وهو تلخيص مركز لوصف قصة صاحب الجنتين وتعميمها في الخلق ، ولعل قوله : ﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يكون بيانا للموصول في قوله : ﴿ مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ في الآية (٧) وهذا التصوير «أشبه بحال الصاحب الذي أحيط بثمره»[١] إلا أنه جاء انتقالا من تصوير حياة خاصة إلى حياة عامة كما نوره البقاعي «لما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم . . . ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة بقائها . . .»[٢] ، والملحوظ أن التشبيه يطوي كل مراحل الإنبات ، تصويرا لسرعة زوال الحياة وقلة بقائها ، ناهيك بتعاقب الفاءين في تصوير هذه السرعة ، وما اقتضاه السياق من تصوير الزينة الذي أفيد من قلب الإسناد في قوله : ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يقل ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ كما قال في سورة الحديد ، لأن هذه المرحلة تعلم بالإهلاك أو الانتهاء[٣] ، ثم وقع قوله : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الكهف:٤٦) كالتذييل للآيات من قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ وكأن السياق يلفتنا إلى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الكهف:٧) وظاهرا تواصلها مع المطلع .

وشيء بديع ينوره الذكر الحكيم فبعد تذييل هاتيك الآيات بالآية المذكورة جاءت آية مع اتساع ذكر مواقف القيامة إلا أن لها علاقة مباشرة

---

(١) الإعجاز البلاغى ص١٠٨، ١٠٩ .

(٢) نظم الدرر ١٢/٦٧ .

(٣) لمزيد من البسط يراجع تحليلنا لتشبيهات الحياة الدنيا في القرآن الكريم بعنوان أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ، ص٢٣، ٢٤ وما بعدها ، دكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

بما اختصت به من قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (الكهف:٤٧) أي مستوية ، ألا تراه ينادي على قوله : ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ وقوله : ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (الكهف:٨) وقد أعقبت وصف المال والبنون بالزينة مع ضميمة أن هذه التراكيب لم تقع في غير هذه السورة الكريمة .

وكان ما استبصرناه من نور قول الرازي عند قولـه : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ... ﴾ «اعلم أن المقصود اضرب مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها ، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين»[1] .

وقد جاء عقب هاتين الآيتين بذكر الكتاب ما لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهو وإن كان الكتاب الحافظ لأعمال كل عبد ، إلا أنه من أدوات الزجر ، ذلك قوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الكهف:٤٩) بهذا النظر والترتيب التنازلي للمطلع وعناصره .

ولعل سياق الأغنياء المتكبرين على الفقراء في إطار الزجر هو الذي يفسر اختصاص السورة بما جاء في قصة إبليس من قوله : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ (الكهف:٥٠) كما نوره الرازي بقوله : «اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين ، وهذه الآية المقصود من ذكر عين هذا المعنى وذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم . . .»[2] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١٧/١٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٢٩/١٠ .

ولعل قوله : ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (الكهف:٥١) الذي لم يقع في غير هذه السورة ناظر إلى قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ (الكهف:٥) الذي لم يقع في غير هذه السورة أيضا .

ولقد كان ابن عاشور ـ رحمه الله ـ ينظر إلى الآية مستحضرا آيات السورة كلها كما قال في قوله : ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ (الكهف:٥٤) « **عطف** على الجمل السابقة التي ضربت فيها أمثال من قوله : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلاً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ﴾ ولما كان في ذلك لهم تصنع ، وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدى القرآن عودا ناظرا إلى قوله : ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ ﴾ وقوله : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ ﴾ »[1] .

ويأتي قوله تعالى : ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾ (الكهف:٥٩) ولا يعلمه إلى الله ـ سبحانه ـ فالآية تمهيد لعرض قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ في العلم ، وهي تتواصل مع قوله : ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ ﴾ (الكهف:٥١) وقوله : ﴿ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴾ (الكهف:٤٨) وغير ذلك إلى قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ (الكهف:٥) .

ولقد أشار الرازى ـ رحمه الله ـ إلىعلاقة هذه القصة بما قبلها بقوله : « وهذا وإن كان كلاما مستقلا في نفسه إلا أنه يعين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين .

أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار ، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله . . . ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له . . . وأما نفع هذه

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٤٦ .



القصة في قصة أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا ، وهذا ليس بشيء ، لأنه لا يلزم من كونه نبيا من عند الله ـ تعالى ـ أن يكون عالما بجميع القصص والوقائع ، كما أن كون موسى عليه السلام نبيا صادقا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه»[1].

ولعل سر اختصاص السورة بهذه القصة ظاهر لدوران مقصودها على وصف الكتاب بأنه قيم ، وأن ادعاء الشريك يقتضي العلم والعلم لله ـ وحده ـ وظاهر نمط الزجر من الخضر لموسى عليه السلام وهي في منتهى التناسب مع قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ ﴾ ثم تأمل ما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف:٢٣، ٢٤) وما قاله موسى عليه السلام ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا ﴾ (الكهف:٦٩) وكل جار في نفي العلم عن كل أحد ونسبته إلى الله ـ وحده ـ وذلك ما ختمت به القصة التي بينت اتساع علم الخضر ﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ (الكهف:٨٢) .

وشبيه بها قصة ذي القرنين الذي أصلح الله به الأرض ، وقامت قصته على الزجر وبدئت بقوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ (الكهف:٨٤، ٨٥) كأن لم يفعل شيئا مما ذكر بعلمه ، وإنما كان متبعا لأسباب الله ولأن للقصة اتصالا بقوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ (الكهف:٥) لذلك تكرر قوله : ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ قبل سرد أي من قصته ، ثم ختم قصته بقوله : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴾ (الكهف:٩٨) وهو متواصل

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠/٣٤٠ .



مع قوله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ (الكهف:٥٩) الذي يقع في السياق الذي سبق ذكره .

وكل تراكيب قصتي موسى والخضر وذي القرنين فيها نور قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ الذي لم يرد في غير هذه السورة ، والذي جاء في إطار الزجر في الشريك الذي هو من مقتضيات وصف الكتاب بأنه (قَيِّمٌ).

ثم توالت الآيات جارية في إطار قوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ (الكهف:٢) من قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ (الكهف:٩٩) إلى آخر السورة وترى علامات التقابل ظاهرة ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً ﴾ (الكهف:١٠٢) يقابل قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ (الكهف:١٠٧) وأعقبها بقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ (الكهف:١٠٨) ، وهو من نور قوله : ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (الكهف:٣) وجاء قوله ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾ (الكهف:١٠٩) وهو من نور قوله : ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾ (الكهف:٥) ، ثم أعقبه بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الكهف:١١٠) بعد بيان عدم تناهي علمه ، أبان عن وحدانيته تعالى وهو مقلوب قوله : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾ (الكهف:٤ ، ٥) وهذا من بيان القرآن العجيب في التواصل والترابط .

وقد كان لابن عاشور أن يقول عند قوله تعالى ـ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا . . . ﴾» لما ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد . . . وذكر فيها من أحسن القصص . . . حول الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى»[1] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٥١ .

ولما تكلم عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ . . . ﴾ قال : « أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالمغيبات ، وأدمج في هذا أهم ما يوحى إليه ، وما بعث لأجله ، وهو توحيد الله تعالى . . . وهذا من رد العجز على الصدر من قوله في أول السور ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة ، إذ جعل التوحيد أصلا لها ، وفرع عليه الأصلين الآخرين ، وأكد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى وحصل مع ذلك رد العجز على الصدر ، وهو أسلوب بديع »(١) .

ثم إن القصر ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ﴾ يناسب صفة العبودية في المطلع ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ وصلة الموصول في المطلع ﴿ أَنزَلَ ﴾ تثبت صدقه وهو ما صرح به في الخاتمة ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ولما كان رأس الأمر في التقويم النهي عن الشريك نهى عنه في الخاتمة ، كما شاع النهي عنه في قصة صاحب الجنتين وقصة أصحاب الكهف .

والحمد لله على ما وفق . . .

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/٥٥ .





المبحث الرابع

سورة الفرقان

كانت هيئة تركيب مطلع سورة (الفرقان) مضيئة للأئمة تحديد مقصود السورة وكانوا في هذا الضبط لمقصود السورة ناظرين إلى جريان معاني السورة مقارنة بتركيب مطلعها .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : «ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم»[1] ، وظاهر أن القرطبي ـ رحمه الله ـ نظر إلى ما صدرت به السورة من قوله : (الفرقان) لأن قوله : (وذكر . . . . . والرد) إنما كانا لأجل الجملة الأولى ، فهذه المطاعن وتلك الردود جريا في إطار التفريق بين الحق والباطل كما يدل عليه معنى (الفرقان).

ويظهر هذا المقصود بوضوح عند ابن الزبير ، الذي يبرز لنا خصائص هذه المطاعن التي ذكرها القرطبي ، يقول : بعد إجماله ما تضمنت سورة النور ، وبيان ما ختمت به من بيان عظيم قدر النبي ﷺ «أتبعه ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ** ... ﴾ وهو القرآن الفارق بين الحق والباطل ، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر ﴿ **لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ فيحذرهم من مرتكبات المنافقين والتشبه بهم ،

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٨٦٣/٦ .



ثم تناسج الكلام ، والتحم جليل المقصود من هذا النظام»[1] ، وقوله : ثم تناسج . . . إلخ يواري علما جما أدى إلى هذا القول ، والـذي يظـهـر أن ما صدرت به السورة (الفرقان) نبه ابن الزبير إلى جريان معاني السورة في إطار الفرق بين الملتبسات ، وبيان الحق من الباطل مهما بالغوا في كتمان الحق والتستر عليه ، ثم يكشف لنا ما اختصت به السورة من رد المطاعن فيقول : «وتضمنت هذه السورة من النعي على الكفار والتعريف ببهتهم وسوء مرتكبهم ، ما لم يتضمن كثير من نظائرها كقولهم : ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ (الفرقان:٧) ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ ﴾ (الفرقان:٨) وقولهم : ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (الفرقان:٣٢) وقولهم : ﴿ وَمَا ٱلرَّحۡمَـٰنُ ﴾ (الفرقان:٦٠) إلى ما عضد هذه وتخللها ، ولهذا ختمت بقاطع الوعيد وأشد التهديد ، وهو قوله سبحانه «فقد كذبتم»[2] وظاهر أنه كشف عن رد المطاعن ـ التي هي من خصائص السورة ـ وهي متصلة بالمطلع ، إذ هي في حق من بلغ هذا الفرقان ، وكان توزع رد هذه المطاعن على آيات السورة كاشفا لابن الزبير أن ما تخللها من آي يعضدها والأمر في كشف علائق الأنساب بين هذه الآي ، وبين رد هذه المطاعن ، وبين كل ذلك ، وبين مطلع السورة الكريمة الذي يحمل مقصودها فذلك قول ابن الزبير ثم تناسج الكلام ...» .

وكان تصدير السورة بالفرقان ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ والقيدان التـابعــان لهـذه الجمـلـة ﴿ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ ﴾ ﴿ لِيَكُونَ لِلۡعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ، وما اختصت بـه السـورة مـن ردّ المطـاعـن على النبوة كما ذكر ابن الزبير

(١) البرهان لابن الزبير ص١٣٦ .
(٢) البرهان لابن الزبير ص١٣٧ .

ـ كل ذلك كان داعيا الطيبي ـ رحمه الله فيما نقل عنه ـ أن يجعل مدار السورة فيما وقع بعد لام الغرض التي علقت ما بعدها بالجملة الأولى ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فقال : «مدار هذه السورة على كونه ﷺ مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها ولذلك افتتحت بما يثبت عموم رسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس بقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾»[1] .

كل ذلك جعل البقاعي ـ رحمه الله ـ يبصر مقصود السورة ، ويكشف عن علائق الأنساب بينه وبين ما ورد لأجل هذا المقصود فيقول : «ومقصودها : إظهار شرف الداعي ﷺ بإنذار المكلفين عامة بما له ـ سبحانه ـ من القدرة الشاملة المستلزم للعلم التام ، المدلول عليه بهذا القرآن المبين المستلزم لأنه لا موجود على الحقيقة سوى من أنزله ، فهو الحق وما سواه باطل وتسميتها بالفرقان واضح الدلالة على ذلك ، فإن الكتاب ما نزل إلا للتفرقة بين الملتبسات وتميز الحق من الباطل ليهلك من هلك عن بينة ، فلا يكون لأحد على الله حجة ، ولله الحجة البالغة»[2].

وهو إفراز لكل ما مضى فما ذكره القرطبي كان عند البقاعي هو السبيل إلى البيان عن تمام قدرته ـ سبحانه ـ وتمام علمه . وما ذكره ابن الزبير من الحجج يتعلق بإظهار شرف الداعي ، وبوسعنا أن نقول : إن مقصود السورة بيان شرف النبي ﷺ والسبيل إلى ذلك كونه ﷺ نذيرا للعالمين ، وسبيل هذا السبيل الفرقان المنزل من الموصوف بتمام القدرة وتمام العلم ـ جل وعز ـ وانساقت آي السورة في هذا النظام . فالله أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٣١٤، ١٩/٥٢ .

(٢) مصاعد النظر ٢/٣١٧ .

وقد انطوى مطلع السورة على عدة بدائع واستحثت تراكيب السورة ومعانيها أهل العلم على النظر إلى هذه البدائع مقارنة بمعاني السورة وتراكيبها بما يظن فيه الخلاف عند بادئ النظر ، فقد اختلفوا في تأويل ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وقد ندر أمثاله في كلام بلغاء العرب ، ولهذه الندرة كان في طالع هذه السورة براعة المطلع عند ابن عاشور[1].

وقد ذكروا أنه بمعنى « (تزايد في الخير) أو (تعالى عطاؤه زاد وكثر) أو (دام وثبت إنعامه) أو (تمجد) أو (تعظم) أو (تنزه في ذاته وصفاته وأفعاله على النقائض ومماثلة مما سواه) »[2].

وكل مراد ـ إن شاء الله ـ بحسب النظر إلى آيات السورة ، والذي يغري بذلك هو النظر في الآيتين اللتين وليتا مطلع السورة ٢ ، ٣ فمراد التمجيد والتعظيم يتناسب مع قوله : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ومراد التقديس والتنزية يتناسب مع قوله : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ ومراد التزايد في الخير يتناسب مع قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ ، ومما يتأيد به ذلك أنه قابل بين ما وصف به ـ سبحانه ـ نفسه وما ادعوه لآلهتهم بما جمع كل ما ادعوه لآلهتهم في سياقات سور الذكر الحكيم قاطبة في سياق الفرقان بين الحق والباطل ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣) .

---

(١) يراجع التحرير والتنوير ٣١٥/١٨ .

(٢) ينظر : جامع البيان ١٣٦/١٨، والقرطبي ٤٨٦٣/٦، ٤٨٦٤، والبحر المحيط ٤٨٠/٦، والصاوي على الجلالين ١٠٢/٣ .



وكل ما دار في السورة الكريمة من آيات التوحيد والتنزية والإنعام والنشور متعلق بهاتين الآيتين اللتين لا نظير لهما في الذكر الحكيم ، وقد تعلقتا بالمطلع تعلقا ظاهرا ، فالاسم الموصول في قوله ﴿ **ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ** ﴾ مبدل من الاسم الموصول في قوله ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى** ﴾ فيما قال أبو جعفر[١] ـ رحمه الله ـ .

والسورة من أولها إلى آخر الآية الثالثة « براعة استهلال بأغراضها ، وهو يتنزل منزلة خطبة الكتاب أو الرسالة »[٢] عند ابن عاشور وقد ألمح إلى التقابل بين الآيتين الثانية والثالثة بقوله « وجملة : ﴿ **وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً** . . . ﴾ مقابلة لجملة ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ لأن أعظم مظاهر تقدير الخلق هو مظهر الحياة والموت »[٣] وبناء اللغة هو الذي أضاء للبقاعي تحديد مقصود السورة فهذا التقابل يثبت له ـ سبحانه ـ تمام القدرة والعلم ، وينفيهما عن آلهتهما .

ومن هذه البدائع ما صدرت به السورة من لفظ (الفرقان) ، وقد اختلفوا في مراد الله ـ تعالى ـ منه على أقوال ، إما أن يكون سمي به القرآن ، لفصله بين الحق والباطل ، أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعضه في الإنزال فيما ذكر جار الله[٤] .

واستظهر ابن المنير المعنى الثاني ناظرا إلى قوله : فيما اختصت به السورة ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً** ﴾ (٣٢) فيما

---

(١) ينظر : جامع البيان ١٣٦/١٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٩/١٨ .

(٣) المرجع نفسه ٣٢٠/١٨ .

(٤) الكشاف ٨٠/٣ .

قال : « والأظهر هاهنا هو المعنى الثاني ، لأن في أثناء السورة بعد آيات ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ ﴾ قال الله تعالى : كذلك أنزلناه مفرقا كذلك لنثبت به فؤادك ... فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة ـ والله أعلم ـ كالمقدمة والتوطئة لما يأتى بعد »[1].

ولا يمنع ما ألمع إليه ابن المنير المراد الأول ، بالنظر إلى تراكيب الآيات في سياقات الردود على مطاعن القرآن والنبوة ، كما سنحاول بيان شيء منه إن شاء الله . وذكروا أيضا ـ ناظرين إلى سياقات اللفظ في القرآن الكريم[2] ـ « أنه اسم لكل منزل . . . وفي تسميته فرقانا وجهان : أحدهما ؛ لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر ، الثاني : لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام »[3].

وكل مراد إن شاء الله ـ ففي كونه اسما لكل منزل نظر إلى ما وصف به كتاب موسى عليه السلام وكل ما أنزل من عند الله كان مفرقا بين الحق والباطل وسياق السورة مفرق بين من أنكروا الرحمن وجحدوه ، ومن آمنوا به وعبدوه وفيما جاء من وصف عباد الرحمن جماع الحلال والحرام إلا أن اختلافهم في المراد جاء من اختلاف جهات نظرهم ، وعلى طلاب العلم محاولة الكشف عن جهات نظر الأئمة وعند الحق هي تتكامل وتتلاقى جميعا عند حسن النظر ، وتكشف آفاقا لا حد لها في درس لغة القرآن الكريم ودلالات ألفاظه .

ويدلنا البقاعى على الجمع بين ما رأوه من دلالات بالنظر إلى سياق السورة فيما علل به لتصدير السورة بالفرقان فيقول : « ولما كان تكرار

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف بهامش الكشاف ٢٨١/٣ .

(٢) البقرة ٥٣، ١٨٥، آل عمران ٤، الأنفال ٢٩، ٤١، الأنبياء ٤٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤٨٦٤/٦ .



الإنذار الذي هو مقصود السورة أنفع ، وتفريقه في أوقات متراسلة أصدع للقلوب وأردع ، وكان إيضاح المشكلات في الفرق بين الملتبسات أعون ، مما يكون علة ، عبر بما يدل على الفرق وقدمه فقال : ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴾ »[1] وهذه طريقة السلف في النظر ، كما تمليها عليهم لغة القرآن الكريم وسياقاته .

ورأى العلامة ابن عاشور في إيثار اسم الفرقان بالذكر في هذا الموضع « إيماء إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيمة تفرق بين الحق والباطل »[2] ، والذي يؤيده فيما أبصر استقراء سياق السورة وإسناد الفعل إلى الذي فيما أبصر أبو حيان من قبل بقوله : « وجاء الفعل مسندا إلى الذي وهم وإن كانوا لا يقرون بأنه ـ تعالى ـ هو الذي نزل الفرقان ، فقد قام الدليل على إعجازه ، فصارت الصلة معلومة بحسب الدليل ، وإن كانوا منكرين لذلك »[3] وفيما حرره أبو السعود بعد قوله : « وإبراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة ، التي من حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع ، مع إنكار الكفار له ، لإجرائه مجرى المعلوم المسلم ، تنبيها على كمال قوة دلائله ، وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ »[4] . وليس بخاف عليك أنهم لم يهتدوا إلى هذه الإشارة بالنظر إلى المطلع فحسب وإنما نظروا إلى تركيب المطلع مقارنا بتراكيب السورة .

---

(١) نظم الدرر ١٣/٣٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨/٣١٧ .

(٣) البحر المحيط ٦/٤٨٠ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٧/٢٣٢ بهامش تفسير الرازي .

والذي يدلنا على هذا النظر بجلاء ما رآه ابن عاشور في وصفه ﷺ بـ(عبده) فهو يرى أن «هذا الوصف (عبده) تقريب له وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ (الفرقان:٧)»[١] ، وأنت عليم بأن هذا الوصف جاء في صدر (الإسراء) وصدر (الكهف) ، ولم يقل أحد من الأئمة هذا القول في هذين الموضعين ، وإنما يعللون لهذا الوصف بما يجري في سياق السورة التي جاء في صدرها وبما يتناسب معها ، ولا يمنع التعليل في كل موضع بما اختص به السياق من أن يكون الغرض العام من وصفه ﷺ بالعبودية هو التشريف .

وقد استدعاهم وصفه ﷺ بالنذارة دون البشارة في المطلع ، استدعاهم ذلك النمط اللغوي إلى استنباط علل ، هي عند النظر مستضيئة بسياق السورة .

يقول الطيبي ـ رحمه الله ـ «في اختصاص النذير دون البشير سلوك طريق براعة الاستهلال ، والإيذان بأن هذه السورة مشتملة على ذكر المعاندين المتخذين لله تعالى ولدا»[٢] ويقول أبو السعود : «نذيرا أو إنذارا مبالغة أو ليكون تنزيله إنذارا ، وعدم التعرض للتبشير ، لانسياق الكلام على أحوال الكفرة»[٣] .

والذي يغريك بما رآه البقاعي في تحديد المقصود تقديمه المنذرين (للعالمين) وهو يفيد بذاته عموم رسالته ﷺ المكلفين ، بما يظهر شرفه على إخوانه المرسلين من قبل بإنذاره المكلفين جميعا ، وأنت تجد تشاكلا

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/١٨ .

(٢) مع بلاغة القرآن ص٩، ١٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٣٢/٧ بهامش الرازي .

بديعا بين ما طلب الكفار من إنزال القرآن جملة واحدة بدل أن يكون مفرقا ، وبين إرساله ﷺ إلى العالمين كافة ولله ابن عاشور فيما يقول : عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ (الفرقان:٥١) «والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (الفرقان:٣٢) ومما يزيد هذه الآية اتصالا بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ أن في بعث نذير إلى كل قرية ما هو أشد من تنزيل القرآن مجزأ فلو بعث الله في كل قرية نذيرا لقال الذين كفروا ، لولا أرسل رسول واحد إلى الناس جميعا»[1].

وهو متواصل مع قوله : ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ كما ترى وهذه دقيقة من دقائق السلف في النظر وأنت ترى أصداء لغة المطلع تتعالى في النداء على تراكيب السورة كما تتعالى تراكيب السورة في النداء عليها ، فيما نَثَره الذكر الحكيم فقوله : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تكرر في السورة في ثلاثة مواضع (١-١٠-٦١) «وخصت هذه المواضع لأن ما بعدها عظائم ، والأول : ذكر الفرقان ، والثانى : في ذكر النبي ﷺ ، والثالث : البروج والسيارات»[2] .

ولتلوح لنا بالمعالم المباشرة على علاقات تراكيب السورة بمطلعها ، وقد وقع هذا اللفظ في سياقات أخرى[3] ، وليس له هذه المواقع ، وقد جاءت مواقعها الثلاثة مسندة إلى الاسم الموصول كلغة المطلع ، وفي مواقعها ما يرجح ما رأيناه من أن يكون المراد بـ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ كل ما ذكره

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢/١٨ .

(٢) البرهان للكرماني ، ص١٥٢ .

(٣) الأعـــراف ص٥٤، المؤمنـــون ١٤، غـافـــر ٦٤، الزخـــرف ٨٥، الــرحمن ٧٨، الملك ١ .

السلف ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا . . . ﴾ (الفرقان:١٠) يتناسب مع التزايد ، و ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الفرقان:٦١) يتناسب مع التمجيد والتعظيم والإنعام وغير ذلك ، كأن اسم الموصول في الموضعين مبدل من الاسم الموصول في المطلع ولا ريب أن هذه الإشارات من العلائق بين تراكيب السورة والمطلع .

ومما يذكر أن الضمير في (ليكون) في المطلع قد يعود إلى (عبده) وقد يعود إلى (الفرقان) وهو وإن رجح رجوعه إلى أقرب مذكور إلى أن جواز مرجعه إلى الفرقان مؤذن بتعانق بين الفرقان والنبي ﷺ في الطعون عليهما والردود ، كما لمح ابن عاشور في العلاقة بين قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا ﴾ (الفرقان:٣٢) وقوله : ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا ﴾ (الفرقان:٥١) .

وأسلوب السورة قاض بأن الآيتين اللتين وليتا المطلع (٢) ، (٣) لهما أصداؤهما في السورة ، وهما في العلاقة بالمطلع على ما عرفت ، وبعد هاتين الآيتين جيء بحكاية قول الكافرين في الطعن على الفرقان والنبوة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ (الفرقان:٤) ومن خصائص هذه الحجة أنهم هاهنا قالوا : ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ (الفرقان:٤) وهذا تراجع عما احتجوا به أدى إلى هذا الأسلوب سياقة هذه الحجة في سياق (الفرقان) ، ويظهر أثر هذا التراجع أكثر فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان:٥) كأنهم اعترفوا بأنه لا طاقة له بافترائه ، وقوله : ﴿ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان:٥) يبدي ما يحاولون ستره من الاعتراف بأحقية الفرقان كأنهم بمثابة استشكال كيف ذلك ومحمد أمامنا لا يغادرنا؟ فحاولوا دفع هذا

الاستشكال بالباطل . يقول جار الله في الآية : «أي دائما ، أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس ، وحين يأوون إلى مساكنهم»[1] .

وللحظ سياقه طعونهم على النبوة في سياق الفرقان قال جار الله في قوله : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾ (الفرقان:٧ ، ٨) فيما لحظه من تكرار (أو) «ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف . . .

ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ، ويرتزق كما الدهاقين والمياسير»[2] ، ومما يغريك بأنه لحظ هذا الملحظ أنه لم يقل بهذا القول فيما اقترحوه في سورة الإسراء ، وموقع أو هنالك كموقعها هاهنا[3].

ولما كان الحق أبلج ، لم يرد رد لما اقترحوه ، لأن ما اقترحوه صار مثلا في الباطل ويعقد السياق هذه الآيات بالمطلع عقدا محكما بقوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ ﴾ (الفرقان:١٠) لأنه هو الذي نزل الفرقان ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ (الفرقان:١) والفرقان قاض بأنهم لا يحبون إلا باطل القول وزوره ، لذا فقد قال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ (الفرقان:١١) .

قال ابن عاشور عند الآية (١٠) : «ابتدئت السورة بتعظيم الله ، وثنائه على أن أنزل الفرقان على رسوله ، فلما أريد الإعراض عن باطلهم ، والإقبال على الرسول بتثبيته ، وتثبيت المؤمنين أعيد اللفظ الذي ابتدئت به

(١، ٢) الكشاف ٨٢/٣ .

(٣) الإسراء ٩٠، ٩٣ .

السورة على طريقة وصل الكلام بقوله : تبارك . . .»[1] ، ثم انساق الكلام إلى بيان أوصاف جهنم المتلائمة مع سياقة طعونهم في سياق الفرقان ، والمتقابلة مع أوصاف عباد الرحمن ، فيما يشير إليه السياق من العقد بينهما حيث قال عن الكافرين ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ** ﴾ (الفرقان:٦٠) وقال عن المؤمنين ﴿ **وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ** ﴾ (الفرقان:٦٣) ولا كهاتين الآيتين في الذكر الحكيم ، كما سنشير إلى شيء منه ـ إن شاء الله .

وذكر السياق آية جامعة في الرد على ما اقترحوه في قوله : ﴿ **وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا** . . . ﴾ (الفرقان:٦ ، ٧) ولا نظير لها في الذكر الحكيم ، كما أنه لا نظير لقوله : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** ﴾ (الفرقان:٢٠) ثم تابع البيان عن حال الكافرين بأسلوب ناظر إلى ما ذكر من أحوال السعير المعد لهم تأمل ﴿ **وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾** ﴾ (الفرقان:١٣ ، ١٤) أرأيت لم دعوا ثبورا ؟ ألا يشير هذا إلى حال حسرتهم وتندمهم؟ وقد ذكروا أن معنى ﴿ **إِذَا رَأَتْهُم** . . . ﴾ « تضيق عليهم ضيق الزج في الرمح ، (مقرنين) قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ، وقيل : يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد »[2] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/٣٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٦/٤٨٥ .



أو «قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال»[1] ، ولهذه الحسرة والتندم دعوا ثبورا .

وهو ينظر إلى قوله فيما اختصت به السورة ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى** . . . ﴾ (الفرقان:٢٧،٢٨) والعض على اليد كناية عن الندم ، ثم تأمل هذه المفارقة بين العض على اليد ، والعض على الأنامل ، قى قوله : ﴿ **وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ** ﴾ (آل عمران:١١٩) ، والثاني في الدنيا والأول في الآخرة .

وقوله : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ** ﴾ (الفرقان:٢٧) فيما ذكروا نزل فى عقبة ابن أبى معيط[2] في ارتداده بعدما شهد للنبي ﷺ طاعة لخليله أمية ابن خلف لعنهما الله ، وقد كان من حسرتهما وتندمهما في الدنيا ماعضا به على أيديهما ناهيك بما يلقيانه في الآخرة عند إلقائهما في مكان ضيق مقرنين داعيين بالثبور .

وترى مفردات السورة من باب متقارب «فالثبور ـ كما قال أبو جعفر ـ أصله في كلام العرب انصراف الرجل على الشيء يقال فيه : ما ثبرك عن هذا الأمر؟ أى ما صرفك عنه وهو في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا والإيمان بما جاءهم به نبي الله حتى استوجبوا العقوبة»[3] ، وهو ـ كما ترى ـ ناظر ـ إلى هذه الكناية ، والثبور بمعنى الهلاك ، وهو متقارب مع ما اختصت به السورة من قوله :

---

(١) جامع البيان ١٨/١٤٠ .

(٢) أسباب النزول ص٢١٥، ٢٥٢ بتصرف .

(٣) جامع البيان ١٨/١٤٠، ١٤١ .

﴿ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ (الفرقان:١٨) وتأمل : ﴿ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ (الفرقان: ٢١) ، ثم تأمل ما اختصت به السورة من وصف عباد الرحمن ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥) وغراما «أي هلاكا وخسرانا ملحا لازما»[١] تجده متقابلا مع وصف جهنم التي لها بعذابهم غرام أرأيت ﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ ﴾ (١٢ الفرقان:) .

وتفسير الغرام ناظر أيضا إلى قوله : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗا ﴾ (الفرقان:١٩) ، ودل الذكر الحكيم على هذا التقابل بقوله : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ (الفرقان:٦٦) بمقابلته بقوله : ﴿ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ (الفرقان:٧٦) .

قال القاضي البيضاوي : «حسنت مستقرا ومقاما مقابل ساءت مستقرا»[٢] وما ختمت به السورة من قوله : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾ (الفرقان:٧٧) وهو من بحر قوله: ﴿ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗا ﴾ (الفرقان:١٩) ، وقوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥) ، وقوله : ﴿ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴾ (الفرقان:١٣) ولا نظير لهذه الآيات في الذكر الحكيم ، وعقدها بغرض السورة واضح جدا ، فمقصودها إظهار شرف الداعي بالنذارة التي أبان عنها الفرقان .

تأمل تصدير السورة بالفرقان ألست تراه يفسر اختصاص السورة بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾ (الفرقان:٢٢) قال جار الله «هذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة أو نحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة»[٣] .

---

(١) الكشاف ٩٩/٣ .

(٢) أنوار التنزيل ١٥٢/٢ .

(٣) الكشاف ٨٨/٣ .



وقال القرطبي ناظرا إلى معنى الفرقان بتفريقه بين الحق والباطل « يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال : لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها عن ابن عباس وغيره »[1] كما كان هذا القرآن مفرقا بين الحق والباطل وذلك ظاهر التناسب بالنذارة للعالمين التي بها شرف النبي ﷺ .

وتجد صدى ذلك فيما اختصت به السورة من قوله ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ (الفرقان:٥٣) وهي آية كونية في التفريق بين الماءين ، كما أن القرآن آية في التفريق بين المؤمن والكافر والحق والباطل والحلال والحرام ، وقد عدها الزمخشري استعارة بقوله : « هي الكلمة التي يقولها المتعوذ ، وقد فسرناها وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه كما قال : لا يبغيان . . . فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ هاهنا ، وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة »[2] .

تأمل قوله : ﴿ **وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا** ﴾ (الفرقان:٣) وهو متقابل مع قوله : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ (الفرقان:٢) الذي وقع معطوفا على جملة الصلة ﴿ **لَهُۥ مُلْكُ** ﴾ الذي جاء صلة لاسم الموصول الواقع بدلا من الاسم الموصول في المطلع ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ** ﴾ (الفرقان:١) تجد صداه في قوله : ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ** ﴾ (الفرقان:١١) وقوله : ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا** ﴾ (الفرقان:٢١) ، وهو أظهر ما يكون في قوله : ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا** ﴾ (الفرقان:٤٠) ، وتأمل في سياق قوله : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ (الفرقان:٢) اختصاص السورة بقوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٨٩٦/٧ .
(٢) الكشاف ٩٦/٣ .

إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الفرقان:٤٥ ، ٤٦) .

قال ابن عاشور عند الآية : « وفيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم ، وإثبات الوحدانية لله ، وهو من هذه الجهة متصل بقوله : في أول السورة ﴿ **وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً** . . . ﴾ »[1] .

ولهذا الاتصال فسر الأئمة السبات بالموت والنشور بالحياة في قوله : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا** ﴾ (الفرقان:٤٧) وقد فسر أبو جعفر الآية هذه ناظرا إلى قوله : ﴿ **وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا** ﴾ (الفرقان:٣) بقوله : « وجعل النهار يقظة وحياة من قولهم : نشر الميت . . . ومنه قول الله تعالى : ﴿ **وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا** ﴾ . . . وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك ، لأنه عقيب قوله : والنوم سباتا في الليل ، فإذا كان ذلك كذلك فوصف النهار بأن فيه اليقظة والنشور من النوم أشبه ، إذ كان النوم أخا الموت والذي قال مجاهد غير بعيد من الصواب ، لأن الله أخبر أنه جعل النهار معاشا ومنه الانتشار للمعاش ، ولكن النشور مصدر من قول القائل نشر فهو بالنشر من الموت والنوم أشبه ، كما صحت الرواية عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « إذا أصبح وقام من نومه ـ الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »[2] .

وهذا التفسير هو الراجح عند أهل العلم فيما ذكر أبو حيان[3] ، وعلاقته بالمطلع كما عرفت ويؤيد هذا التأويل ما اختصت به السورة من قوله :

---

(١) التحرير والتنوير ٣٨/١٨ .

(٢) جامع البيان ١٤/١٩ .

(٣) البحر المحيط ٥٠٤/٦ .



﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان:٦٢) و ﴿ خِلْفَةً ﴾ «هي الحال التي يخلف عليها الليل والنهار . . . والمعنى لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال، وتغيرهما من ناقل ومغير، ويستدل بذلك على عظم مَعْدِنِهِ، ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار»[1] أي من السبات ومن النشور، وهو متواصل مع ما قبله بالمطلع كما عرفت .

وقد عقد بالمطلع بهذا المعلم الظاهر قبله ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الفرقان:٦١) ، وكانت هذه العلاقة ظاهرة ظهورا بينا عند البقاعي في قوله : «ولما ذكر حال النذير الذي ابتدأ به السورة في دعائه إلى الرحمن الذي لو لم يدع إلى عبادته إلا رحمانيته لكفى، فكيف بكل صفة جمال وجلال فأنكروه . . . ففصل ما أجمل بعد ذكر حال النذير، ثم من الملك مصدرا له بوصف الحق الذي جعله مطلع السورة، ردا لما تضمن إنكارهم من نفيه فقال : تبارك الذي جعل في السماء . . .»[2] وهو ناظر إلى المقصود الذي قرره من أنه إظهار شرف الداعي ﷺ .

والعلماء يجعلون مرجع الضمير في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ ﴾ (الفرقان:٥٠) إلى القرآن الكريم، ناظرين إلى جريانه من أول السورة، قال القرطبي: «يعني القرآن، وقد جرى في أول السورة قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى ...﴾ وقوله : ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ... ﴾ وقوله : ﴿ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾»[3].

---

(١) الكشاف ٣/٩٩ .

(٢) نظم الدرر ١٣/٤١٦ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/٤٩٣٢، ٤٩٣٣، ورأى جماعة أن يكون عائدا إلى الماء . الطبري ١٩/١٥، الكشاف ٣/٩٥، البحر المحيط ٦/٥٥ .

« وأصل هذا التأويل مروي عن عطاء ، ولقوله بعده وجاهدهم به جهادا كبيرا »[1] .

وجاءت صفات عباد الرحمن متقابلة مع صفات الكافرين ، وقد جاءت هذه الصفات « حتى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن ، ومن جاء به ومن اتبعوه »[2] .

وأنت ترى أن قوله : ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمًّا وَعُمۡيَانًا** ﴾ (الفرقان:٧٣) متقابل مع قوله : ﴿ **أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ (الفرقان:٤٤) .

وهكذا تتشارب السورة الكريمة من بحر واحد ، وقد رأينا كيف كان الأئمة يستصحبون نور المطلع عند كل آية ، ثم ختمت السورة بكلمة جامعة تزيل غرور المشركين وكبرياءهم وفي ذلك تناسب مع المقصود من السورة الذي جاء في المطلع ﴿ **لِيَكُونَ لِلۡعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ وهو انتهاء ناظر في المطلع مؤذن بتشارب تراكيب السورة من بحر واحد، فذلك قوله: ﴿ **قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّى لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامًۢا** ﴾ (٧٧) وقد أبنا عن علاقة قوله ﴿ **لِزَامًۢا** ﴾ بقوله : ﴿ **غَرَامًا** ﴾ بقوله : ﴿ **فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ** ﴾ (١٩) .

والحمد لله على ما وفق . . .

* * *

(١) التحرير والتنوير ١٩/٥١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٩/٦٦ .



الفصل الثالث

الافتتاح بالدعاء في سورة المطففين

ثلاث سور في الذكر الحكيم افتتحن بالدعاء (المطففين ـ الهمزة ـ اللهب) لكل سورة موقع وسياق لمقصود ، وجاءت التراكيب في كل سورة فيها على مقتضى هذا المقصود ، وكان التشابه في الافتتاح مؤذنا بالعلاقة بينهن ، وكان التغاير في المقصود مؤذنا بتغاير معجم لغة السورة ، ونسق تراكيبها ، كما سيظهر في سورة المطففين إن شاء الله .

موقع المطففين في الكتاب العزيز :

نثر الذكر الحكيم معالم دالة على أن السورة جاءت امتدادا لما قبلها وتقديما لما بعدها ، فقد وقعت عقب سورة الانفطار ، وفي الانفطار : ﴿ **إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ** ﴾ السورة الكريمة . ثم انتشر في سورة (المطففين) ذكر وصف كتاب الفجار ومآلهم ، وذكر وصف كتاب الأبرار وثوابهم ، كأنها جاءت تفصيلا لقوله في الانفطار : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ**

﴿ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾ ، فلقد أشعر سياق الانفطار أن الحفظة تسجل دقائق الأعمال وجلائلها لا يضيع منها شيء ، حتى ولو كان طفيفا ، وسورة الانفطار لها موقع لطيف من سورة التكوير ، كأنهما بترتيب الأهوال ، فلقد افتتحت التكوير بذكر أهوال الأجرام تحت السماء ، وافتتحت الانفطار بذكر أهوال السماء ، وينتهى آخرها بذكر يوم الدين ، ويجيء اليوم موصوفا في المطففين بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لوصف يوم الدينونة ، وهكذا ترى السورة نورا مما قبلها ونورا لما بعدها .

ترى في الانفطار : ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ وترى في التكوير : ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾ وترى في المطففين وصفا لما وعى ما قدمته النفس وما أخرته وما أحضرته ، يقول ابن الزبير ـ رحمه الله ـ في سورة الانفطار « هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير ، لاتحاد المقصد فاتصالها بها واضح »[1] ومن قبل سورة التكوير نرى سورة عبس ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ ﴾ ترى امتداد هذه الآى في قوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ .

وترى في عبس قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ وترى التكوير والانفطار قد عنيتا بشرح دلائل الصاخة ، ومن قبل سورة عبس ترى سورة النازعات ، وهي مفتتحة بالقسم بملائكة نزع الروح ، وفيها ذكر الطامة ، فأنت ترى أنساق السور جاءت على وفق سورة النبأ المفتتحة باستفهام تعجبي من إنكار الكفار البعث محل دينونة العباد : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ وترى المرسلات في افتتاحها بذكر ملائكة نشر الأرواح بقرينة

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص٢٢٣ .



ذكر يوم الفصل في السورة ، فما قبله من الآيات تقديم له ، أو أنها الرياح التي تنشر الأمطار كما حكاه أهل العلم[1] وفيها ذكر يوم الفصل ، ومن قبلها سورة الإنسان وهي مفتتحة بذكر حال الإنسان قبل الخلق الأول ، وفيه إلاحة بالاستدلال على البعث ، ومن قبل الإنسان سورة القيامة : ﴿ **أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ** ﴾ وكل ذلك إنذار : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ** ﴾ .

وترى خيوط يوم الدين سابقة على سورة المطففين : ﴿ **لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ** ﴾ (المرسلات:١٢ ، ١٣) . وبعدها يتكرر قوله : ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ تكرارًا لا نظير له في السورة الكريمة ، ثم تأمل في النبأ : ﴿ **إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا** ﴾ (النبأ:١٧) ويوم الفصل بعد الطامة والصاخة وهو يجيء ﴿ **إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾ و ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ** ﴾ .

وتختم الانفطار بما ذكرناه من أوصاف يوم الدين ، ثم يذكر يوم الدين في المطففين ، ويتوعد بالويل للمكذبين على وجه ينبه إلى ترقي سياق الذكر الحكيم ، فهو هناك في المرسلات يذكر يوم الفصل ، ثم يعقب بعده بالتوعد للمكذبين ، ثم يذكر النعم ثم يتوعد ، ثم يذكر اختلافهم في البعث في سورة النبأ ، أما في المطففين فقد جاء باستفهام تعجبي قبل ذكر يوم الدين فقال : ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ** ﴾ ولأن السياق قد عني بذكر يوم الفصل والبعث من المرسلات إلى هنا ، قدم توعدهم بالويل على ذكر يوم الدين ، الذي هو يوم الفصل ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ** ﴾ وهكذا ترى خيوط كل سورة ممتدة امتدادا طويلا ، ويقيني أنها تمتد إلى فاتحة الكتاب أم القرآن كما قال سيدي رسول الله ﷺ

---

(١) راجع : الكشاف ٢٠٢/٤، وابن كثير ٤٥٩/٤، والصاوى ٢٢٧/٤ .

فتوضع تحت قوله : ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يستكشف ذلك كل بصير بأساليب العرب .

هذه حاشية ما تفهمناه من كلام أهل العلم من أن السورة امتداد لما قبلها ، أما أنها تقديم لما بعدها ، فذلك أمر ظاهر قاهر أيضا لما نثره الذكر الحكيم من الأساليب المتقاربة في السور المتجاورة ، فقد عنيت المطففين بوصف كتابي الأبرار والفجار وتأمل تراكيب الانشقاق ينبهنا إلى خيوطها بالمطففين ، تأمل قوله في الانشقاق ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴾ ثم ينعي على من أوتي كتابه وراء ظهره بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴾ ألست تراه من نور قوله بعد وصف نعيم الأبرار في المطففين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ وما ضحكوا منهم ولا تغامزوا عليهم ، ولا تلذذوا بذلك من المؤمنين إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد كأصحاب الأخدود ، وكل محاسب على فعله في اليوم الموعود .

وتتبع خيط بياني واحد في أي سورة واستبصاره إلى طرفيه[1] أمر بعيد إلا أنه مطمح عظيم ، يفضي يقينا إلى أن القرآن سورة واحدة تشكل كل سورة فيه غرضا تتناسق هذه الأغراض جميعا ، فتؤدي غرض السورة الكبرى ، وكل سورة تحوي آيات تمثل غرضا وضع على نسق غرض السورة ، وهكذا الكلمة في الآية والحرف في الكلمة ، وكل فساد يرتكب في حق حرف في الكلمة يؤدي إلى فساد في فقه الغرض الأعظم للقرآن

---

(١) ربما ينتصر لذلك بما يتبعه بعض القراء من الاكتفاء ببسملة واحدة حين الافتتاح في القراءة إلى نهايتها وإن تعددت السور المقروءة .

الكريم . وقد نثر الذكر الحكيم ما يدل لذلك كما حاولنا استبيان شيء منه في موقع السورة الكريمة من سياق الذكر الحكيم .

وموقع لطيف للسورة يذكره السيوطي ـ رحمه الله ـ وكم في كتاب ربنا ـ عز وجل ـ من لطائف . فقد نبه إلى استشكال في موقع السورة إذ وقعت بين سور مفتتحة بالشرط (التكوير ـ الانفطار ـ الانشقاق) وهي تتشاكل من خمسة أوجه (١) الافتتاح (٢) التخلص بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ ﴾ في الانفطار والانشقاق (٣) شرح حال يوم القيامة (٤) التناسب في المقدار (٥) كونها مكية .

وقد أبصر ـ رحمه الله ـ أنه مع هذا التشاكل إلا أن السورة وقعت كذلك مناسبة مع ترتيب أحوال يوم القيامة ، فغالب ما وقع في التكوير ، وجميع ما وقع في الانفطار وقع في صدر يوم القيامة بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، فذكره في هذه السورة بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى فتنتشر الكتب ووجه آخر : وهو أنه ـ جل جلاله ـ لما قال في الانفطار : ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَـٰفِظِينَ ﴾ وذلك في الدنيا ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحافظان ، وهو كتاب مرقوم ، والذي في الانشقاق هو آخر أحوال كتاب كل مناسب تأخيرها[١].

ومما يجعلك تزداد بصرا بموقع سورة الانشقاق من سورة المطففين أن تستقرئ ما جاء في الذكر الحكيم من إتيان الكتاب باليمين أو بالشمال ، خذ مثلا ما جاء في الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَـٰبِيَهۡ ﴾ . . . ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَـٰبِيَهۡ ﴾ وضعه موضع ما جاء في الانشقاق نظيره ، ألا تراه ـ إن وضعته ـ

---

(١) تناسق الدرر بتصرف ص١٤٧ وما بعدها .

متعاندا مع ما جاء في المطففين : ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ والموضوع في الموقعين : (الحاقة والانشقاق) واحد في ذكر الكتاب ، إلا أن تغاير الموقع أدى إلى تغاير الأسلوب ، تلك كلمة في موقع المطففين تنبهنا إلى استكشاف دقائق تراكيبها ، وقد ظهر مما مضى اشتباه أسلوبها بما قبلها وما بعدها ويظهر فيما يأتي ـ إن شاء الله ـ تميزها بأسلوب وفقا لتميزها بمقصود .

مقصود السورة :

وللعلماء طرائق في استخراج المقصود الذي نسج تراكيب السورة ، فهم يستخرجونه من تسميتها ، ومن أغراض آيها ، من موقعها . وقد جاء مقصودها في كلام ابن الزبير على مناسبتها لما قبلها فقال : «ولما قال سبحانه ـ في سورة الانفطار ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾ وكان مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ . . .﴾ [تأمل فإن عينه على أول المطففين ، وما يدل عليه معنى التطفيف من ضآلة العمل ، وعلى ما تشعره كثرة المؤكدات في آية الانفطار] أتبع الآية المتقدم بجزاء من عمل عملا يتوهم فيه قرب المرتكب ، وهو من أكبر الجرائم ، وذلك التطفيف في المكيال والميزان والانحراف عن إقامة القسط في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ «ثم يتكلم عن بقية السورة ليكشف لنا سبيل البيان عن المقصود ، وليحدد لنا المطلع كما سيأتي الكلام عليه بعد .

ثم أردف بتهديدهم وتشديد وعيدهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴾ ثم التحمت الآي مناسبة لما افتتحت به السورة إلى

ختامها»[1] وهذه كلمة نفيسة جدا تنبهنا إلى تحديد مطلع السورة ، ومقصودها وسبيل البيان عنه ، ومهمتنا شرح كلمته ثم التحمت الآي . . . إلى آخر ما قال ـ رحمه الله .

وينظر البقاعي إلى اسم السورة ومناسبتها بما قبلها ليستخرج مقصودها فيقول : «ومقصودها شرح آخر الانفطار بأنه لابد من دينونة العباد يوم التناد ، بإسكان الأولياء أهل الرشاد دار النعيم ، والأشقياء أهل الضلال والعناد دار الجحيم ، ودل على ذلك بأنه مربيهم والمحسن إليهم بعموم النعمة ، ولا يتخيل عاقل أن أحدا يربي أحدا من غيرسؤاله عما حمله إياه وكلفه به ، واسمها التطفيف أدل ما فيها على ذلك»[2] .

ولنا أن نقول : ـ تلفيقا من كلامهما ـ إن مقصود السورة دينونة العباد على جزئيات الأعمال ـ فقولنا جزئيات الأعمال ناظر إلى جملة المطلع التي لا نظير لها في الذكر الحكيم . وقولنا دينونة ناظم كل ما جاء في السورة من ذكر صفات كتابي الأبرار والفجار وعاقبة كل . وذلك شائع في الكتاب العزيز ، إلا أن استبصار أساليبه منظرة بأساليب نظائره يكشف عن علاقته بالمطلع ، كما سيظهر إن شاء الله .

مطلع السورة الكريمة :

أولا : مقداره :

الذي يظهر لنا من كلام ابن الزبير أن مطلع السورة الكريمة هو الجملة النحوية الأولى : ﴿ **وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ** ﴾ والملحوظ أنه لم يذكر الجملتين التابعتين للمطلع ﴿ **إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ**

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص٢٢٤ وما بين المعكوفين زيادة مِنِّى .
(٢) مصاعد النظر ٣/١٦٨ .

أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ وهما صفتان (للمطففين) كاشفتان عن مضرة ، ما يبدو في أعين العالمين جزئيا صغيرا (التطفيف) فهل كان يمكن أن يقال : ويل للمطففين ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون لا ريب أنه كلام مغسول . أو كان يمكن أن يقال : ويل للذين إذا اكتالوا على الناس؟ وكان ذلك أوجز وأخصر مما جاء به الذكر الحكيم ، الحق أن الأمرين غير ممكنين ، وذلك لأن الجملتين التابعتين مهدتا لسبيل البيان عن السورة كما سيأتي . وأن خبر المبتدأ (المطففين) أملى سمتا خاصا بالسورة لما جاء متناسبا مع المبتدأ ﴿ **وَيۡلٌ** ﴾ فلو سقط هذا اللفظ لسقط تناسق السورة كما سيأتي أيضا فالمطلع هو الجملة الأولى والجملتان تابعتان له . فهما نور لخبر المبتدأ في المطلع ، وتقديم بين يدي سياق السورة .

مفرداته :

دأب الذكر الحكيم تفرد كل سورة بمفردات لم ترد في غيرها كذلك مطالعها والذي جاء في المطلع ولم يرد في غير السورة (المطففين) والذي جاء في الآيتين بعده ﴿ **ٱكۡتَالُواْ** ﴾ . . . ﴿ **يَسۡتَوۡفُونَ** ﴾ . . . ﴿ **كَالُوهُمۡ** ﴾ . . . ﴿ **وَّزَنُوهُمۡ** ﴾ والذكر الحكيم يشير بالألفاظ التي تنفرد بها المطالع والسور إلى تفرد كل مساق بغرض ، والنصح لكتاب الله قاض باستكناه معاني هذه المفردات ، إذ هي معالم المساق الخاص والغرض الخاص ، وما اشتركت فيه السورة بعد ذلك من المفردات جاء متوسما سيما هذه المفردات لمجيئه في نسقها ، فهل أضفى لفظ (المطففين) على لفظ الويل دلالة سياقية امتاز بها بموقعه ذلك في دلالته في سورة الهمزة أو سورة المرسلات؟ ذلك ما نستهدي الله في كشفه وإبصاره .

الويل قد جاء في الذكر الحكيم لأصناف منها (المكذبين)، و(المطففين) (الهمزة اللمزة) وللويل عند أهل العلم معان ، فقد قيل : إنه شدة النكر ، وقيل : العذاب الأليم ، وقيل : واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا ، وأرجو أن يكونوا ناظرين إلى ما تفردت به السورة من قوله : ﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ** ﴾ فإن فيه معنى التسفل أو هو كلمة تذكر عند وقوع البلاء . يقال : ويل لك وويل عليك أو أنه واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار كما قال ابن عباس ـ رحمه الله ـ أو أنها كلمة يطلب بها العذاب ويدعى بها ، وعليه فالجملة إنشائية ، وتوجيه ذلك مع كونه ـ سبحانه ـ خالق الأفعال كلها أنه طالب من نفسه إلحاق الويل لهم ، إظهارا لآثار غضبه أو هي كلمة دعاء بسوء الحال ، وهو في القرآن وعيد بالعقاب وتقريع ، أو معناها هلاك لهم عظيم ونكال ينتظرهم[1]. وأحسب أن تلك المعاني جميعا ممكنة وأجمعها المعنى الأخير[2]. ويكون تسمية الوادي بها ضمن هذا المعني ، فيكون تسمية الوادي به من شدة الهلاك الذي يقع فيه ، وليس في سياق موقع هذه الكلمة في الذكر الحكيم ما يمنع أيا من هذه المعاني . فهي كلمة مبهمة تعني الهلاك العظيم ، ويعني السياق في كل موقع بتفسير

---

(١) راجع في ذلك القرطبي ٧٢٨٦/١٠، ومفاتيح الغيب ٤٩٦/٨، وأبو السعود ٤٩٦/٨، والصاوي ٣٤٩/٤، والفتوحات الإلهية ٥٠١/٤، وجزء عم للإمام محمد عبده ص٣٢، والتحرير والتنوير ١٨٩/٣ .

(٢) قد نبهنا إلى ذلك استقراء مقالات الأئمة لمعاني هذا اللفظ في القرآن الكريم ، وتنبهنا إلى أن لهذا اللفظ دلالة خاصة في كل سياق . يقول سفيان وعطاء ابن يسار في آية البقرة ﴿ **فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ** ﴾ «الويل في هذه الآية واد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار» القرطبي ٥٠٨/١ تدبر قولهما في هذه الآية فإنه قول نفيس جدا .

هذا الهلاك ، على وجه من الأسلوب مناسب للجرم المنهي عنه فالسياق في كل موقع هو الذي يفسرها . هذا ما ذكرت من أن للألفاظ المشتركة دلالات سياقية ، لكل موقع أثره على الدلالة الأصلية .

يقول ابن عاشور في موقع هذا اللفظ في صدر السورة : « وافتتاح السورة باسم الويل مؤذن بأنها تشتمل على وعيد ، فلفظ (ويل) من براعة الاستهلال »[1] وهو كذلك في الهمزة أيضا إلا أن الويل هاهنا يتناسب مع التطفيف ، والويل هناك يتناسب مع الهمزة اللمزة ، وهو ما استقر لدى أهل العلم . يقول ابن المنير ـ رحمه الله ـ « وما أحسن مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة ، فإنه لما وسمه بهذه السمة بصنيعه أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة منه ، أتبع المبالغة لوعيده التي سماها (بالحطمة) لما يلقى فيها ، وسلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء ، فهذا الذي ضرى بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التي هي ضارية يحطم كل ما يلقى إليها »[2] . . . والأمر بعد في كشف التعادل بين التطفيف وبين ما جاء من وعيد في السورة الكريمة .

ومن قبل قال جار الله في سورة اللهب في معنى قوله : ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ** ﴾ « ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع ، وفي جيدها حبل من مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه »[3] .

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٩/٣ .

(٢) الانتصاف ٢٨٣/٤، ٢٨٤ .

(٣) الكشاف ٣٩٧/٤ .



وتصدير سورتي المطففين والهمزة بلفظ «الويل» ألاح إلى تشابه بين السورتين الفعلان «التطفيف والهمز واللمز» في أعين العالمين ضئيلان ، وقد وعد الله فاعليهما بالويل ، وويل الهماز اللماز غير ويل المطفف ، والجامع بينهما جامع للويلين ، ومستوجب هذين العذابين ، إلا أن القرآن يدلنا على أن الموصوف بأحدهما موصوف بالآخر تأمل : ﴿ **ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ** ﴾ أي لا يبالي من أي وجه جمعه بتطفيف أو غيره ، ثم تأمل ما في المطففين حين النعي على الفجار ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ** ﴾ أليس هو من نور قوله : ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾؟ إن أنساق المطالع إذا تقاربت فإن أنساق السورة تتقارب تبعا لتقارب المطلع ، والأمر كما رأيت .

لعل الأمر قد استقر ـ نظريا ـ أن الويل جاء في السورة متناسبا مع المطففين فهذا اللفظ هو قطب استكشاف التناسب في تراكيب السورة ومفرداتها وهو من (طف) و «الطفيف الشيء النزر ، ومنه الطفافة لما لا يعتد به ، وطفف الكيل قلل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه»[(١)].

«وقد روى عن ابن عمر أنه قال : المطفف الرجل يستأجر المكيال ، وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزره عليه ، وقال آخرون : التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث ، وفي الموطأ قال مالك : ويقال : لكل شيء وفاء وتطفيف ، وروي عن سالم بن أبى الجعد قال : الصلاة بمكيال ، فمن أوفى أوفى له ، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله ـ عز وجل ـ في ذلك ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من

---

(١) المفردات : (طفّ) ص٣٠٥ .

الطفيف وهو القليل ، وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف »[1].

والذي جاء بهذا المعنى في الموطأ يتناسب مع كثير بين آي السورة الكريمة لا سيما في وصفهم بالفجار ، وفي الإنكار عليهم بقوله : ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ** ﴾ وقوله : ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴿١٠﴾ ﴾ وما بعده ، وقد اشتملت السورة الكريمة على آيات جرت سنة القرآن الكريم باستخدامها في حق الكفار مثل قوله : ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا** ﴾ وقوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ وما بعدها . وما ختمت به السورة من قوله : ﴿ **هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** ﴾ مما حمل أهل العلم على اختلاف في الخطاب بمطلع السورة أهو عام يشمل المؤمنين وغيرهم أم هو خاص بالكفار قال الفخر : ـ يرحمه الله ـ « واحتج أصحاب الوعيد بعموم هذه الآية قالوا : وهذه الآية واردة في أهل الصلاة لا في الكفار ، والذي يدل عليه وجهان **الأول :** أنه لو كان كافرا ، لكان ذلك الكفر أولى باقتضاء هذا الويل من التطفيف ، فلم يكن للتطفيف أثر في هذا الويل ، لكن الآية دالة على أن الموجب لهذا الويل هو التطفيف ، **الثاني :** أنه تعالى قال للمخاطبين بهذه الآية ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ** . . . ﴾ فكأنه تعالى هدد المطففين بعذاب يوم القيامة ، والتهديد بهذا لا يحصل إلا مع المؤمن ، فثبت بهذين الوجهين أن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة »[2] . ومع أن القضية قضية كلامية إلا أنك رأيت أن المستند الأول هو آيات السورة مقارنة بمطلعها ، على أنه يمكن أن يقال تبعا لما

---

(١) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٧٢٨٧/١٠ .
(٢) مفاتيح الغيب ٤٩٧/٨ .



مضى من عموم معنى التطفيف ، كل شيء يمكن أن يقال إن ذلك مما يشعر به أسلوب المطلع حيث لم يكتف بقوله : (ويل للذين إذا اكتالوا ...) وتكون الجملتان التابعتان للمطلع تخصيصا بعد التعميم الذي أشعر به اللفظ الأول ، وتكون فائدة هذا التخصيص جارية على سنن المقصود الذي هو دينونة العباد على جزئيات الأعمال والمحاسبة على حقوق العباد وإن كانت طفيفة ، وإذا ما قرنَّا بيان السنة ببيان القرآن استبان لنا أنه ما من مطفف في الكيل والميزان إلا وهو مطفف في كل شيء ، إلا أن المشتهر بين الناس التطفيف في الكيل والميزان ، وقد استشعر أهل العلم خسة المطفف من دلالة هذا اللفظ .

فقد ذكروا أيضا «أن التطفيف وهو البخس في المكيال بالشيء القليل على سبيل الخفية ، وذلك لأن الكثير يظهر فيمنع منه ، وذلك القليل إن ظهر أيضا منع منه ، فعلمنا أن التطفيف هو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية»[1]. كأنهم لا يؤمنون باطلاع الله عليهم ، فهم يحرصون على عدم إبداء صنيعهم ولذلك دلالة على أمرين على اجتهادهم في إخفاء ذلك ، وعلى ضآلته وقلته جدا بحيث لا يظهر ، وتلك خسة في الطباع يستمرئها خسيس الطباع في كل شيء «لأنه يطلب الغنى بشيء طفيف»[2] ليرتفع بهذا الغنى ذكره ، ولدلالة هذا اللفظ نميمة أخرى تعود إلى فاعليه ، هي أنهم لا يظنون أن الله يأبه به أو يحاسب عليه ، وإنما هو عند الله عظيم . وقد جاءت آية في السورة الكريمة لم ترد في سواها تقابلا مع دلالة هذا اللفظ هي قوله : ﴿ **كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا**

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٩٦/٨ .

(٢) جزء عم ص٣٢ .

يَكْسِبُونَ ﴾ كما شرحته السنة المطهرة . فبهذا اللفظ نم القرآن عن فاعلي التطفيف . وجاءت تراكيب السورة متقابلة مع جرمهم ، فبالإضافة إلى ما مضى من دلالة اللفظ ، فإنه يوحي أيضا بأنه قليل لغاية يغيب ظهورها على الحفظة في زعمهم ، لذا جاء وصف للكتاب لا يوجد في سورة أخرى ﴿ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴾ وكانوا يطلبون الرفعة بالنزر اليسير فعوقبوا بالخسة والتسفل ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ وظنوا أن ذلك الفعل القليل لا يؤثر في القلوب فذكرت السورة أن تكرر هذا الفعل واكتسابه ينسج على قلبهم الران . وما أجلى بيان السنة المطهرة في هذا الموضع : « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن »[1] .

وتأمل في تركيب الآية فلو قال : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يفعلون أو يعملون أو يرتكبون أو ما شئت لما تناسب مع المطلع ، وذلك لأمر ظاهر هو أن التطفيف من الكسب ، والكسب حسي يفعل كالتطفيف ، فذلك حسي مادي وكسب معنوي هو كسب المعاصي ، فتراكم التطفيف يزيد من الغنى في نظر المطففين ـ وتراكم الران يحجب القلب عن الإيمان ، وكل يبدأ طفيفا .

وكما جاءت آيات وعيد المطففين مقابلة مع فعلهم ، كذلك جاءت آيات ثواب الأبرار متقابلة مع آيات وعيد المطففين ، فاشتملت السورة على آيات وتراكيب في الوعيد والوعد لم توجد في سورة أخرى ، وكل جاء متناسبا مع لفظ المطففين في مطلع السورة الكريمة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٥ .



أما ﴿ ٱكۡتَالُواْ ﴾ و ﴿ كَالُوهُمۡ ﴾ فدلالتهما ظاهرة ، والأولى صيغة مزيدة والثانية صيغة مجردة ، وذلك إلماح إلى جورهم بالزيادة في الكيل في الأولى ، والإنقاص في الثانية ، أو بيعه دون زيادة وتناسب ﴿ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ مع ﴿ ٱكۡتَالُواْ ﴾ ظاهر جدا فإنهم عندما يشترون يطلبون الاستيفاء ، ويجتهدون في طلبه حتى يأخذوه زائدا لا يكتفون به مستوفي غير منقوص ، وهناك دلالات لا حد لها لهذه الألفاظ في نسقها .

أحوال تراكيبه :

آية المطلع عند ابن عاشور « تؤذن بأن التطفيف كان متفشيا في المدينة في أول مدة الهجرة ، واختلاط المسلمين بالمنافقين يسبب ذلك »[1] .

وذلك تبعا لما استحسنه من أنها نزلت بين مكة والمدينة ، والتطفيف كان فاشيا بين البلدين[2] . ما الذي في أسلوب المطلع حتى كانت له هذه الدلالة عند ابن عاشور الذي يظهر أنها عدة أمور هي تقديم الويل ، على مذهب الإمام عبد القاهر في استخراج دلالات تقديم ما ليس حقه التأخير ، فليس شافيا أن يقال قدم لأن حقه التقديم ، فإلقاء الويل قبل الجرم في صدر السورة ، مما يؤذن بتفشي الجرم الوارد بعده ، ولموقع الويل وفرة في الدلالة ، فإن قصد به الدعاء فالجملة إنشائية معنى خبرية لفظا ، وصوغها بالأسلوب الخبري ، يكتنزُ فيضا من المعاني ، فالأسلوب الإنشائي الطلبي يكون لأمر غير محقق أما أسلوب الخبر فعلى غير هذا الوجه ، فقولك : (ارحم اللهم زيدا) دعاء منك لزيد بالرحمة ، وقولك : رحم الله زيدا دعاء منك له بالرحمة أيضا ، ولكن الرغبة هنا أكثر إلحاحا

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٠/٣٠ .

(٢) انظر السابق ١٨٧/٣٠ .

وأشد تعلقا بالنفس ، وكأنها لقوة إحاطتها بالقلب أوهمت أنها وقعت وأن الله قد ناله برحمته وأتت تخبر عن هذا . قال البلاغيون في هذا : إن النفس إذا عظمت رغبتها في شيء تخيلت غير الواقع واقعا ، وبنت الكلام على هذا التخيل وأجرته على نسيجه[1].

ودلالة هذه الصياغة في هذا الموقع من الكتاب العزيز تومئ إلى إحاطة غضب الله بهم ، ونسج الأسلوب على طريقة الأمر الواقع ، وإنما كان ذلك لما تشعر به اسمية الجملة من استمرارهم وثبوتهم على هذا الفعل حتى أصبح وصفا لهم ، ومجيء الجملة مع أن الهلاك لما يقع وأن أفئدتهم لم تؤمن به ـ على ضرب من أضرب جملة الخبر (الابتدائي) يأتي فيما لا يتوقع فيه إنكار منكر ولا تردد متردد ، وذلك ظاهر الدلالة على تفشي التطفيف ، وهو مؤيد ـ بعد هذه القرائن الأسلوبية ـ بقرائن خارجية منها ما جاء في سبب النزول « عن ابن عباس أنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك »[2] . ومما ذكر القرطبي من أنه « كان بالمدينة تجار يطففون وكانت بياعاتهم تشبه القمار والمنابذة والمخاطرة فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق وقرأها »[3] . بل ذكروا أن « أبا جهينة كان له صاعان يكيل بأحدهما ويكال له بالآخر »[4].

---

(١) دلالات التراكيب ص٢٢٦، ٢٦٧ .

(٢) أسباب النزول ص٣٣٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧٢٨٦/١٠ وما بعدها بتصرف .

(٤) أسباب النزول ص٣٣٣ .

ولو قال الذكر الحكيم : ويل للذين يطففون ، لما كانت هذه الدلالة ، وإنما كان ذلك دالا على تجدد ذلك منهم وحدوثه ، وهو يعني بالضرورة أنهم كانوا ينقطعون أحيانا عن الحدث ، وذلك غير وارد على جملة نسيج المطلع ، ولو جاء كذلك مع تقديم الويل ، لتنافى مع ما يعلمه الذكر الحكيم من سعة رحمة الله .

ألا ترى أنه صاغ الهمز واللمز على صيغة مبالغة وفقا لتقديمه الويل ، حتى يؤذن ذلك بتفشي الهمز واللمز ويل لكل همزة لمزة؟ أليس جائزا أن يقال : ويل للذين يهمزون أو غير ذلك . ولعلك تذكر قول العلماء في توجيه الدعاء من الله على المطففين والهمازين اللمازين ، بأنه جاء كذلك إظهارا لآثار غضبه[1] سبحانه .

تأمل إلى أي غاية كان التطفيف فاشيا ، حتى اقتضى ذلك مجيء الدعاء على صيغة الخبر ، وماذا ترى أنت في قول العلماء إنه دعاء صيغ صياغة الخبر ، وقول طائفة أخرى إنها جملة خبرية لفظية ومعنى على وجوه المعاني التي ذكروها للويل ، لا ريب جاءت الأساليب في السورة مؤيدة لكل ، فآيات الوعيد في السورة لما تقع أترى سائغا أن يقال : أهلك اللهم المطففين الذين إذا اكتالوا . . أترى له موقعا في الزجر عن التطفيف كالذي جاء الذكر الحكيم على سنته ، إن من بيده العذاب والهلاك هو الذي يقول لا يثنيه عن ذلك أحد ، فكأنه قد وقع وسار مسير الشيء يخبره ، وهذا التوجيه يجعل كلام العلماء متجاورا غير متناقض ، ولعل الذين قالوا

(١) يقول سيبويه في هذا الموضع «فإنه لا ينبغي أن تقول إنه دعاء ههنا لأن الكلام بذلك قبيح واللفظ به قبيح . ولكن العباد وإنما كلموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون» الكتاب ٣٣١/١ وهو مانع كلامي لا لغوي .

إن الجملة الخبرية لفظا ومعنى جدوا في الفرار من الاستشكال الذي يظهر من الآيات التي لم تقع شأن آيات اليوم الآخر في الذكر الحكيم ، ولو صيغ المطلع بأسلوب إنشائي لفظا ومعنى لما كان الأمر كذلك ، والمهم أن تكون على ذكر من الويل في المطلع جاء معقودا بالتطفيف الذي كان متفشيا كما قرر الأسلوب مع ضميمة سبب النزول ـ وأن السورة فسرت الويل بما يعقده بالتطفيف كما سيأتي : قوله : ﴿ **ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ** . . . ﴾ « صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الندم والدعاء بالويل »[١] أو هي مخصصة بعد تعميم وشارحة مضرة التطفيف[٢] والملحوظ أنه قدم الوصف الألصق بالمعنى اللغوي للتطفيف فليس سائغا أن يقال : الذين إذا كالوا الناس أو وزنوهم يخسرون ، وإذا اكتالوا عليهم يستوفون . مع ضميمة أن ذلك يصور حرصهم على الغنى بالنذر اليسير من المال ، وذلك له دلالته في إظهار حرصهم خسيستهم ، ولو قدم الوصف الثاني : ﴿ **وَإِذَا كَالُوهُمۡ** ... ﴾ لكان تصويرا لحرصهم على الإنقاص ، وله دلالته في إظهار حرصهم على الغنى بالنذر اليسير أيضا ، إلا أن تقديم الوصف الأول مناسب لبيان حرصهم على طفافة الكيل حين الاستيفاء .

وقد ذكر العلماء نكات لاستبدال (اكتالوا من) بـ (اكتالوا على) عقدت التركيب بغرض السورة الكريمة ، فقد ذكروا أنه وقع كذلك لبيان أنه اكتيال فيه تحامل على الناس واستيلاء ، وهو له أثره في كشف ما يعد في أعين فاعليه طفيفا ، ففيه بيان عن إلقاء المشقة على الغير وظلمه ، وهذا التوجيه أوقع مما ذكر الفراء من أن مِنْ وعَلَى يتعاقبان في هذا الموضع ،

---

(١) إرشاد العقل السليم ٤٩٦/٨ .

(٢) راجع : روح المعاني ٦٨/٣٠ .



فإذا جاء بعلى دل على أن ما يأخذونه حق من الناس يستوفونه[1] لأنه حينئذ يتعاند مع السياق الجاري في ذم المطففين . فليس المستوفي حقه مذموما عند الله أو عند الناس . . . إلا أن الذم ملحوظ في المطلع بإعادة النظر وكأن القرآن الكريم لو جاء بمن لما دل على التحامل والغبن والإضرار ، كما قال بعض أهل العلم ، لأنه في الجانب الثاني (الإيفاء) صرح بالإخسار ـ والأول (الاستيفاء) متقابل معه فهو يوحي بالتحامل ، لأن السياق قاض بذمهم في الجانبين[2] .

ولموقع ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ نكتة لطيفة ، فهو إما أن يتعلق باكتالوا ، وإما أن يتعلق بيستوفون وتعلقه بيستوفون جار في مقصود السورة. قال جار الله: ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ، ويقدم المفعول على الفعل ، لإفادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها[3] فهو له دلالة تساند ما تدل عليه (على) من التحامل والجور .

ومساق الكلام هو الذي اقتضى حذف المفعول به وذلك لأن الاهتمام متوجه نحو الفعل لا المفعول قال أبو السعود : معللا لحذف المفعول به لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء لا في خصوصية المأخوذ والمعطى[4] .

---

(١) راجع : البيضاوي ٥٤٥/٢، والقرطبي ٧٢٨٨/١٠، والشهاب على البيضاوي ٣٥٥/٨، وإرشاد العقل السليم ٤٦٩/٨، والتحرير والتنوير ١٩٠/٣٠، ١٩١، وجزء عم ص٣١ .

(٢) راجع : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم الأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضرى ص٩٤ وما بعدها بتصرف .

(٣) الكشاف ٢٣٠/٤ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٤٩٩/٨ .

وكان جار الله ناظرا إلى المطلع الذي يشعر بالذم في تعليله لذكر المكيل دون الموزون في الآية الثانية فقال : « فإن قلت : هلا قيل : أو اتزنوا كما قيل أو وزنوهم قلت : كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة ، لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء »(١) . لا ريب قد استشعر جار الله هذه النكة من المطلع . ومن أسلوب الآية . تدبر قوله : كأن المطففين . . فليس قوله مستندا إلى خبر جاء ، وإنما قوله حكاية دلالة أسلوب وظاهر ذلك في عدم ذكر المكيل ، واستبدال من بعلى كما مضى بيانه ، وكل ذلك جار في ذم المطففين ، وتوهمهم فوات الدينونة على التطفيف ، ونكتته عند ابن عاشور أنه « جاء كذلك لقلة دوران اتزنوا في الكلام ، وليس بذلك فالقرآن به كثير من الألفاظ النادر دورانها كمثل (ضيزى) وغيره ، أو أنه جاء كذلك لأنهم كانوا يأخذون السلع من الجالبين بالكيل فجرى على الغالب ثم قال : وذكر في بيعهم للمبتاعين الكيل والوزن لأنهم يبيعون الأشياء كيلا ، ويقبضون الأثمان وزنا »(٢) .

وجاء فعل يستوفون متناسبا مع هذا التركيب على اجتهادهم في الاستيفاء فالسين والتاء يدلان على الطلب .

والملحوظ أن القيد (إذا) جاء في الموضعين ، وذلك على تحقق الشرط والجزاء في الموضعين ، وذلك متناسب جدا مع آية المطلع المصدرة بالويل ، والدالة على الاستمرار والدوام ، فلو جاء بأن بدل (إذا) لتناقض ما قبلها ، لدلالتها على قلة تحقق الشرط بعدها ، ولو على الغالب عند المنازعة في هذا التفريق بين دلالة الأداتين عند البلاغيين .

---

(١) الكشاف ٤/٢٣١ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٣٠/١٩١ .

وفي الوصف الثاني ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ . . .﴾ مفارقات دقيقة تجري في سياق المقصود وتتناسق مع المطلع . فإن ﴿ كَالُوهُمْ ﴾ تعدى بنفسها ، وتتعدى باللام ، أو أنه حذف الجار ، وأوصل الفعل سنة أهل الحجاز ، أو أن في الأسلوب مضافا محذوفا أقيم المضاف إليه مقامه ، أو أن الضمير بين في كالوهم ووزنوهم توكيد للضميرين في كالوهم ووزنوا[1] . وهذه التخريجات عند القول بأنها لا تتعدى بنفسها ، والأمر في مجيئها على هذا الوجه ، وقد ألمع بعض أهل العلم إلى لطيفة هذا الموضع فقال : «على أنني أحس فوق ذلك لتعدية الفعل كالوا بنفسه دون اللام . . واختصاص هذه الصيغة المجردة من الزيادة في مقابلة ﴿ ٱكْتَالُواْ ﴾ في جانب الاستيفاء ، أحس له وقعا خاصا ذلك أن إنقاص الحروف وتقليلها ، كأنما يشي بالسرقة ، وإنقاص الكيل في الوفاء لهم ، وأن زيادة المبنى في صيغة الاكتيال ، وتهديدها بحرف الاستعلاء مما يشي بالزيادة في استيفاء الكيل منهم قهرا واغتصابا ، مما تتناغم فيه الألفاظ مع المعاني تناغما لا يحدث مثله في نظم غير نظم القرآن الكريم ، وإلا فهل مصادفة أن تستبدل على بمن والأولى أكثر حروفا ، وأدل على الجور والظلم والاستيلاء ، ثم يختار معها صيغة الزيادة في حروف الفعل لتأتي في المقابل صيغة مجردة من الزيادة ، ومن التعدية بالحرف الذي من شأنه أن يتعدى الفعل به حتى جعله أبو حيان حذفا»[2] .

وهو كما ترى جار في المقصود الذي هو دينونة العباد على جزئيات الأعمال وقد رد البيضاوي رأي من يجعل الضميرين المنفصلين في (كالوا)

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٤٩٦/٨، والقرطبي ٧٢٨٨/١٠، وابن كثير ٤٨٣/٤، والشهاب ٣٣٥/٨ .

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص٩٥ .



(وزنوا) مؤكدين للمتصلين فيهما أداه إلى ذلك استشكال خلل في تناسق الآية مع ما مضى قال : ـ رحمه الله ـ «لا ولا يحسن جعل المنفصل تأكيدا للمتصل ، فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله ، إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع لا في المباشرة وعدمها»[1] .

ألا ترى في هذا التركيب إلماعا إلى أنهم يكيلون الناس ويزنونهم ، فيخسرون ويكون ذلك مبرزا جورهم على سنن الآية الماضية ، فيكون إلماعا إلى إستخفافهم بالناس وربما يؤيده ما في السورة من قوله ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ** ﴾ وما جاء في مطلع الهمزة من قوله ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾ . لعل ذلك يكون فإن أسرار الذكر الحكيم لا تتناهى . فإن قوله ﴿ **وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ** ﴾ . . يصور فرحهم ببخسهم الناس في الميزان واستخفافهم بهم ، وتصورهم جلب الغنى بالتطفيف ، وتكون الآية حينئذ دالة على بخسهم الكيل ، وأثر ذلك على المبخوس فإنه عند استكشافه ذلك يحس بالغفلة ، ويستشعر استخفاف المطفف به ، والمطفف ينقلب إلى أهله متفكها بذلك . ذلك قبس من نور المطلع وما استتبع ، والأمر بعد في كشف نسق آي السورة به .

سبيل البيان عن المقصود :

أولا : نسق عناصره :

السبيل الذي سلكته السورة الكريمة عن هذا المقصود هو سبيل الترهيب والترغيب . نعم هو شائع في الذكر الحكيم ، لا سيما في الأمر والنهي ، إلا أنه يجيء في كل سورة معقودا بغرضها ، الذي يشير إليه مطلعها ، فالأمر في كشف ما لسورة المطففين في هذا السبيل ، وقد ابتدأت

---

(١) أنوار التنزيل ٢/٥٤٥ .



السورة الكريمة بذكر الفعل المنهي عنه، ثم استتبع ذلك البيان عن مضرته، وأنه لا يفعله إلا منكر للبعث ، وكأن قوله ﴿ **أَلَا يَظُنُّ** ﴾ ناشئا مما مضى ، وممهدا لما يأتي من أسلوب الترهيب ، فاستتبع ذلك وصف اليوم الذي فيه الدينونة بصفات هي من خصائص السورة وبمفارقات بديعة .

ولما كان المقصود دينونة العباد على جزئيات الأعمال ، اقتضى ذلك وصف الكتاب سجل هذه الأعمال ، واقتضى مجيئه في سياق التطفيف صفات لا توجد في مواضع ذكر كتاب الأعمال في الذكر الحكيم ، ثم استتبع ذلك وصف عقاب الأعمال ، بعد ما قرر حفظها وكل ذلك معقود بالتطفيف .

ثم استتبع ذلك : وصف كتاب الأبرار مع التقابل ، وللأبرار ذكر شائع في القرآن الكريم ، إلا أنك لن تراه على هذا الوجه ، إذ جاء متقابلا مع أحوال المطففين على نسق ذكر أحوالهم ، فبدأ بوصف كتابهم ، ثم ثنى بوصف ثوابهم ، ثم عادت السورة إلى كشف جوانب أخرى من سمات المطفف ردا للمقطع على المطلع وللعجز على الصدر وكان هدانا إلى ذلك تقارب هذا الافتتاح مع افتتاح سورة الهمزة .

ثانيا : علاقات عناصره بالمطلع :

آيات يوم الدين وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (المطففين:٤-٦) .

الآية الأولى وقعت من الآيات السابقة موقع شبه كمال الاتصال ، إذ هي تقع موقع الجواب عن سؤال ناشئ عن دلالة الجملة الأولى : ما اعتقاد هؤلاء المطففين في البعث؟ يقول ابن عاشور « هو استئناف ناشئ عن

الوعيد والتقريع لهم بالويل على التطفيف ، وما وصفوا به من الاعتـداء . . والهمزة للاستفهام التعجيبي ، بحيث يسأل السائل عـن علمهـم بالبعـث . . ويرجع الإنكار والتعجيب من ذلك إلى إنكار ما سيق هذا لأجله وهو فعل التطفيف ، فأما المسلمون الخلـص ، فـلا شـك أنهـم انتهـوا عـن التطفيـف بخلاف المنافقين »[1].

فتراكيب الآيـات الأولى تشـعر أنـه لا يفعـل التطفيـف مصـدق بالبعـث والقـرطبي ـ رحمـه الله ـ يجعـل دلالات تراكيـب هـذه الآيـات ويعقـدها بالمطلع فيقول : « وفي هذا الإنكـار والتعجيـب ، وكلمـة الظـن ، ووصـف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته بـرب العـالمين بيان بليغ لعظيم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف »[2].

ولا ريب أن الظن ها هنا بمعنى الشك ، وإن كان قد أتى في القرآن الكريم بمعنى اليقين ﴿ **ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ** ﴾ (البقرة:٤٦) لأنه ها هنا في سياق ذم التطفيف والمطففين ، ومجيئه هنا له إيحاء بتكذيبهم بيوم الدين ، فتكذيبهم غير مشكوك فيه ، لأنه ما طرأ التصديق بالبعث على أذهانهم ولو طرأ مرة،لكان لهم زاجرا عن التطفيف، وهم بداية استحقوا الذم بالتطفيف ، لذا أشار إليهم باسم الإشارة وهو رابط لفظي للآيات بالمطلع لأن المشار إليه (المطففين) وهو خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، فالظاهر أنه قال : ألا يظنون أنهم مبعوثون . . وإنما جاء كذلك تناسبا مع المطلع . قال ابن عاشور : « وفي العدول عن

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٣٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم ٧٢٩١/١٠، والشهاب الخفاجي على البيضاوي ٣٣٦/٨ .

الإضمار إلى اسم الإشارة . . لقصد تمييزهم وتشهير ذكرهم في مقام الذم ، ولأن الإشارة إليهم بعد وصفهم بـ(المطففين) تؤذن بأن الوصف ملحوظ في الإشارة فيؤذن ذلك بتعليل الإنكار»[١].

وقوله ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ جاء بلام التوقيت عقدًا للآية السابقة بغرض السورة من البيان عن يوم الدينونة ، وذلك مع ضميمة وصفه بأنه عظيم ، ولسورة المطففين خصيصة في هذا الموطن ، فالشائع في الذكر الحكيم وصف عذاب هذا اليوم بأنه عظيم ، أو أن مشهده عظيم[٢]. ويبدو أنه جاء كذلك تقابلا مع التطفيف فمن العظم المحاسبة على دقائق الأعمال وجلائلها ، فهم يفرحون بالنزر القليل ، لعدم إيمانهم باليوم العظيم كأن العظيم يقابل الطفيف .

ثم وقعت الآية بعد ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ . . .﴾ بدلا من الآية الماضية ، وهذه الآية من خصائص السورة الكريمة ، ولعل الصلة بين قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ . . .﴾ ، وبين ذكر المكيل والموزون والتطفيف في المطلع ظاهرة ، ويحسن ذكر آية كريمة في هذا الموطن ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٩) وذلك الوصف المذكور لليوم في هذا الموطن يكون في انتظار الحساب والميزان . والسنة المطهرة تفسر عظم هذا الموقف لغاية تجعل الناس يستشفعون للانصراف من هذا الموقف ولو إلى النار فكأن لو قيل : يوم يحاسب الناس من رب العالمين ، لما كان فيه إلماع إلى المطلع ففي ذكر وصف الربوبية تنبيه إلى إنعامه ـ سبحانه ـ على المطففين ، فكأنما لو قيل يوم يقوم الناس للعزيز الحكيم ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٣٠، وروح المعاني ٧٠/٣٠ .

(٢) الأنعام ١٥، والأعراف ٥٩، ويونس ١٥، ومريم ٣٧، والزمر ١٣، والأحقاف ٢١.

لمـا تناسـج مـع هـذا السياق ، الذي هو في دينونة المربوبين على جزئيات الأعمال . قال الألوسي ـ رحمه الله ـ «وتفاقم الإثم في التطفيف ما لا يخفى وليس ذلك نظرا إلى التطفيف من حيث هو تطفيف بل من حيث إن الميزان قانون العدل الذي قامت به السموات والأرض»[1] .

آيات كتاب أعمال الفجار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ .

الملحوظ أن هذا الوصف ﴿ ٱلْفُجَّارِ ﴾ فيه إلمـاع إلـى سـورة الانفطار ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ولما كان مساق السورة في دينونة العباد على جزئيات الأعمال ، تقدم ذكر الكتاب عقب ذكر اليوم ، وقبل ذكر العقاب .

والظاهر أن القرآن الكريم سلك المطففين في الفجار ، حيث أوقع التطفيف بين هذين الموضعين في سورتي الانفطار والمطففين ، وشيء آخر هو أنه بعد هذا الوصف ذكر أن كتابهم في ﴿ سِجِّينٍ ﴾ وهو جزاء متقابل مع لفظ التطفيف بدلالته التي ذكرناها بكلام العلماء ، فقد ذكروا أن ﴿ سِجِّينٍ ﴾ صخرة تحت الأرض السابعة ، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها وقيل : هي الأرض السابعة السفلى ، وفيها إبليس وذريتـه وعـن أبي هريرة عن النبي ﷺ (سجين أسفل الأرض السابعة)[2] ، لعلك تلحظ مناسبة أيضا بين ما ذكروه في معنى الويل ، وما ذكروه في معنى سجين فالتطفيف غاية التسفل ، وما يدون فيه أيضا في غاية السفل .

---

(١) روح المعاني ٧١/٣٠ .

(٢) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٧٢٩٣/١٠، ٧٢٩٤ .

قال الإمام محمد عبده «ويفهم من استعمال اللفظ في اللغة ، ومن مقابلته بكتاب الأبرار الذي في عليين ، أن فيه معنى التسفل ، كما أن في مقابله معنى التعلى»[1] أرأيت ، وكن على ذكر من أن ما جاء من وصف كتاب الأبرار ومآلهم جاء اقتضاء لذكر وصف الفجار ومآلهم ، والسياق هو الذي انتصر به الإمام محمد عبده في مدلول اللفظ ، وعلى أية حال فإن الخسة والتسفل لا تفارق أيا من دلالات هذا اللفظ كما ذكرها أهل العلم ، ولابن عاشور كلام آخر . فقد ذكر أن أولى الأقوال بالصواب «أنه علم لواد في جهنم صيغ بزنة (فعيل) من مادة السجن للمبالغة . . سمى ذلك المكان سجينا ، لأنه أشد الحبس لمن فيه فلا يفارقه»[2]. ومعنى الذلة والمهانة لا يفارق اللفظ على هذا الوجه أيضا .

وهذه الآيات موصولة بقوله ﴿ **أَلَا يَظُنُّ** ﴾ فإن كلا «إبطال وردع لما تضمنته جملة ﴿ **أَلَا يَظُنُّ** ...﴾ من التعجيب من فعلهم التطفيف ، والمعنى : كلا بل هم مبعوثون لذلك اليوم العظيم . . فهي جواب عما تقدم»[3]. والتناسب ظاهر بين أداة الردع ، وبين الفعل المنهي عنه ، والملحوظ في تركيب الآيات أنه عاجل بالبيان عن موضع الكتاب ، ﴿ **لَفِى سِجِّينٍ** ﴾ ثم جاء قوله ﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ** ﴾ ليضيف تهويلا بالغا إلى التهويل الذي دل عليه التركيب الأول ، ثم لما طال الحديث في تهويل موضع الكتاب أعاد ذكر الكتاب ، ليبني عليه وصفا له ﴿ **كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ** ﴾ ولم يصلح أن يقال هنا : هو مرقوم ، لأنه حينئذ يظن به تفسيرا لسجين ، وليس بذلك ، وإنما هو

---

(١) جزء عم ص٣٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٩٥/٣٠ .

(٣) السابق ١٩٤/٣٠ ويرى الشيخ زاده أنها ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب .

وصف لكتاب ، وهو وصف معنوي ، وأصل التركيب أن كتاب الفجار المرقوم في سجين ، كما ذكر الكرماني والرازي رحمهما الله[1].

ولو جاء كذلك لفات التهويل البالغ بموضع الكتاب ، الموطئ بعد لموضع أصحابه من الفجار ، ولما تناسب مع وصفهم بالفجور.

وقوله ﴿ مَّرْقُومٌ ﴾ من خصائص السورة الكريمة ، وهو مناسب جدا للمطففين ، ولقوله في الانفطار ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴾ فمرقوم من الرقم وهو الخط الغليظ أو هو تعجيم الكتاب كما قال الراغب[2] . أو «المكتوب كتابة بينة تشبه الرقم في الثوب المنسوج»[3]. وهي دلالة متناسبة مع اعتقاد المطففين فوات ذلك على الكاتبين أو ذهابه بعد الكتاب لقلته ، ومتناسب أيضا مع المؤكدات في جملة الانفطار ، وما تعكسه من إنكار المنكرين كتابة أيسر الأمور وأجلها ، وذلك هو ما عقد وصف الكتاب بسياق السورة ومطلعها وسياقها في القرآن الكريم . فالتناسق وقع بين مفردات هذا العنصر والمطلع وكذلك بين التراكيب ، وتلحظ أمرا بديعا ، فأنت تراه قدم السجين تناسبا مع الويل وأخر الوصف (مرقوم) تناسبا مع التطفيف ، ولو قدم الوصف لما ظهرت هذه اللطيفة ولئن بدا تكلف في استخراج هذه العلاقات فمرجعه لعجز البيان لا لانعدام العلاقات .

---

(١) راجع : البرهان للكرماني ص٢١٥، ومسائل الرازي ص٥٢٣، والتحرير والتنوير ١٩٥/٣٠، والشيخ زادة ٦٣٢/٣ .

(٢) المفردات مادة (ر ق م) : ص٢١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ١٩٦/٣٠ .



آيات وعيد المكذبين وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ الملحوظ أن الآيات ترق لقوله ﴿ **أَلَا يَظُنُّ**. . .﴾ وذلك لمعالم في التركيب وضعها الذكر الحكيم ، منها أن الآيات جاءت مقطوعة عما قبلها ، وذلك لقوة الصلة ، فهي فيما يبدو ـ مبينة لجملة ﴿ **أَلَا يَظُنُّ** ﴾ ، فكانت وقعت بدل اشتمال ، ومما يغري باستظهار هذه العلاقة ما يدل عليه تنوين إذ من حذف جملة ، وذلك إلاحة إلى تقديرها مما مضى ، وهي أداه ظاهرة لاستكشاف معاقد الكلام ، ومن ذلك أيضا التعبير بالظن ، ثم التعبير بالتكذيب ، وعند الألوسي أن « قوله ﴿ **وَيْلٌ**﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ وما بينهما »[1] . وفي إعادة ذكر الويل عقد للآيات بالمطلع أيضا ، وإغراء بأن هؤلاء المكذبين هـم المطففون وما أجمل ما قال الإمام محمد عبده في الآية ﴿ **وَيْلٌ** ...﴾ « إعادة للوعيد الأول في قوله : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ بعبارة أدل على عظم الجرم وأعم ، تشمل تلك الجريمة وغيرها »[2] ومن نمط هذا الترقي أنه وصفهم بالتطفيف ثم بالفجار ثم بالمكذبين كما قال الأستاذ سيد قطب[3] ، مع ملحظ مهم هو أن كل ذلك قد يضرب بقوله : ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ وسنة القرآن أنه يأتي بهذا التركيب مع الكفار ، وليس بذلك وإنما هو إغراء بما ذكره أهل العلم ، إذ يسوي بين الكفر بالقول (الإشراك) والكفر بالعمل (ارتكاب كل مجرم) .

---

(١) روح المعانى ٧٢/٣٠ .

(٢) جزء عم ص٣٤ .

(٣) راجع : في ظلال القرآن ٣٨٥/٦ .

ويجمل ذكر كلام ابن عاشور في هذه الآية ، فقد ذكر في موقعها أنه « يجوز أن تكون مبينة لمضمون جملة ﴿ **أَلَا يَظُنُّ** ﴾ فإن قوله ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ يفيد تقوية جملة محذوفة يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين ويل فيه للمكذبين ، ويجوز أن تكون ابتدائية ، وبين المكذبين بيوم الدين والمطففين عموم وخصوص وجهي ، فمن المكذبين من هم مطففون ومن المطففين مسلمون وأهل كتاب لا يكذبون بيوم الدين ، فتكون هذه الجملة إدماجا لتهديد المشركين المكذبين بيوم الدين وإن لم يكونوا من المطففين »[1] .

والظاهر من السياق أن الآية ليست إدماجا لتهديد المشركين ، وإنما الآية تجرى في تهديد المطففين ، ويترقى أسلوب الترهيب ، والذي حمل العلماء على الاختلاف هو الآية المذكورة ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ ومراد السياق كما يظهر لى ـ أن في ذكر الآية لطيفة تعين على ما يبدو من ترقي أسلوب الترهيب ، كأن موقع الآية يقول للمطففين : أنتم بجرمكم الذي يدل على عدم تصديقكم بيوم الدين ، تضعون أنفسكم والكافر في قرن واحد ، أما الآية ففي حق الكفار على سنة القرآن ، ووضع القرآن الكريم معلما لهذا التفريق بالواو التي هي للحال أو الشأن ﴿ **وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ** ﴾ ثم وصف هذا الاعتداء الأثيم بقوله : ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ** . . .﴾ كأن جرم المطففين يعادل جرم الكافرين ، أي والشأن والحال أنه لا يكذب بيوم الدين إلا كل معتد أثيم ، بأسلوب القصر الذي قصر التكذيب بيوم الدين على أهل الشرك والمطففون يأبون إلا هدم هذا الحصار والدخول معهم ، لأن جرمهم ودأبهم عليه يدل على عدم تصديقهم فكأن الآية جاءت

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/١٩٦ .

استطراداً وبيانا للاعتداء الأثيم ، ولهذا الاستطراد أثره في الترقي بترهيب المطففين ، وهذه الآيات وإن جاءت في مواطن أخرى من هذا الكتاب العزيز إلا أن لها دلالة سياقية هاهنا تتناسق والمطففين إذ هي تتشارب من تصوير حجم هذه الجريمة والذي يدب دبيبا خفيا من المطلع إلى هنا حتى بلغ الذروة وأوشك أن يكون كفرا ، والقرآن الكريم يعقد بين هذه الآيات وبين المطلع وبين السورة الماضية ، فقد وقع قوله ﴿ **ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ** ﴾ بدلا من قوله ﴿ **لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ فعقد الويل هاهنا بقوله ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ . وكل ذلك ناظر إلى قولــه : ﴿ **وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ** . . . . ﴾ (الانفطار:١٧-١٩) ولو قلنا هاهنا (الذين يكذبون بيوم الفصل ـ كما في المرسلات ، لما تناسج مع سياق الســورة ولا مع موقعها من الكتاب العزيز ، وكأني بالدِّين يذكرنا بالدَّيْن ، والتطفيف دين للعباد في رقاب المطففين ، وهذا التشابه بين سمات المطففين وسمات الكافرين له صداه في آخر السورة كما سيأتي إن شاء الله .

آيات عقاب الفجار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ **كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴾ (المطففين:١٤-١٧) .

موقع هذه الآية عقب قوله : ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ** . . . ﴾ أغرى بعض أهل العلم بالقول بأن (**كَلَّا**) ردع لما قالوه من أن القرآن أساطير الأولين[1] . وليس كذلك لما استظهرناه من أنها جاءت استطرادا ، وانتصرنا بسياق الآيات ،

---

(١) راجع : الشهاب على البيضاوي ٣٣٧/٨، والشيخ زاده ٦٣٥/٣، والتحرير والتنوير ١٩٨/٣٠ .



والذي أبصره أن (كَلَّا) هذه تتناغى مع (كَلَّا) الماضية ، وكأنها معلم لفظي لعقد هذه الآيات بقوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ . . . ﴾ وينتصر لذلك بقوله بعد ﴿ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم . . . ﴾ أى أن المطففين لا يكذبون بيوم الدين ، وإنما هو الران الذي قد حال بينهم وبين اليقين المثمر العمل ليوم الدين ، ويذكر أهل العلم أن معنى ران « ثبت على قلوبهم الخطايا حتى غمرتها »[1] إلا أن ابن كثير قد عقد بين هذا المعنى وبين الآية السابقة على هذه الآية فقال : « ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا : إن هذا القرآن أساطير الأولين . بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا »[2] . ولكن السياق يأبى إلا أن يكون ذلك في حق أهل القبلة المطففين ، وكأني بالران الذي لم يرد في غير هذه السورة ينادي على التطفيف الذي لم يرد في غير السورة أيضا ، فما الران إلا وصف حسي للطبقة التي تغلف الفؤاد وهي من صغائر المعاصي ، ولعلك تذكر قول أهل العلم بأن الصغيرة تصير كبيرة بالمداومة عليها ، تأمل هذا المعنى لران ومعنى التطفيف بدلالته التي بيناها بكلام العلماء ، فما زالت السورة جارية في تعظيم إثم التطفيف الذي يحول بين القلب وبين اليقين بيوم الدين ، وكأني بقوله ﴿ مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فاعل لـ ﴿ رَانَ ﴾ ينادي على التطفيف بقوله : ﴿ يَكۡسِبُونَ ﴾ وكأنه لو قال (يعملون) أو (يفعلون) أو (يجرمون) أو ما شئت ، لما لاح إلى ما يتخيله المطفف من الكسب المادي بإثمه ، وفيه تصوير وتشخيص لإثم التطفيف ، ولا تجد كهذه الآية

---

(١) فتح الباري : كتاب تفسير القرآن ٨/٥٦٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٥ .



في الذكر الحكيم ، وهي كما ترى تتشارب من دلالة المطلع وحسبنا بيان السنة المطهرة لمعنى الران[1] فهي تصور أن المستصغر من الذنوب باستمرائه يعظم أثره كالتطفيف والهمز واللمز في الاستصغار أما الكفار فهم يرتكبون كبائر المعاصي ، ولا بعد الكفر ذنب .

والآية مع ذلك ـ بعد بيانها عن أثر التطفيف ـ تمهد للاحقتها ، فقد دلت بتراكيبها أن ما يكسبونه ـ أي من التطفيف ـ نسج طبقة الران على أفئدتهم فحجبهم ذلك عن اليقين ، فعوقبوا بحجبهم عن التنعم برؤية الله ـ جل وعز ـ وكأن هذه الآية بداية لتفسير الويل ، تأمل قول ابن عاشور «جملة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ وما عطف عليها ابتدائية ، وقد اشتملت الجملة ومعطوفها على أنواع ثلاثة من الويل ، وهي الإهانة والعذاب والتقريع مع التأييس من الخلاص من العذاب»[2] وهكذا ترى التسلسل واضحا ذنوب صغيرة أدى الاستمرار فيها إلى ران نسج على قلوبهم ، فحجبها عن اليقين أدى ذلك إلى حجبهم عن رؤية الله ، أدى حجبهم عن رؤيته سبحانه[3] إلى استمرارهم في الهوان ، ولا كهذه الآية في الذكر الحكيم ، وجرت في نسق يتأبى على التقديم والتأخير ، وجاء الخبر متعدد التوكيد ، شأن مخاطبة

---

(١) راجع : بيان السنة في الكلام على مفردات المطلع وراجع : ابن كثير ٤/٤٨٥ أما ما قاله ربنا في حق غير أهل القبلة ، فمثلا ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا . . . ﴾ (الإسراء:٤٥، ٤٦) .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٢٠٠ .

(٣) ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلا لإهانتهم بإهانة من يمنع من الدخول على الملوك أو قدر مضافا مثل رحمة ربهم ، راجع : الشيخ زاده . ٣/٦٣٥ فمعاني الإهانة لا تفارق هذا الوجه أيضا .

المنكرين ، فأشاع ذلك روح القهر والغضب ، وهي بادية من تصدير السورة بالويل .

وجاءت إذ منونة في قوله : ﴿ **يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ** ﴾ لتنادي بالجملة المحذوفة ـ كما يشير إليه تنوين إذ ـ على قوله : ﴿ **يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ وهو نمط من الإيجاز بالحذف ، يشير إلى اكتناز المعاني ، وينبه إلى استكشاف معاقد الكلام ، لاستبصار السلك الخفي الذي انتظم نسق السورة ، ولذا لا تجد كهذه العقوبة في الذكر الحكيم لأنك لا تجد سياقا مَهَّدَ لها كهذا السياق ، ثم إن ما يفيده الحجب عن رؤية الله من البقاء أبد الآبدين في الذلة والمهانة ، يتناسب مع ما يفيده السجين (موضع كتابهم) حين القول بأنه صيغة مبالغة بمعنى السجن ، وهو تناسق بيِّنٌ في السورة ، ترى أطياف النور تشع من كل آية ليستكشف ذلك من استبصر ما قبلها وما بعدها .

ثم جاء بعد قوله : ﴿ **ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ** ﴾ وكأنه إشارة إلى تشارب دلالات التراكيب من آخر الانفطار ﴿ **إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥** ﴾ (١٣-١٥) وفيها أثر مجاورتها للآية الماضية من كثرة المؤكدات وهو يشير إلى ترقي سياق الترهيب وقد عطفه بثم الدلة على التراخي ، إيذانا بطول اليوم الموصوف في السورة ﴿ **يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ وقد اختار اسم الجحيم ، ويبدو أنه أشد الأماكن عذابا في جهنم كما يشعر بذلك السياق ، وهو استنباط متناسب مع ما وصف به موضع كتاب الفجار في السورة ، ومتناسب مع وصفهم بالفجار ، وربما ينتصر لذلك بأنه دعوة الملائكة للمؤمنين ﴿ **ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ**

رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ (غافر:٧) ونمط كثرة المؤكدات في هذه الآية والتي قبلها يتناسب مع قوله : ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ** ﴾ وما تشارب منه بعد ﴿ **ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ** ﴾ وكأنهما لو عريتا من مؤكد واحد مما جاءتا على وجهه لما تناسبتا مع ما مضى من بيان أنه يخاطب المنكرين ، ولو بتنزيلهم منزلتهم .

ومعلم آخر يعقد الآية بما مضى وبالمطففين ﴿ **ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴾ وهو إمعان في الذلة والمهانة للمطففين ، فإنه ينادي على قوله : ﴿ **وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ** ﴾ نداء ظاهرا ، والآخر ينادي على قوله : ﴿ **وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ** ﴾ نداء خفيا كما سبق البيان عنه ، والتركيب يتناسب مع الحجب عن رؤية الله ، ومع السجين ، فإنهما يصوران المهانة والمذلة ، تأمل اسم الإشارة ، وكيف أصبح المكذب به يشار إليه فكيف جاء معرفا بالاسم الموصول ، لبناء جملة تفضح أمرهم ، وتبرز دأبهم على التكذيب ﴿ **كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴾ تكذيبا بعد تكذيب وكيف قدم المجرور ﴿ **بِهِۦ** ﴾ لبيان انصباب تكذيبهم على هذا اليوم وفي ذلك من التقريع واللوم ما ترى .

آيات كتاب الأبرار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ** ﴾ (المطففين:١٨-٢١) .

إن ﴿ **كَلَّآ** ﴾ هذه تنادى على كلا في قوله : ﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ** ﴾ وقد جاء وصف كتاب الأبرار متقابلا مع وصف كتاب الفجار نسقا وأسلوبا ومتناسبا مع المطلع أيضا ، قال الشيخ زاده : ـ رحمه الله ـ « ﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ** ﴾ تكرير للأول ، ليعقب بوعد الأبرار ، كما عقب الأول

بوعيد الفجار ؛ إشعارا بأن التطفيف فجور ، والإيفاء بر أو ردع عن التكذيب»[1] ، وهما سياق واحد كما عرفت فلئن كان زجرا عن التكذيب فالتكذيب موصول بالفجار وبالمطففين كما عرفت، وقد كشف ابن عاشور عن العلاقة الأسلوبية بينهما فقال عن الآيات : «فإن هذه الجملة بحذافيرها تشبه جملة إن كتاب الفجار لفي سجين أسلوبا ومقابلة ، فالوجه أن يكون مضمونها قسيما لمضمون شبيهها ، فتحصل مقابلة وعيد الكفار بوعد الأبرار ، فالتعرض لنعيم الأبرار إدماج اقتضته المناسبة ، وإن كان المقام من أول السورة مقام إنذار ، ويكون المتكلم بالوعيد والوعد واحدا ، وجه كلامه للفجار الذين لا يظنون أنهم مبعوثون ، وأعقبه بتوجيه كلامه للأبرار الذين هم بضد ذلك ، فتكون هذه الآيات معترضة متصلة بحرف الردع على أوضح الوجهين المتقدمين فيه»[2] ، وهو كلام نفيس جدا كشف لنا سياق السورة ووجه المناسبة ، وأن الآيات جاءت عنصرا ثانويا في البيان عن غرض السورة ، لذا جاء هذا العنصر مغلولا بنسق تراكيب العنصر الأصلي (وصف كتاب الفجار وعقابهم) وهذه من مفارقات ما هو أصلي وما هو ثانوي في البيان عن غرض السورة . ودائما يعظم البيان عن الشيء بذكر البيان عن نقيضه . فالسورة في دينونة العباد على جزئيات الأعمال . وهذه الآيات في بيان ثواب العباد على جزئيات الأعمال وأنت تعلم أن قوله : ﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ** ﴾ تعظيم على وجه الترهيب ، وأما قوله : ﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ** ﴾ فهو تعظيم أيضا لكن على وجه الترغيب ، وأنت ترى التناسب ظاهرا بين المفردات وبين التراكيب فالمؤكدات في الأسلوبين متعادلة ، والمفردات في الأسلوبين متقابلة ، ولذلك ترى نشازًا بينا إن

---

(١) الشيخ زاده عن البيضاوي ٦٣٥/٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٢/٣٠ .

وضعت ما ذكر في سورة عبس موضع هذه الآيات ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أجمل كل ذلك هذا الوصف ﴿ عِلِّيُّونَ ﴾ وما أعقبه من التعظيم ، واقتضاء لنسق وصف كتاب الفجار ، وصف كتاب الأبرار أيضا بنفس الوصف ﴿ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ لكن له دلالة تتناسب وسياق الترغيب الذي جاء هذا العقد في نسقه أي كتاب مرقوم لا يترك ولا يمحى فيه يسير العمل كالتنزه عن يسير الصغائر (التطفيف) وفيه إغراء بالعمل كما ترى ، وفي الأول ردع وزجر عن العمل ، وهو كنسق الأول تركيبا وترتيبا ، والتأويل كلا إن كتاب الأبرار لمرقوم في عليين كما بيناه فيما مضى ، تأمل هذا النمط الأعظم فإنك تجده متقابلا مع دلالة التطفيف على خسة فاعليه وتسفلهم كما مضى بيانه .

وقد امتازت آيات كتاب الأبرار بهذا القيد ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ قال الإمام محمد عبده : « وجاء بهذه الصفة ، ليدل بها على أنه أمر محقق بالثبوت ، حتى أن المقرب ليشهده شهود العيان إذا وصل من القرب »[1] وهو له دلالته في الارتفاع بجلال كتاب الأبرار ، وتأمل كيف قال ﴿ يَشْهَدُهُ ﴾ ولم يقل (يعرفه) أو (يحضره) مثلا . لأن في الشهادة دلالة التحقق من الشيء ، وفيها ما ليس في الحضور من إبصار الشيء ومعاينته ، وفي وصف ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ تناسب مع ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ وبيان عن موضع عليين فكأن هذا القيد حدد عموم ما دل عليه عليون من عدم تحديد الموضع ، وكلما تكاثرت دلالات رفعة كتاب الأبرار ، دل ذلك على انخفاض كتاب الفجار لذا فقد جاء أسلوب آيات وصف كتابي الفجار والأبرار ومآلهم مبنيا على المقابلة ، تلك الوسيلة البديعية العالية حين البيان عن التمييز بين الأشياء والمعاني .

---

(١) جزء عم ص٣٦ .



آيات ثواب الأبرار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ** ﴾ .

جاءت هذه الآيات متقابلة ، مع الآيات الماضية في وصف عقاب الفجار ، ولها دلالتها الأولى في الإغراء على العمل ، وله دلالة سياقية في البيان بالمفهوم عن تشنيع عقاب الفجار ، لذا جاءت التراكيب مغلولة بالبيان عن نقيض عقوبة الفجار ، وذكرت الآيات من الثواب ما يتقابل مع العقاب المذكور في السورة بحيث لو أدرت آيات الثواب في القرآن الكريم في هذا الموضع لوجدت نشازا منكرا لابتناء السورة على المقابلة ، ولوجدت نسق ما تضعه موضعها لا يتحاور مع مقابله ، بل يتعاند ويتناقض ، وفي تراكيب الآية الأولى إلاحة إلى أن ما يأتي من الآيات شرح لنظيرتها في الانفطار ، وكأن سورة الانفطار هي التي مهدت لأسلوب المقابلة الذي جاءت السورة الكريمة على لاحبه تذكر في الانفطار قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ** ﴾ وتأبى السورة (المطففين) إلا أن تكون شرحا لهاتين الآيتين ، وتدل التراكيب في السورة دلالة ظاهرة على هذا الأمر بتكرار هذين التركيبين بنمطهما دون أدنى تغيير ، إلاحة إلى نسق الأساليب في السور المتجاورة ، ثم يتبع كل منها شرح وتفصيل .

وتلك بصائر هدى إليها إبصار موقع السورة في الكتاب العزيز فلله الحمد والمنة . جاءت الآية الكريمة ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ** ﴾ معراة عن العاطف إيذانا بقوة الاتصال ، ولله در البلاغيين في تسمية ما جاء معرى عن

العاطف بكمال الاتصال ، كأنه الوجه الأعلى في اللحمة بين الجمل ، وفي تعريتها عن العاطف إيحاء بأن هذه الآية من ولائد ما قبلها ولو جاء بعاطف لكان الكتاب والأبرار متغايرين . أما وقد جاء كذلك وذكر وصف الأبرار في الموضعين فذلك دال على أن الكتاب وصاحبه في الارتفاع وعلو القدر وشرف المكانة على حد واحد ، ولذلك أثره في البيان عن مكان الفجار بالمفهوم أيضا .

يقول الشيخ الصاوي : رحمه الله ـ في موضع الآية ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ** ﴾ «شروع في بيان عاقبة أمرهم إثر بيان حال كتابهم على سنن ما مر في شأن الكفار»[1] وهو كلام بين في الدلالة علىالتناسب في نسق آي السورة . ذلك ما تزعمه من أن عناصر السورة تتناسق مفرداتها وتراكيبها وأنساقها ، تناسقا يخرجه عن حد الإعجاز تبديل حرف مكان حرف أو آية مكان أخرى .

وقد ألمع ابن عاشور إلى التناسب في هذا النسق فقال عن الآية «مضمون هذه الجملة قسيم لمضمون جملة ﴿ **إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴾ ولذلك جاءت على نسيج نظم قسيمتها افتتاحا وتوصيفا وفصلا ، وهي مبينة لجملة ﴿ **إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ** ﴾ فموقعها موقع البيان أو موقع بدل الاشتمال»[2] . وهو كمال الاتصال عند أهل الفن . وأتبعت هذه الجملة بقيد ﴿ **عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ** ﴾ وهو فيما يظهر متقابل مع قوله : ﴿ **إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ** ﴾ فهم ينعمون بالنظر إلى الله ـ عز وجل ـ وينتصر لذلك بما جاء بعده : ﴿ **تَعْرِفُ فِى**

---

(١) الصاوي على الجلالين ٢٩٩/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٤/٣٠ .

﴿وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ وليس بعد رؤية الله ـ جل وعزت قدرته ـ شيء ينضّر الوجه ، ألا تراه كيف انتخب الوجه دون الجسد ، لأنه محل العينين ، أول ناعم برؤية نوره ـ سبحانه ـ ماذا لو قال : تعرف في أجسادهم نضرة النعيم ، والتنعيم يظهر بلا ريب أثره على الأجساد ، نعم الوجه محل السرور ، وقد يكون التعبير به لهذه الخصيصة ، لكن السياق المبني على المقابلة يأبى إلا أن يكون المراد أنهم ينظرون إلى ربهم ، ويؤيد هذا السياق بيان القرآن في موضع آخر : ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢-٢٤) وهذا التفصيل يومئ إلى دلالات العبوس وشحوب الوجه والتكدير التي وراء قوله : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ فليس بعد الحجب عن الله نعيم ، وذلك لأنهم فجروا وطففوا فعميت قلوبهم عن مراقبة الله ـ جل وعز ـ فالجزاء من جنس العمل ، وهكذا كلما تكاثر البيان عن ثواب الأبرار ، دل بالمفهوم على تشنيع عقاب الفجار .

ثم جاء قوله : ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ وهو من خصائص السورة وعلاقته بما مضى ظاهرة إذ هو حال ثالثة من أحوال الأبرار . والرحيق هو الخمر الصافية الطيبة ، وماذا لو عبر عن الرحيق بالخمر؟ لا ريب أن الرحيق يفيد صفات أخرى للخمر لا يفيدها الخمر ، فالرحيق أيضا الخمر التي لا شوب فيها كما قال أهل العلم[1] ، وهو المتناسب مع ما جرت به أوصاف كتاب الأبرار من العلو والرفعة فناسب أن يذكر أرفع أنواع النعيم، ويتناسب أيضا مع ما لحق من قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ فهو استئناف ناشئ مما مضى ، ولما كان الشائع أن يكون الكدر

(١) راجع : المفردات (رحق)، وأساس البلاغة (رحق)، والتحرير والتنوير ٣٠/٢٠٥ .

في آخر الأشربة كما قال القرطبي[1] ، وهو وصف آخر غير قوله : ﴿ مَّخۡتُومٍ ﴾ فإن ﴿ مَّخۡتُومٍ ﴾ عند أهل العلم «المسدود إناؤه»[2] وفيه تكريم له ، وإعطاؤهم ثوابهم وافيا غير منقوص فكأن فيه تقابلا مع التطفيف ودلالاته ، فذلك الرحيق كامل مختوم ، وسبيل الملوك أنهم كانوا يجعلون الختم على الرسائل لئلا يقرأ حاملها ما فيها ، كما قال ابن عاشور ، فوضع الخاتم على الكتاب تكريم له ، وكل ذلك إلاحة إلى ما كان عليه الأبرار من العمل المتقابل مع عمل المطففين ، أترى أن هذا الرحيق يعطاه إلا من كال أو اكتال فأوفى واستوفى رغبا ورهبا؟ فجاء ثواب الأبرار ناظراً إلى عقاب الفجار ، مشيرا إلى أعمال الأبرار المتقابلة مع التطفيف ، وكأن مجيء هذا الثواب في سياق التطفيف ، جعل النظم يبادر بهذا الاعتراض[3] وهو تعريض بوجه صنيع المطففين كاشف عن خبيئتهم في تنافسهم وتسفلهم بالقناعة والرضا بالتنافس في الخسيس ، وعماية قلوبهم عما يجب فيه التنافس ، وقدم في جملة الاعتراض ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ﴾ وفيه دلالة على القصر ، فهذا النعيم يجب أن يكون هو المخصوص بالتنافس ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ .

ثم جاء بوصف آخر من خصائص السورة أيضا بعد هذا الاعتراض ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ وهو متناسب تناسبا بينا مع وصف كتاب الأبرار المتقابل مع وصف كتاب الفجار ، تأمل هذا القيد ﴿ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ والتسنيم ما يأتى من الأعالي ، واسمه التسنيم ليطابق الاسم مسمّاه ، فإنه من مصدر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٣٠١/١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٥/٣٠ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٢٠٧/٣٠ .

سنم الشيء إذا جعله كهيئة السنام ، وقد وجهوا هذه التسمية بأن هذه العين تصب على جنانهم من علو فكأنها سنام[1] ، ألا ترى هذا القيد متناسبا مع ما نص عليه من موضع كتاب الأبرار ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ ، تأمل موقع آيات عبس في صحف الأعمال ، لو جاءت هاهنا ألست تبصر أنها تتعاند مع ما قبلها وما بعدها؟ والذي أبصره أن تفصيل آيات الثواب يجعلنا بيقين ـ إن شاء الله ـ نضع مقابلا مطويا في آيات عقاب الفجار التي اكتفى فيها بقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ففى هذا الجحيم كل الأوصاف المتقابلة مع وصف ثواب الأبرار ، كما يلوح به أسلوب المقابلة الذي ابتنت عليه السورة الكريمة .

ومن المعالم المتنادية على نسق السورة قوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ وهي كقوله : ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ الأبرار وكتابهم في موضع واحد ، والمقربين تتناغى مع التسنيم كلاهما ارتفاع وعلو ، تأمل النشاز المنكر في النسق لو جئت بقوله هاهنا والموضوع واحد ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (الإنسان:٥ ، ٦) ونسق آي المطففين كما عرفت ، أن لكل سورة نورها البياني الذي لا يلتبس بنور السورة الأخرى مهما تقاربت السور ، وكل من نور الله تعالى الذي لا يتناهى نوره ، ويستشعر ذلك أهل البصر والبصيرة ، ويتفاوتون في البيان عنه تفاوتا بينا ، فالأمر كما رأيت ، وآيات الثواب شائعة في الذكر الحكيم ، إلا أن لكل سورة أسلوبها في مفرداتها وتراكيبيها .

---

(١) راجع جزء عم ص٣٦، والتحرير والتنوير ٢٠٨/٣٠، والشيخ زاده ٦٣٦/٣ .

آيات في جرائم أخرى للمطففين وعقابهم وعلاقاتها بالمطلع :

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ صدق الله العظيم .

قلت : إن تقارب افتتاح المطففين مع افتتاح الهمزة ، ومجيء هذه الآية في المطففين أغرانا بوضع هذا العنوان لهذه الآيات ، وما قد يلمع إليه صياغة قوله : ﴿ كَالُوهُمْ ﴾ من الاستخفاف بالناس والاستهزاء بالتطفيف ، الذي يعني أن المطففين يعدون الناس الذين يبخسونهم حقوقهم من أهل الغفلة ، وقد ذكروا أن المراد بالذين أجرموا : هم مشركو مكة : أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم ، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزئون بهم ، وقيل جاء على بن أبى طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل عَلِيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

والذي ذكروه ـ فيما أرى ـ على لاحب ما ذكره القرآن قبل في قوله ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا ﴾ ويكون هاهنا من نمط الترهيب الذي تسير السورة على لاحبه فالمطففون همازون لمازون يزنون الناس بموازين غير الميزان الذي يوزن به المسلم (التقوى) وذلك تطفيف ، فلكل شيء وفاء وتطفيف

(١) الكشاف ٤/٢٣٣ .

كما بينت السنة المطهرة ، وذلك من فوائد إشارة التخصيص بعد النعيم في مطلع السورة وتوابعه كما بيناه بكلام أهل العلم .

ودلالة الآيات لا تمنع من إجرائها على المطففين ، كما لا تمنع أيضا من إجرائها على الكافرين ، ولا ينقض ذلك سبب النزول ، فهذه طريقة الذكر الحكيم تتقلب عليه العصور ، ويكتنز هو تقلبات العصور ، وبالنظر إلى سبب النزول تكون الآيات دالة على أن المطففين يضعون أنفسهم ـ بجرائمهم ـ والكافرين في قرن واحد ، أن المطفف يسخر من المؤمن حين يكتال منه ، ويتغامز عليه حين يمر به ، أن هذا قد استغفلته حين اكتال مني ، ويرجع المطفف بما ظن من الكسب والسخرية متلذذا بحكاياته ذلك إلى أهله ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، لا يعون كيف تجمع الأموال ، وليس هذا افتئاتا على معاني القرآن فلا كنت حينئذ ، ولئن كان فعلى غير قصد ، وإنما يتأيد ذلك باستبصار سياق السورة الكريمة .

العلامة ابن عاشور يرى أن الآيات إلى قوله : ﴿ **وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ** ﴾ موصولة بقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴾ والآيات عنده من جملة القول الذي يقال يوم القيامة للفجار ، وهو يرجح ما أبصرناه من أن وصف كتاب الأبرار وثوابهم ، إنما جاء اقتضاء لوصف كتاب الفجار ومآلهم ، وقد انتصر ابن عاشور لمقالته تلك ، بأن الآيات ترتبط بقوله تعالى في آخره : ﴿ **فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ** ﴾ إذ يتعين أن يكون قوله : ﴿ **فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** . . .﴾ حكاية كلام يصدر في يوم القيامة وذلك لأن تعريف اليوم باللام ونصبه على الظرفية يقتضيان أنه يوم حاضر مؤقت به الفعل المتعلق هو به ، ولأن قوله : ﴿ **كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ** ﴾ ظاهر في أنه حكاية كون مضى ، وكذلك معطوفاته

من قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ـ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ ـ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ ﴾ فدل السياق على أن هذا الكلام حكاية قول ينادى به يوم القيامة من حضرة القدس على رءوس الأشهاد[1].

وما مضى من قوله : ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ إنما هو في مقام تقريع ولوم الفجار وإهانتهم ، وقد جاء كما مضى عقب العقوبة ، وجاءت العقوبة عقب آية جرت سنة القرآن على استخدامها في حق الكفار ، والأمر كما عرفت من التأويل ، أترى بعد ذلك أن التقريع واللوم يكون بغير ما كانوا يفعلون من التطفيف حسا أو معنى في كيل أو غيره في الدنيا؟ لا إخالك تراه متناسبا مع سياق السورة .

« وإصدار ذلك المقال يوم القيامة مستعمل في التنديد والتشميت كما اقتضته خلاصة من قوله : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ . . . ﴾ إلى آخر السورة »[2].

وهو موصول بالمقال الأول ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهو بدوره موصول بقوله : ﴿ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الذي ينادي بدوره على قوله : ﴿ وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ وكأن هذه التراكيب معالم لتشارب آيات السورة من سياق واحد ، ويكون موقع قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ . . . ﴾ موقع بدل البعض من قوله : ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهو ما يطلق عليه أهل الفن كمال الاتصال ، وهذه الآيات تمهد لسياق سورة الانشقاق كما ذكرنا في موقع المطففين في الكتاب العزيز .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/٣٠ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ٢١٠/٣٠ .

والمذكور كله في هذا القول يتظاهر في بيان تنقيص الكافرين للمؤمنين سواء كان بالضحك منهم ، أو التغامز عليهم ، أو التلـذذ بذلك ، أو رميهم ـ وهم أهل الرشاد ـ بالضلال ، ويلحظ أنه بنى الجمل بصيغة المضارع دلالة على تكرر ذلك منهم وحدوثه والملحوظ أنه قيد الجمل جميعا بأداة الشرط المقيدة تحقق وقوع ما بعدها ،نمط قوله: ﴿ **وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ** ﴾ «وتكرير فعل ﴿ **ٱنقَلَبُوٓاْ** ﴾ بقوله : ﴿ **ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ** ﴾ من النسج الجزل في الكلام ، كان يكفي أن يقول ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم فكهوا ، أو إذا انقلبوا إلى أهلهم كانوا فكهين . وذلك لما في إعادة الفعل من زيادة تقرير معناه في ذهن السامع ، لأنه مما ينبغي الاعتناء به ، ولزيادة تقرير ما في الفعل من إفادة التجدد حتى يكون فيه استحضار الحالة»[(١)] . على أني أحس فوق ذلك أن في تكرار الفعل إلماعا إلى خسرانهم بتنقيص المؤمنين بما يفيده ، فعل انقلب من الرجوع والتردي ، وهو دال على الخسران ، وهو غير سياق الانشقاق ﴿ **وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا** ﴾ وقد تهكم القرآن الكريم بهم في قوله : ﴿ **وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ** ﴾ لأن من شأن الحفاظ المرسلين الحرص على المرسلين إليهـم ، وليس هـؤلاء المجرمـون حفـاظا ولا مرسلين ، وهي مهاد وفرش للآيات الواردة بعد ﴿ **فَٱلْيَوْمَ** ...﴾ ومجيء اليوم بالتعريف إشارة إلى ذكره السابق ، ونور علاقته يحدث دبيبا خفيا في نسيج السورة ، ليعقد بقوله : ﴿ **لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ وقد جاء الأول بلام التوقيت ، وجاء الناس بلام التعريف كأنه قد وقع ، وذلك يصور رحلة سياق السورة الكريمة،والآيات من قوله:﴿ **وَمَآ أُرْسِلُواْ** ﴾ تتجه نحو المطلع بذم المطففين ، الذين وصفتهم السورة بالفجور وبالتكذيب

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٥/٣٠ .

وبالإجرام وتقلب ما حكته من تنقيص المطففين للمؤمنين ، وهو تطفيف معنوي ولا ريب أن اليوم المذكور هو يوم القيامة ، لا اليوم الحاضر حين نزول الآية ، يستظهر ذلك باستبصار السياق السابق على الآية الكريمة ، وترى في اختتام السورة التعادل بين العمل والجزاء ، أرأيت كان الكفار يضحكون من الذين آمنوا ـ ويوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار ، وهم على الأرائك إلماع إلى العلو والارتفاع وشرف المكانة حتى في البيان جاءت الآية على نسيج ما مضى حكايته . فجاءت في الآيتين باستبدال الفاعلين والمفعول ، فكأن الكفار فاعلون في الآية الأولى وكأن ﴿ **ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ مفعولا بهم ، وجاءت الآية الثانية قالبة هذا النظام ولئن كان تقديم ﴿ **مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ في الآية الأولى إسراعا في البيان عن إساءتهم فتقديم ﴿ **مِنَ ٱلْكُفَّارِ** ﴾ في عكسها للاهتمام بالمضحوك منهم تعجيلا لإهانتهم عند سماع هذا التقريع[1] كرامة نفس للمؤمنين وقرة عين لهم ، وتظاهر الأسلوب على ذمهم ظاهر قاهر ، لذا خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وأظهر حيث يجيء الإضمار بيانا لذمهم وإمعانا في إهانتهم ، المهم أنك ترى السورة تختتم بالبيان عن ذم المطففين حسبما أبصرناه وتنقيصهم ، كما كانوا يستمرئون التطفيف في كل شيء لا سيما في الميزان والمكيال ، وفي ذلك رد للمقطع على المطلع ، ولعجز السورة على صدرها شأن كثير من الذكر الحكيم .

وجاء قوله : ﴿ **هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** ﴾ وهو (فذلكة) لما حكي من اعتداء المشركين على المؤمنين ، وما ترتب عليه من الجزاء يوم القيامة ، فالمعنى : فقد جوزى الكفار بما كانوا يفعلون ، وهذا من تمام

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٥/٣٠ .



النداء الذي يعلن به يوم القيامة ، والاستفهام بـ (هل) تقريري وتعجيب من عدم إفلاتهم منه بعد دهور . . . وفي هذه الجملة محسن براعة المقطع لأنها جامع لما اشتملت عليه السورة[1] ، كأن اسم موصول وصلته في نهاية السورة إجمالاً لما ذكر من أول السورة إلى هنا من التطفيف وغيره .

والآية فوق ذلك تمهد لسورة الانشقاق التي تحكى ثواب أصحاب اليمين وعقاب أصحاب الشمال ، وتتشارب من سياق سورة المطففين ، ولا تجد كهذه الآية التي جاءت بها السورة في الذكر الحكيم .

والملحوظ : أنها بنيت على تصديرها بالاستفهام التعجبي ، كقوله : ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ** ﴾ .

* * *

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢١٥، ٢١٦ .



الفصل الرابع

الافتتاح بالتعليل في
سورة قريش

للافتتاح بالتعليل بديعة لا ينهض بها افتتاح سواه ، وتصديره سورة قريش أكسبها مزية دون سور الذكر الحكيم ، ذلك الافتتاح هو قوله تعالى : ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ . . .

وقد اشتجر الخلاف بين أهل العلم ـ فيما يبدو ـ في متعلق هذه اللام على ثلاثة أقوال ، ولكل قول حجج لا يستهان بها ، وقد كشف لنا هذا الاختلاف ـ بفضل منه تعالى ـ وجوها من بدع بلاغة القرآن صارت بها هذه الأقوال الثلاثة متجاورة متحاورة في بيان السور ، وكاشفة عن جهات نظر الأئمة ـ رحمهم الله .

القول الأول : أن هذه اللام متعلقة بالقصة التي في السورة التي قبلها وهي لام التعليل ، والمعنى : أنه فعل ما فعل بأصحاب الفيل لتألف قريش رحلة الشتاء والصيف ، أو لام العاقبة ، والمعنى : أنه أهلك أصحاب الفيل الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك ، فيهابوهم ويحترموهم ، فينتظم لهم

الأمر في رحلتهم أو بمعنى إلى : والمعنى حينئذ ـ تعدادا للنعم ـ ألـم تـر ما فعل ربك بأصحاب الفيل . . وإلى إيلاف قريش . . وجعلوا هذا التعليق بمنزلة التضمين في الشعر وقد تأيد هذا الوجه بأن السورتين في مصحف أبيّ بن كعب سورة واحدة دون فصل بينهما بـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وما روى من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى ﴿ وَٱلتِّينِ ﴾ وفي الثانية (ألم تر وقريش) مـن غـيـر فصـل بينهـما بـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، وأن مطلع هذه السورة لما كان متعلقا بالسورة المتقدمة ، وجب ألا تكون سورة مستقلة ، وليس سقوط البسملة . فيما أرى ـ دليلا لهم على ما قالوا .

ولئن اتفقت المصاحف على إسقاط البسملة من صدر سورة التوبة ، فإنه يرجع هناك إلى أمر في مقصود السورة إذ هي في نبذ العهود ـ كما مضى بيانه[1] ، وشيء آخر هو أن قصتها شبيهة بقصة الأنفال لغاية جعلت سيدنا عثمان رضي الله عنه يسقط البسملة خشية أن تكون التوبة جزءًا من الأنفال ، ومع التشابه في قصتي السورتين إلا أن الأئمة لم يجعلوهما سورة واحدة ، على الرغم من سقوط البسملة والتشابه ، وذلك الأمر ظاهر هو أن كل سورة من سور الذكر الحكيم ، تتشابه مع سابقتها في قصتها ، وتقدم للاحقتها في تسلسل بديع ، وليس وجود البسملة مؤذنا بانقطاع هذه العلاقة ، وليس إسقاطها طاعنا في استقلال كل سورة .

وقد ردّ معاندو هذا القول هذه الأدلة ، بأن عدها جزءا من سورة الفيل مخالف لإجماع المسلمين على كونهما سورتين لتستقل كل واحدة منهما بمقصود وأن الاستدلال بإسقاط البسملة من مصحف أبي بن كعب يتساقط

---

(١) راجع : سورة التوبة في الباب الثالث من هذا البحث .

بإثباتها في المصحف الإمام ولا وجه للاستدلال بعمل عمر رضي الله عنه لأن الإمام قد يقرأ سورتين في ركعة واحدة دون فصل ، وليس العمل حينئذ مؤذنا بعدهما سورة واحدة[1] .

وبقي التعلق اللفظي حجر عثرة بعد تقويض هذه الأدلة ، فإن وجود اللام يقطع بتعلقها بالسورة الماضية ، إذ هي في صدر السورة ، لم يسبقها متعلق ، ووجود البسملة يقطع باستقلال السورة عن سابقتها . فاستحكم القول بالتعلق مع الاستقلال وأضحى المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل ، وليس تعلق أولها بما قبلها حجة ، لأن القرآن ـ كما قال الفخر ـ رحمه الله ـ « كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة ، يصدق بعضها بعضا ، ويبين بعضها معنى بعض ، ومما يقوي القول بهذا التعلق ، أن قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ** ﴾ إشارة إلى أول سورة الفيل ، كأنه قال : فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم ، لأجل إيلافكم ونفعكم ، لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتبا على إيصال المنفعة ، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة »[2] .

والسورة الكريمة تقدم للاحقتها أيضا ، فالذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف هو الذي يحاسب من يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، كما تحكي السورة اللاحقة .

---

(١) راجع : جامع البيان ١٩٧/٣٠، والكشاف ٢٨٧/٤، والبرهان للكرماني ص٢٢٥، ومسائل الرازي ص٥٥٠، ومفاتيح الغيب ٦٨٩/٨، والقرطبي ٧٥٤٤/١٠، وفتح البارى ٦٠١/٨، وابن كثير ٥٥٣/٤، وأبو السعود ٦٩٠/٨، وغرائب القرآن ١٦٨/٣٠، وجزء عم ص ١٢٢، والتحرير والتنوير ٥٥٤/٣٠ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٦٨٩/٨، ٦٩٠ .

وعن الفصل بالبسملة قالوا : « والفصل بين طائفة وطائفة لا يوجب انقطاع إحدى الطائفتين عن الأخرى بالكلية »[1] وإنما هو « لإظهار العناية بما احتوت عليه كل من السورتين ، حتى إن كل جملة مما حوتا يصح أن تقصد لذاتها ، وما تضمنته سورة قريش جدير بالعناية ، لأن الخطاب والتذكير كان لهم ، وهم قومه ﷺ والسامعون لدعوته ، فحق أن يفصل ما يختص بهم عما قبله بفاصل يلفت الذهن إليه ، وإن كان مرتبطا به »[2]، ذلك مما أفضى إليه الافتتاح بالتعليل ، كأنه من دلائل القرآن الظاهرة على اعتلاق كل سورة بما قبلها ، وأن القرآن كالسورة الواحدة تمثل كل سورة من سوره جملة من هذه السورة الكبرى في تسلسل متمانع على التقديم والتأخير بين سوره ، كما هو بين آيه ، كما هو بين جمل آيه ، كما هو بين مفردات آيه ، فلله نوره .

فليس في الذكر الحكيم سورة تصلح أن توضع قبل قريش غير سورة الفيل ، لأنك لن تجد متعلقا للام فيها ، كما تجده في سورة الفيل ، ولله در البقاعي ـ رحمه الله ـ وهو يحرر مقصود هذه السورة ناظمها في سياقها من الكتاب العزيز ، بعدما رأى من هذا التعلق الظاهر ، وبعد ما حفظ أقوال الأئمة في أن هذه السورة شديدة الاتصال بما قبلها لتعلق اللام بقصتها[3] ـ ولعمرى هذا ما نهض به الافتتاح بالتعليل في سورة قريش فكان ظاهرا متعاظم النور ، لا يخفى على أهل العلم شأنه ، وما خفي كان أعظم ، وكم في كتاب ربنا ـ جل وعز ـ من خافية ـ يقول البقاعي ـ رحمه الله ـ :

---

(١) غرائب القرآن ١٦٨/٣٠ .

(٢) جزء عم : للإمام محمد عبده ، ص١٢٢ .

(٣) راجع : القرطبي ٧٥٤٤/١٠، والبرهان لابن الزبير ، ص٢٤١، وتناسق الدرر ، ص١٥٧ .

« ومقصودها أن إهلاك الجاحدين المعاندين ، لإصلاح المقربين العابدين ـ وهو بشارة عظيمة لقريش خاصة بإظهار شرفهم في الدارين ، واسمها قريش ظاهر الدلالة على ذلك ، والتعبير بقريش دون قومك ، والخمس مثلا ، دال على أنهم يغلبون الناس بقوة كما يدل عليه الاسم وبغير قوة ، كما دل عليه ما فعل لأجلهم من قصة الفيل »[(١)] .

وتعلق السورة بالفيل كما ترى ، وقد جاءت سورة الفيل ـ كما قال البقاعي مثلا لإهلاك المكاثرين في دار التعاضد والتناصر بالأسباب .

وهو ما تتظاهر على إظهاره سورة الهمزة ﴿ **ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ** ﴾ ، والتي تتقابل بدورها مع سورة العصر ، التي تبين فضل الإنسان الحقيق بالفوز ، والتي تتقابل بدورها مع سورة التكاثر ، التي تصرح بأن سبب الهلاك يوم الجمع الذي صدرته القارعة الجمع للمال[(٢)] . وهكذا ترى التناسب يتصاعد نوره إلى أن ترقى إلى الفاتحة فترى نورها يعم نور القرآن نور على نور .

وليس القول بأن مقصودها الامتنان على قريش[(٣)] ببعيد مما قال البقاعي وليس من سياق السورة كما يظهر فيها ، ضع في هذا السياق سورة غير سورة الفيل لن تجد أحسن تلاؤما ، ولا أنسق تلاحما منها في

---

(١) مصاعد النظر ٣/٢٥٠، ٢٥١ .

(٢) راجع : مصاعد النظر ٣/٢٤١ وما بعدها .

(٣) راجع : النظم الفنى ، ص٣٦٦ ويؤازره ما جاء عن أم هانئ قالت : قال النبي ﷺ إن الله فضل قريشا بسبع خصال. لم يعطها قبلهم أحدا ولا يعطيها أحدا بعدهم. أن الخلافة فيهم ، والحجابة فيهم ، وأن السقاية فيهم ، وأن النبوة فيهم ، ونصروا على الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحد غيرهم ونزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم لإيلاف قريش . . . أسباب النزول ، ص٣٤٢ .

موضعها ، وأرجو أن يكون الافتتاح بالتعليل في هذه السورة نواة علم المناسبات في المهد الأول،ذلك ما ذكرت لك من بديعة الافتتاح بالتعليل، ومزية سورة قريش .

القول الثاني : قال طائفة من أهل العلم ـ بعدما ردوا القول الأول كما مضى ـ أن اللام تتعلق بقوله : ﴿ **فَلْيَعْبُدُواْ** . . .﴾ وإنما قالوا ذلك فرارا من عدهما سورة واحدة عند تعلقها بما مضى في سورة الفيل ، وقد مضى بيان أن التعلق بما مضى لا ينافي الاستقلال ، واعترض على أصحاب هذا القول بأنه يؤدي على إعمال ما بعد الفاء العاطفة فيما قبلها وليس بالعربي ، فردوا هذا الاعتراض بالقول بأنها زائدة ، وعليه فقد جاز تقديم معمول ما بعدها عليها ، وفي دعوى الزيادة نظر ، والوجه أن الفاء مؤذنة بأن في السياق معنى الشرط[(1)] وأن التقدير إن لم يعبدوه فليعبدوا .

وظاهر هذا القول متعاند مع القول الأول ، وليس بذلك ، لأن القول الأول لا يستغنى عنه عند النظر إلى سورة في موضعها من السياق القرآني، وهذا القول هو الأعلى عند نزع السورة من هذا السياق ، والنظر إليها وحدها إلا أن رؤيتك اللؤلؤة بين جاراتها غير رؤيتك إياها مُطَّرحةً بعيدة، فإن النصح لكتاب الله قاضٍ ـ إذا ما أردت استكشاف بلاغة السورة ـ أن تنظر إليها في موقعها بين أخواتها ، لا سيما أن التعليل يجبرك على استخراج متعلقه فيما مضى ، كأني بالافتتاح بالتعليل يقول : أنا الدليل على هذا النصح . فلا يمنع أحد الرأيين الآخر ، وإنما يتظاهر كل على إبراز مقصود السورة .

---

(١) راجع : الاثنى عشر مرجعا في ص٥٠١ بمواضع صفحاتها وراجع البيضاوي ٥٧٧/٢، والصاوي على الجلالين ٣٥٤/٤، والفتوحات الإلهية ٥٩١/٤ .

وقد استخرج أصحاب القول الثاني بدائع لتقديم هذا المجرور على متعلقه ، فالتقديم يفيد الاهتمام المقدم ، وقد أفاد هاهنا أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة[1] . قال ابن عاشور : هذا « افتتاح مبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل ، وليس بإثره بالقرب ما يصلح للتعليق به ، ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور ، وزاده الطول تشويقا إذ فصل بينه وبين متعلقه بخمس كلمات . . . وتقديم هذا المجرور للاهتمام به ، وتولد من تقديمه معنى جعله شرطا لعامله فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط فالفاء الداخلة في قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ ﴾ مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط ، أي مؤذنة بأن تقديم المعمول مقصود به اهتمام خاص ، وعناية قوية ، هي عناية المشترط بشرطه وتعليق بقية كلامه عليه ، لما ينتظره من جوابه ، وهذا أسلوب من الإيجاز بديع »[2] .

القول الثالث : أن هذه اللام تتعلق بمحذوف ، فهي لام التعجب وطريقة العرب الاكتفاء بها دليلا على التعجب[3] ، وأصحاب هذا القول يجدون في الهرب مما اعترض به على أصحاب القول الأول ، وأصحاب القول الثاني ، وهو قول سديد إلا أنه لا يسوغ التقدير والتعليق بمحذوف إلا بامتناع تعلق اللام بظاهر ، وقد مضى أنه يمكن أن تتعلق بسابق أو لاحق ، ومع ذلك فإن هذا الوجه متناسب أيضا مع مقصود السورة ،

---

(١) انظر : الكشاف ٢٨٧/٤، وغرائب القرآن ١٦٨/٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٥٤/٣٠، ٥٥٥ .

(٣) راجع جامع البيان ١٩٨/٣٠، والكشاف ٢٨٧/٤، ومفاتيح الغيب ٦٨٩/٨، والقرطبي ٧٥٤٥/١٠، وابن كثير ٥٥٣/٤، وفتح الباري ٦٠١/٨، وغرائب القرآن ١٦٧/٣٠، وجزء عم ص١٢٢ .

الذي هو الامتنان على المقربين العابدين ، فهو غير متعاند مع القولين السابقين ، بل إنه يحدد لنا مطلع السورة الكريمة ، فعلى هذا القول يكون مطلع السورة هو قوله تعالى : ﴿ **لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ**﴾ والقول الأول يحدد هذا المطلع أيضا بعدما بين أهل العلم أنه لا منافاة بين استقلال السورة وتعلقها بما قبلها ، وكأن هذا التعلق إيذان بتقارب مقصود السورتين ، وهما في الامتنان على قريش لأجل العبادة ، فسورة قريش « تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها ، وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة »[1].

فعلى القولين الأول والثاني تكون السورة من قوله تعالى : ﴿ **فَلۡيَعۡبُدُواْ** ﴾ إلى آخرها مرتبة على ما قبلها ، والقول الثاني يقوي هذين القولين ، إذ هو يجعل العلاقة بين شقى السورة علاقة الشرط بالمشترط ، وبدهي أن الجزاء يترتب على الشرط فالأقوال الثلاثة متآزرة في بيان العلاقة بين مطالع السورة ومقصودها ، ولنا ـ إن شاء الله ـ في مفردات السورة ، وتراكيبها ونسقها ما يدل لما قلنا .

هذه السورة الكريمة تنهض بمقصود لا ينهض به سواها ، وتذكر منة لله على قريش لم تذكر في غيرها ، وقد اقتضى ذلك تفردها بمفردات وتراكيب ونسق لهذه التراكيب . معجم مفردات هذه السورة الذي لم يرد في غيرها (إيلاف ـ قريش ـ رحلة ـ الشتاء ـ الصيف) كما تفردت بهذه الإضافة (رب هذا البيت) والذي جاء في السورة الكريمة من المفردات الأخرى جاء معقودا بشيات هذه المفردات ؛ إذ هي قاموس المقصود فكلمة ﴿ **وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ**﴾ تذكر مفرداتهما في مواضع أخرى من الذكر

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٣ .

الحكيم ، إلا أنها جاءت معقودة بالكلمة الأولى من السورة ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ ولا ريب أن الكلمة الأولى ألمحت إلى الكلمة الأخيرة ، وأن الأخيرة فسرت الأولى ، وذلك لأمر ظاهر فإن مادة (ألف) تصور الاجتماع مع الالتئام ـ كما قال الراغب ـ [(١)] ، والخوف يصور التفرق والتمزيق ، ودلالة الخوف تصور أنهم كانوا لا ينزعون إلى هذه الرحلة من شدة الخوف من التخطف ، ودلالة الإيلاف تصور أن الرحلة أضحت أحب الأشياء إلى أفئدتهم ، وفي ذلك بيان عن عظيم المنة ، والبديع أنه لا تخطئك هذه المعاني سواء كان (الإيلاف) مصدرا لألف بتشديد اللام كما قال الراغب ، أو لآلف وعلى الثاني تكون « صيغة الإفعال فيه للمبالغة ، لأن أصلها أن تدل على حصول الفعل من الجانبين ، فصارت تستعمل في إفادة قوة الفعل مجازا ، ثم شاع ذلك في بعض الأفعال حتى ساوى الحقيقة »[(٢)].

ولا ريب أن الاعتبار الثاني ناظر إلى الفعل في قوله : ﴿ وَءَامَنَهُم ﴾ فكأنه سبحانه آلفهم بأن آمنهم من الخوف ، ونقل عن الفراء وابن الأعرابي أن الإيلاف يعنى التجهيز والتهيئة ، والمعنى : لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا ، وعلى هذا القول يكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله ولطفه ، وذلك بانهزام أصحاب الفيل[(٣)] ، والحق ـ إن شاء الله ـ أن التجهيز يكون بسبب الإيلاف ، والإيلاف بسبب أمن الخوف ، فهو داخل ضمن المعنى السابق ،

---

(١) المفردات : مادة (ألف) ص٢٠، ٢١، والمصباح المنير (ألف)، ص١٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٥٥/٣٠ .

(٣) راجع : غرائب القرآن ١٦٩/٣٠ .

وأرجو ـ إن شاء الله ـ أن يكون ما ذكره الفراء وابن الأعرابي ناظرا إلى قوله : ﴿ **أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ** ﴾ فإن خوف الجوع يحثهم على التجهيز للرحلتين اللتين تطعم قريش بسببهما ، بذلك تتسع دلالة الإيلاف ، لتشير لكل السورة ، ولتعقد الألفاظ الشائعة في الذكر الحكيم بها ، فإن الجوع هو غاية العوز والحاجة ، وهذه الفاقة تعكس حجم الخوف ، أيُّ خوف هذا الذي يمنع الإنسان الطعام مع شدة الحاجة وعظم الفاقة؟ بل أي رب هذا الذي آمنهم من هذا الخوف؟ بل أي رب هذا الذي قلب لهم الخوف أمنا فألفوا الرحلة ـ جالبة الطعام ـ بعد تأب من تمنيها لشدة هذا الخوف؟ بل صارت أحب وآنس لقلوبهم ، لأن بها الطعام الذي تقوم به حياتهم أيُّ نعمة هذه؟ لا ريب أن هذه الكلمات القصار تجمع تحتها كل ما ذكر المؤرخون في تاريخ شبه الجزيرة ، وما ذكر الشعراء وأهل البيان ، من تصوير ما كان عليه العرب من الخوف أرأيت إلى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾ (العنكبوت:٦٧)، وقوله : ﴿ **وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (القصص:٥٧).

لا ريب أن كلمة التخطف في الآيتين الكريمتين ـ إحداهما : بلسان الله سبحانه وثانيتهما : حكاية قول الكفار بلسان الله ـ لا ريب أنهما تصوران شدة الخوف ، فما إن يخرج أحدهم خارج جبال مكة إلا وتخطفه الناس أو السباع أو قل ماشئت ، كانت قريش حينئذ ـ قبل الإيلاف ـ نهبا موزعا بين تمزيق الجوع أحشاءها ، وتقطيع الخوف قلوبها .

ذلك من ثراء دلالة (الإيلاف) اضرب صفحا عما قاله أهل العلم في هذه الكلمة ثم ضع مكانها أى لفظ شئت ، ناظرا إلى معاجم لغة العرب من بين يديك ومن خلفك قل مثلا : لتجهيز قريش رحلة الشتاء ـ لحب قريش رحلة ـ لاعتياد قريش رحلة ـ ثم انظر كيف يكون المعنى ، وكيف يتساقط كل لفظ تقترحه ـ بغية استكشاف شيء من بلاغة لفظة الكتاب ـ مع بقية السورة .

شيء آخر يضيف ثراء إلى دلالة (الإيلاف) في عطف البيان [إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ...) وقد ذكر أهل العلم فوائد منها أنه « كرر لأن الثاني بدل من الأول أفاد بيان المفعول ، وهو رحلة الشتاء والصيف»[1]. أو أنه « أطلق الإيلاف ، ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيما لأمر الإيلاف وتذكرا بتعظيم المنة فيه»[2] ، أو لأن « الأول عام في كل مؤانسة وموافقة كانت بينهم ، فيدخل فيه مقامهم وسفرهم ، وسائر أحوالهم ، ثم خص إيلافهم الرحلة بالذكر ... لأنه قوام معاشهم ، وفائدة ترك واو العطف التنبيه على أنه كل النعمة»[3] ، هذا موقع التابع في ثراء المعنى ـ دأب الذكر الحكيم في كل الاستعمالات ـ فقد أفاد الأول النعم الأخرى على قريش مضافة إلى نعمة إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، ومن نعمة الله على قريش أن ساق إليها الأمر بعد بيان نعمته عليهم ، وذلك ضرب من الإيلاف ، لأن « الإلزام ضربان : إلزام بالتكليف والأمر ، وإلزام بالمودة والمؤانسة»[4] فالأنسب بالمقام أن تتقدم المنة على الأمر وذلك من بلاغة نسق التراكيب .

---

(١) البرهان للكرماني ص٢٢٥، ٢٢٦ .

(٢) الكشاف ٢٨٨/٤، وإرشاد العقل السليم ٦٩٣/٨ .

(٣،٤) مفاتيح الغيب ٦٩١/٨، وغرائب القرآن ١٦٩/٣٠ .

هذا السياق الذي يشتمل المودة والمؤانسة سبيلا قضى باستخدام لفظة (قريش) ، وقد فسره أهل العلم ناظرين إلى هذا السياق ، فقد ذكروا أنه تصغير القرش ، وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ، ولا تطاق إلا بالنار ، وتَأْكل ولا تُؤْكل ، وتَعْلوا ولا تُعْلى والتصغير حينئذ للتعظيم عند أهل العلم نظرا لسياق المؤانسة ، ولا يبعد أن يكون في هذا الاستعمال إشارة إلى علو قريش أمم الأرض بعد ـ كما ذكر البقاعي وصدقه الزمان من قبل ، وذكروا أن هذه التسمية من القرش وهو الكسب ، لأنهم كانوا كسابين لتجارتهم ، وهو متناسب جدا مع المنة المذكورة ، أو أنه من التقرش ، وهو التجمع وذلك لاجتماعهم بعد افتراقهم وهو متناسب أيضا مع نعمة الإيلاف أعظم تناسب ، أو أنه من التقريش بمعنى التفتيش ، لأنهم كانوا يفتشون على ذوي الخلات ليسدوا خلتهم ، وذلك يكون عن غنى وكأن الغنى بالرحلتين وكانتا بأمن الخوف وكل من الله ، فهو معنى يتناسب مع السياق من هذا الوجه[1] أيضا المهم أنك ترى لما ذكره أهل العلم مناسبة بالسياق ، لذا لا يصلح لفظ غيره في موضعه بل لا يتناسق مع قصة الفيل ، إذ قريش كانوا سدنة البيت ، لذا لم يصلح هاهنا لإيلاف أهل مكة أو غير ذلك .

وقد أتاح عطف البيان ذكر قريش مرتين بالإظهار والإضمار ووقع المظهر بين الإيلافين ، ولولا عطف البيان لما كان هذا الأمر ، ولما أشار السياق إلا إلى منة واحدة هي إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، وقد

---

(١) راجع في توجيه هذه التسمية الكشاف ٢٨٨/٤، ومفاتيح الغيب ٦٩٢/٨، والقرطبي ٥٤٤٦/١٠، وغرائب القرآن ١٦٩/٣٠، وإرشاد العقل السليم ٦٩٢/٨، والصاوي على الجلالين ٣٥٣/٤، ٣٥٤، ومصاعد النظر ٢٥٠/٣، ٢٥١ .

استخدم (الرحلة) بالكسر وهي «اسم من الارتحال ، وقد ذكروا أنها بالضم اسم لما يرحل إليه . يقال (قربت رِحلتنا) بالكسر ، ويقال : (وأنت رُحلتنا) بالضم أي المقصود الذي يقصد إليه»[1] ، وفي إضافة الرحلة إلى الزمان مجاز علاقته الزمانية ، وهو يدل على استغراق الفعل زمانه وهذا التجوز في الإسناد يتناسب والإيلاف ، فإن دليل اتساع منته اتساع زمانها ، حتى لو رحلوا في كل يوم من أيام هذين الفصلين ، ولو ذكر المكان مكان الزمان لفاتت هذه الدلالة ، ثم إن في إسقاط المكان مع معرفة قريش به دلالة أخرى تتآخى مع الإيلاف هي تصوير اتساع حركة ارتحالهم إلى أي وجهة أرادوا ، وأى مكان قصدوا غير ما كانوا يقصدون في ارتحالهم ، لهذه النكات وغيرها مما يمكن أن يستخرج كان استعمال المجاز العقلي في حاقّ موضعه ـ دأب الذكر الحكيم .

كل ما مضى كان تفصيلا للمنة المسوقة بين يدي قوله سبحانه : ﴿ **فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ** ﴾ . . . ألا ترى في الكلمة الماضية ـ بما تصوره من البحث عن حالة قريش قبل الإيلاف ، والبحث عن أسباب نفورها من هاتين الرحلتين ، على عظيم فائدتهما فإن بهما الطعام قوام حياتهم ـ ألا ترى أن كل ذلك وغيره يدفع إلى البحث عن رب هذا الإيلاف؟ وأنه يعرف ـ سبحانه ـ بنعمته ، لذا فقد استغنى النظم الكريم بالمعرفة الضرورية عن أن يقول : لإيلاف الله قريشا . . . ألا تلمح ـ معي ـ أن في حذف هذه الإضافة تلويحا بأن قريشا ـ بعبادتها الأوثان ـ تسند الإيلاف لغير الله لنفسها ، ظنا أو لأوثانها جهلا؟ .

---

(١) المصباح المنير : مادة (رحل)، ص٢٢٢ .

فمن رد أصحاب الفيل عن البيت؟ لا أنتم ولا أوثانكم ، وإنما بما أقررتم أن للبيت ربا يحميه ، وهنا لا تجد بدا من تعليق اللام بقصة الفيل ، فإنما ألفت قريش رحلة الشتاء والصيف لجوارهم البيت وخدمه ، وتكفل الله بوضع مهابة بيته في قلوب الناس أجمعين ، وذلك الحبشي نموذج لمغالبة هذه المهابة ، ومحاولة إذهابها من قلوب الناس بتسامعهم أمر ذلك الحبشي وكانت مهابتهم من مهابة هذا البيت ﴿ **فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ** ﴾ ..

لقد كان حتما ـ لما مضى ـ أن تختص السورة بهذه الإضافة التي تشير إلى صنيع الله بالبيت ، وتومئ إلى سبب الإيلاف ، وسبب أمن الخوف الذي بأمنه كانت الرحلة التي كان بها الشبع بعد الجوع .

وفي هذه الإضافة وجهان : **الأول :** «أنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها . . . . **الثاني :** لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب ، فذكر ذلك لهم تذكيرا بالنعمة»[1] .

قال ابن عاشور : «وأوثر إضافة (رب) إلى هذا البيت دون أن يقال : ربهم ، للإيماء إلى أن البيت هو أصل نعمة الإيلاف ، بأن أمر إبراهيم ببناء البيت الحرام ، فكان سببا لرفعة شأنهم بين العرب . . . وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت الحرام وفضله»[2] .

وقد كان «احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التي كانت تحتمى بها قريش في أسفار أرباب التجارة فيها ، ولهذا ألفت نفوسهم تلك الأسفار ... ولو نزلت مكانة البيت . . . لنفروا من تلك الرحلات ... وهذا الإجلال . . إنما هو من تسخير رب .. البيت ـ سبحانه ـ فإذا كانوا يعرفون أن هذا كله ، إنما هو فضل رب هذا البيت فلم يتوسلون إليـه بتعظيم غيـره؟»[3]

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٥٥١/١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٦٠/٣٠ .

(٣) جزء عم ص١٢٢ .

«وما قاله المخالفون هو توليد لكلمة السالفين ، فقد ذكر السالفون أن الإشارة تفيد التعظيم ، وأن تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة : «إن للبيت ربا يحميه»[1] مع تذكر ما قالوه من أن الإشارة هذه تومئ إلى قصة الفيل ، وتعين على القول بتعلق اللام في (لإيلاف) بالسورة الماضية .. أرأيت إلى هذه الإضافة وما أثرت من الدلالات ، وما بينها وبين الإيلاف من الاختلاف الظاهر؟ : ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفٍۭ﴾...

قال ابن عاشور في علة هذا الوصف «وأجرى وصف الرب بطريقة الموصول لما يؤذن به من التعليل للأمر بعبادة رب البيت الحرام بعلة أخرى ، زيادة على نعمة تيسير التجارة لهم»[2]. وقد ذكر قبل ذلك أنهم استغنوا بالتجارة ، لأنهم لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع ، وكان ذلك ـ عنده ـ وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف ، مع أن لله عليهم نعما كثيرة ، لأن حب الإيلاف كان سببا جامعا لأهم النعم التي بها قوام بقائهم»[3].

والذي أراه أن في إجراء هذا الموصول ـ مع ما ذكر ابن عاشور ـ فائدتين : إحداهما بجملة الصلة ـ والأخرى بالجملة المعطوفة عليها ، فالجملة الأولى كشفت عن أثر الإيلاف (الإطعام) وحالهم قبل الإيلاف بقوله ﴿مِّن جُوعٍ﴾ وكان بحسب النظم أن يقول ﴿أَطۡعَمَهُم﴾ لكن الإيلاف بدلالته يصور ما مضى وما هو كائن من حال قريش ، والعلماء يذكرون أن ﴿مِّن﴾ بمعنى بعد أي بعد جوع ، وهو متناسق مع دلالة الإيلاف ، أو البدلية ، لأن بلادهم تقتضي أن يكون أهلها في جوع ، فإطعامهم بدل الجوع ، الذي تقتضيه البلاد ، وهي لا تتنافى مع المعنى الماضي ،

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٦٩٣/٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٦١/٣٠ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ٥٦٠/٣٠ .

وتضيف إليه ثراء يناسب سياق النعمة ، أو أنها تعليلية أي أطعمهم بسبب الجوع ، وهو معنى معاند للسياق فكل يطعم بسبب الجوع ، فلا مزية لهذه النعمة على قريش ، وهو على غير ما تجري السورة على لاحبه وما قالوه في ﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ قالوه في ﴿ مِّنْ خَوْفٍ﴾ وزادوا أن ﴿ مِّنْ ﴾ في ﴿ مِّنْ خَوْفٍ﴾ للتعدية ، يقال : آمنه الله الخوف ومن الخوف[1] .

وقد ذكر الفخر أن ﴿ مِّن ﴾ في الموضعين بمعنى (عن) قال : ـ رحمه الله ـ «فإن قلت : لِمَ لَمْ يقل عن جوع وعن خوف؟ قلنا : لأن معنى عن أنه جعل الجوع بعيدا عنهم ، وهذا يقتضي أن يكون ذلك التبعيد مسبوقا بمقاساة الجوع زمانا ، ثم يصرفه عن و ﴿ مِّنْ ﴾ لا تقتضي ذلك ، بل معناه أنهم عندما يجوعون يطعمون ، وحين يخافون يؤمنون»[2].. وهو ناظر إلى سياق هذه المنة ، وغير متعاند مع ما مضى من معناها .

والجملة المعطوفة على جملة الصلة كشفت عن سبب إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وأرجو أن يكون تأخيرهما كاشفا عن معنى مؤداه : كيف لا يعبدونه لنعمة الإيلاف؟ لئن كان ذلك منهم احتقارا لها ، فهم ضالون ، إذ الإيلاف دليل الأمن ، فمن آمنهم؟ والارتحال سبيل طعامهم فمن آلفهم به؟ ذلك ما يؤدي إليه نسق التراكيب فيما يبدو لا سيما أن وسائل التعظيم بادية في تنكير الجوع والخوف ، من بعد جوع أي جوع؟ ومن بعد خوف أي خوف؟ فقد ذكر أهل العلم أن التنكير في الجوع والخوف لشدتهما[3] ويرى ابن عاشور أن «التنكير للنوعية لا للتعظيم

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٦٩٤/٨، ٦٩٥، والقرطبي ٧٥٥٢/١٠، ، غرائب القرآن ١٧٠/٤٠، والصاوي على الجلالين ٣٥٤/٤، والفتوحات الإلهية ٥٩٢/٤، والتحرير والتنوير ٥٦١/٣٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦٩٤/٨، ٦٩٥ .

(٣) راجع : الكشاف ٢٨٨/٤ .

وحجته في ذلك أنه لم يحل بهم جوع وخوف من قبل»[1] والتنكير قد يفيد التحقير ويكون المعنى : أنه ـ تعالى ـ لما لم يجوز ـ لغاية كرمه إبقاءهم في ذلك الجوع القليل والخوف القليل فكيف يجوز في كرمه ـ لو عبدوه ـ أن يهمل أمرهم ، ويحتمل أن يكون المراد أطعمهم من جوع دون جوع ، وآمنهم من خوف دون خوف[2].

وهو جار في التكليف في سياق المؤانسة ، ودلالته على التعظيم جارية في سياق الامتنان ، فهو حينئذ من وسائل إظهار المنة ، وبيان عظمها ، ثم إن في هاتين الجملتين إيماء بتخويف قريش بتعذيبها بإذاقتها لباس الجوع والخوف كما قال ربنا ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** ﴾ (النحل:١١٢) .

فسياق هاتين الجملتين يؤازر البيان عن نعمة الإيلاف ، وقد فسر الأئمة الخوف بأنه الخوف من الإغارة أو الجذام ، والصواب ـ كما قال أبو جعفر ـ رحمه الله ـ «أنه يعم كما عم ـ جل ثناؤه ـ فيقال : آمنهم من المعنيين كليهما»[3]..

هذا ما ساق إليه القول في الافتتاح بالتعليل ، والأمر كما رأيت من العلاقة بين مفردات السورة ، وبين تراكيبها وأحوال مبانيها .

فلله الحمد والمنّة ...

* * *

(١) راجع : التحرير والتنوير ٣٠/٥٦١ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٨/٦٩٥، وإرشاد العقل السليم ٨/٦٩٣، وغرائب القرآن ٣٠/١٧١ .

(٣) راجع : جامع البيان ٣٠/٢٠٠ .



الفصل الخامس

الافتتاح بالشرط في سورة الزلزلة

سبع سور في الذكر الحكيم افتتحن بالشرط أربع مكية وثلاث مدنية[1] والأداة في كل الافتتاحات (إذا) وموضوعها على تحقيق وقوع ما يليها ، وهي متقابلة في هذا الموضوع مع (إنْ) فإن موضوعها على الشك في وقوع ما يليها ، ولإذا معنيان الشرطية والظرفية ، وكونها كذلك اقتضى شيئين ذكر الشرط وجوابه ، وذكر حينه ، ويتوزع الحديث في هذين الاتجاهين ، وقد عقدت أواصر للكلام بإذا فالكلام يكون في حدث يقع لا محالة مسببا عن حدث يقع لا محالة أيضا في وقت آنٍ لا محالة أيضا .

وقد انتهى أحد أهل العلم إلى تحديد خصائص للمجموعة الشرطية مجملها أن في معظم هذه السور حديثا عن القيامة ومقدماتها مع ما اقترن به الحديث عنها عن أغراض لها بالمقام نسب ورحم ، نعم وكلهن كذلك عدا سورتي (المنافقون والنصر) .

(١) المكيات : الواقعة ، التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ، المدنيات : المنافقون ، الزلزلة ، النصر .

وأن الشرط فيها قد تردد كثيرا في السورة الواحدة ، وأن موضوعات السور السبع أمور مستقبلية في الغالب استقبالا حقيقيا ، أو استقبالا باعتبار الحكاية كمطلع سورة النصر ، وقد ذكر أن القيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها ـ والله أعلم ـ آثر القرآن افتتاح هذه السور بالشرط ، هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطا ملاحظا فيه ، ترتب المسبب على السبب فإذا ذكرت أداة الشرط ، وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون فإذا ذكر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق ، تمكن أيما تمكن ، والذي يزيد من هذه القيمة البيانية ـ والكلام للدكتور المطعني ـ لأسلوب الشرط في القرآن الكريم أمران : **الأول :** أن القرآن في غالب الفواتح من هذا النوع لا يكتفي بفعل شرط واحد ـ كما هو الحال في غيره ـ بل يقرن به أشباها ونظائر ، يطول تأمل السامع فيها ، وتضاعف من تشوقه إلى الجواب ، كلما انتقل من جزء إلى جزء ، فيأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب؟

الثاني : أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية ، قد لا يهتم بها إنسان ، أو ليس للوقوف على مدلولاتها كبير معنى ، أو ربما تنبأ ـ سلفا ـ بما سيكون عليه الحال ، فلا يفيد بها فائدة جديدة[1] .

والذي ينبغي التنبيه عليه ـ فيما نحن فيه ـ أن مطلع السورة يشكلهُ فعل الشرط وجوابه ، ولذا قد يطول مطلع السورة بطول الجمل المتعاطفة على الفعل والجواب واستخدام (إذا) في السور السبع في مطلعها بدلالتها

---

(١) انظر بتصرف : خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية ١/١٦٣ وما بعدها للدكتور عبد العظيم المطعني .

الظرفية إيماء إلى أن المذكور في المطلع ، هو الحين والظرف الذي يقع فيه المقصود ، وهو من المقصود بسبب كما ترى ، فإن النص على الحين والظرف ـ لا سيما إذا كان حينا مصحوبا بأحداث وأهوال تقشعر لها الأبدان ـ النص عليه حينئذ يكون حاثا على إنفاذ المقصد ، ويكون كالتوطئة والتمهيد له ، كما نرجو البيان عنه في سورة الزلزلة .

موقع السورة في الكتاب العزيز :

السورة الكريمة هي التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف الشريف ، والثالثة والتسعون في ترتيب النزول ، وقد وقعت في المصحف الشريف بين البينة والعاديات وقد وقعت البينة تتميما لسورة[1] القدر ، فقد جاءت كاشفة عن القرآن ومهمته ، والتي عظمت ليلة القدر بإنزاله فيها ، فقد وقعت سورة البينة كالعلة لسورة القدر ـ كما قال السيوطي رحمه[2] الله والناس قسمان تجاه هذه البينة التي أنزلت في ليلة القدر ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ** ﴾ (البينة:٦، ٧)، ويكونون كذلك حين تزلزل الأرض زلزالها كما يؤدي إليه كلام الفخر[3] ـ رحمه الله ، وقد دلت تراكيب السورتين على هذا التناسب بالتقارب بين آيتي البينة ، وآيتي الزلزلة ﴿ **فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ** ﴾ (لزلزلة:٧ ، ٨) .

ومع تناسب هذه السورة لسابقتها في ترتيب المصحف الشريف ، فإن

---

(١) راجع : البرهان لابن الزبير ص٢٣٦ .

(٢) راجع تناسق الدرر ص١٥٥ .

(٣) راجع : مفاتيح الغيب ٦٥٣/٨، والبرهان لابن الزبير ص٢٣٧ .

لها تناسبا ظاهرا في ترتيب النزول أيضا ، فقد أعقبت النساء في النزول ، وعمود سورة النساء التواصل والائتلاف ، لذا اشتملت على صلات الأرحام ، وروابط الأسر كما بيناه في موضعه[١] ، والزلزلة على التشتيت والتفرق ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ فتقابلت الزلزلة مع النساء تقابلا ظاهرا ، لأن اليومين متقابلان يوم الدنيا ويوم الآخرة ، فسبحان من أنزله ولله نوره! .

وتلي سورة العاديات سورة الزلزلة ، وفي العاديات حديث عن التشتيت والتفرق بالغارة والقتال في الدنيا ، يتقابل مع حديث التفرق في الآخرة في سورة الزلزلة ، وتجد أهل العلم يفسرون الخير بالمال في العاديات ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وهو متناسب مع ما ختمت به الزلزلة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . . . ﴾ ، وترى قوله : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ في العاديات متناسبا مع قوله في الزلزلة : ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ عند من فسر الأثقال بالموتى ، وترى قوله : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ في العاديات متناسبا مع قوله في الزلزلة : ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ وهكذا ترى التناسب بينا ، ومن المحال وضع سورة أخرى : في موضع العاديات عقب الزلزلة[٢].

مقصد السورة :

يقول البقاعي : ـ رحمه الله ـ ناظرا إلى جملة الشرط وجوابه ، وما ختمت به السورة وإلى اسمها «ومقصودها : انكشاف الأمور ، وظهور المقدور أتم ظهور ، وانقسام الناس في الجزاء في دار البقاء إلى سعادة وشقاء وفي ذلك دل اسمها بتأمل الظرف ومظروفه»[٣] وبعبارة أوضح

(١) راجع : سورة النساء من هذا البحث الفصل الأول من الباب الرابع .

(٢) راجع : سورة العاديات من هذا البحث الفصل الرابع من الباب الرابع .

(٣) مصاعد النظر ٢٣١/٣ .

مقصد هذه السورة ـ إن شاء الله ـ انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء عقب انكشاف الأمور وترى هذا المقصود متقاربا مع مقصد سورة الواقعة ، فهي حديث عن انقسام الناس إلى أزواج ثلاثة عقب الواقعة ، ألا ترى تقارب الشرط في الافتتاح هنا مع الشرط المبدل من شرط الافتتاح في الواقعة ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ (الواقعة:٤،٥) كأن الزلزلة تلخيص للواقعة ، وكأن الظرف الذي تقع فيه الزلزلة غير الظرف الذي تقع فيه الرجة المهم أن تقارب تراكيب المطالع ، أدى إلى تقارب تراكيب المقاصد ، أو أن تراكيب المقاصد هي التي أدت إلى تقارب تراكيب المطالع أنت تحار إلا أنك لا تستطيع أن تقول هناهنا : إذا رجت الأرض رجها ، وتقول هناك : إذا زلزلت الأرض زلزالا وذلك لأمر ظاهر ، هو أن قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ﴾ جاء إثر قوله ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ فكأن الرج جاء أثرا للوقوع ، وكأن استخدامات القرآن تقول : لا يصلح أن يكون الزلزال أثرا للوقوع ، لذا جاء مضافا هاهنا «زلزالها» ولم يأت الرج مضافا للأرض في الواقعة ، وقد نتج عن الزلزلة أن أخرجت الأرض أثقالها ، ونتج عن الرجة أن بُسّت الجبال بسا ، فهذا حين ـ فيما يبدو فالله أعلم ـ وذلك حين ، يتأيد ذلك بإضافة المصدر إلى الأرض في سورة الزلزلة كما سيأتي .

مطالع السورة :

قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾

(الزلزلة١-٥) .

ذلك هو حين انقسام الناس ، وقد جاءت تراكيب المطلع على ما اقتضاه المقصود ، وقد افتتحت السورة بظرف الزمان ، وطالت إضافة



الجمل إليه ، تشويقا إلى متعلق الظرف كما يقول ابن عاشور[١] وفي مجيء الظرف في صدر السورة أيضا إيماء إلى أن ما يذكر بعده ليس مقصودا أصليا للسورة ، وإنما هو عنصر في البيان عنه ، ولما كان موقعه من مقصود السورة كذلك ، جاءت تراكيبه على نسق تراكيب المقصود ـ فقد استخدم (إذا) وموضوعها على تحقيق وقوع ما بعدها ، وتأيد ذلك بوقوع الشرط فعلا ماضيا في الخبر ، مع أنه مستقبل في الواقع ، وفي ذلك إيماء إلى تحقق الوقوع ، وكأنه أمر صارف إلى استبيان ما بعد هذا الأمر الواقع (وهو المقصود) ، فالداعي إلى استخدام هذا الأسلوب ليس أمرا خارجيا فيما يقول الفخر في تعليله[٢] للبدء به ، من أنهم كانوا يسألونه متى الساعة؟ فقال : ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ**. . .﴾ ، نعم يقبل توجيهه بأنه جواب لسؤال الكلف عن وقت تحديث الأرض مع أنها جماد ، وقد علل ابن عاشور للبدء بالظرف ، بأنه كناية عن تحقيق وقوع الموقت[٣] وإنما أداه إلى ذلك استخدام (إذا) في مطلع السورة . التي تدل على الشرط والظرفية والمباغتة .

وفي بناء الفعل ﴿ **زُلْزِلَتِ** ﴾ للمفعول إيماء إلى توجيه العناية بالحدث دون النظر إلى محدثه ، وذلك يعكس تهويلا للفعل ، يساعد هذا التهويل على بيان المقصود وهذه ظاهرة بيانية مطردة قل أن نخطئها في أحداث اليوم الآخر كما تقول : الدكتورة عائشة عبد الرحمن[٤] ، لا سيما إذا

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٤٩٠/٣٠ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٦٠٣/٨ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٤٩٠/٣٠ .

(٤) راجع : التفسير البيانى ٨٠/١، ٨١، الدكتورة عائشة عبد الرحمن ط . خامسة ، دار المعارف ١٩٧٧م .

ضممنا إليها الدلالة اللغوية لـ(زلزل) أي حركت تحريكا عنيفا متكررا متداركا كما يقول أبو السعود[1] أو حركت حركة شديدة ، أو المراد تحركت واضطربت ، والدليل عليه أنه تعالى يخبر عنها في جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر ، لأن هذا أدخل في التهويل[2] وهو كما ترى ناظر إلى سياق السورة في استنباط الدلالة ، وذلك إيماء من أعيان العلماء إلى أن المطلع جاء على نسق تراكيب السورة .

وربما يغريك بتقبل هذا القول ما اختلفوا فيه من وقت وقوع الزلزلة فالأكثرون على وقوعها في الدنيا ، وأنها من أشراط الساعة ، والأقلون على وقوعها في الآخرة ، وانتصر الأقلون لمذهبهم بتعقيبها بقوله : ﴿ **وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ فإن الإخراج إنما هو في النفخة الثانية ، وكذلك انصراف الناس من الموقف إنما يكون بعد الثانية[3] فسياق السورة كان مناط انتصارهم .

وذهب غيرهم إلى أن الزلزلة تقع مرتين واستدلوا لذلك بقوله : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ** ﴾[4] (النازعات:٦ ، ٧) وهو قول ابن عباس فيما ذكر أهل العلم وتصاعدت دلالات تهويل الحدث بنسبة المصدر إلى الأرض ﴿ **زِلْزَالَهَا** ﴾ علل الزمخشري لهذه الإضافة فقال : « فإن قلت : ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلت : معناه زلزالها الذي تستوجبه الحكمة ، وهو مشيئة الله ، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده . . . أو زلزالها كله ،

---

(١) انظر : إرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٦٥٤/٨ .

(٣) راجع : الفتوحات الإلهية ٥٧٢/٤، والصاوي على الجلالين ٣٤١/٤ .

(٤) راجع : جامع البيان ١٧١/٣٠، والجامع لأحكام القرآن ٧٤٨٧/١٠ .

وجميع ما هو ممكن منه»[1] أو «زلزالها العجيب الذي لا يقادر قدره»[2] وتضعيف الفعل يدل على شدته، «لأن فعل زلزل مأخوذ من الزلل، وهو زلق الرجلين فلما عنوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل»[3] هذا ما تفيده الصيغة، وقد جاء هذا الفعل بدلالته مسندا إلى الأرض مرتين الأولى بالفعل والثانية بالمصدر، قال ابن عاشور: «وأضيف ﴿ **زِلۡزَالَهَا** ﴾ إلى ضمير الأرض لإفادة تمكنه منه وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها، لكثرة اتصاله بها»[4] وقد أضاف جناس الاشتقاق فوق ذلك زلزالا في التنغيم الصوتي يتلاءم مع دلالة الجملة (زلزلت ـ زلزالها) وكل ذلك يتعاون في بيان حين التفريق والتشتيت ﴿ **يَوۡمَئِذٍ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتًا** ﴾ ذلك اللفظ الذي لم يرد في غير السورة الكريمة، وقد وقعت مادة (زلزل) أربع مرات في الذكر الحكيم (البقرة ٢١٤، الحج ١، الأحزاب ١١، ١١) ومرتين هنا إلا أنها لم تضف إلى الأرض كما هنا وفي ذلك اتساق «مع التلقائية الملحوظة في هذه الآية، وما بعدها من إخراج الأرض أثقالها، وتحدثها أخبارها، وفيها أيضا لفت إلى المعهود والمعروف من الزلزلة[5]، ثم إن في إضافة المصدر إليها إيماء إلى غضبها، ولهذا الغضب أثر، هو إخراجها أثقالها، نعم تطول الجمل ولكن في تصاعد بالغ بالحدث حتى ذروته.

---

(١) الكشاف ٢٧٥/٤، ٢٧٦.

(٢) إرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨.

(٣) التحرير والتنوير ٤٩٠/٣٠.

(٤) السابق ٤٩١/٣٠.

(٥) التفسير البيانى ٨٣/١.

﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾

والآية أثر لما تدل عليه الآية الماضية ، وقد ذكروا أن أثقالها : الموتى الذين هم في بطنها ، أو أن أثقالها كنوزها ، احتجاجا ببيان النبوة « تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل ، فيقول في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ويجيء السارق ، فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا[1] ولا تعارض إن شاء الله فإنما تغضب الأرض على من لم يطع ربه ، وعلى سبب عصيانه وهو الكنوز .

كأنما تنفث الأرض عن صدرها ، وقد طال غضبها وطال مع ذلك كتمانها ، وقد كان ثقلا عظيما ، وقد أعلى من إظهار الغضب الإظهار في مقام الإضمار ﴿ وَأَخْرَجَتِ ﴾ وهو خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، وقد وقع « لزيادة التقرير ، أو للإيماء إلى تبديل الأرض غير الأرض ، أو لأن إخراج الأثقال حال بعض أجزائها »[2] وإخراج الأرض أثقالها بالاندفاع للتخلص من الثقل الباهظ[3] ، كما يشهد له قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ (الانشقاق:٣ ، ٤) ثم إن هذه الآية ، وما توحي به من غضب الأرض والغاضب يلقي بالشيء على غير نظام ، تتناسب مع قوله ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ في السورة الكريمة والأثقال تتناسب مع ذلك

(١) راجع : جامع البيان ١٧١/٣٠، والكشاف ٢٧٦/٤، والجامع لأحكام القرآن ٧٤٨٨/١٠، وتفسير ابن كثير ٥٣٩/٤، ومفاتيح الغيب ٦٥٤/٨، والبيضاوي ٥٧١/٢، وإرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨، والصاوي على الجلالين ٣٤٢/٤، والفتوحات ٥٧٢/٤، والتحرير والتنوير ٤٩١/٣٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٦٥٣/٨، ٦٥٤ .

(٣) راجع : التفسير البياني ٨٥/١ .

أيضا ، وتتناسب مع ما قبلها من الاهتمام ببيان الحدث وتأتي الآية التالية كاشفة أثر ذلك على الإنسان .

﴿ وَقَالَ ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴾ .

لا ريب يفسر العلماء مفردات السورة بما يلائم سياقها ، لذا ذكر بعضهم أن المراد بالإنسان الكافر ، وهؤلاء ينظرون إلى ما توحي به الجملتان الأوليان من الغضب الظاهر للأرض ، وبيان السنة والقرآن قاضيان بغضب ظواهر الكون على العصاة ﴿ **فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ** ﴾ (الدخان:٢٩) وقال آخرون اللام للجنس أي كل إنسان[١] وهو قول من جعل الزلزلة في الدنيا من أشراط الساعة ، والقول الأول قول من جعلها في الآخرة .

والاستفهام خرج إلى المجاز ، وهو استفهام تعجبي استعظاما لما شاهدوه من الأمر الهائل ، أو استفهام إنكاري تعجبي ، فإن المدهوش قد ينكر الشيء ، ولذلك أثره في الدلالة على هول الحدث ، واستغلاق الأمر على الإنسان حينئذ . وهو متناسق مع سياق السورة[٢] ، ولو قال ما أعظم حالها أو غير ذلك لما تناسب مع النسق السابق واللاحق ، وإنما كان ذلك يدل على أن أمرها لم يتغير تغيرا بالغا يقتضي أن يذكر الخبر بالأسلوب المعهود .

﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ .

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٦٥٤/٨، ٦٥٥، والقرطبى ٤٧٨٨/١٠، والبيضاوي ٥٧١/٢ .

(٢) راجع : في دلالة هذا الاستفهام مفاتيح الغيب ٦٥٥/٨، والقرطبي ٧٤٨٨/١٠، وأبو السعود ٦٥٤/٨، وابن كثير ٥٣٩/٤، والجلالين ٥٧١/٢ بهامش البيضاوي والفتوحات الإلهية ٥٧٣/٤، والتفسير البياني ٨٦/١ .

مجيء (إذ) منونة هاهنا معلم لفظي لمعاقد الكلام ، ولفت إلى الجمل السابقة لفهم المعنى ، ونمط الكلام بغير قوله : يومئذ (إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زلزالها تحدث أخبارها) ، فالجملة هي جواب الشرط الذي تصدر السورة الكريمة ، وكأن مجيء إذ لفت إلى استحضار الهول الماضي في الشرط ، قبل الإلقاء بالجواب « فالتنوين عوض عن الجمل الثلاث المذكورة بعد إذا »[(١)] ويومئذ بدل من إذا « فالعامل فيه هو العامل في المبدل منه »[(٢)].

واختلفوا في التحديث قال أبو السعود : « تحدث الخلق أخبارها إما بلسان الحال حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها وإما بلسان المقال حيث ينطقها الله تعالى فتخبر بما عمل عليها من شر »[(٣)] .

ويؤيد الثاني ما صح عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية ثم قال : « أتدرون ما أخبارها؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ـ قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها » قال الترمذي حديث حسن صحيح[(٤)] .

وذلك متلائم مع ما تصور التراكيب الماضية من غضب الأرض ، ويؤيده ما جاء بعده من قوله : ﴿ **بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا** ﴾ وما يومئ إليه حذف أحد مفعولي (تحدث) والأصل تحدث الخلق أخبارها « إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيما لليوم »[(٥)] والأمور

(١) الصاوي على الجلالين ٤/٣٤٢ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٤/٥٧٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٨/٦٥٤، وهو ملخص ما دار حوله كلام الأئمة .

(٤) ابن كثير ٤/٥٣٩ .

(٥) راجع : الكشاف ٤/٢٧٦، مفاتيح الغيب ٨/٦٥٥ .

حينئذ جارية على الحقيقة فكأن الآية من تتميم نفثة الأرض ، التي أذن الله لها فتزلزلت وأخرجت أثقالها وقد أعقبتها الآية التي تدفع المجاز عنها .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ .

« أي أنها تحدث أخبارها بوحي الله »[1] فالباء على ذلك سببية ولله در البيضاوي في قوله : « إذ لها في ذلك تشف من العصاة »[2] وكلامه يومئ إلى مناسبة الآية لما قبلها ، وهي متعلقة بقوله : (تحدث) في أحد قولي جار الله وأبي السعود[3] .

« وإنما عدل عن فعل قال لها إلى فعل ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ لأنه حكاية عن تكوين لا عن قول لفظي »[4] وبعد الحديث عن هول اليوم وحديث الأرض ، وانكشاف كل الأمور ، وإخراج المدفون ﴿ أَثْقَالَهَا ﴾ يأتي انقسام الناس .

آيات انقسام الناس وعلاقتها بالمطلع :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ .

وقد جاءت (إذ) بدورها لعقد الكلام بما مضى من سياق السورة ، فهي ناظرة إلى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ لأنها بدل منها ، والأخرى بدورها ناظرة إلى المطلع وما استتبع ، بل إن هذه الجملة هي جواب الشرط عند ابن عاشور

---

(١) جامع البيان ١٧٢/٣٠، القرطبي ٧٤٩٠/١٠ .

(٢) أنوار التنزيل ٥٧١/٢ .

(٣) راجع : الكشاف ٢٧٦/٤، وإرشاد العقل السليم ٦٥٥/٨، والتحرير والتنوير ٤٩٢/٣٠، ٤٩٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٩٣/٣٠ أي من أمر (كن) .

أرأيت إلى قوله عند قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ «وجملة ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ جواب إذا باعتبار ما أبدل منها من قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ ﴾ فيومئذ بدل من ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ »[١].

ومهمة إذ قائمة سواء أكانت بدلاً من ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ ، أو كان ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ منصوبا بمصدر ، أو باذكر مقدّرا[٢] ، وهذه الآية هي التي انتصر بها القائلون بأن الزلزلة تقع بعد النفخة الثانية ، لذا كان معنى يصدر عندهم «يرجعون عن الحساب . . . فكأنهم وردوا القبور ، فدفنوا فيها ، ثم صدروا عنها»[٣] وفي التعبير بصدر استعارة حيث «أطلق هنا فعل (يصدر) على خروج الناس إلى الحشر جماعات ، أو انصرافهم من المحشر إلى مآويهم من الجنة أو النار ، تشبيها بانصراف الناس عن الماء بعد الورود»[٤].

وتفسر الدكتورة عائشة عبد الرحمن الصدر في السورة بنقيض الورد تعلل فتقول : «لأن في ربطهما سر الدلالة الموحية بأن الحياة الدنيا ليست بدار مقام ، وإنما هي رحلة نجتازها ، ولا بد من تأمين طريق العودة والصدر ، ولا يمكن أن يغني من يصدر في هذا الموقف أي لفظ آخر ، أو يقوم مقامه إذ تتمثل لهم به الدنيا موردا يجب أن يؤمنوا الصدر عنه»[٥].

وأرى أن هذا الفعل متناغم مع تعجب الإنسان من حال الإنكار ، لأنه حينئذ يتذكر أعماله في الدنيا ، فكأنه الورد له ، فلئن كانت خيرا فلقد صدر

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩٢/٣٠ .

(٢) راجع : الفتوحات الإسلامية ٥٧٣/٤، والصاوي ٣٤٢/٤ .

(٣) القرطبي ٧٤٩٠/١٠، ٧٤٩١ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٩٣/٣٠ .

(٥) التفسير البياني ٩٣/١ .

عن ري ، ولئن كانت غير ذلك ، فلقد صدر عن ظمأ ، ألا ترى أن ما مضى من الأهوال يعين على ذلك ، وأن ما يأتي من التقسيم يعين عليه أيضا ، ولم يأت هذا الفعل إلا في سورة القصص الآية (٢٣) في قصة ابنتي شعيب ودلالته هناك ظاهرة ، وهاهنا دلالته مترجمة عما يجري فيه السياق من الأهوال الموجبة الظمأ إلى ذرة الخير ، ويعين على هذه الدلالة أيضا هذا الحال (أشتاتا) فكل قد تفرق باحثا ومتذكرا ذرات خيره وذرات شره ، ولم تأت أشتاتا إلا في هذا الموضع ، وهي متناغمة مع فعل الشرط في الآية الأولى وما عطف عليها كما ذكرنا ، والرؤية يجوز أن تكون بصرية ، ويجوز أن تكون علمية بمعنى رؤية جزائهم ، وذلك من ثراء التعبير القرآني ، فهم عندما يرون أعمالهم يعرفون جزاءهم ، وهم عندما يرون جزاءهم يعرفون أعمالهم ، والملحوظ أن الفعل (ليروا) جاء مبنيا للمجهول ، وفي ذلك توجيه للاهتمام بالحدث .

أرأيت إلى تعليق هذا الفعل بلام التعليل ، وكيف جعل كل ما مضى من السياق ، ومن صدور الناس سببا في رؤيتهم أعمالهم ، وجعل رؤية أعمالهم مسببا ، جريا على نسق المطلع في ترتب المسبب على السبب بين فعل الشرط وجزائه[١] .

وينقل أبو جعفر نسقا آخر لهذه الآية وما مثلها يقول : «وقوله : (يومئذ يصدر) : قيل : إن معنى هذه الكلمة التأخير ، والتقدير : ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشتاتا قالوا : ولكنه اعترض بين ذلك بهذه الكلمة ، ومعنى قوله : يومئذ يصدر الناس أشتاتا عن موقف الحساب فرقا متفرقين»[٢] ، وقوة أواصر الجمل في السورة ، هو الذي أدى إلى هذا ،

(١) أرجو أن تكون على ذكر من أن ما نكتبه مستفاد من كلام أهل العلم من المراجع المذكورة في ذيل ما مضى من الصفحات .
(٢) جامع البيان ٧٢/٣٠ .



والملحوظ أنه أضاف الأعمال إليهم وفي ذلك تناسب مع معنى صدر ، فهي مناط وردهم الذي عنه يصدرون والتعبير بذرات الخير وذرات الشر يساعد على ذلك أيضا ، ويصور مدى ظمئهم إلى أعمالهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وقعت هاتان الآيتان تفصيلا لما قبلهما ، والفاء فاء السببية ، نقل الشيخ الجمل ما يؤدي إلى ذلك فقال : أو صادرين عن الموقف كل إلى داره ، ليرى جزاء عمله ، ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلا للجملة التي قبله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ...﴾ »(١) أو الفاء فاء التفريع ، قال ابن عاشور : « تفريع على قوله : ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ تفريع الفذلكة ، انتقالا للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء ، والتفريع قاض بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتا »(٢) واستخدام أسلوب الشرط ، جار في نسق مطلع السورة ، أو نسق مطلع السورة جار هو فيه ، وفيه من ترتب المسبب على السبب ما في المطلع ، واستخدام الذرة متناسب مع الزلزلة ، ومع إخراج الأرض أثقالها ، ومع أشتاتا ، فنسق السورة جار في التشتت والتفرق ، وقد اجتهدوا في بيان معنى (الذرة) حتى بلغوا أن الذرة لا زنة لها ، والظاهر أن المقصود من هذا اللفظ خفة الوزن ، وذلك متناسق مع استخدام يصدر فيما مضى ، ومتشارب من سياق المطلع ودهشة الإنسان لما يرى من الأهوال ، حتى يبعثه ذلك إلى رؤية ذرات خيره ، والجد في الهرب من ذرات شره ، وقد ظهر أن قطب مقصود السورة قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ والآيتان الأخريان

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥٧٤/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٤٩٤/٣٠ .

آيتان جامعتان فاذتان ، فيما وصف النبي ﷺ كما في الموطأ وقال عنها ابن مسعود : هذه أحكم آية في القرآن ، وقد ذكروا أن صعصعة جد الفرزدق قدم على النبي ﷺ يستقرئه القرآن ، فقرأ عليه هذه الآية ، فقال صعصعة : حسبي فقد انتهت الموعظة لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها ، وفيهما قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، وذلك دال على اصطحابهم سياق السورة كلها ، وقد وصف النبي ﷺ السورة بأنها سورة جامعة فيما طلب إليه رجل «أقرئنى يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه إذا زلزلت الأرض .....»[1].

وقد بنيت هاتان الآيتان على أسلوب المقابلة ، وهو متناسب مع أشتاتا الماضي الذي هو قيد في ﴿ **يَصْدُرُ** ﴾ وترى قوله : ﴿ **مِثْقَالَ** ﴾ يتناسب مع ﴿ **أَثْقَالَهَا** ﴾ وليس قوله : ﴿ **يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا** . . . ﴾ تكرارا يقول الكرماني : « قوله : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا** . . .﴾ وأعاده مرة أخرى ليس بتكرار ، لأن الأول متصل بقوله : ﴿ **خَيْرًا يَرَهُۥ** ﴾ والثاني : متصل بقوله : ﴿ **شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾[2].

والآيتان بنيتا على أسلوب الشرط شأن المطلع ، وتشاربتا من دلالته وكأنهما نتيجتا زلزلة الأرض وإخراجها الأثقال وقد شاع أسلوب الشرط في السورة الكريمة تناسبا مع المطلع . فالله أعلم .

* * *

---

(١) انظر بتصرف : الكشاف ٢٧٦/٤، والقرطبي ٧٤٩١/١٠، والفتوحات ٥٧٤/٤، والبيضاوي ٥٧١/٢، والصاوي ٣٤٢/٤، وابن كثير ٥٤١/٤، والتحرير والتنوير ٤٩٤/٣٠، ٤٩٥، والتفسير البياني ٩٧/١ .

(٢) البرهان للكرماني ، ص٢٣٣ .



الباب الرابع

السور المفتتحة بالجملة الإنشائية وعلاقاتها بمقاصدها

- **الفصل الأول : الافتتاح بالنداء في سور : –**
« النساء ، المائدة ، الحج »

- **الفصل الثاني : الافتتاح بالأمر في سور : –**
« الإخلاص ـ الفلق ـ الناس »

- **الفصل الثالث : « الافتتاح بالاستفهام في سورة الماعون »**

- **الفصل الرابع : « الافتتاح بالقسم في سورة والعاديات »**

الفصل الأول

الافتتاح بالنداء
سورة النساء

استوقف مطلع سورة النساء علماءنا ، فحررت أياديهم بيانا كاشفا عن خطورة هذا الدرس في القرآن الكريم ، وكثر كلامهم في الحديث عن مطلع هذه السورة كثرة غير معهودة في سائر سور الذكر الحكيم عدا سورة الفاتحة ، ولعل ذلك يرجع إلى وضوح العلاقة بين فاتحة سورة النساء ومقصودها .

وبعد استقراء كلام الأئمة تبين لنا أن مطلع سورة النساء هو قوله تعالى : **﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾** (النساء: ١).

وقد تأول محمد بن جرير معنى قوله : **﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم . . . ﴾** بما يناسب ما اشتملت عليه السورة فقال : «احذروا أيها الناس ربكم في أن تخالفوه فيما أمركم ، وفيما نهاكم ، فيحل بكم من

عقوبته ما لا قبل لكم به ، ثم وصف ـ تعالى ذكره ـ نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد ، وعرف عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة ، ونبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة ، وأن بعضهم من بعض ، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة ، وإن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض ، وإن بعد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم ، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى »[1] .

وكانت كلمة جار الله أنفذ وأوضح في موضوع دراستنا . فقد استشكل ـ رحمه الله ـ ورود قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ عقيب الأمر بالتقوى فقال : « فإن قلت : الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته ، أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبا للتقوى وداعيا إليها؟ قلت : لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على نحوه كان قادرا على كل شيء ، ومن المقدورات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ، ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم ... أو أراد بالتقوى تقوى خاصة ، وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة ، فيما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه ، وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة »[2].

---

(١) جامع البيان ٤/١٤٩ .

(٢) الكشاف ١/٤٩٢، ٤٩٣ .



وقد كانت كلمته الأخيرة هذه من أصرح المقالات في بيان المناسبة بين مطلع السورة ومقصودها . وقد حرر البيضاوي عبارة الزمخشري في قوله : « وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة ، التي من حقها أن تخشى ، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها ، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله ، وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها »[١] .

وهذه العبارة تلخيص دقيق لعبارة جار الله العلامة ، وقد استظهره السيد محمود شكرى الألوسي موازنا إياه بالمعنى الأول قال ـ رحمه الله ـ « وأما الاتقاء في الإخلال بما يجب حفظه من الحقوق فيما بين العباد ، وهذا المعنى مطابق لما في السورة من رعاية حال الأيتام ، وصلة الأرحام ، والعدل في النكاح والإرث ونحو ذلك بالخصوص ، بخلاف الأول ، فإنه إنما يطابقها من حيث العموم ، وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ما لا يخفى من تأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال »[٢] .

وقد اتخذ الحديث عن مطلع هذه السورة ـ بعد تأويل الطبري وتصريح الزمخشري ، وتلخيص البيضاوي ـ طورا آخر على يد ابن الزبير ـ رحمه الله ـ فيما قاله ـ بعد بيان مناسبة سورة النساء لما قبلها ـ « وتضمنت السورة ابتداء الأمر وانتهاءه ، فأعلمنا بكيفية التناكح ، وصورة الاعتصام ، واحترام بعضنا لبعض ، وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق ، وبين لنا ما ينكح وما لا ينكح وما أبيح من العدد وحكم من لم

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/٢٠٢ .

(٢) روح المعاني ٢/١٨٠ .

يجد الطول ، وما يتعلق بهذا إلى المواريث ، وفصل ذلك كله إلا الطلاق ، لأن أحكامه قد تقدمت ، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ، ورعى حقوق ذوى الأرحام ، وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوب علينا وناسب هذا المقصود ـ من التواصل والألفة ـ ما افتتحت به السورة من قوله : ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فافتتحت بالالتئام والوصلة ، ولهذا خصت من حكم تشاجر الزوجين بالإعلام بصورة الإصلاح والمعدلة[1] ، إبقاء لذلك التواصل ، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع هنا له ذكر إلا إيماء في قوله : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ولكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة ، ويدق ذلك ويغمض ، لذلك تكرر كثيرا في هذه السورة الأمر بالاتقاء ، وبه افتتحت ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ... ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ . . . ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ثم حذروا من حال من صمم على الكفر ، وحال اليهود والنصارى والمنافقين وذوي التقلب في الأديان بعدا عن اليقين ، وكل ذلك تأكيد لما أمروا به من الاتقاء والتحمت الآي إلى الختم بالكلالة في المواريث المتقدمة[2] .

وكلام ابن الزبير ـ رحمه الله ـ يقتضينا دراسة تراكيب المعاني التي تضمنتها هذه السورة ، ومناسبتها لتراكيب ما افتتحت به السورة ، وهو الأمر الذي يظهر لنا خصائص البيان في هذه السورة ، وفي سائر سور القرآن الكريم ، والذي يتنبه إلى مقصود السورة يتبين كثيرا من أسرار

---

(١) هذا اللفظ في البرهان لابن الزبير ويبدو أن الأصح ما جاء في نظم الدرر نقلا عن ابن الزبير (والعدالة) انظر : نظم الدرر ٥/٢٧٤ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص٨٧ .



تراكيبها ، وينكشف له سر مشتبه نظمها ، وترابط موضوعها الأصلي الذي هو هنا (التواصل والائتلاف) والذي يجعله مطلعها ثم تفصله السورة بعد ، وقد انتفع البقاعي بمقالة ابن الزبير ، وكشف عن علل بعض التراكيب بمطلع السورة ومقصودها ، اللذين يطويان أسرار النظم في كل من سور القرآن الكريم وقد بث مقالة ابن الزبير في نظم الدرر ووزعها على مواضعها مما اقتضانا أيضا ـ تأثرا للسلف ومحاولة لاستكشاف مدب أقدامهم في توليد أفكار أسلافهم ـ أن نترك الحديث عن مقالات البقاعي إلى محاولة إبراز نماذج لبيان علاقة بعض التركيب بمطلع السورة . . . وذلك بعد إجمال مقالات العلماء في مطلع السورة .

وقد نبه بدر الدين الزركشي ـ نقلا عن بعض الأئمة ـ إلى بيان العلاقة فقال : « وأما سورة النساء فتتضمن جميع أحكام الأسباب التي بين الناس ، وهي نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم ، كالنسب والصهر ، ولهذا افتتحها الله بقوله : ﴿ **رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم** . . . ﴾ »[1] .

وقد علق جلال الدين السيوطي على هذه العبارة بعد نقلها فقال :

« فانظر إلى هذه المناسبة العجيبة والافتتاح ، وبراعة الاستهلال حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما في أكثر السورة من أحكام . . . »[2] هي إذن علاقة الإجمال والتفصيل شأن السورتين السابقتين على هذه السورة الكريمة .

والبقاعي يرسي مقصود السورة أولا ، ثم يبني على ما أرساه استبصاره لكثير من تراكيبها ، وبيان مناسبة موضوعاتها يقول ـ رحمه الله ـ في سورة

(١) البرهان في علوم القرآن ١/٢٦١ .

(٢) الإتقان ٢/١٤٣، وتناسق الدرر ، ص٧٦، ٧٧ .

النساء : «ومقصودها : الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه سورة آل عمران ، والكتاب الذي هدت إليه سورة البقرة . . . ولما كان مقصودها الاجتماع ، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام . . . التي مدارها النساء سميت سورة النساء لذلك ، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العظة والعدل الذي لبابه التوحيد . . .»[1] .

ثم بين في نظم الدرر أن هذا المقصود الذي بينه جاء في صدر السورة فقال : «ولما كان المقصود من هذه السورة المواصلة وصف نفسه المقدسة بما يشير إلى ذلك فقال : ﴿ **ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ** ﴾»[2] . . . وكان مطبقا لما قاله ـ رحمه الله ـ في بعض المواطن بما سنذكره في موضعه إن شاء الله .

وتبين الإمام محمد عبده العلاقة مهتديا ببصائر السابقين فقال : «افتتح ـ سبحانه ـ السورة بتذكير الناس المخاطبين بأنهم من نفس واحدة ، فكان هذا تمهيدا وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام القرابة بالنسب والمصاهرة ، وما يتعلق بذلك من أحكام الأنكحة والمواريث ، فبين القرابة العامة بالإجمال ، ثم ذكر الأرحام ، وشرع بعد ذلك في تفصيل الأحكام المتعلقة بها»[3] . . . وكلامه ـ يرحمه الله ـ ثمرة تدبره لبناء المعنى في صدر هذه السورة كما سنفصله عند حديثنا عن المطلع .

وتستوقف الصلة في قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ** ﴾ العلامة ابن عاشور فيقول : «وفي هذه الصلة براعة استهلال مناسبة لما اشتملت عليه

---

(١) مصاعد النظر ٢/٨٨، ٨٩ .

(٢) نظم الدرر ٥/١٧٥ .

(٣) تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار ٢/٤٦٤ .

السورة من الأغراض الأصلية ، فكانت بمنزلة الديباجة»[1] وكلامه ينبهنا إلى أن المناسبة بين مطلع السورة وما فيها إنما تكون بين الأغراض الأصلية والمطلع والمعاني الأخرى تأتي مقتضيات للأغراض الأصلية .

وللشيخ عبد المتعال الصعيدي كلمة قريبة في هذا المطلع يقول : «وقد ابتدئت هذه السورة بآية كبراعة مطلع لما جاء بعدها من أحكام»[2] .

وذكر الدكتور أحمد بدوي أن سورة النساء «قد تحدثت عن أحكامهن في الزواج والميراث ، فكان من أجمل براعة الاستهلال قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ألا ترى في خلق المرأة من زوجها ما يوحي بالرفق ، والحنان الذي يجب أن تعامل به المرأة ، فلا يبخس حقها زوجة أو أما أو بنتا ، وفي الحديث عن تقوى الأرحام هنا إشارة إلى أن السورة ستعالج بعض أمورهم أيضا ورثة يتامى»[3] .

والملمح اللطيف الذي يعزى إلى الدكتور أحمد بدوي ما نبه إليه من فائدة هذه الجملة ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ وبوسعنا أن نربط بهذه الجملة كثيرا من التراكيب التي تعد من خصائص هذه السورة ، وكما رأينا قد اتسع القول في مطلع هذه السورة بل جعل الأستاذ سيد قطب مطلع هذه السورة أصلا كبيرا تقام عليه كل تكاليف التكامل الواردة في السورة ، وكان ذاكرا ما أسسه من هذا القول خلال معالجته للسورة[4] .

واهتداء ببصائر الأئمة في تدبر تراكيب هذا المطلع نحاول بيان علاقته

---

(١) التحرير والتنوير ، النساء ص٢١٤ .

(٢) النظم الفني في القرآن ص٧٦ .

(٣) من بلاغة القرآن ص٢٤١ .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن على سبيل المثال ٥٧٣/١، ٦٥٧/٢، ٧٦٥/٢ .

ببعض التراكيب . أول ما يلقانا هنا التعبير بالناس بدل ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والله قد خلق الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم من نفس واحدة ، فلعله عبر بالناس ليناسب الصلة بعده ولينبه إلى ورود تكاليف في السورة تشمل علاقة المسلمين بغيرهم من مثل مطالبة المؤمنين بالإيمان بالكتب المنزلة وغير ذلك ، والإيذان بالحرب وبيان كيفية الصلاة عند ملاقاة الكافرين ، وما في ذلك من جمع لقلوب المؤمنين ، وإظهار بأدائها للثقة بالله والاطمئنان إليه ، مما يعكس أثرا مخيفا في قلوب العدو ، ولعل هذا دأب القرآن إذا ما أراد التنبيه لأمر يشمل المسلمين وغير المسلمين يستأنس لذلك بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ . . . ﴾ (الحجرات:١٣).. ولو قال هنا : يأيها الذين آمنوا . . لفسد النظم ولنافر ما بعده . . ولذكر الربوبية بعد الأمر بالتقوى معنى لطيف فهو تنبيه إلى إيراد التكاليف في هذه السورة بالترغيب أولا ، ثم بالترهيب بعد ذلك تناسبا مع ما في المطلع من قوله : ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ثم قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ قال الفخر الرازي في توجيه هذا التكرير وجوه : «الأول : تأكيد الأمر والحث عليه ، الثاني : أنه أمر بالتقوى في الأول ، لمكان الإنعام بالخلق وغيره ، وفي الثاني أمر بالتقوى ، لمكان وقوع التساؤل به فيما يلتمس البعض من البعض ، الثالث : الرب لفظ يدل على الربوبية والإحسان ، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة ، فأمرهم بالتقوى بناء على الترغيب ، ثم أعاد الأمر به بناء على الترهيب»[1] واستحسان الوجه الثالث ينبهنا إلى لطائف في بناء المعاني في هذه السورة ، ومن أمثلة ذلك في السورة قوله تعالى : ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ

---

(١) مفاتيح الغيب ٤/٦٥٤ .

ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩). . ثم جاء عقيبه قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا** ﴾ (النساء:١٠) مع التدبر البياني لهذين التركيبين ، فالتركيب الأول مع ما فيه من الترهيب فيه جانب كبير من الترغيب ، أما الثاني فكله ترهيب . وأوضح من هذا المثال قوله تعالى : ﴿ **تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴾ (النساء:١٣). ومجيء الترهيب عقيبه بقوله : ﴿ **وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ** ﴾ (النساء:١٤) .

وقد ذكر الرازي أن قوله (تلك) «إشارة إلى كل ما ذكره من أول السورة إلى هاهنا ، من بيان أموال الأيتام ، وأحكام الأنكحة وأحوال المواريث»[1] ، وفي قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَمَن يَعۡصِ** ﴾ قال بعضهم : هو «مختص بمن أطاع أو عصى في هذه التكاليف المذكورة في هذه السورة»[2] وما ذكره البعض مرجوح عند الرازي ، وهو راجح ـ فيما أرى ـ من حيث بناء المعنى ، فهذا البناء من خصائص هذه السورة مع مراعاة أن من خصائص هذه السورة كثرة الأمر بطاعة الله والرسول بأنماط تركيبية تعد من خصائص هذه السورة ، وتتناسب مع ما في مطلعها من تكرار الأمر بالتقوى منها التركيب الذي مضى ثم قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ** . . . ﴾ (النساء:٥٩) مع تدبر ما في تكرار الأمر بالطاعة المتناسب مع تكرار الأمر بالتقوى ، ثم

---

(١) مفاتيح الغيب ٥/٧٦ .

(٢) مفاتيح الغيب ٥/٧٧ .

قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ. . . ﴾ ، ثم قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ (النساء:٦٩) ثم قوله : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء:٨٠) . . وترجيح هذا الاستنباط ، يقتضينا النظر في آيات الترغيب والترهيب الواقعة عقيب التكاليف في القرآن الكريم ، وتراكيبها ، والتنظير بين جريان تراكيبها في سائر سور القرآن ، وتراكيبها في هذه السورة .

وتدبر الصلة التي وقعت وصفا للربوبية يقتضينا النظر في بناء المعاني في هذه السورة فيما يختص بالتواصل ، فالناس جميعا من أصل واحد ثم من أصلين ثم تفرعت الخليقة بعد ذلك ، فجاء النهي عن الزواج بالمحرمات في هذا النسق الذي جاء في المطلع وكان هذا البناء من خصائص السورة . قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ. . .﴾ (النساء:٢٣) إلى آخر ما ذكره الله من المحرمات ، فالزواج «وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم ، والبنت ، اصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلا لها حق الطاعة والاحترام ، فلو اتخذها الإنسان زوجة ، لكان له عليها حق القوامة ، وحق الطاعة والخضوع»[1] . المهم أنه يجب التنبه إلى درجات القرابة في التحريم في نظم الآية ، مع تدبر بناء الخلق في مطلع السورة ، مع تدبر البناء أيضا في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ (النساء:٢٦).

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها ، ص٥٣٠ .

وهو أمر يتصل بالتواصل يبدأ بالأسرة ثم القبيلة ثم بقية الخلق من الضعاف ثم الجار بدرجاته . . إلخ . وهذا البناء من خصائص هذه السورة . وقد جاء بناء مقارب له في سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا** . . . ﴾ (البقرة:٨٣). مع مراعاة المفارقات التركيبية في الآيتين ، وتناسب التركيب الأول مع ما في المطلع من طول الصلة وكثرة المعطوفات ، وللبقاعي ـ رحمه الله ـ ملمح لطيف في هذا التركيب فقد لحظ سقوط الجار في قوله : ﴿ **وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ في البقرة ووجوده في سورة النساء ﴿ **وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ فقال ـ رحمه الله ـ « ولما كان مبنى السورة على الصلة لا سيما لذي الرحم ، قال ـ مفصلا لما ذكر في أول السورة تأكيدا له ـ ﴿ **وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ ، لتأكد حقهم بمزيد قربهم ، ولاقتضاء هذه السورة مزيد الحث على التعاطف أعاد الجار ثم أتبع ذلك من تجب مراعاته لله . . . »[(١)] .

ومن بصائر البقاعي ما لمحه من مناسبة التركيب للمطلع ما قاله عند قولـه تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ** ...﴾ (النساء:٢٨). « ولما كان المال عديل الروح ، ونهى عن إتلافه بالباطل ، نهى عن إتلاف النفس ، لكون أكثر إتلافهم لها بالغارات لنهب الأموال ، وما كان بسببها وتسببها . . فكان النهي عن ذلك أنسب شيء لما بنيت عليه السورة من التعاطف والتواصل فقال : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوٓا۟** ﴾ »[(٢)].

ومن لطائف المطلع هذه الجملة ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ وما استنبطه

---

(١) نظم الدرر ٢٧٦/٥ .
(٢) نظم الدرر ٢٥٦/٥ .

الدكتور أحمد بدوى من أن هذه الجملة توحي بالرفق والحنان في معاملتهن ، ولهذه الجملة لطائف تناسبها في كثير من التراكيب ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ . . .﴾ (النساء:١٩) فدفعا للرفق بهن قال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ ﴾ ، ولم يقل : لا ترثوا « فقد جاء قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ ﴾ صريحا في التحريم قطعا للتأويل ، فلم يقل (لا ترثوا) حتى لا يوسوس الشيطان بأنه نهي ترشيدي تهذيبي لا نهي للوجوب القاطع »[1] .

ويناسبه ما جاء في معالجة من خيف نشوزهن ، من تقديم الموعظة أولا . . . ومعالجة شقاقهن ، ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا . . .﴾ (النساء:٣٥) مع تدبر ما في مفهوم هذا المعنى من التراحم والتواصل ، ولم يأت هاهنا إعلام بصورة الطلاق ، ناهيك عن هذا التعبير في الدعوة إلى العدل بينهن ، والرفق بهن وكثرة الأمر بالتقوى في هذا الوضع في قوله : ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ . . . ﴾ (النساء:١٢٨) وقوله : ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١٢٩) .

ويرجح إصابة قول البقاعي توزع الحديث بشأن النساء في أماكن متفرقة في أول السورة ووسطها ونهايتها ، كأن هذا التوزع يشير إلى اتحاد السورة في مقصودها وما بين الحديث عن شأنهن إنما وقع لخدمة هذا المقصود فهن اللائي تكون بهن الأرحام ؛ لذلك قد حظيت هذه السورة

---

(١) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ص٢٠ دكتور محمود توفيق .

ببيان حقوقهن والتلطف في معاملتهن . وهو أمر يناسب مطلع السورة في إفراد الأرحام بالأمر بالتقوى فعلى قراءة النصب يكون التقدير واتقوا الأرحام،وهو أمر هذه السورة .

ومن لطائف البقاعي ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ** . . . ﴾ (النساء:٦٦) . « ولما كان مبنى السورة على الائتلاف ، وكان السياق للاستعطاف قال مرغبا : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ** ﴾ »[1] وهو ما يتناسب مع بناء معنى التقوى في مطلع السورة .

ومن لطائفه ـ رحمه الله ـ ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا** . . . ﴾ (النساء:٨٥) « ولما كانت الشفاعة أعظمها في الإحسان قدمت ، لا سيما وموجبها الإعراض ، ومقصد السورة التواصل »[2] وقد ذكروا أن المراد بالشفاعة هنا « شفاعات الناس بينهم في حوائجهم »[3] وقد ناسب تركيب هذه الآية مطلع السورة وناسب ما بعده ـ لا سيما أن من خصائص هذه السورة الحديث عن التحية التي تؤدي إلى التواصل ، كما دل على ذلك الحديث قال تعالى بعد الآية السابقة : ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ** . . . ﴾ (النساء:٨٦) وهو ما يناسب مقصود السورة المجمل في مطلعها كما ذكر شيوخنا ـ رحمهم الله ـ .

ومن لطائف البقاعي ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ** . . . ﴾ (النساء:١٢٧) قوله : « ولما كان المقام بكثرة الاستفتاء محتاجا إلى زيادة الاعتناء قال : ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ** ﴾ آمرا معبرا بالاسم

---

(١) نظم الدرر ٥/٣١٩ .

(٢) نظم الدرر ٥/٣٥٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢/١٩٥٧ .

الأعظم منبها على استحضار ما ذكر في أول السورة»[1] ولعل ذلك فيه تنبيه على ما في مطلع السورة من الأمر بتقوى الله في الأرحام ، وهذه الآية تفصل مناسبة قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ** . . . ﴾ (النساء:٣) لقوله قبل : ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ** . . . ﴾ (النساء:٢). فعن عائشة أنها قالت «هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها ..»[2].

ومن لطائف البقاعي ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ ۞ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ** . . . ﴾ (النساء:١٣٥) «ولما كان أعظم مباني هذه السورة العدل قدمه فقال : بالقسط بخلاف ما يأتي في المائدة»[3] . . وهو من أدق ما ذكره البقاعى .

وقد استشكل الرازي وصف الرجال بالكثرة دون النساء في مطلع السورة فقال : «فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل : وبث منهما رجالا ونساء كثيرا ؟ ولم خص وصف الكثرة بالرجال دون النساء؟ قلنا : السبب فيه ـ والله أعلم ـ أن شهرة الرجال أتم فكانت كثرتهم أظهر فلا جرم خصوا بوصف الكثرة ، وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الاشتهار والخروج والبروز ، واللائق بحال النساء الاختفاء والخمول»[4] ألا يمكننا أن نعتبر أن هذا الاستنباط تلميح إلى قوامة الرجال الذي جاء في هذه السورة الكريمة ، وعرض خصائصها قال تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ**

---

(١) نظم الدرر ٥/٤١٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/١٦٧٧ .

(٣) نظم الدرر ٥/٤٣١ .

(٤) مفاتيح الغيب ٤/٦٥١ .

ﱡﭐ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ . . . ﱠ (النساء:٣٤) . لعلك معي في وضوح هذه المناسبة وقد علل البيضاوي لهذا الاستشكال بقوله : «واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها ، إذ الحكمة تقتضي أن يكن أكثر . . . .»[1] «وهو جواب قريب على أي حال ، فأي قيمة لهذا الوصف ، وكان التعبير سيستقيم بقوله : رجالا ونساء إذ الكثرة في النوعين مستفادة بقرينتين بقوله : ﱡ وَبَثَّ ﱠ وما فيها من التفرق والانتشار ، والتنكير في ﱡ رِجَالاً وَنِسَآءً ﱠ .

ويراعى ما في هذا المطلع من ختامه بهذا التذييل : ﱡ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﱠ وشيوع جمل التذييل في هذه السورة الكريمة بأوصاف لله تقارب هذا الوصف : ﱡ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﱠ . . ﱡ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﱠ . . ﱡ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﱠ . . ﱡ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﱠ . . ﱡ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﱠ . . ﱡ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﱠ . . ﱡ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﱠ (النساء:٣٣، ٦، ١١، ٢٦، ٣٢، ٣٥، ٣٩).. وغير هذه التراكيب فإنا اجتزأنا منها مُثُلا . مع مراعاة أن هذا الوصف لم يقع إلا في هذه السورة تناسبا مع تكرار الأمر بالتقوى في مطلعها ، ويبدو أن هذا التركيب من خصائص الحديث عن علاقات المواصلة ، فلم يقع إلا في سورة الأحزاب تذييلا للحديث عن أزواج النبي ﷺ : ﱡ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ﱠ (الأحزاب:٥٢) هذا ما هدانا إليه تدبر مطلع سورة النساء على هدى مقالات علمائنا . وقد ختمت السورة بالحديث عن

---

(١) أنوار التنزيل ١/٢٠٢ .

النساء وبالتذييل الذي يتناسب مع المطلع أيضا ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. . .﴾ (النساء:١٧٣).

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ في هذا الموضع : « اعلم أنه تعالى تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ، وختم آخرها بذلك ، ليكون الآخر مشاكلا للأول ، ووسط السورة مشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفين للدين »[(١)] وقال أيضا : « واعلم أن في هذه السورة لطيفة عجيبة ، وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى فإنه ـ سبحانه ـ قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . .﴾ وهذا دال على سعة القدرة وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم وهو قوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهذان الوصفان هما اللذان بهما تثبت الربوبية والإلهية والجلالة والعزة »[(٢)] . ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ .

* * *

---

(١) مفاتيح الغيب ٥٤١/٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٥٤٣/٥ .

سورة المائدة

يروي القرطبي والشيخ محمد صديق خان رواية يسندانها إلى النقاش أنه حكى «أن أصحاب الكندي قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال : نعم ، أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ، ولا يطيق هذا أحد ، إن فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة ، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهي عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد»(١) .

وذلك الذي أعجز الكندي ـ كما أعجز غيره ـ هو قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾ (المائدة:١). . وهو الذي يمثل مطلع هذه السورة الكريمة ، وهو مثل لتزاحم المعاني وتراكمها ، وترابطها ، وإحكام ترتيبها ، وفي نظمه إشارات لوجوه جريان المعاني في السورة ، ومطالع سور الذكر الحكيم تتفرد بتراكيب وألفاظ استوقفت شيوخنا ، ولنا في وقفاتهم بصائر تهدينا إلى استخراج العلاقة من ذلك أنه لم يجر استعمال لفظ العقود بدل العهود إلا في مطلع هذه السورة الكريمة ، وقد تأول كثير من السلف العقود بالعهود ، وذكروا وجوها في معنى العقود ، رجحوا منها ما تناسب مع ما جاء في السورة الكريمة ، قال ـ محمد

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/٢١٣٠، وفتح البيان في مقاصد القرآن ٢/٤٢٤، ٤٢٥ .

ابن جرير ـ رحمه الله ـ بعدما أورد تأويلات السلف مستظهرا قول ابن عباس ، ذاكرا أن معناه : «أوفوا يأيها الذين آمنوا بعقود الله التي أوجبها عليكم ، وعقدها فيما أحل لكم وحرم عليكم ، وألزمكم فرضه ، وبين لكم حدوده ، وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال ، لأن الله ـ جل وعز ـ أتبع ذلك البيان عما أحل لعباده وحرم عليهم ، وما أوجب عليهم من فرائضه فكان معلوما بذلك أن قوله : ﴿ **أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾ أمر منه عباده بالعمل بما ألزمهم من فرائضه وعقوده عقيب ذلك ، ونهى منه لهم عن نقض ما عقده عليهم منه ، مع أن قوله : ﴿ **أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾ أمر منه بالوفاء بكل عقد أذن فيه ، فغير جائز أن يخص منه شيء حتى تقوم حجة بخصوص شيء منه يجب التسليم لها ، فإذا كان الأمر في ذلك كما وصفنا ، فلا معنى لقول من وجه ذلك إلى معنى الأمر بالوفاء ببعض العقود التي أمر الله بالوفاء بها دون بعض»(١).

وهو ما يتناسب وجريان العقود في السورة الكريمة ، فهي شاملة كل العقود سواء أكان ذلك بين العبد وربه ، أو بين العبد والعبد ، وقد رجحه جار الله العلامة قائلا ـ بعدما أورد القول بأنها العقود التي بين العباد «والظاهر أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، وأنه كلام قدم مجملا ثم عقب بالتفصيل»(٢) . وكلمته الأخيرة تلك هي العلاقة بين مطلع السورة ومقصودها وقد تولد من قول الزمخشري قول الرازي الحنفي ـ كاشفا عن المناسبة بين الجملة الأولى والجملة الثانية ـ : «المراد بالعقود عهود الله عليهم في تحليل حلاله وتحريم حرامه ، فبدأ

---

(١) جامع البيان ٣٣/٦ .

(٢) الكشاف ٥٩١/١ .

بالمجمل ، ثم أتبعه بالمفصل من قوله ﴿ أُحِلَّتْ ﴾ وقوله بعده : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾ »[1] .

وما ذكره الشيخ الألوسي ـ رحمه الله ـ في قوله : « واستظهر الزمخشري كون المراد بها عقود الله تعالى عليهم في دينه من تحليل حلاله ، وتحريم حرامه لما فيه ـ كما في كشف الكشف ـ من براعة الاستهلال والتفصيل »[2] .

وما ذكره العلامة ابن عاشور في قوله : « وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنها أنزلت ، لاستكمال شرائع الإسلام ، ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود ، أي بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام ، من التزام ما يؤمرون به فقد كان النبي ﷺ يأخذ البيعة على الصلاة والزكاة والنصح لكل مسلم كما في حديث جابر بن عبد الله في الصحيح ، وأخذ البيعة على الناس بما في سورة الممتحنة ، كما روى عبادة بن الصامت . ووقع في أولها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ فكان طالعتها براعة استهلال »[3] .

وكما كان في تأويلاتهم معنى العقود نظر إلى ما جاء في السورة كان في توجيهاتهم استخدام العقود بدلا من العهود نظر إلى معاني السورة الكريمة أيضا ، فقد ذكر الزمخشري أن العقد « العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه »[4] وبسط الفخر الرازي هذا القول فذكر أن « العقد هو

---

(١) مسائل الرازى وأجوبتها ص٩١ .

(٢) روح المعاني ٦/٤٨ .

(٣) التحرير والتنوير سورة المائدة ص٧٢، ٧٣ .

(٤) الكشاف ١/٥٩٠ وذكر الراغب أن العقد : الجمع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء ثم يستعار ذلك للمعاني والعهد ـ حفظ الشرع ومراعاته حالا بعد حال وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهدا ، المفردات (عقد ـ عهد) ص٣٤١، ٣٥٠ .

وصل الشيء بالشيء على سبيل الاستيثاق والإحكام ، والعهد إلزام ، والعقد التزام على سبيل الإحكام»[1].

ثم يكشف عن مناسبة الأمر بالوفاء بالعقود للإيمان قائلا : «ولما كان الإيمان عبارة عن معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله ، وكان من جملة أحكامه ، أنه يجب على جميع الخلق إظهار الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه وأوامره ونواهيه ، فكان هذا العقد أحد الأمور المعتبرة في تحقيق ماهية الإيمان . . . وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقودا ـ كما في هذه الآية ـ لأنه تعالى ربطها بعباده ، كما يربط الشيء بالحبل الموثق»[2] .

وينبهنا هذا التأويل لمعنى العقود إلى أن جل ما جاء في هذه السورة الكريمة من التحليل والتحريم، تكميل وتتميم لما جاء في السور الأخرى، وجاءت التراكيب موفية بهذا الغرض ، وقد نبهنا جلال الدين السيوطي إلى ذلك في قوله : «أما المائدة فسورة العقود ، تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين . . . لأن منها تحريم الصيد ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام»[3] لذلك تجد في بدايات السورة قوله تعالى : ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا** ﴾ (المائدة:٣). . وهي من خصائص هذه السورة الكريمة، ولنتسمع إلى خفي كلام البقاعي: يقول مقررا مقصود السورة «ومقصودها : الوفاء بما هدى إليه الكتاب ، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ، ورحمة الخلائق شكرا للنعمة ، واستدفاعا للنقمة ، وقصد المائدة أدل ما فيها على ذلك ، فإن مضمونها :

(١،٢) مفاتيح الغيب ٥/٥٤٤ .

(٣) تناسق الدرر ، ص٧٧ .

أن من زاغ عن الطمأنينة ، وزاغ عن الثبات والسكينة بعد الكشف الضافي والإنعام الوافي ، نوقش الحساب فأخذه العذاب ، وتسميتها بالعقود أوضح دليل على ما ذكرت »[1].

وذلك المقصود الذي ذكره كائن في مطلع السورة الكريمة ، وقد كان ـ رحمه الله ـ ملتفتا إليه عند بيان الوجه في بعض تراكيب السورة ، يقول في نظم الدرر عند مطلع السورة : « ولما كان مدار هذه السورة على الزجر والإحجام عن أشياء اشتد إلفهم لها ، والتفاتهم إليها وعظمت فيها رغائبهم من الميثاق وما معها . . . ذكر في أولها بالعهود التي عقدوها على أنفسهم ليلة العقبة ، حين تواثقوا على الإسلام من السمع والطاعة في المنشط والمكره ، والعسر واليسر فيما أحبوا وكرهوا ، وختم الآية بقوله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾[2] .

وكلامه ـ رحمه الله ـ ناظر إلى ما في أثناء السورة من تحريم الأطعمة من الميتة ونحوها ، والنهي عن الخمر والميسر والصيد في الحرم ، وقد جاء الحديث عن هذه الأشياء مفصلا تفصيلا لم تفصله سورة أخرى ، وللغة في الأمور المتناولة في سور أخرى ـ طبيعة خاصة في سورة المائدة ، فكلها متناغية مع المطلع جارية في روافده ، فالأحكام جاءت هنا مؤكدة ، وقد أشار مطلع السورة من أول لفظة فيه إلى هذا الأمر ، فهي مفتتحة بنداء المؤمنين بيا النداء ، وشيوخنا يذكرون أن « (يا) أكثر أحرف النداء استعمالا ، وأنه لا ينادى اسم الله ـ عز وجل ـ إلا بهما ، وحين يقتضي السياق جملا من التوكيد كإضافة عناصر لغوية ذات تأثير في اللفظ والإيقاظ كأي التي

(١) مصاعد النظر ٢/١٠٦ .

(٢) نظم الدرر ٦/٧ .

للإيهام، وها التي للتنبيه حين ذلك لا تستعمل من الأدوات سواها، فيقولون: (يا أيها) ثم إن هذه الصيغة ذات العناصر المتكاثفة في النداء هي أكثر أساليب النداء ورودا في القرآن الكريم، وسر ذلك ـ كما ذكروا ـ هو أهمية المقاصد التي نادى الحق خلقه ليسمعهم إياها»[1].

وقد نبه عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إلى لطيفة في النداء، يروى «أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي فقال: إذا سمعت الله يقول ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهي عنه»[2].

وقد كان افتتاح السورة بهذا النمط من النداء داعية استنباط خاص لآية الوضوء للدكتور محمود توفيق عندما يقول: «فقد جاءت آية الوضوء في سورة المائدة التي كان مفتاح مضمونها البياني والتشريعي ومكتنزه، قول الحق ـ عز وعلا ـ ﴿ **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ** ﴾ . . . وفي العناية بتدبر هذا المكتنز، وذلك المفتتح عون على استبصار دقائق وحقائق بقية السورة»[3] ثم استطرد في الحديث عن المطلع محاولا استخراج مطاوي نظمه حثيثا حثيثا فذكر أن «التعبير عن المنادى عليه بقوله: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** ﴾ إيماء إلى أن هذا الفعل عقد أبرموه بين خالقهم وأنفسهم فأول العقود وأحقها بالإيفاء عقد الإيمان والطاعة . . . وجاء التكليف الإجمالي المستجمع كل تكاليف السورة الآخذ بحجز الذين

---

(١) دلالات التراكيب ص٢٦٢، ٢٦٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢ .

(٣) دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ص٦١ .



آمنوا من الدرك الأسفل إلى يفاع الطاعة معبرا عنه بقوله تعالى : ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[1] .

ثم قال ـ بعدما بين الفرق بين (أوفوا ـ وفوا) بالزيادة والتضعيف ، وأن الزيادة بالتضعيف تكون أدل على قوة الحدث ، والزيادة بالهمزة تكون أدل على ظهور الزيادة في الفعل ـ يقول : « في نور هذا نفهم وجه الأمر الإلهي في فاتحة سورة العقود بقوله : ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ دون وفوا أن ذلك من فيض رحمانيته ، حيث طلب إيجاد العناية والمبالغة بإيقاع الفعل من الذين آمنوا كل على قدره : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ وإذا ما كان الحق ـ عز وعلا ـ قد اصطفى الفعل أوفوا على الفعل وفوا ، فإنه اصطفى في هذه الآية دون غيرها ذكر المأمور بالإيفاء به باسم العقود دون العهود ، على الرغم من أن القرآن يذكر دائما كلمة العهود ، ولم يذكر كلمة العقود إلا في هذه الآية ، والمعنى على أن كل عهد مع الله إنما هو عقد ، ولأن إحكامه وتوثيقه جاء من إسناده إليه ـ عز وعلا ـ فاستغنى بإسناده إليه في الدلالة على إحكامه وتوثيقه عن تسميته عقدا ويحمل على ذلك كل عهد بين مسلم ومسلم ، لأن الإسلام قد وثق وأحكم كل عهد بين مسلمين ، فصارت عهودهم عقودا ، فجاء بكلمة (عقود) في صدر سورة المائدة »[2] لتكون شاملة كل العهود .

ويبدو أن نداءات المؤمنين من خصائص هذه السورة ، لأنها سورة التكميل ، فقد جاءت نداءات المؤمنين فيها في ستة عشر موضعا[3] ، متناغية

---

(١) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ص٦٤ .

(٢) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ص٦٧، ٦٨ .

(٣) الآيات من سورة المائدة : ١، ٢، ٦، ١١، ٣٥، ٥١، ٥٧، ٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦ .

مع ما يليها من أحكام مع مطلع السورة الكريمة ، وأطول سور القرآن الكريم قاطبة : سورة البقرة ، وقد جاءت نداءات المؤمنين فيها في عشرة مواضع[1] .

مع مراعاة أن السورتين المفتتحتين بنداءات المؤمنين لم تشع فيهما نداءات المؤمنين شيوعها في هذه السورة ، والذي يعضد هذه الخصيصة أن السورتين المفتتحتين بنداءات الناس لم تكثر فيهما نداءات الناس كما كثرت في غيرها ، فسورة النساء مع افتتاحها بنداء الناس إلا أن نداءات الناس جاءت فيها في ثلاثة مواضع[2] ، وقد جاءت في الحج في أربعة مواضع[3] ، ويونس لم تفتتح بنداءات الناس وقد جاء ذلك في أربعة مواضع[4] ، وفاطرفى ثلاثة مواضع[5] .

لذلك فقد جاءت التكاليف في هذه السورة على أبلغ أوجهها ، فتحريم الميتة مع أنه جاء في عدة مواطن من الذكر الحكيم ، إلا أنا نلمح في هذه السورة تفصيلا لم نره في المواضع الأخرى[6] ، لأن تحريم الميتة وغيرها جاء هنا مقترنا بعبادات ألفوها : ﴿ **وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ** ﴾ (المائدة:٣) وقد لاءم هذا التفصيل ما جاء في الآية من قوله : ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي** ﴾ وبتدبر آيات التحريم

(١) الآيات من سورة البقرة : ١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٢ .

(٢) الآيات من سورة البقرة النساء :١، ١٧٠، ١٧٤ .

(٣) الآيات من سورة البقرة الحج : ١، ٥، ٤٩، ٧٣ .

(٤) الآيات من سورة البقرة يونس : ٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٨ .

(٥) الآيات من سورة البقرة فاطر : ٣، ٥، ١٥ .

(٦) الآيات : البقرة ١٧٣، والأنعام ١٤٥، والنحل ١١٥ .



المناظرة لهذه الآية ترى خصائص لهذه الآية ، فقد ختمت الآية في البقرة بقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٧٣) وفي الأنعام : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤٥) وفي النحل ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٥) وفي سورتنا هذه ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذان القيدان اللذان في جملة الشرط ﴿ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾ . . ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ يتناسبان مع مفتتح السورة ، فهما يضيفان تشديدا في مسائل الضرورات ، يناسب الترقي في درجات الإيمان ويشاكلان التكميل الذي تسير السورة على لاحبه في كل الأحكام مع مراعاة تدبر معنييهما[1] .

وتحريم الخمر في البقرة جاء جوابا لسؤال ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة:٢١٩) وجاء في المائدة قاطعا قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:٩٠) وشدد بما بعده من قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة:٩١) ولذلك فقد كرر الأمر بالطاعة عقب هذا الأمر ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (المائدة:٩٢) .

---

(١) قال الراغب قوله تعالى : (في مَخْمَصَةٍ : أي مجاعة تورث خمص البطن أي ضموره وأصل الجنف : الميل في الحكم . ينظر : المفردات (مادة خمص : ص١٥٩، ومادة جنف : ص ١٠١) .

والمتدبر آيات القصاص هنا وفي البقرة يرى التفصيل والتشديد في التكليف المتناغي مع مطلع السورة ، تدبر خواتيم الآيات التي بعد الحدود فقد قال أولا ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ** ﴾ (المائدة:٤٤) ثم قال : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ** ﴾ (المائدة:٤٥)ثم قال:﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ** ﴾ (المائدة:٤٧) .

وهذا التشديد في عقوبة ترك التكليف يعد من خصائص هذه السورة الكريمة ، ولأن أول العقود الإيمان بالله وحده ، فقد صنف هنا معتقدات النصارى مؤكدا إبطالها بمؤكدات متعددة ، فقد قال أولا : ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا** ﴾ (المائدة:١٧) ثم ذكر هذا المعنى في نفس السورة فقال : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ** ﴾ (المائدة:٧٢) ثم قوله بعد : ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ** ﴾ (المائدة:٧٣) ثم قوله ـ مكنيا عن بشرية المسيح وأمه بوصفهما بصفة أدل ما يكون على البشرية ﴿ **مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ** ﴾ (المائدة:٧٥) .

وفي إطار مفتتح السورة بالأمر بالوفاء بالعقود ، افتتح قصص بني إسرائيل بذكر ميثاق بني إسرائيل ، والوعد للوفاء به ، والوعيد على نقضه مجمــلا كــل ذلك فــي الآية الأولى من ذكر حلقة من حلقات قصتهم : ﴿ ۞ **وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ**

إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة:١٢).

والقرآن فيه باعث للنظر في نظوم القصص ، فأول المواثيق ورأس العقود الإيمان والتوحيد ، فنقضه النصارى ، لذلك جاء أول شيء في قصصهم ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ . . . ﴾ ثم نقضوا ميثاق تأييد الرسل . وخالفوا موسى عليه السلام في دخول الأرض المقدسة وأعقب ذلك بقصة ابني آدم ، وإخلاف أحدهما ما كان تعاهد عليه من الاحتكام إلى تقبل القربان ، ثم ذكر حد الحرابة وكل ذلك واقع في إطار الميثاق الذي أجمله ربنا في الآية الأولى .

ثم قصة إهمالهم الاحتكام إلى منهج الله الذي فرضه عليهم ، فالإجمال ثم التفصيل ظاهر في السورة من خلال تدبر النظم الحكيم الذي يسير في نظام الأمر بالوفاء بالعقود ، ثم مخالفة الأقوام للعقود ، ثم عقوبة ذلك في كل السورة الكريمة ، تدبر المناسبة بين قوله في أول الميثاق ﴿ وَأَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ثم قوله في السورة ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ ﴾ (المائدة:٥٨) مع مراعاة أن ذكر الأذان من خصائص هذه السورة ، فلم يقف نقض العهد من اليهود عند التقصير في إقامة الصلاة ، فلم يكن العهد بالصلاة ، لأن القرآن الكريم لم يقل لئن صليتم وزكيتم . . . وإنما غير النظم بما جاء به للحث على عدم التقصير في الصلاة من كل جوانبها فلما كان الأمر في هذ السورة على ذكر أشنع الناس وبيان دأبهم في مخالفة العهد ونقضه ، ذكر استهزاءهم بالأذان ، الذي يعلم بالعهد الذي أخذه الله عليهم ، فلله هذا النظم المعجز .

ثم تدبر عهدا آخر ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وتبيين نقضه والاستهزاء به كدأبهم في عهد الصلاة تدبر ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (المائدة:٦٤) ثم تدبر الوعيد على نقض العهد ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ (المائدة:١٣) .

بوسعنا بأدنى تدبر أن نستكشف المناسبة بين العهد بين الله وبين بنى إسرائيل تجاه ربهم ، وبين كل ما جاء في السورة من ذكر أحوالهم .

تدبر أسلوب التحسر واستشعار الندم في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ (الآيتان:٦٥ ، ٦٦) . وذلك وعد الله على الوفاء بالعهد في الآية الثانية عشرة .

إن النظم المعجز ينبهنا إلى استخراج العلاقات في السورة الواحدة ، حتى لا يضيع خيط مقصود السورة الذي أجمل في مطلعها ، فعندما شرع في ذكر اليهود أجمل كذلك في مطلع قصصهم كما ذكرت شيئا منه .

وكانت تلك الكلمات فيضا من نور كلمة الرازي ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . . ﴾ (المائدة:١٢) قال ـ رحمه الله ـ : «اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل عن الوفاء بعهد الله ، وهو متعلق بما افتتح الله به السورة ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾[1] وتلك فيوضات كلام أهل البصيرة .

---

(١) مفاتيح الغيب ٦/٩٧ .



فطبيعة اللغة وجريانها ، وأخذ النظم بحجز بعض في سبيل الوفاء بمقصود السورة ، أمران ظاهران في السورة .

ثم إن قوله تعالى قبل ذكر اليهود : ﴿ **وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ﴾ (المائدة:٧) حلقة وصل ورابطة بين الأمر بالوفاء بالعقود في مطلع السورة ، وقصة نقض الميثاق التي أخذت معظم السورة في بني إسرائيل والآية عند الفخر ـ رحمه الله ـ « مشابهة لقوله تعالى في أول السورة : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ** . . . ﴾ »[1] .

وينفذ البقاعي ببصيرته ، ليكشف لنا عن اختلاف النظم بالتقديم والتأخير في قوله تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّـٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ** ﴾ (المائدة:٨) يقول ـ رحمه الله ـ « ولما كان مبنى السورة على الوفاء بالعهد الوثيق ، وكان الوفاء بذلك إنما يخفى على النفوس ويصح النشاط فيه ، ويعظم العزم عليه بالتذكر بجلالة موثقه ... قدم قوله : ﴿ **لِلَّهِ** ﴾ بخلاف ما مضى في النساء »[2] وهذا أمر يستخرج بالنظر المستأني في مقصود السورة ، والنظر في نظمها كلية ، وقد مضى ما ذكرناه في نظير هذه الآية في سورة النساء .

وقد كان شيوخنا ينظرون إلى وجوه النظم في السورة ملتفتين إلى المطلع ، يقول الرازي في آية الوضوء « اعلم أنه تعالى افتتح السورة بقوله تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾ وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية ، وعهد العبودية ، فقوله تعالى : ﴿ **أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾

(١) مفاتيح الغيب ٥/٦١٧، ٦١٨ .

(٢) نظم الدرر ٦/ ٤٠ .

طلب تعالى من عباده أن يفوا بعهد العبودية ، فكأنه قيل : إلهنا العهد عهد الربوبية منك ، وعهد العبودية منا كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من المنافع واللذات ، . . . فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية ، ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ولا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء»[(١)] .

وكان النظر إلى الآية في سياق مفتتح السورة معليا لبعض استنباطات الأصوليين عند الدكتور محمود توفيق فى قوله : «تفتتح آية الوضوء بما تفتتح به السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فكان فيه ما في فاتحة السورة من تأكيد ، فتأكيد التذكير بما أخذ عليهم من ميثاق الإيمان»[(٢)] .

وبعد حديثه عن اختلاف الأصوليين في دلالة الباء في قوله : ﴿ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ يقول : «والوعي البياني في نور ما سبق استبصاره من المقصود الأعظم الذي ترمي إليه السورة كلها يعلي القول بأن مسح الرأس كلها ، وتأكيد إلصاق اليد به ، هو الغرض في مقام الإحسان الذي تحدو السورة بالذين آمنوا عيسها إليه ، وأن ما يؤذن بجواز مسح بعض الرأس ، إنما هو إيذان ملفوف بملابسات وأحوال دلت عليها السنة الثابتة»[(٣)] .

ثم انتهى إلى «أن التكاليف التي أمر بها الذين آمنوا في السورة لا يكتفي فيها بالحد الأدنى من تحقيق الطاعة ، لأن ذلك فصم لهذه التكاليف عن مساقها والمقصود الأعظم لسورتها وهذا ظلم في شرعة المحسنين»[(٤)] ثم ذكر ما نحاول تأكيده في عرض هذا البحث ملخصا إياه

(١) مفاتيح الغيب ٥/٥٧٩ .
(٢) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ، ص٧٠ .
(٣) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ، ص٨١ .
(٤) المرجع نفسه ، ص٩٤ .

«إن التدبر البياني أعلى بعض استنباطات الفقهاء على بعض من منظور السياق العام والخاص للسورة والآية ، ولا يعني هذا تخطئة ما أدناه فصما للآية عن خصائص ما أنزلت على لاحبه ، وذلك ما ينفر منه المقربون»[(١)].

لكن استخراج هذه اللطائف يحتاج إلى كدٍّ ووكد ، واستبطان لنصوص البيان المعجز ، ولما كانت التكاليف على وجه التكميل في هذه السورة نودي النبي ﷺ بلفظ التكليف تناسبا مع مقصود السورة ، وتكرر ذلك في موضعين ، ولم يقع غيرهما في الذكر الحكيم ، وقد وجه ذلك الفخر الرازي فقال : «وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشريف وتعظيم»[(٢)] وأحسب أن المخاطبة بهذا الوصف أنسب للتكليف .

ومما له علاقة بينه بأول السورة قوله تعالى : ﴿ **جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ** . . . ﴾ قال البقاعي ـ رحمه الله ـ في هذا الموطن : «ولما كان الإحرام ، وتحريم الصيد فيه ، إنما هو لقصد تعظيم الكعبة ، بين ـ تعالى ـ حكمة ذلك ، وأنه كما جعل الحرم والإحرام سببا لأمن الوحش والطير جعله سببا لأمن الناس . . . فقال مستأنفا بيانا لحكمة المنع في أول السورة من استحلال من يقصدها للزيارة : ﴿ **جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ** . . . ﴾ ﴿ **ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ** ﴾ أي الممنوع من كل جبار دائما الذي تقدم في أول السورة ، أني منعتكم من استحلال من يؤمه»[(٣)] مع ضميمة أن تحريم الصيد في الحرم لم يقع إلا في هذه السورة الكريمة .

---

(١) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ، ص٩٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦/٢٢ .

(٣) نظم الدرر ٦/٣٠٦ .

وكان مما ذكره ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ ﴾ بعد بيان مناسبتها لما قبلها ـ قوله : « وقد نزعها إلى مجموع هذه السورة منازع منها ما تقدم من ذكر القتل الذي هو نوع من أنواع الموت عند قصة ابني آدم وما بعدها ، ثم تعقيب ذلك بالجهاد الذي هو من أسباب الموت ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ ثم ذكره أيضا في قوله : ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ ﴾ ، وقد جرت السنة الإلهية بذكر الوصية عقب مثل ذلك من البقرة ، ولم يذكر عقب واحدة من الآيات المذكورة لزيادتها على آية البقرة بمنازع منها الحلف ، فناسب كونها بعد آية الإيمان ، ومنها تغليظ الحلف ، والخروج به عما يشاكله . . . فناسب ذكرها بعد تغليظ أمر الصيد في حال مخصوص ، وهو الإحرام والخروج به عن أشكاله من الأحوال »[(١)] والسلك الذي انتظم هذه المعاني بدايته في مطلع السورة الكريمة في ذكر العهود ، وتحريم الصيد ، ثم بين مناسبة المائدة لما مضى رابطا ذلك بمطلع السورة فقال : « ولما ذكر ـ سبحانه ـ هذه الأمة المدعوة من العرب ، وأهل الكتاب وغيرهم بنعمه عليهم في أول السورة بقوله : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ وكانت هذه الآيات من عند ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ . . . ﴾ كلها في النعم ، أخبر أنه يذكر عيسى عليه السلام بنعمه في يوم الجمع إشارة إلى أنهم إن لم يذكروا نعمه في هذه الدار . . . ذكرها حين يذكرهم بها في ذلك اليوم قسرا بالكفر »[(٢)] .

وكان ابن الزبير أصرح قولا في بيان هذه المناسبة ، وهو شيخ البقاعى في هذا الباب ـ قال ـ رحمه الله ـ « فلما طالب تعالى المؤمنين بالوفاء فيما

---

(١) نظم الدرر ٦/٣٣٤ .
(٢) نظم الدرر ٦/٣٣٩ .



نقض فيه غيرهم وذكرهم ببعض ما وقع في النقض ، وما أعقب ذلك فاعله ، وأعلمهم بثمرة التزام التسليم والامتثال ، أراهم ـ جل وتعالى ـ ثمرة الوفاء وعاقبته ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ . . .﴾ إلى قوله : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ إلى آخر السورة[1] . . . ووجه النظم فيها متشاكل مع المطلع كما بين علماؤنا ، وقد نبهنا الفخر الرازي إلى هذا التشاكل عند قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ذاكرا بعض أسرار الخاتمة جاعلا منها «أن مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه»[2] .

فكما تبين لنا السورة من حيث معانيها ونظمها جارية في سياق واحد هو الوفاء بالعهود والوعد عليه ، ونقضها والوعيد عليه . وكما قال الدكتور عبد الله شحاته (وعلى وجه العموم : فإننا نجد سياق السورة كله يدور حول العقود والمواثيق في شتى صورها ، حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة الوارد في نهاية السورة نجد سؤالا عما عهد به إليه ، وعما إذا كان قد خالف عنه»[3] وكل ذلك جاء متناغيا مع نداءات المؤمنين التي ذكرنا أنها من خصائص هذه السورة .

وهذا ما أعان الله به . . . ووفق إليه . . . والله أعلم .

* * *

---

(١) البرهان في تناسب سورة القرآن ، ص٨٩ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦/٢٠٥

(٣) أهداف كل سور ومقاصدها ، ص٦٣ .



سورة الحج

ماذا وراء هذه التسمية؟ وليس في القرآن سورة الصلاة ولا سورة الصيام أي خصيصة لهذا الركن حتى تسمى باسمه سورة؟ وما الخصائص البلاغية لآياته هنا دون نظائرها في البقرة وفي آل عمران؟ وما العلائق الأسلوبية لآياته هنا بذكر زلزلة الساعة؟ وما العلائق الأسلوبية بينها وبين قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ (الحج:١)؟.

هذه التساؤلات تناثرت الإجابة عنها في تراث الأمة ، ومع ندرتها يجل نفعها . والمطلع ـ بعد استقراء كلام الأئمة حول آيات السورة ـ هو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج:١) «قال أبو جعفر : يقول : ـ تعالى ذكره ـ يأيها الناس احذروا عقاب ربكم بطاعته ، فأطيعوه ولا تعصوه ، فإن عقابه لمن عاقبه يوم القيامة شديد ، ثم وصف ـ جل ثناؤه ـ هول أشراط ذلك اليوم . . .»(١) .

ويدل كلامه على أن جملة ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ﴾ تعليل للجملة الأولى ، وتظاهر بيان جار الله على هذا المعنى فقال : «أمر بني آدم بالتقوى ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ، ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم ، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى ، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به»(٢).

(١) جامع البيان ١٧/٨٥ .
(٢) الكشاف ٣/٣، ٤ .



وبيانه ـ رحمه الله ـ كاشف عن أن أهوال الساعة جاءت في السورة للحث على التقوى وأن المقصود بالنداء المكلفون كما قال القرطبي[1] ، وفي تعليق التقوى بذات الرب ـ كما قال ابن عاشور ـ «إيماء إلى استحقاقه أن يتقي لعظمته بالخالقية . . . ويقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه . . . لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأن لها مناسب للمقام»[2] فذكر الربوبية أفاد بطريق الحكمة استحقاقه تعالى بالتقوى وجماعها اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وذلك عقلا عدل ، فالرب منعم والمنعم مشكور بطريق التقوى ، وذلك في التقوى أولى درجاتها وأعظمها إخلاص النية في بذل الهدى الذي يكون من الأنعام التي هي من نعم الرب على طريق الشكر الذي يكون عند التكبير والذكر في يوم الحج الذي تتباين فيه درجات التقوى ، ويَفْصِل في هذه الدرجات إخلاص التقوى في بذل الهدى الذي هو من نعم الرب ، وذلك يكون في يوم الحج (الجمع) الذي يذكر بيوم الجمع الأكبر (الساعة) وليس في أركان الإسلام الأخرى ما يذكر بهذا اليوم ، ولا حتى الجهاد على تعاظم ثوابه . .

كل ما أثرناه من تساؤلات تكتنز الإجابة عنها عبارة البقاعي في تقريره مقصود السورة يقول ـ رحمه الله ـ : «ومقصودها : الحث على التقوى المعلية عن دركة الاستحقاق الحكيم بالعدل ، إلى درجة استئهال الأنعام بالفصل في يوم الجمع لطيف التذكير به»[3] .

الحديث عن التقوى جاء في مطلع السورة ، وفي الحديث عن الحج ، وفي آخر السورة من قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٥٣٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٧/١٨٦ .

(٣) مصاعد النظر ٢/٢٩٤ .

وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ . . . ﴾ إلى آخر السورة فآذن هذا التوزع للمقصود بتشارب الآيات التي بين هذه المواضع من نور هذا المقصود ، وقد أبان كلام الأئمة ـ كما مضى ـ أن زلزلة الساعة سبيل الحث على التقوى أمر هذه السورة ، وهم يختلفون في وقت حصول هذه الأهوال على قولين **أحدهما** : أن ذلك في الدنيا بقرائن ما ذكر من أهوالها من ذهول المرضعات ووضع الحوامل وسكر الناس ، فهي من مظاهر الدنيا .

وثانيهما : أن ذلك بعد نفخة القيام لرب العالمين ، وهو ما استظهره ابن جرير ، ويرجحه ما رواه الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ لما نزلت : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ . . . ﴾ قال : أنزلت عليه هذه الآية ، وهو في سفر فقال : أتدرون أي يوم ذلك؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذاك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار ، قال : يارب وما بعث النار؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحدا إلى الجنة . . . إلى آخر الحديث[1] .

وكون الجملة ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ . . . ﴾ تعليلا « يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرًا في الأمر بالتقوى ، وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان ، وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ »[2] .

والرأي الثاني هو الناظر إلى آيات السورة وجريانها ، والرأي الأول هدانا إلى استبصار علاقة بين أهوال الساعة ـ التي هي من خصائص

---

(١) يراجع : جامع البيان ١٧/٨٥، ٨٦، والكشاف ٣/٣، والجامع لأحكام القرآن ٦/٤٥٣٥ .

(٢) البحر المحيط ٦/٣٤٩، والتحرير والتنوير ١٧/١٨٦ .



السورة ـ وأطوار التخليق ، واهتزاز الأرض للإنبات ، وهما دليلا البعث في هذه السورة الذي هو محل الجدل ، والذي تعقبه هذه الأهوال التي هي سبيل الحث على التقوى في هذه السورة ، وفي البعث ـ محل الأهوال المذكورة ـ الجزاء والعقاب ـ تتفاوت دركات الإنكار له ، ودرجات الإيمان به والمؤمنون به والمنكرون له خصمان ولكل مثوى وعاقبة .

أرأيت كيف استتبع المقصود سبيلا في الحث عليه ، واستتبع ذلك السبيل تقريرا ـ ليصح ويستقر ـ بدفع ما يثار حوله من خصومة وجدل واقتضى ذلك البيان عن مآل الخصمين ، ثم ذكرت السورة مقصودها في أعلى مستوياته في آيات الحج ، ثم عادت السورة إلى تقرير سبيل الحث على مقصودها بوجه آخر ، ينظر إلى ما ذكر قبل آيات الحج أحاطت آيات سبيل الحث على المقصود آيات الحج من بين يديها ومن خلفها ، وأحاطت آيات المقصود آيات سبيل الحث عليه (البعث ومستتبعاته) في أول السورة وفي آخرها ، بهذا الإحكام الذي لا تتناهى عجائب تدبره وتحليله .

ودونك لطائف ذكرها أهل العلم ـ وحاولنا تفهمها ـ تتأيد بها هذه الدعوى الهول المذكور هاهنا (هول زلزلة الأرض) (وهول يعترى الخلق) وللبعث في هذه السورة دليلان (دليل أطوار التخليق) (ودليل اهتزاز الأرض للإنبات وإنباتها من كل زوج بهيج) إن القرآن يجبرنا على فهم مظاهر الكون وتبصره على وجه يهدم ما قرره الناس من قوانين علمهم ، لأن مظاهر الكون تذكير به ـ جل وعلا ـ ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ . . .** ﴾

(آل عمران: ١٩٠ ، ١٩١) .

الزلزلة مصدر مضاف إلى فاعله سواء أكان من زلزل المتعدي أو اللازم كما ذكر أبو البقاء والمفعول به تقديره الناس فيما قال ، والأحسن منه أن يكون الأرض كما قال السمين الحلبي فيما نقله الشيخ الجمل ، وفيما ألمع به الزمخشري[1] من أنها الزلزلة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا** ﴾ (الزلزلة:١) وفي إضافة الزلزلة مجاز عقلي ، يدل على اتساع أهوال الساعة ، ويستدعي كل آيات الذكر الحكيم الدالة على اضطراب نظام الكون الذي به تتبدل الأرض غير الأرض والسموات والزلزلة زلزلة الأرض محل الهول ، ومناط الدليل على البعث في السورة ﴿ **وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ (الحج:٥) ضعها بإزاء آية فصلت ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ (فصلت:٣٩) في سياق السجود والخشوع يفهم اهتزاز الأرض على أنه خضوع وتسبيح ، وفي سياق ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ** ﴾ (الحج:٥) هاهنا يفهم الاهتزاز على أنه تذكير بزلزلة الساعة ، ودلك القرآن على هذا الفهم بقوله : في الحج ﴿ **هَامِدَةً** ﴾ كما يصير الإنسان بعد أطواره بالموت جثة (هامدة) ، ودلك على المراد الآخر في فصلت بقوله : ﴿ **خَـٰشِعَةً** ﴾ وآيات أطوار التخليق جاءت في مواضع أخرى[2] ، إلا أنها لم تسق دليلا للبعث كما سيقت هاهنا بصريح القول ، ولا يدفع ما فهم في التنظير بين الآيتين أن آية فصلت ختمت بقوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ** ﴾ (فصلت:٣٩) لأن آية الحج ختمت بما يجبرنا

(١) راجع : الكشاف ٣/٣، وإملاء ما من به الرحمن ٢٣/٤، والفتوحات الإلهية ١٥١/٣ .

(٢) النحل ٧٠، والمؤمنون ١٢، ١٣، ١٤، والروم ٥٤، وغافر ٦٧ .



على وضعها في سياق أطوار التخليق المسوق للبعث بقوله : ﴿ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (الحج:٥) ألست ترى أن الدليل الثاني اكتفى بما ساقه الدليل الأول من أطوار التخليق ، فجاء بقوله : ﴿ بَهِيجٖ ﴾ لينظر به إلى قوله : ﴿ ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾ وإن استشكل بأن الله جاء بهذا الوصف لإنبات الأرض في سورة (ق) في قوله : ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (ق:٧) فإنه يدفع بما اختصت به سورة الحج عند سياقة نفس الأدلة على البعث بوجه آخر ـ بعد عرض آيات الحج وغيرها ، وذلك قوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحج:٦٣) وضع قوله : ﴿ مُخۡضَرَّةً ﴾ إزاء قوله : ﴿ بَهِيجٖ ﴾ في هذا السياق تعظم عندك هذه اللطيفة ، فإن بهجة الزرع تكون في غاية اخضراره .

ساقنا إلى الحديث عن الدليل الثاني ما ذكر من الهول أولا ، الهول الثاني كله خاص بالإنسان ، بل الملحوظ أنه يهتم بذهاب العقل من شدة هول ذلك اليوم ﴿ تَذۡهَلُ ﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ وأبان عن شدة هذا الذهول بقوله : ﴿ مُرۡضِعَةٍ ﴾ لأن المرضعة «التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به»[(١)] ، ألست تراه بالنص على حال الإرضاع ينظر إلى الدليل الأول على البعث في آيات أطوار التخليق ﴿ ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ﴾ وماذا في قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ ﴾؟ ألست تبصر أن الاهتمام بذهول العقل من شدة الهول ، مما يُعَرِّض بالمجادل الذي يأبى إلا اتباع كل شيطان مريد في إنكار البعث محل هذا الهول؟ الذي نبه السياق بعد على كبره وتعاظم إعراضه بما لم يقع في سورة أخرى إذ هو لم يعرض اتكاء

---

(١) الكشاف ٤/٣ .



على علم ، ولا استنادا إلى حجة ، ولكنه جاهل ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٩) أرأيت إلى هذا المكابر عندما يخذله ويطعنه استذكاره حال نفسه حين الحمل وحين الإرضاع؟ وكيف كان ضعيفا ذاهلا بمن حوله؟ ولئن أصر على ألا يستذكر فلتُصِرَّنَّ الدنيا كلها بوليده المحبوب لديه ، وبزوجه المؤثرة عنده ، وبأبناء الناس جميعا وأزواج الرجال جميعا الحوامل منهن ـ لتُصِرَّنَّ الدنيا على تذكيره هذا الحال ، ذلك نور سياق ذكر الساعة في مقصود الحث على التقوى يجبرنا على اتساع جهة النظر ليساقات آيات البعث في الذكر الحكيم كله ، وتناسبها مع مقاصد ما سيقت له ، والأمر كما ترى في هذا التعانق الذي حاولنا بيان شيء منه ، ثم يطيش كل قول بعد الانتهاء من تحبيره ، وتبقى دلالات كلمات الوحي بكرا كما كانت . . .

القرآن يدلنا إذا ما جادلنا في البعث مستكبرٌ في جهالة ألا نسوق له غير هذه الأدلة التي تخذل عقله وتهزم عزه .

الناس تجاه البعث ـ الذي هو محل الهول الذي هو سبيل الحث على التقوى أصناف ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ ﴾ (الحج:٣، ٤) والذي وصف بعد سياقة الأدلة بالكبر ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٨) ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٩) إنه لا يكتفي بإعراضه وإنما يريد أن يعرض الناس جميعا عما أعرض عنه ، بل إنه لا يريد أن يستمع أحد إلى هذه الآيات التي تطعن عقله وتهزم عزه ، الذي يشيده اجتماع الدَّهْمَاء من حوله ، بل إنه يخشى على نفسه أن يؤمن إذا ما تليت عليه هذه الآي ، لأن قائده هو الشيطان المريد ، ولن تجد في آيات الجدل[1] كقوله : ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ (الحج:٣) .

---

(١) راجع في المصحف الشريف مثلا : الرعد ١٣، لقمان ٢٠، غافر ٥، ٤، ٣٥، ٥٦، ٦٩ .



ويسعى هذا الصنف بشياطينه في آيات الله محاولا إبطالها معاجزا ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ (الحج:٥١) وأمنية كل رسول ونبي أن يؤمن الناس جميعا ، وأمنية الشيطان المريد ، ومتبعيه ألا يؤمن الناس جميعا كلاهما طرف نقيض للآخر . . أولهما يبسط الآيات والحجج ، وأمنيته هداية الخلق وثانيهما يجتهد في إلقاء الشبهات ، وأمنيته إضلال الخلق ، فينسخ الله ما يلقيه الفريق الثاني وتتساقط شبهاتهم ، فلا يرى هذا الفريق إلا إبعاد المحيطين به عن مجرد الاستماع إلى هذه الآي ، وقد أبان الذكر الحكيم بآية ـ في هذه السورة دون غيرها ـ تبين عن قوة إحكام الله آياته وسلطانها ، وتبين مع ذلك عن قوة غيظ متبعي الشيطان المريد ، ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (الحج:٧٢) .

وما قلناه تنوير كلمة الزمخشرى عند قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ ﴾ (الحج:٥١) فيما يقول : « والمعنى سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرا وشعرا ... ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم »[(١)] .

والقيد الذي هو قوله : ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ (الحج:٣) هو الذي فسر لنا اختصاص السورة بقوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ ﴾ (الحج:٥٢، ٥٣) ونور هذا السياق هو الذي هدى ابن عاشور[(٢)] إلى دفع ما حشيت به كتب

---

(١) الكشاف ١٨/٣ .

(٢) يراجع : التحرير والتنوير ٢٩٨/١٧ وما بعدها ، ولاحظ أن ما أبصرناه من نور بيانه عند الآية رحمه الله .

التفسير من أن الآيات نزلت في قصة الغرانيق بما ينأى عنه الذكر الحكيم ، وما تأباه عصمة النبيين .

المهم أن قوله : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ (الحج:٧٢) جاء ناظرا إلى قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ** ﴾ الواقع قبل سوق دليلي البعث وبعده ، ثم يأتي القرآن بمثل يبين عن ضعف الشركاء وضعف عابديهم في قوله : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ** . . .﴾ إلى قوله : ﴿ **ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ** ﴾ (الحج:٧٣) وهذا التذييل ربما يتأيد به ما رأيناه من كشف العلاقة بين دليلي البعث وهول الساعة .

وبعد هذا المثل تأتي آيات ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** . . .﴾ إلى آخر السورة لتجمع كل معاني التقوى ، فنحن إذن بوسعنا أن نتبين أن آخر السورة يجمع مقصودها كما أن أولها يجمع مقصودها ، والمقصود في أعظم درجاته في أوسطها ، وللتوصل إلى أعظم درجات مقصودها طريقان : إما أن نصل إليه من أولها إلى نهاية أعظم درجات مقصودها ، وإما أن نصل إلى أعظم درجات مقصودها من آخرها إلى أول آية فيه ، والبديع أنك تجد تراكيب الطريقين في الوصول إلى أعظم درجات مقصودها متقاربة .

خذ مثلا قوله ، قبل البيان عن المجادلين ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ (الحج:٧٢) يقول ربنا : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ (الحج:٧١) ألا تراه يجمع الآيتين في قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (الحج:٣ ، ٤) .



ولعلك ترى أن قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (الحج:٦٩) ينظر إلى ما بعد أهوال الساعة والبعث من الجزاء والعقاب ، وقد نبهك بذلك إلى قوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ .

وقد نبه إلى قوة الحجة ، وإصرار الخصم على باطله بقوله : ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (الحج:٦٨) ، وقد لفت إلى نسك الحج أدل شعيرة على مقصود السورة بقوله : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ ﴾ (الحج:٦٧) .

ولخص دليل البعث الأول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ (الحج:٥) وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الحج:٦٦) ثم أبان عن أنه لا يعرض عن هذا الدليل إلا كفور ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ (الحج:٦٦) يقول جار الله العلامة عند هذه الآية أي «بعد أن كنتم جمادا ترابا ونطفة وعلقة ومضغة»[1] كأنه كان يضع هذه الآية إزاء نظيرتها في أول السورة ، وهو الأمر الذي يجبرنا على أن قوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً ﴾ (الحج:٦٣) بإزاء قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (الحج:٥) ولعل قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ لَيُدۡخِلَنَّهُم ﴿٥٨﴾ مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾ (الحج:٥٨ ، ٥٩) ينظر إلى قوله : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ (الحج:٥٠) وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

---

(١) الكشاف ٢١/٣ .



خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ . . .﴾ (الحج:٣٨-٤١) .

والآيات في كل ذلك تتقابل مع آيات الخصم ، وهذه الآيات بخيطها تنظر إلى قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الحج:٣٤، ٣٥) ولاتنسى أن هذا الوصف للمؤمنين ﴿ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ الذي وقع هذا الموقع يجبرك على هذا السياق بما قابل به المجادلين اتباعا للشيطان الذي يلقي فيما يتمنى كل رسول ونبي من هداية قومه في قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج:٥٤) .

وكان ابن عاشور قد أبصر علاقة بين قوله : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ (الحج:٦٧) وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ (الحج:٣٤) فقال : « هذا متصل في المعنى بقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ... ﴾ وقد فصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده من قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ إلى هنا فعاد الكلام إلى الغرض الذي في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا ﴾ »[1].

والسياق ـ فيما أرى أفسح من هذا ـ تختص السورة بوصفهم بالإخبات لا سيما في الحج يقول أبو حيان : « وناسب تبشير من اتصف بالإخبات هنا لأن أفعال الحج من نزع الثياب والتجرد من المخيط وكشف الرأس ، والتردد في تلك المواضع الغبرة المحجرة والتلبس بأفعال شاقة ـ لا يعلم

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٣٢٧ .



معناها إلى الله ـ تعالى ـ مؤذن بالاستسلام المحض والتواضع المفرط، حيث يخرج الإنسان عن مألوفه إلى أفعال غريبة ولذلك وصفهم بالإخبات»[1] .

«والإخبات نزول الخبت وهو المكان المنخفض»[2] ولئن أريد بالمخبتين المخلصين «فإن الإخبات صفتهم»[3] ويفسره ابن عاشور بأنه «المتواضع الذي لا تكبر عنده»[4] .

لا تنس أنا مع سياق الآيتين (٥٨ ، ٥٩) ولكنا أوردنا كلام أهل العلم مؤانسة لما نحاوله من الكشف عن خيوط بيانات السورة، لاحظ أنه قال في الآيتين ﴿ **لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ** . . . ﴾ تدبر بعدما قررت بسياق آيات الحج ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ** ﴾ (الحج:٢٣ ، ٢٤) ، تدبر معها ﴿ **وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الحج:٥٤) وضعهما بإزاء قوله : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ** ﴾ (الحج:١٦) .

وقابل بين الخصمين في الجزاء ضع مثلا قوله : ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ** ﴾ (الحج:٢٤) بإزاء قوله : ﴿ **فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾** ﴾ (الحج:١٩ ، ٢٠ ، ٢١) ، ألست ترى أن قوله :

---

(١) البحر المحيط ٣٦٩/٦ .

(٢) الفتوحات الإلهية ١٦٧/٣ .

(٣) البيضاوي ٩٢/٢ .

(٤) التحرير ٢٦٠/١٧ .



﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ . . . ﴾ وقوله : ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ . . . ﴾ هو جزاء الصنف الذي قال القرآن فيه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ (الحج:١١) ، ما مدى انتفاعه بهذا الخير أليس الملبس والمأكل ، شاكله الجزاء في الآخرة ، ولذلك لن تجد كهذه الآية في العقاب ، لأنك لن تجد كالأولى في تصوير الجرم بطريق الاستعارة التمثيلية ثم خذ قوله : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (الحج:٢١) لتضعهما على رأس المجادل في جهالة واستكبار ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ (الحج:٩) بما يجبرك الذكر على فهمه من قوله في الآية (الحج:٢٢) ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وقوله في الآية (الحج:٩) ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (الحج:٩) ثم يجبرك السياق بالخيط الذي حاولنا البيان عنه ـ وباختصاص آيات الحج بوصف المؤمنين بالإخبات الذي هو التواضع المفرط بأن تقابل أوصافهم وجزاءهم بالتكبر المفرط وأوصاف ذويه وعاقبتهم فتستبين أثر المقصود من السورة (الحث على التقوى) ، وتفسر في هذا النور اختصاص السورة بقوله : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ . . . ﴾ (الحج:١٩) وهما فريقا المتواضعين المؤمنين والكافرين المكابرين .

ولما استحكم مقصود السورة عند البقاعي زعم أن قوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الحج:٢٦) معطوف على أول السورة يقول : ـ رحمه الله ـ عند الآية « ولما ذكر الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به وبحجه لما فيه من التذكير بالقيامة الحاملة على التقوى ، التي هي مقصد السورة ، بما فيه من الوفادة على الله ولما فيه من الحث على التسنن بأبيهم الأعظم إبراهيم عليه السلام فقال : مقرعا وموبخا لمن أشرك في نفعه ـ أسست على التوحيد من أول يوم عطفا على قوله : أول السورة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ . . . ﴾ ـ ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا . . . ﴾ »[1] .

(١) نظم الدرر ١٣/٣٥، ٣٦ .

ثم يتكلم على الفرق بين قوله هنا : ﴿ وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ ﴾ (الحج:٢٦) وقوله : في البقرة : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ ﴾ (البقرة:١٢٥) فيقول : « ولما تقدم العكوف (يشير إلى قوله : ﴿ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ ﴾) فاستغنى عن إعادته قال : ﴿ وَٱلۡقَآئِمِينَ ﴾ أي حوله تعظيما لي كما يفعل حول عرشي ، أو في الصلاة ، ولأن ـ العكوف بالقيام أقرب إلى مقصود السورة »[1] .

وقد دارت آيات الحج على تعظيم شعائر الله مقترنة بالهدى ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ (الحج:٢٨) ولاحظ قوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ (الحج:٣٠) الأمر ليس في إتيان الطاعات ، وإنما هو في تعظيم الحرمات وتعظيم الشعائر وذلك أعظم التقوى لذلك اختصت آيات الحج هنا بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ (الحج:٣٢) قال جار الله : « وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء »[2] .

ألست ترى أنها أعظم التقوى في الذكر الحكيم كله ، يقابلها أعظم الإعراض فيما يقول القرآن ـ بعد التنصيص على المكذبين بما لم يقع في سورة أخرى أيضا على ورود آيات تكذيب المرسلين في غيرها من السورة[3] في قوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (الحج:٤٢-٤٣) كأن القرآن يقول ، الجدال بالباطل وخصومة أهل الحق (المرسلين والنبيين) دأب كل الأمم من قبل ، كما

---

(١) نظم الدرر ١٣/٣٦ .

(٢) الكشاف ٣/١٤ .

(٣) آل عمران ١٨٤، والعنكبوت ١٨، وفاطر ٢٥ .

يترجمه التعميم بين الفريقين بما لم يقع في سورة أخرى في قوله ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ** ﴾ (الحج:٥٢ ، ٥٣) .

يعقب القرآن بعدما نص على تكذيب الأمم أنبياءهم بما يقابل به قوله ـ في المخبتين ﴿ . . . **فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ** ﴾ (الحج:٣٢) ـ بقوله في المكذبين ﴿ **أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** ﴾ (الحج:٤٦) ولا كهذا التركيب في الذكر الحكيم .

ثم يقول سياق الحج في مقصود الحث على التقوى ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ** ﴾ (الحج:٣٤) ثم يقول في سياق ﴿ **وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ** ﴾ (الحج:٣٢) ﴿ **وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ** ﴾ (الحج:٣٦) وفي سياق ﴿ **حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ** ﴾ أي اجعلوها خالصة لوجه الله على وجه الشكر ويقويه أنه قرئ (صوافي) في (صواف) أي خوالص لوجه الله قاله البيضاوي[1] .

أرأيت إلى تناسب هذا الأسلوب مع تعليق التقوى بالربوبية في المطلع كأن الهدى هو الذي يميز درجات التقوى في يوم الحج الذي يذكر بيوم الجمع ثم يختم هذا السياق بقوله : ﴿ **لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ** ﴾ (الحج:٣٧) ، وذلك بيان عن أعظم التقوى قال جار الله العلامة : « لن يرضى المضحون والمقربون إلى ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص ، والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية

---

(١) أنوار التنزيل ٩٢/٢ .



وأوامر الورع ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم »[1].

أرأيت لو جاءت آيات البقرة أو آل عمران هنا أكانت تصلح في سياق هذا المقصود؟ ماذا ترى في اختصاص السورة بوصف العذاب بأنه ﴿ **عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ** ﴾ (الحج:٥٥) ألست ترى أنه متناسب مع قوله : ﴿ **يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ** ﴾ (الحج:٢) على وجه ما من التناسب الظاهر بين الحمل والإرضاع والعقم؟

وجاءت آيات الختام جامعة لما سبق في آيات الحج من معاني التقوى وناظرة لما وضع أول آيات الحج في قوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ** ﴾ (الحج:٢٥) .

وما أعقبت به من قوله : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ** ﴾ (الحج:٣٩) ومن بيان أن ذلك دأب الشرائع جميعا ﴿ **وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ** ﴾ (الحج:٤٠) حفاظا على الشعائر والنسك جاءت آيات الختام من قوله : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ** ﴾ (الحج:٧٧) يقول جار الله ناظرا إلى آيات الحج « للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات،وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة ، التي هي ذكر خالص ، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو ، ثم عم بالحث على سائر الخيرات »[2].

لعله كان ناظرا إلى ما ذكر في سياق آيات الحج من الذكر والتكبير خمس مرات[3]، وآيات الختام تلح على هذا ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ**

---

(١) الكشاف ١٥/٣ .

(٢) الكشاف ٢٣/٣ .

(٣) الآيات : ٢٨، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ .



هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (الحج:٧٨) وهذا التركيب يحثنا إلى النظر إلى آيات الحج وما أحاط بها من آيتي الجهاد ، وفي الختام بين أثر الحث على التقوى عند الإجابة إليها ﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨) قال برهان الدين ـ رحمه الله ـ : « هذا نتيجة التقوى ، وما قبله من أفعال الطاعة ودليلها ، فقد انطبق آخر السورة على أولها ورد مقطعها على مطلعها »[1].

وقال ابن عاشور : « وهذا الإنشاء يتضمن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره ، وبذلك حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به ، وهذا من براعة الختام كما هو بين لذوي الأفهام » ألست ترى ذلك يتقابل مع قوله : ﴿ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ (الحج:١٣) في سياق ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ﴾ (الحج:١١ ، ١٢) وهكذا تتشابك تراكيب السورة وآيها في التظاهر على مقصودها تشابكا بديعا ، يلزمك عند استكشاف دقائق فروق تراكيب كل آية منها أن تضع كل آي السورة نورا كاشفا لها ، بل كل آي الذكر الحكيم التي تناولت موضوع الآية محل النظر ، ولدقة الملابسات يتعاظم الشأن في البيان عنها ، وتند العبارة التي تحاول الإحاطة بالكشف عن هذه العلائق ، فيأتي البيان عنها غائما متلددا على تعاظم إشعاعات هذه العلائق في الفؤاد ، فلله نوره .

* * *

(١) نظم الدرر ١٣/١٠٤ .





الفصل الثاني

الافتتاح بالأمر

أولا : سورة الإخلاص :

عن أبي سعيد الخدري أن رجلا سمع رجلا يقرأ : ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ـ وكأن الرجل يتقالّها ـ فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن) ـ وعنه أنه قال : قال النبي ﷺ لأصحابه أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ، فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله ﷺ فقال : (الله الواحد الصمد ثلث القرآن)(١) وروى مسلم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : (إن الله ـ جل وعز ـ جَزَّأَ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ جزءا من أجزاء القرآن)(٢) .

لله أنت يا سيدي يا رسول الله النبي ﷺ يصنف أجناس المعاني في القرآن الكريم ، ويردها إلى ثلاثة أصول (أحكام وأخبار وتوحيد) كما

---

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن ٣ /٢٣٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٧٥٩٢، فتح البارى ٨/٦٧٨ .

ذكر ابن حجر والسندي[1] رحمهما الله ـ عن العلماء ، «وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثا ، ثلثا منه أحكام ، وثلثا منه وعد ووعيد ، وثلثا منه أسماء وصفات ، وقد جمعت ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ أحد الأثلاث ، وهو الأسماء والصفات)[2].

والمفارقات في روايات الحديث الواحد لا تتناقض ، ولاتتعارض بل تتجاور وتتحاور ـ كما قال بعض أهل العلم في استخراجه أسرار بلاغة أحاديث العزل[3] ـ لذا كانت رواية أبي سعيد الثانية واضعة يد العلماء على الخصائص التي بها عدلت السورة ثلث القرآن (أحد ـ الصمد) ومن دقائق البيان المعجز ورقائقه أنك لا ترى الجملتين الأوليين من السورة في آي من آيات التوحيد ونفي الشريك في الذكر الحكيم ، النبي ﷺ أغنانا عن مقارنة أسلوب التوحيد ونفي الشريك في السورة ، بأساليب ذلك المعنى في الذكر الحكيم كله .

والحق الأزهر أن حمل المثلية على تحصيل الثواب لا يكون إلا بالعمل بما تضمنته من الإخلاص والتوحيد ، وليس لائقا ببيان النبوة حمله على سبب الورود ترغيبا للقارئ ـ قتادة بن النعمان ـ وليس المراد ثلث حجمه المكتوب كما يتبادر من إطلاق (ثلث القرآن) فبقي الأعلى القول باشتمالها على معنى ثلث القرآن (التوحيد) كما تؤدي إليه الروايات عن النبي ﷺ وتراكيب السورة من قبل ، ولم يقل النبي كمثل هذا القول في

(١) فتح الباري ٦٧٨/٨، وحاشية السندي على صحيح البخاري ٢٣٠/٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٥٩٢/١٠ .

(٣) هو كتاب الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد فقه بيان النبوة منهجا وحركة ، مكتبة وهبة ١٤١٣هـ .

سورة أخرى ، ولا يدفع ذلك ما روي عنه ﷺ من أن سور (الكافرون ، والنصر ، والزلزلة ، وآية الكرسي) تعدل كل منها ربع القرآن ـ فالقول بذلك مع ما قيل في سورة الإخلاص يئول إلى إشكال في التقسيم بكل وجه ، على أن أهل العلم قد ضعفوا من حيث السند الأحاديث المروية في هذا المعنى في غيرة سورة الإخلاص[1].

وليس سائغا أن يقال : إن ما روي في السورة كان قبل نزول آية الكرسي ، والأعلى أنه «لا توجد سورة واحدة جامعة لما في سورة الإخلاص»[2] وتسميتها بالإخلاص أجمع لمعانيها ، وتسميتها بالصمد بيان لما اختصت به ، وتسميتها بالأساس لاشتمالها على التوحيد إشارة إلى أن الجنسين الآخرين لمعاني القرآن تحت هذا الجنس فهو رأس الدين[3] . فتعدد الأسماء ـ كما ترى ـ كشف عن عدة جوانب عن مقصود السورة ، وعن شيء من خصائصها ، وعن مساقها القرآني وموقعها من معاني القرآن الذي يجمع الدين ، قال البقاعي في تحرير مقصودها : ناظرا إلى تراكيبها مع أسمائها مع سياقها القرآني ـ «ومقصودها : بيان حقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالإنصاف بأقصى الكمال ، للدلالة على صحيح الاعتقاد ، للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال ، ونفي شوائب النقص والاحتلال المثمر لحسن الأقوال والأفعال وعلى ذلك دل اسمها الإخلاص الموجب للخلاص ... وهي أعظم مفيد للتوحيد في القرآن»[4] فالمقصود هو الإخلاص في التوحيد ، والسبيل إلى البيان عنه إثبات الكمال ونفي شوائب النقص .

---

(١) راجع فتح البارى ٦٧٨/٨، ٦٧٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٢١/٣٠ .

(٣) راجع الإتقان ٧٣/١، والتحرير والتنوير ٦٠٩/٣٠، ٦١٠ .

(٤) مصاعد النظر ٢٨٠/٣، وراجع النظم الفني في القرآن ، ص٣٧٢ .



ويحدد السيوطي ـ رحمه الله ـ مطلع السورة الكريمة ـ على قصرها بعد بيان المناسبة بين السورة وبين سورة (الكافرون) وكان هداه إلى هذه المناسبة ما ورد في صحيح السنة من قرن النبي ﷺ بينهما في سنن الفجر والطواف والضحى والمغرب ، وغير ذلك ـ وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن (الإخلاص) تقابل (الكافرون) يقول : «وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن معبوده (أحد) وأقام الدليل عليه بأنه (صمد لم يلد)»[1] وكلمته تلك كاشفة أن المقصود يجمله قوله ﴿ **قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ وما وليه كالدليل له وهو يبين لنا ما جاء تابعا في الغرض الواحد .

وافتتح السورة بفعل الأمر ﴿ **قُلۡ** ﴾ والخطاب بقل للتشريف في الذكر الحكيم كما قال الزركشي ـ رحمه الله ـ وهو تشريف لهذه الأمه وفيه الفوز بشرف المخاطبة من غير واسطة ، والأمر بهذا المعنى خرج إلى المجاز[2] ـ ونكتة الافتتاح به فيما ذكر ابن عاشور ـ العناية بما بعد فعل القول ، وشيء آخر هو ملاءمته سبب النزول إذ نزلت السورة جوابا للمشركين عن قولهم : انسب لنا ربك[3] .

وموقع الضمير في صدر السورة دون مرجع استحث نظر العلماء لاستخراج نكتته فجاءت إجابتهم ناظرة إلى مقصود السورة قال أبو السعود :

---

(١) تناسق الدرر ص١٦٠، ١٦١ .

(٢) راجع : البرهان ٢/٢٥١، ٢٥٢، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص٦٢ دكتور صباح عبيد دراز ، ط . أولى ١٤٣٦هـ .

(٣) راجع جامع البيان ٣٠/٢٢١، ٢٢٢، وأسباب النزول ، ص٣٤٥، ٣٤٦، والتحرير والتنوير ٣٠/٦١٢ .



« الضمير للشأن ومدار موضعه مع عدم سبق ذكره الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضر كل أحد . والسر في تصدير الجملة به ، التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها وجلالة حيزها مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ، ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن[1] .

وهي نكتة تتناسب مع أسلوب تقرير التوحيد الذي جرت السورة الكريمة على سننه وقد ذكروا أن الضمير كفاية عن اسم الله ـ ويكون حينئذ مبتدأ و﴿ ٱللَّهُ ﴾ خبره ، أو أنه كناية عن الشأن ويكون ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مبتدأ و ﴿ أَحَدٌ ﴾ خبره ، أو يكون التقدير بالنظر إلى سبب النزول : إن هذا الذي سألتم عنه هو الله أحد[2] والوجه الأول جار على تفسير صوفي ، والثالث مقترن بسبب النزول ، والوجه الثاني أظهرها وأبعدها من التكلف وتكون الجملة ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ واستخدام لفظ ﴿ أَحَدٌ ﴾ جار في مقصود السورة وكانت كلمة النبي ﷺ مشيرة إلى معجم مفردات مقصود السورة ، وأن المقصود يقتضي مفردات ، وتراكيب تنسقها على وجه يلائم مقصودها الأعظم .

زخرت كتب الأئمة باستخراج دقائق الفروق بين (أحد) و (واحد) بحيث لو أدير لسان العرب على وضع غيرها موضعها لم يكن ذلك مع أن (واحد) أشهر من (أحد) .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/٧٥١ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٨/٧٥٥ .

قال زين الدين الرازي في تعليل العدول عن الأشهر «يجوز أن يكون العدول عن الغالب هنا رعاية لمقابلة الصمد»[1] ولعل الأولى أن يقال : إن (الصمد) الذي لم يقع في غير السورة هو الذي جاء متلائما مع (أحد) .

وقد قالوا في الفرق بين (واحد وأحد) أقوالا ـ غير القول بترادفهما ـ تتلاءم مع المقصود .

أحدها : أنه لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى ، فلا يشركه فيها شيء وهو ألصق بالغرض .

ثانيها : أن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه . فهو أعم في إثبات الكمال .

ثالثها : أنك إذا قلت : فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد .

رابعها : أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي فيفيد العموم وهو مردود باستعمال القرآن : ﴿ **فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ** ﴾ (الكهف:١٩) وإنما يقبل هذا التفريق بأن المشتهر استعمال أحد في النفي وواحد في الإثبات .

خامسها : أن لفظ الله يدل على استجماع صفات الكمال (وهي الثبوتية كالعلم . . .) .

ولفظ (أحد) يدل على صفات الجلال (وهي الصفات السلبية كالقدم والبقاء) فيكون التركيب مثبتا للكمال بكل وجه .

سادسها : أن الأحد دال على أنه ـ تعالى ـ واحد من جميع الوجوه ،

(١) مسائل الرازي وأجوبتها ص٥٥٧ .

وأنه لا كثرة هناك أصلا لا كثرة معنوية ولا حسية ، وقد فهم المسلمون الأولون هذا فيما روي عن بلال حين التعذيب أنه كان يقول أحد أحد .

سابعا : أن الأحد هو الواحد الذي لا كثرة في ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة فليس بمادي ، ولا هو من أصول متعددة غير مادية .

ثامنا : أن (أحد) صفة مشبهه ، تفيد تمكن الوصف في موصوفها بأنه ذاتي له بخلاف (واحد) فإنه اسم فاعل لا يفيد التمكن وأوثر لأن المراد أنه منفرد بالإلهية ، فهو يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه ، وأن ليس كمثله شيء ويناسب معه ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ** ﴾ .

تاسعا : أن (أحدا) لا ينبني عليه العدد ابتداء ، فلا يقال أحد واثنان كما يقال واحد واثنان[(1)] وهو استعمال لغوي ونكتته انتفاء التعدد ، لأن الملفوظ به لا ينبني عليه عدد .

وقد جاء الخبر (أحد) منكرا تلاؤما مع المقصود قال الإمام محمد عبده « ونكر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله أنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواه »[(2)] والذي أرى أن التنكير إنما جاء جريا على الأسلوب السابق في ذكر الضمير دون مرجع تنزيلا للمنكر المتردد (الله أحد) وإيذانا بأن قليل التوكيد ـ على اعتبار اسمية الجملة توكيدا ـ يكفي في إزالة الشبهة ، أو تنزيلا للمنكر منزلة الجاهل ـ على أن اسمية الجملة لا تعد توكيدا إلا

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٧٥٥/٨، ٧٥٦، والجامع لأحكام القرآن ٧٥٨٩/١٠، وإرشاد العقل السليم ٧٥٢/٨، والفتوحات الإلهية ٦٠٤/٤، وتفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص١٣٤، في ظلال القرآن ٤٠٠٢/٦، والتحرير والتنوير ٦١٤/٣٠ وما بعدها .

(٢) جزء عم ص١٣٤ .

إذا اقترنت بمؤكد آخر ، والذي في هذا الأسلوب أن بناءه يومئ إلى اشتهارالخبر ذاته كالضمير السابق ، فلا مجال للقصر بتعريف الطرفين هاهنا فلا يصلح أن يقال (الله الأحد) .

﴿ **ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ** ﴾ وقد وقعت هذه الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال إيذانا بعلاقة التبعية التي جاءت عليها الجملة الثانية ، فهي كالنتيجة للأولى[1] والدليل لها . فكان الرابط المعنوي بينهما أقوى من الرابط اللفظي (العطف) وفي مجيئها بدون عاطف مزيه ـ إيهام استقلالها بذاتها ـ لتشكل عنصرا مستقلا في البيان عن المقصود ، وقد أحسن الشيخ الصاوي ـ رحمه الله ـ حين قال : « وهذه السورة الشريفة نفت أصول الكفر الثمانية . التركيب والعدد والنقص بمعنى الاحتياج والقلة بمعنى البساطة ، والعلة والمعلول ، والتشبيه والنظير ، أما الكثرة والعدد فانتفاؤهما بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ والنقص والقلة بقوله : ﴿ **ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ** ﴾ والعله والمعلول بقوله : ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** ﴾ والشبيه والنظير بقوله : ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ** ﴾[2] ولا ريب أن هذا التقسيم ناظر إلى إخلاص التوحيد لله الذي هو رأس الدين .

وقد جاء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، فوضع الظاهر موضع المضمر فلم يقل (هو الصمد) إيذانا باستقلال كل جملة[3] ونكتة أخرى ذكرها الفخر هو أن الظاهر ناسب التعريف في (الصمد) ولو أضمر لوجب التنكير في (الصمد) مع أن العربية لا تأبى ذلك ، وقد علل ـ رحمه

---

(١) انظر : البيضاوي ٥٨٢/٢، وإرشاد العقل السليم ٧٥٤/٨، ٧٥٥ .

(٢) حاشته الصاوي على الجلالين ٣٣٦/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٦١٧/٣٠ .

الله ـ لمجيء الأول منكرا والثاني معرفا بقوله : «الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس ، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم ، فإذا ما لا يكون منقسما لا يكون خاطرا ببال أكثر الخلق ، وأما الصمد فهو الذي يكون مصمودا إليه في الحوائج ، وهذا كان معلوما للعرب بل لأكثر الخلق . . . وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف»[1] .

ولما كانت الوحدانية لم تدع لغير الله جاءت الجملة الأولى معراة من التوكيد كما ذكرنا وكما كانت الصمدية تدعى ـ أحيانا وعلى وجه المبالغة ـ لغير الله ـ جاء الأسلوب بالقصر تلاؤما مع حال المخاطبين والقصر طريقه هاهنا تعريف الطرفين بأل «وهو قصر قلب لإبطال ما تعوده أهل الشرك في الجاهلية من دعائهم أصنامهم في حوائجهم والفزع إليها»[2] .

ولفظ (الصمد) من معجم مفردات المقصود ولم يقع في سورة أخرى ، ولأهل العلم في تأويله أقوال «إما أن يكون معناه : الذي يصمد إليه في الحاجات بشهادة الاشتقاق وإما أن يكون معناه : المستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وإما أن يكون معناه : المصمت الذي لا جوف له ، والمعنى الجامع لكل ذلك : المفتقر إليه كل ما عداه ولنظرهم لسياق السورة ردوا القول بأن معناه ما بعده ، وعلتهم في ذلك أن السياق يقتضي الاستقلال بأخبار كل جملة .

والصمد مشعر بأنه الذي ينتهي إليه الطلب ، دون واسطة ولا شفيع ،

---

(١) مفاتيح الغيب ٧٥٩/٨، والبرهان للكرماني ص٢٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٦١٨/٣٠، وراجع : جزء عم للإمام محمد عبده ص١٣٤ .

والفخر ـ رحمه الله ـ ذكر وجوها ترجع إلى الصفات السلبية وأخرى إلى الصفات الإضافية ، وذكر أن الأولى الحمل على الكل»[1] وكل هذه المعاني جارية في المقصود الأعظم للسورة (إخلاص التوحيد بإثبات الكمال) .

وقد جاء قوله : ﴿ **لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ** ﴾ معرى من العاطف إيذانا باستقلال الجملة بالإخبار ، وإيذانا بتبعية معناها للمعنى الأصلي للسورة بقوة الاتصال المعنوي بينها وبين ما قبلها بما يسمى كمال الاتصال .

والملحوظ في هذا التركيب أنه نفى الولد عن الله بطريق فارق الطرق التي جرت في القرآن كله ﴿ **سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ** ﴾ . وما أشبهه ونكتته أنه جاء كذلك ليدخل نفي الصاحبة ضمنا قال جار الله (لم يلد ـ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبته فيتوالدا ، وقد دل على هذا المعنى بقوله : ﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ** ﴾ لم يولد وصف بالقدم والأولية ، وقوله : ﴿ **لَمۡ يَلِدۡ** ﴾ نفي للشبه والمجانسة[2] وهذا التركيب يشمل كل تراكيب القرآن في هذا المعنى وزيادة ، وقد عطف عليها قوله : ﴿ **وَلَمۡ يُولَدۡ** ﴾ وهو «بمنزلة الاحتراس سدا لتجويز أن يكون له والد . . . وإنما قدم نفي الولد ، لأنه أهم إذ قد نسب أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى ، ولم ينسبوا إلى الله والدا . . . فلما أبطلت الجملة الأولى إلهية غير الله بالأصالة ، وأبطلت الجملة الثانية إلهية غير الله بالاستحقاق

---

(١) راجع : جامع البيان ٢٢٣/٣٠، والكشاف ٢٩٨/٤، ومفاتيح الغيب ٨٥٧/٨، ٨٥٨، والجامع لأحكام القرآن ٧٥٩٠/١٠، والفتوحات الإلهية ٦٠٥/٤، وتفسير جزء عم ص١٣٤، وفي ظلال القرآن ٤٠٠٤/٦ ، والتحرير والتنوير ٦١٧/٣٠ .

(٢) الكشاف ٢٩٨/٤، ٢٩٩ .

(هكذا يقول ابن عاشور مبينا أغراض الجمل ونسق تسلسلها) أبطلت هذه الجملة إلهية غير الله بالفرعية والتولد بطريق الكناية»[(١)] .

وقد ذكر الفخر ـ رحمه الله ـ سؤالاً مؤداه لم قال : هاهنا ﴿ **لَمْ يَلِدْ** ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل ﴿ **لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا** ﴾؟ والجواب : أن الولد يكون على وجهين أحدهما : أن يتولد منه مثله ، وهذا هو الولد الحقيقي ، والثاني ألا يكون متولدا منه ولكنه يتخذه ولدا . . . فقوله ﴿ **لَمْ يَلِدْ** ﴾ فيه إشارة إلى نفي الولد في الحقيقة وقوله : ﴿ **لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا** ﴾ إشارة إلى نفي القسم الثاني[(٢)] .

قوله : ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ** ﴾ ذكر ابن عاشور أن الواو اعتراضية وهي واو الحال ، وأن هذه الجملة «في معنى التذييل للحال التي قبلها لأنها أعم من مضمونها لأن تلك الصفات المتقدمة صريحها ومكنيها وضمنيها لا يشبهها فيها غيره[(٣)] وأصل هذا التركيب ولم يكن كفوا لـه أحد ، ومرجع ذلك إلى أنهم يؤخرون الظرف الذي هو لغو غير مستقر ، ولا يقدمونه بل قال سيبويه ، وأهل الجفاء من العرب يقولون ولم يكن كفوا له أحد ، كأنهم أخروها حيث كانت مستقرة[(٤)] مع أنه هو السائغ الشائع ، إلا أنه وقع مقدما في أفصح كلام تناسبا مع مقصود السورة وغرضها كما قال جار الله مجيبا عن هذا السؤال (قلت : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري ـ سبحانه ـ وهـذا المعنى مصبه

---

(١) التحرير والتنوير ٦١٩/٣٠ .

(٢) انظر : مفاتيح الغيب ٧٦٠/٨، ٧٦١ .

(٣) التحرير والتنوير ٦١٩/٣٠ .

(٤) الكتاب لسيبويه ٥٥/١، ٥٦ تحقيق عبد السلام هارون .

ومركزه هو وهذا الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه)[1].

وقد فصل الإمام محمد عبده هذا الوجه وعلل للتقديم بأن أشد الاهتمام (إنما هو بتنزيهه فقدم ضميره مع الجار في حيز الكون المنفي ، ثم قدم المنفي نفسه وهو الكفؤ ، لأن العناية موجهة إلى نفيه ، وآخر من سلبت عنه المكافأة لأنه لم يؤت به في الكلام إلا لقصد تعميم النفي فقط ، وإلا فقد كان يكفي أن يقال : وليس له كفؤ)[2] .

« واحد هنا بمعنى إنسان أو موجود ، وهو من الأسماء النكرات اللازمة للوقوع في حيز النفي ، وحصل بهذا جناس تام مع قوله : ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾[3] .

والجملة الأخيرة يشبه أن تكون ردا على الأولى من رد المقطع على المطلع والجناس الذي في (أحد) كأنه معلم على هذا ، ويشبه رد العجز على الصدر في الجملة الواحدة فهو أحد لا يكافئه أحد ، وصمد لا يشبهه صمد ، وقد ظهر أن دقائق فروق التراكيب وأحوال الجمل جاءت على مقتضى المقصود الذي يجمله المطلع والسورة على قصرها جمعت من الخصائص الأسلوبية في موضوعها ما لم يقع في نفس الموضوع في سورة أخرى . وما أجمل ما ألمع إليه الفخر ـ رحمه الله ـ من المناسبة بينها وبين سورة الكوثر فيما يقول «أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا

---

(١) الكشاف ٢٩٨/٤، ومفاتيح الغيب ٧٦٠/٨، والانتصاف ٢٩٩/٤، وأبو السعود ٧٥٩/٨ .

(٢) جزء عم ص١٣٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٦١٩/٣ .

إنه أبتر ، ولا ولد له ، وهاهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولدا ، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب وجود الولد عيب في حق الله ـ تعالى ـ فلهذا السبب قال هاهنا (قل) حتى تكون ذابا عني ، وفي سورة ﴿ **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ** ﴾ أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذابا عنك)[١].

وقد بين ـ رحمه الله ـ أن كلية سورة الكوثر قائمة على رد مطعنهم (الأبتر) وأن سورة الإخلاص تتقابل معها ، وما أجمل ما قال جار الله في السورة «والمعنى أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك ، ومعطي ذلك كله أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان ، إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم[٢] وهو من مؤدى تراكيب السورة الكريمة ـ وقد أفرد ـ رحمه الله ـ للسورة الكريمة (الكوثر) رسالة أجمل فيها وجوه الإعجاز ، كما ذكر الفخر ـ رحمه الله ـ أرجع ذلك إلى دلالات التوكيد ، وما في السورة من تعظيم الرب بضمير الجمع ، ومجىء الكوثر دون وصف إيذانا باتساع التأول ، وما في تعريف الكوثر من الأسرار ، وما في اللام في (لربك) ، من التعريض بين (العاص) وأشباهه وإخلاص العبادة لوجهه الكريم[٣] وإنما وقع هذا التقابل مع الفصل بين السورتين بسور أخرى لها اعتلاق بمقصود السورتين ـ إشارة إلى أن القرآن كله سياق واحد على ترتيب بديع بين سوره وآياته ، ومفردات كل آية في موقعها من آيتها وموقع آيتها من سياقها في السورة ، وموقع السورة من سياقها في الذكر الحكيم كله .

---

(١) مفاتيح الغيب ٨٦١/٨ .

(٢) الكشاف ٢٩١/٤ .

(٣) راجع نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازى ص٢٧١ وما بعدها تحقيق : أحمد السقا ، المكتب الثقافى ، ١٩٨٩م .

ثانيا : سورة الفلق :

أخرج أصحاب السنن الثلاثة (أحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبان) من حديث عقبة بن عامر قال : وقال لي رسول الله ﷺ قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، تعوذ بهن ، فإنه لم يتعوذ بمثلهن اقرأ المعوذات دبر كل صلاة فذكرهن»[1] . وقد دخلت ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ ضمن المعوذات على التغليب ، وقد أبان حديث النبي ﷺ عن سياقها القرآني ، وما أحسن ما قال الشيخ الصعيدى في هذا المقام في سورة الفلق . ويقصد من هذه السورة تخصيص الله بالاستعاذة من شر الخلق ، وهذا يدخل فيما سيقت له سورة الإخلاص ، من إخلاص الدين لله ـ تعالى ـ وبهذا يدخل سياق هذه السورة في سياقها ، ويكون ذكرها بعدها لهذه المناسبة[2] .

كأن المعوذتين جاءتا تابعتين لسورة الإخلاص ، بل كأنهما نتيجتا إخلاص الدين لله ـ تعالى ـ وعلامتا التصديق بهذا الإخلاص وقد نزلتا مَعًا كَمَا في الدلائل للبيهقي[3] واشتركتا في التسمية والافتتاح ، بل كأنهما نتيجتا التصديق بمقصود الكتاب كله ، بعد موقعهما من سورة رأس الدين (إخلاص التوحيد) فيما يقول ابن الزبير ـ رحمه الله ـ (ولما كمل مقصود الكتاب واتضح عظيم رحمة الله به ، لمن تدبر آياته وأناب ، كان مظنة الاستعاذة واللجوء من شر حاسد ، وكيد الأعداء ، فختم بالمعوذتين من

---

(١) فتح البارى ٨/٦٨٠ .

(٢) النظم الفني في القرآن ص٣٧٣ .

(٣) انظر : تناسق الدرر ص١٦٢ .

شر ما خلق وذرأ وشر التغليق[1] تلك مساحة نظر الأئمة لموقع السورة في سياق القرآن كله ، وقد تكلم ابن الزبير ـ رحمه الله ـ على اتصالها بما بعدها ، وعلة تقديمها عليها بما يكشف عن دقائق تراكيب السورتين .

يقول : ـ رحمه الله ـ «وجه تأخرها عن شقيقتها عموم الأولى ، وخصوص الثانية . ألا ترى عموم قوله ـ تعالى ـ من شر ما خلق ، وإبهام ما ، وتنكير غاسق وحاسد ، والعهد فيما استعيذ من شره في سورة الناس ، وتعريفه ونعته بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه وأوفى بالمقصود[2] .

كأن تراكيب السورتين والمفارقات التي وقعت في كل منهما أشارت عند الرجل على دقة الموقع ، وذلك باب في البحث البلاغي لا يتلطف إليه إلا العارفون ، وما من ريب في أن الذي جره إلى هذا التنظير بين السورتين هو تقارب المقصود منهما فكلاهما ـ فيما يظهر ـ يتظاهر على الاعتصام بالواحد الحق ، ويفترقان في البيان عن المعتصم منه ، ولكل من السورتين ـ على قصرهما ـ معجمه اللغوي وسمته التركيبي ، كما تسوق إليه مقالات الأئمة كما سنحاول بيان شيء منه .

يقول البقاعي ـ رحمه الله في مقصود الفلق ـ «ومقصودها : الاعتصام من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن ـ واسمها ظاهر الدلالة[3] والذي أبصره في كلمته هذه أن مطلع هذه السورة هو قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ** ﴾ وليس من هم هذا البحث الكشف عن العلاقة بين هذه الآية وآيات السورة من حيث النحو فذلك أمر ظاهر في أن بقية السورة

(١،٢) البرهان لابن الزبير ، ص٢٤٧ .

(٣) مصاعد النظر ٣/٢٩٨ .

تتعلق ـ إعرابا ـ بالفعل ﴿ أَعُوذُ ﴾ في مطلع السورة الكريمة ، وهذه علاقة لفظية ظاهرة ، ولعلها تشير إلى قوة العلاقة بين مطلع السور ومقصدها على هذا الحد من الظهور في السور الطوال والمئين وغيرها كما حاولنا بيانه ـ بفضل منه تعالى ـ ولو كان للإعراب دخل في تقسيم آي السورة لكانت هذه السورة آية واحدة ، وكأن تقسيم الآي إشارة إلى استخراج دواعي هذا التقسيم ، وكأني به يستحث النظر إلى استكشاف أنساب المعاني بين هذه الآيات .

وقد مضى الحديث عن فعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾ في سورة الإخلاص . وقوله : ﴿ أَعُوذُ ﴾ بِرَبِّ ولا تظهر ـ عندنا ـ مزية السورة بالحديث فيه ، وإنما تظهر بمثل الحديث عن سر إضافة الربوبية إلى هذا اللفظ ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ بما يدل عليه ، ويحمل في أحشائه من طاقات اللغة ، وقد ذكر باسم الفاعل في موضعين من الذكر الحكيم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ (الأنعام:٩٥) وبعده ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ (الأنعام:٩٦) وبالفعل في موضع واحد ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء:٦٣) وهو في مدلوله العام يعني : شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض(١) وذلك المدلول اقتضى تأويله في موقعه من هذه السورة بعدة تأويلات تتكامل ـ ولا يرجح بعضها بعضا ، وهي في هذا التعدد تنظر إلى آيات السورة ، ولو جيء بلفظ غيره كمثل ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ في هذا الموقع لانقطعت صلة المطلع بما بعده أو أعوذ برب العباد ، أو برب الجبال ، أو برب الجن والإنس ، أو أعوذ بالجبار أو القهار ـ أو ما شئت من أسماء الواحد وصفاته ، وأسماء الموجودات وصفاتها ، لانفض اعتلاق المطلع بما بعده كما مضى وقد ذخرت كتب الأئمة باستخراج نكتة هذه الإضافة ـ ناظرة إلى آيات السورة ،

---

(١) المفردات (ف ل ق) ص٣٨٥ .

فكان للفلق عندهم في هذا الموقع عدة معان : الصبح ـ فلق النهار ـ الليل إذا أظلم ـ النهار إذا دخل في الليل ـ غروب الشمس[1] وذلك كله راجع إلى وقت الفلق فهو يجمع بين الظلمة والنور ، فهو نهاية أولهما وبداية ثانيهما يستأنس لذلك بقوله ـ سبحانه ـ ﴿ **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ** ﴾ (البقرة:١٨٧) وهو وقت الفلق المؤذن بانفراج الظلمة .

ولما كانت (حقيقة الفلق الانشقاق من باطن شيء)[2] كان لهذه الدلالة أيضا ـ خط في آيات السورة ، فلم يستقم استبعادها ، وما أثقب نظر الأئمة حين قالوا « إن الفلق هو الموجود الممكن كله ، وربه هو خالقه الذي شق ظلمة العدم عنه »[3] بإزاء ما مضى من قول البقاعي في تحديد مقصود السورة ، حتى ما كان ضعيفا من دلالات الفلق لا يغادره المعنى اللغوي لكلمة (أفلق) فقد قيل في (الفلق) بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره[4] وكأن قوله تعالى : ﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ جاء تفسيرا لمعنى الفلق ، فعهدنا بالأئمة الحيطة والحذر من القول في الكتاب دون سند أو دليل ، وربما أن هذا التفسير هو الذي حمل الأئمة على وضع كل موجود من عدم تحت هذا اللفظ .

وقد اختلفوا في سر الإضافة هذه تبعا لاختلافهم في تأويل (الفلق) وهم في معظم تعليلاتهم ينظرون إلى آيات السورة ، فالذين قالوا : إن معناه الصبح رأوا في هذا التعوذ أسرارا (١) أنه القادر على إزالة هذه الظلمات وهم في هذا الوجه ينظرون إلى كل آيات السورة .

---

(١) راجع جامع البيان ٢٢٦/٣٠، والجامع لأحكام القرآن ٧٥٩٩/١٠ .

(٢) راجع مفاتيح الغيب ٧٦٦/٨، ٧٦٧ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٦٢٦/٣٠ .

(٤) انظر مسائل الرازي ص٥٥٨ .

(٢) إن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج ، وهم ينظرون إلى تكرار ﴿ **وَمِن شَرِّ** ﴾ مضافا إلى فاعل مغاير في كل آية أن الصبح كالبشير ، ثم عللوا تعليلات أخرى ترجع إلى فضل هذا الوقت تتناسب وسياق السورة في موضعها من المصحف الشريف ، فهو وقت دعاء المضطرين ووقت الاستغفار والتضرع كأن موقع السورة يترجم أن هذا الوقت لا يغتنمه إلا من أخلص التوحيد وصدق في الاستعاذة .

والذين قالوا : إن الفلق معناه كل ما يفلقه الله في الأرض عن النبات ، نظروا أيضا لكل آيات السورة ، وما فيها من الظلمات الظاهرة ، ﴿ **وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** ﴾ والباطنة في الآيتين التاليتين ، ووجه هذا المعنى عندهم أنه يؤول إلى أن يكون المعنى : قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومكون كل المحدثات والمبدعات ، فيكون التعظيم فيه أعظم ، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى ، وفي التعبير بالفلق إلاحة إلى قدرة الله سبحانه ـ وذلك ألصق بغرض السورة الذي مضى بيانه ، وذلك لأن التصوير والتكوين في الظلمة أصعب منه في النور ، فكأنه يقول : أنا الذي أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار وظهور الأضواء ، ومثل ذلك مما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة[١] . ولا ريب أن في وصف الله بهذه الصفة (رب الفلق) تمهيدا للإجابة كما قال ابن عاشور[٢] ، وكما وقع قوله : ﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ كالتفسير للفلق ، وقعت آيات السورة كالشرح لهذه المخلوقات ، كما تؤدي إليه مقالات الأئمة ، لأنهم يذكرون أن الاستعاذة في السورة من شر ثلاثة أشياء فهدانا كلامهم إلى هذا القول والعطف في هذا الموضع يثير بتغايره على قوة شر كل مستعاذ منه .

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٧٧٦/٨، ٧٦٧ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٦٢٦/٣٠ .

وقد وقعت الاستعاذة من شر هذه الأشياء الثلاثة خصوصا تعظيما لشرها أو لخفاء شرها فهو يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به[1] وهذه الشرور ثلاثة أنواع عند ابن عاشور «أحدها : وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل ، والثاني : صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير ، والثالث : صنف من الناس ذو خلق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به»[2] .

ولما كان الوقت الذي يغلب فيه وقوع الشر أكبر معين على الشر عني القرآن هاهنا ببيانه ـ ولا ريب أن مفردات مقصود السورة من باب واحد فغاسق توشك أن تكون من مجرد دلالة الفلق ، لأنهم رجحوا[3] أن يكون المراد بالغاسق الليل ، فهو وصف له إذا اشتدت ظلمته ، حتى ما قيل من أنه القمر أو الثريا أو الشمس يئول إلى الليل بالقيد الذي وضعه القرآن ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي إذا غاب ، فالاستعاذة منوطة بوقت الظلمة ، كأن غياب هذه الأشياء يؤدي إلى ظلمة وقت غلبة الشر ، ويبدو أن الذين قالوا : إن الفلق بيت في جهنم اصطحبوا هذا المعنى في تفسير الغاسق ، فجوزوا أن يكون المراد بالغاسق (الأسود من الحيات) ولاحظ أنهم بقولهم الأسود يدفعون ما يعترض عليهم به من هذا القيد ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ ـ المهم أنك ترى أعيان الأئمة يصطحبون نور المطلع في آيات السورة كما نقلنا من كلامهم .

وتنكير (غاسق) و (حاسد) وتعريف (النفاثات) كان مجالا لنظر الأئمة في استخراج نكتة هذه المفارقة ، فقد وقع التنكير إفادة للتبعيض فيما

---

(١) انظر : مسائل الرازي ص٥٥٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٢٧/٣٠ .

(٣) راجع : في معنى (غاسق) الكشاف ٣٠١/٤، ومفاتيح الغيب ٧٦٩/٨، ٧٧٠، والجامع لأحكام القرآن ٧٦٠١/١٠، والتحرير والتنوير ٦٢٧/٣٠ .

يتخلف منه وقوع الضرر ، فليس لكل غاسق شر ، وليس لكل حاسد شر بل والتنكير هاهنا يخرج الحسد المحمود ، والتعريف في النفاثات ، إشارة للعهد ، فكأنه تنكير ، لأن من قال التعريف في النفاثات للعهد نظرا إلى سبب النزول ، فالنفاثات كما في سبب النزول بنات لبيد أو أخواته[1] والأولى أن تكون اللام للجنس في النفاثات ، لاتساق ذلك على ما تجري عليه السورة من التعميم من أولها في دلالة (الفلق) وأن يكون التنكير في (غاسق) ، (حاسد) للتعميم أيضا لورودهما في مقام الدعاء[2] وفي إضافة الشر إلى (غاسق) مجاز عقلي علاقته الزمانية ، وفي هذا التجوز إبراز لدلالة عنصر الزمان في وقوع الشر ، وفي هذا القيد ﴿ **إِذَا وَقَبَ** ﴾ إبراز لقوة هذا الغسق ، فوقب « بمعنى دخل دخولا لم يترك شيئا إلا مر به[3] إذا كان غاسق هو (الليل) وإذا كان بمعنى الحية فمعنى (وقب) (لدغ) يقال : « وقب نابها إذا دخل في اللديغ »[4] وفيه أيضا دلالة على استحكام شرها ، وخفائه عن الأعين .

ومن بديع المناسبة في قوله : « ومن شر النفاثات في العقد » أنه عبر بقوله النفاثات بدل الساحرات أو غيرها ، ليدل بصيغة المبالغة على الحدث الذي يبالغ فيه الساحر في كتمان فعله واستحكام شره ، ولا ريب أنه يتناسب ومعنى (الفلق) وتقوى هذه العلاقة بالعطف على قوله : ﴿ **وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** ﴾ قال ابن عاشور « وعطف شر النفاثات في العقد على

---

(١) راجع : أسباب النزول ص٣٤٦ وما بعدها ، ومسائل الرازي ص٥٥٨، والصاوي على الجلالين ٣٦٧/٤، والفتوحات الإلهية ٦٠٨/٤ .
(٢) راجع التحرير والتنوير ٦٢٧/٣٠ .
(٣) جزء عم ص١٣٧ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠١/١٠ .

شر الليل لأن الليل وقت يتحقق فيه السحرة إجراء شعوذتهم لئلا يطلع عليهم أحد»[1] «والنفاثة من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة ، ويستعمل كذلك للذكر والأنثى»[2] .

وفي هذا القيد أيضا (في العقد) تناسب مع دلالة الفلق ، إذ الصبح كالبشير كما قالوا ولا ريب أن النفاثات في العقد مما خلق الله ، فكأن كل ما في السورة ، وقع بدل بعض من قوله ﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ وقد آذن هذا الجناس الناقص بين (فلق ـ وخلق) بتناسب بين الوصف المستعاذ به (الفلق) وبين ما استعيذ منه في بقية السورة وظاهر أن لغة السورة تدل على ذلك دلالة بينة ، كما مضى بيانه .

وجاء قوله سبحانه : «﴿ **وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ معطوفا على ما قبله وما قبله معطوف على ما قبله ، وهو بدوره معطوف على ما قبله ﴿ **مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ والجميع كأنه شرح لهذه الكلمة وتفصيل لها التي تناسبت مع (الفلق) وهذه العلاقات اللفظية الظاهرة جاءت صورة للعلاقات المعنوية المستكنة في مفردات السورة وتراكيبها ، يبرز ابن عاشور هذه المناسبة فيقول : «عطف شر الحاسد على شر الساحر المعطوف على شر الليل لمناسبة بينه وبين المعطفوف عليه مباشرة ، وبينه وبين المعطوف عليه بواسطته فإنه مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاه لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها ، ولأن ثوران وجدان الحسد يكثر في وقت الليل ، لأن الليل وقت الخلوة وخطور الخواطر النفسية والتفكر في الأحوال الخاصة بالحاسد وبالمحسود»[3].

---

(١) التحرير والتنوير ٦٢٨/٣٠ .

(٢) جزء عم للإمام محمد عبده ص١٣٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٦٢٩/٣٠ .

وأمر هذا القيد أمر عجيب﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾كيف وقد وصف بأنه﴿ حَاسِدٍ ﴾ يؤذن هذا القيد بتصنيف الحاسدين ، وليس ظاهرا أن يكون الحسد المحمود ضمن هذا التصنيف فهو خارج بقرينة مقالية في بيان النبوة ، والذي يظهر أن الحسد نوعان :

حسد لا يتعدى أطوار النفس ، وحسد آخر يدفعه لهيب الغيظ إلى الإضرار بالمحسود ، ولا ريب أن الحاسد الذي يوقع الإضرار بالمحسود بتحين الوقت الساتر وموقعه من السورة ببناء لفته على ما عرفت ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ والذي يعلم كلاً ويكشف خير كل هو (رب الفلق) .

وربما يكون في هذا القيد ملمح إلى ضآلة ضرر الحاسد الأول الذي لا يتعدى حسده أطوار نفسه ، وإشارة إلى ندرة أثره ، المهم أن هذا القيد كشف تنويع الحاسدين وما أحسن ما قال ابن عاشور : « وتقييد الاستعاذة من شره بوقت ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه ، فتتحرك له الحيل والنوايا ، لإلحاق الضرر به ، والمراد من الحسد في قوله : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ حسد خاص وهو البالغ أشد حقيقته فلا إشكال في تقييد الحاسد بـ (حسد) »[1] لأنه « قد يتغلب الحسد صبر الحاسد وأناته ، فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأسا »[2] وذلك ظاهر فيما وقع بين ابني آدم ، كأن قصة قابيل وهابيل في سورة العقود تفسر هذا القيد ، لكنها وقعت في سورة العقود ، تناسبا مع مقصودها هناك بقرينة ما قدمت به القصة ، من أنها كانت مثالا لخلف العهد ونقضه .

* * *

(١،٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٠ .



ثالثا : سورة الناس

هذه السورة الكريمة ابنة سورة الفلق ، وجزء منها ، فإن الناس ضمن ما خلق الله وقد كان في أمها كفاية في التعوذ ، وقد أغرت بموقعها هذا . . علماء الأمة باستبصار أسباب موقعها وأسراره ، ولها قرينة أخرى ، هي أنها خاتمة الكتاب العزيز ، فكان لأهل البصيرة دقائق من البيان نورت بعضا من أسرار هذا الموقع .

أرجو أن تكون على ذكر من أن ابن الزبير قد ذكر أن وجه تأخرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية ، وأن شيوع التنكير ناسب التعميم في أسلوب سورة الفلق ، والتعريف ناسب التخصيص في سورة الناس[1] وكان ذلك واضحا في المطلق من دلالة (الفلق) ودلالة (الناس) وكان تشابه الفاتحتين إيذانا بتشابه المقصودين والتغاير في الإضافة (رب الفلق) (رب الناس) هو الآخر إيذان بتفرد كل مساق بخصائصه .

يقول البقاعي ـ رحمه الله ـ ومقصودها : الاعتصام بالإله من شر الخلق الباطن واسمها دال على ذلك ، لأن الإنسان مطبوع على الشر وأكثر شره بالمكر والخداع ، وأحسن من هذا أنها للاستعاذه من الشر الباطن المأنوس به المشروح إليه ، فإن الوسوسة لا تكون إلى بما يشتهى . . . ومقصود هذه السورة معادل لمقصود الفاتحة الذي هو المراقبة ، فقد اتصل الآخر بالأول اتصال العلة بالمعلول والدليل بالمدلول والمثل بالممثول والله المسئول في تيسير السول وتحقيق المأمول»[2] رحم الله الشيخ البقاعي

---

(١) راجع البرهان ص٢٤٧ ، وسورة الفلق في هذا البحث وراجع النظم الفنى ص٣٧٤ .

(٢) مصاعد النظر ٣٠٩/٣، ٣١٠، يراجع أيضا ٢٠٩/١، ٢١٠، وفصل فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم من هذا البحث .

ـ القرآن الكريم مثل صفحة معروضة في عقله فالفاتحة براعة استهلال للذكر الحكيم كله ـ والمعوذة هذه خاتمة الذكر الحكيم كله ، ذلك نظر الأئمة إلى درس براعة الاستهلال ، وما أدى إليه قول نبي الأمة ﷺ بقوله الفاتحة أم الكتاب مؤسسا لهذا الدرس وخطره ، وكان أعيان الأئمة على بصيرة من كلمته ﷺ على حد ما بيناه في هذا البحث . فالله أعلم .

وقد كانت هذه الإضافة ﴿ **بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ﴾ مشيرة نظر الأئمة فاستخرجوا عللها ناظرين إلى آيات السورة ، معللين التخصيص بإضافة الربوبية إلى الناس بقولهم . . . « وإنما ذكر أنه رب الناس ، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين :

أحدهما : لأن الناس معظمون فأعلم بذكرهم أنه رب لهم ـ وإن عظموا (وأرجوا أن يكون كلامهم هذا ناظرا على قوله ﴿ **مَلِكِ ٱلنَّاسِ** ﴾ .

الثاني : لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم »[1] .

الثالث : أنه خصهم بالذكر تشريفا لهم وتفضيلا وهو ناظر إلى تكرار الناس كأنه عرف ذاته بكونه ربا للناس .

الرابع : أنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع ذلك أنه ربهم ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم ، وفي ذلك نظر إلى آيات السورة مع هذه الإضافة في المطلع ، والمطلع حينئذ هو قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ﴾ وهو بمثابة العلة وآيات السورة بمثابة المعلول وفي هذا النسق تلاؤم مع الاستعاذة .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠٥/١٠، والفتوحات الإلهية ٦١٠/٤ .



الخامس : أن الاستعانة وقعت من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي هو إلههم »[1].

وأمر الاعتلاق اللفظي بين مطلع السورة وآياتها أمر ظاهر فالآيتان ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ عطف بيان لقوله : رب الناس أو بدل ، و(من شر) متعلق بالفعل ﴿ أَعُوذُ ﴾ في المطلع (والذي يوسوس) صفة للوسواس الخناس ، وهكذا ولا ريب أن تناسب آيات السورة في معانيها أمر ظاهر باهر أيضا فمعانيها جارية في سبيلين سبيل البيان عن المستعاذ به ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو تحت قوله ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ وسبيل البيان عن المستعاذ منه ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ وقد اشتملت السورة الكريمة برقائق مفرداتها على السبيلين بتناسب ظاهر بينهما .

فقد أفاد قوله ﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾ أن أمرا بالاستعاذة قد وقع وهذا الفعل بذاته يقتضي أمرين مستعاذًا به ومستعاذًا منه ، كشفت إضافة الربوبية إلى الناس عن السبيلين والبناء بهذا النسق له دلالة رائعة « لأن الاستعاذه من شر يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيضلون ويضلون ، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس ، فناسب أن يستحضر المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ، ومن يلقى إليهم ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين »[2] .

وكانت أوصاف الألوهية في السورة مثارا لنظر الأئمة قال الإمام محمد عبده « وإنما خص هذه الصفات ـ صفات الألوهية ـ بالإضافة إلى الناس ـ مع أن الله رب كل شىء ، ومالك كل شىء ، وإله كل شىء ، لأن الناس

---

(١) مفاتيح الغيب ٧٧١/٨، والصاوي على الجلالين ٣٦٩/٤، ومسائل الرازي ، ص٥٥٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٣٢/٣٠ .

هم الذين وهموا في صفاته وضلوا فيها عن حقيقة معانيها »[1] فلا جرم قد جاء بالصفات التي تتناسب مع المستعاذ منه ليساق كل في سبيل المقصود الذي هو الاعتصام بالإله من شر الخلق ، وقد جاءت هذه الأوصاف على نسق يتناسب ومقصود السورة ، والإضافة في المطلع يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ « وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيبا مدرجا ، فإن الله خالقهم ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شئونهم ثم ذيل بيانا بوصف إلهيته لهم ، ليبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوبية بعضهم بعضا وحاكمية بعضهم في بعض »[2] .

ولذكر الصفة الثانية اتصال خاص بفرض السورة فإن أكبر معين للناس على الشر حاكميتهم للناس فأفاد هذا الوصف أنه ملك الملوك قال القرطبي : « وإنما قال : ﴿ **مَلِكِ ٱلنَّاسِ** ﴾ لأن في الناس ملوكا فذكر أنه ملكهم »[3] .

« وقد أخر الصفة الثالثة ﴿ **إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ** ﴾ لأنه قد يقال : ملك الناس وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فحعل غاية للبيان »[4] فهو ملك الملوك ومعبودها وفي ذلك النسق حث على الاستعاذة به وتوهين للمستعاذ منه .

وقد ذكروا أن عطف البيان اقتضى تكرير لفظ الناس الذي اقتضى مزيد شرف الناس لأنه سبحانه ـ كأنه عرف ذاته بكونه ربا للناس إلها للناس[5]

---

(١) جزء عم ص١٤١ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٣٢/٣٠، ٦٣٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠٥/١٠ .

(٤) الكشاف ٣٠٢/٤ .

(٥) الكشاف ٣٠٢/٤، ومفاتيح الغيب ٧٧١/٨، ٧٧٢، والصاوي على الجلالين ٣٦٩/٤ .

والذين ذكروا هذا جعلوا الإضافة في مطلع السورة للتشريف كما ذكرت ، لكن ما مقتضى عطف البيان ـ الذي هو وسيلة في أداء المعنى كاللفظ؟ وهل يستقيم أن يكون علة فىالتكرير؟ والحق الأزهر أن المقصود هو الذي اقتضى ورود الوسائل اللغوية ـ من الألفاظ والتراكيب على وجه يتظاهر على إبرازه ، فإن المقصود الاعتصام برب الناس من شر الناس فتشاكل السبيلين إلى البيان عن المقصود أدى إلى تشاكل الأسلوبين ولعل في قولهم إنه تكرير تسامحا ، فإن كل لفظ للناس في السورة له دلالته ، وإن كان الجميع يئول إلى توكيد المقصود إلى فإن التفصيل أولى .

ففى قوله : ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ إظهار في مقام الإضمار وقد وقع كما قال ابن عاشور ـ «لقصد تأكيد ربوبية الله تعالى . . . وملكه ، وإلهيته للناس كلهم»[1] ولا ريب أن ذلك يتلاءم ومقصود السورة أضمر ما أظهر ثم قال : أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم من شر . . . ثم انظر المعنى ، والإخلال بالمقصود من السورة .

أما ذكره في قوله : ﴿ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ «فهو إظهار لأجل بعد المعاد»[2] هل يستقيم أن نقول الذي يوسوس في الصدور من الجنة والناس؟

لا ريب أن ما جاء عليه الذكر الحكيم يتناسب مع ما تسير السورة على لاحبه من العناية بالمستعاذ منه والتي اقتضت أوصافا للمستعاذ به تتناسب معها أيضا «أما ذكره في قوله : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ فلأنه بيان لأحد صنفي الذي يوسوس في صدور الناس»[3] وهو متصل بالبيان عن الشق

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣٥/٣٠ .

(٢،٣) المرجع نفسه ٦٣٦/٣٠ .

الثاني (المستعاذ منه) فالاستعاذة من الوسواس الخناس وهو شر باطن «والوسواس يقع من الجن ويقع من الإنس ـ ووقوعه من الإنس أشد وأوقى ـ كما يبرزه الذكر الحكيم بتقديم الإنس على الجن في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ . . . ﴾ (الأنعام:١١٢) ويدل انتشار لفظ الناس هاهنا على ذلك دلالة ظاهرة كما يدل هذا التصنيف على أن ذكر الجنة جاء تبعا إذ يدخل مجازا تحت الوسواس لأن الوسوسة (الخطرة الرديئة) وأصله من الوسواس وهو (صوت الحلى والهمش الخفي) ويقال لهمس الصائد وسواس»(١) «وإطلاق (الوسواس) على معنييه ـ المجازي والحقيقي ـ يشمل الشياطين . . . ويشمل كل من يتكلم كلاما خفيا من الناس وهو أصحاب المكائد والمؤامرات»(٢) ولا ريب أن البقاعي ـ رحمه الله ـ كان ينظر إلى هذه الألفاظ وهو يحدد مقصود السورة ـ ويظهر ذلك بمراجعة نصه فيما مضى .

والخناس «الشيطان الذي يخنس ـ أي ينقبض إذا ذكر الله تعالى»(٣) . وبناؤه بصيغة المبالغة دال على كثرة خنسه ، وكذلك تتناسب مع الاعتصام بالإله من شره كما هو مقصود السورة ، وما تدل عليه خَنَس من الاختفاء والتولي فيه إغراء وحث على الاستعاذة وتناسب مع أوصاف الألوهية في السورة لأنه ربه ومالكه وإلهه فهو بالاستعاذه فار ومختف وكيده هالك .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ «وقع ليحدد مكان المستعاذ منه وموقعه وفي ذلك تناسب مع أوصاف الألوهية في السورة ،

---

(١) المفردات (وسوس) ص٥٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٣٣/٣٠ .

(٣) المفردات (خنس) ص١٥٩ .



وجار على توهين المستعاذ منه وترغيب المستعيذين وفيه (تقريب تصوير الوسوسة) كي يتقيها المرء إذا اعترته لخفائها وذلك بأن بين أن مكان إلقاء الوسوسة هو صدور الناس وبواطنهم»[1] ولولا هذه الدلالة وموقعها من غرض السورة لكان يمكن أن يقال : من شر الوسواس الخناس من الجنة والناس .

من ثراء هذا التركيب وعطائه أن قوله (يوسوس) يدل على الحقيقة والمجاز «فإطلاق فعل (يوسوس) على هذا العمل الشيطاني مجاز ، إذ ليس للشيطان كلام في باطن الإنسان . وأما إطلاقه على تسويل الإنسان لغيره عمل السوء فهو حقيقة»[2] والقرائن السياقية والمقالية في السورة قاضية بإرادة الحقيقة والمجاز معا ، فقوله ﴿ **فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ** ﴾ يعلي القول بالحقيقة في الفعل (يوسوس) وقوله ﴿ **مِنَ ٱلْجِنَّةِ** ﴾ يعلي القول بالمجاز في الفعل . والقرائن هي الفاصلة فيما اشتهر بين العلماء من منع القول بالحقيقة والمجاز للفظ الواحد في المساق الواحد والغرض الواحد أو إجازة وقوعه كما انتهى إليه بعض أهل العلم ـ وقد ذكر «أن الجمع بين الحقيقة والمجاز نهج عال من مناهج البيان القرآني ، وسنة من سنن الهدى البياني فيه»[3] .

(١،٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤ .

(٣) راجع : كتاب إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني صنعة الدكتور محمود توفيق فإنه كتاب جيد يعينك على فقه دلالات نصوص الكتاب وثرائها ، ويكشف لك تراث الأصوليين في تناول النصوص وهو باب سكت عنه البلاغيون سكوتا عقيما وما ذكرناه ، ص١٧٥، ١٧٦، ط . أولى مكتبة وهبة ١٤١٢هـ.

وهذا المراد يتناسب وإفادة التعريف في (الوسواس) فإنه يفيد إطلاقه جنس الوسواس كما يشير إليه التصنيف آخر السورة ﴿ **مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ** ﴾ .

ولما كان بيان النبوة قاضيا بأن الشيطان يوسوس على الحقيقة قال أهل العلم : «الخناس الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدرالإنسان ، فإذا غفل الإنسان وسوس له»[(١)] وكأن ثراء دلالة النص القرآني اشتملت على ما اختلف فيه أهل العلم من أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . أهو على الحقيقة أم على المجاز؟ وهم في هذا الاختلاف كانوا ينظرون ـ بلا ريب ـ إلى نصوص تدل على الحقيقة والمجاز فاستيقن كل بأدلة أعانته على قوله .

وكان تقديم الجنة على الناس في البيان مشيرا عند ابن عاشور في سياق التصنيف ـ إلى أن الوسواس «باعتبار إفادة حقيقته ومجازه إلى صنفين صنف من الجنة وهو أصله ، وصنف من الناس وما هو إلا تبع وولي للصنف الأول» وهو لا يعارض ما ذكرناه من أن مجيء الجنة على التبع في الأنعام يفيد أن وسوسة الإنس أشد كما تتظاهر عليه لغة السورة فهم «لا يصلون إلى إضرار الإنس إلا بالإغراء بهم بإنس آخرين فكأن الإنس تبع للجن من هذا الوجه ، وكأن الجن تبع للإنس من الوجه الذي ذكرناه فالله أعلم ويرجحه ما علل به لتقديم الإنس على الجن في سورة الأنعام بقوله : إنما قدم لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم»[(٢)] والحق إن شاء الله أن التقديم دال على أن وقوع الإضرار للإنس من جهة الإنس أسرع وأشد من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٦٠٦/١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٦٣٥/٣٠ .

وقوعه من جهة الجن : لذا قال طائفة من أهل العلم ـ إن إيذاء الجن للإنس لا يتعدى الوسوسة .

هذا وقد ظهر أن مفردات السورة وأنساقها تتظاهر على المقصود تشترك الألفاظ بحظ والتراكيب بحظ ، وترتيب التراكيب بحظ ، والعلاقة بينها وبين المطلع بادية باهرة لفظا ومعنى . كما هي في كل سورة طوالها في ذلك كقصارها «وقد افتتح القرآن بحمده تعالى في سورة الفاتحة ، وختم بالاستعاذة به في هاتين السورتين والحمد يناسب الابتداء والاستعاذة تناسب الختام»[1] فسبحان من أنزله ـ وصلى الله على من بلغه آمين .

* * *

(١) النظم الفني في القرآن ص٣٧٤ .

الفصل الثالث

الافتتاح بالاستفهام في سورة الماعون

ست سور في الذكر الحكيم افتتحن بالاستفهام هذه السورة وسور (النبأ ، الغاشية ، الشرح ، الفيل ، الإنسان) وحقيقة الاستفهام طلب حصول الفهم ، أو طلب حصول الشيء في الذهن ، وجرت سنة العربية على استخدامه في غير هذه الحقيقة ، حين يكون السائل عالما بالجواب ـ وحاول أهل العلم بالبيان تحديد الأسرار التي وراء هذا الأسلوب ، والتي توحي بها حواشي الكلام ، فذكروا لذلك أسرارا منها الإنكار ، وهو إما أن يكون توبيخا أو تعجبا أو تكذيبا ومنها الاستبطاء والتنبيه على ضلال ، ومنها التقرير وذكروا غير ذلك ، وكلامهم في محاولة تحديد الأسرار قائم على مراجعة السياق الذي جرت في رحمه هذه الشواهد ، وليس ما ذكروه تحديداً جامعا وذلك ، «أن ما تشيعه أداة الاستفهام أرحب وأدق من أن تحدده تحديداً تاما ، وأن المعاني التي يشير إليها هي بطبيعتها خفية وهاربة ، لا تستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة»[1] ولابن جني إشارات قيمة في هذا

---

(١) دلالات التراكيب ص٢١٨ .

الباب « منها أن الاستفهام الذي يخرج عن معناه ملاحظا لهذا المعنى ناظرا إليه »[1] .

والعلة في جريان هذا الأسلوب لهذه المعاني التي يخرج إليها ، وإيثاره على أساليبها الحقيقية ، هي ما أشار إليه الإمام عبد القاهر في قوله : « واعلم أَنَّا وإن كُنَّا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار ، فإن الذي هو محض المعنى : أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه ، فيخجل ويرتدع ويعيي بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : (فافعل) فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه ، وقيل له : فأرناه في موضع وفي حال ، وأقم شاهدا على أنه كان في وقت . ولو كان يكون للإنكار ، وكان المعنى فيه من بدء الأمر ، لكان ينبغي أن لا يجيء فيما لا يقول عاقل إنه يكون ، حتى ينكر عليه ، كقولهم : (أتصعد إلى السماء؟) وإذ عرفت ذلك فإنه لا يقرر بالمحال وبما لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل ، وعلى أن يقال له : إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال »[2] .

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص١٤٥ كن على ذكر من الخلاف الذي جرى بين أهل العلم في وجه خروج الاستفهام عن المعنى الحقيقي ، فمنهم من ذهب إلى أنه خرج إلى المجاز المرسل ، ومنهم من ذهب إلى أنه خرج بطريق الكناية ، ومن ذهب إلى أنه باق على حقيقته ، راجع : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٢٩٦/٢، وراجع بقية الشروح في مواضعها .

(٢) دلائل الإعجاز ص١٢٠ تحقيق محمود محمد شاكر .

وهو يشير بما مضى إلى ما يحدثه الاستفهام من الإثارة والتشويق ، وأنه بطبيعته يأتي في مواطن من الكلام ، لا يجوز جريان الأساليب الحقيقية التي يفيدها الاستفهام فيها ، وأسلوب الاستفهام في الكتاب العزيز واسع التفنن ، ووراءه من الأسرار والمعاني ما لا يحاط به ، حتى بين المعنى الواحد .

يقول الدكتور صباح دراز « وفى القرآن يتفاوت المعنى كالإنكار والتوبيخ مثلا قوة وضعفا حسب المتكلم وحال المخاطب ، لا يشبه أسلوب أسلوبا ، ولا غاية غاية في سورتين مثلا إلا فيما تشابه واهتم به العلماء »[1] .

وأمر آخر في استفهامات القرآن الكريم ينبغي التنبيه عليه هو « أن العلماء كانوا يذكرون هذه المعاني البلاغية من إنكار وغيره لا يريدون ـ فيما يتعلق بالاستفهامات من جهته تعالى ـ وصف البارى بحقيقتها ـ بل معالجة أسلوبية على المنهج العربي الذي نزل به القرآن ، لأن صفات الأفعال لا تنحصر ، ويتوقف في وصف الله بها على الإذن الشرعي ، ولا تخلو من التسامح »[2] .

والأدوات الواردة في افتتاحات السور هي الهمزة في ثلاث سور (الشرح ـ الفيل ـ الماعون) وهل في سورتين (الإنسان ـ والغاشية) وعم في سورة واحدة (عم) فهمزة الاستفهام أكثر ورودا من غيرها في الافتتاحات ، وهو ما تعلل به لاختيارنا سورة الماعون ، وشيء آخر هو أن الهمزة أكثر الأدوات استعمالا ، وأوسعها في المعنى فهي التي تستخدم في التصورات والتصديقات كما قرر أهل الفن .

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص١٢٦ .
(٢) السابق ص١٢٨ .

موقع السورة في الكتاب العزيز :

سورة الماعون هي السورة السابعة بعد المائة في المصحف الشريف ، وقعت بين سورتي قريش ، والكوثر ، وهي السورة السابعة عشرة في ترتيب النزول نزلت بعد سورة (التكاثر) وقبل سورة (الكافرون) .

وقد مضى تقرير أن سورة قريش[١] وقعت كالنتيجة لسورة الفيل ، وأن اللام قد تتعلق بسورة الفيل ، وقد ختمت سورة قريش بقوله : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ وفي الماعون ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ ويتسع نظر ابن الزبير لموقع السورة فيقول : « لما تضمنت السور المتقدمة من الوعيد لمن انطوى على ذكر ما فيها ، مما هو جار على حكم الجهل ، والظلم الكائنين في جملة الإنسان ـ ما تضمنت كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ وقوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾[٢] ، وانجر أثناء ذلك مما تثمرة هذه الصفات الأولية ما ذكر أيضا فيها ، كالشغل بالتكاثر والطعن في الناس ، ولمزهم والاغترار المهلك أصحاب الفيل ـ أتبع ذلك بذكر صفات قد توجد في المنتمين إلى الإسلام [لاحظ أنه يشير إلى أن (الذين يراءون) وغيرهم من المتصفين بهذه الصفات في السورة وقوله : (المنتمية إشارة إلى أنهم المنافقون)] أو يوجد بعضها أو أعمال من يتصف بها ، وإن لم يكن من أهلها كدع اليتيم . . . ويمكن أن يتضمن اسم الماعون هذا كله ، ولا شك أن هذه صفات توجد في المنتمين إلى

---

(١) راجع سورة قريش من هذا البحث الفصل الرابع من الباب الثالث .
(٢) الآيات من سورة العاديات ، والعصر ، والهمزة .

الإسلام ـ فأخبر[1] تعالى أنها من صفات من يكذب بالدين . . . ومن تشبه بقوم فهو منهم ، فاحذروا هذه الرذائل ، فإن دع اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل ، وعدم الحض على إطعامه إنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده ، والسهو في الصلاة ثمرة إلهاء التكاثر ، والشغل بالأموال والأولاد ، فنهى ـ سبحانه ـ عباده عن هذه الرذائل التي ثمرها ما تقدم والتحمت السور»[2] وهو إشارة أيضا على أن كل ما مضى في السور المذكورة ، أو في الكتاب كله إنما هو نتيجة التكذيب بالدين ، كما تقول لغة السورة فيما يأتي ـ إن شاء الله ـ فالسورة إيذان بأن الكتاب يوشك أن يغلق صفحته .

ويظهر ما أبصرناه من كلامه بما ذكره في موقع سورة الكوثر ، والكشف عن سر تأخيرها إلى هذا الموضع ، يقول رحمه الله : «لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الإكثار والكبر والتعزز بالمال والجاه ، وطلب الدنيا أتبع ذلك بما منح نبيه ، مما هو خير مما يجمعون ، وهو الكوثر . . . فقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كل ما ذكره تعالى في الكتاب من نعيم أهل الدنيا ، وتمكن من تمكن منهم ، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة ، فلم يقع بعدما ذكر شيء من نعيم الدنيا ، ولا ذكر أحد من المتمتعين فيها ، لانقضاء هذا الغرض وتمامه ،

---

(١) كن على بصيرة من أن هذه الجملة معطوفة على قوله : أتبع ذلك . . . ونسق كلامه لما تضمنت السور المتقدمة ما تضمنت ، وانجر أثناء ذلك ، أتبع ذلك فأخبر أنها ، فطريقة علماء المناسبات المباعدة بين المعطوفات مقتضى لمجال بحثهم الذي يكشف ما بين المتباعدات .

(٢) البرهان لابن الزبير ص٢٤١، ٢٤٢ .

وسورة الدين آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك ، كما تقدم من تمهيد إشارتها ، وتبين بهذا وجه تعقيبها »[1] .

فهذا هو موقع السورة وسياقها من بين يديها ومن خلفها حرره ابن الزبير خير تحرير ، بحيث يصير من المحال نزع السورة من موضعها ـ وقد ألمع الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ إلى أن « سورة الكوثر وقعت كالمقابلة للتي قبلها ، وذلك لأن السابقة وَصَفَ الله ـ سبحانه ـ فيها المنافقين بأربعة أمور (البخل ـ ترك الصلاة ـ والرياء فيها ـ ومنع الزكاة) وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل ﴿ **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ** ﴾ وفي مقابلة ترك الصلاة (فَصَلِّ) وفي مقابلة الرياء (لربك) وفي مقابلة منع الماعون (وانحر) وأراد به التصدق بلحوم الأضاحي »[2].

وهى يومئ بذلك إلى تقارب الأغراض بتجاور السور وأن تراكيب كل سورة تتشارب من تراكيب سابقتها ولاحقتها .

مقصود السورة :

يقول البقاعي : ـ رحمه الله « ومقصودها : التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث ، فإنه يجري المكذب على مساوئ الأخلاق ، حتى تكون الاستهانة بالعظائم خلقا له ، فيصير ممن ليس له خلاق ، وكل من أسمائها في غاية الوضوح في الدلالة على ذلك ، بتأمل السور لتعرف هذه الأشياء المذكورة »[3] وهو من نور كلام ابن الزبير السابق ، وكل من نور الله جل في علاه ، وفي كلامه تحديد لمطلع السورة الكريمة كما سيأتي .

---

(١) البرهان لابن الزبير ، ص٢٤٢، ٢٤٣ .

(٢) راجع مفاتيح الغيب ٨/٧٠٠، وتناسق الدرر ، ص١٥٨ .

(٣) مصاعد النظر ٣/٢٥٣ .

« وأسماء هذه السورة (أرأيت ـ أرأيت الذي ـ الماعون ـ الدين ـ التكذيب ـ اليتيم »[1] .

والشيخ عبد المتعال الصعيدي يقرر أن مقصودها « ذم البخل بالمال »[2] وإنما أفضى به إلى تقرير هذا المقصود تراكيب السورة أيضا ، إلا أن تقرير البقاعي كان ناظرا إلى موقع السورة في الكتاب العزيز ، مع ضميمة نسق آيها ، فإن السورة الكريمة صدرت بسبب هو أصل الأسباب في فعل الفواحش والكبائر .

مطلع السورة الكريمة :

قال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ .

السؤال الذي نبدأ بالجواب عنه إن شاء الله ـ هو أن العلماء قطعوا بأن الاستفهام خارج عن حقيقته ، ثم اختلفوا هل هو توبيخي أم تعجبي؟ فلِمَ لَمْ يكن النظم . ما أسوأ حال الذي يكذب بالدين ، ذلك الذي يدع اليتيم . . .! أو الجاهل الذي يكذب بالدين ، والذي يدع اليتيم . . . أو غير ذلك .

لا ريب أن الاستفهام بطبيعته يستدعي مطلوبا ، وكأنه إثارة للمخاطب ـ سواء أكان النبي ﷺ أم أفراد الناس ـ حتى يقلب صفحات الكتاب باحثا عن ذلك المطلوب ، فتذهب النفس في تعيين المطلوب كل مذهب وموقع السورة في آخر الكتاب . اقرأ الآية الأولى ، ثم اضرب صفحا عما بعدها كيف تكون الحيرة باستذكار السياق السابق على السورة في تحديد المكذب؟! أهو الكافر؟ أهو المنافق؟؟ كما تقول سياقات القرآن ، أم هو

---

(١) راجع التحرير والتنوير ٥٦٣/٣٠ .

(٢) راجع النظم الفني في القرآن ص٣٦٧ .

غير ذلك . تأمل تلهف النفس إلى الجواب ، ثم اقرأ ما بعد الآية ، لترى موقع الجواب من النفس ثم إن في هذا الأسلوب فوق ذلك عقدا لآيات السور بهذه الآية ، وهو عقد ظاهر جدا ، فإن ما جاء من الآيات هو تفصيل للجواب ، وتحديد للحيرة التي أثيرت بأسلوب الاستفهام ، فوقعت آيات السورة من الآية الأولى موقع الجواب عن السؤال ، لأن الآية الأولى تطلب آيات السورة .

وكان تفسير الأئمة لمعنى الاستفهام معقودا بآيات السورة ، ووقت نزولها ، تأمل قول الصاوي : « وعلى القول بأن جميعها مكي تكون توبيخا لكفار مكة »[1] وهو يومئ بقوله هذا على أن في السورة تشريعات لم تنزل إلا بالمدينة فيما ذكروا ، وإلى أن التكذيب بالدين سبب في هذه المساوئ والمعايب ، فهو توبيخ لكفار مكة على تكذيبهم بالدين .

وذكروا أن معناه التعجيب[2] ، وهذا القول ناظر إلى الآيات المدنية في السورة ويكون المعنى ما أعجب من يصدق بالدين ثم يدع اليتيم . . . والخطاب حينئذ لمنافقي المؤمنين ، والذي يظهر لي أنه لا تنافي بين القولين وأن المراد بالخطاب هو جنس المخاطب مؤمنا أو كافرا .

وكأن ألفاظ التعجيب لا تكفي لإعطاء الدلالة التي أعطاها الاستفهام في هذا الموضع قال الفخر : رحمه الله « واعلم أن هذا اللفظ ، وإن كان في صورة الاستفهام لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب . . . »[3] وتأتى المبالغة ـ فيما أرى ـ من أن التعجب لا يستدعي مطلوبا ، وإنما يكون بيانا

---

(١) الصاوي على الجلالين ٣٥٥/٤ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٦٩٦/٨، والتحرير والتنوير ٥٦٤/٣٠ .

(٣) مفاتيح الغيب ٦٩٦/٨ .

عن بلوغ صفة ما لموصوف ما مبلغا عجيبا ، فإن اشتد العجب في بلوغ الصفة اقتضى ذلك السؤال عن سر بلوغها هذا المبلغ ، فتكون حال الحيرة والسؤال عن سر ذلك حينئذ حالا ملحة ، كأنهم بلغوا في التكذيب مبلغا جاوز الحد ، وهذا الأسلوب يومئ إلى تشنيع ما ذكرته السورة في الجواب عن المكذب ، ويعكس قدر الحيرة ومبلغ الإثارة إلى الجواب عند المخاطب .

وإلى هذه الدلالة أشار أبو السعود بقوله : هو « استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجيب منه »(1) .

ويضاعف من هذه الإثارة اتساع معنى (الدين) فقد ذكروا أن الدين هو « المعاد والجزاء ، والإسلام ، أو هو ما وراء المحسوس من الشئون الإلهية التي لا تحيط بها النفس إلا من وجه معرفة آثارها في الكون المشهود »(2) فإن اتساع دلالته تقتضي استقراء آيات كل دلالة في الكتاب العزيز عند البحث عن الجواب .

وتذكر الدكتورة عائشة عبد الرحمن رأيا آخر في الاستفهام فيما يقول : « وأميل إلى القول بأن سره البياني في الاستفهام عما يبدو للناس واضحا غير خفي ، ويحسبونه معلوما غير مجهول ، إذ ليس التكذيب بالدين مظنة خفاء ، ومن ثَمَّ يأتي الاستفهام عما يحسبه الناس مستغنيا عن كل بيان يثير أقصى اليقظة والانتباه ، ويرهف الدهشة والترقب انتظارًا لجواب غير

---

(1) إرشاد العقل السليم ٤/٥٥٤ .

(2) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/٧٥٥٤، ومفاتيح الغيب ٨/٦٩٦، وتفسير ابن كثير ٤/٥٥٤، والبيضاوي ٢/٥٧٧، وتفسير جزء عم ص١٢٢، ١٢٣، والتفسير البيانى ٢/١٨٣، ١٨٤ .

متوقع وتطلعا إلى معرفة ماذا يكون التكذيب بالدين غير الذي يعلمون فيه بالضرورة»[1].

وهو قول راجع إلى القول بالتعجيب أيضا ، ويظهر أثر هذا الاستنباط على ما ذكر من تفصيل أوصاف المكذب بالدين في السورة الكريمة .

وقد اختلفوا في (رأي) على قولين «أحدهما : أنها بصرية فتتعدى لواحد ، وهو الموصول ، كأنه قال : أأبصرت المكذب؟ والثاني : أنها تعني أخبرني فتتعدى لاثنين ، فقدره الحوفي أليس مستحقا للعذاب»[2] والقول الأول ألصق بمعنى الاستفهام التعجبي ، وهو الألصق بالسياق .

آية دع اليتيم وعلاقتها بالمطلع :

قال تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ :

(الفاء) هي الفاء الفصيحة فيما يقول جار الله «والمعنى : هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه فذلك الذي يكذب بالجزاء هو الذي يدع . . .»[3] .

وقد جاء مشارا إليه بلام البعد تحقيرا له ، وتشاربا من نوع الاستفهام التوبيخي في المطلع ، واسم الإشارة إلاحة إلى ما مضى من السياق ، وهو من المعاقد المباشرة للكلام ، وقد ذكروا أن (الذي) وقع بدلا أوعطف بيان على اسم الإشارة[4] ، إلا أن بناءه كذلك اقتضى جملة الصلة ، وفي ذكرها من التشنيع على المكذب ما يلائم السياق وقد جاء بلفظ يدع ليدل به على

(١) التفسير البياني ١٨٤/٢، ١٨٥ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٥٩٢/٤ .

(٣) الكشاف ٢٨٩/٤، والفتوحات الإلهية ٥٩٢/٤ .

(٤) راجع : الصاوى ٣٥٥/٤ .



مبالغة المكذب في قهر اليتيم وظلمه ، وليكشف به عن حاجة اليتيم الشديدة ، ألا ترى أن الداع لا يأتي إلا بعد الطرد والإعراض ، وذلك اللفظ يتلاءم مع جملة المطلع التي وصفت داع اليتيم بالتكذيب بالدين ، ولو قال هاهنا (فذلك الذي لا يكرم اليتيم) كما في الفجر ﴿ **كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ** ﴾ (١٧) لما تناسب مع هذا السياق الذي جرى على المبالغة في التعجب من بدء السورة ، هذا مع ضميمة ما في اليتم من الضعف والرقة ، كما تنبه إلى ذلك استعمالات القرآن الكريم لهذا اللفظ ، وما يشعر به استخدام لفظ يدع من القوة والعنف والدلالة على الغضب الشديد ، ألا ترى أنه في غير هذا الموطن إلا في سورة الطور ، واضعا فعل خزنة جهنم بالمكذبين وقد جاء هاهنا أيضا في سياق التكذيب بالدين ، تأمل قوله تعالى في سورة الطور : ﴿ **فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ** ﴾ الآيات (١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤) فهم لا يكتفون بمنع اليتيم حقه ، وإنما يقهرونه حين طلبه إياه فكيف يكون مصدقا بالدين من هذه سمته؟! وقد دل على تكرار ذلك منهم باستخدام المضارع .

وللفخر الرازي ـ رحمه الله ـ إلماع إلى وجه آخر في مناسبة الآية للمطلع فيما يقول : «الفاء في قوله : (فذلك) للمسببة ، أي لما كان كافرا مكذبا ، كان كفره سببا لدع اليتيم ، وإنما اقتصر عليهما على معنى أن الصادر عمن يكذب بالدين ليس إلا ذلك ، لأنا نعلم أن المكذب بالدين لا يقتصر على هذين بل على سبيل التمثيل . . . والحاصل أنه ـ تعالى ـ جعل علم التكذيب بالقيامة الإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف»(١)

---

(١) مفاتيح الغيب ٨/٦٩٦، ٦٩٧ .



وتكون علاقة آي السورة بالمطلع على قوله علاقة المسبب بالسبب ، وعليه جرى كلام أبي السعود في اسم الإشارة فيما يقول : « وضع اسم الإشارة للمتعرض لوصف المشار إليه موضع الضمير ، للإشعار بعلة الحكم ، والتنبيه بما فيه من معنى البعد على بعد منزلته في الشر والفساد »[١] وفي استخدام اسم الإشارة في هذا الموضع تناسب مع القول بأن (رأى) بصرية ، وتكون « الإشارة لتمييزه أكمل تمييز حتى يتبصر السامع فيه ، وفي صفته ، أو لتنزيله منزلة الظاهر الواضح بحيث يشار إليه . . . والرؤية بصرية يتعدى فعلها إلى مفعول واحد ، فإن المكذبين بالدين معروفون وأعمالهم مشهورة ، فنزلت شهرتهم بذلك منزلة الأمر المبصر المشاهد »[٢].

والملحوظ أنه جاء هاهنا بمعالم على التكذيب بالدين ، كلها متعلقة بالمال تناسبا مع السياق الماضي المتعلق بالمال ، في قريش ، والهمزة ، والتكاثر ، والعاديات كما مضى بيانه بكلام ابن الزبير في موقع السورة .

آية الحض على طعام المسكين وعلاقتها بالمطلع :

قال تعالى : ﴿ **وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ** ﴾ .

وقد جاءت الجملة معطوفة على سابقتها لبيان صفات المكذب بالدين ، وجرى النسق القرآني ، على القرن بين اليتيم والمسكين ﴿ **كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ** ﴾ الفجر . . . وفي النساء ﴿ **وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ** ﴾ (٣٦) فآذن هذا الاستعمال باجتماعهما في الضعف ، وقد قدم الأول لتشنيع الفعل ، وأخر الثاني ، لأنه نعي على ترك الفعل

---

(١) إرشاد العقل السليم ٦٩٦/٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٦٤/٣٠، ٥٦٥ .



وهذا الترك متعلق بالمال أيضا وقد جعله الذكر الحكيم في السورة علما للتكذيب وجاء جاريا كذلك على نسق المبالغة كأسلوب المطلع فقال (لا يحض) (لا يعلم) قال الفخر : مجيبا عن سؤال مؤداه لِمَ لَمْ يقل : ولا يطعم المسكين؟ «الجواب إذا منع اليتيم عن حقه ، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ، بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية في الخسة»[1] وهو يشير بذلك إلى أن هذه الجملة وليدة الجملة السابقة وقد صاعدت من التشنيع على دع اليتيم ، الذي بدوره يقاس ما وسمهم به المطلع من التكذيب بالدين .

ولطيفة أخرى وراء إضافة الطعام إلى المسكين ذكرها الفخر ـ رحمه الله ـ جاءت ملائمة مع ما مضى من منع اليتيم حقه ـ فيما يقول : «وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق المسكين ، فكأنه منع المسكين مما هو حقه ، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه»[2] وذلك «لأن الذي يشح بالحض على الإطعام هو بالإطعام أشح»[3] ، وإنما جره إلى ذلك كله تكذيبه بالدين ، فكل ذلك مسبب عنه ، وفي قول القرطبي : «أي لا يأمر به من أجل بخله ، وتكذيبه بالجزاء . . . . وتوجه الذم إليهم ، فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عسروا»[4] ، وهو يفسر الآية وعينه على المطلع كما ترى .

(١،٢) مفاتيح الغيب ٦٩٧/٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٥٦٦/٣٠ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧٥٥٥/١٠، وراجع البيضاوي ٥٧٨/٢، وجزء عم ، ص١٢٣ .

آيات وعيد الساهين عن الصلاة المرائين وعلاقتها بالمطلع :

قال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ** ﴾ يكشف جار الله عن موقع هذه الآية وصلتها بالمطلع فيقول : « جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف ، والإقدام على إيذاء الضعيف . . . وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين »[1] ، وهذا متلائم مع ما ذكروه من المبالغة في المطلع ، وذلك لأن أهم مظاهر الإيمان الصلاة ، وبيان السنة قاض بأن (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له) مع أنه يصلي ، كذلك من لم تمنعه صلاته عن دع اليتيم ، ولا تحضه على طعام المسكين فلا صلاة له ، لأنه يصلي مكذبا بالجزاء .

قال الرازي : « في موقع هذه الآية مما قبلها وجوه أحدها : أنه لما كان إيذاء اليتيم ، والمنع من الإطعام دليلا على النفاق ، فالصلاة لا مع الخشوع والخضوع أولى أن تدل على النفاق . . . . ثانيها : كأنه لما ذكر إيذاء اليتيم وتركه للحض كأن سائلا قال : أليس أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فقال له : الصلاة كيف تنهاه عن هذا الفعل المنكر ، وهي مصنوعة من عين الرياء والسهو . ثالثها : كأنه يقول : إقدامه على إيذاء اليتيم ، وتركه الحض تقصير فيما يرجع إلى الشفقة على خلق الله ، وسهوه في الصلاة تقصير فيما يرجع إلى التعظيم لأمر الله ، فلما وقع التقصير في الأمرين ، فقد كملت شقاوته ، فلهذا قال : (فويل) واعلم أن هذا اللفظ إنما يستعمل عند الجريمة الشديدة »[2] .

---

(١) الكشاف ٤/٢٨٩ .

(٢) مفاتيح الغيب ٨/٦٩٧، ٦٩٨ .

وقد ذكر أن الفاء في (فويل) فاء السببية ، وذلك لاتصالها بالويل ، وهو دعاء عليهم سببه ما مضى من دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين ، وأن الظاهر (للمصلين) وضع موضع المضمر ، لبيان أنهم مع التكذيب وما أضيف إليه ساهين عن الصلاة ، وذلك لأن السورة كلها في وصف قوم جمعوا بين هذه الأوصاف جميعا ، وهو قاض بأن السورة كلها إما مكية وإما مدنية ، وعلى القول بأن نصفها الأول مكي والثاني مدنى ، يكون الدعاء متعلقا بالمصلين وما أضيف إليه ، وينفك ارتباطه بما قبله ، ولا تكون الفاء حينئذ فاء السببية ، وإنما تكون الفاء الفصيحة عن شرط مقدر[1] والوجه الأول هو المتلائم مع ما فسر به ابن عباس صفة المصلين ، فإنه يعقد هذه الصفة بالمطلع ،وبما وقع بعدها من الآي فيقول: «هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثوابا ، وإن تركها لم يخش عليها عقابا»[2] وذلك لأنه كذب بالجزاء .

واستبصار صلة الآية بالمطلع ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴾ يعطيها ثراء في الدلالة «فوصفهم بـ (المصلين) إذن تهكم والمراد عدمه . . . وقرينة التهكم وصفهم بـ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾»[3] فهي التي ترشح التهكم ، وهو متناسب مع نسق السورة ، الذي وصف داع اليتيم بالتكذيب بالدين ، فإيمان بالدين كلاإيمان ، وقد ارتبطت الآية التالية بها بحيث لا يتم المراد بغيرها .

---

(١) راجع : الكشاف ٢٩٨/٤، والفتوحات الإلهية ٥٩٢/٤، والصاوي ٣٥٥/٤، والتحرير والتنوير ٥٦٧/٣٠، ٥٦٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٥٥٦/١٠ .
(٣) التحرير والتنوير ٥٦٧/٣٠، ٥٦٨ .

وهذه الجملة عامة لكل وجه في تضييع الصلاة كما قال أبـو جعـفــر : ـ رحمه الله ـ «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله : ﴿ **سَاهُونَ** ﴾ لاهون يتغافلون عنها ، وفي اللهو عنها ، والتشاغل بغـيرهـا تضييعها أحيانا ، وتضييع وقتها أخرى»[1] ولاحظ ما في الآية التالية من العقد بالتكذيب بالدين ﴿ **ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ** ﴾ وهو دال على أنهم يكذبون بالجزاء ، وفي تكرار الموصول زيادة في التشنيع عليهم .

والملحوظ أن الرياء في الصلاة لم يذكر إلا مع المنافقين ﴿ **إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا** ﴾ (النساء:١٤٢) وكذلك لم تذكر مادة (سها) إلا في سورة الذاريات (١١) ﴿ **قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ** ﴾ ، فاختصت السورة بجمع أوصاف في المرائين بالصلاة ، لم تجتمع في غيرها ، تناسقا مع التكذيب بالدين في المطلع وقد جيء بالحديث عن الصلاة في هذا النسق دلالة على رخاوة عقد اليقين كما قال جار الله فيما مضى ذكره .

آية الماعون وصلتها بالمطلع :

قال تعالى : ﴿ **وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ** ﴾ .

والجملة معطوفة على الجملة السابقة ، والويل هو جزاء من اتصف بالصفات المذكورة في السورة ، وقد اختصت السورة على قصرها بلفظ (الماعون) ودلالة هذا اللفظ دلالة ثرية واسعة تتناسب مع اتساع دلالة (الدين) في المطلع ، ومن معاني (الماعون) الماء والمطر ، وكل ما يستعار

---

(١) جامع البيان ٣٠/٢٠٢ .



للمنفعة عند الحاجة من فأس وقدر وإناء ، اسم جامع لمنافع البيت ، أو أنه العارية ، أو أنه منع الحق ، أو أنه الطاعة والانقياد(1) ، قال أبو جعفر «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب إذا كان الماعون هو ما وصفنا قبل ، وكان الله قد أخبر عن هؤلاء القوم ، وأنهم يمنعونه الناس خبرا عاما ، من غير أن يخص من ذلك شيئا ، أن يقال : إن الله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاورونه بينهم ، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ، ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق ، لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض»(2) وهو ناظر إلى الآيتين (الثانية والثالثة) وقد ذكروا أن الماعون الزكاة ، ورفضه بعضهم من القائلين بمكية السورة وعلى القول بأنها مكية تكون الآية تبشيرا بالزكاة في العهد المكي طريقة القرآن الكريم في كثير من التشريعات كالجهاد(3) .

والسورة مختتمة بما يدل على غايتهم في البخل الناتج عن التكذيب بالدين ، حتى فيما يعار ويسترد ، وهو متلائم مع دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين ولم يقل (ولا يعطون الماعون) لأنه لا يعطي من الدلالة ما يعطيه المنع من الإطباق عليه على قلته ، وأرجو أن أكون قد وفقت في محاولة كشف علاقة آي السورة بمطلعها .

* * *

---

(1) راجع : جامع البيان ٢٠٣/٣٠، وابن كثير ٥٥١/٤، ٥٥٦، والقرطبي ٧٥٥٧/١٠، ٧٥٥٨، ٧٥٥٩، والتحرير والتنوير ٥٦٩/٣٠، والتفسير البياني ١٩٠/٢ .

(2) جامع البيان ٢٠/٣٠ .

(3) راجع : كتاب التعريض لأستاذنا الدكتور الخولي الفصل الأخير بخاصة .



الفصل الرابع

الافتتاح بالقسم في سورة والعاديات

خمس عشرة سورة في الذكر الحكيم افتتحن بالقسم ، والعجيب أنهن جميعا مكيات ، وأسلوب القسم من أساليب الإنشاء غير الطلبي وله ـ جل في علاه ـ أن يقسم بما شاء من صفاته ، أو من مخلوقاته والأقسام التي افتتحت بها السور جميعا من مخلوقاته ـ سبحانه ـ وفي ذلك دلالة على عظمة هذه المخلوقات ، ويكون المراد توكيد المقسم عليه وتحقيقه ، وغالبا ما يكون ذلك في الأمور الغائبة والخفية حين القسم على ثبوتها كما أفاده ابن القيم[1] رحمه الله ، وأسلوب القسم يشابه أسلوب الشرط من حيث افتقار كل منهما إلى جواب ، ودائما تتابع الجمل عقب المقسم به ، ويبعد الجواب كأسلوب الشرط ، وتأتي تراكيب السورة متناغية مع المقسم به وما استتبع ، ومع الجواب ، وما استتبع كأسلوب الشرط ، كلاهما يعقد الكلام بأواصر ظاهرة ، ويومئ إلى تعانق آي السورة وغالبا ما يكون المقسم به توطئة للمقصود ، ويكون المقسم عليه هو قطب

---

(١) راجع : التبيان في أقسام القرآن ص٦ .

المقصود ، والتناسب موجود لا محالة بين المقسم بــه والمقسم علــيه ، وما عقد بكل من الآي بحيث لو وضعت العصر موضع الليل أو الفجر لما صلح ، وبحيث لو وضعت المرسلات موضع الصافات أو النازعات لانفرط عقد آي السورة ، لأن آي كل سورة معقودة بما أقسم به في صدرهما والأمر بعد في محاولة استكشاف التناسب بين القسم بالعاديات وآى السورة .

موقع السورة في الكتاب العزيز :

هذه السورة هي المائة في الكتاب العزيز حسب ترتيب المصحف الشريف وهى الرابعة عشرة حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة العصر ، والإنسان واقع جواب قسم في العاديات ، وفي العصر ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ** ﴾ ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ** ﴾ ، والعاديات تتناسب مع الزلزلة تناسبا ظاهرا قال السيوطي : « لا يخفى ما بين قوله في الزلزلة : ﴿ **وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ وقوله في هذه السورة : ﴿ **إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ** ﴾ من المناسبة والعلاقة »[1] يريد أن الآيتين مخبرتان بالبعث من القبور .

والزلزلة حديث عن التشتيت والتفريق ، والعاديات حديث عن الغارة المصبحة التي تنتج التشتيت والتفرق أيضا ، وقوله : ﴿ **فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا** ﴾ وهو غبار المعركة يتناسب مع قوله في الزلزلة : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ** ﴾ يتناسب مع قوله في الزلزلة : ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ** ﴾ .

---

(١) تناسق الدرر ص١٥٦ .



وجاءت القارعة بعدها لبيان وقت ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ لذا رأيت فيها ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ للدلالة على التشتيت والتفرق نتيجة البعثرة ، لذا لا يصلح أن تضع تشبيها لانتشار الناس يوم القيامة يناظر هذا التشبيه كقوله مثلا : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) فأنت ترى صورة الناس في القارعة ذروة امتداد سياق بدأ من سورة الزلزلة ، ومر بالعاديات وانتهى بالقارعة ، ووقع في القارعة أيضا النص على الحال التي بعد قوله : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ ترى قوله بعده في القارعة ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ وهو من نور قوله في الزلزلة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وهكذا ترى السورة معقودة بخيوط من التي قبلها ، ومن التي بعدها كالخيوط التي تعقد كل آية بما بين يديها من الآي وما خلفها .

هذا موقع السورة في الكتاب العزيز ، أردنا به استكشاف امتداد نور السورة .

مقصود السورة :

قال البقاعي : رحمه الله « ومقصودها : الإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك ، لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال المدلول عليه بالقسم ، وهو العاديات ، والمقسم عليه ، وما عطف عليه ، وقد علم أن اسمها أدل شيء على ذلك »[1] وهو ناظر إلى جواب القسم ، وإلى موقع السورة السابقة منها فالمقاصد المتجاورة متقاربة ، وقد ألمع إلى التناسب بين المقسم به والجواب كما سيأتي شرحه ، فمبنى السورة

(١) مصاعد النظر ٣/٢٣٧ .



على قياس الغائب في هلاك أكثر الخلق حين البعثرة من القبور ، على هلاك أكثر الخلق المباغتين بإغارة قوم يمتطون العاديات الموريات ، لأنهم أهل غفلة كمثل الهالكين يوم القيامة أيضا .

مطلع السورة الكريمة :

قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

قال الصاوي : ـ رحمه الله ـ « أقسم ـ سبحانه وتعالى ـ بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة ، تعظيما للمقسم به ، وتشنيعا على المقسم عليه »[1] فهو تعادل بين المقسم به والمقسم عليه ، والملحوظ أن المطلع اختص بألفاظ لم ترد في غير السورة (العاديات ـ ضبحا ـ الموريات ـ قدحا ـ المغيرات ـ أثرن ـ نقعا ـ وسطن ـ كنود) ، وذلك معلم دال على اختصاص السورة بمقصود دون غيرها .

والافتتاح بالقسم أومأ إلى طول جملة المطلع والمقسم به من جملة مخلوقات الله ، والمقسم عليه حال من أحوال الإنسان ، ويختلف أهل العلم في المراد بالعاديات على أقوال ثلاثة أولها : أن المراد بها الإبل تعدو في الحج وهو قول علي ـ رضى الله عنه ـ وقد انتصروا لرأيهم بأن السورة مكية نزلت قبل تشريع الجهاد ، وتأولوا الضبح بالاستعارة للإبل فرارا مما تجري عليه سنة العربية من استخدامها للخيل .

الثاني : أن المراد بها خيل الحرب ، وقد انتصروا لرأيهم بالسياق ﴿ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ ـ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ وهذان أثران لحوافر الخيل ،

---

(١) الصاوي على الجلالين ٤/٣٤٣، وهو منقول عن الكرماني البرهان ، ص٢٢٣ .

لا لأخفاف الإبل ، وردوا حجة نزول السورة بمكة ، بأن الله أقسم بما يعرفه العرب من حال الخيل ، وقد وقع هذا الخلاف لفهم الصحابة والمفسرين من بعدهم لأن المقسم به معظم ، وقد حاربت الدكتورة عائشة عبد الرحمن هذه الفكرة ، وذلك طعن فيما هو بدهي عند أهل العلم ، فما العلة وراء اصطفاء أشياء من مخلوقات الله يقسم بها غير التعظيم ، إلا أن تأتينا هي بنبأ يقين .

والقول الثالث : أنها الخيل بعامة محاربة في سبيل الله أو غير محاربة[(١)] إلا أن السياق يناصر أصحاب القول الثاني ، فإن السياق ليس في القسم بالخيل فحسب وإنما القسم بالخيل حال الحرب ، كما تؤدي إليه التراكيب ، بل الحرب الشعواء كما تدل عليه الألفاظ ، وتعاطف الجمل بالفاء الدالة في هذا الموقع على تلاحق الأحداث ، الذي يعكس اشتداد أوار الحرب وحميا لظاه .

ثم إن في هذه التسمية ﴿ **وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ** ﴾ إلماعًا إلى الحرب ، فهي من العَدْو والعَدْو يتقارب في مادته مع العدُوّ ، لذا لم يجزأن يقول : والخيل ضبحا لتنافره مع القيد بعده ﴿ **ضَبْحًا** ﴾ فالضبح هو صوت أنفاس الخيل إذا عدون ولتنافره أيضا مع الآية بعده ﴿ **فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا** ﴾ لأن إيراء القدح يكون عن سير سريع والعاديات يدل على الخيل مع الوصف بالسير

---

(١) راجع في ذلك : جامع البيان ١٧٦/٣٠، ١٧٧، والكشاف ٢٧٧/٤، والقرطبي ٧٤٩٥/١٠، ٧٤٩٦، والتبيان في أقسام القرآن ص٤٩-٥١، والبيضاوي ٥٧٢/٢، وابن كثير ٥٤١/٤، وأبو السعود ٦٥٧/٨، وما بعدها ، ومفاتيح الغيب ٦٥٧/٨، ٥٧٥/٤، جزء عم للإمام محمد عبده ص١٠٧، والتحرير والتنوير ٤٩٩/٣٠، والتفسير البياني ١٠٣/١ وما بعدها .

السريع وليس ذلك في لفظ الخيل ، ولتنافر أيضا مع قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ فإن إثارة النقع لا تكون إلا عن سير سريع ، وهكذا ترى التناسب ظاهرا ، بحيث لو استبدلت لفظا بلفظ لانفرط عقد الآي .

واختلفوا في عامل النصب في ﴿ ضَبْحًا ﴾ فإما أن يكون منصوبا على المصدر أي مفعولا مطلقا ، ويكون ذلك دالا على تأكيد الفعل ، وإما أن يكون في موضع الحال ، وهو الألصق بالسياق الذي يصاعد البيان عن الإثارة وقوله : ﴿ ضَبْحًا ﴾ توطئة للآيتين بعده ، لأن من قول العرب : ضبحته النار إذا غيرت لونه ، ولم تبالغ فيه[1] فقد أومأ هذا اللفظ إلى الإيراء والإغارة فالمراد وصف الخيل في حال معينة ، ويلحظ أن جمل المقسم به تعاطفت بالفاء ، التي تدل على سرعة الحدث ، مع ضميمة دلالتها على الترتيب ، كما يلمح فيها ترتيب المسبب على السبب ، فإن العدْو سبب في الإيراء ، والإغارة هي المقصود من العدو والإيراء ، قال الصاوي عند قوله : ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ « عطفه وما بعده بالفاء ، لأنه مرتب على العدو »[2] ويدل اسم الفاعل هنا على اشتداد العدو ، وكل ذلك توطئة لقوله : ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ ، والسياق يأتي أن يكون المراد قدح النيران بالليل حين نزولهم لحاجتهم وطعامهم ، وأن يكون (قدحا) بمعنى استخراج المرق من القدر في القداح لإطعام الجيش[3] ، فالسياق تصوير لأحداث متلاحقة ومتآزرة في البيان عن خيل أغارت صبحا على جمع محتشدين فباغتتهم فتبعثروا والأمر في إعراب (قَدْحًا) كمثله في إعراب ﴿ ضَبْحًا ﴾ .

---

(١) راجع : القرطبي ٧٤٩٥/١٠، ٧٤٩٦ .

(٢) الصاوي على الجلالين ٣٤٣/٤ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٥٠٠/٣٠ .

والإغارة سبب في العدو والإيراء ، لذا قال تعالى بعد : ﴿ **فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا** ﴾ واسم الفاعل يتناسب مع اسم الفاعل في صدر السورة ، فإن العادي مغير وإن المغير عاد لتقارب لفظي العَدُوُّ والعَدْوِ ، وقد دل هذا القيد ﴿ **صُبۡحٗا** ﴾ على انتهابهم غفلة الناس وسيرهم ليلا ، وتشاربا من نور السياق جاء الإسناد هاهنا على وجه المجاز العقلي فإن الإغارة تسند إلى الفوارس لا إلى الخيل ، إلا أنها جاءت كذلك ، إيماء لبلوغ أسباب الإغارة مبلغا عظيما حتى كأنها هي المغيرة ، ويدل ذلك على اندفاعها في السير بقرينة ما مضى من السياق قال الصاوي رحمه الله : « أسند الإغارة ـ وهي مباغتة العدوِّ للنهب أو القتل أو الأسر ـ للخيل مجازا عقليا ، لمجاورتها لأصحابها ، وحقه أن يسند لهم »(١) وقد جاء كذلك « للإيذان بأنها العمدة في إغارة أهلها »(٢) ثم إن هذا القيد ﴿ **صُبۡحٗا** ﴾ أضفى دلالة أخرى في اشتداد السير ، وذلك ظاهر من تحديد ما قبل الإغارة (الليل) فالقدح فيه يكون ظاهرا جــدا ، والبعثرة في هذه الآية واضحة جدا تناسبا مع قوله بعد : ﴿ **أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ** ﴾ ، وكل تعظيم وتفصيل في المقسم به ، فيه انعكاس على مقصود السورة ، وقد أفاد العطف بالفاء الترتيب « دون تراخ أو تمهل وإبطاء ، ما بين عدوها ضبحا وإغارتها صبحا »(٣).

والناصب لـ ﴿ **صُبۡحٗا** ﴾ الظرفية ، وهو قيد أضفى دلالة المباغتـه على ما مضى وقد عطف على ما مضى قوله : ﴿ **فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا** ﴿٤﴾ ﴾ وهذا الضمير من المعالم اللفظية على معاقد الكلام ، وفي عود الضمير وجوه ،

---

(١) الصاوي ٣٤٣/٤، والتحرير والتنوير ٥٠٠/٣٠ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٥٧٥/٤ .

(٣) التفسير البياني ١٠٧/١ .

فإما أن يكون عائدا على العدو ، وإما أن يكون عائدا إلى الزمان ﴿ صُبْحًا ﴾ وإما أن يكون عائدا إلى المكان[1] وذلك من ثراء تعبيرات القرآن الكريم ، فالنقع يثار بالفعل ولا بد له من زمان ومكان ، وقد ذكروا أن النقع هو غبار المعركة ، ونظروا إلى قوله ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ. . .﴾ فقالوا : وقد يكون النقع رفع الصوت بالصياح والجلبة .

وينقل المعنى حينئذ من وصف العاديات الموريات المغيرات إلى وصف أثر ذلك على الجمع المقصود بالإغارة ، ولعله الأولى ، فإن إثارة النقع مدلول عليه بما مضى من العدو والإيراء والإغارة ، وتكون الباء حينئذ في ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ باء السببية أي أثرن صياحا وجلبة بما مضى ، من أثر المباغته وهول المفاجأة ويكون عود الضمير على الزمان متناسبا مع تفسير النقع بالغبار إذ لا يظهر ثورانه بالليل ، المهم أن دلالات الآية لا تتناهى لاسيما إذا نظرت إلى تجاذبها الآيات السابقة عليها واللاحقة لها ، وقد استخرج ابن عاشور نكتة لطيفة للتغاير رغم التعاطف ، ولبيان العلة في عدم قول القرآن فالمثيرات نقعا ، فالواسطات جمعا يقول رحمه الله «والفاء العاطفة لقوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ عاطفة على وصف المغيرات والمعطوف بها من آثار وصف المغيرات ، وليست عاطفة على صفة مستقلة مثل الصفات الثلاثة التي قبلها ، لأن إثارة النقع وتوسط الجمع من آثار الإغارة صبحا ، وليس مقسما بهما أصالة ، وإنما القسم بالأوصاف الثلاثة الأولى ، فلذلك غير الأسلوب في قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ فجيء بهما

---

(١) راجع : الكشاف ٢٧٨/٤، ومفاتيح الغيب ٦٦٠/٨، والقرطبي ٧٥٠٠/١٠، وابن كثير ٥٤١/٤، وإرشاد العقل السليم ٦٥٨/٨، والبيضاوي ٥٧٣/٣، وجزء عم ص١٠٨، والتحرير والتنوير ٥٠١/٣٠، والتفسير البياني ١٠٨/١ .

فعلين ماضيين ، ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما ، بصيغة اسم الفاعل ، للإشارة إلى أن الكلام انفصل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة »[1].

وعطف على قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ ﴾ قوله : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ ﴾ وقد دل قوله : ﴿ وَسَطْنَ ﴾ على نهاية غفلة المقصودين بالإغارة ، لذا لم يقل فهزمن به جمعا أو ففجأن به جمعا أو غير ذلك ، وهو متناسق مع القيد السابق في الإغارة ﴿ صُبْحًا ﴾ ومع ما أدى إليه السياق قبل من سرعة الخيل ، ثم دل قوله : ﴿ جَمْعًا ﴾ على قوة المقصودين بالإغارة ، فإن لفظ ﴿ جَمْعًا ﴾ « يدل على الحشد الكاثر في المعركة مع مظنة القوة (القمر ٤٤ ، آل عمران ١٥٥ ، القصص ٧٨ ، آل عمران ١٧٣ ، الأعراف ٤٨) وسمي اليوم الآخر في القرآن يوم الجمع لاحتشاد الخلق به بعد بعثهم ، كما استعمل الإجماع في حشد الرأي وتدبير الأمر وإحكام المكيدة (يوسف ١٥ ، يوسف ١٠٢ ، يونس ٧١ ، طه ٦٤) ، وبكل ما لهذا اللفظ من دلالات ـ الحشد والتجمع ومظنة القوة ، يأتي في ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ فيوحي بما كان من احتشاد وهو مظنة قوة لهذا الجمع الذي اقتحمته العاديات ضبحا ، في إغارتها المصبحة »[2].

وصورة الإغارة المعقبة التبعثر ، تتقابل مع التبعثر المعقب التجمع للحساب في آخر السورة ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ والباء في ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ باء الملابسة[3] ، والضمير يعقد

---

(١) التحرير والتنوير ٥٠١/٣٠، ٥٠٢ .

(٢) راجع : التفسير البياني ١٠٩/١، ١١٠ .

(٣) راجع : إرشاد العقل السليم ٦٥٨/٨ .

الكلام بما مضى من السياق فهو إما أن يعود إلى العـدو أو إلـى النقع[1] أو إلى الوقت[2] لأنه من كل ما مضى بسبب ، وكل ما مضى من تصوير المفاجأة بالإغارة ، وبيان غفلة المقصودين بالإغارة الـتـي أعقبت التبعثر ، لا سيما بالبيان عن شدة الخيل ومهارتها ، كل ذلك صور لنا مدى هلكة المقصودين بالإغارة ، وذلك إيماء إلى الشق الثـانـي مـن أسلوب القسم وما تفرع عليه فالبعث مفاجأة أيضا ، قياسا على هذه المفاجأة يتكرر كثيرا في الواقع ولعل الذين ذكروا أن المراد بالعاديات هي الخيل تغزو في سبيل الله كانوا ناظرين إلى جواب القسم المترجم عن كفران الإنسان وحبه المال وبخله به ، فنسق الجواب يتناسب مع نسق المقسم به على هذا الوجه .

﴿ **إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ وتعظيم المقسم به يعاون تشنيع المقسم عليه ، كأن آيات المقسم به ، لها امتداد في المعنى استغنى عنه بآخر السورة ، فإن القرآن الكريم لم يذكر حال الجمع حين الغارة ، ولا ريب أنها حال هلاك وبعثرة وحيرة وارتباك ، سببها غفلة المقصودين بالإغارة ، ويقظة المغيرين ، فالأولون ممدوحون والآخرون مذمومون ، وكأن القرآن استغنى بجواب القسم عن ذكر حال الجمع ، وما تفرع على جواب القسم ﴿ **أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ** ﴾ بيان لحال الإنسان المقسم عليه ، وحاله المقسم عليها هي السبب في هلاكه هذا ما يومئ إليه البقاعي . فإن المقصود بيان أن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك لكنود هم وحبهـم المال وشهادتهم على

---

(١) مفاتيح الغيب ٦٥٨/٨ .

(٢) الكشاف ٢٧٨/٤ .

ذلك ، كحال الغافلين المصبحين بإغارة قوم امتطوا عاديات موريات مغيرات ، فتبعثروا بالمباغته ، كما تبعثر هذا الإنسان الذي حاله بالمباغتة أيضا ، هذا كما حاولنا تلمسه في المناسبة .

وقد اقتضى أسلوب القسم عليه وتحقيقه فتكاثرت المؤكدات في البيان عن حاله ، تشنيعا عليه ، ناهيك بقوله (كنود) الذي لم يقع في غير السورة الكريمة ، وأكثر أهل العلم على أن الكنود الكفور للمعاشرة ، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئا ، وأصل اللفظ منع الحق والخير ، أو هو العاصي بلسان كندة ، وقد ذكروا ـ بإسناد ضعفه ابن كثير ـ أن النبي ﷺ ذكر (أن الكنود هو الكفور الذي يمنع قدره ، ويأكل وحده ، ويضرب عبده) وهو تفسير لأدنى معاني الكنود ، أو هو اللوام لربه عند المحن والمصائب ، وينسى النعم والراحات ، وكلها أقوال ترجع إلى معنى الكفران والجحود[1] ، وكلما شنع القرآن في البيان عن حاله ، كان ذلك دالا على غفلته بالمال الفاني عن العز الباقي .

وقد تصاعد التشنيع على حاله بقوله : ﴿ **وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ** ﴾ والأولى بالسياق أن يكون الضمير عائدا على الإنسان ، فمن عظيم الغفلة أن تكون شاهدا على غفلتك ، وهو إيماء إلى تعظيم العقوبة ، ولا يمنع ذلك من عود الضمير على ﴿ **لِرَبِّهِۦ** ﴾ ويكون المعنى حينئذ متلائما مع ماختمت به السورة ومتقابلا معه ﴿ **إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ** ﴾ أي وعليهم

---

(١) راجع : جامع البيان ٣٠/١٨٠، ومفاتيح الغيب ٨/٦٦٠، ٦٦١، والقرطبي ١/٧٥٠٢، والبيضاوي ٢/٥٧٢، وابن كثير ٤/٥٤٢، والكشاف ٤/٢٧٨، والفتوحات الإلهية ٤/٥٧٦، والصاوي ٤/٣٤٤، وأبا السعود ٨/٦٦٠، والتحرير والتنوير ٣٠/٥٠٢ وما بعدها ، والتفسير البياني ١/١١٠ وما بعدها .

في اليوم شهيد ، والتقديم في (بهم وعلى ذلك) للاهتمام والتعجيب من حاله .

وقد تصاعد القرآن في التشنيع عليه بذكر سبب كنوده مع شهادته على ذلك الكنود بقوله : ﴿ **وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ وقد ذكروا أن اللام لام التعليل ، وفسروا الخيل بالمال ، وهم ناظرون إلى ما أقسم به الله في صدر السورة من خير المال ، فعقدوا بذلك بين المقسم به والمقسم عليه ومهد للتفريع ، أرأيتم إلى خير المال الذي تحبونه ، لأنه أكثر معين على مباغتة الجميع بالإغارة؟ كذا هو لأهل الغفلة يوم القيامة يكون سببا في المباغتة بالهلاك يوم الزلزلة ، حينئذ لا يجوز استبدال العاديات بغيرها من المخلوقات المقسم بها في صدر السور المفتتحة بالقسم ، وقد رأيت نسق الآي ، وكيف أومأت إلى حال يكون في الآخرة ، والملحوظ أن حال الإنسان المقسم عليها في ثلاث آيات تتلائم في التصعيد بالتشنيع عليه ، مع أحوال العاديات المقسم بها في صدر السورة ﴿ **إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ** ﴾ يقابل ﴿ **وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا** ﴾ فالمراد البيان عن سرعة العدو وتجاوز الحد ، وذلك بالقيد ﴿ **ضَبْحًا** ﴾ ، كتجاوز الإنسان الحد في الجحود والكفران ، كما تدل عليه التوكيدات المتكاثرة في الآية وقوله : ﴿ **وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ** ﴾ يتناسب وقوله : ﴿ **فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا** ﴾ ألا ترى أن القدح مشاهد يرى ، ومعلم لسرعة العدو واشتداده ، ومجاوزته الحد ، كما أن قوله : ﴿ **وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ** ﴾ معلم على اشتداد كفران الإنسان وجحوده إذ هو شاهد على نفسه .

وقوله : ﴿ **وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ يتناسب وقوله : ﴿ **فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا** ﴾ ، ألا ترى أن ذلك يومئ إلى ما تكون عليه أنفس العاديات من حب الإغارة

حتى كانت من طبعائهن ، وهذا القيد ﴿ **صُبْحًا** ﴾ دل على إيغالهم في حب الإغارة واسمية الجملة من المعين على ذلك والمناصر له ، بما تومئ إليه من استمرارية الإغارة منهم ، حتى صارت طبعا لهن ، كذا حال الإنسان في حبه المال يجعله يطغى ، فيكند ويشهد على كنوده هذا هو الذي حاولنا البيان عنه فيضا من نور كلام أهل العلم من أن الله أقسم بثلاثة أشياء وجعل جواب القسم ثلاثة أشياء أيضا[1] ، حيث أغرانا كلامهم بمحاولة استكشاف وجوه التلاؤم .

آيات اليوم الآخر وعلاقتها بالمطلع :

قال تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ** ﴾ .

هذه الآيات مفرعة على ما مضى قال ابن عاشور : « فرع على الإخبار بكنود الإنسان وشحه استفهام إنكاري عن عـدم علم الإنسان بوقت بعثرة ما في القبور وهمزة الاستفهام قدمت على فاء التفريع ، لأن الاستفهام صدر الكلام »[2] وفي ذلك مبادرة بإنكار هذه الحال على الإنسان ، وهو بناء متناسق مع التشنيع السابق أرأيت ﴿ **وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ** ﴾ ، وقد حذف مفعول يعلم ، ليذهب السامع في تقديره كل مذهب ممكن ، قصدا إلى التهويل ، ولم يترك على حذف مفعولي يعلم دليلا سوى المقام ، فيكون التقدير على مقتضاه من الوعيد والتهويل وهو المسمى عند النحاة بالحذف الاقتصاري كما قال ابن عاشور[3] .

---

(١) راجع : البرهان للكرماني ص٢٢٣ .

(٢،٣) التحرير والتنوير ٥٠٦/٣٠ .



وتلاؤما مع الحذف الماضي بني الفعل للمجهول ﴿ بُعْثِرَ﴾ قصدا لتوجيه العناية والاهتمام بالفعل دون النظر إلى الفاعل ، وكذلك تراه استخدم (بعثره) للدلالة على التفرق والتشتيت ، وهو ما جرى المطلع على لاحبه من بعثرة القدح وإثارة النقع ، وبعثرة الجمع بالمباغتة قياسا للغائب على الشاهد ، ضع مكان اللفظ إن شئت (أفلا يعلم إذا أُحْيَي ما في القبور) أتراه متناسقا مع سياق السورة؟ لا أخالك تخطئ هذه المناسبة ، وجاء بقوله : ﴿ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ معلما لعقد الآيات باليوم الآخر ، وهو متناسب مع غفلة القوم المصبحين بالإغارة حتى توسطهم المغيرون دون شعور منهم ، كذلك أهل القبور يباغتون بذلك دون شعور منهم أيضا ، وجاء نسق الآية على ترتيب الأهوال ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فالأولى كانت في البعث ، وهذه في الحساب ، والملحوظ أنه استخدم (حصل) وهو من خصائص مفردات السورة الكريمة «والتحصيل لغة : الجمع والتمييز ، وأصله من الحوصلة والحوصلاء ، وهي من الطير كالمعدة للإنسان ، ومن الحوض مستقر الماء في عمقه الأقصى ، ولهذه الدلالة اللغوية الأصلية أثرها في معنى (حصل) هنا ، فكل ما يعمله الإنسان مستقر في أعماقه مجموع في صدره . . . . . والتحصيل لما في الصدور ، إيذانا بكشف المستور ، وإظهار المطوي المضمر دلالة واضحة ، لا نخطئها في استعمال القرآن للفظ الصدور»[1] وهو متلائم مع قوله في الزلزلة ﴿ لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ ومع مقصودها الذي قرره البقاعي من أنه انكشاف المستور[2] ، واستخدام هذا

---

(١) التفسير البياني ١/١١٦، ١١٧ .

(٢) راجع : سورة الزلزلة الفصل الخامس من الباب الثالث من هذا البحث .

الفعل متلائم أيضا مع حال الإنسان المقسم عليه ، فإن حب الإنسان المال محله الصدور ، وكذا كنوده ، وهذا التفريع له أثره في البيان عن حال غفلة الإنسان الذي مضى التشنيع عليه .

وقد ختمت السورة الكريمة بما يلائم نسق القسم في توكيدات المقسم عليه ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ قال ابن عاشور وهي « جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن الإنكار ، أي كان شأنهم أن يعلموا اطلاع الله عليهم ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ . . . ﴾ وتفيد هذه الجملة مفاد التذييل »[1] والملحوظ أنه قدم المجرورات ﴿ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ وفي ذلك تناسب حال الإنسان السابق لذا أخر الاسم ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ وقدم المجرورات فأومأ ذلك إلى العناية بتحصيل ما في صدورهم ، وكشف المستور من كنودهم وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ عقد الآية بما مضى من قوله : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ . . . ﴾ فالتنوين في إذ عوض عن الجملتين السابقتين ، والملحوظ أنه استخدم الخبير هاهنا وذلك لتفرد الله بهذه الصفة ، وهي تتقارب مع العليم ، إلا أن هذه الصفة قد يوصف بها غير الله .

تقول بنت الشاطئ فيما تفرع على حال الإنسان « وهذه الوقفة الحاسمة يبلغ بها القرآن ذورة المشهد العنيف لبعثرة ما في القبور ، وتحصيل ما في الصدور ، وتتسق مع مشهد الإغارة العنيفة في مستهل السورة على وجه باهر من البيان المعجز ، ولا أعرف [والكلام لها] أن أحدا من المفسرين حاول أن يربط بين المشهدين أو لمح ما بينهما من صلة هي معقد القسم

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٧ .

ومجلى دقته البيانية»[1] ولقد قال أسلافنا ذلك وقالوه ونحن الذين لم نفهم مقالتهم ، والذي يطلب حقيقة ذلك يجتهد في اختلافهم في تأويـل معـاني الآي والمفردات ليتعرف على أسباب اختلافهم من سياق السورة ، وسـياق القرآن كما حاولنا البيان عنه في كثير من المواقع والذي لها هو النص على البيان عن هذا الملمح وقد ظهر بما مضى كيف اتصلت آي السورة .

* * *

(١) التفسير البياني ١/١١٩ .



الباب الخامس

علاقة المطالع بالمقاصد
دراسة نظرية

- الفصل الأول : المطلع
- الفصل الثاني : المقصد

الفصل الأول

المطلع

(ضابطه ـ مقداره ـ مفرداته وإشارتها إلى المقصد أحوال تراكيبه وإشارتها إلى المقصد وعناصر البيان عنه)

أولا : ضابطه :

لغة : مصدر ميمي للفعل (طلع) وفتح اللام هو القياس ، والكسر هو الأشهر وقد ذكروا أن الحرف إذا كان من باب فعل يفعُل (بضم العين) أثرت العرب في الاسم منه والمصدر فتح العين ، فجعلوا الكسر علامة للاسم والفتح علامة للمصدر ، والذي في قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ بكسر العين اسم موضع ، والطَّلْعَةُ (بفتح الطاء) ما طلع من كل شيء والوجه ، وطليعة الجيش : أول من يطلع ، وكل ما بدا لك من علو فقد طلع عليك . ومن المجاز : طلع علينا فلان : هجم وما هذا الإنسان في طالعة إبلكم : في أولها ، وحيا الله تعالى طلعتك[1] ، والبلاغيون

(١) راجع : أساس البلاغة ، والمفردات في غريب القرآن ولسان العرب والمصباح المنير والمعجم الوسيط مادة (طلع) .

والنقاد يطلقون (المطلع) على أول كل كلام ، ويسمونه (براعة الاستهلال) أو (حسن الابتداء) أو (الإلماع) أو (حسن الافتتاح)[1] والمصطلح الأول أجمعها ، إذ هو يشمل الاستهلالات الجيدة والرديئة ، وما جاء مشيرا إلى المقصد ، وما جاء على غير هذا الوجه الآخر ، أو قل باختصار إن الإطلاقات الأخرى غير المطلع إطلاقات ناظرة إلى أوصاف في المطلع ، وذلك من المعنى اللغوي بسبب وثيق ، فهم يقولون : ما هذا الإنسان في طالعة إبلكم ، أي ما يحسن أن يحظى بهذا الموضع ، لأن وجوده كذلك كاشف عن سمة القوم وقدرهم ، وكذلك قولهم : طليعة الجيش : أول من يطلع ، فذلك الأول يكون أشجعهم وأقدرهم بلا ريب وقولهم في الطَّلعة بفتح الطاء : ما طلع من كل شيء والوجه ، دال على أن المطلع هو الدال على هيئة الشيء ، فالوجه هو مناط التفرس في سيما خلائق الإنسان ، ولا ريب أنهم كانوا يعنون كل هذه المعاني في إطلاقهم المطلع على أوائل الكلام ، وما اشترطوه له ، فطلع الكلام دال على بقيته ، ومقياس جودته عندهم أن يكون مما قدم له من الكلام بسبب وثيق ، كتلك الصلة التي بين وجه كل إنسان وجسده فالقصيدة أو الرسالة أو الخطبة عندهم خلق واحد ، كما لا يمكن استبدال وجه إنسان بوجه إنسان آخر ، لأنه يجري فيهما دم واحد ، ويرتبطان ارتباطا يستحيل فصله كذلك ينبغي أن تكون أوائل الكلام موصولة به ، ولأن القرآن كلام الله كما أن الإنسان خلقه وكلاهما إعجاز فإنك ترى مطالع سور القرآن الكريم ملتصقة بمقاصدها مترجمة عن سيما البيان في السور كترجمة وجه الإنسان عن طبائعه ، وكل من عند الله ـ جل وعز ـ يستكشف ذلك ذوو الفراسة أهل البصيرة كما حاولنا جمع نثاره في بيان أعيان علماء الأمة عند كل سورة .

---

(١) راجع : براعة الاستهلال عند البلاغيين في التمهيد لهذا البحث .

مطلع السورة في القرآن الكريم :

هو الجملة الأولى ـ اسمية كانت أو فعلية ٠ وتوابعها من عطف البيان والنسق والبدل والنعت وغير ذلك في صدر كل سورة من سور الذكر الحكيم ، وذلك أدق ضبط انتهت إليه هذه الدراسة ، على أنهم قد اختلفوا في تحديد مطالع القصائد[1] اختلافا بينا فمن قائل : إنه البيت الأول ، ومن قائل إنه العنصر الأول أي المقدمة طللية كانت أو غزلية أو غير ذلك ، وعليـه فقـد يصل المطلع إلى خمسة أبيات أو عشرة أو أقل من ذلك أو أكثر . أما في القرآن الكريم فالوجه كما رأيت بل كأن القرآن الكريم كله سورة واحدة الفاتحة مطلعها الجامع لمعاني القرآن الكريم كما ذكر سيدنا النبي ﷺ .

ثانيا : مقداره :

يختلف مقدار مطلع السورة قصرا وطولا حسبما جاء عليه تركيب الجملة الأولى وتوابعها ، فقد يصل إلى عدة آيات كمطلع سـورة البقـرة ﴿ **الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾ وكل هذه الآي متداخلة ومتشابكة ، ونابعة من رحم الجملة الأول كما هو ظاهر .

وقد يكون المطلع آيتين كمطلع آل عمران ﴿ **الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ** ﴾ ، أو آية واحدة كما في الأنفال : ﴿ **يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ**

---

(١) راجع : من تراث الباحثين عن علاقة المطالع بالمقاصد في الشعر في التمهيد لهذا البحث .

ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ، ومطلع سورة التوبة ﴿ **بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾ ، ومطلع المائدة ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾ ، وكذلك سورة النحل ﴿ **أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ ، وسورة قريش ﴿ **لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ** ﴾ ، وسورة الإخلاص ﴿ **قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ والمعوذتان ﴿ **قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ** ﴾ ﴿ **قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ﴾ وهذه القصار تشبه أن تكون جملة واحدة ، إلا أنك تستطيع أن تعد الجملة الأولى مطلعا للتوابع المذكورة في السورة بعد[1] .

ثالثا : مفرداته وإشارتها إلى المقصد :

يبتدأ دائما بحصر مفردات المطلع والتعرف على معانيها ، وجمع كلام أهل العلم حولها ، دون رد لقول حتى لو كان مردودا عند بعض أهل العلم وفي كثير من المفردات المطالع تجد غرائب في تفسيرها ، ولا ريب قد ذكرها أعيان أهل العلم ، كما مضى من جري جار الله على تفسير لفظ الكتاب بالسورة في مطلع كل سورة صدرت بذكر الكتاب[2] ، وهذه الغرائب في بيان معاني مفردات المطالع تفتح باب لاستكشاف الصلة بين المطالع وبين آي السورة ، يتسع ذلك الباب باستخراج محل نظر العلماء في السورة ، وكثيرا ما تجد أهل العلم يصطحبون معاني المفردات

---

(١) راجع : الافتتاح بالتعليل في سورة قريش والافتتاح بالأمر في سورة الإخلاص والمعوذتين .

(٢) راجع : الافتتاح بحروف التهجي من هذا البحث .

المذكورة في المطالع في تفسيرهم آيات السورة كما ذكرنا من اصطحاب محمد بن جرير ـ رحمه الله ـ لمعنى ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ في مطلع سورة الأنعام وأحلنا على مواضع قوله : (قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم)[1] أو يقول هؤلاء العادلون بربهم .

وتنفرد كثير من مطالع السور بمفردات لا توجد في غير موضعها ، وهو من المعالم الدالة علىتفرد المطالع بخصائص ومعانٍ ، لا توجد في نظائره من ذلك مثلا تفرد مطلع المائدة بهذا اللفظ (العقود) وتفرد الأنفال بهذا اللفظ (الأنفال) وتفرد التوبة بهذا اللفظ ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ وتفرد الأنعام بهذا اللفظ ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ وقريش ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ والكهف ﴿ قَيِّمًا ﴾ والهمزة ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ والمطففين ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ وهكذا كثير من السور المفتتحة بالقسم ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾ و ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ و﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾ و﴿ وَٱلَّيْلِ ﴾ و ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾ و ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ و ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ في الافتتاح بالجملة الخبرية ، وحينئذ يجب إيلاء هذه الألفاظ اهتماما بالغا ، لأنها حينئذ معلم المقصود الذي تسعى السورة بتراكيبها إليه ، كما رأينا في سورة المطففين ، وسورة قريش وسورة الفلق ، وسورة المائدة والأنعام والأنفال في مواضعها من هذا البحث .

وتكون هذه المفردات معالم للتمييز عند تقارب المطالع كتقارب مطالع آل حم مثلا ، فإنك تجد مطلع سورة غافر يتميز بقوله : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ عن باقي آل حم ، وهي حينئذ قطب استكشاف المقصد الذي تتظاهر سورة غافر على بيانه ، وكثيرا ما تجد

(١) راجع : الافتتاح بالثناء في سورة الأنعام من هذا البحث .

أهل العلم يرجحون من معاني المفردات ما يتطابق ومعنى السورة ، كما ذكرنا في مطلع النساء وما فسروا به معنى (العقود) في المائدة[1] .

والمفردات الخاصة في المطالع قد تكون من وسائل استكشاف المقصود كما بيناه بكلام ابن الزبير والبقاعي ـ رحمه الله ـ من ذلك ما ذكره البقاعي عند سورة المائدة والكهف والمطففين وكثير من المواضع كما هو شائع في هذا البحث ، والذي ينبغي تأكيده في هذا الموضع أن النظر في مفردات المطالع يكون بكلام أعيان العلماء ، ومقترنا بالنظر إلى آي السورة بكلامهم أيضا ، وحينئذ يستكشف بتأثرهم ـ الخيوط الدقيقة التي تعقد بين المطلع وبين آي السورة كما ذكرناه في مواضعه بفضل الله ومنه .

رابعا : أحوال تراكيبه وإشارتها إلى المقصد وعناصر البيان :

ونعني بذلك أحوال النظم في المطلع من غير تفريق بين أن تكون هذه الأحوال من علم المعاني أو علم البيان أو علم البديع ، لأن النظم هو توظيف الأحوال النحوية على وفق الأغراض المعنوية ، وليست المزية للأحوال النحوية لذاتها كما يقول الإمام عبد القاهر ، وإنما المزية بحسب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام[2] كما قال رحمه الله :

ويسلك في ذلك مسلكي التحليل والموازنة وهو ما يوجب التأمل في أحوال الكلام ، والاجتهاد البالغ في تحديد الفروق ، ورصدها في المطالع المتقاربة ثم محاولة استبصار علل لهذه الفروق وفقهها ، ويأتي ذلك على الوجه الذي بيناه في فقه المفردات بكلام أعيان أهل العلم أيضا ، ويكون النظر في تراكيب المطالع مقترنا بالنظر في تراكيب آي السورة ، ومقترنا

---

(١) راجع : الافتتاح بالنداء في سورتي النساء والمائدة من هذا البحث .

(٢) راجع : دلائل الإعجاز ص٨٧ .



بالنظر في تراكيب المطالع المتقاربة كما تؤمى إلى ذلك مطالع الذكر الحكيم تأمل مطلع سورة الحجر ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ ومطلع سورة النمل ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾ وكيف أومأ القرآن بالتقديم والتأخير بنفس المواد اللغوية في الموضعين ، إلى التباس المراد في الموضعين والتمايز بين الفرضين في آن واحد . وكذلك أول سورة يونس ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ وفي لقمان ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ وكيف أشار القرآن بالتقارب بين الحروف المقطعة في الموضعين إلى تقارب الغرضين وأشار بالمغايرة بين الراء والميم إلى الفرق بينهما ، وكيف كان كذلك أيضا في مطلع سورة يونس ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وفي الرعد ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ وتتقارب السورتان في المراد بسورة يونس ومقصودها : وصف الكتاب بأنه من عند الله ، ومقصود سورة الرعد (وصف الكتاب بأنه الحق في نفسه) والذي في المطالع إيماء إلى وجوب الموازنة بين آي السورتين ونمط البيان فيهما .

ومن البديع في القرآن الكريم أنك ترى للتقديم والتأخير وغير ذلك آثارا بينة في آيات السورة ، وترى ما جاء تابعا في المطلع ، جاءت الآيات المتعلقة به في السورة تابعة للغرض الأصلي ، وتقديم التوابع في المطلع قد يكون إيماء لأهميتها ، وإشارة إلى أنه سيكون أقوى العناصر بيانا عن الغرض الذي يحمله المطلع ، فمقصود البقرة مثلا وصف الكتاب بأنه هدى للمتقين وما عدا ذلك فتوابع ولوازم ، الملحوظ في توابع هذا المطلع أنه قدم وصفهم بالإيمان بالغيب على التوابع الأخرى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ . . . ﴾ قبل الصلاة والإنفاق ، وأخر قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ وهذا النسق فيه إيماء إلى أن قطب التقوى الإيمان

بالغيب ، ومدار الإيمان بالغيب الإيمان بالبعث الذي بعده جزاء المتقين الذين نزل الكتاب هدى لهم ، ولما كان أمر السورة كذلك اختصت السورة بذكر أدلة البعث في تسلسل بديع بدأت بذكر بيان عدم معرفة الملائكة بالغيب ، ولا الجن ولا السحرة ولا الناس ، واختصت السورة بذكر قصص الإحياء بعد الإماتة ، وبدأت بقصة السبعين الذين صعقوا ثم أحياهم الله من قوم موسى ، ثم قصة البقرة أقوى القصص جميعا في الدلالة على البعث ، ثم قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، ثم محاجة إبراهيم عليه السلام النمروذ لعنه الله ـ ومحاجته في أن الله يحيي ويميت ، ثم قصة إبراهيم عليه السلام في إحياء الأطيار ، وظهر أثر هذا السياق ظهورا بينا في مضاعفة ثواب الإنفاق في سبيل الله ، وكيف جاء مشتملا بسياق البعث . كما بيناه في موضعه بفضل الله ومنّه ، وبعد عرض الإيمان بالبعث والغيب ، وأركان التقوى تختم السورة بقوله : ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ وهي عين ما قيل في أوصاف المتقين في المطلع ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ** ﴾ إلا أنك ترى فرقا بديعا ينبهك إلى تشارب آيات السورة من غرض واحد ، فقد عبر بالمضارع أولا ﴿ **يُؤۡمِنُونَ** ﴾ وبعد العرض عبر بالماضى ﴿ **ءَامَنَ** ﴾ والأول لا يدل على تحقق الوقوع كدلالة الثاني على ما يعرف أهل الفن[1] وهو ظاهر في أن مطلع السورة هو وجهها الذي يجمع سماتها ونمط معانيها .

من ذلك أيضا هذا الطباق الذي تراه في مطلع سورة الأنعام ﴿ **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ** ﴾ وقد بينا اختلاف العلماء هل المراد بهما الحقيقة أم المجاز ، ورجحنا أن يكون مرادا بهما الحقيقة والمجاز معا بالنظر إلى آيات السورة ، وهو باب عالٍ من أبواب

---

(١) راجع ما أبصرناه بكلام العلماء في الافتتاح بحروف التهجي في سورة البقرة .

بلاغة الذكر الحكيم ، من أثر ذلك أن رأينا ـ كما أفضى إليه مسلك الموازنة ـ أن مادة (هدى) ومتصرفاتها قد ذكرت في أربعة وعشرين موضعا من السورة ، وأن مادة (ضل) ومتصرفاتها وقعت في أحد عشر موضعا من السورة ، ومع أن مادة (هدى) ومتصرفاتها وقعت في البقرة في تسعة وعشرين موضعا من السورة ، ومادة (ضل) ومتصرفاتها وقعت في النساء في ثلاثة عشر موضعا ، إلا أن المادتين لم تقعا متقابلتين غالبا ، كما وقعتا متقابلتين في الأنعام غالبا ، ومن أثر ذلك أيضا أن السورة استأثرت بمحاجة إبراهيم قومه في الإله على وجه الهداية في اتباعه فيما يقول ، والضلال في وجه اتباعهم فيما يعبدون ، وجاءت تشبيهات السورة متناسجة مع هذا البيان ﴿ **قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا** . . . ﴾ وقوله : ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ** . . . ﴾[1] .

وكذلك تصدير سورة التوبة بقوله : ﴿ **بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ** . . . ﴾ وكيف دلت على المعاداة وأومأت إلى القتال ، وتقطيع كل الأواصر ، وتقطيع الأرحام ما دام أهلها على غير ملة المسلمين ، وهكذا تجد أصداء المطالع شائعة في السورة تتعالى في النداء على أن السورة تسعى بتراكيبها إلى مقصد واحد ، وكان النظر إلى تراكيب مطالع السورة ودلالتها من الوسائل الكاشفة عن مقصود السورة ، كما هو شائع في هذا البحث .

* * *

---

(١) راجع الافتتاح بالثناء في سورة الأنعام من هذا البحث .



الفصل الثاني

المقصَدُ

(ضابطه ـ سبل الكشف عن المقاصد وصلتها بالمطالع ـ دور علم المناسبات ـ دور تسمية السورة ـ دور المفردات الخاصة بالسورة ـ دور قصص النبيين ـ دور الموضوعات المشتركة ـ دور مشتبه النظم ـ دور الموضوعات الخاصة بالسورة ـ دور خاتمة السورة ـ دور بيان النبوة ـ دور سبب النزول)

أولا : ضابطه :

المقصَدُ لغة : مصدر ميمى بفتح الصاد من قصد ، والقصدُ هو الاعتماد والأمّ ، ويقال : تنجزت منه أغراضي ومقاصدي ، وليس من القصد الذي هو الاعتدال والاستقامة كالذي في قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ ومعناه الطريق المستقيم .

وهو بكسر الصاد (مقصِد) اسم مكان يقال : بابك مقصِدي أي موضع غرضي[1] : والمقصود اسم مفعول من (قَصَد) ، والمقصَد جمعه مقاصد .

---

(١) راجع : أساس البلاغة والمفردات في غريب القرآن ولسان العرب والمصباح المنير والمعجم الوسيط مادة (قصد) .

والمقصَد في السورة القرآنية : هو الغرض الذي تتظاهر تراكيب السورة على بيانه ، وهو مقصد بياني غير المقاصد الشرعية المقررة عند أهل الأصول من حيث كونها قسمين أحدهما يرجع إلى قصد الشارع والآخر يرجع إلى قصد المكلف[١] إلى آخر ما ذكروه ، وقد بينا بكلام العلماء أن للسورة مقصَدا واحدا يدار عليه أولها وآخرها[٢] ، وهو المتساوق مع بيان القرآن الكريم واستكشاف هذا الغرض أمر شاق جدا ، وتحديده بالبيان عنه جليل الخطر .

ثانيا : سبل الكشف عن المقاصد وصلتها بالمطالع :

دور علم المناسبات :

إن نسق سور القرآن الكريم هكذا عند الله في اللوح المحفوظ فيما ذهب إليه جمع من العلماء[٣] ، وسور القرآن الكريم في مواقعها تكون نورا ممتدا مما قبلها ، ونورا لما بعدها ، وهو الأمر الذي انتهينا إليه بالدرس البياني في استحالة التقديم والتأخير في أنساق السور ، كما حاولنا إبصاره مثلا في سورة المطففين في الكلام على موقعها في الكتاب العزيز ، وطريقة العلماء في استكشاف مقاصد السور النظر إلى سياقها في القرآن الكريم وراجع في ذلك كتب المناسبات ، فإنك تجد دائما أنهم يقولون : لما قال في السورة الماضية كذا قال هنا كذا ، وكذا البقاعي في تحديد

---

(١) راجع : الموافقات في أصول الشريعة ٢/٥ وما بعدها .

(٢) راجع : في الأطر العامة للكشف عن العلاقات (وحدة الغرض في السورة القرآنية) .

(٣) راجع : هذا الموضوع في فصل فاتحة الكتاب وعلاقتها بمقاصد الذكر الحكيم من هذا البحث .

مقاصد السور يسترشد بمواقع السور في تحديد مقصودها ، وقد بينا ذلك بالدرس البياني في سورة قريش أيضا ، فقد وقعت بين سورتي الفيل والماعون ، وحادثة الفيل من أسباب الإيلاف ونتائجه ، والذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف هو المحاسب الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، وترى سورة الحج تختم بقوله : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩** ﴾ وتفتح (المؤمنون) بقوله : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ** ﴾ ، وهكذا شأن سور القرآن الكريم قاطبة ، فإن المجاورة بين السور تومئ إلى تقارب مقاصدها ، وكأن كل سورة تمهد للأخرى ، فسورة الحج مقصودها : الحث على التقوى وسورة المؤمنون مقصودها : اختصاص المؤمنين بالفلاح الذي هو نتيجة التقوى وهما متقاربان كما ترى ، فكل غرض يكون مما قبله ومما بعده بسبب ، ولعلك على ذكر مما قاله العلماء في سورتي التوبة والأنفال ، وأن قصة التوبة شبيهة بقصة الأنفال ، وكان سقوط البسملة معينا لهم على هذا القول ودائما مقدمات السور ومطالعها تتناسق بخاتمة التي قبلها .

دور تسمية السورة :

والأمر هاهنا جار أيضا على أن أسماء السور توقيفي ، لذا كانت تسمية السورة من الوسائل الهادية إلى استكشاف مقصود السورة ، وقد ذكروا أن تسمية السورة بجزء منها من المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية من تسمية الكل باسم الجزء ، وقد اشترطوا للجزء أن يكون له مزيد خصوصية ، وهذه الخصوصية تكون بدلالته على المقصد الأصلي للسورة ، قصة البقرة مثلا التي جاءت دليلا للبعث في سورة البقرة لم سميت بها

السورة ولِمَ لَمْ تسم مثلا بسورة الحمار؟ أو سورة إحياء الأطيار أو غير ذلك؟ وموقع الاستدلال للبعث من مقصود السورة كما عرفت ، لا ريب كانت قصة البقرة أكثر قصص الإحياء بعد الإماته ظهورا لدى القوم إذ تمت أمامهم جميعا ، لذا فقد عقب عليها بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ في سورة البقرة ، وسورة النحل على طولها لم يذكر فيها النحل إلا في آية واحدة ، ومع ذلك فقد سميت بالنحل ، ومقصود السورة في بيان تمام علم الله وقدرته ، وقصة النحل أدل شيء في السورة على تمام قدرته سبحانه وتعالى ، لذا جاء بناؤها اللغوي من المطلع بسبب تدبر آية ما بعد المطلع ﴿ **يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ** ... ﴾ ثم بين أن العجب في النحل الذي ترونه ، إنما هو وحي إلهام وإرشاد ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ** ﴾ .

وكذلك سورة يونس لا تجد فيها ذكرا ليونس إلا في آية واحدة والسورة طويلة ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾ وكشفه دليل على أنه من عند الله ، لأن السورة في بيان وصف الكتاب بأنه من عند الله ، فجاءت قصة يونس في السورة على قصرها ظاهرة الدلالة على المقصود ، ولو سميت كل سورة بأكبر جزء منها ، لكان لذلك تعليل قريب ، لكن الغريب أن تسمى السورة بأصغر جزء منها . سورة هود مثلا سميت بقصة هود عليه السلام ، مع أنه لم يكثر ذكره كثرة ذكر نوح عليه السلام ، إلا أن قصته عليه السلام كانت أدل شيء على غرض السورة ، لذا تميزت عن سائر أخواتها في السورة بظهور اتصالها بالمطلع ، قال تعالى : في الجملة التابعة للمطلع

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وهو قول هود لقومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

سورة المطففين مثلا سميت بلفظ منها ، ومع ذلك هو قطب السورة وعمودها الذي دارت عليه تراكيب السورة بعد ، فدائما تراكيب ما سميت به السورة ينظر إليه مقارنا بتراكيب المطالع مقارنا أيضا بنظائره في الذكر الحكيم ، فهو عند النظر يمتاز بخصوصيات لا يمكن أن توجد في مواطن أخرى ، وتكون وثيقة الصلة بمطلع ما جاءت في سياقه ، وهو إنباء بأن بيان السورة من أولها ينتظمه سلك واحد ، يضع القرآن معالمه الدالة عليه بين الحين والحين ، وتكون أظهر شيء فيما سميت به السورة .

وليس تعدد أسماء السور قادحا في هذا الوجه ، بل إن تتعدد الأسماء يكون أكبر معين على الإلماع إلى جوانب وخصوصيات في السورة ، قد لا تفتح بغيرها ، فإن تعدد أسماء سورة التوبة وتسميتها بالمقشقشة والفاضحة والحافرة وغير ذلك ، كان كاشفا عن سيما آياتها في المنافقين حين التنظير بينها وبين نظائرها من آيات النفاق في الذكر الحكيم ، وكذلك سورة الإخلاص ، كان قول النبي ﷺ (الله أحد الله الصمد) كاشفا عن معجمها اللغوي الذي بدلالته عدلت السورة ثلث معاني القرآن ، وتلك الطريقة هي التي بنى عليها البقاعي ـ رحمه الله ـ كتابه الموسوم (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) .

دور المفردات الخاصة بالسورة :

من الوسائل الهادية إلى تحديد المقصود جمع المفردات الخاصة بالسورة لأن المفردات الخاصة بالسورة ، تكون معلما على المقصد الخاص بها ، لا سيما إذا تميزت المطالع بمفردات خاصة أيضا ، ولكل سورة معجمها اللغوي الذي تمتاز به عن نظائرها ، طالت هذه السورة أم قصرت ، أرأيت إلى سورة الإخلاص وكيف كان لها معجم ﴿ **ٱلصَّمَدُ ـ كُفُوًا** ﴾ وكذلك سورة الفلق ﴿ **غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ـ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ـ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ وسورة الناس ﴿ **ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ** ﴾ وسورة قريش ﴿ **لِإِيلَٰفِ ـ قُرَيْشٍ ـ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ** ﴾ والمطففين ﴿ **سِجِّينٍ ـ عِلِّيِّينَ ـ مَّرْقُومٌ ـ تَسْنِيمٍ** ﴾ وغير ذلك ، وقد جاءت هذه الألفاظ متقابلة مع المطففين في المطلع وكذلك في سورة الأنبياء تراها تذكر الغفلة في المطلع ﴿ **ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** ﴾ وترى لفظ الذكر مقصوداً به القرآن قد انتشرت انتشارا غير معهود في السور الأخرى داخل السورة الكريمة .

وكذلك سورة مريم تذكر الرحمة في المطلع ، وترى ـ تناسجا معه ـ تكرار لفظ الرحمن في السورة الكريمة ست عشرة مرة ، ووقع لفظ الرحمة أربع مرات ، وتكرر قوله : ﴿ **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ تكرارا لا نظير له تناسبا مع تصدير السورة بقوله : ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ** ﴾ وهذا المنهج في استقراء ما شاع من الألفاظ في السورة شيوعا امتازت به عن نظائرها ، ثم لَحْظ المناسبة بينه وبين المطلع ، أمر بالغ في الدلالة على السلك الخفي الذي انتظم بيان سورة القرآن الكريم .

دور قصص النبيين :

وهو أكثر السبل بيانا عن مقاصد سور القرآن الكريم ، ويدل توزع حلقات قصص النبيين ، لا سيما النبي الواحد على عديد من السور على أن القصص ليس مقصدا تسعى أي سورة بتراكيبها إليه ، كما يدل تكرر الحلقات باختلاف في الأسلوب وهيئات البناء على أن كل حلقــة تتلون ما سيقت في بيانه من المقاصد ، ولذا كان تدبر قصص النبيين من الوسائل الهادية إلى استكشاف مقصود السورة القرآنية فقصة آدم عليه السلام تكررت في عدة مواضع ، واستأثرت سورة البقرة بقصة تعليم آدم عليه السلام الأسماء ، ثم عرض الأشياء على الملائكة ، فقد تلون بلون استئثارالله سبحانه ـ بعلم الغيب حتى لو كان المدعي ملكا مقربا ، وقل مثل ذلك في قصة صعق السبعين من قوم موسى ، وقصته مع البقرة ، وقل مثل ذلك في محاجة إبراهيم عليه السلام النمرود ـ لعنه الله ـ وكيف جاءت مشتملة على إثبات قدرة الله على الإحياء بعد الإماته ، وقصته مع الأطيار وقصة صاحب الحمار ، وكله مما اختصت به السورة الكريمة ، وعلاقته بالمطلع على ما عرفت وكذلك الحلقة من قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وكيف جاءت مشتملة بالرحمة ، ومشعة باللطف في الرد على أبيه ـ لأنها جاءت في سياق خص الله بشمول الرحمة وتكرار النداء (يا أبت . . . .)[1].

وقل مثل ذلك في محاجة إبراهيم قومه في آلهتهم كيف جاءت القصة متناسبة مع المطلع ومع الغرض ، وجاءت في إطار المحاجة الذي ألمع إليه مطلع السورة الكريمة بقوله : ﴿ **ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ** ﴾ والعادل بربه محاج .

---

(١) راجع : في الافتتاح بحروف التهجي في سورة مريم .

وفي الحلقات التي تتكرر يتلون الأسلوب بلون ما سيق فيه ، وقد يعقد بمعالم ظاهرة بالمطلع تدبر مطلع سورة طه ﴿ **طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ** ﴾ ثم تدبر الحلقة المذكورة في سورتي البقرة والأعراف من قصة آدم عليه السلام قال تعالى في سورة طه : ﴿ **فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ** ﴾ وقال أيضا : ﴿ **قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** ﴾ .

ونفس الآية في سورة البقرة : ﴿ **قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (٣٨) وكأن القرآن الكريم يلفتنا إلى مقارنة الأسلوب في الموضعين واستبصار علل هذه الفروق الظاهرة .

وترى نفس القصة في استئثار سورة طه بحديث المؤانسة ، ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ** ... ﴾ لأن سياق السورة سياق ملاطفة ، من ذلك أيضا ما تراه في سياقة قصة مريم عليها السلام في مقصود التوحيد في آل عمران ، وسياقتها في مقصود وصف الله بشمول الرحمة في سورة مريم كما بيناه في موضعه ، هذا والموضوع واحد والحلقة واحدة ، وكذلك سياقة قصة زكريا عليه السلام في نفس الموضعين بتقديم وتأخير في الأسلوب ، ففي تعجبه من البشارة يقول في آل عمران : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ** ﴾ (٤٠) وقال في مريم : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا** ﴾ (٨) والقصة واحدة ، وغير ذلك واختصاص كثير من السور بحلقات من القصص أمر ظاهر جدا في الذكر الحكيم .

والمعين على استكشاف العلاقة أن تُرْصَدَ الفروق بكل دقة في الحلقة المذكورة في الموضع الآخر ، وأن يوازن بينها وبين نظيرتها في موضعها ، وأن يُجْتَهَدَ في تفسير هذه الفروق ، وقد تكون الحلقة من خصائص السورة وحينئذ يجتهد في تفسير اختصاصها بالسورة ، ولمح سيما بيان السورة فيها وحاجة المقصد الأصلي إليها ، لأن من سور الذكر الحكيم ما تشتمل القصص على أكثره كسورة الأعراف وهود مثلا ويوسف حتى يظن أن القصص هو مقصد السورة ، وليس كذلك ، وإنما هو سبيل البيان عنه ، وسلوك منهجي التحليل والموازنة معين على كشف الفروق ، وعند التحقق ترى كل ذلك متصلا بمطالع السور ، وتدبر استئثار سورة التوبة بغزوة حنين ، التي جاءت في سياق معاداة من أعرض عن الله ورسوله حتى لو كان المعادي أبا أو أخا أو ابنا ، وكان الإبقاء على وده طمعا في الاستكثار به رغبة مكتمة ، فجاءت قصة الغزوة كاشفة أنه لا عبرة بالكثرة ، ألا تذكرون يوم حنين إذ كنتم كذا وكذا ، تدبر كيف جاءت القصة موصولة بهذا الأمر القاطع في المطالع [(براءة) من الله ورسوله ...] وهكذا كما بيناه في مواضعه بكلام العلماء بفضل الله تعالى ومنه .

دور الموضوعات المشتركة :

تجد كثيرا من الموضوعات يتكرر ذكرها في سور الذكر الحكيم ، وهي حينئذ تكون سبيلا للبيان عن المقصود ، فلا يكون مقصدا للسورة ، وتجد ذلك ظاهرا في آيات الترغيب والترهيب والثواب والعقاب واليوم الآخر ، وتعداد نعم الله ، إلا أنك تجد هذه الوسائل جميعا لا تتفق اتفاقا تاما في المواضع التي تكررت فيها ، وإنما تتسم بسيما ما جرت في سياقه من المقاصد فمثلا وصف صحف الأعمال تجد في الحاقة قوله : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ**

أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ . . . وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴾ وتجد الحديث متقاربا معه في نفس الموضوع في الانشقاق ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا . . .﴾ وتجد الحديث عن صحف الأعمال في سورة المطففين بغير هذا الوجه ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ . . . كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾(١) وقد جاء متناسجا مع المطلع ومع مقصود السورة كما بيناه في موضعه والتراكيب وفروقها هي التي تكشف سيما بيان السورة وصلة الموضوع المشترك بسياقه ، تأمل مثلا قوله في سورة الحج في سياق الحث على التقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ فقد دل سياق السورة على أن الآية مسوقة

---

(١) راجع : الافتتاح بالدعاء في سورة المطففين من هذا البحث .



في الاستدلال على البعث كما بيناه في موضعه تدبرنفس الآية في سورة المؤمنون ، وقد جاء في سياق بيان ضعف الإنسان تناسقا مع الخشوع المذكور في المطلع والمعقب الفلاح ، وتقابلا مع الاستكبار المعقب الخسار في السورة قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ فكان الاستدلال للبعث غرضا ثانويا للآية هاهنا[1] والأمر كما يظهر واضح الفرق .

ويتبع في كل ذلك منهجا التحليل والموازنة ، وأرجو أن أكون قد وفقت في بيان ذلك في مواضعه من الدراسة ، وهو ظاهر جدا في التشبيهات المتنوعة فقد شبه وقوع الساعة في السرعة في موضعين ﴿ **وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ**﴾ في سورة القمر وقوله : ﴿ **وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** ﴾ في سورة النحل ، والثاني أقوى في الدلالة على السرعة من الأول ، وكل متناسب مع سياقه . فالنحل مفتتحة بـ ﴿ **أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ والقمر مفتتحة بقوله : ﴿ **ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ** ﴾ .

وكذلك تشبيهات انتشار الناس يوم القيامة ﴿ **كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ**﴾ في القمر تناسبا مع الافتتاح ، وفي القارعة ﴿ **كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ**﴾ تناسبا مع الافتتاح أيضا .

---

(١) راجع : في الافتتاح بالنداء سورة الحج ، وفي الافتتاح بالجملة الخبرية سورة المؤمنون من هذا البحث .

كذلك تشبيهات السماء عند قيام الساعة ترى الأنبياء استأثرت بقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ وهو متناسب مع ما تفردت به السورة من قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[1] وهو متناسب مع الافتتاح بقوله : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ...﴾.

دور مشتبه النظم :

وهو من المعالم المنادية على اختصاص كل سورة بغرض ، وهو حين وجوده أيضا معلم على تقارب غرضي السورتين تأمل مثلا في سورة آل عمران في قصة البشارة بالملائكة في غزوة بدر ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (١٢٦) وقال تعالى في سورة الأنفال في نفس البشارة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠) وقد جاءت بفروق في التراكيب ذكرناه في موضعها من الدراسة ، كان مجيئها في السورتين دالا على تقارب السياقين وقد ذكرنا أن مشتبه النظم ألمع إلى أن سورة الأنفال تجري في الرافد الثالث من مطلع آل عمران[2] (القيوم) لأن تراكيب آيها تتظاهر على بيان تبرؤ العباد من الحول والقوة ، وهو قريب مما يلمع إليه الإيمان بقيومية الله من التوكل ، وجاء في السورتين ما يعقد هذه الصلة بمشتبه النظم في قوله في آل عمران ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وقال في الأنفال : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن

(١) راجع : في الافتتاح بالجملة الخبرية سورة الأنبياء من هذا البحث .

(٢) راجع : في الافتتاح بالجملة الخبرية سورة الأنفال من هذا البحث .



قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٥٢) وقال أيضا : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾ (٥٤).

فتجيء دقائق التراكيب في مشتبه النظم متناسجة في السياق الجارية فيه ، وكشف ذلك التناسج يحتاج إلى اجتهاد وصبر .

دور الموضوعات الخاصة بالسورة :

وهي من المعالم المنادية على غرض السورة ، وتكون ألصق بالغرض من الموضوعات المشتركة ، لذا يجب الصبر على تأمل تراكيبها وموادها ، ترى مثلا سورة الأنفال تختص بالاستعارة التمثيلية في قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وتجد صداها في قوله : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ وهي وثيقة الصلة بغرض السورة الذي هو تبرؤ العباد من الحول والقوة .

وكذلك تتفرد سورة النحل بقوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وتجد صداها في قوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ وتجدها تتناغى مع بناء المثل في قوله : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وكل ذلك يتواصل مع قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ والسورة مسوقة لبيان تمام علم الله وقدرته ، وكل حرف في السورة الكريمة ينهض بخيط في البيان

عن هذا المقصد ، شأن سور الذكر الحكيم قاطبة ، وقد بيناه في مواضعه من الدراسة بفضل الله ومنه .

فلا غناء عن جمع المعاني الخاصة بالسورة ، وبيان صلتها بالمطالع وفق تراكيبها ، فمقصود سورة النساء مثلا المواصلة ، لذا ترى الحديث عن الميراث من ألصق آي السورة اتصالا بهذا الغرض ، وكذلك أحكام العدل مع النساء وكذا اختصاص السورة بِعَدِّ المحرمات من النساء إلى آخره ، من عقوبة آكل مال اليتيم ، وختم السورة بالحديث عن الميراث .

ويجاب في كل هذا عن سؤال : لماذا اختصت هـذه السورة بكـذا؟ وما صلة ما اختصت به بالمطلع؟

دور خاتمة السورة :

تأتي الخواتيم في سورالقرآن دائما ناظرة إلى المطالع ، وتنهض بعقد الصلة بين السورة السابقة والسورة اللاحقة ، وكثيرا ما يذكر العلماء عند خواتيم السور أنها كجملة واحدة ، المطلع طرفها الأول والخاتمة طرفها الثاني .

بل قد ذكر العلماء أن قوله تعالى في خاتمة سورة إبراهيم : ﴿ **هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ** . . . ﴾ معطوف على قوله فـي أول السـورة : ﴿ **لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** . . . ﴾ أول السورة .

وكثيرا ما تكون الخواتيم مترجمة عن المطالع تأمل مطلع سورة يوسف ﴿ **نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ** ﴾ وخاتمة السورة ﴿ **لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ** ﴾ وترى سورة



براءة قد ختمت بعين ما افتتحت به ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ ﴾ ، وذلك مؤذن بأن تراكيب السورة تجرى في سبيل واحد ، فلا غناء في تحديد المقصود واستكشاف علاقته بالمطلع من التأمل في خواتيم السور ، ولحظ الفروق في التراكيب إذا كانت الخاتمة متضمنة ما جاء في مطلع السورة الكريمة .

من ذلك أيضا ما جاء فيما ختمت به المائدة من قصة المائدة وفيه من العهد بين المسيح عليه السلام والنصارى ما يذكرنا بالمطلع : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ . . . ﴾ .

دور بيان النبوة :

بيان النبوة من الوسائل الخارجية في تحديد المقصود ، أو الكشف عن خصيصة للسورة ، كما ذكرناه في سورة الأنعام من بيانه ﷺ أن فيها دحض حجج المشركين ، ومن بيانه أيضا عند سورة الإخلاص (الله أحد الله الصمد) تعدل ثلث القرآن ، ولا أنفس من كلمته ﷺ في تسمية فاتحة الكتاب بأم القرآن ، والتي حددت مطلع كتاب الله وسَنَّتْ للعلماء طريقا لدراسة هذا الباب في الذكر الحكيم .

فلا مناص من استحضار بيان النبوة عند كل سورة بل عند كل آية فإنه وحي يفسر الوحى .

دور سبب النزول :

وهو أيضا من القرائن الخارجية الهادية إلى تحديد مقاصد السور لا سيما الأسباب المذكورة في مطالع السور ، كما جاء في صدر سورة الأنفال فيما حكى من تنازع المسلمين في الغنائم ، وغيره من المواضع ،



فــلا مناص مــن الإحاطة بــه فــي مواضعه لتنوير ما استغلق من المعاني لا سيما عند مطالع السور .

هذا والذي توصي به هذه الدراسة أن يكون المنهج حين استكشاف العلاقات في سور القرآن على ما يلي من هذه الخطوات :

(موقـع السـورة في الكتـاب العزيـز ـ المقصـد ـ المطلـع) (مقـداره ـ مفرداته ـ أحوال تراكيبه) عناصر البيـان عـن المقصـد وصـلتها بـالمطلع ، ويقصد بهذه الخطوة تحليل آيات السورة التي تجتمع تحت عنوان واحـد ، ويحاول الكشف عن علاقتها بالمطلع في ضوء ما مضى بيانه والله أعلم .

*   *   *

الخاتمة

بعد هذا التطواف في الكتاب العزيز يمكن إجمال أهم نتائج البحث فيما يلي :

أولا : الباب الخامس من أهم النتائج التي انتهى إليها البحث .

ثانيا : أن مقصود كل سورة يظهر في تسميتها وهو هاد إلى تناسبها .

ثالثا : أن مقصود كل سورة يجمله مطلعها ، وتأتي عناصر السورة شرحا وتفصيلا له في الغالب ، وقد يكون المطلع واقعا موقع العلة لمقصد السورة وعناصرها .

رابعا : أن مشتبه النظم معلم دال على مقصد السورة مؤذن بتقارب مقصود السورة الوارد فيها ، مع مقصد السورة الأخرى .

خامسا : أن معاني النحو في السورة تشير إليها معاني النحو في المطلع .

سادسا : أن استكشاف العلاقة بين مطلع السورة ومقصدها هو السبيل إلى الكشف عن الروح البيانية للسورة والتي حام القدماء حولها ، وقامت في أذهانهم دون أن تشرحها كتبهم .

سابعا : أكد هذا البحث على ما ذهب إليه جماعة من أهل العلم من وحدة الغرض في السورة بالدرس البلاغي .

ثامنا : أكد هذا البحث على ما ذهب إليه جمهور العلماء من أن السورة مناط التحدي .

تاسعا : أن النبي ﷺ مؤسس درس براعة الاستهلال على أوسع نطاق وأحكمه .

عاشرا : أن القرآن الكريم كله كسورة واحدة الفاتحة مطلعه التي تجمل مقاصده ، والمعوذتان خاتمته .



حادى عشر : التجاور في سور القرآن الكريم يشير إلى التقارب في مقاصدها .

ثاني عشر :أن براعة الاستهلال من أوسع الفنون ـ دلالة على معاقد الكلام.

ثالث عشر : أن الموضوعات المتكررة في السور من قصص النبيين وغيرها ، عناصر في البيان عن المقاصد ، وليست مقصدا تسعى سورة بتراكيبها إليه .

رابع عشر : أن المطالع الورادة على أسلوب الشرط والقسم ، أظهر علاقة بمقصودها من المطالع الأخرى ، ومع ذلك فهي تشكل قدرا قليلا من الكتاب العزيز وكأنها إشارة إلى وجود العلاقات في المطالع الأخرى .

خامس عشر : أكد البحث على ما ذهب إليه جماعة من أهل العلم من أن ترتيب السور كترتيب الآي بتوقيف من الله عز وجل .

سادس عشر : أكد البحث على ما ذهب إليه جماعة من العلماء من أن أسماء السور بتوقيف من الله عز وجل .

سابع عشر : أن حقل الدراسات القرآنية أوسع في تناول براعة الاستهلال من حقل الشعر فيما رأيت . وتوصي هذه الدراسة بكثرة المراجعة في هذا الباب وبحسبها أنها حاولت فتح هذا الباب ، كما توصي بتناول هذا الباب في أشعار الجاهليين ومحاولة استكشاف العلاقة بين مطالع القصائد وموضوعاتها ، فإن دراسة هذا الباب تفض كثيرا من مشكلات قضايا الشعر الجاهلي لا سيما الطعن عليه من بعض المعاصرين بالتفكك .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من ختمت به أكمل الرسالات .

* * *

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم :

١- الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ، مصطفى الحلبى ١٣٩٨هـ.
٢- الإشارات والتنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، نهضة مصر .
٣- الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب ، النهضة المصرية ، ١٣٩٦هـ .
٤- أسس النقد الأدبي دكتور أحمد بدوى .
٥- أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم دكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ (رسالة ماجستير)
٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود بهامش مفاتيح الغيب .
٧- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للعلامة مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
٨- إعجاز القرآن للباقلاني للأستاذ السيد صقر ، دار المعارف .
٩- إعجاز القرآن دكتور السيد الحكيم ، ١٣٩٨هـ .
١٠- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره دكتور محمد القاسم ، دار المطبوعات الدولية ١٣٩٩هـ .
١١- الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق الدكتورة عائشة عبد الرحمن،دار المعارف.
١٢- أسباب النزول للواحدي النيسابوري ، مكتبة المتنبي القاهرة .
١٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي ، مصطفى الحلبي ١٣٨٨هـ .
١٤- أهداف كل سورة ومقاصدها الدكتور عبد الله شحاته ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦م .
١٥- أنوار الربيع للشيخ محمود العالم المنزلي ، التقدم العلمية ١٣٢٢هـ .
١٦- الإيضاح للخطيب القزويني ، مكتبة صبيح ١٤٠٢هـ .



١٧- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير بهامش الكشاف ، مصطفى الحلبي ١٣٩٢هـ .
١٨- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم دكتور صباح عبيد دراز ، مكتبة وهبة ١٤٣٦هـ .
١٩- إملاء ما من به الرحمن في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري بهامش الفتوحات الإلهية ، عيسى الحلبي .
٢٠- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني دكتور محمود توفيق ، مطبعة الأمانة ١٤١٢هـ .
٢١- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلة لتراث أهل العلم الدكتور محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ١٤٠٥هـ .
٢٢- أمثال سورة النور الدكتور محمد أبو موسى ، بحث بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة عدد ١٤١٠هـ .
٢٣- البيان والتبيين للجاحظ ، المكتبة العلمية بيروت .
٢٤- البديع لابن المعتز تحقيق إغناطيوس كراتشفوفسكي ، ط . ثانية بغداد ١٣٣٩هـ .
٢٥- بديع القرآن لابن أبي الأصبع تحقيق الدكتور حفنى شرف ، نهضة مصر ط . أولى ١٣٧٧هـ .
٢٦- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة صبيح ١٣٩٢هـ .
٢٧- بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث دكتور يوسف حسين بكار دار الأندلس بيروت ط . ثانية .
٢٨- براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور دكتور محمد بدرى عبد الجليل الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الأسكندرية .
٢٩- البديع لأسامة بن منقذ تحقيق الدكتور أحمد بدوى ، الدكتور حامد عبد المجيد والأستاذ إبراهيم مصطفى ، مصطفى الحلبي ١٣٨٠هـ .
٣٠- البحر المحيط لأبي حيان دار الفكر بيروت ط . ثانية ١٣٩٨هـ .

٣١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروزابادي ، بيروت ١٤٠١هـ .
٣٢- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لتاج القراء الكرماني تحقيق الدكتور عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ط . ثانية ١٣٩٨هـ .
٣٣- البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي ، تحقيق دكتور سعيد الفلاح ، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠٨هـ .
٣٤- البيان القرآني دكتور محمد رجب البيومي مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ .
٣٥- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية دكتور محمد محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة ط . ثانية ١٤٠٨هـ .
٣٦- البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث .
٣٧- تحرير التحبير لابن أبي الأصبع تحقيق الدكتور حفني شرف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣هـ .
٣٨- التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ، مكتبة المتنبي القاهرة .
٣٩- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، الدار التونسية ١٩٨٤هـ .
٤٠- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، عيسى الحلبي .
٤١- تفسير المنار للإمام محمد عبده ، المنار ط . ثالثة ١٣٦٧هـ .
٤٢- التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي .
٤٣- تفسير المراغي ، الشيخ أحمد مصطفي المراغي ، مصطفى الحلبي ١٣٨٢هـ .
٤٤- من هدي القرآن تفسير بلاغي لسورة «المؤمنون» دكتور بسيوني فيود ، مطبعة السعادة ١٤٠٩هـ .
٤٥- تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام .
٤٦- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان دكتور محمد محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة ط . ثانية ١٤٠٠هـ .

٤٧- التعريض في القرآن الكريم دكتور إبراهيم الخولي ، دار المعارف ط . أولى ١٤٠٥هـ .
٤٨- التفسير ورجاله للعلامة محمد الفاضل بن عاشور ، مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٠هـ .
٤٩- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ، مكتبة المتنبي القاهرة .
٥٠- التفسير البياني للقرآن الكريم جزآن الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ط . خامسة ١٩٧٧م .
٥١- جامع البيان للطبري ، دار الريان ١٤٠٧هـ .
٥٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، دار الغد العربى ط . ثالثة .
٥٣- جزء عم تفسير الإمام محمد عبده ، دار الشعب ط . ثانية .
٥٤- حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون للشيخ أحمد الدمنهوري بهامش شرح عقود الجمان ، مصطفى الحلبي ١٣٥٨هـ .
٥٥- حسن الصنيع في المعاني والبيان للشيخ محمد البسيوني البيباني ، التقدم العلمية ١٣٢٢هـ .
٥٦- الحروف المتقطعة في أوائل السور القرآنية دكتور محمد أبوفراج ، دار المنهل جدة .
٥٧- حاشية السيد الشريف على الكشاف بهامش الكشاف ، مصطفى الحلبي ١٣٩٢هـ .
٥٨- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، دار الفكر بيروت ١٣٩٧هـ .
٥٩- حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي ، المكتبة الإسلامية ، تركيا .
٦٠- حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي ط . بولاق .
٦١- حاشية الدسوقي على مختصر شروح تلخيص المفتاح مطبعة السعادة سنة ١٣٤٢هـ .
٦٢- حاشية السندي على شرح صحيح البخاري ، عيسى الحلبي .
٦٣- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية دكتور عبد العظيم المطعنى ، مكتبة وهبة القاهرة .

٦٤- الدرر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي .
٦٥- دلالات التراكيب دراسة بلاغية دكتور محمد محمد أبوموسى ، مكتبة وهبة ، ط . ثانية ١٤٠٨هـ .
٦٦- دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي .
٦٧- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين دراسة منهجية تحليلية دكتور محمود توفيق ، مكتبة وهبة ١٤٣٨هـ .
٦٨- الرسالة للإمام الشافعي تحقيق محمد كيلاني ، مصطفى الحلبي ١٤٠٣هـ .
٦٩- روح المعاني في القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ، دار إحياء التراث بيروت .
٧٠- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ .
٧١- شرح عقود الجمان للسيوطي ، مصطفى الحلبي ١٣٥٨هـ .
٧٢- الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه دكتور محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر .
٧٣- شعب الإيمان للبيهقى تحقيق محمد السعيد بسيوني ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ .
٧٤- صحيح البخاري ، مصطفى الحلبي .
٧٥- الصناعتين لأبي هلال العسكري ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤هـ .
٧٦- الصبغ البديعي في اللغة العربية دكتور أحمد موسى ، دار الكتاب العربي ١٣٨٨هـ .
٧٧- الصورة البيانية في معلقة الأعشى (مابكاء الكبير بالأطلال . . . الأستاذ الدكتور محمد محمد أبوموسى بحث نشر بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد السابع سنة ١٤٠٩هـ ، نشر بعد في كتاب دراسة في البلاغة والشعر ، مكتبة وهبة .
٧٨- الطراز المتضمن علوم البلاغة وحقائق الإعجاز للعلوي ، ط . المقتطف بمصر ١٣٣٢هـ .



٧٩- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي تحقيق دكتور محمد زغلول سلام ، ودكتور طه الحاجرى ، المكتبة التجارية ١٩٥٦م .

٨٠- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ط . خامسة ١٤٠١هـ .

٨١- عروس الأفراح للبهاء السبكي ضمن شروح التلخيص مطبعة السعادة ط . ثانية ١٤٣٢هـ .

٨٢- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري بهامش جامع البيان ، الريان ١٤٠٧هـ .

٨٣- الفوائد المنسوب لابن القيم ، مكتبة المتنبي القاهرة .

٨٤- الفتوحات الإلهية للشيخ سليمان الجمل ، عيسى الحلبي .

٨٥- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، دار الشروق القاهرة ط . الثانية عشرة ١٤٠٦هـ.

٨٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، الريان ١٤٠٧هـ .

٨٧- فقه بيان النبوة منهجا وحركة دكتور محمود توفيق ، مكتبة وهبة ١٤١٣هـ .

٨٨- فتح البيان في مقاصد القرآن للعلامة محمد صديق خان ، دار الفكر العربي القاهرة .

٨٩- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي القاهرة .

٩٠- الكتاب لسيبويه تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ط . ثالثة ، ١٤٠٨هـ .

٩١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري ، الحلبي ١٣٩٢هـ .

٩٢- المثل السائر لابن الأثير تحقيق الدكتور أحمد الحوفي ، الدكتور بدوي طبانة ، نهضة مصر ط . ثانية .

٩٣- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي تونس .

٩٤- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ، مطبعة السعادة ١٣٤٢هـ .
٩٥- المطول لسعد الدين التفتازاني ط . تركيا .
٩٦- مطلع القصيدة العربية ودلالالته النفسية دكتور عبد الحليم حفني ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧م .
٩٧- معلقة زهير في ضوء نظرية النظم دكتور أحمد محمد علي ، دار الحديث .
٩٨- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، مصطفى الحلبي ١٣٨١هـ .
٩٩- مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، دار الغد العربي .
١٠٠- الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي تحقيق الشيخ عبد الله دراز ، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة .
١٠١- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعى تحقيق الدكتور عبد السميع حسنين ، مكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٨هـ .
١٠٢- المدخل إلى القرآن الكريم دكتور محمد عبد الله دراز ، دار القرآن الكريم ، ودار القلم بيروت ١٣٩١هـ .
١٠٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الغرناطي تحقيق الأستاذ أحمد صادق الملاح ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٤هـ .
١٠٤- محاسن التأويل للقاسمي تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، عيسى الحلبي ١٣٧٦هـ .
١٠٥- معالم التنزيل للبغوي تحقيق خالد عبد الرحيم ، دار المعرفة بيروت ١٤٠٦هـ .
١٠٦- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ، دار الفكر بيروت ١٣٧٧هـ .
١٠٧- المصباح في علوم البلاغة لبدر الدين بن مالك ط . أولى ١٣٤١هـ .
١٠٨- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي دكتور حسين عطوة، دار المعارف.
١٠٩- مسائل الرازي وأجوبتها لزين الدين الرازي ، مجلة الأزهر ١٤١٠هـ .
١١٠- من بلاغة القرآن دكتور أحمد بدوي ، نهضة مصر .

١١١- مع بلاغة القرآن تفسير سورتي (الأنفال والفرقان) دكتور عبد الحميد العبيسي ، عيسى الحلبي ١٩٧٤م .
١١٢- ملاك التأويل لابن الزبير الثقفي الغرناطي تحقيق دكتور سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامى تونس .
١١٣- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت .
١١٤- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم دكتور محمد الأمين الخضري ، مكتبة وهبة ١٤٠٩هـ .
١١٥- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبد الرحيم العباسى تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ١٣٦٧هـ .
١١٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ، طبعة الهند ١٣٨٩هـ .
١١٧- النثر الفني دكتور زكى مبارك ، دار الكتاب العربي بالقاهرة .
١١٨- النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب القاهرة .
١١٩- النبأ العظيم دكتور محمد عبد الله دراز ، دار القلم ١٣٩٧هـ .
١٢٠- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي تحقيق أحمد حجازي السقا ، المكتب الثقافى بيروت ١٩٨٩م .
١٢١- نظرات في فاتحة الكتاب مقال للعلامة محمد عبد الله دراز ، مجلة المجلة ١٩٥٧م .
١٢٢- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى الحلبي .
١٢٣- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم دكتور محمد محمود حجازي .

المعاجم

١- أساس البلاغة للزمخشري تحقيق عبد الرحيم محمود دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ .
٢- لسان العرب لابن منظور ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين دار المعارف .

٣- المصباح المنير للعلامة أحمد الفيومي المكتبة العلمية بيروت .
٤- المعجم الوسيط وضع لجنة من أعضاء مجمع اللغة العربية .
٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الريان .

المخطوطات

١- البناء اللغوي في معلقة الأعشى (مابكاء الكبير . . .) الأستاذ الدكتور محمد محمد أبوموسى بحث نشر بعد في كتاب دراسة في البلاغة والشعر مكتبة وهبة.
٢- التبيان للطيبى تحقيق الدكتور عبد الستار زموط رسالة دكتوراه ـ كلية اللغة العربية القاهرة رقم ١١٦٨ .
٣- الخصائص البلاغية في سورة يوسف ماجستير للباحث محمود حسنين مخلوف ـ كلية اللغة العربية بالقاهرة .
٤- طرفا التشبيه القرآني بين السياق والدلالة للباحث محمود محمود حسنين مخلوف رسالة دكتوراه ـ بكلية اللغة العربية بالقاهرة .
٥- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب حاشية الطيبي على الكشاف الجزء الأول تحقيق الباحث جميل محمد الحسين رسالة دكتوراه ـ بكلية اللغة العربية بالقاهرة رقم ٢٢٤٩ .

فهرس الموضوعات

الباب الثانى

(علاقة المطالع بالمقاصد في السور المفتتحة بحروف التهجى)

(٨٣-٢٦٠)

الباب الثالث

(السور المفتتحة بالجملة الخبرية وعلاقاتها بمقاصدها)

(٢٦١-٥٣٢)

الفصل الأول

الافتتاح بالجملة الخبرية لفظا ومعنى

(٢٦٣-٣٧٢)



الباب الرابع

السور المفتتحة بالجملة الإنشائية وعلاقاتها بمقاصدها

(٦٥٠-٥٣٣)

الفصل الأول

(الافتتاح بالنداء)

(٥٨٤-٥٣٥)

الفصل الثانى

(الافتتاح بالأمر)

(٦١٥-٥٨٥)

الفصل الثالث

الافتتاح بالاستفهام في سورة الماعون

(٦٣٣-٦١٧)

الفصل الرابع

الافتتاح بالقسم في سورة والعاديات

(٦٥٠-٦٣٥)

الباب الخامس

(علاقة المطالع بالمقاصد ـ دراسة نظرية)

(٦٥١-٦٧٨)

الفصل الأول

المطلع

(٦٥٣-٦٦١)

الفصل الثانى

المقصد

(٦٦٣-٦٧٨)